تفسير القرآن الحكيم

الشهير بتفسير المنار

هذا هو التفسير الوحيد الذي فسر به القرآن من حيث هو هداية عامة للبشر ورحمة للعالمين وجامع لأصول العمران وسنن الاجتماع وموافق لمصلحة الناس في كل زمان ومكان بانطباق عقائده على العقل وآدابه على الفطرة وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح . وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الازهر

حكيم الاسلام ، وعلم الأعلام

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

الجزء التاسع

أوله (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) وقد بدىء بنشره في أول المجلد ٢٥ من المنار (سنة ١٣٤٢)

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

منشئ المنار

رحمه الله ورضى عنه

(الطبعة الثانية — أصدرتها دار المنار بمصر ١٣٦٧ هـ)

الجزء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

(٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا . رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَتِحِينَ

هذه الآيات وما بعدها تتمة قصة شعيب عليه السلام . مبدوءة بجواب قومه له عما أمرهم به من البر ونهاهم عنه من المنكرات والآثام ، وأنذرهم إياه من الانتقام ، بقوله (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) ورد بأسلوب الاستئناف البياني كأمثاله من مراجعة الكلام وتولاه الملأ منهم أي كبراء رجالهم كدأب الجماعات والأقوام ، وهو :

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ أي قال أشراف قومه وأكابرهم الذين استكبروا عن الايمان له وعتوا عما أمرهم به ونهاهم عنه اتباعا لأهوائهم — وقد استضعفوه — نقسم لنخرجنك ياشعيب انت والذين آمنوا معك من قريتنا الجامعة أومن بلادنا كلها — فلفظ القرية والبلد يطلق أحيانا على القطر أو المملكة — أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما ندين به من تقاليدنا الموروثة

عن آبائنا فتكون ملة لكم ومحيطة بكم معنا. ضمن العود معنى الظرفية ، وهو يتعدى باللام والى وفى ومنه (١٧ : ٦٩ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى) يعنى البحر إذ الخطاب قبله لمن مسهم الضر فيه وليس فيه من معنى الظرفية ما فى قوله (٢٠ : ٥٤ منها خلقناكم وفيها نعيدكم) يعنى الأرض والمعنى نقسم ليكونن أحد هذين الأمرين : إخراجكم أو عودتكم فى الملة . فاختاروا لأنفسكم ، قيل إن التعبير بالعود يقتضى أنهم كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها وهو يصدق بالمجموع فلا ينافى القول بعصمة الأنبياء من الكفر حتى قبل النبوة ، على أن شعيباً عليه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة أخرى غير ملة قومه فيمنعهم ذلك من التعبير فى شأنه بالعودة ، وكونه لم يشاركهم فى شركهم ولا فى بخس الناس أشياءهم وهضم حقوقهم أمر سلبي لا يلتفت اليه جمهورهم ، ولا يعدونه به خارجا عنهم ، وقال الراغب : العود الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه إما انصرافا بالذات أو بالقول والعزيمة اهـ ومنه ذمه والدعوة إلى غيره ولا يقتضى هذا المعنى سبق الكون فيه ولا عدمه ، فلا حاجة إذن إلى تصحيح التعبير بما قيل من تفسير العود بالمصير ، وفيه من التكلف ما ليس فى القول بالتغليب ، ولا سيما فى جوابه عليه السلام .

﴿ قال أو لو كنا كارهين ؟ ﴾ يعنى أنعود فى ملتكم على كل حال من الأحوال حتى حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها وما يترتب عليها من الفساد فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ؟ فالاستفهام للانكار و «لو» للغاية ، أو أتأمروننا أن نعود فيها وتهددوننا بالنفى من وطننا والاخراج من ديارنا إن لم نفعل ولو كنا كارهين لكل من الأمرين ؟ — على الأصل فيما يحذف متعلقه ، وهو أن يتناول كل ما يصلح له ، فالاستفهام للتعجب من صنيعهم واستنكار طلبهم ورفضه بدون مبالاة ، ووجه كل من الانكار والتعجب جهل هؤلاء الملأ بكنه الدين والملة ، وكونه عقيدة يدان الله بها ، وأعمالا يتقرب اليه بأدائها وإن كان غنيا عنها ، وإنما شرعها لتكميل الفطرة البشرية بالتزامها وجهلهم بكون حب الوطن ، وإلف السكن ، لا يبلغ هذه المنزلة ، ولجهلهم هذا ظنوا أن شعيبا عليه السلام قد يؤثر هو ومن آمن معه التمتع بالاقامة فى وطنه ومجاراة أهله فى كفرهم ورذائلهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد المطهر للنفس من أدران الخرافات ، وبالفضائل المرقية للنفس فى معارج الكمال ذلك بأن الملة عند أولئك الملأ الخاسرين رابطة تقليدية . وعصبية قومية ، يجرى أصحابها فيها على قول الشاعر :

وهل انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

وملة الرسل عليهم السلام ليست كذلك بل هى دين مالك للنفس، حاكم على الوجدان والعقل ، يقصد به الكمال البشرى الأعلى بمعرفة الله تعالى والقرب منه، ومايتبع ذلك من صلاح الدنيا وسعادة الآخرة ، فان تمكن صاحبه من إقامته فى وطنه واصلاح أهله به فهم أحق به بدءاً ودواماً، وان منع فيه حريته ففتن فى دينه كان تركه واجباً، فان لم يخرج منه شعيب ومن آمن معه إخراجاً وهم كارهون كما أخرج خاتم النبيين مع السابقين الأولين إلى الإسلام ، خرجوا مهاجرين كما فعل ابراهيم عليه الصلاة والسلام، (٢٩ : ٢٥ وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم) وقد أوجب الله تعالى الهجرة على من يستضعف فى أرض وطنه فيمنع من إقامة دينه فيها ، و يوجب المتعصبون للاوطان فى هذا العصر الهجرة منها إذا منعوا حريتهم الشخصية فيما هو دون الدين والوجدان، بل يعز على بعضهم أن يقيم فى وطنه إذا منع فيه حرية الفسق والآثام، ورب أناس عز عليهم ترك وطنهم، فآثروا البقاء فيه مفتونين فى دينهم، فأظهروا الكفر ليأمنوا على حياتهم ، وظلوا يسرون المحافظة على الإسلام فى خاصة أنفسهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من تلقينه لأولادهم وتربيتهم عليه فارتدت ذريتهم عنه فى زمنهم أو من بعدهم ، كما وقع لبعض مسلمى الأندلس بعد ثل الأسبانيين لعرش دولتهم العربية و إكراههم على التنصر أو الخروج من البلاد فخرج بعض و بقى آخرون تحت وعيد قوله تعالى (٤ : ٩٦ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ـ قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً (٩٧) إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨) فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً)

وقد قدر بعض المفسرين الفعل المحذوف من الجملة ومتعلق الكراهة هكذا : قال أتخرجوننا من وطننا بغير ذنب يقتضى الاخراج ولو كنا كارهين لمفارقته حريصين على الإقامة فيه ؟ وهو تخصيص لاوجه له ، فاللفظ يقتضى تقدير كراهة كل من الأمرين لحذف متعلق الكراهة والمقام يجوز تخصيصه بالعود فى ملتهم لأنه الأهم عند الأنبياء ، والمناسب لبقية جوابه عليه السلام :

﴿ قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾

هذا كلام مستأنف لبيان أهم الأمرين وأولاهما بالرفض والكراهة وهو انشاء فى لفظ الخبر فاما أن يكون تأكيدا قسمياً لرفض دعوة الملأ إياهم إلى العود فى ملتهم كما يقول القائل : برئت من الذمة أو من دينى أو من رحمة الله تعالى ان فعلت كذا فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه فى التوكيد - وإما أن يكون تعجباً خرج لا على مقتضى الظاهر وأكد بقد والفعل الماضى ، والمعنى ما أعظم افتراءنا على الله تعالى ان عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم ، بالحنيفية ملة إبراهيم ، و إذا كان من يتبع ملتكم يعد مفترياً على الله تعالى بقوله عليه مالا يعلم ، لا بهداية من الوحى ولا برهان من العقل ؟ فكيف يكون حال من افترى عليه وضل عن صراطه على علم ؟ وان كفر الجحود وهو إنكار الحق وغمطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر ، والافتراء على الله تعالى فيه أفظع ضروب الافتراء التى لا يقبل فيها أدنى عذر ؟

وأنت ترى أن التنجية أدل من العود على إثبات أنهم كانوا على ملة قومهم حقيقة . وقد علمت أن المفسرين يجعلونه تغليبا لاستثنائه عليه السلام . ونقول بناء على ما قررناه من أن عدهم إياه من أهـل ملتهم لا يقتضى أنه كان يعبد ما يعبدون ، و يفعل من التطفيف و بخس الناس أشياءهم ما كانوا يفعلون : إنه يصح أن يشمله إنجاء الله تعالى إياه منها بمعنى انجائه من الانتماء إلى ملة ما كان يؤمن بعقيدتها ، ولا يعمل عمل أهلها ، ولا كان يهتدى بعقله ورأيه إلى ملة خير منها ، فـكان موقفه موقف الحيرة فى شأنها ، كما يؤخذ من قوله تعـالى فى خطاب النبى الخاتم الأعظم ، ﷺ (ووجدك ضالا فهدى) وتفسيره بقوله . (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الـكتاب ولا الإيمان ولـكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) الآية

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ هذا رفض آخر للعود فى ملتهم مؤكـد أبلغ التأكيد معطوف على مناسـبه ، والتعبير يدل على نفى الشـأن ، وهو أبلغ من نفى الفعل ، لأنه نفى له بالدليل وهو كونه غير مسـتطاع ، ولا جار على سنن الله فى الاجتماع ، والمعنى ليس من شأننا أن نعود فيها فى حال من الأحوال إلا حال مشـيئة الله ربنا ، المتصرف فى جميع شؤوننا ، فهو وحده القادر على ذلك لا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن أيضا ، لأننا موقنون بأن ملتكم

باطلة ضارة مفسدة ، وملتنا هى الحق ، التى بها صلاح الناس وعمران الأرض، والموقن لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره ، و إنما ذلك بيد مقلّب القلوب سبحانه ورهن مشيئته ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ فعنده من العلم بأسباب الإيمان والكفر والهدى والضلال والصلاح والفساد ماليس عندكم ولا عند أحد من الخلق ، ومشيئته تجرى بحسب علمه وحكمته فى خلقه ومما كان يعلمه عليه السلام من حكمته تعالى وسننه فى خلقه أنه يقيم حجته بأهل الحق على أهل الباطل و ينصرهم عليهم بالقول والفعل ماداموا ناصرين له وقائمين بما هداهم اليه منه ، فكأنه يقول لهم . إذا كان الأمر كذلك فلا تطمعوا إذاً أن يشاء ربنا الحق بنا عودتنا فى ملتكم بعد إذ نجانا بفضله منها وأقام الحجة عليكم بنا ، وما كان تعالى ليدحض حجته ، و يبطل سنته

فهذا الاستثناء موئس الملأ من قوم شعيب من عودته عليه السلام مع من آمن معه فى ملتهم ، لأنه بعد أن نفى وقوع العود منهم باختيارهم نفياً مؤكداً بأنه ليس من شأنهم ولا مما يجيء من قبلهم فى حال ما من الأحوال التى تطرأ عليهم كالترغيب والترهيب والرجاء فى المنافع والخوف من المضار ، ومنها الاخراج من الديار واستثنى حالا واحدة وهى مشيئة الله تعالى وحده ، فدل على عموم النفى فيما عدا المستثنى وقد يستعمل لتوكيده من غير ملاحظة لتعلق المشيئة هل هو ممكن يجوز أن يقع أم لا ، كقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله) أو للتنبيه على النفى بكرم الله وفضله لا بالإيجاب عليه وهو الوجه الذى اختاره شيخنا رحمه الله تعالى فى تفسير سورة الأعلى . ولا يخل بتوكيد عموم النفى جواز تعلق المشيئة بالمنفى فى كلام شعيب عليه السلام والقرائن اللفظية والمعنوية تدل على عدم وقوع هذا الجائز وهو انه تعالى لا يشاء عودته مع من آمن معه فى ملة قومهم . فهو قد قرر أن هذا شيء لا يقدر عليه إلا الله تعالى فطلبه من غيره عبث ، يؤكده ذكر الرب مضافا إلى ضمير المتكلم ومن معه فأفاد بدلالة الالتزام أو الاقتضاء أنه لا يشاء لهم إلا ما عودهم بحسن تربيته إياهم ولطفه وعنايته بهم إذ أنجاهم من تلك الملة الباطلة ، وهو تأييد عصمة رسولهم وحفظ جماعتهم من العود فيها ، فكان هذا بمعنى قول عبد أمين أراد أن يغويه بعض المغوين ويغريه بخيانة سيده الخفى به وصرف بعض ماله فيما يضره هو ويفسد عليه نفسه . ليس هذا من شأنى ولا مما يدخل فى تصرفى إلا أن يشاء سيدى الصالح المصلح المعتنى بشأنى . وهو أعلم منى بأمرى . فالتعبير ليس مسوقا

لتقرير حجة الأشاعرة على جواز مشيئة الله لكفرهم بالفعل ، ولا حجة المعتزلة على وجوب رعاية الصلاح والأصلح لهم ولغيرهم بالعقل ، ولكنه يدل بطريق الالتزام على ماذكرنا من عناية الرب سبحانه وتعالى برسله وأتباعهم المستقيمين على دينهم ومضى سنته ووعده بتأييدهم ، المصرح به فى آيات أخرى كقوله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وقوله (ولقد سقبت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * و إن جندنا لهم الغالبون) فهو لن يشاء كفرهم بالفعل ، بل يختار لهم الأصلح بحكمته وفضله لا بإيجاب العقل .

وقد روى ابن جرير وغيره عن السدى أنه قال فى الآية : وما كان ينبغى لنا أن نعود فى شرككم بعد إذ نجانا الله إلا أن يشاء الله ربنا والله لا يشاء الشرك ولكن يقول إلا أن يكون الله قد علم شيئا فانه وسع كل شىء علما اه ولعله يريد أنه لا يشاء ذلك لأنه مخالف لسننه الحكيمة وفضله العظيم على رسله ومن آمن بهم و إن كان لا يقع من أهل الشقاء بسوء اختيارهم إلا بإرادته ومقتضى سنته ، وسننه فى الفريقين مختلفة كما شرحناه مرارا

وقد سبق مثل هذا الاستثناء فى سورة الانعام ، حكاية عن ابراهيم الخليل ﷺ إذ قال لقومه (٦ : ٨١ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون) وقد اخترنا هنالك أنه استثناء من عموم الأوقات وأنه منقطع معناه: لكن إن شاء ربى أن يصيبنى فى وقت من الأوقات مكروه من قبل ما تشركون به كوقوع صنم على يشجنى ، فانه يقع بقدرته تنفيذاً لمشيئته ، لا بقدرة شركائكم . ولا بمشيئتهم لأنهم لا قدرة لهم ولا مشيئة ، ثم علل ذلك بمثل ما علله به بعده شعيب عليهما الصلاة والسلام وعلى نبينا وآله فقال (وسع ربى كل شىء علما) أى ومعبوداتكم لا تعلم شيئا . الخ واخترنا هنا جعل الاستثناء من أعم الأحوال لا الأوقات و إن جاز الجمع بينهما ، لأن الوقت لا شأن له هنا ، على أن عموم الأحوال يستلزم عموم الأوقات

ثم أكد ﷺ ذلك كله بقوله ﴿ على الله توكلنا ﴾ أى اليه وحده وكلنا أمرنا مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من المحافظة على الدين الذى شرعه لنا ، فهو يكفينا أمر تهديدكم ، وكل مالم يجعله فى استطاعتنا من جهادكم . وذلك أن من أصول المعرفة بالله عز وجل التى يعرفها جميع رسله أن من توكل عليه كفاه (ومن يتوكل على الله

فهو حسبه) وإن من شروط التوكل الصحيح فى الامر القيام بكل ماأوجبه الله تعالى فيه من الأحكام الشرعية ، ومراعاة ما اقتضته حكمته فيه من الأسباب والسنن الكونية والاجتماعية . فمن يترك العمل بالاسباب فهو جاهل مغرور ، لامتوكل منصور ولا مأجور وقال النبي ﷺ لمن سأله أيترك ناقته سائبة و يتوكل على الله تعالى « اعقلها وتوكل » رواه الترمذى وقال تعالى لرسوله بعد أمره بمشاورة أصحابه فى غزوة أحد (فاذا عزمت فتوكل على الله) و إنما يكون العزم بعد الاخذ بالاسباب ومنها مظاهرته ﷺ يومئذ بلبس درعين. وقد بينا ذلك مفصلا فى مواضع من هذا التفسير [1]

والخلاصة أنه ﷺ بدأ جوابه الملأ من قومه بالتعجب من تهديدهم و إنذارهم و إقامة الأدلة الدينية والعقلية على امتناع عودهم إلى ملة الكفر باختيارهم . وعـدم استطاعة أحد على إجبارهم عليه غير الله تعالى الفعال لما يريد والاستدلال على أن هذا مما لا يريده ــ وثنى ببيان توكلهم على الله تعالى الذى يكفى من توكل عليه ما أهمه وهو فوق كسبه واختياره ، فتجتمع له العناية الكسبية والوهبية ــ ثم ثلث بالدعاء الذى لا يكون شرعيا مرجو الاجابة إلا بعد القيام بما فى الطاقة من العمل الكسبى. والتوكل القلبى فقال

﴿ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ المعنى لمادة (الفتح) كما حققه الراغب إزالة الإغلاق والاشكال ، وهو ضربان (أحدهما) مايدرك بالبصر كفتح العين والقفل والغلق والمتاع من صندوق وغرارة وخرج وعلبة و (الثانى) هو مايدرك بالبصيرة كفتح أبواب الرزق ، والمغلق من مسائل العلم ، والمبهم من قضايا الحكم والنصر فى وقائع الحرب ، وفى آيات القرآن استعمالات من الضربين كليهما ولك أن تقسمه إلى حسى ومعنوى ــ ومن الاول الفتح الذى يكون بالكلام كحكم القاضى وفتح المأموم على الإمام فى الصلاة وهو أن يقرأ الآية التى أخطأ فيها أو وقف عن القراءة ناسيا لما بقى منها ــ و إلى حقيقى ومجازى ومن مجاز الاساس : فتح على فلان إذا جد وأقبلت عليه الدنيا ، وفتح الله عليه ــ نصره. وفتح الحاكم بينهم ، وما أحسن فتاحته أى حكمه ، قال

(١) راجع كلمة التوكل فى فهارس أجزائه ومن أوسعها مافى ص٢٠٧ــ٢١٤ ج ٤

ألا أبلغ بنى وهب رسولا　　بأنى عن فُتاحتهم غنىّ

و بينهم فتاحات أى خصومات . وفلان ولى الفتاحة بالكسر وهى ولاية القضاء وفاتحه حاكمه . وعن ابن عباس : ما كنت أدرى ماقوله تعالى (ربنا افتح بيننا و بين قومنا) حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك . وقالت إعرابية لزوجها بينى و بينك الفتاح اه وأثر ابن عباس أخرجه قدماء التفسير المأثور وابن الانبارى فى الوقف والابتداء والبيهقى فى الأسماء والصفات وفسر المفاتحة فيه بالمقاضاة . وهو يدل لغة على أنها ليست قرشية بهذا المعنى و يؤيده ماروى عن السدى من أنها يمانية وخصها بعضهم بالحميرية وذو يزن من أسمائهم . والمناسب أن كل فتح بين فريقين فهو بمعنى الحكم والفصل بينهما إما بالقول والفعل أو بأحدهما ومنه النصر ، ومن الآيات فيه (٢٦:٣٤ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) ومنها حكاية عن نوح عليه السلام (٢٦:١١٩ فافتح بينى و بينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين) وهذا عين مراد شعيب عليه السلام فى دعائه الملاقى لإنذاره قبله بقوله (حتى يحكم الله) الخ

والمعنى : ربنا احكم وافصل بيننا و بين قومنا بالحق الذى مضت به سنتك فى التنازع بين المرسلين والكافرين ، و بين سائر المحقين المصلحين ، والمبطلين المفسدين فى الأرض ، وأنت خير الحاكمين ، لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم وتنزهك عن الظلم ، واتباع الهوى فى الحكم

---

(٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَٰسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَٰسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ

لما يئس الملأ من قوم شعيب من عودته فى ملتهم ، وعلموا أنه ثابت على مقارعتهم ، خافوا أن يكثر المهتدون به من قومهم ، فحذروهم ذلك بما حكاه الله تعالى عنهم بقوله :

﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾

هذا عطف على (قال الملأ الذين استكبروا) وليس جواباً لشعيب عليه السلام ولا داخلا فى هذه المراجعة بينه و بينهم إذ لو كان كذلك لفصل ولم يعطف ، بل ذلك ما قالوه له والمناسب فيه وصفهم بالاستكبار فهو الذى جرأهم على تهديده و إنذاره الاخراج من قريتهم المشعر بأنهم هم أصحاب السلطان فيها ، وهذا ماقالوه لقومهم اغواء لهم بصدهم عن الايمان له ، والأخذ بما جاء به ، والمناسب فيه وصفهم بالكفر. فهو الحامل لهم عليه ، سواء كان سببه الاستكبار عن اتباعه أوغيره ، بل لو علم أولوا الرأى من قومهم أن سبب صدهم عنه هو الاستكبار والعتو لما أطاعوهم ، ولذلك عللوا لهم صدهم عنه بمايوهمهم أنه هو المصلحة لهم إذ قالوا لهم بصيغة القسم لئن اتبعتم شعيباً إنكم فى هذه الحالة لخاسرون ، وحذف متعلق الخسار ليعمم كل مايصلح له ، أى خاسرون لشرفكم ومجدكم ، بايثار ملته على ملة آبائكم وأجدادكم ، ومناط عزكم وفخركم ، واعترافكم بأنهم كانوا كافرين ضالين وأنهم معذبون عند الله تعالى — وخاسرون لثروتكم وربحكم من الناس بما حذفتموه من تطفيف الكيل والميزان وبخس الغرباء أشياءهم لابتزاز أموالهم وأى خسارة أكبر من خسارة الشرف والثروة ؟ فمعلوم أن اللام فى قولهم « لئن » موطئة للقسم وهى أقوى مؤكد للكلام ، والجملة الاسمية وتصديرها بإن وقرن خبرها باللام وتوسيط « إذاً » التى هى جواب وجزاء بين طرفيها — كل ذلك من المؤكدات لمضمونها الخادعة لسامعيها ، و إن مثلها مما يروج بين أمثالهم فى كل زمان ، ولاسيما من التفاخر بالآباء ، والتعصب للأقوام والأوطان ، فإننا ابتلينا فى دعوتنا إلى الإصلاح بمن كانوا يصدون الناس عنا وعن نصيحتنا لأهل ملتنا بأننا لم نولد فى بلادهم ، ولا ننتمى إلى أحد من أجدادهم ، على أننا ننتمى بفضل الله تعالى إلى آل بيت نبيهم ﷺ ، وأن منهم من لا يعرف له نسب ، ومنهم من ليس من القبط ولا العرب ، و إننا نرى أشد الشعوب عصبية للوطن لايجعلونها سبباً للصد عن العلوم والفنون ولا الدين ومذاهبه و إنما التنافس بينهم فى جعل كل واحد منهم وطنه أعز وأقوى وأغنى وأقنى ولو باقتباس العلم من الآخر . نرى رجال الدين الكاثوليكى من الألمان والفرنسيس أعواناً على نشر الكثلكة ونشرها فى بلادهم وغيرها ، كما نرى مثل هذا بين رجال البروتستانية من الألمان والانكليز ، كدأبهم وسيرتهم فى العلم ، فعلماء كل شعب

يتسابقون الى اقتباس مايظهر عند الآخر من اختراع أو كشف عن حقيقة علمية أو اهتداء لسنة كونية أو منفعة للخلق . ويعزون كل أمر الى صاحبه ، ويقولون إن العلم لا وطن له . وانما يقع التغاير والتفرق بين البشر فى مثل هذا فى إبان ضعفهم وغلبة الجهل عليهم ، وفشو التحاسد وسائر الأخلاق الرديئة فيهم . واعتبر ذلك فى الأمة الاسلامية فى إبان ارتقائها العلمى حتى القرن الخامس والسادس إذ كان مثل أبى حامد الغزالى يجىء بغداد عاصمة العلم والملك الكبرى فى الأرض فيكون رئيسا لأعظم مدرسة فيها بل فى العالم (وهى النظامية) ولا يحول دون تلك كونه من قرية طوس فى بلاد الفرس — وفيما بعده إذ تغيرت الحال ، كما بيناه فى مواضع من المنار ، ونحمد الله ان تلك النزعة الشيطانية تكاد تزول من مصر بارتقاء العلم والعمران على كون النزعة الوطنية المصرية تزداد قوة وانتشارا

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ تقدمت هذه الجملة بنصها فى بيان عذاب قوم صالح عليه السلام من هذه السورة (الآية ٧٧) فيراجع تفسيرها (فى ص ٥٠٧ و ٥٠٨ من المجلد الثامن) وفيه أنه عبر عن عذابهم فى سورة هود بالصيحة بدل الرجفة . وكذلك قوم شعيب — والرجفة المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب . ويصدق برجفان الأرض وهو الزلزلة ومنه (يوم ترجف الأرض والجبال) وبرجفان القلوب من الهول والخوف ومنه قول عائشة (رض) فى حديث بدء الوحى « فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤده » والراجح هنا الأول والمعنى فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا فى دارهم باركين على ركبهم أو منكبين على وجوههم ميتين . فهذا عذاب أهل مدين عبر عنه هنا بالرجفة وفى سورة هود بالصيحة ، كعذاب ثمود فى السورتين ، وقد بينا وجه الجمع بينهما .

وفى سورة الشعراء أن الله تعالى أرسل شعيباً إلى أصحاب الأيكة وهم غير مدين فانه وصفه فى سورة الاعراف بأنه أخو مدين أى فى النسب كما تقدم ولم يصفه فى سورة الشعراء بذلك كما وصف من ذكر قبله : نوحا وهوداً وصالحاً ولوطاً (ع . م) وقد أخرج اسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله تعالى — من سورة الشعراء (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) قالوا : كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر إلى مدين الخ فأفاد هذا أن الله تعالى أرسله الى قومه أهل مدين والى من

اتصل بهم إلى ساحل البحر الأحمر، وأن حال الفريقين فى الكفر والمعاصى كانت واحدة وكان ينذرهم متنقلا بينهم فى زمن واحد ، فلا يبعد حينئذ أن يكون العذاب قد أخذ الفريقين فى وقت واحد أو وقتين متقاربين ، فكان عذاب مدين بالرجفة والصيحة المصاحبة لها . وعذاب أصحاب الايكة بالسموم وشدة الحر الذى انتهى بظلة من السحاب، فزعوا إليها يبتردون بظلها، فأطبقت عليهم فاختنقوا بها أجمعون وذهب بعض المفسرين إلى أن عقاب الفريقين واحد، وسيأتى بيان ذلك فى تفسير سورة الشعراء إن شاء الله تعالى

﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها — الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ يقال غنى بالمكان يغنى بوزن « رضى يرضى » إذا نزل به وأقام فيه . هكذا أطلقوه وقيده بعضهم بقيد أو قيدين ، قال الراغب : وغنى فى مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره ، واكتفى بعضهم بقيد طول الاقامة وبعضهم بالاقامة فى رغد عيش

والآية بيان مستأنف من قبل الله عز وجل ناقض لقول الملأ من قوم شعيب لقومهم (لئن اتبعتم شعيباً انكم إذاً لخاسرون) وقولهم قبله (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) كأن سائلا يسأل عنهم باعتبار كل من الحالين كيف انتهى الأمر فيها وكيف كان عاقبة أهلها ؟ فأجيب عن الأول بقوله :الذين كذبوا شعيباً وهددوه وأنذروه الاخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فحرموها كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها مطلقاً أو فى ذلك العيش الرغيد ، والأمد المديد ، فمتى انقضى الشىء صار كأنه لم يكن

وأجيب عن الثانى بقوله : الذين كذبوا شعيباً وزعموا أن من يتبعه يكون خاسراً وأكدوا زعمهم بأقوى المؤكدات كانوا هم الخاسرين لما يعتزون به من تقاليد ملتهم ، ومن مالهم ووطنهم ، ولما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة لو آمنوا دون الذين اتبعوه، فانهم كانوا هم الفائزين المفلحين ، فالجملة تفيد حصر الخسار فى المكذبين له بالنص ، وتقتضى نفيه عن المتبعين له بالأولى، ومناسبة الجزاء للذنب بجعل الحرص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على أهل الحق سبباً للحرمان الابدى منه ، وجعل الحرص على الربح بأكل أموال الناس بالباطل سبباً للخسران بالحرمان منه ومن غيره

واختار بعضهم فى نكتة الفصل والتكرار وجها آخر وهو انه بيان

مستأنف من الله تعالى جاء بأسلوب الخطابة العربية المؤثرة فى الوعظ والتوبيخ وما فى معناها نحو : أنت الذى جنيت علينا ، أنت الذى سلطت علينا اعداءنا ، أنت الذى فرقت كلمتنا ، أنت الذى أوقعت الشقاق بيننا .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : ان فى هذا الاستئناف وتكرير الموصول والصلة مبالغة فى رد مقالة الملأ لاشياعهم وتسفيهاً لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم ، واستعظاما لما جرى عليهم اه . وقد خفيت على بعض العلماء الأذكياء دلالة العبارة على هذه المعانى كلها لعدم تأملها ، فأما المبالغة فى الرد فظاهرة لما يدركه كل من الفرق فى نفسه بين ما مثلنا به آنفا لأسلوب الخطابة وبين ذكر تلك المسندات بالعطف ، وسببه أن تكرار ذكر المسند إليه بصيغة الموصول والصلة المؤذن بعلة الجزاء يعيد صورة كل منهما فى الذهن ، ويكون حكما جديدا بعدحكم ، وللحكمين من التأثير فى النفس ما ليس للحكم الواحد . واما تسفيه الرأى ، والاستهزاء بذلك النصح ، فهو تابع لهذا التأثير ، المتضمن لما ذكر من التصوير والتمثيل .

﴿ فتولى عنهم وقال ياقوم لقد ابلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ﴾

تقدم تفسير مثله فى قصة صالح (ص ٥٠٩ ج ٨ تفسير) وفيه بحث دقيق فى ذكر التولى عن القوم ومخاطبتهم بعد هلاكهم . وقد اتحد إعذار الرسولين لاتحاد حال القومين وعذابهما ، ولكن تتمة الآية هناك (ولكن لا تحبون الناصحين)

وتتمة الآية هنا ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين؟ ﴾ ولا يبعد عندى أن يكونا قد قالا هذا وذاك ، فعبر عنهما بأسلوب الاحتباك . والمعنى : انى ياقوم قد ابلغتكم رسالات ربى ــ أى ما أرسلنى به إليكم من العقائد والمواعظ والاحكام والآداب ــ لجمع الرسالة هنا بحسب متعلقها وأفرادها فى قصة صالح بحسب معناها المصدرى ــ ونصحت لكم بما بينته من معانيها والترغيب فيها وانذار عاقبة الكفر بها «فكيف آسى» أى أحزن الحزن الشديد على قوم كافرين اعذرت إليهم ، وبذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم ، فاختاروا ما فيه هلاكهم ، وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصح والانذار .

---

(٩٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِىٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ

مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ

﴿سنن الله وحكمه فى هذه القصص وأمثالها ، والاعتبار بها﴾

من سنة القرآن الحكيم أنه يبين العقائد بدلائلها ، والأحكام مؤيدة بحكمها وعللها ، والقصص مقرونة بوجوه العبرة والموعظة بها وسنن الاجتماع فيها ، كما ترى فى هذه الآيات التسع التى قفى بها على قصص القوم المهلكين .

﴿وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ الواو فى أول الآية لعطف الجملة وما بعدها إلى آخر السياق الذى وضعنا له العنوان على مجموع ما قبلهن من القصص لمشاركته إياه[1] فى كونه حكما له وعبرا مستفادة منه — فعطف الجمل يشمل الكثير منها ، كالسياق برمته ـ ولا وجه للفصل هنا . والقرية المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التى يعبر عنها فى عرف هذا العصر بالعاصمة كما تقدم مراراً ، وكان الأنبياء يبعثون فى القرى الجامعة لأن سائر البلاد تتبع أهلها إذا آمنوا. والبأساء الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر والضراء ما يضر الانسان فى بدنه أو نفسه أو معيشته، والأخذ بها جعلها عقابا ، وقد تكون تجربة وتربية نافعة . وتقدم مثل هذا فى قوله تعالى من سورة الأنعام (٦ : ٤٢ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) فيراجع (فى ص ٤١٢ ج ٧ تفسير) فانه بمعنى ماهنا ، ولكن السياق مختلف ، فلما كان ما هنا قد ورد عقب قصص طائفة من الرسل جعل هذا المعنى قاعدة كلية وسنة مطردة فى الرسل مع أقوامهم ليعتبر به كل من سمعه أو قرأه فى عصر التنزيل وما بعده . ولما كان ما هنالك قد ورد فى سياق تبليغ خاتم الرسل للدعوة ومحاجة قومه جعل خطابا خبريا له لتسليته وتثبيت قلبه من جهة ولتخويف كفار قريش وانذارهم من جهة أخرى — وهذا ملاحظ هنا أيضا ولكن بالتبع للاعتبار بالسنة العامة لا بالقصد الأول .

والمعنى : ذلك شأن الرسل مع أقوامهم الهالكين ، وما أرسلنا نبيا فى

(١) أى لمشاركة المعطوف للمعطوف عليه .

قوم إلا وقد انزلنا بهم الشدائد والمصائب [1] بعد ارساله أو قبيله، لنعدهم ونؤهلهم بها للتضرع، وهو إظهار الضراعة أى الضعف والخضوع لنا، والاخلاص فى دعائنا بكشفها، فلعل تفيد الاعداد للشيء وجعله مرجوا. ومما ثبت بالتجارب وتقرر عند علماء النفس والاخلاق ان الشدائد وملاحج الأمور مما يربى الناس ويصلح من فسادهم، فالمؤمن قد يشغله الرخاء وهناء العيش فينسيه ضعفه وحاجته إلى ربه، والشدائد تذكره به، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها بفقدها، فينقلب شاكرا بعد عودها، بل الكافر بالله عز وجل قد تنبه الشدائد والأهوال مركز الشعور بوجود الرب الخالق المدبر لامور الخلق فى دماغه، وتذكره بما أودع فى فطرته من وجود مصدر لنظام الكون واقداره، كما وقع كثيرا، والآيات فى هذا كثيرة تقدم بعضها، وقد روى لنا ان الحرب العظمى قد كان لها هذا التأثير حتى فى أقل الناس تدينا وهم أهل مدينة باريس، فكانت المعابد ترى مكتظة بالمصلين فى أثناء شدائد الحرب.

ومن مباحث البلاغة ان نكتة خلو جملة « أخذنا أهلها » الحالية من الواو وقد هى أن الأصل فى المقترنة بهما ان يكون مضمونها مقدما على العامل فيها كالجملة الاسمية. فاذا قلت: ما فعل زيد كذا الا وقد عد له عدته — كان المتبادر أنه أعدها قبل الشروع فى فعله لأجله كقوله تعالى فى الجملة الاسمية (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) أى متلبسون بالظلم من قبل لا حال الاهلاك فقط، وإذا قيل ما فعله إلا أعد له عدته — شمل إعدادها قبله لاجله وهى الحال السابقة، وإعدادها عند الشروع فيه وهى الحال المقارنة، بل هذه المتبادرة إلى الذهن هنا. كقولك ما سألته إلا أجابنى، أى عند السؤال، ولا يصح أن تقول إلا وقد أجابنى، ويصح أن تقول: ما سألته الا وقد أذن لى، أى قبل السؤال. فان قلنا إنه يتعين أن تكون الحال مقارنة فى الآية اقتضى ذلك أن يكون ما أفادته هى وما بعدها من الابتلاء بالسيئة ثم بالحسنة ثم بما يترتب عليها من الكثرة وكفر النعمة واقعا كله بعد ارسال الأنبياء وفى عهدهم، وهو قد يصدق فى قوم نوح دون من بعده فلذلك قلنا انها تشمل الحال السابقة والمقارنة، فليتأمل فانا لم نر لأحد بحثا فى هذه المسألة ولكن الامام عبد القاهر الجرجانى حقق أن الحال المفردة تفيد المقارنة والجملة الحالية

---

(١) قالوا: ان جملة أخذنا حالية ولم تقرن بالواو وقد، لوقوعها بعد (إلا) وهو جائز بالثلاثة الاوجه: الواو وحدها، والواو مع قد، وحذفهما معا

تفيد سبق مضمونها وفرق بعض الفقهاء بين قولك علىّ أن أعتكف صائما وقولك على أن اعتكف وأنا صائم وقد بينا هذا فى تفسير (لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ولا جنبا) الآية (فراجعه فى ص ١١٥ ج ٥ تفسير) .

﴿ ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ أى ثم بلوناهم بضد ذلك فجعلنا الحالة الحسنة فى مكان الحالة السيئة كاليسر بعد العسر ، والغنى فى مكان الفقر ، والنصر عقب الكسر ﴿ حتى عفوا ﴾ أى كثروا ونموا ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما وهو من عفا النبات والشحم والشعر ونحوه إذا كثر ، وله شواهد عن العرب ، وذلك ان اليسر والرخاء سبب لكثرة النسل وبه تتم نعم الدنيا على الموسرين.

ومن الشواهد على هذا الابتلاء فى القصص التى قفى عليها بهذه العبر : قول هود عليه السلام لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) وقول صالح « ع م » لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)

وقول شعيب « ع . م » لقومه (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) ولكن لم تزد الآلاء هؤلاء الكافرين إلا بغيا وبطرا وفسادا فى الأرض ﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ أى وقالوا مع ذلك قولا يدل على فساد فطرتهم ، وانطماس بصيرتهم ، وفقدهم الاستعداد للاتعاظ والاعتبار بأحداث الزمان ، وتغير أحوال الإنسان ، وتقلب شؤون العمران ، قالوا قد مس آباءنا من قبلنا مايسوء ومايسر ، وتناوبهم ما ينفع ومايضر ، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم ، فتلك عادة الزمان فى أبنائه ، فلا الضراء عقاب من الخالق الحكيم على معاصى تقترف ورذائل ترتكب ، ولا السراء جزاء منه على صالحات تعمل ، وفضائل تلتزم . والمراد انهم جهلوا سننه تعالى فى أسباب الصلاح والفساد فى البشر وما يترتب عليهما من السعادة والشقاء ، المعبر عنها بقوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فلما ذكرهم رسلهم بها لم يتذكروا ولم يعتبروا ، بل نسوا وأعرضوا وأنكروا .

﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أى فكان عاقبة ذلك ان اخذناهم

بالعذاب فجأة وهم فاقدون للشعور بما سيحل بهم ، لأنهم كانوا يجهلون سنن الله تعالى فى الاجتماع البشرى فلاهم عرفوها بعقولهم ولاهم صدقوا الرسل فى نُذُرهم ، وهذا معنى قوله تعالى فى سياق سورة الأنعام الذى ذكرناه آنفا (٦: ٤٤ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون) وذلك شأن الكافرين والجاهلين : إذا مسهم الشر يئسوا وابتأسوا ، وإذا مسهم الخير أشروا وبطروا ، فإذا كان ذلك الخير قوة وسلطة بغوا فى الأرض ، وأهلكوا الحرث والنسل

أصاب أهل بيت فى إحدى المدن السورية نفحة من جاه الشيخ محمد أبى الهدى الصيادى أحد المقربين من السلطان عبد الحميد فى عصره ، فنهبوا بجاهه الأموال وانتهكوا الأعراض ، وبغوا فى الأرض الفساد ، فكنا نتحدث مرة فى أمرهم فقلنا : ألم يكن خيراً لهؤلاء لو اغتنموا هذه الفرصة باصطناع الناس بالمعروف ، وعمل البر النافع للوطن ، فإن جاه أبى الهدى ليس له دوام ، ونحواً من هذا الكلام ، فقال السيد الوالد رحمه الله تعالى : إن أمثال هؤلاء لا يفهمون هذه الحكم ولا يعقلونها ، ولقد أصاب والدهم من قبلهم رياسة إدارية صغيرة كواحد منهم فبغى وبطر وتكبر وتجبر وآذى الناس ، فنصحت له إذ كان يوادنى ويحترمنى وذكرته بتغير الأحوال ، فقال لى ياسيد : إن لكل أحد يوما يرقص له فيه الزمان فينبغى له أن يستمتع فيه ولا يضيع الفرصة على نفسه

وقد قال الله تعالى فى هذا المعنى (١٧ ، ٨٣ وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا (٨٤) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) وقال (٤٢: ٤٥ وإنا إذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الانسان كفور) المراد بالفرح ما كان عن بطر وغرور ، وقال (١٠: ٢٢ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذاهم يبغون فى الأرض بغير الحق) اقرأ تتمة الآية وما بعدها

وأما المؤمنون بالله وما جاء به رسله حقائقهم الذين تكون الشدائد والمصائب

تربية لهم وتمحيصا ، كما تكون للكافرين عقابا وإبلاسا ، وقد بين الله تعالى ذلك في مواضع من كتابه أظهرها بيانه إياه بالتفصيل في قصة أحد من سورة آل عمران إذ قضت حكمته بأن يقصر المسلمون في سبب من أسباب النصر في الحرب فيظهر عليهم المشركون فينزل تلك الآيات الحكيمة المبينة للحقائق وسنن الاجتماع في الحروب والشدائد التي أولها (٣: ١٣٧) قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا — إلى قوله — ١٤١ — وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) ومنها قوله (١٤٠ وتلك الأيام نداولها بين الناس) ولكن شأن المؤمن أن يعرف هذه المداولات بأسبابها وحكمها ويتحرى الاتعاظ وتربية نفسه بها ، لا كما يراها الكافرون والجاهلون بظواهرها وصورها ، والآيات التي بعد ما أشرنا إليه منها تتمة وإيضاح لها فيراجع تفسيرها في الجزء الرابع من التفسير . وفي معناها أحاديث كقوله صلى الله عليه وآله وسلم « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه احمد ومسلم من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه

(فإن قيل) إننا نرى غير المسلمين يعلمون في هذا العصر مالا يعلم المسلمون من هذه السنن الاجتماعية التي أرشد إليها القرآن ويستفيدون منها عبراً وتقوى للمضار يظهر أثرها باستعدادهم للمصائب قبل وقوعها ، حتى لاتأخذهم بغتة ، وحتى يتلافوا شرورها بعد وقوعها بقدر الطاقة . ونرى أكثر المسلمين جاهلين وغافلين عن ذلك ، وقد فتن بعضهم بهؤلاء الافرنج وحسبوا أنهم لايكونون مثلهم في استمتاعهم واستعدادهم لدفع الشدائد ، والاستفادة من الاحداث والوقائع ، إلا إذا تركوا الاسلام ، ونبذوا هداية القرآن ! ! كما فتنوا هم بالمسلمين باحتقارهم لدينهم تبعاً لاحتقارهم لهم ، وطعناً فيه بما يظنون من تأثيره في إذلالهم وإضعافهم ، فما قولك في ظلم الفريقين له ، وفي انتهاء الحرب العامة الأخيرة باستيلاء غير المؤمنين ، على أقطار عظيمة من بلاد المسلمين ؟ وكون أشد أهل هذه الأقطار استسلاماً للذل وخضوعاً للقهر ، هم الذين يدعون أنهم أصح إيماناً ، وأحسن إسلاما ؟ حتى كان ذلك فتنة لبعض زعماء شعب سلم من الهلاك بعد أن كان يحاط به ، فظنوا أن التقليد بالاسلام سبب الهلكة ، والالقاء بالأيدي إلى التهلكة ، وإن في الانسلال منها المنجاة وارتقاء المملكة ؟

(قلنا) اننا كشفنا أمثال هذه الشبهات ، فى تفسير كثير من الآيات ، وفى غير التفسير من المنار ، و بينا مراراً أن المسلمين قد تركوا هداية القرآن فى حكوماتهم ومصالحهم العامة ، وفوضوا أمورهم إلى حكامهم الذين يندر أن يوجد منهم من له إلمام بتفسيره أو علم السنة ، حتى من سلموا لهم بمنصب خلافة النبوة — كما تركوا هداية الكتاب والسنة فى أعمال الافراد ، فأكثرهم لايعرف من دينه إلاما يسمعه و يراه ممن يعيش معهم من قومه وفيه الحق والباطل والسنة والبدعة ، وأقلهم يتلقى عن بعض الشيوخ بعض كتب الكلام الجدلية التى ألفت الرد على فلسفة نسخت و بدع باد أهلها ، وكتب الفقه التقليدية الخالية من جل هداية القرآن والسنة فى مثل موضوع الآيات التى نحن بصدد تفسيرها ، وما أشرنا إليه فى هذا التفسير من آيات الشواهد ، حتى بلغ الجهل من المسلمين فى أم المسائل الخاصه بحياتهم السياسية التى هى مناط دولتهم و بقاء ملكهم أو زواله (وهى مسألة الامامة العظمى) أن يكتب الأفراد والجماعات من علمائهم فيها ما هو مخالف لجميع أئمتهم ومذاهبهم ولاجماع سلفهم ، على تهافت ظاهر ، واختلاف فاضح . على أن العلماء المتقدمين قد قصروا فى هذه المسألة وهم الذين كان العلم صفة من صفاتهم وملكة من ملكاتهم ، لا ورقة شهادة يحملونها ممن سبق الاجماع على أن مثلهم من المقلدين لايعد عالما فى خاصة نفسه ، حتى يعتد بشهادته لغيره ، بله ما عرف عن بعضهم من شهادة الزور، وقول الكذب وأكل السحت ، وقد استسفر بعض مجاورى الأزهر المقدمين لامتحان شهادة العالمية واحدا منهم لعرض الرشوة على الأستاذ الامام رحمه الله تعالى ليساعدهم فى الامتحان فضربه الأستاذ رحمه الله بيديه ، ورفسه برجليه ، وقال له: ياعدو الله أتريد أن أغش المسلمين بك و بأمثالك من الجاهلين بعد هذه الشيبة وانتظار لقاء الله ، فأكون ممن يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ؟ ولو كنت ممن يطّبيهم المال، و يحفلون بجمعه ولو من الحلال ، لكنت من أغنى الأغنياء ؟

ولما كان القرآن هو الذى هدى المسلمين إلى أنواع العلم، وأعطاهم الحكمة والحكم كان تركهم لهدايته هو الذى سلبهم ذلك حتى انقلب الأمر، وانعكس الوضع، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع — كما صح فى الحديث — فالسواد الأعظم الجاهل اتبع سنن أهل الكتاب فى شر ما كانوا عليه فى طور جهلهم من الخرافات وابتداع الاحتفالات ، وتقليد الآباء والأجداد ، واتخاذ الأرباب والأنداد، كاعطاء

حق التحريم والتحليل للاحبار والرهبان ، وطلب النفع ودفع الضر من دجالى الأحياء وقبور الأموات ، فغشيهم ماغشى أولئك من ظلمات الجهل ،وجعل الذين عدوا للعلم والعقل، والنابتة العصرية المتفرنجة اتبعت سنن المرتدين والفاسقين منهم فى شر ما صاروا إليه فى طور فساد حضارتهم ، وقلدوهم حتى فيما لا ينطبق على أحوالهم ومصالحهم ، كذلك ضل الفريقان عن هداية القرآن ، واشتركا فى إضاعة ما بقى من ملك الاسلام

لا عالم الشرق بدينه ولا مقتبس العلم من الغرب هدى

وأما الافرنج فهم و إن كانوا على علم واسع بسنن الله فى أحوال البشر وسائر امور الكون ، قد نالوا به ملكا عظيما فى الأرض،فأ كثرهم يجهل مصدر هذه السنن وحكم الله تعالى فيها ولا يعتبرون حق الاعتبار بما تعقب الشرور والمعاصى من الفساد فى الأرض ، فهم كأقوام أولئك الرسل الذين لم تفدهم النعم شكر الرب المنعم ، ولم تفدهم النقم تقوى الرب المنتقم ، فقد استعملوا نعمه بالعلوم والفنون وتسخير قوى العالم لاستعباد الضعفاء ، والسرف فى فجور الأغنياء ، والتقاتل على السلطان والثراء ، ولذلك سلط الله بعضهم على بعض ، وصدق عليهم قوله عز وجل : (٦ : ٦٥ قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً و يذيق بعضكم بأس بعض * انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون) كما بيناه فى تفسيرها (ص ٤٩٢ ج ٧ تفسير)

فعلم بما ذكر و بغيره أن العلم بسنن الاجتماع والعمران لا يغنى عن هداية الدين التى توقف أهواء البشر ومطامعهم أن تجمح إلى ما لا غاية له من الشر ، ولولا أن عند بعض أمم أوربة بقية قليلة منها تتفاوت فى أفرادهم قوة وضعفاً لحشرتهم المطامع والاحقاد صفا صفا ، فدكوا معالم أرضهم التى بلغت منتهى العمران دكا دكا، فجعلوها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، بل جعلوها بعد دك صروحها وهاداً عميقة ، ومهاوى سحيقة ، بقذائف المدافع الضخمة التى تشق الأرض شقا، وتسحق ما فيها سحقاً ، على أنهم قد شرعوا ، فاما أن يجهزوا وأما أن ينزعوا .

قال تعالى فى سورة هود (١١ : ١١٦ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن انجينا منهم واتبع

الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين (١١٧) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) القرون هى الأجيال والشعوب، وأولو بقية: أصحاب بقية من دين وتقوى وعقل وحكمة، روى ابن مردويه عن أبى ابن كعب قال: أقرأنى رسول الله ﷺ (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ـ وأحلام ـ ينهون عن الفساد فى الأرض) والأحلام العقول الراجحة[1] والمراد من التحضيض فى الآية الأولى النفى أى أنه كان ينبغى أن يكون فى القرون الذين كانوا قبل ظهور الإسلام بالإصلاح العام أصحاب بقية من دين موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء أو حكماء العقلاء الذين فسر بهم الآمرون بالعدل فى قوله تعالى (ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) ولكن لم يكن ذلك إلا قليلا ممن أنجينا منهم، واتبع الأكثرون ما أترفوا فيه من الشهوات واللذات، وكانوا ظالمين لأنفسهم وللناس، أى أزال الله ملكهم بظلمهم وبطرهم وتركهم للاصلاح فى الأرض قال مجاهد فى اتباع هذا الاتراف فى ملكهم وتجبرهم وتركهم الحق

ومعنى الآية الثانية أنه لم يكن من شأن ربك أيها الرسول المصلح ولا من سنته فى خلقه أن يهلك العواصم والمدائن بظلم منه أو بشرك من أهلها والحال أنهم مصلحون فى أحكامهم وأعمالهم. وفى تفسير المرفوع إلى النبى ﷺ أنه سئل عن قوله تعالى (وأهلها مصلحون) فقال «وأهلها ينصف بعضهم بعضا» رواه الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن جرير «رض» وروى عنه موقوفا أيضا

وهؤلاء البقية لاتخلوا منهم أمة فهم حجة الله على الأقوام، ومتى قلوا فى أمة غلب عليها الفساد، وقرب انتقام الله منها. وقد شهد القرآن بوجود أناس منهم كانوا فى أهل الكتاب. وهم يقلون فى أوربة عاما بعد عام، وقد كان من أصحاب الأحلام منهم الفيلسوف هربرت سبنسر الإنجليزى الذى نهى اليابانيين عن الاستعانة بقومه الإنكليز على إصلاح بلادهم فيها، وقال لهم إنهم إذا دخلوها لايخرجون منها. وقال للأستاذ الإمام حين تلاقيا بمدينة (بريتن فى صيف سنة ١٣٢١ـ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣) ماترجمته: محي الحق من عقول أهل أوربة واستحوذت عليها الأفكار المادية

(١) ما وردت فى أحاديث الآحاد مثل هذا مما لاتثبت به قراءة فهو من قبيل التفسير فان كان ظاهر لفظه أنه قراءة حمل على أنه مروى بالمعنى

فذهبت بالفضيلة . وهذه الأفكار المادية ظهرت فى اللاتين أولا فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم إلى الانكليز فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك ، وسترى هذه الأمم يختبط بعضها ببعض وتنتهى إلى حرب طامة ليتبين أيها الأقوى فيكون سلطان العالم

قال له الامام . إنى آمل أن يحول دون ذلك همم الحكماء (مثلكم) واجتهادهم فى تقرير مبادىء الحق والعدل ونصر الفضيلة

قال الفيلسوف :وأما أنا فليس عندى مثل هذا الأمل فان هذا التيار المادى لابد أن يبلغ مده غاية حده

وأقول إننى ذاكرت فى هذا المعنى سياسيا أوربيا فى جنيف من بلاد سويسرة فرأيته يعتقد اعتقاد سبنسر بل أخبرنى أن كثيرا من عقلاء أوربة يعتقدون أن فساد الأخلاق بالترف الذى أهلك الأمم الكبرى كاليونان والرومان والفرس والعرب قد أوشك أن يقضى على أوربة وستهلك بالحرب التى تلى هذه الحرب الأخيرة ، وما هى ببعيدة ونصح لنا بأن لا نقلد أوربة فى مدنيتها المادية ، وأن نحافظ على آداب ديننا وفضائله وأن نجمع كلمتنا ، ونجعل الزعامة فينا لأهل الرأى والفضيلة منا ، ونتربص الدوائر بالاوربيين المعتدين علينا (١)

وجملة القول أن الإنسان حيوان إنسى وحشى بجسده ، وملك روحانى بعقله وروحه ، وأنه إنما يكمل بكمال العقل والروح ويعتدل بالتوازن بينهما ،ولا يكون هذا إلا بهداية الاسلام الجامع لكل مايحتاج اليه البشر من ذلك ؛ ولهذا نصحنا لزعماء الترك المفتونين بمدنية الافرنج المادية لجهلهم بما يفتك بها من دود الفساد بأن يقيموا حكم الاسلام وإصلاحه الذى يكفل لهم القوة المادية والعمران ويقيهم غوائل هذا الفساد كالبلشفية التى ثلت عرش قيصرية الروسية فقلنا فى فاتحة الكتاب الذى صنفناه فى مسألة (الخلافة — أو — الامامة العظمى ما نصه :

« أيها الشعب التركى الحى ! إن الاسلام أعظم قوة معنوية فى الأرض ، وإنه هو الذى يمكن أن يحيى مدنية الشرق ، وينقذ مدنية الغرب ؛ فان المدنية لا

(١) راجع النبذة ٦ من رحلتنا الأوربية التى نشرت ج٨ من المجلد ٢٣ من المنار

تبقى الا بالفضيلة ، والفضيلة لا تتحقق الا بالدين ، ولا يوجد دين يتفق مع العلم والمدنية الا الاسلام ، وانما عاشت المدنية الغربية هذه القرون بما كان فيها من التوازن بين بقايا الفضـائل المسيحية مع التنازع بين العلم الاستقلالى والتعاليم الكنسية ، فان الأمم لاتنسلّ من فضائل دينها ، بمجرد طروء الشك فى عقائده على أذهان بعض الأفراد والجماعات منهـا ، وانما يكون ذلك بالتدريج فى عدة أجيال ، وقد انتهى التنازع ، بفقد ذلك التوازن ، وأصبح الدين والحضرة على خطر الزوال ، واشتدت حاجة البشر إلى إصـلاح روحى مدنى ثابت الاركان ، يزول به استعباد الأقوياء للضعفاء ، واستذلال الأغنياء للفقراء ، وخطر البلشفية على الأغنياء ، و يبطل به امتياز الأجناس ، لتحقق الأخوة العامة بين الناس ، ولن يكون ذلك الا بحكومة الاسلام ، التى بيناها بالاجمال فى هذا الكتاب ، ونحن مستعدون المسـاعدة على تفصيلها ، إذا وفق الله للعمل بها

« أيها الشعب التركى الباسل : انك اليوم أقدر الشعوب الاسلامية ، على أن تحقق للبشر هذه الأمنية ، فاغتنم هـذه الفرصة لتأسيس مجد إنسانى خالد ، لا يذكر معه مجدك الحربى التالد ، ولا يجرمنك المتفرنجون على تقليد الافرنج فى سيرتهم ، وأنت أهل لأن تكون إماما لهم بمدنيـة خير من مدنيتهم ، وما ثم إلا المدنية الاسلامية ، الثابتة قواعدها المعقولة على أساس العقيدة الدينية ، فلا تزلزلها النظريات التى تعبث بالعمران ، وتفسد نظم الحياة الاجتماعية على الناس ».

نصحنا للشعب التركى بهذا ولكن زعماءه الكماليين اليوم كزعمائه الاتحاديين من قبلهم قد فتنوا بهذه المدنية المادية ، وجعلوا كنه الاسلام والحكومة الاسلامية ، وقد اعذرنا إليهم ببيانها ، وانذرناهم عذاب الله باهمالها ، فماروا بالنذر ، وطفقوا يطمسون ما بقى من الاسلام فى حكومتهم وأمتهم ، وسنرى ما يكون من أمرهم ، وقد ظهر ماكان مستورا من فساد سريرتهم ، ونسأله تعالى لنا ولهم صلاح الحال ، وحسن المآل .

---

(٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

لما بين الله سبحانه أخذه لأهل القرى الذين كذبوا الرسل بما كان من كفرهم

وظلمهم لأنفسهم وللناس بين لأهل أم القرى « مكة » ولسائر الناس ما كان يكون من اغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسل ، واعتبروا بالسنن ، فقال :

﴿ ولو أن أهـل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أى آمنوا بما دعاهم إليه رسلهم من عبادة لله وحده بما شرعه من الأعمال الصالحة واتقوا ما نهوهم عنـه من الشرك والفساد فى الأرض بالظلم والمعاصى كارتكاب الفواحش ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ قرأ الجمهور فتحنا بالتخفيف من الفتح وقرأها ابن عامر بالتشديد من التفتيح الدال على الكثرة ، والمعنى افتحنا عليهم أنواعا من بركات السماء والأرض لم يعهدوها مجتمعة ولا متفرقة ، فاذا أريد ببركات السماء معارف الوحى العقلية ، وأنوار الإيمان الروحانية ، ونفحات الالهامات الربانية ، فالمعنى أن فائدة الإيمان واتباع الرسل عليهم السلام تكون تكميل الفطرة البشرية روحا وجسدا ، وغايته سعادة الدارين الدنيا والآخرة ، و إذا أريد ببركات السماء المطر و ببركات الأرض النبات كما قيل فالمعنى انها أبواب نعم تكون بركات لهم غير التى عهدوا فى صفاتها ونمائها وثباتهـا وحالهم فيها وأثرها فيهم ، و بذلك تكون بركات فان مادة البركة تدلّ على السعة والزكاء من بركة الماء ، وعلى الثبات والاستقرار من برك البعير ، ألم تقرأ أو تسمع قوله تعالى من سورة هود (١١ : ٤٨ قيل يا نوح اهبط بسلام منا و بركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) فخص المؤمنين بالبركات وجعل نعمة الدنيا متاعا مؤقتا للكافرين يتلوه العذاب ، ولذلك لم يعطفهم على من قبلهم . روى عن محمد بن كعب القرظى أنه دخل فى تلك البركات كل مؤمن ومؤمنة ـ وفى ذلك المتاع والعذاب الأليم كل كافر وكافرة . وعن الضحاك قال (وعلى أمم ممن معك) يعنى ممن لم يولد اوجب لهم البركات لما سبق لهم فى علم الله من السعادة ـ (وأمم سنمتعهم) يعنى متاع الحياة الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم لما سبق لهم فى علم الله من الشقاوة

فالقاعدة المقررة فى القرآن أن الايمان الصحيح ودين الحق سبب لسـعادة الدنيا ونعمتها بالحق والاسـتحقاق وان الكفار قد يشاركونهم فى المادىّ منها كما قال تعالى فيهم من سورة الانعام (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء) فذلك الفتح ابتـلاء واختبار لحالهم كان أثره فيهم فرح البطر والاشر بدلا من الشـكر وترتب عليـه العقاب الالهى فـكان نقمة لا نعمة ، وفتنة لا بركة ،

وأما المؤمنون فان مايفتح عليهم يكون بركة ونعمة ويكون أثره فيهم الشكر لله عليه والرضا منه والاغتباط بفضله ، واستعماله فى سبيل الخير دون الشر ، وفى الاصلاح دون الافساد ، ويكون جزاؤهم عليه من الله تعالى زيادة النعم ونموها فى الدنيا وحسن الثواب عليها فى الآخرة ، فالفارق بين الفتحتين يؤخذ من جمل هذا البركات الربانية ، ومن تنكيره الدال على أنواع لم يعهدها الكفار .

ومماورد فى الآيات الأخرى الدالة على أن غاية هداية الايمان الجمع بين سعادة الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى خطابا للبشر موجها لابويهم من قصة آدم فى سورة طه (٢٠، ١٢٠ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى (١٢١) ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وقوله فى خطاب بنى آدم من هذه السورة بعد ذكر قصته المبينة لخواص هذا النوع وحكم الله فى خلقه والأصول العامة لدين الرسل الذين يبعثهم لهدايته ٧ : ٣١ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (٣٢) قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فراجع تفسيرهما فى الجزء الثامن من التفسير

فهذا بيان لكون أصل الدين يقتضى سعادة الدنيا قبل الآخرة من أول النشأة البشرية فى عهد آدم، وتقدم آنفا ما أنزله تعالى على نوح وهو الأب الثانى للبشر وقال تعالى حكاية عن هود فى سورته (١١ : ٥٢ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) وهذه الآيات كلها حجج على أعداء الاسلام من المنتمين إليه ومن غيرهم الزاعمين انه ـ وكذا كل دين الهى ـ سبب للضعف والفقر ! !

﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ من أعمال الشرك الخرافية والمعاصى المفسدة لنظام الاجتماع البشرى ، فكان أخذهم بالعقاب أثراً لازما لكسبهم بحسب سنن الكون ، وعبرة لامثالهم ان كانوا يعقلون .

---

(٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ (٩٨) أَفَأَمِنُوا

مَكْرَ اللهِ ؟ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ؟

هذه الآيات الأربع إنذار لأمة الدعوة المحمدية عربها وعجمها من عصر النور الأعظم إلى يوم القيامة لتعتبر بما نزل بغيرها كما ترشد إليه الرابعة منها. وأهل القرى فيها يراد به الجنس أى الأمم ، ويحتمل أن يكون المراد به من ذكر حالهم فيما تقدم وضع المظهر فيه موضع المضمر ليدل على أن مضمونها ليس خاصا بأقوام بأعيانهم فيذكر ضميرهم بل هو قواعد عامة فى أحوال الأمم ، فيراد بالإسم المظهر العنوان العام لها ، لا آحاد ماذكر منها ، ولو ذكرها بضميرها أو اسم الاشارة الذى يعينها لدل على أن العقاب كان خاصا بها لا داخلا فى أفراد سنة عامة ، وهذا عين ماكان يصرف الأقوام الجاهلة الكافرة عن الاعتبار بعقاب من كان قبلها ، ويحتمل أن يكون المراد به أهل أم القرى عاصمة قوم الرسول الخاتم وعشيرته الاقربين وسائر قرى الأمم التى بعث صلى الله عليه وسلم إلى أهلها من حيث إن بعثته عامة .

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ﴾ الاستفهام للتذكير والتعجيب من أمر ليس من شأنه أن يقع من العاقل والفاء عطف على محذوف تقديره على الوجه الأول . اغر أهل تلك القرى ماكانوا فيه من نعمة حين كذبوا الرسل فأمنوا أن يأتيهم بأسنا ؟ إلخ وعلى الثانى أجهل أهل مكة وغيرها من القرى التى بلغتها الدعوة ـ ومثلها من ستبلغها ـ مانزل بمن قبلهم وغرهم ماهم فيه من نعمة فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم - أو إتيان بيات — وهو الهجوم على العدو ليلا وهو بائت فقوله « وهم نائمون » حال مبينة لغاية الغفلة وكون الأخذ على غرة كما قال فيمن عذبوا « فأخذتهم بغتة » وليراجع تفسير الآية ٣ من هذه السورة وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون)

﴿ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر « أو » بسكون الواو ، والمعنى بحسب أهل اللغة أأمنوا ذلك الاتيان أو هذا ؟ وهو لايمنع الجمع بين الامنين — وقرأ الباقون بفتح

الواو على أن الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف كالذى قبله ، وقد أعيد الاستفهام وما يتعلق به لنكتة وضع المظهر موضع المضمر التى بيناها آنفا . والضحى انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت ، أو ضوء الشمس فى شباب النهار ، واختاره الاستاذ الإمام ، واللعب بفتح اللام وكسر العين مالا يقصد فاعله بسبب منفعة ولا دفع مضرة بل يفعله لانس له به أو لذة له فيه كلعب الأطفال ، وما يقصد به العقلاء رياضة الجسم قد يخرج عن حقيقة اللعب ويكون إطلاقه عليه مجازيا بحسب صورته ، وكم من عمل صورته لعب أو هزل ، وحقيقته حكمة وجد ، وكم من عمل هو عكس ذلك كالعمل الفاسد الذى يقصد به مايظن أنه نافع وهو ضارّ ، وما يتوهم انه حكمة وهو عبث وخرق ، وقد يكون إطلاق اللعب على أعمال هؤلاء الجاهلين الغافلين من هذا الباب ، أى أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى وقت الضحى وهم منهمكون فى أعمالهم التى تعد من قبيل لعب الأطفال لعدم فائدة تترتب عليها مطلقاً أو بالنسبة إلى ما كان يجب تقديمه عليها من سلوك سبيل السلامة من العذاب ؟

فأما أهل القرى من الغابرين فالظاهر ماحكاه الله تعالى عنهم أنهم كانوا آمنين إتيان هذا العذاب ليلا ونهاراً فكان إتيانه إياهم فجأة فى وقت لايتسع لتلافيه وتداركه فالاستفهام لايظهر فى شأنهم إلا بتأول لايحتاج إلى مثله فى أهل القرى الحاضرين ، ومن سيكون فى حكمهم من الآتين ، والمراد أنه لم يكن لهم أن يأمنوا لو كانوا يعلمون ، فان وجود النعم ليس دليلا على دوامها ، فكم من نعمة زالت بكفر أهلها ، وهذا ما كان يجهله الذين قالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ، فرأوا صورة الواقع وجهلوا أسبابه ، وأما الحاضرون فلا يعذرون بالجهل بعد أن بين لهم القرآن كنه الأمر ، وسنن الله فى الخلق ، ولكن أدعياء القرآن ، قد صاروا أجهل البشر بما جاء به القرآن ، ويدعى بعضهم أن سبب جهلهم الانتماء إلى دين القرآن ! ! !

﴿ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ قال الراغب المكر صرف الغير عما تقصده بحيلة . وقسمه إلى محمود ومذموم . وأصح منه وأدق قولنا فى تفسير (٣ : ٥٤ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) : المكر فى

الأصل التدبير الخفي المفضي بالممكور به إلى مالا يحتسب . وقفينا على هذا التعريف ببيان السيء والحسن من المكر وكون الأكثر فيه أن يكون سيئا كالشأن في غيره من الامور التي يتحرى إخفاؤها ، وفيه أن مكر الله تعالى وهو تدبيره الذي يخفى على الناس إنما يكون باقامة سننه و إتمام حكمه ، وكلها خير في أنفسها وان قصر كثير من النـاس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم اهـ والمراد بالجهـل مايتعلق بصفات الله تعالى وسننه اغتراراً بالظواهر ، كأن يغتر القوى بقوته ، والغنى بثروته ، والعـالم بعلمه والعابد بعبادته . فيخطىء تقديره ماقدره الله تعالى فيظن أن ماعنده يبقى ، وما يترتب عليه من الآثار في ظنه لا يتخلف ، كما أخطأ الألمان في تقدير قوتهم وقوة من يقاتلهم من الدول فلم يحسبوا أن تكون دولة الولايات المتحدة منهم . والمعنى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بياتا أو ضحى وهم غافلون أنهم أمنوا مكر الله بهم باتيانهم من حيث لم يحتسبوا ولم يقدروا ؟؟ ان كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وقد سبق الكلام في خسران النفس في غير هذا الموضع

و إذا كان أمن العالم المدبر والصـالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلا يورث الخسر ، فكيف حال من يأمن مكر الله وهو مسترسل في معاصيه اتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ قال تعالى (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) فأعلم الناس بالله وأعبدهم له وأقربهم اليه هم أبعد خلقه عن الامن من مكره ، إذ لا يصح أن يأمن منه إلا من أحاط بعلمه ومشيئته ، وليس هذا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ، (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون به علما) ألم تر إلى الرسل الكرام كيف كانوا يستثنون مشـيئته حتى فيما عصمهم منه ؟ كقول شعيب الذى حكاه الله عنه قبيل هذه الآيات (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشـاء الله ربنا وسـع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا) وقد كان أصـلح البشر وخاتم الرسـل ﷺ يكثر من الدعاء بقوله « يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك » كما ثبت في الصحاح وقد ذكر تعالى أن الراسخين في العلم يدعونه بقوله (ربنا لاتزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمـة إنك أنت الوهاب)

وقال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ويقابل الأمن من مكر الله ضده وهو اليأس من رحمة الله . فكل منهما مفسدة تتبعها مفاسد كثيرة .

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ يقال هداه السبيل أو الشيء وهداه له وهداه إليه ـ اذا دله عليه و بينه له ، وأهل الغور من العرب كانوا يقولون هدى له الشيء بمعنى بينه له . نقله في (لسان العرب) وذكر أنه قد فسر به ما في الآية وأمثالها. وهذا التعبير ورد في سياق النفي والاستفهام. ومثله في سورة طه (٢٠ : ١٢ أفلم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرن يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولى النهى) وفي سورة (ألم ـ السجدة)(٣٢ : ٢٦ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم؟ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) والسياق الذي وردت فيه آية الأعراف التي نفسرها مثل السياق الذي وردت فيه آيتا طه والسجدة والاستفهام هنا داخل على فعل محذوف عطف عليه ما بعده كما سبق في نظائره وللتقدير وجوه كلها تقيد العبرة فهو مما تذهب النفس فيه مذاهب من أقربها أن يقال : أكان مجهولا ماذكر آنفا عن أهل القرى وسنة الله تعالى فيهم ولم يبين للذين يرثون الأرض من بعد أهلها قرنا بعد قرن وجيلا في أثر جيل ـ أو لم يتبين لهم به ـ أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم وهو أنهم خاضعون لمشيئتنا فلو نشاء أن نصيبهم ونعذبهم بسبب ذنوبهم أصبناهم كما أصبنا أمثالهم من قبلهم بمثلها. وقوله تعالى ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ معطوف على «أصبناهم» لأنه بمعنى نصيبهم إذ الكلام في الذين يرثون الأرض في العصر الحالي أو المستقبل على الاطلاق وليس في قوم معينين طبع الله على قلوبهم بالفعل كما ظن الزمخشري وغيره فمنعوا هذا العطف وقالوا المعنى: ونحن نطبع على قلوبهم . والمراد أنه ينبغي لمن يستخلفهم الله في الأرض ، ويرثون ما كان لمن قبلهم من الملك والملك ، ان يتقوا الله ولا يكونوا من المفسدين الظالمين ، ولا من المترفين الفاسقين ، وأن يعلموا أن من الحتم عقاب الأمم على السيئات ، وقد خلت من قبلهم المثلات فلم يكن ما حل بمن قبلهم من المصادفات ، بل هو من السنن المطردة بالمشيئة والاختيار ، فلا هوادة فيه ولا ظلم ولا محاباة . والناس في ذلك فريقان : فريق يصاب بذنبه ، فيتعظ و يتوب إلى ربه ، وفريق يصر عليه حتى يطبع على قلبه ،

وهو مستعار من طبع السكة ونقشها بصورة أو كتابة لاتقبل غيرها أو من الطبع الذى بمعنى الختم كقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) والطابع والخاتم (بفتح الباء والتاء) واحد. وقيل إنه مأخوذ من الطبع (بالتحريك) وهو الصدأ الشديد يعرض للسيف ونحوه فيفسده يقال طبع الطباع السيف والدرهم - أى ضربه، وطبع الكتاب وعلى الكتاب وختمه إذا ضرب عليه الطابع والخاتم بعد إتمامه ووضعه فى ظرفه حتى لا يدخل فيه شيء آخر. ومنه الطبع والطبيعة وهى الصفة الثابتة للشيء أو الشخص، فالسجية نقش النفس بصورة ثابتة لاتتغير لأن مايتغير لايسمى طبيعة. ومنه طبع الكتب فى الآلة المعروفة بالمطبعة سمى بذلك لأنه لا يقبل المحو والتغيير كالخط، على أن الناس قد صنعوا أحباراً لاتمحى أيضاً.

ولا يستعمل الطبع على القلوب إلا فى الشر والمراد به أنها وصلت من الفساد إلى حالة لاتقبل معها خيرا كالهدى والإيمان والعلم النافع الذى هو فقه الأمور ولبابها، وإنما يحصل بالإصرار على الشرور والمعاصى استحلالا واستحسانا لها حتى لا يعود فى النفس موضع لغيرها، قال تعالى فى اليهود (٤ : ١٥٤ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم : قلوبنا غلف — بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) أى إلا قليلا منهم وهم الذين لم يطبع على قلوبهم. وقال تعالى فى المنافقين (٩ : ٨٨ وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون) ومثله فى سورتهم. وقال هنا ﴿ فهم لايسمعون ﴾ أى فهم بهذا الطبع لايسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ، (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايعقلون) مايراد منها، لأن قلوبهم قد ملئت بما يشغلهم عنها، من آراء وأفكار وشهوات ملكت عليها أمرها، حتى صرفتهم عن غيرها فجعلتهم من (الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا).

قد كان ينبغى للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ماقصه عليهم من ذنوب الامم التى هلك بها من قبلهم وزال ملكهم، ودالت بسببها الدوله لأعدائهم، إذ بين لهم أن ذنوب الأمم لاتغفر كذنوب بعض الأفراد وسنته فيها لاتتبدل ولا تتحول، ولكنهم قصروا

أولا فى تفسير أمثال هذه الآيات المبينة لهذه الحقائق ، ثم فى وعظ الأمة بها ، وانذارهم عاقبة الإعراض عنها ، وترك الاتعاظ بتدبرها ، ومن يقرأ شيئا من تفسيرها فانما يعنى باعرابها ، والبحث فى الفاظها ، أو جدل المذاهب فيها ، ثم انهم يجعلون معانيها خاصة بالكافرين ، ويفسرون الكافرين بمن لا يسمون أنفسهم مسلمين ، وطالما انكر علينا بعض أدعياء العلم والدين، انناجعلنا الآيات التى نزلت فى الكفار، شاملة لأهل الإسلام والإيمان مأفوكين عن تدبرها المراد منها جاهلين للسنن العامة فيها وكذلك كان يقول أهل الكتاب من قبلهم ، فظنوا كما ظنوا أن الله تعالى يحابى الأقوام لأجل رسلهم ، وأنه يعطيهم سعادة الدنيا والآخرة بجاههم لا باتباعهم ، وقد راجت هذه العقائد الفاسدة فى المسلمين ، وكانت تجارة للشيوخ المقلدين الجامدين والدجالين الضالين المضلين (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) بل كانوا فتنة للكافرين ، وحجة على الدين ، كما بيناه من قبل وفى هذا السياق آنفا (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ؟ أفلا يعتبرون بقول رسولهم ﷺ « شيبتنى هود واخواتها » (1) (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون)

---

(١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَٰفِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ

وجه الخطاب فى هاتين الآيتين إلى النبى صلى الله عليه وسلم لأجل تسليته وتثبيت فؤاده بما فى قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من العبر والسنن التى

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن عقبة بن عامر وأبى جحيفة بسند صحيح ، ورواه هو والترمذى والحاكم عن غيرهما وفيه زيادة بيان لاخواتها وابن عساكر مرسلا بزيادة « وما فعل بالأمم قبلى » وهو وجه العبرة بهود

بين فقهها ومافيها من الحكم فى الآيات السبع التى قبلهما . قال تعالى

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ كلام مستأنف قفى به على جملة قصص الرسل عليهم السلام التى تقدمت وماعطف عليها من بيان حكمها وفقهها فكانت كالمذلكة لها ، فالقرى هنا هى المعهودة فى هذه القصص ، وحكمة تخصيصها بالذكر أنها كانت فى بلاد العرب ماجاورها وكان من بعد قوم نوح من العرب ، وكان أهل مكة وغيرهم من العرب الذين هم أول من وجهت اليهم دعوة الإسلام يتناقلون بعض أخبارها مبهمة مجملة ، وكانت على هذا كله قد طبعت على غرار واحد فى تكذيب الرسل ، والتمارى فيما جاؤابه من النذر ، إلى أن حل بهم النكال وأخذوا بعذاب الاستئصال ، فالعبرة فيها كلها واحدة. وليس كذلك قوم موسى فانهم آمنوا . وانما كذب فرعون وملؤه فعذبوا ، ولذلك أخر قصته

والمعني تلك القرى التى بعد عهدها ، وطال الأمد على تاريخها ، وجهل قومك أيها الرسول حقيقة حالها ، نقص عليك الآن بعض أنبائها ، وهو مافيه العبر منها ، وإنما قال نقص لاقصصنا لأن هذه الآية نزلت مع تلك القصص لابعدها .

﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أى ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم، وبالآيات التى اقترحوها عليهم لإقامة حجتهم ، بأن جاء كل رسول قومه بما أعذر به اليهم، فلم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجىء البينات بما كانوا كذبوا به من قبل مجيئها عند بدء الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده بما شرعه وترك الشرك والمعاصى . وقيل ان الباء للسببية والمعنى فما كانوا ليؤمنوا بعد بعثته بسبب تعودهم تكذيب الحق قبلها ، وهو تأويل واه جدا فان قوله فما كانوا نفى للشأن ، وليس من شأن كل من كذب بشىء أن يصر عليه بعد ظهور البينات على خطاه فيه ، ولكن شأن بعض المكذبين عنادا أو تقليداً أن يصروا عليه بعد إقامة البينة لأنها لاقيمة لها عندهم ، فهم إما جاحد معاند ضل على علم ، وإما مقلد يأبى النظر والعلم . على أن ماقالوه لايفهم من الآية إلا بتكلف يخالفه المتبادر من اللفظ . فالعجب ممن اقتصر عليه ولم يفهم غيره . وسيأتى فى سورة يونس بعد ذكر خلاصة قصة نوح عليه السلام . ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب

المعتدين) فالمراد بهؤلاء الرسل الذين بعثوا بعد نوح من ذكروا فى سورة الاعراف، ولذلك قال هنا وهنالك (ثم بعثنا من بعدهم موسى) وحينئذ يحتمل أن يقال فى آية الاعراف أن أهل تلك القرى فى جملتهم ومجموعهم لم يكن من شأنهم أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم وهم قوم نوح بالنسبة إلى الجميع ثم قوم هود بالنسبة إلى قوم صالح الخ والراجح المختار هو الأول ـ و يليه هذا ـ والثاني باطل ألبتة .

﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ أى مثل هذا الذى وصف من عناد هؤلاء واصرارهم على ضلالهم ، وعدم تأثير الدلائل والبينات فى عقولهم ، يكون الطبع على قلوب الذين صار الكفر صفة لازمة لهم ، بحسب سنة الله تعالى فى أخلاق البشر وشؤونهم ، وذلك بأن يأنسوا بالكفر وأعماله حتى تستحوذ أوهامه على أفكارهم ، ويملأ حب شهواته جوانب قلوبهم ، ويصير وجدانا تقليديا لهم ، لا يقبلون فيه بحثا، ولا يسمعون فيه نقداً ، فيكون كالسكة التى طبعت فى أثناء لين معدنها بصهره واذابته ثم جمدت فلا تقبل نقشا ولا شكلا آخر .

ومن وجوه تسلية النبي ﷺ بالآية إعلامه ان من وصلوا بالاصرار على الجحود والعناد أو التقليد إلى هذه الدرجة من فساد الفطرة واهمال استعمال العقل لا يؤمنون بالبينات وإن وضحت ، ولا بالآيات وإن اقترحت ، فقد كان كفار مكة يقترحون عليه الآيات وكان يتمنى أن يؤتيه الله ما اقترحوا منها حرصا على إيمانهم حتى بين الله تعالى له هذه الحقائق من طباع البشر واخلاقهم ، وتقدم هذا البيان فى آيات من اوائل سورة الانعام وأثنائها ، ومما يناسب ماهنا منها قوله تعالى (٦:١٠٨ وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل إنما الآيات عند الله ، ومايشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون (١١٩) ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) فقوله تعالى (كما لم يؤمنوا به أول مرة) بمعنى قوله هنا « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » .

﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ العهد الوصية بمعنى إنشائها وبمعنى متعلقها وهو ما يوصى به الموصى . وعهدت إليه بكذا وصيته بفعله أو حفظه . ويكون بين طرفين وهو المعاهدة كما يكون من طرف واحد وهو من يعهد إليك

بشيء ، ومن تلتزم له شيئاً . والميثاق العهد الموثق بضرب من ضروب التأكيد . قال تعالى (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) أى أوفوا بما عهدت به إليكم أوف لكم بما وعدتكم به من الجزاء على ذلك . وكل منهما يسمى عهد الله . وقال الراغب : عهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا وتارة يكون بما أمرنا به فى الكتاب وبألسنة رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع كالنذور ومايجرى مجراها اه .
والمراد من الأول العهد الذى تقتضيه فطرة الله التى فطر الناس عليها فهى عهد منه يطالب الناس به ويحاسبهم عليه ومنه الحنيفية وأصلها الميل عن جانب الباطل والشر إلى جانب الحق والخير ، فقد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبي فوق جميع قوى العالم — وعلى إيثار ما تراه حسنا واجتناب غيره — وعلى حب الكمال وكراهة النقص . ولكنهم يخطئون فى تحديد هذه المعانى ويحتاجون إلى بيانها بوحى من الله تعالى وهو عهد الله المفصل الذى يرسل به رسله لمساعدة الفطرة على تزكية النفس وإزالة ما يطرأ عليها من الفساد بالجهل وسوء الاختيار .
ومن الأصول العامة لعهد الله العام ، على ألسنة الرسل عليهم السلام ، ما بينه تعالى فى أوائل هذه السورة بعد بيان النشأة الآدمية ، والنشأة الشيطانية ، وما بينهما من التنافر والتعادى ، أعنى تلك المناداة التى نادى بها بنى آدم فى الآيات العشر من ٢٥ إلى ٣٤ ومنها التحذير من فتنة الشيطان وهو ماعهده إليهم بقوله (ألم أعهد إليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان[1]) (ومنها) الوصايا العشر التى هى أصول الدين وقواعده الكبرى فى الآيات الثلاث ١٥١ — ١٥٣ من سورة الانعام وفى الثانية منها قوله تعالى (وبعهد الله أوفوا) [2] .

وقد فسر بعض السلف العهد بالميثاق الفطرى العام الذى يأتى بيانه فى قوله تعالى من هذه السورة (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) الخ رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية وابن المنذر عن أبىّ بن كعب ، وهما وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد

---

(١) راجع تفسيرها فى ص ٣٥٧ — ٤٠١ ج ٨ تفسير .
(٢) راجع تفسيرها فى ص ١٨٣ — ١٩٩ ج ٨ تفسير .

وروى أبو الشيخ عن قتادة قال : لما ابتلاهم بالشدة والجهد والبلاء ثم أتاهم بالرخاء والعافية ذم الله أكثرهم عند ذلك فقال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) ويعنى ما تقدم من شأن الفطرة فى الرجوع إلى الله عند الشدة وكون هؤلاء لم تؤدبهم البأساء والضراء . وهذا فرع من فروع العهد الفطرى ، وقيل انه أراد به أنهم كانوا يعاهدون الله تعالى عند الضيق بأن يشكروا له و يوحدوه إذا أنجاهم كما حكى عن بعضهم فى عدة سور . وروى عن ابن مسعود تفسير العهد بالإيمان أخذا من قوله تعالى (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) وهو يتفق مع القول الأول وان لم يصرح به كما قال الحافظ ابن كثير فى تفسير الجملة : وماوجدنا لأكثرهم أى لأكثر الأمم الماضية من عهد (ثم قال) والعهد الذى أخذه هو الذى جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم فى الاصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لامن عقل ولا من شرع ، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك كما جاء فى صحيح مسلم « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » الحديث : ا هـ

والصواب أن العهد يعم هنا كل ما يصلح له من عهد فطرى وشرعى وعرفى مما يلتزمه الناس بعضهم مع بعض فى تعاهدهم وتعاقدهم لأنه جاء نكرة فى سياق النفى مع تأكيد النفى بمن ، كأنه قال : وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهداً ما يفون به ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أى وإن الشأن الذى وجدنا عليه أكثرهم هو التمكن من الفسوق وهو الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر ، وغير ذلك من المعاصى . وإنما حكم على الأكثر لأن بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهد الله عليه أو عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس ، ومنهم من كان يفى ببعض ذلك حتى فى حال الكفر إذ لا تتفق أفراد أمة كبيرة على الشر والباطل فى كل شىء ، وهذا من دقة القرآن فى تحديد الحقائق بالصدق الذى لاتشوبه شبهات المبالغة بما يسلب أحداً حقه أو يعطى أحداً غير حقه ، وقد نوهنا

بهذه الدقة من قبل ، وغفل عنها بعض المفسرين فزعموا هنا أن المراد بالأكثر الكل فى الكل

والفسق فى الأصل أعم من نكث العهد ويتساوى مفهومهما بما فسرنا به عموم العهد هنا . ففى التعبير من محاسن الكلام الطرد والعكس ، باعتبار مدلول اللفظ ، إذ الأول يقرر بمنطوقه مفهوم الثانى الذى يقرر بمفهومه منطوق الأول . وفيه الجناس التام بين وجدنا الأولى وهى بمعنى ألفينا والثانية وهى بمعنى علمنا ـ والمقابلة بين النفى والاثبات فى سلب الوجود الأول واثبات الثانى

---

(١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَٰئِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ؟ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَٰشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ

﴿ قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴾

هو موسى بن عمران ـ بكسر العين ـ وأهل الكتاب يضبطون اسم والده بالميم فى آخره (عمرام) و بفتح أوله ، وجميع الأمم القديمة والحديثة تتصرف

فى نقل الأسماء من لغات غيرها إلى لغتها . ومعنى كلمة « موسى » المنتاش من الماء أى الذى أنقذ منه ، وروى أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال : انما سمى موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر ، فالماء بالقبطية « مو » والشجر « سى » . وذلك أن أمه وضعته بعد ولادته فى تابوت (صندوق) أقفلته إقفالا محكما وألقته فى اليم (بحر النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور بنى اسرائيل عند ولادتهم و يتركون إناثهم — وقالت لأخته قصيه أى تتبعيه لنعلم أين ينتهى ومن يلتقطه ، حتى لا يخفى عليها أمره ، فمازالت أخته تراقب التابوت على ضفاف اليم حتى رأت آل فرعون ملك مصر يلتقطونه إلى آخر ماقصه الله تعالى من خبره فى سورة القصص .

وقد ذكرت قصته فى عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة أولها هذه السورة (الأعراف) فهى أول السور المكية فى ترتيب المصحف التى ذكرت فيها قصته، ومثلها فى استقصاء قصته طه والشعراء و يليها سائر الطواسين الثلاثة (النمل والقصص) وقد ذكر بعض العبر من قصته فى سور أخرى كيونس وهود والمؤمنين وذكر اسمه فى سور كثيرة غيرها بالاختصار ولاسيما المكية وتكرر ذكره فى خطاب بنى اسرائيل من سورة البقرة المدنية وذكر فى غيرها من الطول والمئين والمفصل حتى زاد ذكر اسمه فى القرآن على ١٣٠ مرة فلم يذكر فيه نبى ولاملك كما ذكر اسمه

وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من حيث إنه أوتى شريعة دينية دنيوية ، وكون الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية ، وسنبين ما فيها وفى غيرها من حكم التكرار واختلاف التعبير فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ﴾ هذه القصة معطوفة على جملة ما قبلها من القصص من قوله تعالى (لقد أرسلنا نوحا) إلى قوله (و إلى مدين أخاهم شعيباً) — القصة ، فهى نوع وهن نوع آخر ، والفرق بين النوعين أن تلك القصص متشابهة فى تكذيب الاقوام فيها لرسلهم ومعاندتهم إياهم و إيذائهم لهم، وفى عاقبة ذلك باهلاك الله تعالى إياهم بعذاب الاستئصال . ولذلك عطف كل واحدة منهن على الأولى بدون إعادة ذكر الارسال

للايذان بأنها نوع واحد فقال (و إلى عاد أخاهم هوداً . . و إلى ثمود أخاهم صالحاً . . ولوطاً ... و إلى مدين اخاهم شعيباً) وقد أعاد فى قصة موسى ذكر الارسال للتفرقة ولكن بلفظ البعث وهو أخص وأبلغ من لفظ الارسال لأنه يفيد معنى الاثارة والازعاج إلى الشيء المهم، ولم يذكر فى القرآن إلا فى بعث الموتى وفى الرسالة العامة أى بعث عدة من الرسل، وفى بعثة نبينا وموسى خاصة، وكذا فى بعث نقباء بنى اسرائيل و بعث من انتقم منهم وعذبهم وسباهم حين أفسدوا فى الأرض. فالتعبير بلفظ البعث هنا يؤكد ما أفادته اعادة العامل من التفرقة بين نوعى الارسال - أعنى أن لفظه الخاص مؤكد لمعناه العام - كما يؤكدها عطف هذه القصة على أولئك بثم التى تدل على الفصل والتراخى إما فى الزمان و إما فى النوع أو الرتبة والأخير هو المراد هنا. و بيانه أن هذا الارسال وما ترتب عليه وأعقبه فى قوم موسى مخالف لجملة ما قبله مخالفة تضاد فقد أنقذت به أمة من عذاب الدنيا وهو تعبيد فرعون وملئه لها وسومهم إياها أنواع الخزى والنكال، واهتدت إلى عبادة الله تعالى وحده و إقامة شرعه فأعطاها فى الدنيا ملكا عظيما، وجعل منها أنبياء وملوكا، وأعد بذلك المهتدين منها السعادة الآخرة الباقية فأين هذا الارسال من ذلك الارسال، الذى أعقب أقوام أولئك الرسل فى الدنيا عذاب الاستئصال، وفى الآخرة ما هو أشد وأبقى من الخزى والنكال؟ وقد يظهر للتراخى الزمانى وجه باعتبار كون العطف على قصة نوح فان ما عطف عليها من قصص ومن بعده قد جعل تابعاً ومتمما لها بعدم إعادة العامل «أرسلنا» كما تقدم آنفاً، و إلا فان شعيباً وهو آخر أولئك الرسل كان فى زمن موسى وهو حموه، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى وهو لديه مع زوجه وأولاده فى سيناء وأرسله منها إلى فرعون وملئه لانقاذ بنى اسرائيل من حكمه وظلمه. ويؤيد ذلك كله أن الله تعالى ذكر إرسال نوح فى سورة يونس وقفى عليه بقوله: (ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم) الخ وقال بعد هذا (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملئه) ومن المعلوم عقلا واستنباطاً أن التراخى بين بعثة نوح ومن بعده من الرسل زمانى اذ كان بعد تناسل الذين نجوا معه فى السفينة وتكاثرهم وصيرورتهم شعوبا وقبائل، وهذا الاجمال فى سورة يونس فى الرسل مبنى على التفصيل الذى سبقه فى سورة الاعراف التى نزلت قبلها أو هو أعم منه فان الأمم قد كثرت بين نوح وموسى عليهم السلام وقد قال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) وقال لخاتم رسله (منهم من قصصنا

عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وقد بينا حكمة تخصيص من ذكر فى هذه السورة منهم بالذكر وكذا من ذكر فى سورة الأنعام وغيرها

والمعنى ثم بعثنا من بعد اولئك الرسل موسى بآياتنا التى تدل على صدقه فيما يبلغه عنا إلى فرعون وملئه . أما فرعون فهو لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم . وكسرى لملوك الفرس الأولين و « الشاه » لملوك الايرانيين فى هذا العصر ، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضاً . واختلف فى اشتقاق كلمة فرعون ومعناه ، وفى إسم فرعون موسى وزمنه ، وليس فى الآثار المصرية ما يبين هذا ، وأما ملؤه فهم أشراف قومه ورجال دولته ، ولم يقل إلى فرعون وقومه لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبنى إسرائيل وبيدهم أمرهم وليس لسائر المصريين من الأمر شيء ولأنهم كانوا مستعبدين أيضا ولكن الظلم على بنى إسرائيل الغرباء كان أشد ، وإنما بعث الله تعالى موسى لإنقاذ قومه بني إسرائيل من فرعون ورجال دولته وإقامة دين الله تعالى بهم فى بلاد أجدادهم ، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر قومهم لأنهم كانوا تبعاً لهم بل كان هذا شأن جميع الأقوام مع ملوكهم المستبدين الجائرين ، وقد علم الله تعالى أن فرعون وملأه لا يؤمنون بموسى وإن قومه تبع له لا اختيار لهم وأكثرهم مقلدون ولذلك قتل السحرة لما آمنوا بموسى ، وإنما آمنوا لأنهم كانوا علماء مستقلى العقل أصحاب فهم ورأى ، وكان السحر من علومهم وفنونهم الصناعية التى تتلقى بالتعليم وليس كالآيات التى جاء بها موسى فانها من خوارق العادات التى لا يقدر عليها إلا الله تعالى

وقد أقام الله تعالى الحجة بآيات موسى على فرعون وملئه ﴿ فظلموا بها ﴾ أى فظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبراً وجحوداً فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم ، كما كان يكون لهم مثل اجورهم لو آمنوا بالتبع لهم ، وجملة القول أن موسى عليه السلام كان مرسلا إلى قومه بنى إسرائيل بالذات وإلى فرعون وملئه بالتبع . ولك أن تقول إن الإرسال إلى بنى إسرائيل مقصد وإلى فرعون وملئه وسيلة . وقد عدى الظلم فى الجملة بالباء لتضمينه معنى الكفر فصار جامعاً للمعنيين ولا يصح تفسيره بأحدهما إذ لو أريد أحدهما لعبر به ولم يكن للتضمين فائدة . وقيل إن الباء فى قوله «فظلموا بها» للسببية أى فظلموا أنفسهم وقومهم بسبب هذه الآيات ظلماً جديداً

وهو ماترتب على الجحود من العذاب بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ثم بالغرق كما سيجيء فى محله ، والأول أظهر وأبلغ على أنه لاتنافى بينهما فى المعنى

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أى فانظر ايها الرسول — أو أيها السامع والتالى بعين العقل والفكر كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين فى الأرض بالظلم واستعباد البشر حين جحدوا آيات الله وظلموا بهـا عملا بمقتضى فسادهم ، وهـذا تشويق لتوجيه النظر لما سيقصه تعـالى من عاقبة أمرهم إذ نصر عبده ورسوله موسى عليهم وهو فرد من شـعب مستضعف مستعبد لهم ، وهم أعظم أهل الأرض دولة وصولة وقوة ، نصره عليهم أولا بإبطال سحرهم و إقناع علمائهم وسحرتهم بصحة رسالته وكون آياته من الله تعالى ، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد ثم بانقاذ قومه و إغراق فرعون ومن اتبعه من ملئه وجنوده وهذه عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدة الدهر ، على القائلين إنما الغلب للقوة المادية على الحق ، ولا سيما المغرورين بعظمة دول اوربة الظالمة لمن استضعفتهم من أهل الشرق ، وعلى أولئك الباغين بالاولى ، فأولى لهم اولى ، ثم اولى لهم اولى

بعد هذا التشويق والتنبيه قص تعـالى علينا ما كان من مبدأ أمر اولئك المفسدين الذى انتهى إلى تلك العاقبة فقال : ﴿ وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ نبدأ بما فى هذه الآية من المباحث اللفظية والقراءات ونكت البلاغة لتفهم عبارتها كما يجب و يكون سياق القصة بعد ذلك متصلا بعضه ببعض ، وفيها بحثان دقيقان . أحدهما بدء القصة بالعطف وكونه بالواو ، والثانى قول موسى (ع م) (حقيق على أن لاأقول على الله إلا الحق)

لم أر من تـكلم على وجه بدء الآية بالعطف و بيان المعطوف عليـه والتفرقة بينها و بين مثلها من سياق القصة فى سورة طه إذ قال بعد أمر موسى بالذهاب مع أخيه هرون إلى فرعون وتبليغه الدعوة مبينا كيف كان امتثالها الأمر (إنا قـد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) فجاء به مفصولا على وجه الاستئناف البيانى غير موصول بالواو ولا بأو ولا بالفاء ، ومثله فى الفصـل قوله تعالى فى القصص التى قبل قصـة موسى من هذه السـورة (و إلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله) وكذا مابعده من قصـة صالح ولوط وشـعيب ، ولم يقل

فقال أو وقال لكنه عطف تبليغ نوح (عم) قبلها بالفاء (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله) الآية وقد بينا الفرق بين هذا الوصل وما بعده من الفصل فى قصة هود عليه السلام

والحاصل أن لدينا هنا عطفا بالفاء فى قصة نوح وعطفا بالواو فى قصة موسى وفصلا بيانيا فى القصص التى بينهما يشبهه الفصل فى قصة موسى فى سور أخرى وله نظائر كثيرة. فأما الأول فعطف التبليغ فيه على الارسال بالفاء لافادة التعقيب وعدم جواز تأخير تبليغ الدعوة. وأما الفصل فى القصص بعده فلأنه لما صار هذا معلوما وكان ماجرى من أمر قوم نوح عبرة لقوم هود وكانا معا عبرة لقوم صالح وهلم جرا - حسن فى كل قصة من هذه الفصل على أنه جواب لسؤال مقدر، كأن قائلا يقول فى كل منها ماذا كان من أمر هذا النبى مع قومه ؟ كما تقدم بيانه. وأما الأخير الذى نحن بصدده فوجه العطف فيه وكونه بالواو وهو أنه قد قفى فى قصة موسى هنا على ذكر إرساله إلى فرعون وملئه بذكر نتيجة هذا الارسال وعاقبته بالاجمال وهو قوله تعالى (فظلموا بها) الخ. وبدئت القصة بعده بتفصيل ذلك الاجمال ومقدمات تلك النتيجة فكان المناسب أن يعطف عليها لا أن يستأنف استئنافا بيانيا لما هو ظاهر من الاشتراك بين المقدمات والنتيجة، أو بين التفصيل والاجمال - وأن يكون العطف بالواو لا بالفاء لان الفاء تدل على التعقيب والترتيب وهو لا يصح هنا لانه يقتضى أن تكون المقدمات متأخرة عن النتيجة وذلك باطل بالبداهة، فتعين أن يكون العطف بالواو، وهذه دقة فى البلاغة لا يهتدى إلى مثلها إلا غواصو بحر البيان، ولا يكادون يجدون فرائدها إلا فى أسلوب القرآن، وأعجب للامام الزمخشرى كيف غفل عنها إذ لم يتعرض المسألة من أصلها

وحكمة بدء القصة بذكر نتيجتها والعبرة المقصودة منها، هى - والله أعلم - أن تكون متصلة بما يناسبها من العبرة فى القصص التى قبلها، من حيث إهلاك معاندى الرسل عليهم السلام جحودا واستكبارا، وقد ذكرت هذه العبرة بعد جملة تلك القصص لتشابهها مبدأ وغاية كما تقدم، وقصة موسى ﷺ طويلة فهى تساويها فى هذا من حيث رسالته إلى فرعون وملئه فقط. وفيها عبر أخرى فيما تشابه به أمر خاتم الرسل ﷺ من حيث إرساله إلى بنى إسرائيل و إرسال محمد خاتم النبيين إلى العرب وسائر البشر وتوفيق الله قومهما للايمان ونشر شريعتهما فيمن أرسلا اليهم - إلى آخر

مابيناه آنفا فى نكتة عطفها على ماقبلها بثم ونكتة التعبير بمثنا ، ولذلك ذكر فى أواخرها تبشير موسى وكذا عيسى بالنبى الأمى الخاتم محمد صلوات الله عليهم أجمعين

وأما قوله (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) على قراءة الجمهور فقد جاء على غير المشهور عن العرب فى هذه الكلمة إذ يقولون: أنت حقيق بكذا ـ وأنت حقيق بأن تفعل كذا، كما يقولون أنت جدير به وخليق به ، ولم ينقل عنهم استعماله بعلى ولكن ورد فى كلامهم استعمال «على» بمعنى الباء كقولهم: اركب على اسم الله ـ وهو الذى اعتمده ابن هشام فى المغنى فى تخريج الآية عند ذكر المعنى السابع من معانى «على» الجارة وأيده بقراءة أبى بن كعب رضى الله عنه (حقيق بأن لا أقول) ومثلها قراءة عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه (حقيق أن لا أقول ..) لأن المتبادر أن الجار المحذوف من أن هو الباء وحذف الجار من أن الخفيفة وأن المشددة قياسى معروف. وقد سبقه إلى هذا الاختيار بعض المفسرين، قال الحافظ ابن كثير فى الجملة عن بعضهم: معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق ، أى جدير بذلك وحرى به قالوا والباء وعلى يتعاقبان يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبحال حسنة . وقال بعض المفسرين : معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق اه والمراد من القول الثانى أن حقيقا قد ضمن معنى الحرص وهو منقول عن الفراء النحوى المفسر المشهور ، وقد بينا مراراً أن التضمين جمع بين المعنى الأصلى للكلمة والمعنى الذى أفادته التعدية فيكون المراد من العبارة : إنى رسول من رب العالمين حقيق وجدير بأن لا أقول على الله إلا الحق وحريص على ذلك فلن أخل به، وما قيل من أنه قلب الحقيقة إلى المجاز أو من باب الاغراق فى وصف موسى نفسه بالصدق حتى جعل قول الحق كأنه يسعى ليكون هو قائله والقائم به ولا يرضى أن ينطق به غيره ـ فلا يخلو من تكلف ، وإن قال الزمخشرى فى الأخير إنه هو الأوجه الأدخل فى نكت القرآن

وقرأ نافع (حقيق عليّ أن لا أقول على الله إلا الحق) أى واجب وحق على أن لا أخبر عنه تعالى إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من عز جلاله وعظيم شأنه ـ كما قال الحافظ ابن كثير . إذ علم هذا فنقول فى تفسير الآيات :

بلغ موسى ﷺ فرعون أنه رسول من رب العالمين كلهم — أى سيدهم

ومالكهم ومدبر جميع أمورهم ـ وأنه بمقتضى هذه الرسالة لايقول على الله إلا الحق إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، فهو حقيق بالصدق والتزام الحق فى التبليغ عن ربه ومعصوم من الكذب والخطأ فيه ، وشديد الحرص عليه بماله من الكسب والاختيار — فاشتمل كلامه على عقيدة الوحدانية وهى أن العالمين كلهم رباً واحداً ، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة فى التبليغ والهداية ، وقد ناقشه فرعون البحث فى وحدانية الربوبية العامة لله تعالى كما هو مبين فى سورة الشعراء فوصفه موسى بما يليق به تعالى ، ويوضح المعنى المراد فى أجوبة عدة أسئلة أوردها عليه ، وقد سأله هو وهارون عن ربهما فى سياق سورة طه ، وجاء فيما حكاه الله تعالى عنهما فيها ذكر البعث والجزاء . وكان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث كما يؤمنون بالرب الاله الغيبى ولكنهم شابوا العقيدتين بنزغات الشرك وبعض الخرافات الناشئة عنه .

فعلم من هذا أن موسى قد بلغ فرعون وملأه أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد والرسالة والبعث والجزاء ، وفى كل سياق من قصة موسى المكررة فى عدة سور فوائد فى ذلك وفى غيره لا توجد فى الأخرى — وأبسطها وأوسعها بيانا هذه السورة (الأعراف) وطه والشعراء والقصص — وإنما التكرار لجملة القصة لا التفصيل لها كما سيأتى :

ثم ذكر أن الله تعالى أيده ببينة تدل على صدقه فى دعواه وتبليغه عنه ورتب عليه ماهو مقصود له بالذات أو بالقصد الأول فقال حكاية عنه : ﴿ لقد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ أى قد جئتكم ببينة عظيمة الشأن ، ظاهرة الحجة فى بيان الحق ، فتنكير البينة للتفخيم ، والتصريح بكون هذه البينة المعجزة من عند ربهم نص على أنهم مربوبون ، وأن فرعون ليس ربا ولا إلها ، وعلى أنها أى البينة ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به عليه السلام — وبنى على هذا قوله (فأرسل معى بنى إسرائيل) أى بأن تطلقهم من أسرك ، وتعتقهم من رق قهرك ، ليذهبوا معى إلى دار غير ديارك ، ويعبدوا فيها ربهم وربك . وبم أجاب فرعون ؟

﴿ قال : إن كنت جئت بآية ﴾ أى قال فرعون لموسى عليه السلام : إن

كنت جئت مصحوبا ومؤيدا بآية من عند من أرسلك كما تدعى — والشرط بإن يدل على الشك فى مضمون الجملة الشرطية أو الجزم بنفيها — ﴿ فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾ فأتنى بها بأن تظهرها لدى إن كنت من أهل الصدق ، الملتزمين لقول الحق ، وهذا شك آخر فى صدقه ، بعد الشك فى مجيئه بالآية .

﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ أى فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التى كانت بيمينه أمام فرعون فإذا هى ثعبان — وهو الذكر العظيم من الحيات — مبين أى ظاهر بين لاخفاء فى كونه ثعباناً حقيقيا يسعى و ينتقل من مكان إلى آخر تراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها أنها تسعى كما سيأتى من أعمال سحرة فرعون — ونزع يده أى أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا فإذا هى بيضاء ناصعة البياض تتلألأ للناظرين إليه وهم فرعون وملؤه أولـكل من ينظره والنظارة هم الذين يجتمعون عادة لرؤية الأمور الغريبة . وقد وصف الله تعالى بياضها فى طه والنمل والقصص بأنه (من غير سوء) أى من غير علة كالبرص .

وفى التفسير المأثور روايات فى صفة الثعبان الذى تحولت إليه عصا موسى (ع . م) وفى تأثيره لدى فرعون ماهى إلا من الإسرائيليات التى لا يصح لها سند ولا يوثق منها بشىء ، ومنها قول وهب بن منبه : إن العصا لما صارت ثعبانا حملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا وقام فرعون منهزما . قال ابن كثير : رواه ابن جرير والامام احمد وابن أبى حاتم وفيه غرابة فى سياقه والله أعلم اه وقد اقتصرت على هذه الرواية لاقول انى أرجح تضعيف عمرو بن على الفلاس لوهب على توثيق الجمهور له بل أنا أسوأ فيه ظنا على ماروى من كثرة عبادته ، و يغلب على ظنى أنه كان له ضلع مع قومه الفرس الذين كانوا يكيدون للاسلام وللعرب و يدسون لهم من باب الرواية ومن طريق التشيع فقد ذكر الامام احمد أن والده منبها فارسى أخرجه كسرى إلى اليمن فأسلم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وأن ابنه وهباً كان يختلف من بعده إلى بلاده بعد فتحها وههنا موضع لشبهة فى الغرائب المروية عنه وهى كثيرة — ومثله عندى كعب الاحبار الإسرائيلى — كلاهما كان تابعيا كثير الرواية للغرائب التى لا يعرف لهـــا أصل منقول ولا معقول ، وقومهما كانوا يكيدون

للأمة الاسلامية العربية التى فتحت بلاد الفرس وأجلت اليهود من الحجاز، فقاتل الخليفة الثانى فارسى مرسل من جمعية سرية لقومه، وقتلة الخليفة الثالث كانوا مفتونين بدسائس عبد الله بن سبأ اليهودى . و إلى جمعية السبئيين وجمعيات الفرس ترجع جميع الفتن السياسية وأكاذيب الرواية فى الصدر الأول

﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾

﴿ فصل فى حقيقة السحر وأنواعه ﴾

كان السحر فنا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه فى مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون ، وكان كذلك عند أقرانهم من البابليين ، وكذا الهنود وغيرهم، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة اهتدى علماء الانكليز وغيرهم من الافرنج إلى تعليل بعضها أو كشف حقيقته ، ولا يزالون يجهلون تعليل بعض . والمعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها فمتى عرف سبب شىء منها بطل إطلاق اسم السحر عليه ، ولذلك كان الأقوام الجاهلون يعدون آيات الرسل الكونية التى يؤيدهم الله تعالى بها من قبيل السحر ، ويجعلون هذا مانعا من دلالتها على صدقهم وتأييد الله تعالى لهم ، لأن السحر صنعة تتلقى بالتعليم والتمرين فيمكن لكل أحد أن يكون ساحرا إذا أتيح له من يعلمه السحر . ومن المعلوم فى التاريخ القديم والحديث أن السحر لا يروج إلا بين الجاهلين ، وله المكانة المهيبة المخيفة بين اعرق القبائل فى الهمجية ، ولا يكاد يوجد فى البلاد التى ينتشر فيها العلم والعرفان بل يسمى أهله بأسماء أخرى كالمشعوذين والمحتالين والدجالين

وقد سبق لنا بيان حقيقة السحر فى قصة هاروت وماروت من جزء التفسير الأول ، وفى بعض مجلدات المنار وخلاصته أنه ثلاثة أنواع (أحدها) ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للعامل المجهولة عند من يسحرهم بها ومنها الزئبق الذى قيل إن سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيهم كما سيأتى .

ولو شاء علماء الطبيعة والكيمياء فى هذا العصر أن يجعلوا أنفسهم سحرة فى بلاد أواسط افريقية الهمجية وأمثالها من البلاد الجاهلة التى يروج فيها السحر العتيق لاروهم من عجائب الكهرباء وغيرها ما يخضعونهم به لعبادتهم لو ادعوا الالوهية فيهم ، دع دعوى النبوة أو الولاية . وقد اجتمع السحرة فى بعض هذه البلاد على بعض السياح الغربيين ليرهبوهم بسحرهم وكانوا فى مكان بارد والفصل شتاء فأخذ بعض هؤلاء السياح قطعة من الجليد وجعلها بشكل عدسى بقدر مايرى من قرص الشمس وقال لهم انى أعلم منكم بالسحر وانى أقدر به أن أجعل فى يدى شمسا كشمس السماء ثم وجه عدسيته إلى الشمس عند بزوغها واكتمال ضوئها فصارت بانعكاس النور فيها كالشمس لم يستطع السحرة أن يثبتوا نظرهم إليها فخضعوا له ولمن معه ، وكفوا شرهم عنهم خوفا منهم

(النوع الثانى) الشعوذة التى مدار البراعة فيها على خفة اليدين فى اخفاء بعض الأشياء واظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها ، وغير ذلك مما هو معروف فى هذه البلاد وغيرها من بلاد الحضارة بكثرة المكتسبين بها من الوطنيين والغرباء . ولم يبق أحد فى هذه البلاد يسميها سحرا

(النوع الثالث) ما مداره على تأثير الأنفس ذوات الارادة القوية فى الأنفس الضعيفة ذات الامزجة العصبية القابلة للاوهام والانفعالات التى تسمى فى عرف علماء هذا العصر بالهستيرية ، وهذا النوع هو الذى قيل إن أصحابه يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم الذين يكتبون الأوفاق والطلسمات للحب والبغض وغير ذلك . ومن يقول إن للحروف خواص وتأثيرات ذاتية يخرج عمل الأوفاق والنشرات وما فى معناها من السحر . ومن هذا النوع ما استحدث فى هذا العصر من التنويم المغناطيسى وأخباره مشهورة

ومما سبق لنا بيانه فى هذا الباب تخطئة من قال من المتكلمين إن السحر من خوارق العادات الذى هو الجنس الجامع لمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، وفاتهم أن السحر صناعة تتلقى بالتعليم ، كما ثبت بنص القرآن و بالاختبار الذى لم يبق فيه خلاف بين أحد من علماء الكون فى هذا العصر

ولعلمائنا كلام كثير في السحر بعضه صحيح و بعضه أوهام ، و إننا ننقل هنا كلام بعض كبار محققى المفسرين فيه . ومن أخصره وأفيده قول ابن فارس : هو إخراج الباطل فى صورة الحق . وقال الراغب الأصفهانى فى مفرداته لغريب القرآن مانصه:

تعريف السحر ومأخذه من اللغة

السحر[1] طرف الحلقوم والرئة ، وقيل انتفخ سحره و بعير سحر، عظيم السحر والسحارة (بالضم) ماينزع من السحر عند الذبح فيرمى به وجعل بناؤه بناء النفاية والسقاطة ، وقيل منه اشتق السحر وهو اصابة السحر . والسحر يقال على معان .

(الأول) خداع وتخييلات لاحقيقة لها نحو مايفعله المشعبذ بصرف الابصار عما يفعله لخفة يد ، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع ، وعلى ذلك قوله تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم) وقال (يخيل اليه من سحرهم) و بهذا النظر سموا موسى عليه السلام ساحراً فقالوا (يا أيها الساحر ادع لنا ربك)

(والثانى) استجلاب معاونة الشياطين بضرب من التقرب اليهم كقوله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم) وعلى ذلك قوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)

(والثالث) مايذهب اليه الأغتام وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع ، فيجعل الانسان حمارا ولا حقيقة لذلك عند المحصلين . وقد تصور من السحر تارة حسنه فقيل «إن من البيان لسحراً »وتارة دقة فعله حتى قالت الأطباء : الطبيعة ساحرة وسموا الغذاء سحرا من حيث أنه يدق و يلطف تأثيره. اه

وقد عقد الشيخ أبو بكر أحمد بن على الرازى المعروف بالجصاص من أئمة الحنفية فى القرن الرابع بابا خاصا من تفسيره الجليل (أحكام القرآن) لبيان معنى السحر وحكم الساحر عند كلامه على قوله تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) قال فى أوله «الواجب أن نقدم القول فى السحر لخفائه على كثير من أهل العلم فضلا عن العامة ، ثم نعقبه بالكلام فى حكمه فى مقتضى الآية فى المعانى والأحكام فنقول:

(١) ذكره بالفتح ، وفيه ثلاث لغات بأوزان فلس وسبب وقفل.

إن أهل اللغة يذكرون أن أصله فى اللغة لما لطف وخفى سببه ، والسحر عندهم بالفتح هو الغذاء لخفائه ولطف مجاريه . قال لبيد :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

«قيل فيه وجهان: نعلل ونخدع كالمسحور والمخدوع — والآخر نغذى . وأى الوجهين كان فمعناه الخفاء . وقال آخر :

فإن تسألينا : فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

«وهذا البيت يحتمل من المعنى ما احتمله الأول ، ويحتمل أيضا أنه أراد بالمسحر أنه ذو سحر . والسحر : الرئة وما يتعلق بالحلقوم ، وهذا يرجع إلى معنى الخفاء أيضا. ومنه قول عائشة « توفى رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى » وقوله تعالى (إنما أنت من المسحرين) يعنى من المخلوق الذى يطعم و يسقى. و يدل عليه قوله تعالى (وما أنت إلا بشر مثلنا) وكقوله تعالى (مالهذا الرسول يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق) و يحتمل أنه ذو سحر مثلنا. و إنما يذكر السحر فى مثل هذه المواضع لضعف هذه الأجساد ولطافتها ورقتها و بها مع ذلك قوام الانسان — فمن كان بهذه الصفة فهو ضعيف محتاج — وهذا هو معنى السحر فى اللغة، ثم نقل هذا الاسم إلى كل أمر خفى سببه وتخيل على غير حقيقته، ويجرى مجرى التمويه والخداع . ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله . وقد أجرى مقيدا فيما يمدح و يحمد ، كما روى «إن من البيان لسحرا»

وههنا ذكر الجصاص روايته لهذا الحديث وهو فى الصحيح وأطال الكلام عليه فى زهاء ورقة كبيرة ذكر فى أثنائه سحر سحرة موسى لأعين الناس وتخييلهم إن حبالهم وعصيهم تسعى ولم تكن تسعى ، وذكر ماقيل من حيلتهم فى ذلك بوضع الزئبق فيها وتحريك النار الخفية للزئبق فكان سبب حركتها، وسيأتى نقل ذلك عنه قريبا . ثم ذكر قصة تاريخية فى أصل السحر ببابل وقفى عليها ببيان أنواعه فقال :

كلام الجصاص فى السحر وأنواعه

«و إذ قد بينا أصل السحر فى اللغة وحكمه عند الإطلاق والتقييد فلنقل فى معناه فى التعارف والضروب الذى يشتمل عليها هذا الاسم وما يقصد به كل فريق

من منتحليه ، والغرض الذى يجرى اليه مدعوه ، فنقول وبالله التوفيق: إن ذلك ينقسم إلى أنحاء مختلفة .

« (فمنها سحر أهل بابل) الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) وكانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة . ويعتقدون ان حوادث العالم كلها من أفعالها ، وهم معطلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع للكواكب وجميع أجرام العالم ، وهم الذين بعث الله تعالى اليهم إبراهيم خليله صلوات الله عليه فدعاهم إلى الله تعالى وحاجهم بالحجاج الذى بهرهم به وأقام عليهم به الحجة من حيث لم يمكنهم دفعه ، ثم ألقوه فى النار فجعلها الله بردا وسلاما . ثم أمره الله تعالى بالهجرة إلى الشام . وكان أهل بابل واقليم العراق والشام ومصر والروم على هذه المقالة إلى أيام بيوراسب الذى تسميه العرب الضحاك . وان افريدون وكان من أهل دنباوند استجاش عليه بلاده وكاتب سائر من يطيعه وله قصص طويلة حتى أزال ملكه وأسره . وجهال العامة والنساء عندنا يزعمون ان افريدون حبس بيوراسب فى جبل دنباوند العالى على الجبال وأنه حى هناك مقيد ، وان السحرة يأتونه هناك فيأخذون عنه السحر وانه سيخرج فيغلب على الأرض وأنه هو الدجال الذى أخبر به النبي ﷺ وحذرناه ، وأحسبهم أخذوا ذلك عن المجوس . وصارت مملكة إقليم بابل للفرس ، فانتقل بعض ملوكهم اليها فى بعض الأزمان فاستوطنوها ، ولم يكونوا عبدة أوثان ، بل كانوا موحدين مقرين بالله وحده ، إلا أنهم مع ذلك يعظمون العناصر الأربعة الماء والنار والأرض والهواء لما فيها من منافع الخلق ، وان بها قوام الحيوان ، وانما حدثت المجوسية فيهم بعد ذلك فى زمان كشتاسب حين دعاه زرادشت فاستجاب له على شرائط يطول شرحها . وانما غرضنا فى هذا الموضع الابانة عما كانت عليه سحرة بابل . ولما ظهر الفرس على هذا الاقليم كانت تتدين بقتل السحرة وإبادتها ولم يزل ذلك فيهم ومن دينهم بعد حدوث المجوسية فيهم وقبله إلى أن زال عنهم الملك .

« وكانت علوم أهل بابل قبل ظهور الفرس عليهم الحيل والنيرنجيات وأحكام النجوم ،

وكانوا يعبدون أوثانا قد عملوها على أسماء الكواكب السبعة وجعلوا لكل واحد منها هيكلا فيه صنمه، ويتقربون اليها بضروب من الأفعال على حسب اعتقاداتهم من موافقة ذلك للكوكب الذى يطلبون منه بزعمهم فعل خير أو شر، فمن أراد شيئا من الخير والصلاح بزعمه يتقرب اليه بما يوافق المشترى من الدخن والرقى والعقد والنفث عليها ومن طلب شيئاً من الشر والحرب والموت والبوار لغيره تقرب بزعمه إلى زحل بما يوافقه من ذلك ، ومن أراد البرق والحرق والطاعون تقرب بزعمه إلى المريخ بما يوافقه من ذلك من ذبح بعض الحيوانات ، وجميع تلك الرقى بالنبطية تشتمل على تعظيم تلك الكواكب إلى ما يريدون من خير أو شر ومحبة وبغض فيعطيهم ماشاءوا من ذلك فيزعمون أنهم عند ذلك يفعلون ماشاءوا فى غيرهم من غير مماسة ولا ملامسة سوى ماقدموه من القربات للكوكب الذى طلبوا ذلك منه . فمن العامة من يزعم انه يقلب الانسان حمارا أو كلبا ثم إذا شاء أعاده، ويركب البيضة والمكنسة والخابية ويطير فى الهواء فيمضى من العراق إلى الهند وإلى ماشاء من البلدان ثم يرجع من ليلته.

« وكانت عوامهم تعتقد ذلك لأنهم كانوا يعبدون الكواكب وكل مادعا إلى تعظيمها اعتقدوه . وكانت السحرة تحتال فى خلال ذلك بحيل تموه بها على العامة إلى اعتقاد صحته ، بأن يزعم ان ذلك لا ينفذ ولا ينتفع به أحد ولا يبلغ مايريد إلا من اعتقد صحة قولهم وتصديقهم فيما يقولون

« ولم تكن ملوكهم تعترض عليهم فى ذلك بل كانت السحرة عندها بالمحل الأجل لما كان لها فى نفوس العامة من محل التعظيم والإجلال ، ولأن الملوك فى ذلك الوقت كانت تعتقد ماتدعيه السحرة للكواكب ، إلى أن زالت تلك الممالك . ألا ترى أن الناس فى زمن فرعون كانوا يتبارون بالعلم والسحر والحيل والمخاريق ولذلك بعث اليهم موسى عليه السلام بالعصا والآيات التى علمت السحرة أنها ليست من السحر فى شىء ، وأنها لايقدر عليها غير الله تعالى ، فلما زالت تلك الممالك وكان من ملكهم بعد ذلك من الموحدين يطلبونهم ويتقربون إلى الله

تعالى بقتلهم كانوا يدعون عوام الناس وجهالهم سرا كما يفعله الساعة كثير ممن يدعى ذلك مع النساء والاحداث الاغمار والجهال الحشو .

وكانوا يدعون من يعملون له ذلك إلى تصديق قولهم والاعتراف بصحته والمصدق لهم بذلك يكفر من وجوه (أحدها) التصديق بوجوب تعظيم الكواكب وتسميتها آلهة (والثاني) اعترافه بأن الكواكب تقدر على ضره ونفعه (والثالث) ان السحرة تقدر على مثل معجزات الأنبياء عليهم السلام . فبعث الله إليهم ملكين يبينان للناس حقيقة ما يدعون ، وبطلان ما يذكرون ، ويكشفان لهم ما به يموهون ، ويخبرانهم بمعاني تلك الرقى وانها شرك وكفر ، وبحيلهم التي كانوا يتوصلون بها إلى التمويه على العامة ، ويظهران لهم حقائقها ، وينهيانهم عن قبولها والعمل بها ، بقولهما لهم (إنما نحن فتنة فلا تكفر) فهذا أصل سحر بابل ومع ذلك فقد كانوا يستعملون سائر وجوه السحر والحيل التي نذكرها ويموهون بها على العامة ويعزونها إلى فعل الكواكب لئلا يبحث عنها ويسلمها لهم .

« فمن ضروب السحر كثير من التخيلات التي مظهرها على خلاف حقائقها (فمنها) ما يعرفه الناس بجريان العادة بها وظهورها ومنها ما يخفى ويلطف ، ولا يعرف حقيقته ومعنى باطنه إلا من تعاطى معرفة ذلك ، لان كل علم لا بد أن يشتمل على جلي وخفي وظاهر وغامض ، فالجلي منه يعرفه كل من رآه وسمعه من العقلاء والغامض الخفي لا يعرفه إلا أهله ومن تعاطى معرفته وتكلف فعله والبحث عنه وذلك نحو ما يتخيل راكب السفينة إذا سارت في النهر فيرى ان الشط بما عليه من النخل والبنيان سائر معه ، وكما يرى القمر في مهب الشمال يسير للغيم في مهب الجنوب ، وكدوران الدوّامة فيها الشامة فيراها كالطوق المستدير في ارجائها ، وكذلك يرى هذا في الرحى إذا كانت سريعة الدوران ، وكالعود في طرفه الجمرة إذا أداره مديره رأى تلك النار التي في طرفه كالطوق المستدير ، وكالعنبة التي يراها في قدح فيه ماء كالخوخة والاجاصة عظما ، وكالشخص الصغير يراه في الضباب عظيما جسيما ، وكبخار الأرض الذي يريك قرص الشمس عند طلوعها عظيما فإذا فارقته وارتفعت صغرت ، وكما يرى المرئيّ في الماء منكسراً أو معوجاء وكما يرى

الخاتم إذا قربته من عينك فى سعة حلقة السوار . ونظائر ذلك كثيرة من الأشياء التى تتخيل على غير حقائقها فيعرفها عامة الناس .

« ومنها مايلطف فلا يعرفه إلا من تعاطاه وتأمله كخيط السحارة الذى يخرج مرة أحمر ومرة أصفر ومرة أسود . ومن لطيف ذلك ودقيقه مايفعله المشعوذون من جهة الحركات واظهار التخيلات التى تخرج على غير حقائقها حتى يريك عصفورا معه أنه قد ذبحه ثم يريكه وقد طار بعد ذبحه وإبانة رأسه وذلك لخفة حركته ، والمذبوح غير الذى طار لانه يكون معه اثنان قد خبأ احدهما وأظهر الآخر ويخبأ لخفة الحركة المذبوح ويظهر الذى نظيره ، ويظهر انه قد ذبح انسانا ، وأنه قد بلع سيفا معه وأدخله فى جوفه ، وليس لشىء منه حقيقة .

« ومن نحو ذلك مايفعله أصحاب الحركات للصور المعمولة من صفر[1] أو غيره فيرى فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر وينصرف بحيل قد أعدت لذلك ، وكفارس من صفر على فرس فى يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد ولا يتقدم إليه .

« وقد ذكر الكلبي أن رجلا من الجند خرج ببعض نواحى الشام متصيداً ومعه كلب له وغلام فرأى ثعلباً فأغرى به الكلب ، فدخل الثعلب ثقبا فى تل هناك ودخل الكلب خلفه فلم يخرج فأمر الغلام أن يدخل فدخل وانتظره صاحبه فلم يخرج فوقف متهيئا للدخول ، فمر به رجل فأخبره بشأن الثعلب والكلب والغلام وأن واحداً منهم لم يخرج وانه متأهب للدخول ، فأخذ الرجل بيده فأدخله إلى هناك فمضيا إلى سرب طويل حتى أفضى بهما إلى بيت قد فتح له ضوء من موضع ينزل إليه بمرقاتين فوقف به على المرقاة الأولى حتى أضاء البيت حينا ثم قال له : انظر ، فنظر فإذا الكلب والرجل والثعلب قتلى ، وإذا فى صدر البيت رجل واقف مقنع فى الحديد وفى يده سيف فقال له الرجل : أترى هذا ؟ لو دخل إليه

---

(١) الصفر بضم الصاد وسكون الفاء النحاس .

هذا المدخل ألف رجل لقتلهم كلهم ، فقال : وكيف ؟ قال : لأنه قد رتب وهندم على هيئة متى وضع الانسان رجله على المرقاة الثانية للنزول تقدم الرجل المعمول فى الصدر فضربه بالسيف الذى فى يده ، فاياك أن تنزل إليه . فقال : فكيف الحيلة فى هذا ؟ قال : ينبغى أن تحفر من خلفه سردابا يفضى بك إليه ، فإن وصلت إليه من تلك الناحية لم يتحرك . فاستأجر الجندى أجراء وصناعا حتى حفروا سردابا من خلف التل فأفضوا إليه فلم يتحرك ، و إذا رجل معمول من صفر أو غيره قد ألبس السلاح وأعطى السيف ، فقلعه ، ورأى بابا آخر فى ذلك البيت ففتحه فاذا هو قبر لبعض الملوك ميت على سرير هناك ، وأمثال ذلك كثيرة جدا[(١)]

« ومنها الصور التى يصورها مصورو الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بين الإنسان و بينها ، ومن لم يتقدم له علم أنها صورة لا يشك فى أنها إنسان ، وحتى تصورها ضاحكة أو باكية وحتى يفرق فيها بين الضحك من الخجل والسرور ، وضحك الشامت .

« فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل وخفيها ، وما ذكرناه قبل من جليها وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب على النحو الذى بينا من حيلهم فى العصى والحبال . والذى ذكرناه من مذاهب أهل بابل فى القديم وسحرهم ووجوه حيلهم بعضه سمعناه من أهل المعرفة بذلك ، و بعضه وجدناه فى كتب قد نقلت حديثا من النبطية إلى العربية ، منها كتاب فى ذكر سحرهم وأصنافه ووجوهه وكلها مبنية على الأصل الذى ذكرناه من قربانات الكواكب وتعظيمها وخرافات معها لا تساوى ذكرها ولا فائدة فيها .

(وضرب آخر) من السحر وهو مايدعونه من حديث الجن والشياطين وطاعتهم لهم بالرقى والعزائم ، و يتوصلون إلى مايريدون من ذلك بتقدمة أمور ومواطأة قوم قد أعدوهم لذلك ، وعلى ذلك كان يجرى أمر الكهان من العرب فى الجاهلية ، وكانت أكثر مخاريق الحلاج من باب المواطآت ، ولولا ان هذا الكتاب لايحتمل

---

(١) هذا مايسميه العامة الى هذا العهد بالرصد .

استقصاء ذلك لذكرت منها ما يوقف على كثير من مخاريقه ومخاريق أمثاله[1] وضرر أصحاب العزائم ، وفتنتهم على الناس غير يسير ، وذلك انهم يدخلون على الناس من باب أن الجن انما تطيعهم بالرقى التى هى أسماء الله تعالى فانهم يجيبون بذلك من شاءوا ، ويخرجون الجن لمن شاءوا ، فتصدقهم العامة على اغترار بما يظهرون من انقياد الجن لهم بأسماء الله تعالى التى كانت تطيع بها سليمان بن داود عليهما السلام ، وأنهم يخبرونهم بالخبايا و بالسرق .

« وقد كان المعتضد بالله مع جلالته وشهامته ووفور عقله اغتر بقول هؤلاء . وقد ذكره أصحاب التواريخ ، وذلك انه كان يظهر فى داره التى كان يخلو فيها بنسائه وأهله شخص فى يده سيف فى أوقات مختلفة وأكثره وقت الظهر، فإذا طلب لم يوجد ولم يقدر عليه ولم يوقف له على أثر مع كثرة التفتيش ، وقد رآه هو بعينه

---

(١) المواطآت: جمع مواطاة وهى الاتفاق بين اثنين أو أكثر على أمر . والمخاريق جمع مخراق وهي فى الأصل خرق كانوا يفتلونها ويلعبون بها بادارتها بخفة ومهارة . ومواطآت الحلاج هى انه كان يتفق مع أناس من رجاله على ما يلبسون به على الناس بدعوى الكرامات وقد اكتشف ذلك فى عصره كما بينه التنوخى فى جامع التواريخ « نشوار المحاضرة » ومنه أن رجلا جاء بصفة مسترشد وانما هو مختبر، فقال له الحلاج : تشه على ماشئت، فقال: أريد سمكا طريا وكانوا فى بعض بلاد الجبل البعيدة عن الأنهار والبحر فدخل بيتا خاليا من داره وأغلق عليه بابه وعاد بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلا إلى ركبتيه وبيده سمكة تضطرب وزعم أنه دعا الله فأمره أن يذهب إلى البطائح قال فمضيت إلى البطائح فخضت الأهواز وهذا الطين منها حتى أخذت هذه . فقال الرجل : تدعنى أدخل البيت فان لم تنكشف لى حيلة فيه آمنت بك . فقال شأنك — فدخل وبعد عناء وتنقيب اهتدى إلى دار كبيرة فيها بستان عظيم فيه صنوف الفاكهة والثمار والنوار، ومنها ماليس فى وقته ولكنه محفوظ بحيلة صناعية ووجد فيها خزائن مليحة فيها أنواع الاطعمة الناضجة والحوائج لما يهيأ بسرعة، ورأى فى الدار بركة ماء مملوءة سمكا فأخذ واحدة منها وخرج ... فتبعه الحلاج فرمى بالسمكة وجهه وصدره وهرب وأقسم الحلاج ليقتلنه ان حدث أحدا بذلك ولو فى تخوم الأرض ولم يحدث بها الرجل الا بعد قتله لعلمه بأنه لو أمر أحد المفتونين به ان يقتله فانه يفعل .

مرارا ، فأهمته نفسه ودعا بالمعزمين فحضروا وأحضروا معهم رجالا ونساء وزعموا أن فيهم مجانين وأصحاء ، فأمر بعض رؤسائهم بالعزيمة فعزم على رجل منهم زعم أنه كان صحيحا فجن وتخبط وهو ينظر إليه ، وذكروا له أن هذا غاية الحذق بهذه الصناعة إذ أطاعته الجن فى تخبيط الصحيح ، وإنما كان ذلك المعزم بمواطأة منه لذلك الصحيح على أنه متى عزم عليه جنن نفسه وخبط ، فجاز ذلك على المعتضد فقامت نفسه منه وكرهه ، إلا أنه سألهم عن أمر الشخص الذى يظهر فى داره فمخرقوا عليه بأشياء علقوا قلبه بها من غير تحصيل لشىء من أمر ماسألهم عنه فأمرهم بالانصراف وأمر لكل واحد منهم ممن حضر بخمسة دراهم . ثم تحرز المعتضد بغاية ما أمكنه وأمر بالاستيثاق من سور الدار حيث لا يمكن فيه حيلة من تسلق ونحوه وبطحت فى أعلى السور خوابٍ لئلا يحتال بالقاء المعاليق التى يحتال بها اللصوص

« ثم لم يوقف لذلك الشخص على خبر إلا ظهوره له الوقت بعد الوقت إلى أن توفى المعتضد وهذه الخوابى المبطوحة على السور ، وقد رأيتها على سور الثريا التى بناها المعتضد فسألت صديقا لى كان قد حجب المقتدر بالله عن أمر ذلك الشخص وهل تبين أمره ؟ فذكر لى أنه لم يوقف على حقيقة هذا الأمر إلا فى أيام المقتدر ، وان ذلك الشخص كان خادما أبيض يسمى (يقق) وكان يميل إلى بعض الجوارى اللاتى فى داخل دور الحريم ، وكان قد اتخذ لحى على ألوان مختلفة ، وكان إذا لبس بعض تلك اللحى لا يشك من رآه أنها لحيته ، وكان يلبس فى الوقت الذى يريده لحية منها ، ويظهر فى ذلك الموضع وفى يده سيف أو غيره من السلاح حيث يقع نظر المعتضد فاذا طلب دخل بين الشجر الذى فى البستان أو فى بعض تلك الممرات أو العطفات ، فإذا غاب عن أبصار طالبيه نزع اللحية وجعلها فى كمه أو حزته[1] ويبقى السلاح معه كأنه بعض الخدم الطالبين للشخص ولا يرتابون به ، ويسألونه هل رأيت فى هذه الناحية أحدا فانا قد رأيناه صار إليها ؟ فيقول مارأيت أحدا . وكان إذا وقع مثل هذا الفزع فى الدار خرجت الجوارى من داخل الدور إلى هذا الموضع فيرى هو تلك

---

(١) الحزة بالضم الحجزة وهى من الازار معقده ومن السراويل ما تكون فيه التكة ، وهى معقده أيضا وفى كل منهما مخبأ للدارهم ونحوها

الجارية ويخاطبها بما يريده،وإنما كان غرضه مشاهدة الجارية وكلامها فلم يزل هذا دأبه إلى أيام المقتدر ، ثم خرج إلى البلدان وصار إلى طرطوس وأقام بها إلى أن مات وتحدثت الجارية بعد ذلك بحديثه ووقف على احتياله . فهذا خادم قد احتال بمثل هذه الحيلة الخفية التي لم يهتد لها أحد مع شدة عناية المعتضد به وأعياه معرفتها والوقوف عليها ولم تكن صناعته الحيل والخاريق فما ظنك بمن قد جعل هذا صناعة ومعاشا ؟

(وضرب آخر من السحر) وهي السعي بالنميمة والوشاية بها[1] والبلاغات والافساد والتضريب من وجوه خفية لطيفة ، وذلك عامّ شائع في كثير من الناس وقد حكي أن امرأة أرادت إفساد مابين زوجين ، فسارت إلى الزوجة فقالت لها : إن زوجك معرض عنك وقد سحر وهو مأخوذ عنك وسأسحره لك حتى لا يريد غيرك ، ولا ينظر إلى سواك ، ولكن لابد أن تأخذي من شعر حلقه بالموسى ثلاث شعرات إذا نام وتعطينيها فان بها يتم الأمر ، فاغترت المرأة بقولها وصدقتها . ثم ذهبت إلى الرجل وقالت له : إن امرأتك قد علقت رجلا ، وقد عزمت على قتلك ، وقد وقفت على ذلك من أمرها فأشفقت عليك ولزمني نصحك فتيقظ ولا تغتر فانها عزمت على ذلك بالموسى وستعرف ذلك منها فما في أمرها شك . فتناوم الرجل في بيته فلما ظنت امرأته أنه قد نام عمدت إلى موسى حاد وأهوت به لتحلق من حلقه ثلاث شعرات ، ففتح الرجل عينه فرآها وقد أهوت بالموسى إلى حلقه فلم يشك في أنها أرادت قتله ، فقام إليها فقتلها وقتل ، وهذا كثير لا يحصى

(وضرب آخر من السحر) وهو الاحتيال في إطعامه بعض الأدوية المبلدة المؤثرة في العقل والدخن المسدرة المسكرة نحو دماغ الحمار إذا طعمه إنسان تبلد عقله وقلت فطنته مع أدوية كثيرة هي مذكورة في كتب الطب ويتوصلون إلى أن يجعلوه في طعام حتى يأكله فتذهب فطنته ويجوز عليه أشياء مما لو كان تام الفطنة لانكرها ، فيقول الناس إنه مسحور[2]

---

(١) بهذا فسر الاستاذ الامام النفاثات في العقد من سورة الفلق

(٢) قد كثرت بعد عصر المؤلف العقاقير المفسدة للعقل والمبلدة للذهن ولاسيما في زماننا هذا ، ومنها الحشيشة المشهورة . وما يتخذ منها ومن غيرها من المعاجين ، والكوكايين ، ولكنها لاشتهارها لم تعد من اعمال السحر

«وحكمة كافية تبين لك أن هذا كله مخاريق وحيل لاحقيقة لما يدعون لها أن الساحر والمعزم لو قدرا على مايدعيانه من النفع والضرر من الوجوه التي يدعون وأمكنهما الطيران والعلم بالغيوب وأخبار البلدان النائية والخبيئات والسرق والاضرار بالناس من غير الوجوه التي ذكرنا لقدروا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز والغلبة على البلدان بقتل الملوك بحيث لايبدأهم مكروه ، ولما مسهم السوء ولامتنعوا ممن قصدهم بمكروه ، ولاستغنوا عن الطلب لما في أيدي الناس فاذا لم يكن كذلك وكان المدعون لذلك أسوأ الناس حالا وأكثرهم طمعا واحتيالا وتوصلا لأخذ دراهم الناس وأظهرهم فقرا وإملاقا . علمت أنهم لايقدرون على شيء من ذلك .

« ورؤساء الحشو والجهال من العامة من أسرع الناس إلى التصديق لدعاوى السحرة والمعزمين وأشدهم نكيرا على من جحدها ، و يروون في ذلك أخبارا مفتعلة متخرصة يعتقدون صحتها ، كالحديث الذي يروون أن امرأة أتت عائشة فقالت إني ساحرة فهل لي تو بة؟ فقالت وما سحرك؟ قالت سرت إلى الموضع الذي فيه هاروت وماروت ببابل لطلب علم السحر فقالا لي يا أمة الله لاتختاري عذاب الآخرة بأمر الدنيا ، فأبيت ، فقالا لي اذهبي فبولي على ذلك الرماد فذهبت لأبول عليه ففكرت في نفسي فقلت: لافعلت وجئت اليهما فقلت: قد فعلت ، فقالا : مارأيت؟ فقلت: مارأيت شيئا، فقالا : مافعلت اذهبي فبولي عليه، فذهبت وفعلت ، فرأيت كأن فارسا قد خرج من فرجي مقنعا بالحديد حتى صعد إلى السماء . فجئتهما فأخبرتهما فقالا ذلك إيمانك خرج عنك ، وقد أحسنت السحر ، فقلت وماهو ؟ فقالا لاتريدين شيئا فتصورينه في وهمك إلا كان. فصورت في نفسي حبا من حنطة فإذا أنا بالحب، فقلت له انزرع فانزرع وخرج من ساعته سنبلا فقلت له انطحن واختبز إلى آخر الأمر حتى صار خبزا ، و إني كنت لا أصور في نفسي شيئا إلا كان . فقالت لها عائشة ليست لك تو بة .

« فيروي القصاص والمحدثون الجهال مثل هذا للعامة فتصدقه وتستعيده وتسأله أن يحدثها بحديث ساحرة ابن هبيرة فيقول لها : إن ابن هبيرة أخذ ساحرة فأقرت له بالسحر فدعا الفقهاء فسألهم عن حكمها فقالوا القتل . فقال ابن هبيرة : لست

أقتلها إلا تغريقا . قال : فأخذ رحى البزر فشدها في رجلها وقذفها في الفرات فقامت فوق الماء مع الحجر تنحدر مع الماء فخافوا أن تفوتهم . فقال ابن هبيرة من يمسكها وله كذا وكذا ؟ فرغب رجل من السحرة كان حاضرا فيما بذله . فقال اعطوني قدح زجاج فيه ماء فجاءوه به فقعد على القدح ومضى إلى الحجر فشق الحجر بالقدح فتقطع الحجر قطعة قطعة فغرقت الساحرة ـ فيصدقونه ؛ ومن صدق هذا فليس يعرف النبوة ولا يأمن أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام من هذا النوع وانهم كانوا سحرة . وقال الله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى)

وقد أجازوا من فعل الساحر ماهو أطم من هذا وأفظع ، وذلك أنهم زعموا أن النبي ﷺ سحر ، وأن السحر عمل فيه حتى قال فيه « إنه يخيل إلى أني أقول الشيء وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله » وأن امرأة يهودية سحرته في جف طلعة ومشط ومشاقة [1] حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرته في جف طلعة وهو تحت راعوفة البئر [2] فاستخرج وزال عن النبي ﷺ ذلك العارض. وقد قال الله تعالى مكذبا للكفار فيما ادعوه من ذلك للنبي ﷺ فقال جل من قائل (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين تلعبا بالحشو والطغام ، واستجرارا لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام ، والقدح فيها ، وإنه لافرق بين معجزات الأنبياء وفعل السحرة ؛ وان جميعه من نوع واحد . والعجب ممن يجمع بين تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم ، وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) فصدق هؤلاء من كذبه الله وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله . وجائز أن تكون المرأة اليهودية بجهلها فعلت ذلك ظنا

---

(١) جف الطلع بضم الجيم هو الوعاء الذي يخرج منه طلع النخل ، والمشاقة من الكتان معروفة وفي أكثر الروايات مشاطة وهي بالضم الشعر الذي يسقط من الشعر عند تسريحه بالمشط والمراد أن المشط والمشاطة وضعا في جف طلعة وصفت عند الشيخين بأنها طلعة ذكر أي من النخل «٢» راعوفة البئر الحجر الثابت الذي يقف عليه المستقي من البئر

منها بأن ذلك يعمل فى الاجساد وقصدت به النبي عليه السلام فأطلع الله نبيه على موضع سرها ، وأظهر جهلها فيما ارتكبت وظنت ليكون ذلك من دلائل نبوته، لا ان ذلك ضره ، وخلط عليه أمره ؛ ولم يقل كل الرواة انه اختلط عليه أمره وإنما هذا اللفظ زيد فى الحديث ولا أصل له (١)

« والفرق بين معجزات الأنبياء و بين ما ذكرنا من وجوه التخييلات ، ان معجزات الأنبياء عليهم السلام هى على حقائقها ، و بواطنها كظواهرها ، وكلما تأملتها ، ازددت بصيرة فى صحتها ، ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم . ومخاريق السحرة وتخييلاتهم إنما هى ضرب من الحيلة والتلطف لاظهار أمور لاحقيقة لها ، وما يظهر منها على غير حقيقتها ، يعرف ذلك بالتأمل والبحث، ومتى شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره، و يأتى بمثل ما أظهره سواء» اهـ

هذا جل ماقاله أبو بكر الجصاص فى معنى السحر وحقيقته وعقد بعده بابا فى ذكر قول الفقهاء فيه وما تضمنته الآية من حكمه وما يجرى على مدعى ذلك من العقوبات . ومنها القتل كفراً فى بعض أنواعه المتضمنة للشرك والمستلزمة للريب

« ١ » أنكر الجصاص الحديث المروى فى ذلك ـ وكذلك الأستاذ الامام ـ لمعارضته للقرآن وما فيه من الشبهة على عصمة النبى ﷺ حتى فى أمر التبليغ مع انه مروى فى الصحيحين لأن من علامة الحديث الموضوع مخالفته للقطعى من القرآن وغيره ؛ ومثل هذا انكار النووى لما روى عن ابن مسعود (رض) من انكار كون المعوذتين من القرآن مع صحة سنده . والجمهور يؤولون هذا وذاك ويغرهم ان المقلدين يسلمون لهم كل تأويل ولو متكلفا، وينسون ان اعداء الاسلام ومستقلى الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل المتكلف الذى لا يطمئن له القلب ؛ والظاهر أن الجصاص لم يطلع على روايات الشيخين فى مسألة كاطلاع النووى على جميع الروايات فى مسألته: وفيهما ان الذى سحر النبى ﷺ هو لبيد بن الأعصم اليهودى لاامرأة ، ومذهب الأشعرية أن للسحر تأثيرا حقيقيا، وليس كله حيلا ومنه انه أثر فى جسم النبى ﷺ وخياله دون عقله وروحه، فكان يخيل اليه أنه أتى نساءه ولم يكن اتاهن ولم يتجاوز هذا الحد ؛ وقال الأستاذ الامام إن هذا تأثير فى النفس ومداركها ورسول الله أجل وأعظم من ذلك؛ فنفسه أعلى الأنفس وأزكاها وأقواها فلا يمكن أن تؤثر فيها نفس خبيثة فاسدة

فى معجزات الرسل . وان كثيراً من العلماء يثبتون ما أنكره من تأثير الجن واستخدام بعض الناس لهم . ومن العجيب أنه لايزال فى هذا العصر من يتوسل إلى الاستعانة بالجن على بعض الأعمال السحرية بما هو كفر قطعا كرابط بعض القرآن على السوأتين كما علمت من بعض المخبرين لهؤلاء الدجالين الذين يعيشون بكتابة العزائم والحجب للحب والبغض والحبل وغير ذلك والمفاسد فى ذلك كثيرة جدا وقد ذكرنا بعضها فى تفسير (٧ : ٢٦ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء الذين لايؤمنون) فيراجع (فى ص ٣٦٧ — ٣٧١ من المجلد الثامن تفسير)

﴿ عود إلى تفسير الآيات ﴾

لما أظهر موسى عليه السلام آية الله تعالى فى مجلس فرعون ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ أى أشراف قومه واركان الدولة منهم : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ أى راسخ فى العلم — كما تدل عليه صيغة عليم ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ أى قد وجه إرادته لسلب ملككم منكم وإخراجكم من أرضكم بسحره بأن يستميل به الشعب المصرى فيتبعه فينتزع منكم الملك ويستبد به دونكم ، ويلى ذلك إخراج الملك وعظماء رجاله من البلاد لئلا يناوئوه لاستعادة الملك منه ، كما فعل متغلبة الترك فى هذه الأيام بعد إسقاط الدولة العثمانية ، فانهم أخرجوا جميع أفراد الاسرة السلطانية من البلاد التركية التى بقيت لهم . وفى معنى هذا القول من فرعون ورجال دولته ماحكى الله تعالى عنهم من مراجعتهم لموسى وأخيه فى سورة يونس (١٠ : ٧٨ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين)

وما قال الملأ من قوم فرعون هذا القول إلا تبعاً لقوله هو ، الذى حكاه تعالى عنه فى سورة الشعراء (قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟) أى رددوا قوله وصار يلقيه بعضهم إلى بعض ، كدأب الناس فى نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده إظهاراً للموافقة عليه ، وتعميما لتبليغه . وإنما لم يصرحوا بكلمة « بسحره » كما صرح هو لأنهم كانوا دونه خوفا وانزعاجا ، وأقل منه حرصا على الطعن فى دعوة موسى ،

ولكن ذكرها السحرة فى تناجيهم مع فرعون وهو أجدر بذكرها فحكاها الله تعالى عنهم بقوله من سورة طه (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى)

والأمر فى قول فرعون لهم وقول بعضهم لبعض (فماذا تأمرون) ليس هو المقابل للنهى، بل هو بمعنى الادلاء بالرأى فى الشورى، قال الزمخشرى فى الأساس: وتآمر القوم وائتمروا ، مثل تشاوروا واشتوروا . ومرنى بمعنى أشر علىّ . قال بعض فتاكهم :

ألم تر أنى لا أقول لصاحب   إذا قال مرنى - أنت ماشئت فافعل

ولـكننى أفرى له فأريحه   ببزلاء تنجيه من الشـك فيصل

وقال فى مادة (ب ز ل) ومن المجاز : بزل الأمر والرأى : استحكم ، وأمر بازل . وتقول خطب بازل ، لايكفيه إلا راى قارح ، وإنه لذو بزلاء ، أى ذو صريمة محكمة ، وهو نهاض ببزلاء أى بخطة عظيمة . قال :

إنى إذا شغلت قوما فروجهم   رحب المسالك نهاض ببزلاء

(أقول) ومعنى بيتى الفاتك أن صاحبه إذا استشاره فقال له : امرنى — أى أشر على — لايقول له افعل ماتشاء إعراضا عن نصحه أو عجزا منه ، بل يفرى أى يقطع له الرأى المحكم بخطة بزلاء أى قوية محكمة تخرجه من الشك والتردد وتكون فيصلا أى فاصلة بين الخطأ والصواب . والبزلاء وبزول الأمر والرأى مأخوذ من بزول ناب البعير وهو أن ينشق ويخرج عند دخوله فى السنة التاسعة فهو بازل ولذلك أطلقوا لقب البازل على الرجل القوى المحكم التجربة

﴿ قالوا أرجه[1] وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ﴾ أى قال الملأ لفرعون

(١) فى هذه الكلمة عدة قراءات لفظية محضة، سببها اختلاف لهجات العرب فى إثبات الهمزة وحذفها تخفيفا وقد بينها السيد الآلوسى فى روح البيان مع تعليلاتها فقال : وأصل أرجه أرجئه بهمزة ساكنة وهاء مضمومة دون واو ثم حذفت الهمزة وسكنت الهاء لتشبيه المنفصل بالمتصل وجعل أرجه كابل (كذا) فى إسكان وسطه وبذلك قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب على أنه من أرجأت، وكذلك قراءة ابن كثير وهشام وابن عامر «ارجئهو» بهمزة ساكنة وهاء متصلة بواو الاشباع وقرأ نافع فى رواية ورش واسماعيل والكسائى «ارجهى» بهاء مكسورة بعدها ياء من ارجئت =

حين استشارهم بقوله « فماذا تأمرون ؟ » أرجه أى أرجىء وأخر أمره وأمر أخيه ولا تفصل فيه بادى الرأى وأرسل فى مدائن ملكك رجالا أو جماعات من الشرطة والجند حاشرين أى جامعين سائقين للسحرة منها — فالحشر الجمع والسوق — وإنما يوجد السحرة فى المدائن الجامعة الآهلة بدور العلم والصناعة ، فإن ترسلهم ﴿ يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ بفنون السحر ماهر فيها وهم يكشفون لك كنه ماجاء به موسى فلا يفتتن به أحد .

قرأ الجمهور (ساحر) بصيغة اسم الفاعل ، وحمزة والكسائى هنا وفى يونس (سحار) بصيغة المبالغة ، لهوجاء ذلك بالإمالة وعدمها وبها قرأ الجميع فى الشعراء ورسمهما فى المصحف الامام واحد هكذا (سحر) ليحتمل القراءتين ووجهها أن فرعون لما طلب كل ساحر عليم فى مدائن البلاد خص بالذكر المهرة المتمرنين فى السحر المكثرين منه — أو أن بعض ملئه طلب هؤلاء فقط لأنهم أجدر بإتيان موسى بمثل ما جاء به من الأمر العظيم ، كما حكى الله تعالى عن فرعون فى سورة طه (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله) وطلب آخرون حشر جميع السحرة الراسخين فى العلم لعله يوجد عند بعض المقتصدين أو المقلين من السحر مالا يوجد عند المكثرين منه — فبينت القراءتان كل ماقيل مع الإيجاز البليغ

= وفى رواية قالون إن أرجه بحذف الياء للاكتفاء عنها بالكسرة وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان أرجئه بالهمزة وكسر الهاء وقد ذكر بعضهم إن ضم الهاء وكسرها والهمز وعدمه لغتان مشهورتان ، وهل هما مدتان ، أو الياء بدل من الهمزة كتوضأت وتوضيت ؟ قولان . وطعن فى القراءة على رواية ابن ذكوان فقال الحوفى : إنها ليست بجيدة وقال الفارسى إن ضم الهاء مع الهمزة لايجوز غيره وكسرها غلط لأن الهاء لا تكسر إلا بعد ياء ساكنة أو كسرة . وأجيب كما قال الشهاب عنه بوجهين أحدهما : أن الهمزة ساكنة والحرف الساكن حاجز غير حصين فكأن الهاء وليت الجيم المكسورة فلذا كسرت والثانى أن الهمزة عرضة للتغيير كثيرا بالحذف وإبدالها ياء إذا سكنت بعد كسرة فكأنها وليت ياء ساكنة فلذا كسرت ، وأورد على ذلك أبو شامة أن الهمزة تعد حاجزاً وأن الهمزة لو كانت ياء كان المختار الضم نظراً لأصلها ، وليس بشىء بعد أن قالوا إن القراءة متواترة وما ذكر لغة ثابتة عن العرب اه .

(١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ أى وجاء فرعون السحرة الذين حشرهم له أعوانه وشرطته ولم يذكر الكتاب الحكيم ولا الرسول المعصوم عددهم إذ لافائدة منه وكل ما روى فيهم من أنهم عشرات الالوف فهو من الإسرائيليات التى لاأصل لها عندنا ولافى التوراة التى بين أيديهم. فلماجاءوا قالوا لفرعون إن لنا لأجرا وجزاء عظيما يكافىء ما يطلب منا من العمل العظيم إن كنا نحن الغالبين لموسى. ذكر قولهم هنا بأسلوب الاستئناف البيانى كأنه جواب سائل ماذا قالوا ؟ وجاء فى سورة الشعراء بصيغة الشرط والجزاء (فلما جاء السحرة فرعون قالوا) وهو تفنن فى العبارة قرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم (إن لنا لأجرا) بهمزة واحدة ، قيل إنه على الاخبار الدال على إيجاب الأجر وكونه لابد منه . وقيل إنه على حذف همزة الاستفهام الذى يكثر فى كلام العرب ، وهو المتبادر والمختار ليوافق قراءة ابن عامر بإثباتها هنا وهو ما اتفقوا عليه فى سورة الشعراء

﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ أى قال فرعون مجيباً لهم إلى ماطلبوا نعم إن لكم لأجراً عظيما وانكم مع ذلك الأجر المالى والمادى لمن المقربين من جنابنا السامى ، فيجتمع لكم المال والجاه وذلك منتهى نعيم الدنيا ومجدها ، أكدلهم نيل ماطلبوه منه وما زادهم عليه تأكيداً بعد تأكيد لاهتمامه بهذا الأمر وخوفه من عاقبته ، فانه لو قال لهم نعم ولم يزد عليها لأفاد إجابة طلبهم ، ولو قال فى منحة القربى : وتكونون من المقربين ، لكفى ولكنه عبر عنها بالجملة الاسمية المؤكدة بإن و بتحلية الخبر باللام و بعطف التلقين أى عطف « و إنكم لمن المقربين » على

الجملة المقدرة التى دل عليها حرف الإيجاب « نعم » وهى « إنكم لأجراً » فما عطف عليها إلا وقد قدر إعادتها . وفى سورة الشعراء زيادة « إذن » أى وإنكم فى هذه الحالة وهى كونكم أنتم الغالبين دون موسى لمن المقربين وحذفها من هذه السورة دليل على أنه قالها مرة دون أخرى فأفاد أنه كرر لهم الإجابة والوعد وذلك تأكيد آخر

﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ استئناف بيانى كنظائره أى قال السحرة لموسى عليه السلام بعد أن وعدهم فرعون ماوعدهم : إما أن تلقى ماعندك أولا ، وإما أن نكون نحن الملقين لما عندنا من دونك . أما تخييرهم إياه فلثقتهم بأنفسهم ، واعتدادهم بسحرهم ، وإرهاباً له ، وإظهاراً لعدم المبالاة به ، مع العلم بأن المتأخر يكون أبصر بما يقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى شوط خصمه ، وماقيل من إن علة التخيير مراعاة الأدب لاوجه له ألبتة ، بل مقامهم بحضرة ملكهم الذى يدعى الألوهية والربوبية فيهم وماطلبوه منه وما وعدهم إياه — كله يقتضى أن يحتقروا خصمه لاأن يتأدبوا معه كما يتأدب أهل الصناعة الواحدة بعضهم مع بعض إذا تلاقوا للمباراة وهو ماوجه الزمخشرى به التعليل ، وما قاله البيضاوى وغيره من أن علته إظهار التجلد فضعيف إذ لم يروا من موسى شيئاً بأعينهم يقتضيه وإنما سمعوا أنه ألقى عصاه بحضرة فرعون فصارت ثعباناً فاستعدوا لمقابلته بعصى وحبال كثيرة يخيل إليه وإلى كل ناظر أنها ثعابين تسعى فيبطلون سحره بسحر مثله كما قال ملكهم (فلنأتينك بسحر مثله)

وذهب الزمخشرى ومن تبعه إلى أن هذا التعبير عن إلقائهم يدل على رغبتهم فى البدء بما يلقونه عنه بتغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل « نحن » وتوكيد الضمير المستتر به . وفى سورة طه (إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى) وفيه من التوكيد مايدل على الرغبة فى الأولية التى صرحوا بذكرها هنا . فلا فرق بين التعبيرين فى المعنى فلا بأس حينئذ بجعل الاختلاف اللفظى فى الحكاية عنهم لمراعاة الفواصل ، وقد اختلف فيه على أقوال ثالثها وهو الصحيح المعتمد أنه جائز وواقع فيما لايخل بأداء المعنى ، ولا ينافى البلاغة العليا ، فكيف إذا كان مزيد تفنن قد يصل إلى حد الاعجاز فيها ، وذلك أن تأدية دقائق المعنى مكررة بألفاظ مختلفة فى منتهى العسر وكثيراً

ما يكون متعذراً ، فلو لم يؤكد الضمير المتصل ههنا بالضمير المنفصل «نحن» لما أفاد معنى الرغبة فى أولية الالقاء المصرح به فى سورة طه ، وبذلك علم ان مراعاة الفاصلتين فى الموضعين هو الذى وحد بينهما بجعل كل منهما دالا على رغبة السحرة فى التقدم والأولية ، فأى خطيب أو كاتب يقدر على إفادة هذا المعنى بأسلوبين مختلفين فى اللفظ من غير تصريح به ، وأى مترجم تركى أو افرنجى يفقه هذا أو يؤديه فى ترجمته للقرآن؟

﴿قال ألقوا﴾ وفى سورة طه (قال بل ألقوا) وهو أدل على رغبته عليه السلام فى سبقهم للالقاء . ولعله نطق أولا بما فيه الاضراب فقال بل ألقوا أنتم من دونى ثم أعاد كلمة ألقوا وحدها لتأكيد رغبته والايذان بعدم مبالاته . وفى سورتى يونس والشعراء (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) فأظهر اسم موسى الذى أضمره هنا وفى سورة طه لأنه جواب لخطابهم إياه باسمه بالتخيير ، فالمقام فيهما مقام الاضمار حتما . وأما إظهاره فى سورتى يونس والشعراء فسببه أنه ليس فيهما ذكر لنداء السحرة إياه وتخييرهم له فأول آية يونس (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا) وقبلها طلب فرعون للسحرة فلو لم يصرح باسم موسى لكان المتبادر ان الذى أمرهم بالالقاء هو فرعون حسب قاعدة عود الضمير إلى أقرب مذكور ، وكذلك آية الشعراء جاءت بعد ذكر طلب فرعون السحرة ومجيئهم وسؤالهم إياه الأجر إن كانوا هم الغالبين وإجابته إياهم ، فهى أولى من آية يونس بما ذكر . وأما زيادة (ما أنتم ملقون) فإنها فائدة نافلة ذات شأن تدل على عدم مبالاته بما يلقون مهما عظم أمره وكان مجهولا عنده ، وهى لا تنافى عدم ذكرها فى آية الأعراف فيجمع بينهما

وقد قيل كيف أمرهم موسى عليه السلام بإلقاء ما عندهم وهو من السحر المنكر ؟ وأجيب بأنه لم يأمر بفعل السحر ابتداء وإنما أمر بأن يقدموا فيما جاءوا لأجله ولا بد لهم منه ، وأراد التوسل به إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته ، و إلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن ثم وسيلة لإبطاله إلا ذاك ، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه فى سورة يونس (قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ومثله توسل ابراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وآلهما إلى إظهار حقيقة التوحيد لعبدة الكواكب من قومه لما رأى كلا من الكوكب والقمر والشمس بازغا فقال «هذا ربى» ثم تعقيبه بما يدل

على كونه لا يصح أن يكون ربا واسماعه إياهم بعد ابطال ربوبيتها كلها حقيقة التوحيد بقوله (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)

﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم﴾ أي فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيهم كما في سورتي الشعراء وطه سحروا أعين الناس الحاضرين ومنهم موسى عليه السلام ففي سورة طه (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) واسترهبوهم أي أوقعوا في قلوبهم الرهب والخوف كما قال تعالى (فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) واصل الاسترهاب محاولة الإرهاب وطلب وقوعه بأسبابه ، وقد قصدوا ذلك فحصل . وجاءوا بسحر عظيم أي مظهره كبير ، وتأثيره في أعين الناس عظيم ، قال الحافظ ابن كثير : أي خيلوا إلى الأبصار أن مافعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال . ثم ذكر عن ابن عباس «رض» انهم ألقوا حبالا غلاظاً وخشباً طوالا «قال» فأقبلت يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى . ثم ذكر عن ابن إسحق أن السحرة كانوا خمسة عشر ألف ساحر وأن الحيات التي أظهروها بخيال سحرهم كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادي — وعن السدي أن السحرة كانوا بضعاً وثلاثين ألفاً وعن القاسم بن أبي بزة ٧٠ ألفاً . وذكر غيره ماهو أعظم من ذلك من المبالغة والتهويل ولا يصح شيء من ذلك في خبر مرفوع وإنما هي من الإسرائيليات الباطلة المروية عن اليهود كما تقدم على أنه ليس في توراتهم منها شيء وإنما جاء في الفصل السابع من سفر الخروج منها ان فرعون دعا الحكماء والسحرة « ففعل عرافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك : طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم »

وقد ذكر بعض المفسرين سر صناعتهم في ذلك بما أراه استنباطاً علمياً لا نقلا تاريخيا . قال الإمام الجصاص في أحكام القرآن : قال الله تعالى (سحروا أعين النـاس) يعني موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى ، وقال (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) فأخبر أن ما ظنوه سعياً منها لم يكن سعياً وإنما كان تخييلا . وقد قيل إنها كانت عصياً مجوفة قد ملئت زئبقاً ، وكذلك الحبال كانت معمولة من أدم (أي جلد) محشوة زئبقـاً ، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسراباً وجعلوا آزاجا ملؤها ناراً فلما طرحت عليه وحمي الزئبق حركها

لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان مموها على غير حقيقته ، والعرب تقول لضرب من الحلى مسحور أى مموه على من رآه مسحور به اه فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية إذا صح خبرها ، ويحتمل أن يكون بحيلة أخرى كاطلاق أبخرة أثرت فى الأعين فجعلتها تبصر ذلك أو بجعل العصى والحبال على صورة الحيات وتحريكها بحركات خفية سريعة لا تدركها أبصار الناظرين ، وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمى السيمياء .

---

(١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَٰرُونَ

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون﴾ أى أوحينا اليه بأن ألق عصاك فقد جاء وقتها فألقاها كما أمر فإذا هى تلقف ما يأتون به من الإفك ذكر هنا وفى سورة طه أمره تعالى لموسى بالالقاء. وفى سورة الشعراء أنه فعل الالقاء الذى أمر به ولم يذكر الأمر فحذف من كل سورة ما أثبت مقابله فى الأخرى وهو من قبيل الاحتباك فى السور والإيجاز المؤدى للمعانى المتعددة بأخصر عبارة. قرأ حفص تلقف بالتخفيف من الثلاثى والباقون بالتشديد وأصله تتلقف وهو يدل على لقف شىء بعد شىء

ما معنى لقف العصا للافك ؟ الإفك بالكسر اسم لما يؤفك أى يصرف ويحول عن شىء إلى غيره و يستعمل فى التلبيس والشر وقلب الحقائق ، وبالفتح مصدر أفك «بالفتح كجلس وضرب » ويقال أفك بالكسر « كتعب» قال فى الأساس : أفكه عن رأيه صرفه ، وفلان مأفوك عن الخير . وقال الراغب الإفك كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب مؤتفكة قال تعالى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة) وقال تعالى (والمؤتفكة أهوى) وقوله تعالى (قاتلهم الله أنى يؤفكون) أى يصرفون عن الحق فى الاعتقاد إلى الباطل ، وعن الصدق فى

المقال إلى الكذب ، وعن الجميل فى الفعل إلى القبيح ومنه قوله تعالى (يؤفك عنه من افك * أنى يؤفكون) وقوله (أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) فاستعملوا الإفك فى ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف عن الحق إلى الباطل ـ فاستعمل ذلك فى الكذب لما قلنا اهـ ويعلم منه ومن سائر استعمال المادة فى القرآن وغيره أن الإفك يكون بالقول ومنه الكذب وما يؤدى المراد من الكذب كالإيهام والتدليس والتجوزات والكنايات والمعاريض التى توهم السامع أو القارىء لها مايخالف الحق وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون.

وأما لقف الشيء وتلقفه بالتشديد فهو تناوله بحذق وسرعة، كما قال الشاعر:

كرة حذفت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

قال الراغب لقفت الشيء ألقفه « أى من باب علم » وتلقفته تناولته بالحذق سواء فى ذلك تناوله بالفم أو اليد قال (فاذا هى تلقف مايأفكون) اهـ ومن مجازه تلقف العلم أى تلقيه بسرعة وحذق . و«ما» فى قوله تعالى « مايأفكون » إما موصولة وإما مصدرية وعلى الأول يتخرج مانقل عن ابن عباس وقتادة والحسن والسدى من كون عصا موسى عليه السلام التقمت حبال السحرة وعصيهم واسترطتها أى ابتلعتها فهو مما يحتمله اللفظ ، والراجح أنه مأخوذ عن اليهود لما علمت آنفا من نص سفر الخروج فيه ، وينافيه كونها مصدرية إذ المعنى عليه أنها تناولت عملهم هذا فأتت عليه بما أظهرت من بطلانه وحقيقة الأمر فى نفسه بسرعة ، فإن كان إفكهم عبارة عن تأثير أحدثوه فى الأعين فلقفها إياه عبارة عن إزالته وإبطاله ورؤية الحبال والعصى على حقيقتها — وإن كان تحريكا لها بحركات خفية سريعة فكذلك — وإن كان قد حصل بجعلها مجوفة محشوة بالزئبق وتحريكه إياها بفعل الحرارة سواء كانت ناراً أعدت لها أو الشمس حين أصابتها فلقفها لذلك يجوز أن يكون بعمل من الحية أخرجت به الزئبق من الحبال والعصى فانكشفت به الحيلة . قال الشيخ محي الدين بن عربي مامعناه أو محصله على ماتذكر إن إبطالها لسحر السحرة أنه ترتب على إلقائها أن رأى الناس تلك الحبال والعصى على أصلها ولو ابتلعتها لبقى الأمر ملتبسا على الناس إذ قصاراه أن كلا من السحرة وموسى قد أظهر أمراً غريبا ولكن أحد الغريبين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولا مفهوم ، وهذا لاينافى كونهما من جنس واحد ، ولكن زوال غشاوة السحر وتخييله حتى رأى الناس أن الحبال والعصى التى ألقاها

السحرة ليست إلا حبالا وعصيا لا تسعى ولا تتحرك ، وإن عصا موسى لم تزل حية تسعى — هو الذى ماز الحق من الباطل ، وعرفت به الآية الالهيــة ، والحيلة الصناعية . وكل ما فى الأمر أن عصا موسى أزالت هذا التخييل بسرعة وهو معنى اللقف ولــكن لا نعلم بماذا كان لها هذا التأثير لأنها آية إلهية حقيقة لا أمر صناعى حتى نعرف صفته وحقيقته .

وقوله تعالى ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ اظهر فى هذ المعنى منه فى ابتلاع العصا للحبال والعصى إذا فسرت ألفاظه بمعانيها الحقيقية فالذى بطل كان عملا عملوه ، وكيدا كادوه ، وليس شيئا ماديا أوجدوه ، كما علم من سورة طه وسورة يونس ، أى فثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل وذهب تأثيره

﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ أى فغلب فرعون وملؤه فى ذلك الجمع العظيم الذى كان فى عيد لهم ويوم زينة من مواسمهم ضربه موسى موعدا لهم بسؤالهم كما بين فى سورة طه (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) لتــكون الفضيحة ظاهرة مبينة لجمــاهير الناس ، ولم يقل فغلبهم موسى لأن ذلك لم يكن بكسبه وصنعه — وانقلبوا أى عادوا من ذلك الجمع صاغرين أذلة . بما رزئوا به من الخذلان والخيبة ، أو صاروا صاغرين . وإنما خص هذا بفرعون وملئه وكان المتبادر أن يكون للسحرة أولا وبالذات ولفرعون بالتبع أو للجميع على سواء . لأنه تعالى بين ما كان من عاقبة السحرة بقوله

﴿ وألقى السحرة ساجدين ﴾ فسره فى الــكشاف بقوله : وخروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشــدة خرورهم ، وقيل لم يتمالــكوا مما رأوا فــكأنهم ألقوا اه والمراد أن ظهور بطلان ســحرهم وإدراكهم فجأة لحقيقة آية موسى « ع . م » وعلمهم بأنها من عند الله تعالى لاصنع فيها لمخلوق قد ملأت عقولهم يقينا وقلوبهم إيمانا ، فــكان هذا اليقين فى الإيمان البرهانى الــكامل . والوجدانى الحاكم على الأعضاء والجوارح ، هو الذى ألقاهم على وجوههم ســجدا لله رب العالمين الذى بيده ملــكوت الخلق أجمعين ، ولم يبق فى أنفسهم أدنى مكان لفرعون وعظمته الدنيوية الزائلة ، ولا سيما وقد ظهر لهم صــغاره أمام هــذه الآية ، وفى آية سورة طه (فألقى السحرة ســجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) فالفاء

تدل علي التعقيب ومثلها في سورة الشعراء .

(فان قيل) ولم قال هنا «وألقي» ولم يقل «فألقي» ليدل على التعقيب أيضاً (فالجواب) ان ألقي هنا عطف على قوله تعالى (فغلبوا) فهو يشاركه بما تفيده فاؤه من معنى التعقيب وكونه مثله أثراً لبطلان سحر السحرة ووقوع الحق بثبوت آية موسى (ع . م) ولو عطف عليه بالفاء لدل على كون السجود أثراً للغلب والصغار لا لظهور الحق و بطلان كيد السحر ، وحينئذ يكون منافيا لما في سورتي طه والشعراء

﴿ قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾ الجملة إما بيان مستأنف و إما حال من السحرة أي حال كونهم قائلين في سجودهم آمنا . . . ومثله في سورة الشعراء

(فان قيل) ولم لم يذكر في سورة طه إيمانهم برب العالمين ؟ ولم أخر فيها اسم موسى وقدم اسم هارون (فالجواب) عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل السور بما لا يعارض غيره مما ورد في غيرها ، ولا سيما وقد نزل قبلها ، فالإيمان برب هارون وموسى هو الإيمان برب العالمين لأنهما قالا لفرعون (إنا رسول رب العالمين) وقد بينا مراراً أن القرآن ليس كتاب تاريخ تدون فيه القصص بحكايتها كلها كما وقعت و يذكر كل ماقيل فيها بنصه أو بترجمته الحرفية — و إنما هو كتاب هداية وموعظة . فهو يذكر من القصص مايثبت به الإيمان ، ويتزكى الوجدان ، وتحصل العبرة ، وتؤثر الموعظة ، ولا بد في ذلك من تكرار المعاني مع التفنن في الأسلوب والتنويع في نظم الكلام وفواصل الآي ، وتوزيع الفوائد وتفريقها ، بحيث يوجد في كل قصة مالا يوجد في غيرها

---

(١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥)

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إلا أَنْ آمَنَّا بِآيَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ .

بعد ما كان من إيمان السحرة كان أول مايخطر فى البال ، ويتوجه اليه السؤال ، مافعل فرعون وماقال؟ وهاك البيان ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟ ﴾ قرأ حفص آمنتم بصيغة الخبر ويحتمل فيه تقدير همزة الاستفهام فهو قياسى يعتمد فى فهمه على صفة الأداء وجرس الصوت فيه وبذلك يوافق سائر القراء فى المعنى فهو عندهم استفهام إنكارى توبيخى أثبت همزته حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب، وروى فى اثباتها تحقيق الهمزتين بالنطق بهما وتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين ، وقرىء بذلك فى أمثالها . والمعنى أآمنتم بموسى أو برب موسى وهارون قبل أن آذن لكم وآمركم بذلك ؟ وفى سورة طـه (قال آمنتم له) والضمير فيه لموسى قطعا لأن تعدية الإيمان باللام تضمين يفيد معنى الاتباع والخضوع المغنى ، وأآمنتم به متبعين له إذعانا لرسالته قبل أن آذن لكم ؟ ولذلك يتعين استعمال هذا التضمين فى الايمان بالرسل والاتباع لهم كقوله تعالى حكاية عن فرعون (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟) وقد اقتبس المعرى هذا الاستدلال فى قوله

أعبّاد المسيح يخاف صحبى ونحن عبيد من خلق المسيحا

ومثله قوله تعالى فى سورة الشعراء حكاية عن قوم نوح عليه السلام (أنؤمن لك واتبعك الارذلون ؟) وقوله حكاية عن كفار قريش (وقالوا ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) وليس منه قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف (وما أنت بمؤمن لنا) بل هذه لام التقوية أى وما أنت بمصدق لنا . وقد بين فرعون علة إيمانهم بما ظنه أو أراد أن يعتقده قومه فيهم فقال مواصلا تهديده

﴿ إن هـذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ أى ان هذا الصنيع الذى صنعتموه انتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس إلا مكرا مكرتموه فى المدينة بما أظهرتم من المعارضة والرغبة فى الغلب عليه مع إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته ، زاد فى سورة طـه (إنه لكبيركم الذى

علمكم السحر) فأجمعتم كيدكم لنا في هذه المدينة لأجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين بسحركم – وهو ما كان اتهم به موسى وحده – ويكون لكم فيها مع بنى اسرائيل ماهو لنا الآن من الملك والكبرياء كما حكاه تعالى عن فرعون وملئه فى سورة يونس – ﴿ فسوف تعلمون ﴾ مايحل بكم من العذاب ، جزاء على هذا المكر والخداع ، وبين ذلك بقوله : ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ أى أقسم لأفعلن كذا وكذا فى عقابكم والتنكيل بكم وهو قطع الأيدى والأرجل من خلاف كأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس ، ثم لأصلبن كل واحد منكم وهو على هذه الحالة المشوهة لتكونوا عبرة لمن تحدثه نفسه بالكيد لنا، أو بالخروج عن سلطاننا، والترفع عن الخضوع لعظمتنا . وقد تقدم الكلام على هذه الألفاظ فى العقاب الذى هدد به البغاة من سورة المائدة . ومن المعقول ماقاله بعض المفسرين من كون اتهام فرعون للسحرة بالمكر والكيد له والمصريين ، وبتواطئهم مع موسى للادالة منهم لبنى اسرائيل – انما كان تمويها على قومه المصريين لئلا يتبعوا السحرة فى الايمان ، ويقع ماخافه وقدره واتهم به موسى عليه السلام ، فهو على عتوه على الخلق ، وعلوه فى الأرض ، قد خاف عاقبة إيمان الشعب ، وافتقر فى ادعائه الربوبية إلى إيهامهم بأنه لاينتقم من السحرة الاحبا فيهم ، ودفاعا عنهم ، واستبقاء لاستقلالهم فى وطنهم ، ومحافظتهم على دينهم ، وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد فى شعب يخاف ان ينتقض عليه باجتماع كلمته على زعيم آخر بدعوة دينية أو سياسية ، وما من شعب عرف نفسه وحقوقه وتعارف بعض أفراده وتعاونوا على صون هذه الحقوق ، الا وتعذر استبداد الأفراد فيهم وان كانوا ملوكا جبارين

﴿ مباحث لغوية بيانية فيما اختلف فيه التعبير من قصة موسى فى السور المتعددة ﴾

ومن مباحث المقابلة والتنظير بين سياق هذه السورة فى القصة وسياق غيرها أنه زاد فى سورة الشعراء اللام فى حرف التسويف فقال : (فلسوف تعلمون) ولم يذكر هذا التسويف فى سورة طه . قال الاسكافى فى هذه اللام إنها تدل على تقريب ما خوفهم به حتى كأنه حاضر موجود قال : « واللام للحال والجمع بينها وبين سوف التى للاستقبال إنما هو تحقيق الفعل وادناؤه

من الوقوع كما قال تعالى (و إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) فجمع بين اللام و بين يوم القيامة على ما قاله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقد بينا أن سورة الشعراء أكثر اقتصاصاً لأحوال موسى عليه السلام فى بعثه وابتداء أمره وانتهاء حاله مع عدوه فجمعت لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرب له المحقق وقوعه — إلى اللفظ المفصح بمعناه ، ثم وقع الاقتصار فى السورة التى لم يقصد بها من اقتصاص الحال ما ذكر فى سورة الشعراء على نقص مّا فى موضع البسط والشرح وهو التعريض بالوعيد مع الافصاح به

(قال) « فأما فى سورة طه فانه اقتصر فيها على التصريح بما أوعدهم به وترك « فسوف تعلمون »وقال (فلأقطعن أيديكم ...) إلا أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادلها ، ويقارب ما جاء فى سورة الشعراء التى هى مثلها فى اقتصاص أحواله من ابتدائها إلى حين انتهائها ، وهو قوله بعده (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) فاللام والنون فى « لتعلمن » لإدناء الفعل وتوكيده كما أتى باللام فى طه (فلسوف تعلمون) لإدناء الفعل وتقريبه ، فقد تجاوز ما فى السورتين المقصود فيهما إلى اقتصاص الحالين من إعلاء الحق و إزهاق الباطل » ا ه

أقول : من المعلوم أن هذه اللام لام الابتداء وأن فائدتها الأولى المتفق عليها توكيد مضمون الجملة وقد سكت الاسكافى عن التعليل بها على ظهورها وعدم خفاء شىء من شواهدها واقتصر على توجيه ما ذكروا لهذه اللام من معنى الحال إذقالوا ان الفائدة الثانية لها تخليص معنى المضارع للحال : نقله ابن هشام فى المغنى وقال إن ابن مالك اعترضه بقوله تعالى (و إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) و بقول يعقوب عليه السلام فيما حكاه الله عنه (إني ليحزننى أن تذهبوا به) فان الذهاب كان مستقبلا فلو كان الحزن حالا لزم تقدم الفعل فى الوجود على فاعله مع أنه أثره (قال) والجواب عن الأول أن الحكم فى ذلك اليوم واقع لامحالة فنزل منزلة الحاضر المشاهد — وأن التقدير فى الثانى قصد أن تذهبوا به والقصد حال ا ه

وأنت ترى أن تعبير الاسكافى فى هذه الفائدة أوسع من التعبير الذى ذكره ابن هشام وغيره وأبعد عن الاشكال فقد قال هو : إن معنى الحال فيها عبارة عن تحقيق الفعل وادنائه من الوقوع . وهو يصدق بجعل المضارع للحال حقيقة أو بجعل معنى الاستقبال فيه قريباً جدا حتى كأنه حال ، ولا يرد على هذا ما

يرد على قولهم : تخليص معنى المضارع للحال . وجوابهم عن الآيتين لا يظهر فى تعبيرهم كما يظهر فى تعبيره هو بغير تكلف ما .

ثم إنه لابد فى صدق التعبير بقوله (فلسوف) من كون فرعون ذكر فى وعيدهم المستقبل أنه قريب وأنه قطعى لامردّ له ، سواء قاله على سبيل الايضاح أو على سبيل الاستدراك . ورب جملة أو جمل طويلة تؤدى فى القرآن بجملة قصيرة أو كلمة أو حرف فى كلمة كاللام هنا ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن وهو ضرب من ضروب إعجازه اللفظية فى غير الأسلوب والنظم ، وكلها دون إعجازه فى بيان حقائق الشرع والعلم ، فكيف يمكن لبشر أن يؤدى هذه الدقائق بالترجمة ؟ ومثله فى هذا ما سبق وما يأتى من تتمة هذه المباحث

(ومنها) ـ أى مباحث المقابلة والتنظير بين السور ـ أنه قال هنا (ثم لأصلبنكم) وقال فى طه والشعراء (ولأ صلبنكم) ولا تعارض بين العاطفين فان العطف بالواو مطلق يصدق بالتعقيب الذى تدل عليه الفاء بالتراخى الذى تدل عليه ثم وليس مقيدا بأحدهما ، وغايته أنه أفاد بثم معنى خاصا وهو ماتدل عليه من التراخى فى الزمن أو الرتبة وكلاهما جائز هنا فانه بعد أن أفاد بقوله (فلسوف) وقوله (فلأ قطعن) إن الوعيد سينفذ حالا فى المجلس بقطع الأيدى والأرجل من خلاف ـ أفاد بقوله (ثم لأصلبنكم) أن التصليب نوع آخر ومرتبة ثانية من التنكيل بهم ، أو سيتأخر عن التقطيع فى الزمن بأن يظلوا بعده مطروحين على الأرض إهانة لهم ثم يعلقون على جذوع النخل ويجوز الجمع بينهما . وكون التصليب فى جذوع النخل فائدة أخرى زادها فى سورة طه وتخصيصها بها مناسب لنظمها ولملك تدرك ذلك بالذوق كما تدرك به التفرقة بين بحور الشعر

أوردنا هذا البحث الفنى وأمثاله من هذه القصة على اجتنابنا للاصطلاحات الفنية والعلمية فى الغالب لثلاثة أسباب

(١) أن هذه المسائل مما يقع فيه الاشتباه ولم نر لها بيانا فى التفاسير المتداولة حتى التى تمتاز بالعناية بمثلها

(٢) بيان ما فيها من الدقة فى تحديد المعانى ، وغرائب الايجاز ، والاتفاق فى مظنة الاختلاف ، وهو المعهود فى كل موضوع طويل يعبر عنه بعبارات مختلفة (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) إذ ليس فى استطاعة بشر أن يحكى قصة كقصة موسى بعبارات مختلفه بمثل هذا التحديد للمعانى مع

سلامتها كلها من التعارض والتناقض وغيرهما من أنواع الاختلاف وإن كتب ذلك كتابة وقابل بعضه ببعض منقحاله ومصححا ، فكيف إذا كان يرتجل الكلام ارتجالا فى أوقات مختلفة كما أن النبى ﷺ يتلو القرآن كالمرتجل له ، وإنما كان يتلقاه فيؤديه كما تلقاه فيعجل به خائفا أن ينسى منه شيئا حتى لقن فيه نبأ عصمته من نسيان شيء منه ، وأنه تعالى كفل حفظه (سنقرئك فلا تنسى) (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) وتلك ضروب من إعجازه اللفظى ، ولضروب إعجازه المعنوى أكبر

(٣) إثبات عجز البشر عن ترجمة القرآن بلغة أخرى تؤدى معانيه كلها ، وإذا كان من المتعذر أداؤها بمثلها من لغتها ، فترجمتها بلغة أخرى أولى .

وقد تصدى بعض المغرورين فى هذه الأيام لترجمته باللغة التركية الفقيرة الملفقة من عدة لغات لأجل أن يستعين بهذه الترجمة الملاحدة من زعماء الترك على ما يبتغون من سلّ الشعب التركى من الاسلام بأن يحمله على الاستغناء بهذه الترجمة عن كتاب الله المنزل من عند الله تعالى (بلسان عربى مبين) كما ثبت فى عدة آيات

فان انخدع هذا الشعب المسلم بهذا سهل على هؤلاء الملاحدة أن يحولوا بينه وبين السنة النبوية العربية أيضا لأنها فى المرتبة الثانية ، ثم أن يحولوا بينه وبين آثار الصحابة والتابعين فانها فى المرتبة الثالثة — ثم أن يحولوا بينه وبين ما كتبه أئمة العلماء فى التفسير وشرح الحديث وما استنبط منهما فى أمور الدين من العقائد والآداب وأحكام العبادات والمعاملات . وبعد هذا يتحكمون فى تفسير هذه الترجمة له بما شاءوا ، ويوردون الشبهات على الاسلام المشوه المأخوذ من ترجمتهم القابلة لذلك — وحينئذ يتم لهم ما يريدون من جعل الترك أمة لا دينية . ولكن لن يتم لهم ذلك إن شاء الله تعالى ، فالشعب التركى راسخ فى الاسلام ، ومتى عرف كيف هؤلاء الملاحدة المضلين فانه ينبذهم نبذ النواة .

تتمة تفسير الآيات

وههنا يرد سؤال : ماذا كان من أمر السحرة عند ما سمعوا هذا التهديد

والوعيد ، وبم أجابوا ذلك الجبار العنيد ؟ وجوابه هنا ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ يجوز أن يكونوا قد عنوا بقولهم هذا أنفسهم وحدها وأرادوا أنهم

لا يبالون مايكون من قضائه فيهم وقتله هم لأنهم راجعون إلى ربهم ، راجون مغفرته ورحمته بهم ، وحينئذ يكون تعجيل قتلهم سببا لقرب لقائه ، والتمتع بحسن جزائه ، ويجوز أن يكونوا قد عنوا أنفسهم وفرعون جميعاً وأرادوا أننا وإياك سننقلب إلى ربنا ، فلئن قتلتنا فما أنت بخالد بعدنا ، وسيحكم عز وجل بعدله بينك وبيننا ، وفيه تعريض بكذبه في دعوى الربوبية ، وتصريح بإيثار ماعند الله تعالى على ماعنده من الشهوات الدنيوية ، وفي سورة الشعراء (قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) وهو يؤيد المعنى الأول ولا ينافي الثاني لأنه يشمل الأول

﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ قال الراغب : نقمت الشيء ونقمته (أي من بابي فرح وضرب) إذا أنكرته إما باللسان وإما بالعقوبة قال تعالى (وما نقموا إلا أن أغناهم الله)(وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله) (هل تنقمون منا) الآية والنقمة العقوبة قال(فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم) الخ وتفسيره هذا النقم أدق وأشمل من قول الزمخشري في الأساس : ونقمت كذا — أنكرته وعبته . فانه لم يذكر إلا القولي منه وقد استشهد له بقوله تعالى (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا) وهو في أصحاب الأخدود وكان النقم منهم بالفعل لا بالقول ، فسبحان من لاينسى ولا يغفل . وماذكره السحرة من نقم فرعون منهم كان بالقول وهو الاستنكار التوبيخي لإعلامهم والتهمة فيه والوعيد عليه . والظاهر أنه نفذ الوعيد بالانتقام بالفعل واستنبط بعض المفسرين من قوله تعالى لموسى وهارون (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) أن فرعون لم يقدر على تنفيذ الوعيد فيهم . وأجيب عن هذا بأن المراد الغلبة بالحجة والبرهان وفي عاقبة الأمر ونهايته ، وإلا لم يقتل أحد من أتباع الرسل عليهم السلام ، وهو صريح قوله تعالى في أول هذه القصة الذي ذكرنا أنه بيان لنتيجتها ووجه العبرة فيها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يعني فرعون وملأه ، ويؤيد ماورد في معناه من الآيات الكثيرة كقوله تعالى حكاية عن شعيب في قصته التي مرت في هذه السورة أيضا (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) وقوله قبله في قصة لوط منها (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) وقوله تعالى في مكذبي الرسل عامة بعد ذكر تكذيب قوم خاتم الرسل ﷺ

(كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ويجوز أن يراد بمن اتبع موسى وهارون قومهما خاصة وهم الذين بشرهم موسى بأن العاقبة لهم بعد وعيد فرعون لهم عقب خبر السحرة وهو ما تراه فى الآية الثانية بعد هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها . وهذه العاقبة قد بينها الله تعـالى بقوله فى سورة القصص (فأخذناه - يعنى فرعون - وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وقد ختم تعالى ماقصه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فنذكره تالين داعين

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ أى ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتفرغه علينا افراغا بتثبيتك إيانا على الإيمان وتأييدنا بروحك فيه كما يفرغ الماء من القرب ، حتى لايبقى فى قلوبنا شيئا من خوف غيرك ، ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ونوالك . وتوفنا اليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لامرك ونهيك ، مستسلمين لقضائك ، غير مفتونين بتهديد فرعون وغير مطيعين له فى قول ولا عمل . جمعوا بدعائهم هذا بين كمال الإيمان والاسلام

يدل على ما قررناه من المبالغة فى طلب كمال الصبر - تنكيره والتعبير عن ايتائه بالافراغ وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه وأما تصويرنا لحصول ذلك بقوة الإيمان فأخذه من العقل والتجارب أن الصبر من صفات النفس وهو عبارة عن قوة فيها على احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم ولا حرج يحملها على مالا ينبغى من ترك الحق أو اجتراح الباطل ، ولا شىء كالإيمان بالله والخوف منه والرجاء فيه يقوى هذه الصفـة فى النفس ، ومأخـذه من النقل آيات كقوله تعالى ، فى بيان المؤمنين الذين عملوا الصالحات فوجبت لهم الجنة (٢٩ : ٢٩ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وقوله فيهم (وتواصوا بالحق وتوصوا بالصبر) ومما يناسب المقام قوله (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)

ولدينـا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الأخـيرة بعللها وفلسفتهـا أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جميع الملل أعظم شجاعة وأشد صبرا على مشاق الحرب من غيرهم ، ولذلك يحرص أوسع الناس علما بسنن الخلق ، وأشدهم عناية بفنون الحرب ، ــ كالشعب الالمـانى ــ بالمحافظة على الدين فى جيشهم . ولابرنس بسمارك مؤسس وحدتهم

ووزيرهم الأعظم بل أكبر ساسة أوربة في كلمة في هـذا المعنى أثبتناها في المجلد الأول من المنار من ترجمة الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى عن كتاب (وقائع بسمارك ومذكراته) التي نشرها كاتم سره مسيو بوش بعد موته نكتفي منها هنا بقوله

« جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لأصحابه : كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئا فشيئا كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ، ولو لم يكن هنالك أمل في الجزاء والمكافأة (أي في الدنيا) ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الإيمان — ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحداً مهيمنا يراه وهو يجالد ويموت وإن لم يكن قائده يراه

فقال بعض المرتابين أتظن سعادتكم أن العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة ؟

فأجابه البرنس : ليس هذا من قبيل الملاحظات ، وإنما هو شعور ووجدان ، هو بوادر تسبق الفكر ، هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها ، ولو لاحظوا لفقدوا ذلك الميل وأضلوا ذلك الوجدان ، هل تعلمون أني لا أفهم كيف يعيش قوم وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات ، أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليه — إن لم يكن لهم إيمان بدين جاء به وحي سماوي ، واعتقاد بإله يحب الخير ، وحاكم ينتهي إليه الفصل في الأعمال في حياة بعد هذه الحياة ؟ »

ثم أطال في ذلك بأسلوب آخر صرح فيه بأنه لولا عقيدته الدينية لما خدم سلطانه وعاهله (الإمبراطور) ساعة من الزمان الخ ما قاله فيراجع في محله [1]

---

(١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ

---

(١) ص ٨٤٦ من الطبعة الثانية للمجلد الأول من المنار

أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

خاف ملأ فرعون عاقبة تركه لموسى حرا مطلقا فى مصر فكلموه فى ذلك وقد أخبرنا الله تعالى بما قالوه له، وما أجابهم به وما كان من تأثير جوابه فى موسى وقومه من نصحه لهم وما دار بين موسى و بينهم فى ذلك فقال :

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض و يذرك وآلهتك ؟ ﴾ أى قالوا له : أتترك موسى وقومه أحرارا آمنين لتكون عاقبتهم أن يفسدوا قومك عليك فى أرض مصر بإدخالهم فى دينهم، أوجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم، و يتركك مع آلهتك كالشىء اللقاء فيظهر للمصريين عجزك وعجزها، وقد رأيت ما كان من أمر إيمان السحرة — إذ الظاهر من السياق أن هذا القول كان بعد قصة السحرة — وسيأتى مافيه. وجمهور المفسرين على المراد بتركه وآلهته عدم عبادته وعبادتها، وقرأ ابن عباس (و إلاهتك) أى عبادتك. ومن المعلوم من التاريخ المستمد من العاديات المستخرجة من أرض مصر أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس واسمها فى لغتهم (رع) وهو متضمن فى لقب فرعون فهو عندهم سليل الشمس وابنها. وسننقل بعد جوابه لهم أثرا يدل على ذلك و يذكر فيه بعض هذه الآلهة .

﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ﴾ أى قال مجيبا للملأ : سنقتل أبناء قومه تقتيلا ماتناسلوا — فتعبيره بالتقتيل يدل على التكثير والتدريج — ونستبقى نساءهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ولادته حتى ينقرضوا ﴿ و إنا فوقهم قاهرون ﴾ و إنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل فلا يستطيعون إفسادا فى أرضنا ، ولا خروجا من حظيرة تعبيدنا. وفى سورة المؤمن (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه: إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) وهو يدل على أنه كان لديه من يدافع عن موسى ممن آمن به سرا وممن كان يحبه و إن لم يؤمن به فقد قال تعالى له (وألقيت عليك محبة منى) وفيه تصريح بما كان له فى أنفس

المصريين من المحبة والاحترام. وقد حكى الله تعالى لنا دفاع واحد ممن آمن به فقال (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم . إن الله لا يهدى من هو مسرف مرتاب)

والمرجح عند المتأخرين من المؤرخين الواقفين على العاديات المصرية ان فرعون موسى هو الملك (منفتاح) وكان يلقب بسليل الآله (رع) وقد جاء فى آخر الأثر المصرى الوحيد الذى ذكر فيه بنو اسرائيل (وهو المعروف برقم ٣٤٠٢٥ المحفوظ فى متحف مصر) أن مصر هى السليلة الوحيدة للمعبود (رع) منذ وجود الآلهة وأن « منفتاح » سليله أيضا وهو الجالس على سدة المعبود « شو » وان الاله « رع » التفت إلى مصر فولد « منفتاح » ملك مصر وشىء له أن يكون مناضلا عنها فتخنع له الولاة ولا يرفع أحد من البدو رأسه فخضع له القيروانيون والحيثيون والكنعانيون وعسقلان وجزالن ويئعام وفيه : وانفك الإسرائيليون فلا بزر لهم ، وأصبحت فلسطين خلية لمصر[1] والأراضى كلها مضمومة فى حفظه ، وكل اسم وعنه واضعفه وأذله « الصيدن القب (منفتاح) سليل الشمس معطى المعيشة كل نهار مثل الشمس اه[2] وما ذكر لا ينافى ادعاءه الانفراد بالألوهية والربوبية العليا بعده . وقوله : فلا بزر لهم ، هو بمعنى قولنا انقطع دابرهم ، يستعمل فى الحقيقة وفى المجاز من باب المبالغة أو بالنظر إلى المآل

ومن البديهى أن يخاف بنو اسرائيل هذا الوعيد ، وأن يطمئنهم موسى عليه السلام ، وهو ما بينه تعالى بقوله ﴿ قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ أى اطلبوا معونة الله تعالى وتأييده لكم على ما سمعتم من الوعيد واصبروا ، ولا تجزعوا ، فان سألتم لماذا وإلى متى؟ أقل لكم إن الأرض بجنسها : أو الأرض التى وعدكم ربكم إياها وهى فلسطين – لله تعالى الذى بيده ملكوت كل شىء يورثها من يشاء من عباده لا لفرعون ، فهى بحسب سنته تعالى دول والعاقبة الحسنة التى ينتهى

(١) الخلية التى لا زوج لها وهذا كناية عن كون فلسطين تحت كفالة مصر وتصرف فرعونها ويؤيده ما يجىء بعد فليحفظ

(٢) تراجع ترجمة هذا الأثر فى ص ٣٨٧ م ١٨ من المنار

اليها التنازع بين الأمم المتقين، أى الذين يتقون الله بمراعاة سننه فى أسباب إرث الأرض كالاتحاد وجمع الكلمة ، والاعتصام بالحق، و إقامة العدل، والصبر على المكاره والاستعانة بالله ، ولاسيما عند الشدائد، ونحو ذلك مما هدى اليه وحيه وأيدته التجارب. ومراده عليه السلام أن العاقبة ستكون لكم بإرث الأرض ولكن بشرط أن تكونوا من المتقين له تعالى بإقامة شرعه ، والسير على سننه فى نظام خلقه، وليس الأمر كما تتوهمون و يتوهم فرعون وقومه من بقاء القوى على قوته والضعيف على ضعفه، أو أن الآلهة الباطلة ضمنت لفرعون بقاء ملكه ، على عظمته وجبروته وظلمه .

ماذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام لقومه ؟ وهل فهموها وقدروها قدرها ؟ وبم أجابوه ؟ ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ يعنون أنهم لم يستفيدوا من ارساله لإنقاذهم من ظلم فرعون شيئا ، فهو يؤذيهم و يظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيهم من قبله أو أشد. وهذا الإيذاء مبين فى الفصل الخامس من سفر الخروج من التوراة ففيه أن موسى وهارون لما طلبا من فرعون إطلاق بنى إسرائيل لكى يعبدوا ربهم و يعيدوا له فى البرية و يذبحوا له ، قال لهما : لماذا تعطلان الشعب عن أعماله ، وأمر فرعون فى ذلك اليوم مسخرى الشعب ومدبريه أن يمتنعوا من اعطائه التبن الذى كانوا يعطونه إياه ليعمل به اللبن (الطوب النيّ) الذى كان مفروضا عليهم كل يوم وأن يكلفوه جمع التبن من البلاد ولا ينقصوا من عدد اللبن المفروض عليهم شيئا، فتفرق الشعب فى جميع أرض مصر ليجمعوا جذامة (*) عوض التبن فعجزوا عن تمام المقدار المفروض عليهم من اللبن والمسخرون يلحون عليهم: أكملوا فريضة كل يوم كما كانت عندما كنتم تعطون التبن، فجاء مدبرو بنى اسرائيل الذين ولاهم عليهم المسخرون لهم من قبل فرعون واستغاثوا فرعون نفسه قائلين (١٥) لماذا تصنع بعبيدك هكذا ؟ (١٦) إنه لا يعطى لعبيدك تبن وهم يقولون لنا اعملوا لبنا ، وها أن عبيدك يُضربون وشعبك يعاملون كمذنبين (١٧) قال إنما أنتم مترفهون ولذلك تقولون نمضى ونذبح للرب (١٨) والآن فامضوا اعملوا، وتبن لا يعطى لكم، ومقدار اللبن تقدمونه (١٩) فرأى مدبرو بنى اسرائيل نفوسهم فى شقاء إذ قيل لا تنقصوا

(*) الجذامة بالضم ما بقى من الزرع فى الأرض بعد الحصد

من لبنكم شيئا بل فريضة كل يوم فى يومها (٢٠) وصادفوا موسى وهارون وهما واقفان للقائهم عند خروجهم من عند فرعون (٢١) فقالوا لهما ينظر الرب ويحكم عليكما كما أفسدتما أمرنا عند فرعون وعند عبيده وجعلتما فى أيديهم سيفا ليقتلونا» انتهى المراد منه .

﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون﴾ أى قال موسى عليه السلام إن المرجو من فضل ربكم أن يهلك عدوكم الذى سخركم وآذاكم بظلمه ويجعلكم خلفاء فى الأرض التى وعدكم إياها ، ويمنعكم فرعون من الخروج اليها ، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافه إياكم فيها : هل تشكرون النعمة أم تكفرون ؟ وهل تصلحون فى الأرض أم تفسدون ؟ ليجازيكم فى الدنيا والآخرة بما تعملون .

وقد عبر بعسى ولم يقطع بالوعد لئلا يتكلوا ويتركوا مايجب من العمل أو لئلا يكذبوه لضعف أنفسهم بما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم لملكه وقوته ، وفى التوراة مايؤيد هذا وما قبله .

جاء فى آخر الفصل الخامس من سفر الخروج بعد مانقلناه آنفا مانصه :
(٢٢) فرجع موسى إلى الرب وقال يارب لماذا ابتليت هؤلاء الشعب لماذا بعثتنى؟
(٢٣) فإني منذ دخلت على فرعون لاتكلم باسمك أساء إلى هؤلاء الشعب وأنت لم تنقذ شعبك »

وفى أول الفصل السادس منه (١) فقال الرب لموسى : الآن ترى ماأصنع بفرعون إنه بيد قديرة سيطلقهم و بيد قديرة سيطردهم من أرضه » — واعلمه بأنه أعطى ابراهيم واسحاق عهدا بأن يعطيهم أرض كنعان وانه سمع أنين إسرائيل الذين استعبدهم المصريون فذكر عهده ـ ثم قال (٦) لذلك قل لبنى إسرائيل أنا الرب لأخرجنكم من تحت أثقال المصريين وأخلصكم من عبوديتهم وأفديكم بذراع مبسوطة واحكام عظيمة (٧) وأتخذكم لى شعبا وأكون لكم آلها وتعلمون أنى أنا الرب آلهكم المخرج لكم من تحت أثقال المصريين (٨) وسأدخلكم الأرض التى رفعت يدى مقسما أن أعطيها لابراهيم واسحق ويعقوب فأعطيها لكم ميراثا أنا الرب (٩) فكلم موسى بذلك بني اسرائيل فلم يسمعوا لموسى لضيق أرواحهم وعبوديتهم الشاقة» اهـ المراد منه ، وهو من ترجمة اليسوعيين

كالذى قبله . ويليه عودة موسى إلى فرعون ومطالبته باخـراج بنى إسرائيل وامتناعه و إظهار الرب الآيات له واحدة بعد أخرى كما يأتي مجملا فى الآيات التالية

(فان قيل) ظاهر ترتيب الآيات هنا يفيد أن هذه المراجعة بين فرعون وملئه من جهة و بين موسى و بني إسرائيل من جهة أخرى وقعت بعد قصة السحرة ، وسياق التوراة صريح فى وقوعها قبلها و بعد تبليغ أصل الدعوة - فهل يجب ان نقول إن ظاهر السياق هنا غير مراد وهو معطوف بالواو التى لاتدل على الترتيب — أعنى قوله (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه) الخ ليوافق التوراة وتتم به الحجة على رسالة نبينا ﷺ من هذا الوجه ، وهو أنه كان أميا لا اطلاع له على التوراة ولا غيرها من كتب أهل الكتاب ولا غيرهم ، وانه لم يعلمه إلا بوحى الله إليه ؟ كما قال له تعـالى عقب قصة نوح (ما كنت تعلمهـا أنت ولا قومك من قبل هذا) وما فى معناه من قصة موسى فى سورة القصص ؟

(قلنا) إنه لا مانع من هذا الجمـع ولا تتوقف الحجة عليه ، فان القرآن مشتمل على حجج كثيرة من هذا النوع ومن غيره تدل على كونه وحيا من الله تعالى لا يقدر على مثله محمد الامىّ ﷺ ولا غيره من القارئين الـكاتبين أيضاً وهو على كونه كما قال مصدقا لكون تلك الكتب من عند الله تعالى أى فى الأصل قد قال أيضا ان أهل التوراة أوتوا نصيبا منها ونسوا حظاو نصيباً آخر وأنهم حرفوا بعض ماعندهم منها ، و أنه هو أى القرآن مهيمن عليها ، فما أقره منها فهو الذى لاشك فيه ، وما صححه بايراده مخالفا لما عندهم فهو الصحيح سواء كان بايراده إياه مخالفا لما فيها من بعض الوجوه ككون موسى هو الذى ألقى العصا فاذاهى حية و إذا هى تلقف ما يأفكون لاهارون كما فى التوراة . أو دلت قواعده أن نصوصه على امتناعه كما جاء فى أول الفصل الثامن من سفر الخروج من أو الرب جعل موسى إلها لفرعون و يكون أخوه هارون نبيه !! فأصول القرآن وكذا التوراة - تمنع أن يكون إله غير الله عز وجل . وقد ثبت فى تواريخ أهل الكتاب وغيرهم أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام قد فقدت وأن عزرا الكاتب هو الذى كتب الاسفار المقدسة بعد السبى البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد وهو الذى استبدل الحروف الـكلدانية بالعبرانية ، على أن ما كتبه عزرا قد فقد أيضاً ولـكن جميع نسخ التوراة الموجودة فى العالم مستمدة مما كتبه وفيها تحريف كثير لا يمكن أن يكون

من الأصل و يسمونه مشكلات يتكلفون الأجوبة عنها . وقد بينا نموذجا منها من قبل ، ومنها ان الفصل الأخير من سفر التثنية وهو الأخير من التوراة قد ذكر فيه وفاة موسى عليه السلام وانه لم يقم بعده نبي مثله ، والمرجح عندهم أن يشوع هو الذى كتبه على أن فيه ذكر يشوع ..

ومما يوضح معجزة القرآن فيما أخبر به عن التوراة و يؤكدها خطأ المفسرين الكثيرين من المتقدمين والمتأخرين فى تفسير بعضه وتعيين المراد منه لعدم اطلاعهم على ماعند أهل الكتاب منها ومن سائر كتبهم المقدسة وغيرها من التواريخ والعاديات المستخرجة من آثار قدماء المصريين والبابليين ، و إنما كان جل ما يعرفون عن بني إسرائيل ما سمعوه ممن أسلم منهم وما كل من أسلم منهم بحفيظ عليم ، ولا بصادق أمين . ثم ما أخذوه عن كتب تاريخية غير موثوق بها ، فكان أكثر ما كتبوه فى التفسير منها مشوها له وحجة لأهل الكتاب علينا ـ فاذا كان هذا حال علمائنا فى أخبار أهل الكتاب بعد انتشار العلوم فى الاسلام فكيف حال أهل مكة عند ظهوره ولم يكن فيها كتاب يقرأ ولا أحد يقرأ و يكتب ، قيل إلا ستة نفر من التجار كانوا ممن يقال فيهم اليوم « يفكون الخط » فأنى لمن كان أبعدهم عن ذلك وهو محمد بن عبد الله ﷺ ان يعرف هذه الدقائق المفصلة السالمة من الشوائب التى لا يصدقها العقل أو لا تتفق مع توحيد الأنبياء وفضائلهم لولا ما أنزل عليه من الوحي الالهى؟

---

(١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

هذه الآيات تفصيل لمقدمات الهلاك الموعود به فيما قبلها و إنجاز وعد الله تعالى لبنى إسرائيل بالاستخلاف فى الأرض

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ صدرت الجملة بالقسم الدالة عليه لامه لتأكيد مضمونها وتعظيم شأنه وكيف لا

وهو من أظهر آياته سبحانه على تأييد رسله وقدرته على الإدالة للمظلومين المستضعفين من الأقوياء الظالمين . وقد كثر استعمال مادة « الأخذ » في العذاب وما في معناه كقوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد) (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) (فأخذناه أخذاً وبيلا) يعني فرعون موسى (فأخذهم أخذة رابية) وآل فرعون قومه كما أطلقه المفسرون ، أو خاصته وأعوانه في أمور الدولة وهم الملأ من قومه الذين كثر ذكرهم في قصته ، ووجهه أنهم هم المذنبون المعاندون لموسى وانما وقوع العذاب على غيرهم بالتبع لهم لأنهم كانوا موافقين ومقرين لهم على ظلمهم . وقد قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهذه سنة من سنن الاجتماع العامة وسيأتي توجيه القول الأول

وأصل اللغة أن آل الرجل أهل بيته وأقاربه الذين يضافون إلى اسمه ، وهو لا يضاف إلا إلى أعلام شرفاء قومهم وكبرائهم كالأنبياء والملوك والرؤساء ثم أطلق على أهل الاختصاص بهم أو جميع أتباعهم ، ومن هنا قال بعض العلماء ان آل النبي ﷺ يطلق على جميع أتباعه وان هذا هو المراد بالصلاة على آل النبي في التشهد وغيره . قال الراغب : الآل قيل مقلوب عن الأهل ويصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة يقال آل فلان ولا يقال آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضع كذا ولا يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف الأفضل يقال آل الله وآل السلطان ، والأهل يضاف إلى الكل يقال أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا وبلد كذا . وقيل هو في الأصل اسم الشخص ويصغر أويلا ويستعمل فيمن يختص بالانسان اختصاصاً ذاتيا إما بقرابة قريبة أو بموالاة قال عز وجل (وآل ابراهيم وآل عمران) وقال : (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) قيل وآل النبي عليه الصلاة والسلام أقاربه وقيل المختصون به من حيث العلم ، وذلك أن أهل الدين ضربان ضرب متخصص بالعلم المتقن والعمل المحكم ، فيقال لهم آل النبي وأمته ، وضرب يختصون بالعلم[1] على سبيل التقليد ، ويقال لهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يقال لهم آله ، فكل آل للنبي أمة له وليس كل أمة له آله . وقيل لجعفر الصادق رضي الله

(١) كذا في النسخة المطبوعة ولعل الصواب بالعمل فان التقليد لا يسمى علما

عنه : الناس يقولون المسلمون كلهم آل النبي ﷺ ، فقال كذبوا وصدقوا ، فقيل مامعنى ذلك ؟ فقال كذبوا فى أن الأمة كافتهم آله وصدقوا فى أنهم إذا قاموا بشرائط شريعته آله ، وقوله تعالى (رجل مؤمن من آل فرعون) أى من المختصين به و بشريعته وجعله منهم من حيث النسب أو المسكن أو من حيث تقدير القوم أنه على شريعتهم اه

بعد هذا نقول إن « آل فرعون » أطلق فى القرآن على أهل بيته خاصة فى موضع واحد لايحتمل غيرهم وفى موضع آخر محتمل لغيرهم فالأول قوله تعالى(فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا) والثانى قوله (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) وأطلق كثيراً بمعنى ملئه وخاصة أتباعه أو جملتهم كقوله (وأغرقنا آل فرعون) (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (و إذ نجينا كم من آل فرعون (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) ولقد جاء آل فرعون النذر) كذلك كثر ذكر ملإ فرعون فى إرسال موسى إليهم ومادار بين فرعون و بينه وهم أشراف قومه ورجال دولته كما تقدم ولولا أن ورد ذكر قومه فى بعض الآيات لحملنا الآل فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها وفى أمثالها عليهم دون سائر قومه ، فقد قال تعالى فى أول قصة موسى من سورة الشعراء (و إذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألايتقون) وقال فى سورة الدخان (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) الخ ومن الواضح أن عامة قوم فرعون ينالهم من عذاب الأخذ بالسنين ونقص الثمرات مالاينال فرعون وأهل بيته وخاصة ملئه ، فالمراد بآله قومه وهم أهل مصر فى عهده ، وهم مؤاخذون بظلمه وطغيانه لأن قوته المالية والجندية منهم ، وقد خلقهم الله أحراراً وكرمهم بالعقل والفطرة التى تكره الظلم والطغيان بالغريزة فكان حقا عليهم أن لايقبلوا استعباده لهم وجعلهم آلة لطغيانه و إرضاء كبريائه وشهواته ولا سيما بعد بعثة موسى ووصول دعوته اليهم ورؤيتهم لما أيده الله به من الآيات

وأما السنون فهى جمع سنة وهى بمعنى الحول ولكن أكثر ما استعمل فى الحول الذى فيه الجدب كما قال الراغب وغيره ، أى إلا إذا ذكرت فى مقام العدد والإحصاء . والأخذ بالسنين صريح فى إرادة العقاب بالجدب والضيق ويؤيده نقص الثمرات ، وهل يدخل نقص الثمرات فى عموم المراد من السنين أم هي خاصة بنقص الغلال التى عليها مدار الأقوات دون الفاكهة التى لا

تكفى القوت وإن كان منها النخيل والأعناب ؟ وجهان . ونقص الثمرات نص على شدة الضيق فى كل حال ، وهذا إجمال يفسره قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) وما هو ببعيد

وجملة معنى الآية : أنه تعالى أخذ آل فرعون بالجدب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم الجبار المتغطرس وعجز آلهتهم ولعلهم إذا تذكروا اعتبروا واتعظوا فرجعوا عن ظلمهم لبنى إسرائيل وأجابوا دعوة موسى عليه السلام ، فان الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب وتهذب الطباع وتوجه الأنفس إلى مرضاة رب العالمين والتضرع له دون غيره من المعبودات التى اتخذت فى الأصل وسائل إليه وشفعاء عنده ، ثم صار ينسى فى وقت الرخاء لأنه غيب لا يرى وتذكر هى لأنها مشاهدة مجانسة لعابديها بل هى أو أكثرها دونهم لو كانوا يعقلون ، فاذا بلغ الشرك من الناس أن ينسوا الله تعالى حتى فى أوقات الشدائد فذلك هو الضلال البعيد

كذلك كان دأب آل فرعون بعد إنذار موسى إياهم ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ من خصب ورخاء وهو الغالب ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ دون غيرنا ونحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس ﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أى وإن اتفق أن أصابتهم سيئة أى حالة تسوءهم كجدب أو جائحة أو مصيبة أخرى فى الأبدان أو الأرزاق تشاءموا بموسى ومن معه من الأنصار كأخيه هارون أو جميع قومه ، ويرون أنهم إنما أصيبوا بشؤمه وشؤمهم ، ويغفلون عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى لأن هذا عندهم من الحقوق ، كما هو شأن الافرنج فى ظلمهم لمن يستضعفونهم من أهل الشرق

أصل « يطيروا » يتطيروا فأدغمت التاء فى الطاء وسبب استعمال التطير بمعنى التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير حتى أنها تزجرها إذا لم تمر من تلقاء نفسها فإذا طارت من جهة اليمين تيمنت أى رجت وقوع اليمن والبركة والخير وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت الشر والمصيبة ، ويسمى الطائر الأول السانح والآخر البارح ، ثم إنهم سموا الشؤم طيراً وطائراً ، والتشاؤم تطيراً ، ولذلك قال تعالى فى رد خرافتهم

﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ابتدأ الرد عليهم

بأداة الافتتاح « ألا » للاهتمام به إذ المراد بها توجيه ذهن القارىء لما يلقى بعدها حتى لا يفوته شيء منه ، أى ألا فليعلموا أن الشؤم الذى نسبوه إلى موسى وعدوه من آثار وجوده فيهم هو عند الله تعالى لا عند موسى ومن معه ، فهو تعالى قد جعل لكل شيء قدراً من حسنة وسيئة ، بمعنى أنه وضع لنظام الكون سنناً تكون فيها المسببات على قدر الأسباب ، ولكل منها حكم ، فبمقتضى هذه السنن والأقدار نزل البلاء عليهم ، وهو امتحان واختبار لهم بما يسوءهم ليثوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم على بنى إسرائيل وطغيانهم وإسرافهم فى كل أمورهم ، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكم التصرف الربانى فى الخلق ولا أسباب الخير والشر الصورية ولا المعنوية وكون كل شيء فى هذا الكون بمشيئته تعالى وتدبيره

وفى الآية من نكت البلاغة أنه عبر عن مجىء الحسنة بإذا الدالة على تحقق الوقوع وعرّفها ، لإفادة أنها الأصل الثابت الغالب بغلبة رحمة الله وفضله على سخطه وعقابه ، وعبر بإصابة السيئة بإن التى هى أداة الشك — أى إن شرطها إما مشكوك فى وقوعه وإما منزل منزلة المشكوك فيه لندرته أو لسبب آخر — وذكر السيئة لإفادة أن وقوعها قليل وخلاف الأصل الغالب . وأفاد بالتعبيرين أن القوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات ، وأن الحسنة على عظمتها وكثرتها مازادتهم إلا غروراً بحالهم ، وتمادياً فى ظلمهم ، وإصراراً على بغيهم ، وأن السيئة لم تفدهم عظة ولا عبرة ولم تحدث لهم توبة ، وهاك تفصيل ذلك

---

(١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ

قلنا : إن القوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات . ولم يذعنوا لما أيد الله به تعالى موسى من الآيات ، بل أصروا بعد إيمان كبار السحرة على عد آيتى موسى من السحر ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾

« مهما » اسم شرط يدل على العموم ، والمعنى : أنك إن جئتنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدل بها على حقية دعوتك لأجل أن تسحرنا بها ، أي تصرفنا بها بدقة ولطف في التأثير ، عما نحن عليه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا وضرب اللبن لمبانينا — فما نحن لك بمصدقين ، ولا لرسالتك بمتبعين

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ أي فأنزلنا عليهم هذه المصائب والنكبات حال كونها آيات بينات على صدق رسالة عبدنا موسى بأن توعدهم بها قبل وقوع كل واحدة منها تفصيلا لا إجمالا ، لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل التأويل بأنها وقعت بأسباب لها لا دخل لرسالته فيها ـ فاستكبروا عن الإيمان به استكبارا ، مع اعتقاد صحة رسالته وصدق دعوته باطنا ، وكانوا قوما راسخين في الاجرام والذنوب مصرين عليها فلا يهون عليهم تركها

جاء في سورة الاسراء ـ أو بني اسرائيل ـ أن الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وقد عد هنا منها خمسا وهي مذكورة في التوارة على غير هذا الترتيب وهو غير مراد وعطف بعضها على بعض بالواو لا يقتضيه :

فأما الطوفان فمعناه في اللغة ما طاف بالشيء وغشيه ، وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض وكذا كل ماينزل من السماء بكثرة تغشى الأرض . قال ابن كثير اختلفوا في معناه فعن ابن عباس في روايات كثيرة : الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان الماء والطاعون على كل حال ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن هشام الرفاعي حدثنا يحيي بن هيمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن مينا عن عائشة (رض) قالت قال رسول الله (ص) « الطوفان الموت » وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيي بن هيمان به وهو حديث غريب . وقال ابن عباس في رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) اهـ

أقول : أما حديث عائشة المرفوع فهو ضعيف لا يثبت بمثله قول مخالف للمتبادر من اللغة — فيحيي بن هيمان الذي انفرد به هو الكوفي العجلي كان

من العباد ضعفه الإمام أحمد ، وقال حدث عن الثورى بعجائب وقال غيره : إنه كان صدوقا لايتعمد الكذب ولكنه كثير الخطأ والنسيان وقد أصيب بالفالج فتغير حفظه وهذا هو الصواب . والمنهال بن خليفة العجلى الكوفى الذى روى عنه ضعفه ابن معين وغيرهما ، وقال البخارى حديثه منكر . وقال ابن حبان كان ينفرد بالمناكير عن المشاهير فلا يجوز الاحتجاج به . وهـذا طعن مبين السبب فهو مقدم على توثيق البزار له ، وكذلك الحجاج وهو ابن ارطاة الكوفى القـاضى مدلس ضعيف لا يحتج به ، وأولى الآثار بالقبول قول ابن عبـاس الأول الموافق المتبادر من اللغة أى طوفان المطر ، وماعدا ذلك فمن الاسرائيليات وأولاها بالقبول مالايخالف القرآن من أسفار التوراة نفسها وهو ما ننقله عنها :

جاء فى الفصل التاسع من سفر الخروج : (١٣) ثم قال الرب لموسى بكر فى الغـداة وقف بين يدى فرعون وقل له : كذا قال الرب اله العبرانيين أطلق شعبى ليعبدونى (١٤) فانى فى هـذه المرة منزل جميع ضرباتى على قلبك وعلى عبيدك وشـعبك لـكى تعلم أنه ليس مثلى فى جميع الأرض (١٥) وأنا الآن أمد يدى وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الأرض [1] (١٦) غير انى لهذا أبقيك لـكى أريك قوتى ولـكى يخبر باسمى فى جميع الأرض (١٧) وأنت لم تزل مقاوماً لشعبى (١٨) ها أنا (؟) ممطر فى مثل هذا الوقت من غد برداً عظيما جداً لم يكن مثله فى مصر منذ يوم أسست إلى الآن » ثم ذكر وقوع البرد مع نار من السماء ووصـف عظمته وشمـوله لجميع بلاد مصر وان فرعون طلب موسى وهارون واعترف لهما بخطئـه وطلب منهما أن يشفعا إلى الرب ليكف هذه النكبة عن مصر ووعدهما باطلاق بني اسرائيل وقال فى ختام ذلك

---

(١) هذا نص ترجمة اليسوعيين التى نقحها وصححها الشيخ ابرهيم اليازجى وهى مخالفـة فى المعنى لترجمة الامريكان ونصها : « ١٥ فانه الآن لو كنت أمد يدى وأضربك وشعبك بالوباء لـكنت تباد من الأرض » فالأولى جزمت بالضرب وبالوباء والثانية علقته بلو الدالة على عدم وقوعه المتبادر أنها هى الصحيحة المعنى ، فتامل ولاتظن أن الترجمة التى صححها اليازجى خالية من الخطأ اللغوى كما يظن الغالون فيه ، واقرب غلط فى هذا السياق أول الجملة ١٨ ها أنا .. فها التنبيهية تدخل على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الاشارة فيقال ها أنا ذا (وقد تـكتب هاء نذا اختصارا) — وها أنتم أولاء، وهذا الغلط قد تـكرر فيها كغيرها وله أمثال

(٣٣) فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون و بسط يديه إلى الرب فكفت الرعود والبرد ولم يعد المطر يهطل على الأرض » اه ولم يذكر المطر عند الوعيد بل ذكر هنا عند كف النكبة .

وأما الجراد فهو معروف وقد ذكر فى التوراة بعد الطوفان ففيها بعدما تقدم أن فرعون قساقلبه فلم يطلق بني إسرائيل فأخبر الرب موسى كما فى الفصل العاشر بأنه قسى قلبه وقلوب عبيده ليريهم آياته ولكي يقص موسى على ابنه وابن ابنه (كذا) ما فعل بالمصريين وأمره بأن ينذره بإرسال الجراد عليهم فيأكل ماسلم من النبات والشجر فلم يحسه البرد و يملأ بيوته وبيوت عبيده وسائر بيوت المصريين ففعل - فرضى فرعون أن يذهب الرجال من بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم دون النساء والأولاد والمواشى . فمد موسى عصاه بأمر الرب على أرض مصر فأرسل الرب ريحاً شرقية ساقت الجراد على أرض مصر (١٥) فغطى جميع وجه الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر حتى لم يبق شىء من الخضرة فى الشجر ولا فى عشب الصحراء فى جميع أرض مصر» وفيه أن فرعون استدعى موسى وهارون واعترف لهما بخطئه وطلب منهما الصفح والشفاعة إلى الرب إلهـهما أن يرفع عنه هذه التهلكة ففعلا فأرسل الله ريحاً غربية فحملت الجراد كله فألقته فى بحر القلزم . وأما القمل - بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة - فمن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحنطة وعنه أنه الدَّبى وهو الجراد الصغار الذى لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتـادة وعن الحسن وسعيد بن جبير أنه دواب سود صغار ، وعن ابن جرير أنها دابة تشبه القمل تأكل الإبل ، ونقل عن بعض علماء اللغة البصريين ان القمل عند العرب الحنان واحدتها حنانة وهى صغار القردان — ذكر هذا كله ابن كثير . وجزم الراغب بأن القمل صغـار الذباب وهو موافق لما فى التوراة ، ففيها ان البعوض والذبان كان من الضربات العشر التى ضرب الرب بهـا فرعون وقومه ليرسلوا بنى إسرائيل مع موسى ففى الفصل الثامن من سفر الخروج أن موسى أنذر فرعون ان الذبان سيـدخل بيوته وبيوت عبيـده وسائر قومه فيفسدها ولا يدخل فى بيوت بنى إسرائيل المقيمين فى أرض جاسان وان ذلك وقع وفسدت الأرض من تأثير الذبان .

وأما الضفادع فهى المعروفة لا خلاف فيها وفى أول الفصل الثامن من سفر الخروج (١) وقال الرب لموسى ادخل على فرعون وقل له كذا قال الرب أطلق شعبى ليعبدونى (٢) وان أبيت أن تطلقهم فها أنا (ذا) ضارب جميع تخومك بالضفادع (٣) فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنتشر فى بيتك وفى مخدع فراشك وعلى سريرك وفى بيوت عبيدك وشعبك وفى تنانيرك ومعاجنك » الخ وكذلك كان . ولكن فيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك وأصعدوا الضفادع ، وان فرعون طلب من موسى أن يشفع له عند ربه برفع الضفادع فأجابه إلى ذلك قال (١٣) ففعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت (؟) والأفنية والحقول (١٤) فجمعوها كوامًا وأنتنت الأرض منها »

وأما الدم ففسره زيد بن أسلم بالرعاف وأكثر أهل التفسير المأثور أنه دم كان فى مياه المصريين وهو موافق لما جاء فى التوراة وهو فيها أول الضربات العشر التى أنزلها الله على فرعون وقومه بعد انقلاب العصا ثعبانًا . ففى الفصل السابع من سفر الخروج : أن الرب أمر موسى أن ينذر فرعون ذلك ففعل (١٩) ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومدّ يدك على مياه المصريين وأنهارهم وخلجهم ومناقعهم وسائر مجامع مياههم فتصير دمًا ويكون دم فى جميع أرض مصر وفى الخشب وفى الحجارة » وفيه أن موسى وهارون فعلا ذلك وأن سمك النهر مات وأنتن النهر فلم يستطع المصريون أن يشربوا منه ، وفيه أن سحرة مصر فعلوا مثل ذلك (؟؟) وان الدم دام سبعة أيام

هذه الخمس جملة ما ذكره القرآن من الآيات التسع التى أيد بها عبده ورسوله موسى عليه السلام وليس فيها شىء من المبالغات التى فى التوراة فلا هو ينفيها ولا يؤيدها ، ومقتضى أصول الإسلام الوقف فيها إلا ما دل دليل من القرآن على نفيه كما تقدم . وفيها أن من تلك الآيات أو الضربات (البعوض) وذلك أن هارون ضرب بأمر الرب تراب الأرض « فكان البعوض على الناس والبهائم ، وكل تراب الأرض (؟) صار بعوضاً فى جميع أرض مصر » كذا فى ٨ : ١٧ خر) وفيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك !! (ومنها الوباء) وقع على دواب المصريين وأنعامهم فماتت كلها من دون مواشى الإسرائيليين فانه لم يمت منها شىء (ومنها البثور والقروح المتنفخة) أصابت الناس والبهائم — ومن أين جاءت البهائم بعد

أن ماتت بأسرها ؟ (ومنها الظلام) غشى جميع المصريين ثلاثة أيام كان الاسرائيليون فيها يتمتعون بالنور وحدهم (ومنها إماتة جميع أبكار الناس والبهائم) وهى الضربة العاشرة ففيها « وقال موسى كذا قال الرب إنى نحو نصف الليل أجتاز فى وسط مصر فيموت كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على عرشه إلى بكر الأمة التى وراء الرحى وجميع أبكار البهائم (من أين جاءت بعد أن ماتت منذ ايام ؟) ويكون صراخ عظيم فى جميع أرض مصر لم يكن مثله (١١ : ٤-٦ خر)

---

(١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ، لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ

بعد بيان تلك الآيات ذكر ما كان من تأثيرها وتأويلها معطوفا عليها فقال عزوجل

﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك : لئن كشف عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل ﴾ قال فى الأساس : ارتجز الرعد إذا تداوك صوته كارتجاز الرجز . . والبحر يرتجز بآذيه أى موجه . . . فمادة الرجز تدل فى أصل اللغة على الاضطراب ، كما قال الراغب وهو يكون فى النفس كما يكون فى الأجسام ، ومنه قوله تعالى فى وصف الماء الذى أنزله على المسلمين فى بدر (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أى وسوسته لهم بأن يأخذهم العطش فلا يستطيعون الصبر على القتال ، وقيل غير ذلك . وقد يكون فى الصوت ، ومنه الرجز فى الشعر سمى بما كان لهم من اضطراب الصوت فى إنشاده ، وقد سمى عذاب قوم لوط رجزا بقوله تعالى فى سورة العنكبوت (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) وفى

سورتي سبأ والجاثية انذار للكافرين بعذاب من رجز أليم. وفسر الرجز هنا بالعذاب وروى عن قتادة وفيه حديث مرفوع عن عائشة عند ابن مردويه ، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المراد به الطاعون . وكأنهما أخذاه من حديث أسامة بن زيد مرفوعا « الطاعون رجز أرسل على بني اسرائيل — أو على من كان قبلكم — فاذا سمعتم به بأرض فلاتقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلاتخرجوا فراراً منه» رواه مسلم عنه بهذا اللفظ وألفاظ أخرى بمعناه منها « الطاعون آية الرجز ابتلى الله به عز وجل أناسا من عباده » الخ وفى رواية له « هو عذاب أو رجز أرسله الله على طائفة من بني اسرائيل أوناس كانوا قبلكم» الخ وأوله فى بعضها «ان هذا الطاعون» الخ ورواه أحمد والنسائى ومصنفو التفسير المأثور عنه وعن سعيد بن مالك وخزيمة بن ثابت ووجهه فى اللغة أن الطاعون من الأوبئة التى تضطرب لها القلوب لشدة فتكها وذكر المفسرون تفسير قوله تعالى من سورة البقرة (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية — إلى قوله — فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) وهو يصدق بطائفة من بني اسرائيل ، وقد نزل الطاعون بهم كغيرهم مرارا

ولا يوجد حديث مرفوع يدل على أن الطاعون هو المراد بالرجز فى الآية التى نفسرها ، وضربة القروح المذكورة فى التوراة يجوز أن تكون هى الطاعون ، وموت الأبكار يحتمل أن يكون بالطاعون أيضاً

والمتبادر من عبارة الآية أن المراد من الرجز جنسه وهو كل عذاب تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس فى شؤونهم ومعايشهم وهو يشمل كل نقمة وجائحة أنزلها الله تعالى على قوم فرعون كالخمس المبينة فى هذا السياق . وفى التوراة أن فرعون كان يقول لموسى عند نزول كل منها ادع لنا ربك واشفع لنا عنده أن يرفع عنا هذه ، ويعده بأن يرسل معه بني اسرائيل ليعبدوا ربهم ويذبحوا له ثم ينكث فاذا أريد بالرجز افراده وافق التوراة فى أن فرعون وملأه كانوا يطلبون من موسى عند كل فرد منها ان يدعو ربه بكشفها عنهم ، ولفظ « لما » لا يمنع من ذلك كما صرح به المفسرون الذين قالوا بهذا ، وان أريد به جملته ومجموع افراده أو فرد آخر غير ماتقدم فالمتبادر ان يكون طلب كشفه قد وقع مرة واحدة ، والأول أظهر ويرجحه التعبير عن نكثهم بصيغة

المضارع (ينكثون) فانه يدل على الاستمرار

ومعني النظم الكريم : ولما وقع على فرعون وقومه ذلك العذاب المذكور فى الآية السابقة فاضطربوا اضطراب الارشية فى البئر البعيدة القعر ، وحاصوا حيصة الحمر فوقعوا فى حيص بيص ــ وهو مايدل عليه تسمية ذلك العذاب بالرجز ــ قالوا عند نزول كل نوع منه بهم : ياموسى ادع لنا ربك واسأله بما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لإنقاذ قومك ليعبدوه وحده — فالنبوة والرسالة عهد من الرب تعالى لمن اختصه بذلك يدل عليه قوله تعالى لابراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم (إني جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتي ، قال لاينال عهدي الظالمين) أو ادعه بالذى عهد به اليك أن تدعوه به فيعطيك الآيات و يستجيب لك الدعاء — أن يكشف عنا هذا الرجز ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل قال تعالى :

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ أى فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه ومنتهون اليه فى كل مرة منها ــ وهو عود الحال إلى ما كانت عليه ــ أو فى مجموعها وهو الغرق الذى هلكوا فيه ــ إذا هم ينكثون عهدهم و يحنثون فى قسمهم فى كل مرة . أى فاجأوا بالنكث ، و بادروا إلى الحنث ، بلا روية ولا ريث . وأصل النكث فى اللغة نقض ما غزل أو ما فتل من الحبال ليعود انكاثا وطاقات من الخيوط كما كان ، والانكاث ما نقض من الغزل ليغزل ثانية (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا)

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أى فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم بأن أغرقناهم فى اليم — وهو البحر فى اللغة المصرية الموافقة للعربية فى الألوف من مفرداتها [1] وهو يطلق على النيل وغيره — والفاء الداخلة على انتقمنا تفسيرية كقوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال) وعلل هذا الانتقام كما علل أمثاله بأنهم كذبوا بآيات الله وتكرر هذا اللفظ فى قصص الأنبياء من هذه السورة أكثر من غيرها و إن لم يؤت بعضهم غير آية واحدة فان

(١) قد اكتشف هذه الموافقة علامة العاديات المصرية صديقنا أحمد باشا كمال الاثرى المصرى صاحب المعجم الكبير للغة الهيروغليفية (رحمه الله تعالى) ومنه يعلم أن أصل اللغتين واحد ، أو أن أصل الأمتين واحد

تكذيب الواحدة كتكذيب الكثير ويقتضيه باتحاد العلة ، كما أن تكذيب أحد الرسل كتكذيب الجميع إذا كان بعد ظهور آيته ، وقيام الحجة على دعوته. وكذلك تكرر في القرآن كون الغفلة عن الحق ودلائله من صفات الكفار. وأما جمع الآيات هنا فلأنها متعددة. وأما عطف الانتقام بالفاء فليس تعليلا آخر وإنما هو تعقيب على كونه وقع بعد التكذيب بتلك الآيات كلها ، والمعنى أنهم كانوا يظهرون الايمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب أنهم كذبوا بها كلها وكانوا غافلين عما تقتضيه وتستلزمه من عذاب الدنيا والآخرة ، إذ كانت في نظر أكثرهم من قبيل السحر والصناعة ، وكانوا قد بلغوا فيهما الغاية ، ولذلك كانوا يكابرون أنفسهم في كل آية ، ويحاولون أن يأتي سحرتهم وعلماؤهم بمثلها ، ويحملون عجزهم على تفوق موسى عليهم فيها ، ويعدون إسناده كل شيء إلى ربه من قبيل إسنادهم الأمور إلى آلهتهم الباطلة بحسب التقاليد التي لم يكن حكماؤهم يؤمنون بها ، وإنما يحافظون عليها لأجل خضوع عامة الشعب لها ، وأما من ظهرت لهم دلالة آيات موسى على الحق فمنهم من آمن جهرا ككبار السحرة ومنهم من آمن فكتم إيمانه كالذي عارض فرعون وملأه في قتل موسى بالحجة والبرهان — كما في سورة غافر وذكرناه في هذا السياق — ومنهم من جحد بها لمحض العلو والكبرياء ، كفرعون وأكابر الوزراء والرؤساء .

ومن العبرة في مجاراة الحكومة الفرعونية للعوام على خرافاتهم أن حكومات هذا العصر توافق العامة على كل مايعدونه من الدين وإن لم يكن منه كما تفعل الحكومة المصرية في بعض الاحتفالات الموسمية المبتدعة في الاسلام كالموالد بالتبع لجمهور الشعب من كبار علمائه إلى أجهل عوامه وهي مشتملة على كثير من المعاصي المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة التي يعد مستحلها مرتدا عن الاسلام باتفاق المذاهب ، والجمهور غافلون عن ضرر هذه البدع التي جعلت من قبيل شعائر الاسلام بالاحتفال بها وشد الرحال اليها وإنفاق الأموال العظيمة في سبيلها ، وتعطيل كبرى شعائر الاسلام وهي الصلاة وإبطال دروس العلوم الدينية من المساجد التي فيها لأجلها ، كالمسجد الأحمدي في طنطا والمسجد الابراهيمي في دسوق. وأن أكبر ضررها تشويه الاسلام في نظر العقلاء من أولى العلوم الاستقلالية حتى كثر فيهم المرتدون عنه ، وصد غير المسلمين عن

الاسلام لأن القاعدة التى يجرى عليها عرف الأمم أن دين كل قوم ماهم عليه من التعبدات والشعائر ، وقد تكرر منا اقناع بعض مستقلى الفكر من غير المسلمين بحقية دين الاسلام المقرر فى القرآن الحكيم والسنة السنية وتنزهه عن هذه البدع فاقتنعوا بأن ماقررناه لهم حق ولم يقتنعوا بأنه دين الاسلام الذى عليه المسلمون ، وقد سبق أن نقلت عن رجل من فضلاء الانكليز منهم أنه قال لى إن كان الاسلام ماذكرت فأنا مسلم . وكان نعوم بك شقير المؤرخ السورى يقول لى اكتب عقيدتك وأنا أمضى عليها بخطى أنها عقيدتى

---

(١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ

لما ذكر تعالى عاقبة تلك الآيات وتأويلها فى المصريين عطف عليه بيان عاقبتها وتأويلها فى بنى اسرائيل بهذه الآية الجامعة البليغة فقال عز وجل :

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها﴾ تعدد فى القرآن التعبير عن استخلاف الله قوما فى أرض قوم بالايراث أى وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر بما تقدم بيانه جميع الأرض التى باركنا فيها بالخصب والخير الكثير مشارقها من حدود الشام ومغاربها من حدود مصر تحقيقا لوعدنا (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون)

روى عن الحسن البصرى وقتادة أنهما قالا فى تفسير مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها : هى أرض الشام ، وعن زيد بن أسلم قال : هى قرى الشام ، وعن عبد الله بن شوذب : فلسطين ، وعن كعب الأحبار : قال ان الله بارك فى الشام من الفرات إلى العريش . ويؤيد هذه الروايات قوله تعالى فى ابراهيم ﷺ (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) وقوله تعالى (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) وقوله

عز وجل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله)

وروى عن الليث بن سعد أنها أرض مصر التى كان فيها بنو اسرائيل ، وأطلق بعض المفسرين القول بأنها أرض مصر وفلسطين جميعا . وربما يتراءى أن ارادة أرض مصر هى الظاهر المتبادر من قوله تعالى فى قوم فرعون من سورة الشعراء (٢٦: ٥٧ فأخرجناهم من جنات وعيون ٥٨ وكنوز ومقام كريم ٥٩ كذلك وأورثناها بنى اسرائيل) وقوله فيهم من سورة الدخان (٤٤: ٢٤ كم تركوا من جنات وعيون ٢٥ وزروع ومقام كريم ٢٦ ونعمة كانوا فيها فاكهين ٢٧ كذلك وأورثناها قوما آخرين) لأن فرعون خرج بمن معه من الملأ والجند من مصر وتركوا ما كانوا فيه من النعيم إلى الغرق المؤدى إلى الجحيم ، ولكن هذا الوصف أظهر فى بلاد الشام ذات الجنات الكثيرة ، والعيون الجارية ، ومعنى اخراج المصريين منها إزالة سيادتهم وسلطانهم عنها وحرمانهم من التفكه بنعيمها ، فقد كانت بلاد فلسطين إلى الشام تابعة لمصر ، وكان من عادة فراعنة مصر كغيرهم من الأمم المستعمرة أن يقيموا فى البلاد التى يستولون عليها حكاما وجنودا لئلا تنتقض عليهم ، وأن يسكنها كثيرون منهم يتمتعون بخيراتها ، وقد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض) جملة من الأثر المصرى القديم الوحيد الذى وجد فيه ذكر لبنى اسرائيل تنطق بأن هذه البلاد كانت تابعة لمصر

على أنه وجد فى بعض التواريخ القديمة ما يدل على صحة ماقاله بعض مفسرينا من أن موسى استولى على مصر وتمتع هو وقومه بالسيادة فيها طائفة من الزمن نذكره للاعتبار به وإن كان صدق الآيات غير مقصور على صحة مضمونه وهو ما جاء فى حاشية لأحد مباحث الدكتور محمد توفيق صدقى (رحمه الله تعالى) فى كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية ، وهذا نصه (كما فى ص ٤٤٦ و ٤٤٧ من مجلد المنار السادس عشر)

« جاء فى كتاب (الأصول البشرية) صفحة ٨٨ لمؤلفه لينج أن يوسيفوس المؤرخ اليهودى الشهير نقل عن (مانيثون) هـذه الرواية المصرية القديمة التى ملخصها « أن موسى بعد أن هزم فرعون مصر — الذى فر إلى بلاد الحبشة — حكم مصر ١٣ سنة وبعد ذلك عاد إليه فرعون هو وابنه ومعهما جيش عظيم فقهروه وأخرجوه منها إلى بلاد الشام » وجاء فى قاموس الكتاب المقدس

لبوست مجلد ١ ص ٤١٠ أن هيرودوتس المؤرخ اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد قال « إن ابن سيسوسترس ضرب بالعمى مدة عشر سنين لأنه رمى رمحه فى النهر وقد ارتفعت أمواجه وقت فيضه بسبب توه شديد إلى علو غير اعتيادى» اهـ ويقول المؤرخون إن ابن سيسوسترس هذا (وهو منفتاح الثانى) هو فرعون الخروج ويتخذون هذه العبارة إشارة إلى غرقه فى زمن موسى. ولكن يرى القارىء منها أنها لو كانت إشارة إلى الغرق لكان الغرق فى النيل [1] ومن الرواية الأولى يعلم أن موسى حكم بعد فرعون ١٣ سنة فى مصر . وهاتان الروايتان هما من أقدم الروايات المصرية وأصحها وربما كانتا الوحيدتين فى هذه المسألة ، ولعل المصريين استغاثوا بمملكة الحبشة فأرسلت إليهم جيشا فأوحى الله إلى موسى بالخروج حينئذ من مصر وتركها لأهلها ، وعليه يجوز أن المصريين كتموا خبر غرق ملكهم واستبدلوا به دعوى تقهقره إلى الحبشة وقالوا إنه هو الذى عاد بعد ذلك وأخرج موسى بالقوة ستراً لخزيهم وخذلانهم وإرضاء لملوكهم وأسر (جمع أسرة بالضم) هؤلاء الملوك ، وربما أنه لولا عظم هذه الحادثة وشهرتها بينهم لأنكروها بالمرة

« ومن ذلك تعلم أن الخروج لم يكن عقب غرق المصريين مباشرة كما يفهم من التوراة ولم يكن السبب فيه هذه الحادثة التى غرق فيها فرعون وجيشه بل كان بعد ذلك ببعض سنين

« ويرى المطلع على القرآن الشريف أن هاتين الروايتين صادقتان فى مسألة غرق فرعون فى النيل ومسألة حكم موسى فى مصر ١٣ سنة . وأما الغرق فى النيل فيفهم من قول القرآن مثلا فى سورة طه (إذ أوحينا إلى أمك مايوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم) ثم قوله فى آخر هذه القصة (فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم) فالمتبادر من ذلك أن فرعون غرق فى نفس اليم الذى ألقى فيه موسى وهو النيل ، ومثل ذلك أيضاً ما جاء فى سورة القصص وهو قوله (فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم) ثم قوله فيها بعد (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم)

---

(١) ويجوز أن تكون عبارة هيرودتس : رمى رمحه فى البحر ، ثم ترجمت بالنهر ، لأن النهر الكبير يسمى بحراً كـكل ماء كثير مستبحر

« وأما مسألة حكم موسى فى مصر والتمتع بها هو وقومه مدة من الزمن بعد الغرق فهو أيضا المتبادر من نحو قوله تعالى (فأراد) أى فرعون (أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ـ إلى قوله ـ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض) وقوله (فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بني إسرائيل) ويجوز أن الشريعة أعطيت لموسى فى الطور قبل تركه حكم مصر

« وفى زمن موسى أعطى الله بنى إسرائيل ـ بدلا عن مصر التى أمرهم بتركها ـ الممالك التى فى شرق الأردن كما فى كتبهم وفى زمن يشوع أعطاهم كل أرض كنعان إلا بعض أجزاء منها (يش ١٣ : ١) وهذه الأرض التى أعطيت لهم هى من أخصب أراضي العالم وأحسنها وهى المسماة عندهم بأرض الموعد لأنهم كانوا وعدوا بها من قبـل .

« فأنى لمحمد صلى الله عليه وسلم علم ما بيناه من ذلك التاريخ وهو أجنبى عنه وعن قومه ؟ ومغاير للتوراة ومخالف لما يعتقده جميع اليهود والنصارى من قديم الزمان، ولكنه موافق لأقدم الروايات المصرية وأصحها التى لا يعرفها ـ حتى الآن ـ إلا واسعو الاطلاع من محققى المؤرخين ؟

« وأما مانيثو (Manetho) المذكور هنا الذى وافقت روايته ما جاء فى القرآن الشريف فكان كاهنا لمعبد من أقدم المعابد وأشهرها ، وقد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس فى القرن الثالث قبـل المسيح وكان من أدق مؤرخى القدماء وأصدقهم، وقد أخذ بأوثق المصادر وأصحها فى كتابة تاريخه ، إلا أن هذا التاريخ فقد مع ما فقد فى حريق مكتبة الاسكندرية ولم يبق منه سوى مقتطفات فى بعض الكتب القديمة اليونانية . وقد أيد أكثر هذه المقتطفات ما اكتشف حديثا من الآثار المصرية والمكتوبات العتيقة مع أن آباء النصرانية كيوسيبيوس حرفوا كعادتهم كثيرا مما نقلوه منها لتطابق نصوص العهد القديم كما ذكره العلامة لينج فى كتابه « الأصول البشرية » ص ١١ منه » اه

﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ تمام الشىء وصوله إلى آخر حده ، وكلمة الله وعده لبنى إسرائيل باهلاك عدوهم واستخلافهم فى الأرض . وفى مجاز الاساس : وتم على أمر مضى عليه ، وتم على أمرك ، وتم

إلى مقصدك : والمعنى تمت كلمة الله ومضت على بنى إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من فرعون وقومه إذ كان وعد الله تعالى إياهم بما وعدهم مقرونا بأمرهم بالصبر والاستعانة به والتقوى له كما أمرهم نبيهم عليه السلام تبليغا عنه تعالى راجع (وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) الآية ، من هذا السياق ، وإذ كان قد تم وعد الله تعالى لهم بذلك ثم سلبهم الله تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس ، فلم يبق من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى لأنه قد تم ونفذ صدقا وعملا .

﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ التدمير إدخال الهلاك على السالم والخراب على العامر ، والعرش رفع المبانى والسقائف للنبات والشجر المتسلق كعرائش العنب ، ومنه عرش الملك . والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولا وبالذات ماله تعلق بظلم بنى إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام ، فالاول كالمبانى التى كانوا يبنونها بالمصريين أو يصنعون اللبن لها ومنها الصرح الذى أمر هامان ببنائه له ليرقى به إلى السماء فيطلع إلى إله موسى ، والثانى كالمكايد السحرية والصناعية التى كان يصنعها السحرة لإبطال آياته أو التشكيك فيها كما قال تعالى (إنما صنعوا كيد ساحر) (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب — أسباب السموات — فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) والتباب بمعنى الدمار

وأما أسباب هذا التدمير لذلك الصنع والعروش فأولها الآيات التى أيد الله تعالى بها موسى عليه السلام من الطوفان والجراد وغيرهما — وتسمى فى التوراة الضربات وفيها من المبالغة فى ضررها وتخريبها ماأشرنا إليه وذكرنا بعضه — ويليها إنجاء بنى إسرائيل وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم فى أعمالهم ، وثالثها هلاك من غرق من قوم فرعون وحرمان البلاد وسائر الأمة من ثمرات أعمالهم فى العمران — هذا هو المعروف منها ، وماظلمهم الله تعالى بذلك ولكنهم ظلموا أنفسهم فقد أنذرهم موسى عليه السلام كل ذلك ليتقوا سوء عاقبته فكذبوا بالآيات وأصروا على الجحود والاعنات

والعبرة فى هذه الآيات من وجهين (الأول) أن يتفكر تالى القرآن فى

تأثير الإيمان والوحى فى موسى وهارون عليهما السلام إذ تصديا لأعظم ملك فى أعظم دولة فى الأرض قاهرة لقومهما ومعبدة لهم فى خدمتها منذ قرون كثيرة فدعواه إلى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان وتعبيده بنى إسرائيل وأنذراه وهدداه ، وما زالا يكافحانه بالحجج والآيات البينات حتى أظفرهما الله تعالى به وأنقذا قومهما من ظلمه وظلم قومه

فجدير بالمؤمنين بالله تعالى ورسله من المسلمين أن ينتقلوا من التفكر فى هذا إلى التفكر فى وعد الله تعالى المؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم تعالى به على ألسنتهم – وأن لا يستعظموا فى هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم ، فإن قوة الحق التى نصرها الله تعالى برجل أو رجلين على أعظم الدول لا تغلب ، إذا نصرناها الله ونحن مئات الملايين والله تعالى يقول (إن تنصروا الله ينصركم) ويقول (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

﴿ الوجه الثانى ﴾ أنه تجدد عندنا فى هذا الزمان أمر عظيم يتعلق بهذه الأرض المباركة المقدسة وهو محاولة اليهود انتزاعها من أيدى أهلها العرب، وتنازع الفريقين فى التعارض والترجيح بين وعد الله لكل منهما بهذه الأرض وما أنجزه لكل منهما ، ومن المستحق لها فى هذا العصر ، فليتأمل المعتبر فى وعد الله تعالى بها لبنى إسرائيل من ذرية إبراهيم ثم وعده بها لغيرهم العرب من ذريته على لسان خاتم الرسل صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، وآلهم الصالحين المصلحين . ولعنته وخزيه على الفاسدين المفسدين المصرين . فقد أنجز الله تعالى وعده للفريقين عندما كانوا متقين ، وأخطأ كل فريق منهم فى عصر رسولهم فأدبهم الله تعالى بما هو منصوص فى الكتاب المبين

أراد بنو إسرائيل الذين أخرجهم موسى من مصر أن تكون لهم تلك الأرض ، بغير عمل منهم ولا سعى ، فامتنعوا من قتال من فيها من الجبارين ، قالوا لموسى (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فحرمها الله تعالى عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض كما عرض الغرور لبعض بنى اسماعيل فى عصر الرسول الأعظم بما كان من نصر الله تعالى لهم فى غزوة بدر مع قلة العدد والعدد والزاد ، وظنوا أنهم ينصرون كما وعدوا ، وإن قصروا فيما أمروا ، فلما أصيبوا بما أصيبوا به فى غزوة أحد تعجبوا واستفهموا ، فأجابهم الله تعالى بما علموا به أن وعده المطلق فى قوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) وقوله

(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) مقيد بما فى الآيات الأخرى كقوله (أن تنصروا الله ينصركم) (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أجابهم بقوله (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) الى آخر ما فصلنا فى تفسيرها مع سياقها من الجزء الرابع .

نعم ان الله تعالى أنجز وعده الاول لابراهيم صلوات الله وسلامه عليه بجعل هذه الارض لذريته ، فجعلها أولا للمتقين من آل اسحق ، ثم نزعها منهم بظلمهم وافسادهم فى الأرض مرة بعد أخرى . ثم اعطاها المتقين من آل اسماعيل ، ثم انتزع السلطان عليها منهم أيضا بظلمهم لانفسهم ، وتجدد التنازع فى رقبتها بين الفريقين - بنى اسرائيل و بنى اسماعيل - باغراء الانكليز ، الذين استولوا عليها وأوقعوا الشقاق بين الفريقين فيها ، وهم أحذق الخلق فى ضرب الشعوب بعضها ببعض ، وستكون العاقبة للمتقين ، بحسب سنة الله فى البشر أجمعين . فلا يغترن قومنا بالاوهام ، ولا يتكلان على المتجرين بالاقوام ، ولا ينخدعن بعد بشقاشق الكلام ، ولا ينوطن الزعامة بأصحاب الانساب الفاقدين للعلم والاستقامة ، وسائر الأسباب ، ولاسيما من ثبتت موالاتهم لاعداء البلاد وسالبي استقلالها ، وواضعي الخطة الشيطانية لانتزاع رقبتها من أهلها، والقضاء عليهم بالانقراض منها ، بتعذر الحياة عليهم فيها ، لا بالابعاد القسرى عنها ، بأن يكون شأنهم فى هذا كسكان امريكا قبل استعمار الانكليز وغيرهم لها .

ولا منجاة لعرب فلسطين من هذا الخطر العظيم الآتى من قبل شعبين إثنين هما أشد شعوب الارض قوة وثروة ودهاء وكيدا وعلما وصبراً وجلداً إلا باتحادهم مع سائر الشعوب والقبائل العربية على الاستبسال والاستقتال فى الدفاع الحقيق عن أمتهم وبلادهم — ومع سائر الشعوب الاسلامية فى الدفاع المعنوى عن الأرض المقدسة والحرمين الشريفين اللذين لا استقلال لها ولا أمن عليهما ، مع إحاطة هذه القوة الاجنبية بهما ، ولكنهم لم يخطوا خطوة واحدة فى طريق الوحـدة العربية ، بل خطوا خطوتين واسعتين فى سبيل الشقاق والتفرق بين الامارات المسلحة فى الجزيرة العربية ، نفروا بهما أكبر الشعوب الاسلامية منهم

(الأولى) موالاة صاحب الحجاز الذى أعان الانكليز على فتح بلادهم ثم

كان هو واولاده مثبتا لاقدامهم فيما جاورها ، وحائلا بينهم وبين سائرها ، بأن أقروه على انتحاله لنفسه ملك البلاد العربية وعلى سعيه لاخضاع تلك الامارات لحكمه بالاتكال على قوة الغاصب الاجنبية ، فلولا وجود أحد أولاده (عبد الله) في شرق الاردن من قبل الدولة الانكليزية الغاصبة لفلسطين والمنتزعة للسيادة العربية منها لأمكن ان يتحد عربها مع عرب نجد الاقوياء على إنقاذها . وكذا أهل العراق الذين سمى الانكليز ولده (فيصلا) ملكا عليهم . بل لولا افتتانه هو بما فتنوه به من تسميته ملكا للعرب وخليفة على المسلمين ، لما ثبتت في بلاد العرب قدم المستعمرين .

(والثانية) مبايعة جمهور كبير منهم له بالخلافة التي يترتب عليها — لوصحت كما يدعى ويدعون له — انه يجب على تلك الامارات شرعا أن تخضع لحكمه والاوجب قتالها واخضاعها بالقوة ، وهل كان في مقدورهم سعي الى شقاق وتفرق شر من هذا ؟ على أنهم كانوا متحدين فانقسموا وصاروا أحزابا متنازعة ، فنسأله تعالى تغيير الحال بخير منها وحسن العاقبة ، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم

---

(١٣٧) وَجٰوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يٰمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعٰلَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنٰكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

﴿ قصة موسى مع بنى اسرائيل ﴾

هذه الآيات وما بعدها شروع في قصة موسى عليه السلام مع قومه بنى اسرائيل معطوفة على قصته مع فرعون وقومه على أكمل وجوه العبرة مع السلامة من لغو القصص والتاريخ . قال عز وجل :

﴿ وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم

قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه عداه وانتقل عنه . والعكوف على الشيء الاقبال عليه وملازمته على سبيل التعظيم ومنه العكوف والاعتكاف فى المسجد وهو ملازمته لأجل العبادة . قرأ حمزة والكسائى يعكفون بكسر الكاف من باب جلس يجلس والباقون بضمها من باب قعد يقعد . والأصنام جمع صنم وهو ما يصنع من الخشب أو الحجر أو المعدن مثالا لشيء حقيق أو خيالى أو مذكرا به ليعظم تعظيم العبادة ، واتخذ بعض العرب فى الجاهلية صنما من عجوة التمر فعبدوه ثم جاعوا فأكلوه . والفرق بينه وبين التمثال أن هذا لا بد أن يكون مثالا لشيء — وأنه قد يكون للعبادة وحينئذ يسمى صنما وقد يكون للزينة كالذى تراه على جدران بعض القصور المشيدة أو أبوابها أو فى حدائقها ، وقد يكون للتعظيم والتكريم غير الدينى كالتماثيل التى تنصب لبعض الملوك وكبار علماء الدنيا أو القواد والزعماء للتذكير بتاريخهم وأعمالهم للاقتداء بهم ، ويكثر هذا فى بلاد الافرنج وقلدهم بعض بلاد الشرق كمصر ، فنصبت حكومتها تماثيل لبعض امراء بيت الملك الحاضر وغيرهم من رجالهم . والفرق بين هذا التعظيم السياسى أو العلمى وبين تعظيم العبادة أن الغرض من الأول إما رفعة شأن الدولة وتمكين سلطانها فى أنفس الأمة بمشاهدة صور ملوكها وكبراء رجالها وتماثيلهم وهو قصد سياسى صحيح عند أهله — وإما بعث شعور حب العلم والاقتداء بالعلماء والأدباء والزعماء الذين نفعوا أمتهم عسى أن يوجد فى المستعدين من يكون مثلهم أو خيراً منهم ، وهو قصد اجتماعى صحيح عند علماء التربية ، وأما تعظيم العبادة فالغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه بدفع ضر أو جلب منفعة من طريق الغيب لا الكسب والتعاون عليه من طريق الأسباب العامة . فتعظيم الشيء الذى يعتقد أن له سلطة غيبية أو تعظيم ما يذكر به من صورة أو تمثال أو قبر أو ثوب أو غير ذلك من آثاره لأجل التقرب إليه وقصد الانتفاع به فى الأمور التى لا تنال بالأسباب العامة — وهى ما لا يطلب إلا من الله تعالى — أو لأجل التقرب إلى الله تعالى بجاهه — كل ذلك عبادة ظاهرة ، فإن قصد المعظم لذلك الشيء أو لما يذكر به الانتفاع به نفسه بما ذكر بما ذكر من التعظيم بالقول كالدعاء والاستغاثة أو بالفعل كالطواف بتمثاله أو قبره وتقبيله والتمرغ بارضه — كانت العبادة خالصة

له من دون الله ، وأن قصد التقرب به إلى الله تعالى ليحمله بجاهه على اعطائه ما يريد كانت العبادة له ولله تعالى بالاشتراك ، وهذا من مظاهر الشرك الجلي التي لا يخرجها تغيير التسمية عن كونها كفراً أو شركاً

﴿ استطراد فقهي ﴾

حظر الشرع الإسلامي نصب التماثيل لأنها إما شرك أو ذريعة إليه أو تشبه بأهله وهي على هذا الترتيب في التدلي ، فأغلظها أولها وأخفها ثالثها . والتشبه درجات في الحظر أشدها ما كان في أمور الدين فإنه قد يكون كفراً ، وأهونها ما كان في العادات وأمور الدنيا فنجتنب منه مالنا غنى عنه وما كان نافعاً غير ضار بنفسه لا نأخذه بقصد التشبه فقط لأنه لا يكون إلا من تعظيم المتشبه لغير أهل ملته وهو يتضمن أو يستلزم احتقارها أو احتقارهم والشعور بأنهم دونهم . وأما اقتباس العلم والحكمة والفنون والصناعات النافعة لأجل منفعتها بقدرها فليس من التشبه ولا من تفضيل المقتبس منهم على أهل ملته لأن هذه الأمور ليست من أمور الدين ولا اقتبست لأجل التعظيم بل لفائدتها ، وقد تكون هذه الفائدة مما تعتز به ملة المقتبس المستفيد وأهلها . ومن ذلك أخذ النبي (ص) عمل الخندق عن الفرس إذ أخبره سلمان (رض) عنهم بذلك وقد يكون هذا الأخذ واجباً شرعاً ومنه أخذنا لفنون الحرب وصناعاتها وآلاتها عن الافرنج إذا أتقنوها قبلنا ، فهو فرض كفاية بلا نزاع فالأمة الحية تقتبس كل شيء نافع يغذي حياتها ويزيدها قوة وعزة ، وتتقي في ذلك كل ما فيه ضعف لها في مقوماتها أو مشخصاتها ولاسيما إذا كان فيه تفضيل لخصومها أو غيرهم عليها ، وقد فطن اليابان لهذه القاعدة فحافظوا على شؤونهم الملية والقومية عند اقتباسهم لعلوم الفرنجة وفنونها فصاروا أمثالهم في ثلث قرن . وغفل عنه الترك والمصريون فأضاعوا من ملكهم

وليس في نصب التماثيل فائدة ومنفعة ذات بال لا تحصل بغيرها تبيح للمسلمين تقليد الوثنيين والنصارى فيها ولو في جعلها لغير رجال الدين بعداً عن شبهة عبادتها ، ومن ذا الذي يأمن هذا وقد عبدت قبور الأولياء وأئمة آل البيت كما عبد غلاة الشيعة من الباطنية أشخاصاً منهم أحياء وأمواتاً ، ونرى الشيعة المعتدلين الذين استباحوا نصب التماثيل غير الدينية قد اتخذ بعضهم في هذه الأيام تمثالاً لأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في بلاد إيران كما نقلت صحف الأخبار عنهم . وأما الصور فلها فوائد في الحرب وحفظ الأمن وتحقيق معاني اللغة وكثير من العلوم ولا سيما

الطب والتشريح ... فلا يحظر منها ماليس عبادة ولا تشبها بعبدة الأصنام بدليل ما ثبت فى السنة الصحيحة من أمر النبي ﷺ بهتك القرام (الستار) الذى نصبته (عائشة) فى حجرتها إذ كان على هيئة الصور والتماثيل المعبودة فلما جعلت منه وسادة كان ﷺ يستعملها وفيها الصور إذ كان الاتكاء والنوم عليها امتهانا لا تعظيما ولا يشبه التعظيم الوثنى وقد حققنا هذا البحث ببيان ماورد فيه من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء فى فتاوى المنار مرارا

عود إلى تفسير الآية

معنى النظم الكريم «وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر » أنهم تجاوزوه بعنايته سبحانه وتأييده إياهم بفلق البحر ، وتيسير الأمر ، حتى كأنه كان معهم بذاته فجاوزه مصاحبا لهم ، أو المعنى أننا أيدناهم ببعض ملائكتنا فجاوز بهم البحر بأمرنا ، فمن المعهود فى اللغة أن ينسب إلى الملوك ورؤساء القواد ماينفذه بعض أتباعهم بأمرهم ، وما يقع بجاههم وقوة سلطانهم ، ويجوز الجمع بين المعنيين ، ففرق البحر بهم كان بعناية الله وقدرته . وفى آخر الفصل الثالث عشر من سفر الخروج ذكر خبر ارتحال بنى اسرائيل وقال « ٢٠ وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود من غمام ليهديهم الطريق وليلا فى عمود من نار ليضىء لهم ليسيروا نهارا وليلا (٢١) لم يبرح عمود الغمام نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب » ثم جاء فى الفصل الرابع عشر منه بعد ذكر اتباع فرعون ومن معه بنى إسرائيل « ١٩ فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر بنى اسرائيل فصار وراءهم وانتقل عمود الغمام من أمامهم فوقف وراءهم (٢٠) ودخل بين عسكر المصريين وعسكر اسرائيل . فكان من هنا غماما مظلما ، وكان من هناك ينير الليل ، فلم يقترب أحد من الفريقين طول الليل »

هذا بعض ماجاء فى التوراة مما يصح أن يكون تفسيرا لقوله تعالى فى القرآن « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر » فالباء هنا للمصاحبة كقولك سافرت به وجئت به ، و إسناد المسير فى عمود الغمام ألى الرب مجازى كقوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) « فأتوا » عقب تجاوزهم إياه ودخولهم فى بلاد العرب من البر الاسيوى « على قوم يعكفون على أصنام لهم » يعبدونها ، فماذا كان من شأنهم إذ رأوهم يعبدون غير الله تعالى كالمصريين الذين أنقذهم الله تعالى منهم ، وأراهم آياته على وحدانيته فيهم ؟ هل استهجنوا شركهم وأنكروه كما هو

الواجب عليهم والمعقول ممن رأى ماراًوا من سوء مصير المشركين وحسن عاقبة الموحدين ؟ الجواب أنهم لم ينكروه بألسنتهم ولا بقلوبهم ، بل «قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة» حنينا منهم إلى ما ألفوا فى مصر من عبادة آلهة المصريين وتماثيلها وأنصابها وقبورها ، فعلم بهذا الطلب أنهم لم يكونوا فهموا التوحيد الذى جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين ، لأن السحرة كانوا من العلماء فأمكنهم التمييز بين آيات الله تعالى التى لا يقدر عليه غيره و بين السحر الذى هو من صناعات البشر وعلومهم ، وأما هؤلاء الإسرائيليون فكانوا من العامة الجاهلين الذين بلد الذل أفهامهم و إنما اتبعوا موسى لانقاذه إياهم من ظلم فرعون وتعبيده لهم ، لا لفهمهم حقيقة التوحيد بالآيات الدالة عليه ، ولذلك قيل إنهم بعض القوم لا جميعهم ، فالتوحيد المحض الخالص من شوائب الشرك والوثنية هو غاية ما يرتقى اليه عرفان البشر ، وهو المراد من قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) على القول بأن اللام للغاية ، وهو لا يقتضى حصوله لكل فرد منهم ، ولو عقل جميع بنى إسرائيل كنه التوحيد لما وقع من تبرمهم بالتكاليف وتمردهم على موسى ﷺ ما قصه الله تعالى علينا فى كتابه ، وفى التوراة التى لديهم من الزيادة عليه والتفصيل له ما هو من مواطن العجب ، وقد ابتلاهم الله تعالى وربَّاهم بالحسنات والسيئات ، وحرم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، حتى انقرض ذلك الجيل الذى نشأ فى حجر الوثنية ، وشب أو اكتهل أو شاخ فى ذل العبودية الفرعونية . وقد رأينا نموذجا لذلك فى طوائف من أمتنا ولدوا فى مهد الظلم وشبوا فى حجر النفاق والفسق ، فسنحت لأعلامهم بشؤون الاجتماع والعمران فرص متعددة كان يرجى أن يحرروا فيها أنفسهم من رقها السياسى و يستقلوا بأمرهم فأضاعوها واحدة بعد أخرى ، وكان هذا من عبر التاريخ التى تثبت أن فلاح الأمم بأخلاقها وعقائدها ، وأن العلم الناقص شر من الجهل المطلق وأن العلم الصحيح فى الرجل أو الشعب الفاسد الأخلاق كالسيف فى يد المجنون ربما جنى به على صديقه أو على نفسه ، وربما نصر به عدوه

ولم يبين لنا كتاب الله تعالى ولا رسوله ﷺ شيئا من أمر القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل عقب خروجهم من مصر إلى أرض العرب ، والظاهر أنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر . روى عن قتادة أنهم من عرب لخم وعن أبى عمران الجونى لخم وجذام . وعن ابن جريج أن أصنامهم كانت

تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر فذلك كان أول شأن العجل لتكون لله عليهم حجة فينتقم منهم بعد ذلك (أقول) ولم يكن ابن جريج يعلم أن قدماء المصريين كانو يعبدون عجلا اسمه (أبيس) وكان بنو اسرائيل يعبدونه معهم كغيره من معبوداتهم ، ويرون تماثيله منصوبة فى معابدهم ، وأن السامرى لم يصنع لهم العجل بعد ذلك إلا لما كان من إلفهم لعبادته ، وتأثر اعصابهم بما ورثوا من مظاهر روعته ، ولذلك قال تعالى فيهم (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) والمراد عجل السامرى ، وقد علل اشرابهم إياه فى قلوبهم بما كان من كفرهم السابق أى بالوراثة المتغلغلة فى النفس بطول الزمان وتعاقب الأجيال ، فذلك الذى يطول تأثيره فى الأعقاب والانسال . ألم تر إلى ما استحدثه بعض المبتدعة فى الاسلام ، وقلدهم فيه بعض الملوك من المنسوبين إلى السنة : من تشييد القبور ، وتزيينها بالعمائم والستور ، وبناء القباب فوقها ، واتخاذها مساجد يصلى إليها أولديها ، وايقاد السرج والشموع عليها ، انه قد جعل لها مكانة دينية كبيرة فى قلوب عامة المسلمين حتى صارت عندهم من شعائر الدين ، بحيث يعدون من روى لهم الاحاديث الصحيحة فى لعن الله ورسوله لمن يفعل ذلك مبتدعا فيه أومارقا منه ، وينبزونه فى بعض البلاد بلقب « وهابى » اذ كانت طائفة من الحنابلة فى بلاد العرب سميت الوهابية قد عمدوا إلى ازالة هذه المنكرات بأيديهم ، لما لم يؤثر فى ازالتها انكار علماء السنة المصلحين لها بألسنتهم وأقلامهم ، عملا بقوله ﷺ « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » يعني الانكار بالقلب وحده ، ولو مع العجز عما فوقه . والحديث رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبى سعيد الخدرى إذا علمنا هذا الشأن من شؤون الضعف البشرى فلا نعجب أن روى عن بعض حديثى العهد من الصحابة بالإسلام ، مثل ما طلب بنو اسرائيل من موسى عليه السلام ، بما كان من تأثير مظاهر الوثنية فى قلوبهم : روى أحمد والنسائى وأكثر مصنفى التفسير المأثور عن أبى واقد الليثى قال « خرجنا مع النبى ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط ، كما للكفار ذات أنواط فقال : الله اكبر ، هذا كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) لتركبون سنن من قبلكم » وروى نحوه ابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى

عن كثير بن عبدالله بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعا وذكر أن المكان الذى طلبوا فيه ذلك بين حنين والطائف . والعبرة فى هذا أن المسلمين الآن ذوات أنواط فى بلاد كثيرة كشجرة «الست المندرة» وشجرة الحنفى بمصر ، ونحو من ذلك ما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار والآبار يعكفون عليها ، ويطوفون حولها ، ويقبلونها ويتمرغون بأعتابها ، ويتمسحون بها خاضعين ضارعين . خاشعين داعين راجين شفاء الأدواء ، والانتقام من الأعداء ، والغنى والثراء ، وحبل العقيم ، ورد الضالة ، وغير ذلك من النفع وكشف الضر ، خلافا لنصوص كتاب الله عز وجل . ولكنهم لا يعلمون أنها تسمى فى اللغة العربية آلهة ، وأن جل ما يأتونه عندها يسمى عبادة ، وأنه شرك جلى لا يغفر ، ولا فرق بينه وبين شرك عرب الجاهلية وأمثالهم إلا الاختلاف فى التسمية ، فأولئك كانوا يسمون الأشياء بأسمائها لأنهم أهل اللغة ، وهؤلاء تحاموا اطلاق لفظ الاله والمعبود والعبادة فى هذا المقام ، واستباحوا غيرها من الألفاظ كالأولياء والشفعاء والوسيلة والتوسل وهى مشتركة أيضا ولكنها استعملت فى الاسلام بغير المعانى التى كانت تستعمل بها فى الجاهلية ، كأن الله تعبد الناس باطلاق الألفاظ دون حقائق المعانى . وحقيقة معنى العبادة وفى اللغة العربية وكذا فى غيرها من اللغات يشمل كل قول أو عمل يوجه إلى معظم يرجى نفعه أو يخشى ضره وحده — وهذا توحيد له — أو يرجى ويخاف بالتأثير عند الله تعالى — وهذا هو الشرك — بشرط أن يكون هذا الرجاء فيه أو الخوف منه لأمر غيبى خارج عن الأمور الكسبية والأسباب الدنيوية ، وقد سبق شرح هذا آنفا وقبله مرارا ، ويظن أهل العلم بكتب الفقه والكلام الذين لم يطلعوا على ملل الوثنيين أنهم يعبدون الأصنام وغيرها من المخلوقات التى يتبركون بها لذاتها وأنهم يعتقدون أنها تضر وتنفع بقدرتها وارادتها ، والصحيح أنهم يتوسلون بها إلى الخالق كما حكى الله تعالى عن مشركى قريش وغيرهم ، وقد سمعت هذا من بعض علمائهم فى الهند .

ماذا كان جواب موسى عليه السلام ﴿ قال إنكم قوم تجهلون ﴾ وصفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشىء وهو على طريقتنا وطريقة ابن جرير والحصاف يشمل كل ما يصلح له من الجهل الذى هو فقد العلم والجهل الذى هو سفه النفس وطيش العقل ، وأهمه المناسب المقام جهل التوحيد وما يجب من إفراد الرب

تعالى بالعبادة من غير واسطة ، ولا التقيد بمظهر من المظاهر يتوجه إليه معه ، ولا سيما مظهر الأصنام والتماثيل لبعض المخلوقات التي اغتر الجاهلون من قبل بنفعها أو الخوف من ضررها ، فالأول كالكواكب والنيل والعجل أبيس، والثاني كالثعبان — ثم جهل ما كرم الله تعالى به البشر فجعلهم أهلا لمعرفته ودعائه ومناجاته كفاحا بغير واسطة يقربهم اليه فإنه أقرب اليهم من حبل الوريد ، وهو الاحد الصمد الذي يتوجه اليه ويقصد وحده ، ولذلك قال إماما الموحدين ، ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والتسليم (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)

وهذا النوع من الجهل هو الذي قال الله تعالى فيه (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه) واسناد الجهل إلى القوم أبلغ من إسناده إلى ضمير المخاطبين ، لأنه حكم على جماعتهم بما هو كالمتحقق المعروف من حالهم ، الذي هو علة لمقالهم ، يدخل فيه الذين سألوه ذلك منهم دخولا أولياً .

وبعد أن ذكرهم بسوء حالهم من جهلهم وسفاهة أنفسهم بين لهم فساد ماطلبوه في نفسه عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه، فقال بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل والدليل ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾ التبار والتبر الهلاك والتتبير الاهلاك والتدمير . يقال تبر الشيء من بابي تعب ونصر، وتبره — بالتشديد : أهلكه ودمره . أي أن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضي على ماهم فيه بالتبار بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار ، وباطل ما كانوا يعملون من الاصنام ، وعبادة غير الله ذي الجلال والاكرام ، أي هالك وزائل لا بقاء له ، فإنما بقاء الباطل في ترك الحق له أو بعده عنه ، وهذا يتضمن البشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض ، وكذلك كان .

قال البغوي في تفسيره : إن طلب بني اسرائيل الآلهة لم يكن عن شك منهم بوحدانية الله تعالى، وإنما كان غرضهم إلهاً يعظمونه ويتقربون بتعظيمه إلى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة ،وكان ذلك جهلهم كما آذنت به الآيات.

وقال الرازي : اعلم أن من المستحيل أن يقول العاقل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) وخالقاً مدبرا ، لأن الذي يحصل بجعل موسى وتدبيره لا يمكن أن يكون خالقاً للعالم ومدبراً له ، ومن شك في ذلك لم يكن كامل العقل ،

والأقرب أنهم طلبوا من موسى أن يعين لهم أصناما وتماثيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، وهذا القول هو الذى حكاه الله تعالى عن عبدة الأوثان حيث قالوا (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) إذا عرفت هـذا فلقائل أن يقول : لم كان هذا القول كفرا ؟ فنقول : أجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى ، كفر سواء اعتقدوا فى ذلك الغير كونه إلهاً للعالم أو اعتقدوا فيه أن عبادته تقربهم إلى الله تعالى — لأن العبادة نهاية التعظيم ، ونهاية التعظيم لاتليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الانعام والاكرام .

ثم قال بعد أن جزم بأن هذا القول صدر عن بعضهم لا كلهم وأنه كان فيهم من يترفع عنه مانصـه : ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه أجابهم فقال : (إنكم قوم تجهلون) وتقرير هذا الجهل ماذكر من أن العبـادة هى غاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الأنعام ، وهى بخلق الجسم والحياة والشهوة والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها ، والقادر على هذه الأشيـاء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لاتليق العبادة إلا به (فان قالوا)إذا كان مرادهم بعبادة تلك الأصنام التقرب بها إلى تعظيم الله تعالى فما الوجه فى قبح هذه العبادة ؟ (قلنا) فعلى هذا الوجه لم يتخذوها آلهة أصلا وإنما جعلوها كالقبلة ، وذلك ينافى قولهم (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) اهـ

أقول : من العجب أن يقع امام النظار فى علم العقائد على طريقة الفلسفة والكلام فى مثل هذا الخطأ فى أسئلته وأجوبته والتناقض فى كلامه ، ومنشأ هذا الخطأ الغفـلة عن مدلول ألفاظ القرآن فى اللغة العربية واستعمالها بلوازم معناها العرفية كلفظ «الاله» فإن معناه فى اللغة المعبود مطلقا لا الخالق ولا المدبر لأمر العالم كله ولا بعضه ، ولم يكن أحد من العرب الذين سموا أصنامهم وغيرها من معبوداتهم آلهة يعتقد أن اللات أو العزى أو هبلا خلق شيئا من العـالم أو يدبر أمراً من أموره ، وإنما تدبير أمور العالم يدخل فى معنى لفظ الرب . والشواهد على هذا فى القرآن كثيرة ناطقة بأنهم كانوا يعتقدون ويقولون إن خالق السموات والأرض ومدبر أمورها هو الله تعالى وإن آلهتهم ليس لها من أمر الخلق والتدبير شىء ، وإن شركهم لأجل التقرب إليه تعالى وابتغاء الشفاعة عنده بعبـادة ماعبدوه ، ولذلك كانوا يقولون فى طوافهم : لبيك لاشريك لك ،

إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . ولذلك يحتج القرآن عليهم فى مواضع بأن غير الخالق المدبر لايصح أن يكون إلها يعبد مطلقا ، وهو معنى قول بعض المحققين : إنه يحتج بما يعترفون به من توحيد الربوبية ، على ماينكرون من توحيد الإلهية ، و إذ كنا بينا هذا مراراً بالشواهد نكتفى بهذا التذكير هنا

ثم أن عبارة طلاب الأصنام من بنى إسرائيل لم تنقل إلينا بنصها فى لغتهم فنبحث فيها أخطأ أم صواب . و إنما حكاها الله تعالى لنا بلغة كتابه فمناها صحيح قطعا ، فان الإله فى هذه اللغة هو المعبود بالذات أو بالواسطة و إن كان مصنوعا و إنما جهلهم موسى بطلب عبادة أحد مع الله لا بتسمية ماطلبوا منه صنعه إلها فانه هو سمى المعبود المصنوع إلها أيضاً فى قوله للسامرى الذى حكاه الله عنه فى سورة طه (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه) الآية و إنما كان عجل السامرى من صنعه - و إن جميع من عبدوا الأصنام من قبلهم ومن بعدهم كانت أصنامهم مجعولة مصنوعة متخذة من هذه المخلوقات كالحجر والخشب والمعدن . أنسى امام النظار وصاحب التفسير الكبير ماحكاه الله تعالى من تسمية قوم إبراهيم لأصنامهم بالآلهة ؟ أم نسى ماحكاه الله من حجته عليهم بقوله (قال أتعبدون ماتنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ؟) ومن محاجته إياهم بقوله (٢٦ : ٦٩-٧٤ واتل عليهم نبأ ابراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه : ماتعبدون؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * وجملة القول أن هذا القول الذى قاله الرازى من أظهر هفواته الكثيرة بطلانا وسببها امتلاء دماغه عفا الله عنه بنظريات الكلام وجدل الاصطلاحات الحادثة ، وغفلته عن معنى الاله فى أصل اللغة ، ومن آيات القرآن الكثيرة فيه . ومنها قوله : ﴿قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين﴾ أى قال لهم موسى أأطلب لكم معبوداً غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض وكل شىء والحال أنه فضلكم على العالمين ، بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين ، على ملة ابراهيم وسنة المرسلين ، فماذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه ؟ والاستفهام فى الآية للانكار المشرب معنى التعجب ، و إنما هو إنكار ابتغاء إله غير الله المستحق وحده للعبادة ، لا إنكار تسمية المعبود المصنوع إلها ، و «أبغى» ينصب مفعولين بنفسه كقوله تعالى (يبغونكم الفتنة)

بدأ موسى عليه السلام جوابه لقومه بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم ، وثنى ببيان فساد ماطلبوه وكونه عرضة للتبار والزوال ، وباطلا فى نفسه على كل حال ، فلا الطالب على علم وعقل فيما طلب ، ولا المطلوب مما يصح أن يطلب (ضعف الطالب والمطلوب) فهذا ملخص معنى الآية السابقة .

ثم انتقل فى هذه الآية إلى المطلوب منه جعل الإله لهم – وهو هو عليه السلام والمطلوب لأجله هذا الجعل – وهو الله تعالى – وموسى على الحق ، والله تعالى هو الحق والذى يحق الحق ، وبين هذين الحقين وذينك الباطلين غاية المباينة فلذلك كان هذا جوابا مستقلا مباينا لما قبله بحيث لاينبغى أن يعطف عليه عطفا ، ولا أن يعد معه عدا ، ولهذا أعاد فيه كلمة « قال » كما سنبينه . وقد قدم فيه ذكر الأهم الأفضل المقصود بالذات من هذين الحقين ، فقال (أغير الله) فغير الله أعم الألفاظ الدالة على المحدثات فهو يشمل أخس المخلوقات وأعجزها عن النفع والضر كالأصنام، ويشمل أفضلها وأكملها كالملائكة والنبيين عليهم السلام، ليثبت أنه لا يوجد مخلوق يستحق العبادة مع الله تعالى وإن علا قدره ، وعظم أمره . وأن تجهيلهم بما طلبوا لا لأن المطلوب كالأصنام خسيس وباطل فى نفسه ، وعرضة للتبار فلا فائدة فيه لغيره ، – لا لهذا فقط – بل لأن العبادة لايصح أن تكون لغير الله تعالى ألبتة ، مهما يكن غيره مكرما عنده ، ومفضلا على كثير من خلقه ، على أن طلب عبادة الأخس ، دليل على منتهى الخسة والجهل ، إذ لا شبهة توهم قدرته على الاثابة أو التقريب من الله عز وجل ، كشبهة من عبدوا الملائكة وبعض النبيين والصالحين زاعمين أنهم بكرامتهم عند الله يقربون إليه من قصر به إيمانه وعمله أن يتقرب إليه بنفسه ، مع إصراره على خبثه ورجسه ، جاهلين أن الله تعالى أمر المشركين والفاسقين ، أن يتوبوا أى يرجعوا إليه لا إلى غيره من عباده المكرمين ، وأن يدعوه وحده كدعائهم مخلصين له الدين ، وأن يخصوه مثلهم بالعبادة والاستعانة وذلك ما فرضه علينا فى صلاتنا بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين)

وبعد أن قدم المقصود بالذات من الانكار وهو جعل غير الله إلها ذكر من أرادوا أن يكون الواسطة فى هذا الجعل ، الذى دعا إليه ذلك الجهل ، وهو نفسه عليه السلام بقوله (أبغيكم إلها) ليعلمهم أن طلب هذا الأمر الإمر

والشىء الادنى ، والمنكر الفظيع منه عليه السلام جهل بقيمته ، و بمعنى رسالته ، وبما رأوه من جهاده لفرعون وقومه ، من غير حول ولا قوة له فى شخص أخيه ولا فى شخصه ، بل بالاتكال على حول الله وقوته ، ولولا إرادة انكار الأمرين معاً : طلب آله مع الله ، وكونه يجعله عليه السلام — لقال : أغير الله تبغون إلها ، كقوله تعالى (أفغير دين الله يبغون ؟)

ثم أيد هذا الإنكار بما يعرفون من آيات الله تعالى فيهم ، وهو تفضيلهم على أهل زمانهم ، فقد كان أرقى الناس فى ذلك العصر فرعون وقومه بما أوتوا من العلم والقوة والحضارة وسعة الملك ومن السيادة على بعض الشعوب ، وقد فضل الله بنى إسرائيل عليهم ، برسالة موسى وهارون منهم ، وتجديد ملة إبراهيم فيهم ، و إيتائهما من الآيات ماتقدم بيانه وأثره فى السياق الذى قبل هذا ، وقيل : إن المراد تفضيلهم على العالمين مطلقا بكثرة الأنبياء والمرسلين منهم ، والأول أظهر ، لأنه عليه السلام احتج عليهم بما عرفوا فيبعد أن يراد به تفضيلهم على القرون الأولى وأقوام رسلهم وعلى من سيأتى بعدهم وحال كل منهما مجهول عنده وعندهم ، فقد سأل فرعون موسى عن القرون الأولى فقال (علمها عند ربى) والقرون الآخرة بذلك أولى . وأنت إذا قلت لغنى أوعالم إنك أغنى أوأعلم الناس ، أوللملك : إنك أقوى الملوك ، أو فى شعب إنه أرقى الشعوب — فإن أحداً لا يفهم من مثل هذا تفضيل من ذكر على غير أهل زمانهم، ولاسيما من يأتى بعدهم ، وأهل الحضارة فى زماننا يعتقدون أن الأجيال الآتية سيكونون خيراً من هذا الجيل ، وكان موسى يعلم أن هداية الدين سترتقى إلى أن تكمل برسالة خاتم النبيين ، ولكنه أوتى هذا العلم بما أوحاه الله إليه فى التوراة ولم يكن نزل منها شىء عند طلب بنى إسرائيل منه ماذكر

والدليل على أن المراد بتفضيلهم على العالمين ماذكرنا أنه عطف عليه أعظم مظاهره الحديثة العهد بقوله ﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ قرأ ابن عامر (وإذ نجيناكم) على أنه من مقول موسى عليه السلام قطعا والباقون (أنجيناكم) ، وذكروا فيه احتمالين (أحدهما) وهو الأظهر والمتبادر أن يكون مسنداً إلى الله تعالى متمما لكلام موسى ومبينا المراد منه على طريقة الالتفات عن الحكاية عنه . ولهذا الالتفات نظائر فى التنزيل وفى كلام بلغاء العرب ، ومنه قوله تعالى فى قصة موسى من سورة طه (الذى جعل

لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى) الخ فأول الآية من قول موسى فى جواب فرعون وقوله «فأخرجنا» التفات عن الحكاية وانتقال إلى كلامه تعالى عن نفسه خاطب به من أنزل إليهم هذا الوحى من خلقه، تنبيهالهم بتلوين الكلام ، وبما فى مخاطبة الرب لهم كفاحا من التأثير الخاص إلى كونه هو المسدى لهذا الانعام ، واقتصر بعض المفسرين على أن المخاطب بهذه القراءة من كان من بنى إسرائيل فى زمن النبى ﷺ فأفادت قراءة ابن عامر أن موسى قالها لقومه فى ذلك الوقت ، وأفادت قراءة الآخرين أن محمداً ﷺ ذكر بها قوم موسى فى زمنه كما تقدم فى سورة البقرة وهذه فائدة الجمع بين القراءتين وهى من إعجاز إيجاز القرآن

(الثانى) أن قراءة الالتفات من جملة الحكاية عن موسى (ع . م) أسند الانجاء فيها إلى الله تعالى مع حذف القول للعلم به من القرينة أو بدونه أو إلى نفسه وحده أو مع أخيه للاشارة إلى جعله تعالى هذا الانجاء بسبب رسالتهما وتأييده تعالى لهما بتلك الآيات

والمعنى واذكروا إذ أنجاكم من الله تعالى بفضله — أو إذ أنجيناكم بإرساله تعالى إيانا لأجل ذلك ومما أيدنا به من الآيات من آل فرعون حال كونهم يسومونكم سوء العذاب بجعلكم عبيداً مسخرين لخدمتهم كالبهائم فلا يعدونكم منهم ، وخص بالذكر من هذا العذاب شر أنواعه بقوله : يقتلون ما يولد لكم من الذكور ويستبقون نساءكم بترك الإناث لكم لتزدادوا ضعفا بكثرتهن — وهذا بدل بعض من كل وفى ذلكم العذاب والانجاء منه بفضل الرب الواحد عليكم وتفضيله إياكم على أولئك الغالبين فى الأرض وعلى غيركم كسكان البلاد المقدسة التى سترثونها بلاء عظيم أى اختبار لكم من ربكم المنفرد بتربيتكم ، وتدبير أموركم ليس وراءه بلاء واختبار ، فان أجدر الناس بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان ، من يعطى النعمة بعد النقمة ، وأحق الناس بمعرفة وحدانية الله تعالى وإخلاص العبادة له من يرى من آياته فى نفسه وفى الآفاق ما يوقن به أنه لا يمكن أن يكون لغيره شركة فيه أى فكيف تطلبون بعد هذا كله ممن رأيتم هذه الآيات على يده وليس له فيها أقل تأثير أن يجعل لكم إلها من أخس المخلوقات تجعلونه واسطة بينكم و بين الله تعالى، وهو قد فضلكم عليها وعلى عابديها ومن هم أرقى منهم ؟

وقد غفل الشهاب الخفاجى عن كون تفضيلهم على العالمين لم يكن إلا بدعوة

التوحيد المؤيدة بتلك الآيات ، فزعم أن الاحتجاج به خطابي ، لا برهان عقلي ، واعتذر عن عدم احتجاج موسى ببرهان التمانع بأنهم من العوام ، وهو لا ينكر أن تلك المعجزات من البراهين القطعية ، وان اختلف المتكلمون في دلالتها ، هل هي عقلية أو وضعية ، وغفل أيضا عن كون برهان التمانع انما يحتج به على المشركين في الربوبية دون العبادة فقط . وقد تعقبه في هذا الالوسي فقال : وفي إقامة برهان التمانع على الوثنيين القائلين (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) والمجيبين إذا سئلوا : من خلق السموات والأرض ؟ بخلقهن الله — خفاء ، والظاهر إقامته على الثنوية كما لا يخفى اه ووجهه أن الثنوية يقولون بوجود ربين إلهين اشتركا في خلق العالم وتدبير أمره أحدهما رب النور والخير ، والثاني رب الظلمة والشر ، و يحتج عليهم بأنه لو كان في العالم خالقان مدبران أو أكثر لامتنع أن يوجد فيه نظام يصلح به أمره إذا فرض جواز وجوده ، لأن تعدد المدبرين لأمر الشيء كتعدد الخالقين يقتضي تعدد العلم والإرادة والقدرة التي يكون بها التدبير ، والخلق والتقدير ، وتعددها يقتضي التغاير والاختلاف فيها وإلا فلا تعدد ، وهذا الاختلاف يقتضي التعارض في متعلقاتها بأن يتعلق بعضها بغير ما تعلق به الآخر من ضد ونقيض ، وأي فساد في النظام وموجب للاختلال أشد من هذا ؟ وإنما قلنا إذا جاز وجوده لأن الإشارة إلى البرهان في قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) قد بني على أن السموات والأرض موجودتان والنظام فيهما مشاهد بالأبصار والبصائر ، وكما يمتنع استقامة النظام وصلاح التدبير الصادر عن علوم و إرادات قدر مختلفة متعارضة ، كذلك يمتنع صدور الكون نفسه عنها بالاولى

وفي الآية التي قبل الأخيرة من نكت البلاغة انه أعيد لفظ « قال » في أولها لما أشرنا اليه من أن هذا جواب مستقل لا يشترك مع ماقبله فيعطف عليه ، ولا هو معه من قبيل سرد الصفات أو الأعداد التي يطلب فيها الفصل . أي كقوله تعالى (التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون) الخ وقولهم : الأول كذا — الثاني كذا الخ ، فلم يبق إلا إعادة « قال » لامتناع الفصل والوصل كليهما بدونها ، وأن تكون « قال » مفصولة لا معطوفة لإفادة هذا الاستقلال في الجواب ، إذ لا فرق بين عطف القول وعطف الجملة الاستفهامية بدونه في أن كلا منهما يقتضي الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه كما

حققه عبد القاهر فى دلائل الإعجاز

ولما كان كل من له ذوق فى أساليب هذه اللغة يشعر بأن البدء بهذا الاستفهام هنا بدون «قال» غير مستعذب ولا مستساغ وإن لم يعرف سبب هذا ونكتته — بحث طلاب نكت البلاغة فى التفسير عن نكتة هذه الإعادة فلمح بعضهم ما قررناه ولم يتبينه واضحا ليبينه . قال الالوسى : قيل هذا هو الجواب وما قبله تمهيد له ولعله لذلك اعيد لفظ قال اه فنقل هذه النكتة بصيغة التمريض «قيل» إذ كانت اخفى عنده منها عند صاحبها الذى قال : ولعله . . . فلم يجزم — ثم نقل عن أبى السعود قوله فى هذا الجواب : هو شروع فى بيان شؤون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به سبحانه بعد بيان أن ماطلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلا ، لكونه هالكا باطلا أصلا ، ولذلك وسط بينهما «قال» مع كون كل منهما كلام موسى عليه السلام اه : ثم نقل تعليلا آخر للشهاب وهو : اعيد لفظ قال مع اتحاد مابين القائلين (؟) لأن هذا دليل خطابى بتفضيلهم على العالمين ولم يستدل بالتمانع العقلى لأنهم عوام انتهى

وأقول : إن العبارة الاولى أصح وأسلم من هذين القولين المعترضين على أنهما مبنيان على لمح ما لمح صاحبها ، إذ لو سلم للأول أن الآية فى بيان شؤون الله الخ وللثانى أنها دليل خطابى لا برهانى ، لما كان هذا ولا ذاك مقتضيا لإعادة فعل القول لذاته ، وإنما العبرة بوقعه وامتناع كل من فصله بدون القول ووصله بالعطف على ماقبله كما علم مما بيناه والحمد لملهم الصواب ، وقد بينا بطلان قول الشهاب آنفا ، وضعف قول أبى السعود لايحتاج إلى بيان

---

(١٤١) وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ، فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي . فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ

تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَٰمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ
عَلَى النَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّٰكِرِينَ
(١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا
لِّكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا
سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَٰسِقِينَ

هذه الآيات نزلت في بيان بدء وحي الشريعة لموسى عليه السلام وقد بدء الوحي المطلق إليه في جانب الطور الأيمن من سيناء منصرفه من مدين إلى مصر ، وإنما المذكور هنا بدء وحي كتاب التوراة بعد أن أنجى الله قومه بني اسرائيل من العبودية وجعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لها من العبادات وأحكام المعاملات ، والأمة المستعبدة للاجنبي لا تقدر على ذلك ، ألم تر أن جميع أحكام المعاملات الدنيوية من شريعتنا المطهرة وأكثر أحكام العبادات لم تشرع إلا بعد الهجرة ؟ وأن الصلاة التي هي عبادة بدنية لما شرعت في مكة كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي هو ومن آمن به في البيوت سراً اتقاء أذى المشركين الذين كانوا يمنعونهم من الصلاة في المسجد الحرام وقد صلى فيه النبي ﷺ مرة فجاء المشركون بسلا جزور — أي كرش بعير بفرثه — فوضعوه عليه وهو ساجد فلم يستطع رفع رأسه حتى جاءت ابنته السيدة فاطمة عليها السلام فألقته عن ظهره ؟ وهم أبو جهل مرة أن يجلس عليه وهو ساجد فكفه الله عنه ؟

قال تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ هذا السياق معطوف على السياق الذي قبله المبدوء بقوله تعالى (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) الآيات. قرأ أبو عمرو ويعقوب (وعدنا) من الوعد والباقون (واعدنا) من المواعدة فقيل إنها هنا بمعنى الوعد وقيل إن فيها معنى صيغة المفاعلة باعتبار أن الله تعالى ضرب لموسى عليه السلام موعداً لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة فقبل ذلك ثم صعد جبل سيناء في أول الموعد وهبط في آخره ، وفرق بين الاتفاق على الشيء بين اثنين أو أكثر كالتلاقي في مكان

معين أو زمان معين و بين الوعد به من واحد لآخر لا يطلب منه شيء لأجل الوفاء كقولك لآخر سأدعو الله لك فى البيت الحرام مثلا ـ فهذا وعد محض وذلك يحتمل الأمرين باعتبارين كعبارة الآية . والميقات أخص من الوقت فهو الوقت الذى قرر فيه عمل من الأعمال كمواقيت الحج . وفى سورة البقرة (و إذ واعدنا موسى أربعين ليلة) وهو إجمال لما فصل هنا من قبل لأن الأعراف مكية والبقرة مدنية فهى متأخرة عنها فى النزول والمراد بالليلة ما يشمل الليل والنهار فى عرف العرب عند الاطلاق .

روى ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى تفسير الآية أن موسى قال لقومه : ان ربى واعدنى ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلف هارون فيكم ، فلما وصل موسى إلى ربه زاده الله عشرا فكانت فتنتهم فى العشر التى زاده الله ـ وذكر قصة عجل السامرى ـ وروى الثانى عن أبى العالية فى قوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) يعنى ذا القعدة وعشرا من ذى الحجة فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة فى الألواح فقربه الرب نجيا وكلمه وسمع صريف القلم ، و بلغنا أنه لم يحدث فى الأربعين ليلة حتى هبط من الطور ، وفى معنى هذا روايات أخرى صريحة فى أن هذا الزمن ضرب لمناجاة موسى ربه فى الجبل منقطعاً فيه عن بنى إسرائيل وهو الحق الموافق لما ورد فى هذه السورة وغيرها من قصة السامرى وعبادة العجل فى غيبة موسى ومنه قولهم لهارون (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) وأخرج الديلمى عن ابن عباس رفعه « لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يوما وقد صام ليلهن ونهارهن فكره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بما كان قال: أى رب ، كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح ، قال : أو ما علمت يا موسى ان فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك ؟ اذهب فصم عشرة أيام ثم ائتنى . ففعل موسى الذى أمره ربه » وهذا الحديث ضعيف السند ومتنه معارض بما أشرنا إليه من آيات قصة السامرى ومن الروايات التى بمعناها .

و يستدل الصوفية بهذه الرواية على أيام خلوتهم التى يصومون أيامها

(١) استحسن علماء الرسم ان يكتب هارون بدون ألف واستحسنا نحن و كثير من الكتاب كتابته بالألف على الأصل كالحارث لأن أكثر الناس لا يتعلمون الرسم أولا يلقنون مثل هذا الاصطلاح فيخطئون فيهما

الأربعين لا يفطرون إلا على حبات الزبيب، لما ورد فى الأحاديث الصحيحة من النهى عن الوصال فى الصيام . والأولى أن يستأنس بالروايات الصحيحة للتفرغ لذكر الله ومناجاته بالصلاة أربعين يوما وليلة فيجعل مقصدا لا وسيلة .

وهذا ماورد فى التوراة الحاضرة فى المسألة من سفر الخروج (٢٤: ١٢ وقال الرب لموسى اصعد إلىّ إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم ١٣ فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى إلى جبل الله ١٤ . وأما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا ههنا ، وهوذا هارون وحور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم اليهما ١٥ فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ١٦ وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب ١٧ وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل امام عيون بنى اسرائيل ، ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل ، وكان موسى فى الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة) اه

وفى الفصل الرابع والثلاثين منه مانصه أيضا (٣٤ : ٢٧ وقال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع اسرائيل ٢٨ وكان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر) اه

﴿ وقال موسى لأخيه هارون : اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ يعنى أن موسى لما أراد الذهاب لميقات ربه استخلف عليهم أخاه الكبير هارون عليهما السلام للحكم بينهم والاصلاح فيهم ، إذ كانت الرياسة فيهم لموسى ، وكان هارون وزيره ونصيره ومساعده كما سأل ربه بقوله : (واجعل لى وزيرا من أهلى : هارون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى) وأوصاه بالاصلاح فيهم وفيما بينهم ، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين فى الارض . والافساد أنواع بعضها جلى و بعضها خفى ومن كل منهما وسيلة ومقصد ، فمنها الحرام البين ومنها الذرائع المشتبهات التى يختلف فيها الاجتهاد ، ويأخذ التقى فيها بالاحتياط ، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم فى أعمالهم ، ومساعدتهم عليها ، ومعاشرتهم والاقامة معهم فى حال اقترافها ، ولو بعد العجز عن إرجاعهم عنها ، ومن ذلك مايجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام فيصح

نهيهم عنه تحذيرا من وقوعهم فيه بضرب من الاجتهاد كالذى وقع الاختلاف فيه بين موسى وهارون عليهما السلام فى قصة عجل السامرى الذى حكاه تعالى عنه فى سورة طه بقوله (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أفعصيت أمرى ؟ قال يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى) فالرسالة كانت لموسى بالاصالة ولهارون بالتبع ليكون وزيرا لا رئيسا ، وموسى هو الذى أعطى الشريعة (التوراة) وكان هارون مساعدا له على تنفيذها فى بنى اسرائيل ، كما كان مساعدا له على تبليغ فرعون الدعوة وانقاذ بنى اسرائيل .

وقد روى الشيخان وغيرهما من حديث سعد بن أبى وقاص (رض) أن النبى ﷺ قال لعلى كرم الله وجهه « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ » وذلك أنه استخلفه على المدينة فى غزوة تبوك قبل خروجه فقال يارسول الله تخلفنى فى النساء والصبيان ؟ فقاله . وفى رواية لأحمد : أن عليا (رض) قال : رضيت رضيت . وإنما قال فى النساء والصبيان لأنه لم يتخلف عن الخروج مع النبى ﷺ إلى تبوك غير النساء والصبيان ومن فى حكمهم من ضعيف ومريض إلا من استأذن من المنافقين .

قال القاضى عياض فى شرحه لمسلم : هذا الحديث مما تعلقت به الروافض والامامية وسائر فرق الشيعة فى أن الخلافة كانت حقا لعلى وأنه أوصى له بها . قال ثم اختلف هؤلاء فكفرت الروافض سائر الصحابة فى تقديمهم غيره وزاد بعضهم فكفر عليا لأنه لم يقم بطلب حقه . وهؤلاء أسخف مذهبا وأفسد عقلا من أن يرد عليهم الخ ما قال . وقد ذكرت هنا من قوله لأذكر القارىء بأن هذين الفريقين لم يقولا ما قالا عن اعتقاد ، بل كانوا من جمعيات المجوس والسبأيين الذين يبغون الفتنة لابطال الاسلام وإزالة ملك العرب بالشقاق الدينى . وأما الاستخلاف فقد كان النبى ﷺ يستخلف على المدينة بعض الصحابة كلما خرج إلى غزوة ، ولم يكن يختار أفضلهم لذلك ، وفى الحديث من المنقبة لعلى ما هو فوق استخلافه وهو جعله أخا للنبى ﷺ ولا يتضمن ذلك استخلافه بعده ﷺ لأن هارون مات قبل موسى عليهما السلام قطعا

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب أرنى أنظر إليك ﴾ أى ولما جاء موسى للميقات الذى وقتناه له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه

عز وجل من وراء حجاب بغير واسطة الملك(١) استشرفت نفسه الزكية العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة بأن تجعل لي من القوة على حمل تجليك ما أقدر به على النظر اليك ورؤيتك وكمال المعرفة بك بالقدر الممكن أي دون ما هو فوق امكان المخلوقين من الادراك والاحاطة المنفي بقوله تعالى (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) فيراجع تفسير هذه الآية من سورة الانعام (ص ٦٥١ — ٦٥٧ ج٧ تفسير)

﴿ قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ﴾ أي إنك لا تراني الآن ولا فيما تستقبل من الزمان ، ثم استدرك تبارك وتعالى على ذلك بما يدل على تعليل النفي ، ويخفف عن موسى شدة وطأة الرد ، باعلامه ما لم يكن يعلم من سنته ، وهو أنه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته . كما قال (ص) في حديث أبي موسى عند مسلم « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » فقال : ولكن انظر إلى الجبل ، فاني سأتجلى له فان ثبت لذي التجلي و بقي مستقراً في مكانه فسوف تراني ، لمشاركتك له في مادة هذا العالم الفاني ، و إذا كان الجبل في قوته ورسوخه لا يثبت ولا يستقر لهذا التجلي لعدم استعداد مادته لقوة تجلي خالقه وخالق كل شيء فاعلم أنك لن تراني أيضاً وأنت مشارك له في كونك مخلوقا من هذه المادة وخاضعا للسنن الربانية في قوتها وضعف استعدادها (وخلق الانسان ضعيفا) وقبولها للفناء

روى عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : لما سمع الكلام طمع في الرؤية وروى أبو الشيخ عن ابن عباس قال حين قال موسى لربه تبارك وتعالى (أرني أنظر إليك قال) له يا موسى إنك (لن تراني) قال يقول ليس تراني لا يكون ذلك أبداً ، يا موسى إنه لن يراني أحد فيحيا ، قال موسى رب أن أراك ثم أموت أحب إليّ من أن لا أراك ثم أحيا . فقال الله يا موسى (انظر إلى الجبل) العظيم الطويل الشديد (فان استقر مكانه) يقول فان ثبت مكانه لم يتضعضع ولم ينهد لبعض ما يرى من عظمي (فسوف تراني) أنت لضعفك وذلتك ، وان الجبل تضعضع وانهد بقوته وشدته وعظمه فأنت أضعف وأذل اه

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ﴾ يقال جلا الشيء

(١) راجع تفسير (منهم من كلم الله) في أول الجزء الثالث من تفسيرنا وتفسير (وكلم الله موسى تكليما) في ص ٧١ ج ٦ منه

والأمر وانجلى وتجلى بنفسه أو بغيره وجلاه فتجلى — إذا انكشف وظهر ووضح بعد خفاء فى نفسه ذاتى أو اضافى أو خفاء على مجتليه وطالبه . و يكون ذلك التجلى والظهور بالذات و بغير الذات من صفة أو فعل يزول به اللبس والخفاء ، وفى صيغة التجلى ماليس فى صيغة الجلاء والانجلاء من معنى التدريج والكثرة النوعية أو الشخصية قال تعالى (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى) فالليل يغشى النهار و يستره ثم يتجلى النهار ويظهر بالتدريج وفى الأحاديث أن للرب تعالى تجليات مختلفة كما سيأتى .

والدك الدق أو ضرب منه . قال فى الأساس : دككته دققته ، ودك الركية كبسها ، وجمل أدك وناقة دكاء : لاسنام لها ، واندك السنام : افترش على الظهر ونزلنا بدكداك : رمل متلبد بالأرض اه وأقول : إن الفرق بين الدق والدك كما يؤخذ من الاستعمال العام الموروث عن العرب — أن الدق مايخبط به الشىء ليتفتت و يكون اجزاء دقيقة ومنه الدقيق . وكان القمح فى عصور البداوة الأولى يدق بالحجارة فيكون دقيقا ثم اهتدوا إلى الارحية التى تسحقه وتطحنه . وأما الدك فهو الهدم والخبط الذى يكون به الشىء المدكوك ملبدا ومستويا ، يقال أرض مدكوكة وطريق مدكوكة ، ودك الحفرة والركية (أى البئر غير المطوية) دفنها وطمها ، ولا تزال سلائل العرب تستعمل هذه المادة بهذا المعنى و يسمون مايوضع فى الحفرة أو الركية من الحصا والحصباء لأجل تسويتها « الدكة » . قرأ حمزة والكسائى (جعله دكاء) بالمد والتشديد غير منون أى أرضا مستوية كالناقة التى لاسنام لها والجمهور (جعله دكا) بالمصدر أى مدكوكا دكا . ومثله فى السد من سورة الكهف

والخرور والخر السقوط من علو والانكباب على الأرض ، ومنه (يخرون للاذقان سجدا) والصعق بكسر العين صفة من الصعق وهو ما يكون من تأثير نزول الصاعقة من موت أو إغماء ثم توسع فيه باطلاقه على ما يشبه ذلك . قال الفيومى فى المصباح : صعق صعقا من باب تعب : مات ، وصعق غشى عليه لصوت سمعه ، والصعقة الأولى النفخة ، والصاعقة النازلة من الرعد ، والجمع صواعق ، ولا تصيب شيئا الا دكته وأحرقته اه

وأحسن ما ورد فى التفسير المأثور لهذه الآية مطابقا لمتن اللغة ما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الرؤية عن ابن عباس (فلما تجلى ربه للجبل)

قال: ماتجلى منه إلاقدر الخنصر (جعله دكا)قال ترابا (وخر موسى صعقا)قال مغشيا عليه اه ومارواه ابن المنذرعن عكرمة أنه ـ أى الجبل ـ كان حجرا أصم فلما تجلى له صارتلا ترابا دكا من الدكاوات ـ أى مستويا بالأرض ـ ولولا ذلك لجاز أن يقال إن صيرورته ترابا وان كان بمعنى الدكاء والمدكوك لاينافى استقرار الجبل مكانه وقدورد فى بعض الآثار والأحاديث المرفوعة أيضا انه ساخ أى غاص فى الأرض ، وهو يتفق مع المعنى الأول، أى أنه رج بالتجلى رجا بست بها حجارته بساً ، وساخ فى الأرض كله أو بعضه فى أثناء ذلك حتى صار كما قال بعضهم : ربوة دكاء كالرمل المتلبد

والمعنى : فلما تجلى ربه للجبل أقل التجلى وادناه انهد وهبط من شدته وعظمته وصار كالأرض المدكوكة أو الناقة الدكاء ـ وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه كمن أخذته الصاعقة والتجلى إنما كان للجبل دونه فكيف لو كان له ؟

وقد روى فى تفسير هذه الآيات من الأخبار والآثار الواهية والموضوعة غرائب وعجائب أكثرها من الاسرائيليات . أمثل المرفوع منها ماروى من طريق حمادبن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك (رض) قال «قرأ رسول الله ﷺ (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا)قال : ـ ووضع الابهام قريبا من طرف خنصره ـ فساخ الجبل» وفى لفظ زيادة (وخر موسى صعقا) فقال حميد الطويل لثابت : ماتريد إلى هذا ؟ فضرب صدره أى صدر حميد وقال من أنت ياحميد ؟ يحدثنى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ وتقول أنت : ماتريد إلى هذا »رواه أحمد وعبد بن حميد والترمذى وصححه وابن جرير والمنذر وأبى حاتم وعدى فى الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الرؤية وقد انفرد به عند مصححيه حماد بن سلمة وهو من رجال مسلم إلا أنه قد تغير حفظه فى آخر عمره كما هو معلوم وله طريقان آخران عند داودبن المحبر وابن مردويه لا يصحان كما قال الحافظ ابن كثير والمرادمن التمثيل بالابهام والخنصر ان ذلك أقل التجلى وأدناه ، وسيأتى من الصحيح مايؤيد معناه

ومن أنكر هـذه الروايات وأوهاها ماروى عن أنس مرفوعا « لما تجلى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة . . . » وذكر أسماءها قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث غريب بل منكر . أقول ولا يدخل

من ألفاظ الآية ولا معناها في شيء

﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين ﴾ أى (فلما أفاق) موسى من غشيه ، والتعبير بالافاقة يدل على صحة تفسير ابن عباس والجمهور للصعق بالغشي وبطلان تفسير قتادة له بالموت ، وقال به بعض شذاذ الصوفية وادعوا أنه رأى ربه فمات ، أو مات ثم رأى ربه ، ولو مات لقال تعالى « فلما بعث » الخ كما قال في السبعين الذين اختارهم من قومه وذهبوا معه إلى الجبل وطلبوا منه أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فانه قال « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » كما في سورة البقرة ، وسيأتى خبرهم في هذه القصة من هذه السورة — (قال سبحانك) أى تنزيها لك وتقديسا عما لا ينبغى في شأنك مما سألتك أو من لوازمه — أو كما حكى تعالى عن نوح عليه السلام (أن أسألك ما ليس لى به علم) وأكثر مفسرى أهل السنة يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى وفى العلم إنما يصح عندهم بمعنى ان ما سأله غير ممكن أو غير واقع في هذه الحياة الدنيا ، لا انه غير ممكن في نفسه وغير واقع البتة ولا في الآخرة . ومعنى التوبة الرجوع والمراد هنا الرجوع عما طلب ، إلى الوقوف مع الرب تعالى عند منتهى حدود الأدب قال مجاهد (تبت اليك) أن أسألك الرؤية (وأنا أول المؤمنين) قال ابن عباس ومجاهد : أى من بنى اسرائيل ، وفى رواية أخرى عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد ، ذكرهما الحافظ ابن كثير وقال : وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . قال : وهذا قول حسن له اتجاه . وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثرا طويلا فيه غرائب وعجائب عن محمد بن سحق بن يسار وكأنه تلقاه من الاسرائيليات والله أعلم اهـ

خلاصة معنى الآية : أن موسى عليه السلام لما نال فضيلة تكليم الله تعالى له بدون واسطة فسمع ما لم يكن يسمع قبل ذلك ، وهو من الغيب الذى لا شبه له ولا نظير في هذا العالم طلب من الرب تبارك وتعالى ان يمنحه شرف رؤيته وهو يعلم حتما أنه تعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته التى منها كلامه عز وجل ، فكما أنه سمع كلاما ليس كمثله كلام بتخصيص ربانى — استشرف لرؤية ذات ليس كمثلها شيء من الذوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم ، فلم يكن عقل موسى — وهو في الذروة العليا من العقول البشرية بدليلى العقل

والنقل - مانعا له من هذا الطلب ، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى - وهما فى الذروة العليا أيضا - مانعين له منه. ولكن الله تعالى قال له (لن ترانى) ولكى يخفف عليه ألم الرد وهو كليمه الذى قال له فى أول العهد بالوحى اليه (واصطنعتك لنفسى) أراه بعينيه ومجموع إدراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه أن المانع من جهته هو لا من الجود الربانى ، فنزه الله وسبحه وتاب اليه من هذا الطلب ، فبشره الله تعالى بأنه اصطفاه على الناس برسالته و بكلامه أى دون رؤيته ، وأمره بأن يأخذ ما أعطاه ، و يكون من الشاكرين له .

﴿ قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى و بكلامى ﴾ الاصطفاء اختيار صفوة الشىء وصفوه أى خالصه الذى لاشائبة فيه ، ومنه الصفى من الغنيمة وهو ما يصطفيه الامام أو القائد الأكبر منها و يختاره لنفسه كاختيار النبى صلى الله عليه وسلم السيف المعروف بذى الفقار من غنائم غزوة بدر . وتعدية الاصطفاء هنا بعلى لتضمنه معنى التفضيل ، فالمعنى إنى اصطفيتك مفضلا إياك على الناس من أهل زمانك بالرسالة ، قرأ ابن كثير ونافع «برسالتى» والباقون «برسالاتى» فافرادها بمعنى الاسم من الإرسال وجمعها باعتبار تعدد ما أرسل به من العقائد والعبادات والأحكام السياسية والحربية والمدنية والشخصية ، وقيل بتعدد أسفار التوراة وهو ضعيف لأن التوراة ما أوحاه من الشريعة إلى موسى وهو موضوع رسالته وتسمية الأسفار الخمسة بالتوراة اصطلاحية وقد يطلقونها على جميع كتب أنبياء بنى اسرائيل قبل عيسى صلى الله عليه وسلم - واصطفيتك بكلامى أى بتكليمى لك بعد وحى الإلهام من غير توسط ملك و إن كان من وراء حجاب ، وهو ما طلب رفعه لتحصيل الرؤية مع الكلام ، ووحى الله تعالى ثلاثة أنواع بينها بقوله (٤٢ : ٥١ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء إنه على حكيم) فهذا النوع الأوسط هو الأعلى وقد أعطى لموسى صلى الله عليه وسلم بعد النوع الأول وقيل بالعكس ، وقد بينا ما فيه من وجه الخصوصية فى تفسير قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) من سورة النساء ٤ : ١٦٣

﴿ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ أى فخذ ما أعطيتك من الشريعة « التوراة » وكن من الراسخين فى الشكر لنعمتى بها عليك وعلى قومك ، وذلك

بإقامتها بقوة وعزيمة والعمل بها ، وكذا لسائر نعمى ، فان حذف متعلق الشكر يدل على عمومه ، كما أن صيغة الصفة منه تدل على التمكن منه والرسوخ فيه

﴿ فصل ﴾

﴿ فى اختلاف المسلمين فى الرؤية وكلام الرب تعالى وتحقيق الحق فيهما ﴾

كان جماعة الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون هذه الآيات وأمثالها ولا يرون فيها اشكالا ، وهم أعلم العرب بلغة القرآن وبمراد الله تعالى من آياته فيه لتلقيهم إياها من الرسول المنزلة عليه الأمور فيها ببيانها للناس ، ثم انتشر الاسلام ودخل فيه من الأعاجم من كانوا على أديان مختلفة وصاروا يتلقون لغته بالتلقين ويقتبسونها بمعاشرة العرب الخلص ثم بالتعليم الفنى ، ثم صارت السلائل العربية كذلك . ثم حدثت فى الجميع الاصطلاحات العلمية والفنية لما وضعوا من العلوم الشرعية كأصول العقائد والفقه والحديث، واللغوية : كالنحو والصرف والبيان . ولما ترجموا من كتب علوم الأوائل وما زادوا فيها من الرياضيات والعقليات والوجدانيات وسائر سنن الموجودات ، فامتزجت هذه الاصطلاحات بلغة القرآن والحديث. فصارت آلات لفهمهما ، وسببا للخطأ فى تعيين بعض المراد منهما .

ثم حدث ماهو أدعى إلى الخطأ فى الفهم وهو عصبية المذاهب والشيع التى فرقت بين المسلمين ، على ماجاء فى التفرق والتفريق من الوعيد الشديد ، فصار كل منهم إلى شيعة وحزب لا ينظر فى الكتاب والسنة إلا بالمنظار المعبر عنه بمذهب الحزب ، وإن كان من أهل النظر والاستدلال ، ومدعي الاجتهاد والاستقلال . والبداهة قاضية بالتضاد بين التقيد بالمذاهب ، والاستقلال الصحيح المسمى عندهم بالاجتهاد المطلق .

وهنالك سبب آخر وهو حشر الاسرائيليات والروايات الموضوعة والواهية فى تفسير القرآن وكتب السنة ، وتقاصر الأكثرين عن تمحيصها ، والتمييز بين حقها وباطلها ، حتى إن بعض الاسرائيليات قد اشتبه بالأحاديث المرفوعة ، كما بينه بعض الحفاظ ، ومنهم ابن كثير فى تفسيره.

فبهذه الأسباب أبطلوا مزية كتاب الله وخاصيته فى رفع الخلاف والتفرق المفسدين لأمر الملة والأمة اتباعاً لسنن من قبلهم وهم لا يشعرون ، لأنهم جعلوه هو موضع الخلاف أيضاً، قال تعالى (٢:٢١٣ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) الآية. وقال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وقال تعالى (٤:٥٩ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا)

فالرد إلى كتاب الله وما بينه من سنة رسوله لإزالة التنازع وحسم الخلاف تفادياً من التفريق والتفرق المنافى لوحدة الدين يتوقف على جعل الكتاب وبيان الرسول له فوق التنازع واختلاف المذاهب والشيع ، و إلا كان الدواء عين الداء

فإن قيل : إن القرآن ليس موضوع اختلاف بين الشيع والأحزاب المختلفين فى المذاهب الإسلامية ، فهم مجمعون على أن من رد شيئاً منه كان مرتدا عن الإسلام — إن كان قد عد من أهله — و إنما الاختلاف فى فهمه، وأما السنة فاختلفوا فى رواية بعضها وفى فهم بعض ، ومن صح عنده منها شىء يتعلق بأمر الدين وجب الأخذ به فى كل مذهب من المذاهب التى يعتــد بإسلام أهلها . والاختلاف فى فهم ما كان غير قطعى الدلالة ضرورى لا يتناوله مثل قوله تعالى (٣:١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم)

ونجيب عن هذا — أولا — بأنهم إنما كانوا كذلك فى كل ذلك قبل الفتن وعصبية المذاهب . وأما بعدها فقد صرح بعض كبار فقهاء الحنفية بأن الأصل عندهم فى كل حكم كلام أصحابهم ، فإن وجدوا آية تخالفه (!!) التمسوا لها ناسخاً ، فإن لم يجدوا أولوها ، و إن وجدوا حديثاً مخالفاً له (!!) بحثوا فى اسناده فإن وجدوا فيه مطعناً نبذوه و إلا فعلوا فى التفصى منه ما يفعلون فى التفصى من القرآن (!!) وقد جرى على ذلك أهل كل مذهب إلا أفراداً من كبار النظار خالفوا المذهب فى بعض المسائل الكلامية والأصولية بالدليل، و بعض كبار المحدثين رجحوا بعض الأحاديث الصحيحة الصريحة على المذهب ، و إن شئت فراجع بعض الشواهد على ردهم

لها في « كتاب اعلام الموقعين » للمحقق ابن القيم . و ـ ثانياً ـ بأن الله تعالى يكلفهم أن لا يجعلوا ما ليس قطعي الدلالة سبباً للتفرق والتعادي وتأليف الأحزاب والشيع التي يلقن أتباع كل منها فهم رجل أو رجال يسمونه مذهبهم ، يتعلمون معه الرد على مخالفيهم وتفسيقهم أو تكفيرهم ، وبهذا كان الاختلاف ضارا ومفسداً على المسلمين ومن كان قبلهم من أهل الملل لأمور دينهم ودنياهم ، وهو المراد بقوله تعالى لرسوله ﷺ (٦ : ١٥٩ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) الآية ولولاه لما كان أولئك العلماء الاعلام من المعتزلة والاشعرية يتنابزون بالألقاب ، ويتبارون بالسباب ، ويتهاجون بالأشعار ، كقول الزمخشري المعتزلي بعد تفسيره لآية الأعراف التي نحن بصدد تفسيرها : ثم تعجب من المتسمين بالإسلام ، المتسمين بأهل السنة والجماعة ، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ؟ ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة ، فانه من منصوبات أشياخهم ـ يعني بالبلكفة قولهم انه تعالى يرى بلا كيف أي ان رؤيته ليست كرؤية أهل الدنيا بعضهم لبعض فيما يلزمها من كون المرئي جسما كثيفاً تحيط به أشعة البصر — ثم قال والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

وجماعة سموا هواهم سنة ... لجماعة حمر لعمري موكفة

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة

يعني بالعدلية جماعته المعتزلة فانهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد فانظر إلى جعله اثبات الرؤية الثابتة في الأحاديث المتفق على صحتها منافياً للاتسام بالإسلام والتسمي بأهل السنة ، وهو يعلم أنهم ينفون التشبيه في الرؤية بالتصريح كما ينفيه هو ، فلولا تعصب المذهب لما ألزمهم إياه بدلالة اللزوم الضعيفة التي قالوا فيها « لازم المذهب ليس بمذهب » قيل مطلقا وقيل فيما لم يدل الدليل على التزام صاحب المذهب له ، وأما ما صرح بنفيه فلا وجه لاسناده اليه البتة ، ومن نسبه اليه وذمه به كان ظلوما جهولا .

ولو أن الزمخشري وشاعر العدلية لم يقولا ما قالا من الطعن والهجو في أهل السنة بأن اكتفى الزمخشري في تأويل أحاديث الرؤية بما أولها به من كون الرؤية فيها عبارة عن كمال المعرفة الجلية لما جوزيا على ذلك بمثل ذنبهما أو أكثر كما قال أحمد بن المنير الاسكندري في (الانتصاف) حاشيته على الكشاف :

وجماعة كفروا برؤية ربهم ... حقا ووعد الله ما لن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل   عدلوا بربهم ، فحسبهم سفه
وتلقبوا الناجين ، كلا إنهم   إن لم يكونوا فى لظى فعلى شفه

وللشيخ تاج الدين السبكى صاحب جمع الجوامع وغيره مثل هذا الشعر المحزن، والبادىء بالشر أظلم ، وهؤلاء الذين هجوا عدلية المعتزلة بمثل ما هجا به شاعرهم أهـل السنة كافة هم من الأشعرية الذين يقولون مثلهم بالتأويل ، ويشنعون على إخوانهم من الحنابلة وغيرهم من السلفيين فى بعض مسائل التفويض كالنصوص فى علو الله تعالى على خلقه ، واستوائه على عرشه ، التى اتبعوا فيها إجماع السلف أو جمهورهم الأعظم فى إمرارها كما جاءت مع تنزيهم الرب تعالى عن مشابهة الخلق والتحيز والحد والحلول ، لأن أصل عقيدتهم أنه تعالى مباين لخلقه بذاته وصفاته (ليس كمثله شىء) بل أول الامام أحمد بن حنبل نفسه نصوص المعية كقوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) فخصه بالعلم

فالحق الواقع أن المختلفين فى فهم النصوص من المسلمين الصادقين يؤمنون بها ويعظمونها ولكن غلب على قوم ترجيح جانب التنزيه حتى انتهى ببعضهم إلى التعطيل ، وجعل صفات الرب تعالى سلبية بضروب من التأويل ، وغلب على قوم جانب الأخذ بالظاهر فى ذلك حتى وقع بعضهم فى التشبيه فعلا ، كأن الكتاب والسنة خلو من المجاز والكناية فى ذلك مع العلم بأن ماعدا اسم الجلالة من ألفاظ اللغة قد وضع قبل نزول القرآن للتعبير به عن المخلوقات وشؤونها، فالفريقان أرادا تعظيم الرب تعالى وسد ذريعة القول فى ذاته وصفاته بغير الحق الذى يرضيه، هؤلاء خافوا التعطيل برد شىء من النصوص أو تحكم الاهواء فى تأويلها ــ وأولئك خافوا الوقوع فى تشبيه الرب سبحانه بخلقه ، وسد ذريعة ما يعد نقصا فى حقه ، فالنية كانت حسنة من الجانبين كما قال شيخنا الشيخ حسين الجسر الطرابلسى رحمه الله تعالى فى درسه عند قراءة شرحى السنوسية والجوهرة

ولكن الذين ضلوا بالتأويل والتعطيل كثيرون حتى خرجت به عدة فرق من الملة بعضهم باطناً وظاهراً وبعضهم باطناً لا ظاهراً ، كالباطنية الذين تركوا أركان الإسلام ، من صلاة وزكاة وحج وصيام ، زاعمين أن لها معانى غير ما عمل به النبى ﷺ وأصحابه وأجمع عليه المسلمون، وكغلاة الصوفية الذين ذهبوا فى التأويل إلى ما وراء طور العقل والنقل وأساليب اللغة ، فادعوا أنهم يرون الله تعالى عيانا

فى جميع الصور ، ويتلقون عنه كالأنبياء ، وأن فيهم من هم أفضل من الأنبياء وأعلم بالله تعالى ، ومنهم من ادعى رفع التكليف عمن بلغ مقاماتهم فى المعرفة ، بل منهم من غلا فى وحدة الوجود إلى ادعاء الربوبية للبشر والبقر ، والحجر والمدر ، وما يستحى أو يتنزه قلم المتدين الأديب عن ذكره - وإلى عدم التفرقة بين موحد ومشرك ، ومؤمن وكافر ، وبر وفاجر وعادل وجائر ، وطيب وخبيث ، ولا بين نافع وضار ، وطهور ورجس . ويستدلون على عقائدهم أو مزاعمهم بالآيات والأحاديث ، بضروب من التأويل ، وقد قال بعضهم :

عقد الخلائق فى الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ولم يقع من فرقة تأخذ بظواهر نصوص الكتاب والسنة من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تمثيل ، فى مثل هذا الضلال البعيد ، فهؤلاء الظاهرية ومن يسمونهم غلاة الحنابلة من أقوى المسلمين إيمانا ، وأصحهم اسلاما ، وما رموا به من التشبيه والتمثيل الذى نفاه النص والعقل ظلم سببه التعصب المذهبي . فاذا كانوا يثبتون للرب تعالى كل ما أثبته لنفسه فى كتابه ، وأثبته له رسوله فيما صح من حديثه ، حتى فيما يفوضون كنهه اليه تعالى للاعتراف بأن عقولهم لاتحيط به ، فهل يعقل أن يثبتوا له ما نفاه عن نفسه بقوله (ليس كمثله شىء) وهو مما يعقلونه ولا يعقلون ضده ؟ كلا ان تعصب أصحاب النظريات الكلامية من المعتزلة ومن يقرب منهم من متأولة الأشعرية هم الذين افتأتوا عليهم بما ألزموهم إياه مما نفوه من لوازم ماصح فى الكتاب والسنة من علوه تعالى على خلقه ، واستوائه على عرشه ، وكونه ينزل إلى سماء الدنيا ويحب ويبغض ويضحك الخ مع استصحاب نص التنزيه ، فهم لايرون فرقا بينها وبين كونه يسمع ويبصر ويتكلم ، وكذا يعلم ويريد ويشاء ويقدر ، فكل ذلك مما يطلق على الخلق والخالق مع انتفاء التشبيه ، وإنما ذنبهم عندهم أنهم لا يستعملون نظريات أفكارهم فى التحكم بتأويل هذه النصوص ، ولم يكلف الله تعالى أحدا من خلقه هذه النظريات الفلسفية الكلامية ، وإنما كلفهم الإيمان بجميع ماجاءهم به رسله (ص) وأصل الدين الذى بعث الله تعالى به جميع رسله إلى خلقه هو أن يعبدوا الله تعالى وحده ولا يشركوا به شيئا من خلقه ، وأن يعبدوه بما شرعه لهم دون غيره ، اذ ليس لغيره أن يشرع شيئا من الدين بدون اذنه . فالله تعالى قد شرع

الدين لجميع أفراد الأمة ، وهذه الفلسفة الكلامية من دقائق النظريات الفكرية التي انفرد بالغوص عليها أفراد معدودون من أذكياء الأمم فتفرقوا فيها واختلفوا لأن التفرق والاختلاف من لوازمها البينة ، فعصوا الله تعالى فى نهيه عن التفرق والاختلاف فى الدين ، فكيف يقول عاقل إن جميع المؤمنين قد كلفوها ، و إذا كانت صحة الإيمان تتوقف عليها ، فكم عدد المؤمنين فى الامة كلها ؟ و إذا كان الحق فيها واحدا كما يقولون فكم عدد أهل الحق منهم ؟ وكيف السبيل لدى كل من احتكر الحق فيها لنفسه إلى تلقين السواد الأعظم من الأمة مايراه بحيث لا يقبل سواه ؟ فان كان هو أصل الدين الذى لا يقبل الله غيره ففهم الدين متعذر على أكثر الأمة

وأما ما كان عليه السلف الصالح فى صدر الأمة فكان سهلا و يسيرا كما وصف الله ورسوله هذا الدين وهذه الملة ، كان جميع المسلمين فى الصدر الأول يصفون الله تعالى بجميع ماوصف به نفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه له بأحد من خلقه ، ومن غير هذه الفلسفة الكلامية التى لم يشرعها الله تعالى ولا أنزل بها من سلطان ، ولذلك استنكر جميع أئمة السلف علم الكلام وعدوه بدعة سيئة ، ومن خاض فيه بعد ذلك من أتباعهم فلأنهم ظنوا أنه يتوقف عليه إبطال البدع و إزالة الشبهات المشكلة فى الدين لا لذاته ، وأرادوا به إزالة الخلاف فزادهم خلافا وافتراقا ، حتى صار أكثرهم يزعم أن العقائد الصحيحة لا تعرف إلا به ، و يحصرها كل فريق فى مذهبه ، ولا سلامة للمسلمين فى دينهم ودنياهم إلا بالرجوع فى الدين المحض الى ما كان عليه السلف وفى أمور الدنيا إلى ما أثبته العلم والتجارب فى هذا العصر ، وأن ينبذوا جميع الأسباب والكتب التى كانت مثار الخلاف والتفرق وراء ظهورهم ، ولا يجعلوا قول عالم من علمائهم ولا فهمه سببا للتعادى والتفرق بينهم بل يعدوا كل ماليس قطعيا من كتاب ربهم وسنة رسولهم واجماع سلفهم من الاجتهاد الذى يعذر به من قام دليله عنده ومن وثق به ولا يكون حجة على غيره وقد فصلنا القول فى هذا فى مجلتنا (المنار) مراراً . فبهذا يزول ضرر اختلاف المذاهب فى الأصول والفروع ، ويتراجع الجميع إلى وحدة الدين وأخوّة الاسلام ، فينالوا من سعادة الدنيا ثم الآخرة ماشرع الله لهم الدين لأجله

بعد هذا التمهيد نقول : إن مسألة الكلام الإلهى كمسألة الرؤية فيما اختلف فيه

من تأويل وتفويض ، اجتنابا من قوم للتعطيل ومن آخرين للتشبيه . وإنما الفرق بينهما أن إثبات الكلام والتكليم لله تعالى صريح فى القرآن المجيد فى آيات متعددة لا تعارض بينها ، وأما رؤية الرب تعالى فربما قيل بادى الرأى : إن آيات النفى فيها أصرح من آيات الإثبات كقوله تعالى (لن ترانى) وقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فهما أصرح دلالة على النفى من دلالة قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) على الإثبات ، فان استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير فى القرآن وكلام العرب كقوله (ما ينظرون إلا صيحة واحدة — هل ينظرون إلا تأويله — هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) وثبت أنه استعمل بهذا المعنى متعديا بالى ولذلك جعل بعضهم وجه الدلالة فيه على المعنى الآخر، وهو توجيه الباصرة إلى ما تراد رؤيته — أنه أسند إلى الوجوه وليس فيها ما يصح إسناد النظر إليها إلا العيون الباصرة ؛ وهو فى الدقة كما ترى ، ولذلك اختلف فى فهمها العلماء قبل هذه المذاهب ، فقد روى عبد بن حميد عن مجاهد تفسير (ناظرة) بقوله : تنتظر الثواب . قال الحافظ ابن حجر : سنده إلى مجاهد صحيح ، والجمهور يرون فهم مجاهد غير صحيح ولكن المعتزلة والخوارج والشيعة يرونه صحيحاً ، وفى الفريقين من أساطين علماء اللغة ما يسوغ لك أن تقول : لكنه كمقابله ليس صريحاً ، أو ليس قطعى الدلالة بحيث يعد حجة على جميع المكلفين ، ويمتنع جعل تأويله عذراً للمخالفين . وقد كان النبى ﷺ يعذر أصحابه فى اختلاف فهمهم للنصوص ، ويقرهم على ما كان للاجتهاد فيه وجه وجيه كأخذ بعضهم بظاهر نهيه إياهم عن صلاة العصر إلا فى بنى قريظة إذ ذهب بهم إليهم ، وأخذ الآخرين بفحواه وهو عدم التخلف ، فصلى هؤلاء فى الطريق وأدركوا معه بنى قريظة فى الموعد ، ولم يصل أولئك العصر إلا فيها ، وكما فهم بعضهم تحريم الخمر والميسر من آية البقرة التى رجحت إثمهما على منافعهما فتركوهما ، ولم يتركهما من لم يفهم ذلك وهم الأكثرون إلا بعد نزول النص القطعى باجتنابهما

فاذا محصنا أسباب الخلاف من جهة النصوص وحدها وجدنا لكل من النفاة للرؤية والمثبتين لها ما يصح أن يكون له عذراً عند الآخر يمنع جريمة التفرق فى الدين ، وجعل أهله أحزابا وشيعا متعادية غير مبالية بما ورد فيه من الوعيد الذى كاد يجعله كالكفر ، مادام كل منهم يعلم أن الآخر يؤمن بأن جميع ما جاء

به الرسول ﷺ من الدين حق ، وأن الخلاف محصور في اختلاف الفهم .

وما كفر بعض علماء السلف بعض منكرى الرؤية وغلاة التأويل لصفات الله تعالى وغيرها من النصوص إلا لاعتقادهم أنهم زنادقة لبسوا لباس الإسلام للإفساد ، وبث دعوة الالحاد ، والتجرئة على رد نصوص القرآن والسنن التي تلقاها الصدر الأول بالقبول أو تحريفها بالتأويل عما فهموه أو عما ثبت عندهم بالعمل إذ كانوا قدعلموا أن بعض اليهود كعبد الله بن سبأ و بشر المريسى و بعض المجوس ومن سلالتهم جهم بن صفوان قد بثوا في المسلمين دعوة الكفر أو البدع الداعية إلى النفاق ، أو المفضية إلى الشقاق ، فالامام أحمد كفر منكرى الرؤية من هؤلاء لاعتقاده فيما نرى أنها صادرة عن زندقة ، لا لأن هذا الانكار نفسه زندقة بحيث يرتد المسلم المؤمن بالنصوص كلها بقلبه ولسانه وعمله إذا فهم أن آيات نفى الرؤية هو الأصل المحكم الذى يرد إليه ما ورد من الآيات والأحاديث في إثباتها ، إذ الأول هو الموافق للعقل والنقل وهو التنزيه ، دون الآخر المستلزم عنده للتشبيه ، الواجب تأويله للجمع بين النصوص لا لرد شيء منها . وأهل السنة يعذرون المتأول وكذا الجاحد لما ليس مجمعاً عليه معلوما من الدين بالضرورة فلا يكفرونه بمخالفته للظواهر ، ولا يعدون البدعة من هذا القبيل مسقطة للعدالة في الرواية ، قالوا إلا إذا كان صاحبها داعية ، لأن الدعوة إلى أمر ديني لم يؤثر عن الصدر الأول احداث لفتنة وتفريق بين الموحدين كمسألة خلق القرآن ، فما القول في الدعوة إلى ما أثر عن الصدر الأول خلافه كالرؤية ؟ ثم ما القول في الدعوة إلى مخالفة النصوص القطعية التي لا تحتمل التأويل لغة ولا شرعا ومخالفة ما أجمع عليه المسلمون وهو معلوم من الدين بالضرورة كدعاوى الباطنية المعلومة ، ومثلها دعوى المسيحية القاديانية الهندية ، التي يلقب أهلها بالأحمدية ، أن رئيس نحلتهم ميرزا غلام أحمد القادياني هو المسيح المبشر بعودته إلى الدنيا في بعض الأحاديث ، وأنه كان يوحى إليه ، ونسخت فرضية الجهاد على لسانه فصار من الواجب على المسلمين عندهم أن يستسلموا للأجانب المستعبدين لهم ، السالبين لاستقلالهم المبطلين لشريعتهم ، ولا يجوز لشعب إسلامي عندهم أن يدافع بالقتال عن ملته ووطنه ، وإنما جعل القادياني هذا من أصول دينه خدمة للانكليز ، ولا يزال الباب مفتوحا عند أتباعه مثل هذا بزعمهم أن وحى النبوة متصل في خلفائه وأتباعه ، فالقول بهذا خروج من ملة الاسلام ، لا تنفع معه صلاة ولا زكاة ولا

حج ولا صيام ، وما أفضى إلى هذا الضلال المبين إلا التوسع في باب التأويل ،
فإن قيل : إن كلا من مثبتي رؤية الرب تعالى في الآخرة ونفاتها قد ادعى بعضهم أن النصوص التي يستدل بها على مذهبه قطعية ، حتى إن النافي جعل نصوص الاثبات دالة على النفي ، والمثبت جعل نصوص النفي دالة على الاثبات ، كقول بعض النفاة إن قوله تعالى (إلى ربها ناظرة) يفيد الحصر بتقديم الجار والمجرور على المتعلق أي تنظر إلى ربها وحده دون سواه كقوله (ألا إلى الله تصير الأمور) (وأن إلى ربك المنتهى) أي لا إلى سواه ، ولما كان عدم نظرها إلى غير ربها ممنوعاً عقلا ونقلا وجب حمل النظر على معناه الآخر وهو الانتظار بمعنى أنها لا تنتظر الخير من غيره (راجع الكشاف)

ويقابل هذا من بعض أهل الاثبات الاستدلال بقوله تعالى (لا تدركه الأبصار) على رؤيته تعالى من حيث إن الادراك معناه الاحاطة ، وإدراك الأبصار إنما احاطتها بالمرئي ، فنفي الادراك يستلزم إثبات رؤية الادراك فيها ، فكأنه قال لا تدركه الأبصار التي تراه وهو يدرك الأبصار التي يراها ويحيط بها . ونظيره قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) أي هو يحيط بهم علما لأنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم (والله من ورائهم محيط) وهم لا يحيطون به علماً لأن إحاطة المحاط به بالمحيط محال ، وهو يستلزم إثبات أصل العلم به لا نفيه ، كآية نفي إدراك الأبصار ، وكل منها جار على قاعدة معروفة في اللغة وهي أن نفي المقيد يقصد به إلى القيد وأن نفي وصف خاص لمعنى عام يستلزم إثبات ذلك العام ، كقولك : فلان لا يشبع — فانه إثبات للأكل ونفي للشبع .

هذا توجيه لهذا الاستدلال فتح الله تعالى به علينا وقد رأينا للشيخ تقي الدين بن تيمية توجيهاً آخر ملخصه أن الله تعالى ذكر هذه الآية في مقام التمدح وإنما يكون المدح بالأوصاف الثبوتية لا بالعدم المحض ، وما تمدح تعالى بأمر سلبي أو عدمي إلا إذا تضمن معنى ثبوتيا كنفي السنة والنوم المتضمن لكمال القيومية ونفي الموت المتضمن لكمال الحياة ونفي الشريك والظهير المتضمن لكمال الربوبية والالهية ، ونفي الشفاعة عنده إلا باذنه المتضمن لكمال توحيده وغناه عن خلقه ، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته . . قال فكذلك نفي إدراك الأبصار ليس معناه أنه لا يرى بحال ، لأن هذا يشاركه فيه العدم المحض والرب جل جلاله يتعالى أن يتمدح بما يشاركه فيه العدم المحض ، فالمعنى اذن أنه يرى

ولا يدرك ولا يحاط به - كنظائره - فقوله (لا تدركه الأبصار) يدل على غاية عظمته وانه أكبر من كل شيء ، وانه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به ،[1] فان الادراك هو الاحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية . ثم استدل على هذا المعنى لغة بما تستغنى عن ذكره بما أوردناه فى تفسير هذه الآية من سورة الأنعام فقد حققنا المعنى اللغوى للادراك وألممنا بمسألة الخلاف فى الرؤية ووعدنا بتفصيل الكلام فيها عند تفسير آية الأعراف التى نحن فى صدد تفسيرها الآن

(وجوابنا) عما ذكر ان هذه الدقائق اللغوية مما يخفى على أكثر علماء اللغة وكذا أهل السليقة أيضاً ولذلك اختلفوا فى معناها فكيف يقال فى شيء منها انه نص قطعى لا يحتمل التأويل ؟

وغرضنا من هذا التطويل ببيان حجج كل فريق اقناع أهل البصيرة فى الدين والاخلاص فى جمع كلمة المسلمين ، من المستقلين فى الفهم ، والراسخين فى العلم ، حتى المولودين فى مهود المذاهب ، والناشئين فى حجور الأحزاب والشيع ، أن يجتهدوا فى التوفيق والتأليف ، ومنع جعل هذه المسألة وأمثالها من أسباب التفريق ، فضلا عن جعلها من أسباب التكفير أو التفسيق ، وليعذرنا من يرانا نخالف فهمه أو مذهبه فى ترجيحنا المأثور عن جمهور السلف الصالح فيها وفى جميع أمور الدين ، ثم ليعذرنا اخواننا السلفيون فى تقريب مذهب السلف إلى العقول التى لا يرجى أن تهتدى به وتأخذه بالقبول إلا بإثباته بما ألفت من طرق الاستدلال ، وإيضاحه بما يقرب به إليها من ضرب الأمثال ، وقد سبق لنا تحقيق هذين الأمرين معا بفتوى نشرت فى ص ٢٨٢ - ٢٨٨ من المجلد التاسع عشر من المنار ، فيحسن أن تضاف إلى هذا البحث ، وان يلخص الموضوع فى قضايا معدودة تكون أضبط له وأجمع لما يحتاج إليه المسلمون منه فى دنياهم وآخرتهم ، وان كان فيه تكرار فان التكرار فى إيضاح الحقائق ضرورى

وانا نقدم بين يدى ذلك قضايا جامعة فى المسئلة وما ورد فيها من الأحاديث الصحيحة ، وأقوال السلف والخلف فيها .

---

(١) تعليلنا هنا لعدم ادراكه تعالى باحاطته بكل شيء اظهر وابعد عن الايهام من تعليل شيخ الاسلام اياه بعظمته سبحانه ، واظهر منه تعليل آية الاعراف نفسها اياه بلطفه تعالى ، وكل منهما صحيح ولكل منهما موقع - راجع ص ٥٦ ج ٧ تفسير

قضايا جامعة فى مسألة الرؤية .

(١) ان اثبات رؤية الرب تعالى فى الدار الآخرة المخالفة لهذه الدار فى شؤونها وشؤون أهلها وسنن الله تعالى فيهما بالقيود التى قيدها بها المثبتون لها من تنزيهه تعالى عن مشابهة خلقه — ليس من المحالات العقلية الثابتة بالضرورة والا لما وقع فيها خلاف ألبتة ، ولا بالبراهين العقلية التى تنتهى إلى الضرورة وإلا لارتفع الخلاف فيها بين حذاق النظار عند وصول البرهان إلى هذا الحد ، ولم يقع هذا ولا ذاك

(٢) ان الآيات القرآنية فيها ليست نصوصاً قطعية الدلالة فى الإثبات وحده ولا فى النفى وحده ، وإلا لما وقع الخلاف فيها ألبتة ، وقد وقع هذا الخلاف فيها بين قليل من السلف وكثير من الخلف ، ففهم عائشة لآية الأنعام ومجاهد لآية القيامة مخالف لرأى جمهور أهل السنة — فعلم أنها غير قطعية الدلالة بحيث لا تحتمل إلا أحد الوجهين ، فهى إذن ظنية والترجيح فيها بين ماظاهره الاثبات وماظاهره النفى محل الاجتهاد ، ولا شك فى أن كلا من المثبتين والنفاة يعتقد صحة ترجيحه نظراً واستدلالا ، أو اتباعاً وتقليدا . فالمسألة بينهما مشتركة الالزام ، فلا وجه لطعن أحد منهما فى دين الآخر ولا فى علمه بها .

(٣) ان فى الأحاديث الصحيحة من التصريح فى اثبات الرؤية مالا يمكن المراء فيه ولكن المراد من هذه الرؤية غير قطعى ، وفيها ما قد يدل على عدم الرؤية ، فيأتى فيها الخلاف بين السلف والخلف حتى من المنسوبين منهم إلى السنة ، كالأشعرية بين التفويض والتأويل ، لأنها بحسب اصطلاحهم من النصوص الموهمة للتشبيه ، وقد قال صاحب جوهرة التوحيد من الأشعرية :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

(٤) ان جمهور السلف والحنابلة وأكثر أهل الحديث يفوضون فى جملة النصوص الواردة فى صفات الله تعالى وشؤونه وأفعاله بمعنى انهم يمرونها كما جاءت من غير تحكم فى تأويل يخرجها عن ظواهر معانيها وينزهونه سبحانه عن مشابهة خلقه فيما أطلق عليهم من مثل تلك الألفاظ الدالة على تلك الصفات والشؤون والأفعال ، وان جمهور الخلف من سائر الفرق يتأولون ما عدا صفات المعانى ، كالعلم والقدرة والارادة حتى الأشعرية من أهل السنة ، وإنما تراهم أقرب إلى السلف فى المسائل الكبرى التى اختلفوا فيها مع المعتزلة كالكلام

الإلهي ورؤية الرب سبحانه وتعالى . وقد شنع بعضهم على الحنابلة بأشد مايشنعون به على المعتزلة ، ولكنهم لاتفاقهم على كون أحمد بن حنبل من كبار أئمة السنة يسلونه ممن يشنعون عليهم من أتباعه سلا، ويبرؤنه من أقوالهم فرعا وأصلا

(٥) إن من أصح الشواهد على ماذكرنا في هذه القضايا العامة مارواه الشيخان عن مسروق عن عائشة واللفظ لمسلم قالت « ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت: ماهن؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال مسروق: وكنت متكئا فجلست فقلت : ياأم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني . ألم يقل الله عز وجل (ولقد رآه بالأفق المبين) (ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلقه الله عليها إلا هاتين المرتين . رأيته منهبطا من السماء سادّاً عظم خلقه مابين السماء إلى الأرض . فقالت أو لم تسمع أن الله يقول (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) أو لم تسمع أن الله يقول (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه مايشاء إنه علي حكيم) ؟ قالت : ومن زعم أن محمداً ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول (قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب إلا الله)

فعائشة وهي من أفصح قريش تستدل بنفي الإدراك على نفي الرؤية مع ما علم من الفرق بينهما ، وتستدل على نفيها أيضا بقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) وقد حملوا هذا وذاك على نفي الرؤية في هذه الحياة الدنيا ، ولكن إدراك الأبصار للرب سبحانه محال في الآخرة كالدنيا ، والتعليل الصحيح لمثبتي الرؤية في الآخرة دون الدنيا أن البشر لايقوى خلقه الدنيوي المعد للفناء ولا يطيق رؤية الرب تعالى كما تقدم ، ويقويه بعض الشواهد الأخرى ، وفيه بحث ذكرناه في الفتوى .

(٦) ومنها مارواه مسلم من حديث أبي موسى (رض) قال « قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال (١) ان الله عز وجل لاينام ولا ينبغي له أن ينام (٢) يخفض القسط ويرفعه (٣) يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار ،

وعمل النهار قبل عمل الليل (٤) حجابه النور — وفي رواية النار (٥) لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه »[1] والمعنى أن النور العظيم هو الحجاب الذى يحول بينه وبين خلقه وهو بقوته وعظمته ملتهب كالنار ، ولذلك رأى موسى عليه السلام عند ابتداء الوحي ناراً في شجرة توجه همه كله اليها فنودى الوحي من ورائها وفي التوراة أن الجبل كان في وقت تكليم الرب لموسى عليه السلام وإيتائه الألواح مغطى بالسحاب « وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل امام عيون بني اسرائيل » (خرو ٢٤ : ١٧)

ورأى النبي الخاتم الأعظم ﷺ ليلة المعراج نورا من غير نار وربما كان هذا أعلى ولكنه كان حجابا دون الرؤية أيضاً ، فقد سأله أبو ذر (رض) « هل رأيت ربك ؟ فقال : نور ، أنى أراه ؟ » وفي رواية أخرى « رأيت نوراً » ومعناهما معاً رأيت نوراً منعني من رؤيته لأنه تعالى نور ، وانه لذلك لايرى ، وهذا يتلاقى ويتفق مع قوله « حجابه النور » ولذلك جعلنا أحاديث النور شاهدا واحدا في موضوعنا . وهي تدل على عدم رؤية ذات الله عز وجل وامتناعها كما تمتنع رؤية شيء تكون الشمس دونه حجابا له ، فمن ذا الذى تنفذ أشعة نور بصره من نور الشمس ونارها إلى ماوراءها فتبصره ؟ وما هذه الشمس التي يراها على بعد قدّره علماء الهيئة الفلكية بأكثر من تسعين مليون ميل وسائر الشموس الكثيرة التي يرونها بالمناظير المقربة للأبعاد والتي لايرونها إلا بعض ماأفاضه تعالى من النور على خلقه وهو نور السموات والأرض وسبحات نور وجهه أعظم وأقوى ، وأجل وأعلى ، فلا تذكر معها أنوار الشموس إلا من باب ضرب المثل الذى ورد (ولله المثل الاعلى)

وقوله ﷺ « لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » يدل على أن رؤية ذاته عز وجل رؤية إدراك مما يمتنع على جميع

---

(١) قول أبي موسى (رض) قام فينا بخمس كلمات معناه انه قام بهم مرة أو ليلة يعلمهم فيها هذه الكلمات الخمس ويشرح لهم معانيها ، والقسط كما في نهاية ابن الاثير ميزان أعمال العباد المرتفعة اليه أو أرزاقهم النازلة من عنده أي يرفع درجات أعمال بعض العاملين وهم الصالحون المصلحون ويخفض درجات آخرين وهم اضدادهم — أو يزيد وينقص في الارزاق كالوزان الذى يزن لكل مشتر بقدر ماله . فالكلام تمثيل ، وسبحات وجهه نوره وبهاؤه وجلاله ، قاله النووى .

الخلق حتى الملائكة فى الملأ الأعلى لا فى الدنيا فقط ، لأن الوجه يعبر به عن الذات وفسروا وجه الله بذاته وإن كان فى أصل اللغة مايواجه به الشخص غيره وفيه معارفه أى مايعرف به ويمتاز عن غيره . ومعنى الجملة أنه تعالى لو كشف عن وجهه حجاب النور المخلوق الذى هو منتهى مايصل اليه أكمل البشر عند ارتقائهم إلى أعلى درجات المعرفة والعلم به عز وجل ، وتجلى سبحانه للخلق كافة بدون هذا النور الذى يحجبهم عنه ، لأحرقت سبحاته ما انتهى اليه بصره منهم ، أى لأحرقتهم كلهم فان بصره تعالى محيط بكل موجود فى العالم كله من سمائه وأرضه ، وهو ضرب مثل خلاصته أن آخر مايصل اليه العلم هو اكتشاف الحجاب الأخير الذى هو الفاصل بين المخلوق والخالق وهو النور الذى هو مبتدأ التكوين ، ومصدر التطور والتلوين

قال الله تعالى (مالكم لا ترجون لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً) وخلق الناس وكذا سائر المخلوقات أطواراً قد فصل فى علوم سنن الله فى التكوين ، فنى خلق الانسان من ذكر وأنثى أطوار ، وفى خلقه قبل ذلك من سلالة من طين أطوار . وفى التكوين الأول للأرض التى خلق منها أطوار ، وهى بعد المادة التى خلق منها السموات والأرض المشار اليها بقوله (أولم يرى الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى)وقوله(ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) الخ ، والظاهر أن هذه المادة المعبر عنها أو المشبهة بالدخان فى هذه الآية هى المشبهة للغمام المشابه للدخان فى قوله تعالى(هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة)فهذا كلام عن إعادة الخلق يوم القيامة وهى النشأة الأخرى ، وذاك كلام فى بدئه وهى النشأة الأولى ، وقد قال تعالى (٢٩ : ٢٠ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) وقال (١٩ : ١٠٤ كما بدأنا أول خلق نعيده)

إذا تذكرت هذا فاعلم أن كل مايشغل الانسان عن معرفة الله تعالى ومراقبته من أطوار الخلق وشؤونه فهو حجاب له عنه فالحجب بين العبد والرب كثيرة وطوبى لمن آمن وعرف أن له ربا وأن هذه المخلوقات حجب دونه ، وأنه فوقها بائن منها لاتشبهه ولا يشبهها ، فانها حينئذ قد تكون من وسائل معرفته وشكره ومحبته . ولا تكون حجبا إلا دون إدراك كنهه وحقيقته ، وأن من الناس من تكون حجبا له دون

الإيمان والمعرفة ، وسيأتى الفرق بين الفريقين فى شاهد آخر . وقد روى الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس (رض) مرفوعا «سألت جبريل هل ترى ربك؟ قال إن بينى و بينه سبعين حجابا من نور، ولو رأيت أدناها لاحترقت» ورواه عنه سمويه بلفظ « سبعين ألف حجاب من نور ونار » وفى النهاية لابن الأثير أن جبريل عليه السلام قال « لله دون العرش سبعون حجابا لو دنونا من أحدها لاحرقتنا سبحات وجه ربنا » وهذه الروايات صحيحة المعنى و إن كانت ضعيفة الاسناد لما يؤيدها من الصحاح . وعلماء الهيئة الفلكية يرون بما اكتشفوه بمناظرهم المكبرة عياناً أن أكثر هذه النجوم التى نراها أو ماعدا الدرارى والأقمار منها كلها شموس منها ما هو أعظم من شمس عالمنا هذا وأبعد منها بسنين كثيرة من سنى سير النور الذى يقطع بهزهاء مائة مليون ميل فى أقل من عشر دقائق ، والنصوص تدل على أنها كلها دون العرش

(٧) ومنها مارواه الشيخان من حديث أبى موسى الأشعرى مرفوعا « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، ومابين القوم و بين أن ينظروا الى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» قالوا : إن الرداء هنا بمعنى الحجاب الذى ذكر آنفاً ، وقد جعلوه من باب الاستعارة ولا إشكال فى التعبير و إنما الحديث صريح فى عدم رؤية الذات بدون حجاب. وقال الحافظ ابن حجر فى شرحه من الفتح نقلا عن الكرمانى بعد عده من المتشابهات : ظاهره يقتضى أن رؤية الله غير واقعة وأجاب (أى الكرمانى) بأن مفهومه بيان قرب النظر إذ رداء الكبرياء لا يكون مانعاً من الرؤية، فعبر عن زوال المانع عن الأبصار بإزالة الرداء ـ وحاصله أن رداء الكبرياء مانع عن الرؤية فكأن فى الكلام حذفا تقديره بعد قوله «إلا رداء الكبرياء» فانه يمن عليهم برفعه ...الخ ماقاله ـ وفيه من التكلف مالا ينبغى لحفاظ السنة الاعتداد به وهم ينكرون على الجهمية والمعتزلة مثله وما هو أمثل منه من تأويلاتهم .

ثم إن الحافظ ابن حجر اعتمد فى تأويل الحديث جعل رداء الكبرياء هنا عين الحجاب فى حديث صهيب الذى أخرجه مسلم بعد حديث أبى موسى هذا وكأنه أراد تفسيره به — ورواه الترمذى والنسائى وغيرهما أيضا وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله عز وجل : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟

قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » وفى رواية زيادة : تلا (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وفيه أن أهل الجنة هؤلاء لم يكونوا يعلمون أنه سبحانه يرى بدون حجاب وان رؤيته فى الموقف وملاقاته كانت مع الحجاب ، كهذه الملاقاة فى الجنة عند سؤالهم عما يطلبون من زيادة النعيم

ولقائل أن يقول أيضا : إننا إذا قطعنا بأن المراد بهذا الحجاب رداء الكبرياء المذكور فى الحديث الذى قبله وأنه كان المانع من النظر فلا يمكننا أن نقول إنه هو حجاب النور المانع من الرؤية فى الأحاديث الأخرى ، والنظر غير الرؤية ، فيمكن أن يقال : إن رداء الكبرياء الذى كان مانعا من النظر يكشف فيقع النظر فيرى الناظرون النور الذى رآه النبى (ص) وأخبر أنه كان المانع من رؤية الذات . وسيأتى تحرير هذا البحث

(٨) ــ ومنها ماورد فى تجليه سبحانه فى الصور ، وأقواها وأصحها حديثا أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى (رض) الطويلين فى الصحيحين وغيرهما ، ومحل الشاهد فيه أن ناسا قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال: هل يضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا لا يا رسول الله قال « فانكم ترونه كذلك : يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تعالى فى صورة غير صورته التى يعرفون فيقول : أنا ربكم . فيقولون نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه . فيأتيهم الله تعالى فى صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا فيتبعونه » اهـ المراد منه ويليه ذكر الصراط والجواز عليه والنار والحساب الخ وهذا لفظ مسلم عن أبى هريرة ، وفى لفظ [البخارى « هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ » وذكر بعدها القمر

وفى حديث أبي سعيد تشبيه رؤية الرب تعالى برؤية الشمس فى الظهيرة والقمر ليلة البدر أيضا ، أى فى كونه لا مضارة فيه ولا فى التزاحم عليه — لا تشبيه المرئى بالمرئى — وفيه ذكر من عبد العزير والمسيح ودخول كل من عبد غير الله النار ويقول (ص) بعده « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى فى أدنى صورة من التى رأوه

فيها قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا يا ربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا ـ مرتين أو ثلاثا ـ حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول : هل بينكم و بينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة فقال أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا » الحديث وفيه ألفاظ أخرى فى الصورة ، ستأتى فى آخر الكلام عليه

وهذا لفظ مسلم أيضاً و يخالفه لفظ البخارى فى بعض التعبير ورواهما غيرهما بألفاظ توافق كلا منهما وتخالفه بتعبير أو زيادة أو نقصان والمعنى العام واحد ، فمن أمثلة اختلاف اللفظ رواية « فيكشف عن ساقه » وهى لا تعارض رواية « فيكشف عن ساق » الموافقة للفظ القرآن (يوم يكشف عن ساق و يدعون إلى السجود فلا يستطيعون) ولكن تنكير الساق و إسناده كشفه إلى المفعول اوسع مجالا للتأويل من اضافته إلى الرب تعالى و إسناده كشفه إليه فهو كالتشمير عن الساعد مثلان فى كلام العرب للجد والاهتمام وشدة الخطب ، وسبب الأول أن من يريد الفرار من شىء مخوف يكشف عن ساقه ليسهل عليه العدو السريع فلا يتعثر بثوبه وسبب الثانى أن من يريد أن يعمل عملا باتقان وسرعة يشمر عن ذراعيه حتى لا يعوقه كماه ، وفى مجاز الأساس قامت الحرب على ساقها ، وكشف الأمر عن ساقه . قال :

عجبت من نفسى ومن اشفاقها ومن طرادى الطير عن أرزاقها
فى سنة قد كشفت عن ساقها اهـ

أقول : فخرج بعضهم عبارة الحديث على هذا الاستعمال بمعنى أن أمر امتحان الله تعالى للناس والتزييل بين المؤمنين والمنافقين ينتهى إلى آخر حده بتيسيره جلت حكمته السجود للمؤمنين دون المنافقين . وذهب بعضهم إلى أن لفظ الساق ورد بمعنى الذات والنفس ، واستشهدوا له بقول أمير المؤمنين على رضى الله عنه فى حرب الشراة « لا بد من قتالهم ولو تلفت ساقى » قالوا أى نفسى وعليه يصح أن يكون كشف الساق فى الآية والحديث عبارة عن كشف

الحجاب ويخرج عليه مارواه عبد بن حميد عن الربيع بن أنس فى تفسير (يوم يكشف عن ساق) قال : عن الغطاء فيقع من كان آمن به فى الحياة الدنيا فيسجدون له . ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون لأنهم لم يكونوا آمنوا به فى الحياة الدنيا ولا يبصرونه. والأول أقرب إلى أساليب اللغة وعليه ابن عباس وجمهور مفسرى السلف ، قال ابن عباس فيما روى عنه من طرق (يوم يكشف عن ساق) عن شدة الأمر وجده ، هى أشد ساعة تكون يوم القيامة ، حتى يكشف الله الأمر وتبدو الأعمال . وقال : هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة . وسئل عكرمة عن الآية فقال : ان العرب كانوا إذا اشتد القتال فيهم والحرب وعظم الأمر فيهم قالوا لشدة ذلك : قد كشفت الحرب عن ساق ، فذكر الله شدة ذلك اليوم بما يعرفون . وهذا من التفسير الجلى ، لا من التأويل الخفى بالمعنى الأصولى ، وأما تأويله بالمعنى اللغوى أى ما يؤول اليه و يتحقق به فى الآخرة فلا يعلمه البشر إلا إذا وصلوا اليه .

وقد بين البيضاوى أصلا آخر لكشف الساق تتجه به رواية عبد بن حميد فى جعله بمعنى كشف الحجاب فنذكره مع عبارته فى المعنى الآخر الذى عليه الجمهور لحسن بيانه له وهما قوله فى تفسير (يوم يكشف عن ساق) : يوم يشتد الأمر و يعظم الخطب. وكشف الساق مثل فى ذلك وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب قال حاتم:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

أو يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عيانا ، مستعار من ساق الشجر وساق الانسان ، وتنكيره للتهويل أو التعظيم اهـ

ومن ألفاظ الحديثين التى اضطرب فيها العلماء مسألة الإتيان فى الصور المختلفة ، وإنكار المؤمنين له فى بعضها ومعرفته فى بعض فاختلفوا فى تفسيرها وتأويلها ، فمنهم من أبعد النجعة ومنهم من قارب ، قال بعض المؤولين المراد بإتيانه تعالى رؤيته ــ أقول ولكن الإتيان كالرؤية فى إيهام التشبيه ، فلم يخص دونها بالتأويل ؟ وقال بعضهم يأتى ملك بأمره لامتحانهم ، ولكن جاء فى بعض النصوص الجمع بين إتيان الرب و إتيان الملك فيمتنع أن يفسر الأول بالثانى كقوله تعالى (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتي بعض آيات ربك) وقوله (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) على وجه . فمخالفة ظاهر

الحديث للهرب من إسناد الإتيان إلى الرب لا حاجة اليه مع هذا ـ فالأولى قول جمهور السلف إنه إتيان يليق به ، لا كاتيان الخلق

وقد اختلفوا في معنى الصورة وأولوها أيضاً ، والاظهر أنها عبارة عما يقع به التجلي من حجاب ومنه رداء الكبرياء الذى سبق الكلام فيه ، وقد ورد لفظ الصورة فى عدة روايات فى الصحيحين لحديثى أبى هريرة وأبى سعيد

(منها) كما تقدم من حديث ابى سعيد « أتاهم رب العالمين سبحانه فى أدنى صورة من التى رأوه فيها » (ومنها) «فيأتيهم الله فى غير الصورة التى يعرفون» (ومنها) «فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة » (ومنها) « ثم يتبدى الله لنا فى صورة غير صورته التى رأيناه فيها أول مرة » وفى رواية هشام بن سعد « ثم نرفع رءوسنا وقد عاد لنا فى صورته التى رأيناه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم . فنقول نعم أنت ربنا » وفى رواية الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عند ابن منده «فيتمثل لهم ربهم »

ذكر النووى فى شرحه لحديث أبى هريرة من صحيح مسلم مذهب السلف فى أمثال هذه الألفاظ والصفات وهو الإيمان بها وحملها على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع التنزيه كما تقدم، ثم مذهب جمهور المتكلمين القائلين بالتأويل ومنه أنه يجيئهم ملك فى صورة ينكرونها لما فيها من صفة الحدث ولا تشبه صفات الإله ليمتحنهم « فاذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة : أنا ربكم ـ رأوا عليه من علامات المخلوق ماينكرونه و يعلمون أنه ليس ربهم فيستعيذون بالله منه » وقال فى شرح «فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون» : المراد بالصورة هنا الصفة ، ومعناه فيتجلى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التى يعلمونها و يعرفونه بها و إنما عرفوه بصفته وان لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لأنهم يرونه لا يشبه شيئا من مخلوقاته فيعلمون أنه ربهم فيقولون أنت ربنا ، و إنما عبر بالصورة عن الصفة لمشابهتها إياها ولمجانسة الكلام فانه تقدم ذكر الصورة اه وذكر الحافظ فى الفتح تأويلات أخرى عن القرطبي والقاضى أبى بكر بن العربى من المالكية وابن الجوزى من الحنابلة تقرب مما اعتمده النووى

وغرضنا من هذه النقول بيان أن أهل السنة قد أولوا بعض أحاديث الرؤية كما أولت المعتزلة والخوارج والشيعة فلا مقتضى للتعادى والتفرق فى الدين لأجل التأويل ، و بعض هذه التأويلات أعرق فى التكلف من بعض ، وماساغ

في بعض الروايات لا يسوغ في البعض الآخر . وإذا كان الغرض من التأويل تقريب المعاني إلى الأذهان حتى لا يبقى مجال واسع للتشكيك في النصوص فان الوقفين على علوم هذا العصر وفنونه قد يحتاجون إلى مالم يكن يحتاج إليه من قبلهم، وقد بينا في مسألة الرؤية مااشتدت اليه الحاجة في فتوى المنار التي أشرنا إليها في هذا البحث وفي مسألة الكلام الألهي مافسرنا به الآيات التي سبقت فيه وسنزيد ذلك هنا ، وسنذكر الفتوى بنصها

(٩) اختلف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج بين إثبات ونفي ووقف ، واختلف المثبتون في الرؤية هل هي بعين البصر أم بعين القلب والبصيرة ؟ كما اختلفوا في المعراج نفسه هل كان يقظة أم مناماً أم مشاهدة روحية بين اليقظة والنوم لاختلاف الروايات عن الصحابة والتابعين (رض) فيها ولما ورد في الأحاديث المتعارضة في المسألة عاماً وخاصاً . والتحقيق أنه قد وردت أحاديث مرفوعة صحيحة في النفي دون الاثبات كحديث « نور أنى أراه؟ » المتقدم في النفي الخاص به ﷺ وكحديث « واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » رواه مسلم وكذا ابن خزيمة عن أبي امامة وعبادة بن الصامت

أما الصحابة ، فاشتهر الاثبات عن ابن عباس منهم وروى عن أنس أيضا وأخذ به بعض التابعين وقبله بعض المحدثين والمتكلمين الذين لا يدققون في تمحيص روايات الفضائل والمناقب . واشتهر المنع عن عائشة والرواية عنها فيه أصح وأصرح ، وتقدم مارواه الشيخان عن مسروق عنها فيه ، وفي بعض رواياته أن مسروقا لما سألها هل رأى محمد ربه؟ قالت له : لقد قف شعري مما قلت . وروى النفي عن آخرين من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو هريرة وغيرهما ، وأما المحدثون الذين عنوا بالتعادل والترجيح والجمع بين الروايات فمنهم من نظر فيها لاثبات ماسبق إلى اعتقاده ومالت اليه نفسه كالحافظ ابن خزيمة وتبعه النووي فرجحا رواية ابن عباس على رواية عائشة التي هي اصح سندا وأقوى دليلا بحجة أنها لم تنف الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته وانما اعتمدت على الاستنباط فتأولت آية (لاتدركه الأبصار) وآية (وماكان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا) الخ وقد غفلا عما لم يجهلا من حديثها في الصحيحين وقولها لمسروق لما احتج عليها بدلالة آية سورة النجم على رؤيته ﷺ لربه انها اول من سأله ﷺ عن هذه الآية وتقدم لفظها في رواية الصحيحين ،

وفيه رواية أخرى أصرح في المراد وهي ما أخرجه ابن مردويه باسناد مسلم قالت « انا أول من سأل رسول الله ﷺ عن هذا ، فقلت يارسول الله هل رأيت ربك؟ فقال لا، انما رأيت جبريل منهبطا » الخ

ومنهم من نظر في الروايات لأجل التمحيص وتحقيق الحق فيها كشيخ الاسلام ابن تيمية والحافظ ابن حجر فبينا ان الروايات عن ابن عباس بعضها مطلق وبعضها مقيد بالرؤية القلبية لاالبصرية فاذا حكمت فيها قاعدة حمل المطلق على المقيد زال التعارض بينها وبين حديث عائشة ومافي معناه

قال الحافظ في شرح البخاري : جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة ، فيجب حمل مطلقها على مقيدها، فمن ذلك ماأخرجه النسائي بسند صحيح وصححه الحاكم من طريق عكرمة عنه « أتعجبون أن تكون الخلة لابراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد؟ » وأخرجه ابن خزيمة بلفظ « ان الله اصطفى ابراهيم بالخلة » الخ وأخرج ابن اسحق من طريق عبدالله بن أبي سلمة ان ابن عمر أرسل إلى ابن عباس «هل رأى محمد ربه؟ فأرسل اليه أن نعم» (ومنها) ماأخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس «رض» في قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى ـ ولقد رآه نزلة أخرى) قال رأى ربه بفؤاده مرتين، وله من طريق عطاء عنه قال رآه بقلبه وأصرح منه ماأخرجه ابن مردويه عنه من طريق عطاء أيضا قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينه إنما رآه بقلبه اه ملخصا ؛ وقد روى الترمذي عن الشعبي ان ابن عباس (رض) سمع حديث قسمة الكلام والرؤية بين موسى ومحمد ﷺ من كعب الأحبار في عرفة !!

فعلم مما تقدم ان ماروى عن ابن عباس من الإثبات هو الذي يصح فيه ماقيل خطأ في نفي عائشة: انه استنباط منه ولم يكن عنده حديث مرفوع فيه، وأنه على ماصح عنه من تقييده بالرؤية القلبية معارض مرجوح بماصح من تفسير النبي ﷺ لآيتي سورة النجم وهو انهما في رؤيته ﷺ لجبريل بصورته التي خلقه الله عليها على ان رواية عكرمة عنه لايبعد أن تكون مما سمعه من كعب الأحبار الذي قال فيه معاوية « ان كنا لنبلو عليه الكذب » كما في صحيح البخاري ورواية ابن اسحق لايعتد بها في هذا المقام فانه مدلس وهو ثقة في المغازي لافي الحديث ـ فالاثبات المطلق عنه مرجوح رواية كما هو مرجوح دراية

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : ان ابن عباس « رض» لم يقل انه ﷺ رأى ربه بعينى رأسه يقظة ومن حكى عنه ذلك فقد وهم وهذه نصوصه موجودة ليس فيها شىء من ذلك . وقال : ما نقل عن الإمام أحمد من اثبات رؤية النبى ﷺ لربه انما يعنى رؤية المنام فانه سئل عن ذلك فقال نعم رآه فان رؤيا الأنبياء حق . ولم يقل انه رآه بعينى رأسه . وقال بعد ذكر ماتقدم عن ابن عباس : ولفظ الإمام أحمد كلفظ ابن عباس ، وأهل السنة متفقون على أن الله تعالى لا يراه أحد بعينيه فى الدنيا لا نبى ولا غيره ولم يقع النزاع إلا فى نبينا ﷺ خاصة مع أن الأحاديث المرفوعة ليس فى شىء منها أنه رآه وانما روى ذلك باسناد موضوع باتفاق أهل الحديث اه .

فتوى المنار المشار إليها آنفا (من ص٢٨٢ م ١٩)

﴿ التحقيق فى مسألة رؤية الرب سبحانه وتعالى ﴾

إن من أصول العقائد القطعية المعلومة من الدين بالضرورة أن نعيم الآخرة قسمان روحانى وجسمانى لأن البشر لا تنقلب حقيقتهم فى الآخرة بل يبقون بشرا أولى أرواح وأجساد ، ولكن الروحانية تكون هى الغالبة على أهل الجنة ، فيكون النعيم الروحانى عندهم أعلى من النعيم الجسمانى . ومن الثابت بالاختبار والتجارب أن العلماء الراسخين والحكماء الربانيين والفلاسفة الماديون[1] والرؤساء السياسيون ـ كلهم يفضلون اللذات العقلية الروحية والحياة المعنوية ، على اللذات المادية الجسدية ، فترى أحدهم يزهد فى أطايب الطعام ، وكؤوس المدام .

(١) أى وكذا الفلاسفة الماديون : وهو استعمال يعد بليغا إذا كان لما رفع خصوصية فى السياق ككون الماديين هنا مظنة لمخالفة الروحيين . ومنه قوله تعالى فى سورة المائدة (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) الخ ويقابل هذا الاستعمال فى نصب ماهو فى مقام الرفع مانصب على الاختصاص أو المدح والذم وهو أكثر فى الاستعمال ومنه قوله تعالى (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) الخ والغرضان المقتضيان لتغيير النسق فى مثل الآيتين من مقاصد بلاغة اللغة فيجب أن يكونا قياسيين وان كان النقل فى الأول قليلا لعدم فطنة رواة اللغة له

ويتجافى جنبه عن مضجعه،ذاهلا عن حقوق حليلته ، تلذذا بحل مشكلات المسائل واكتشاف أسرار الكون ، أو بالنفث فى عقد السياسة ، وماتقتضيه أعباء الرياسة

ألا وإن أعلى العلوم العقلية والمعارف الروحية فى هذه الدنيا هو معرفة الله سبحانه وتعالى والعلم بمظاهر أسمائه وصفاته فى خلقه والوقوف على سننه وأسراره فيها ، وكشف الحجب عما أودع فيها من الجمال والجلال ، وفى النظام الذى قامت به من آيات الكمال ، التى هى مجلى صفات بارئها وهو منتهى الجمال والجلال والكمال ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

وما زال أصحاب الهمم العالية من العلماء والحكماء يستدلون بما ظهر لهم من تلك السنن والآيات على كمال مبدعها ومبدئها ومصرفها ، وتتطلع عيون عقولهم إلى كيفية صدور الوجود الممكن الحادث، (وهو مجموع هذه العوالم العلوية والسفلية) عن الوجود الأزلى الواجب ، ويهتمون بارتقاء الأسباب للوصول إلى معرفة أول موجود ممكن منها ، وكيف ابتدأت سلسلة الأسباب بعد ذلك بتحول البسائط وتولد بعضها من بعض ، قبل وجود هذه المركبات المعروفة من السماء والأرض ، طمعا فى معرفة حقيقة ذلك الوجود الأعلى على عجزهم عن إدراك كنه أدنى هذه الموجودات السفلى ، وقد اختلف الحكماء فى إمكان وصول العلم البشرى ، إلى حقيقة الوجود الأول الأزلى، وكيفية صدور الموجودات الممكنة عنه ، فقال بعضهم بامكان ذلك وتوقع حصوله فى يوم من الأيام ،وقال آخرون بأنه فوق استعداد الأنام

والحق فى ذلك ماهدانا إليه دين الله الحق ، وهو أن أدراك أبصار الخلق له سبحانه وتعالى و إحاطة علمهم به من المحال الذى لا مطمع فيه(لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) ولكن العجز عن الادراك والاحاطة ، لا يستلزم العجز عما دون ذلك من العلم والمعرفة ، التى ترتقى إلى الدرجة التى عبر عنها بالتجلى والرؤية ، فان كانت ظواهر الآيات فى ذلك متعارضة ، فالأحاديث والآثار الصحيحة المبينة له جلية واضحة ، و إنما وقع المراء بين المتكلمين والمتفلسفين و بين علماء الآثار

فى كلمة « الرؤية » فأثبتها أهل الأثر لدلالة ظواهر القرآن ونصوص الأحاديث عليها ، ومنعوا قياس رؤية البارى تعالى على رؤية المخلوقات ، بدعوى استلزامها التحيز والحدود وغير ذلك من صفات الاجسام ، وقالوا إننا لانبحث فى كيفية ذاته ولا صفاته تعالى ، فاننا نجزم بأن له علما وقدرة وسمعا و بصرا ، ولكن علمه ليس ناشئا كعلمنا عن انطباع صور المعلومات فى النفس ، ولا مكتسبا له بالحواس أو الفكر ، وكذلك قدرته وسائر صفاته ، فنحن نجمع بين الإيمان بالنصوص فى أسماء الله وصفاته وأفعاله وسائر شؤونه ، و بين تنزيهه عما لايليق به من مشابهة خلقه ، الممنوعة بدلائل النقل والعقل ، كما قال عز وجل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

ونفاها (بعض) أهل الكلام والفلسفة بناء على قياس الخالق سبحانه وتعالى على المخلوق ودعوى منافاة الرؤية للتنزيه : الذى هو أصل العقيدة وركنها الركين. ولكنهم لايستطيعون إنكار الحقيقة التى أثبتها أهل السنة والجماعة إذا عبر عنها بغير لفظ الرؤية ، كأن يقال إن أعلى نعيم أهل الجنة لقاء الله تعالى بتجليه عليهم تجليا يحصل لهم به أعلى ما استعدت له أنفسهم وأرواحهم من المعرفة ، وإن أعظم عقاب لأهل النار حجبهم عن ربهم وحرمانهم من هذا التجلى والعرفان ، الخاص بدار الكرامة والراضون . فانهم لا يعتنون بتأويل مثل قوله تعالى فى المتقين (تحيتهم يوم يلقونه سلام) وقوله فى الكافرين (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) كما يعتنون بتأويل قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) بأن النظر معناه الانتظار والرجاء ، وما رد به بعضهم على بعض فى الآية يطلب من الكشاف والبيضاوى وحواشيهما وسائر كتب التفسير ومن كتب الكلام وشروح الأحاديث (*

وكم بين حذاق الجدال تنازع وما بين عشاق الجمال تنازع

ومن غرائب جدلهم أن كلا منهم يستدل على مذهبه بطلب موسى عليه السلام رؤية ربه وقوله تعالى (لن ترانى . .) الآية . فأهل السنة يستدلون

*) قد عدنا فبينا آنفا لباب الخلاف ، وأهم دلائل الفريقين مع الانصاف

على جواز الرؤية بسؤال الكليم إياها وعدم إنكار البارى تعالى عليه هذا السؤال كما أنكر على نوح عليه السلام سؤاله نجاة ولده الكافر بناء على أنه من أهله الذين وعده بنجاتهم — و بتعليق الرؤية على جائز وهو استقرار الجبل . والمعتزلة يستدلون بالآية على عدم الرؤية بعدم إجابة الكليم إليها وتعليقها على ما علم الله أنه لا يكون

و إذا كانت الآيات التى استدل بها كل فريق ليست نصا قاطعا فى مذهبه ففى الأحاديث المتفق عليها ما هو نص قاطع لا يحتمل التأويل فى الرؤية وتشبيهها برؤية البدر والشمس فى الجلاء والظهور وكونها لا مضارة فيها ولا تضام ولا ازدحام . وفى كتاب التوحيد من صحيح البخارى أحد عشر حديثاً فى ذلك ، وجمع ابن القيم فى (حادى الأرواح) ما ورد فى ذلك من الأحاديث فكان ثلاثين حديثاً . قال الحافظ ابن حجر عند اشارته إلى ذلك : وأكثرها جياد . وزاد ابن القيم ما ورد عن الصحابة والتابعين وأئمة علماء الامصار فى ذلك وحملهم إياه على ظاهره مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، ولكن بعض مثبتى الرؤية من أهل السنة اختلفوا فى معناها، فكان بعض ما قالوه تأويلا أبعد من تأويل المنكرين

قال الحافظ فى الكلام على تفسير (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) من شرح كتاب التوحيد من البخارى ما نصه : واختلف من أثبت الرؤية فى معناها ، فقال قوم: يحصل للرائى العلم بالله تعالى برؤية العين كما فى غيره من المرئيات وهو على وفق قوله فى حديث الباب « كما ترون القمر » إلا أنه منزه عن الجهة والكيفية ، وذلك أمر زائد على العلم . وقال بعضهم : ان المراد بالرؤية العلم، وعبر عنها بعضهم بأنها حصول حالة فى الإنسان نسبتها إلى ذاته المخصوصة نسبة الابصار إلى المرئيات . وقال بعضهم : رؤية المؤمن لله نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم ، وهذا أقرب إلى الصواب من الأول اهـ

ثم ذكر ما تعقب به من قال ان المراد بالرؤية العلم. و إنما قال فى القول الأخير انه أقرب إلى الصواب لما فيه من التفويض وعدم التحديد، وهذا المعنى هو الذى قال به الغزالى وأوضحه فى كتاب المحبة من الاحياء بما يعهد من قرأ الاحياء من بيانه وفصاحته

هذا وان احصاء ماورد فى هذا الباب مما استدل به على الرؤية اثباتا ونفيا من الآيات والاحاديث وسرد كلام المثبتين والنفاة وبيان الراجح منه والمرجوح يستغرق عدة أجزاء من المنار، ولن يرضى ذلك منا أكثر القراء [1] وجملة القول فى المسألة أن الآيات القرآنية ليس فيها نص قاطع لايحتمل التأويل، ولكن بعض الاحاديث الصحيحة والحسنة صريحة فى ذلك لا تحتمل التأويل، والمرفوع منها مروى عن أكثر من عشرين صحابيا، دع الموقوف والآثار، ولم يرد فى معارضتها شيء أصرح من حديث عائشة المتفق عليه عن مسروق قال« قلت لعائشة (رض) ياأمتاه هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة المعراج؟ فقالت: لقد قفَّ شعرى مما قلت! أين أنت من ثلاث، من حدثكهن فقد كذب، من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب - وفى رواية: فقد أعظم على الله الفرية - ثم قرأت (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب؛ ثم قرأت (وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثك أنه - أى النبي ﷺ - كتم شيئا من الدين فقد كذب، ثم قرأت (يأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك) — الآية - ولكن رأى جبريل فى صورته مرتين » اه

وقد ذكر النووى فى شرح مسلم أن عائشة لم تنف وقوع الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته، وانما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية وقد خالفها غيرها من الصحابة الخ وذكر الحافظ فى الفتح أنه قال ذلك تبعا لابن خزيمة ذاهلا عما ورد فى صحيح مسلم الذى شرحه، وذكر ان فى حديث مسروق عنده زيادة عما ذكرناه من لفظ البخارى وهى — قال مسروق « وكنت متكئا فجلست وقلت ألم يقل الله (ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت: أنا أول هذه الامة سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: إنما هو جبريل » الخ

فعلم من هذا ان عائشة تنفى دلالة سورة النجم على رؤية النبي ﷺ لربه بالحديث المرفوع وتنفى جواز الرؤية مطلقا أوفى هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله

(١) قد أوردنا فى المباحث المتعلقة بها آنفا اصح ماورد واقوى مافيه .

تعالى (لا تدركه الأبصار) وقوله (وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) ويعارض هذا الاستدلال انه ليس نصاً في النفي حتى يرجح على الأحاديث الصريحة في الرؤية، وقد قال بها بعض علماء الصحابة وقال بعض العلماء ان عائشة ليست أعلم عندنا من ابن عباس الذي أثبت الرؤية للنبي ليلة المعراج . وفي هذا القول بحث، فان ابن عباس استنبط إثبات الرؤية في الدنيا من الآيات وقد انفرد بذلك دون سائر الصحابة . وأما من روى عنهم إثبات الرؤية في الآخرة فليس فيهم أحد يقال انه أعلم من عائشة إلا والدها الصديق وعلى المرتضى وزيد بن ثابت وقد يذكر في طبقتها منهم العبادلة . ولكن الحديث عن أبي بكر وزيد ابن ثابت في هذا الباب ضعيف وعن على موضوع حتى ان ماروى عنها نفسها فيه أقوى سندا . ويقول النفاة: لو رأى النبي ﷺ ربه ليلة المعراج لما خفي نبأ ذلك عن عائشة مع ما علم من حرصها على العلم ، وسؤالها إياه عن آية النجم ؟ وقد يقول النفاة أيضاً: لو كانت الرؤية في الآخرة عقيدة يطالب المسلمون بالإيمان بها لما جهلتها عائشة . ولكن هذا القول لاينهض لمعارضة إثبات المثبتين لها بالأحاديث الصريحة ، وإنما قصاراه أن يعد دليلا على أن المسألة من أمور الآخرة التي كان يذكرها النبي ﷺ أحيانا لبعض الخواص إذ لا يضر العامة جهلها ، فلم يقصد أن تكون عقيدة يدعى إليها مع التوحيد .

وأحسن مايجاب به عن استنباط عائشة وأقواه عند المثبتين أن يقال : إنها تريد به نفي الرؤية في الدنيا كما قال بذلك الجمهور ولا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شؤونهم في الدنيا لان لذلك العالم سننا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى في الأمور المادية كالأكل والشرب والمأكول والمشروب ، فماء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره في مقره أوجوه ، وخمرها ليس فيها غول يغتال العقل ولا يصدَّعون عنها ولا ينزفون ، ولبنها لا يعتريه فساد ، ولا تخالطه جنة (ميكروبات) أمراض ، وكذلك فاكهتها وثمراتها هي على كونها أعلى وأشهى مما في الدنيا لاتفسد . قال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الاسماء . وكذلك أمزجة أهلها ، هي أصح وأسلم من أمزجة أهل الدنيا حتى إنهم يأكلون

ويشربون فيكون هضمهم بالتبخر ورشح العرق ، فى الحديث الصحيح أنه جشاء ورشح لها ريح المسك ، ولا عجب فى ذلك فان علماء العصر الذين يظنون أن فى كوكب المريخ أحياء عقلاء كالبشر يجزمون بأنهم لا بد أن يكونوا أ كبر منا أجساما وأسرع من الخيل العادية فى حركتهم العادية ، هذا وعالم المريخ لا يعرف فيه من الحياة الروحانية العالية مثل ما ورد فى حياة الجنة ، ولكن ماذكره علماء العصر فى شأنه يقرب تصور ماورد فى صفة الآخرة من الأذهان المقيدة بالمألوفات ، فان بعض الناس إنما ينكرون أخبار الآخرة لأنها مخالفة لما جدوا عليه من المألوفات ، ولو أنهم أخبروا بما اكتشف من أسرار الكون فى هذا العصر كخواص الكهرباء والراديوم قبل أن يصير مشهوداً مقطوعا به لما صدقوه . قال الله عز وجل فى بيان جزاء المؤمنين القائمين بأعمال الإيمان حق القيام (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) ووضح ذلك رسوله فى حديث قدسى رواه الشيخان فى صحيحهما عن أبى هريرة قال : قال ﷺ « قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وروى أهل الكتاب مثل هذا عن سيدنا عيسى ﷺ فاذا ثبت لنا أن كل ماورد فى دار الكرامة أعلى وأسمى مما فى الدنيا حتى الأجسام وصفات الناس وغرائزهم وأنه لا يشارك ما فى الدنيا إلا بالاسم ، الذى عبر عنه به لضرورة تقريب تلك المعانى الغيبية من الفهم ، فهل يصح بعد ذلك أن نعمد إلى أعلى ما هنالك من الشؤون الإلهية المعنوية فنشبهه بشؤون الدنيا ؟ فنجعل تجلي الرب سبحانه وتعالى لأولئك العباد المكرمين الذين رقاهم وكملهم وأهلهم لكمال معرفته تحيزاً ومشابهة للخلق ؟ ونجعل مايحصل لهم من ذلك التجلى من العلم الأكمل والمعرفة العليا التى تستغرق أرواحهم وجميع مشاعرهم الظاهرة والباطنة إدراكا لكنه الرب عز وجل وإحاطة علم به — تعالى عن ذلك — ثم نعذر أنفسنا على هذا الجهل بأن ذلك قد سمى رؤية ومعاينة ، ولا بد أن تكون الرؤية هنالك كرؤيتنا التى نعهدها هنا ؟

سبحان الله ! أيكون كل ماهنالك من أعيان المخلوقات وصفاتها وأحوالها مخالفا لما له اسمه منها هنا إلا مايتعلق بشأن الخالق عز وجل فهو الذى يجب أن

يكون مشابها لشؤون المخلوقين بعضهم مع بعض ؟ أهذا هو المذهب الذى يدعى أصحابه اتباع المعقول ، ويسخرون من أهل السنة بزعمهم أنهم جمدوا على بعض أحاديث الآحاد من المنقول ؟ وهم الذين قد جمدوا على مادون ذلك من الألفاظ العربية التى استعملت فى صفات البارى تعالى وشؤونه وأخبار عالم الغيب، فتراهم يصرفونها عن معانيها و يعطلون مدلولاتها المقصودة لتوهمهم أنها لاتكون صحيحة إلا إذا كانت مدلولاتها فى عالم الغيب كمدلولاتها فى هذا العالم من كل وجه . ثم تحكموا فأثبتوا بعض صفات البارىء تعالى بدون تأويل كالعلم والقدرة والارادة ، وهذا عين التشبيه ، وأولوا أكثرها كالكلام والرحمة والمحبة والغضب والرضاء والعلو والوجه واليدين الخ وهذا عين التعطيل — وأهل السنة يثبتون له تعالى كل ماأثبته لنفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ و ينزهونه فيه كله عن مشابهة خلقه، ولايرون فرقا بين العلم والرحمة والكلام فكلها من صفات الكمال الثابتة له مع التنزيه — فعلمه ليس كعلم البشر منتزعا من صور المعلومات بالحس أو الفكر — وكلامه ليس كيفية عرضية يحصل بتموج الهواء بتأثير الصوت الذى يخرج من الفم — وكذلك سائر صفاته وشؤونه تعالى . فتجليه لخواص خلقه فى دار كرامته ليس كظهور بعضهم لبعض ، وما يحصل لهم من رؤيته ومعرفته وسماع كلامه لا يشابه مايكون من بعضهم لبعض

و إذا كنا قد عرفنا بالمشاهدة فى عالم الحس أن إيقاد مصباح زيت الزيتون أو زيت البترول لايشبه إيقاد مصباح الكهرباء بوجه من الوجوه ولا يشترط فى الثانى مايشترط فى الأول - ونجزم بأن هذا الفرق لا يمكن أن يتصوره من لم يعرف الكهرباء ألبتة - فيجب علينا أن لانستغرب ماهو أبعد من هذا الفرق بين عالم الغيب والشهادة فى اختلاف الكيفية لحقيقة واحدة كالرؤية . ومن كان له حظ من معرفة الله تعالى فى الدنيا لا يحتاج إلى الامثال ، وحسب المحروم منها أن ينتفع بالأمثال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون).

﴿ انتهت الفتوى ﴾

﴿ خلاصة وتتمة تزيد المسألة وضوحا ، ومذهب السلف ثبوتا ﴾

(١) الرؤية ليست من أصول الإيمان القطعية

قد علم مما تقدم أنه ليس فى الرؤية البصرية نص أصولى ولا لغوى متواتر قطعى الرواية والدلالة يجعلها من العقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة ، وليست مما كان يدعى اليه فى تبليغ الدين مع التوحيد والرسالة بحيث يكون من يجهلها أو ينكرها كافرا ، وإنما هى من غريب العلم الاعلى الذى يستنبطه من القرآن كبار العارفين وربما كان فتنة لمن دونهم ـ وكذلك كان ـ حتى إن كبار النظار وعلماء البيان قد اختلفوا فى كل من الآيات الثلاث الواردة فيها: فى سور الأنعام والأعراف والقيامة . فجعلها بعضهم مثبتة وبعضهم نافية ، والقاعدة فى دين الرحمة والشريعة السمحة أن الحجة لا تقوم على جميع المكلفين إلا فيما كان قطعى الدلالة لغة ، وأنهم يعذرون باختلاف الأفهام فى غيره كما علم من واقعة تحريم الخمر والميسر فان آية البقرة تدل على التحريم بمقتضى القاعدة المعروفة عند الفقهاء وهى تحريم ما تغلب المفسدة فيه على المصلحة ويرجح الضرر فيه على النفع ، وقد نطقت الآية بهذا الترجيح فى الخمر والميسر (وإثمهما أكبر من نفعهما) وهو ما فهمه بعض خواص الصحابة فتركوهما ولم يكلف جميع المسلمين تركهما إلا بعد نزول آية المائدة التى هى نص قطعى لا يحتمل التأويل إذ نطقت بأنهما رجس من عمل الشيطان وصرحت بالأمر باجتنابه وهو أبلغ من الأمر بالترك

وما من مسألة ذكرت فى القرآن بنص غير قطعى الدلالة إلا ولله تعالى حكمة فى عدم القطع بها ، وقد بين حكماء العلماء حكمة ذلك فى الخمر والميسر بأن شدة افتتان الناس بهما كانت تقتضى أن يشق على الناس تركهما دفعة واحدة حتى يتعذر على بعض المؤمنين من ضعاف الايمان تركهما ويتعسر على بعض ، وينفر غير المسلمين من الاسلام ، فكان من حكمة الرب ورحمته جل جلاله أن يحرمهما بالتدريج ولاسيما الخمر فانه أنزل آية تقتضى ترك الخمر فى عامة النهار وناشئة الليل وهى قوله (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فراجع تفسيرها البليغ فى سورة النساء — وآية يفهم منها دقيق العلم قوى الإيمان التحريم فيتركها فى كل وقت وهى آيه سورة البقرة ثم صرح بعد ذلك بسنين بالاجتناب على سبيل القطع

لولا غفلة العلماء الذين طعن بعضهم فى علم المخالف له فى مسألة الرؤيه وفى

دينه عن هذه الحكمة وتلك القاعدة لعذو كل منهم الآخر ولم يجعلوا الخلاف فيها عصبية مذهبية ، ولعلم المثبتون لها منهم أن الله تعالى لو أراد أن تكون عقيدة عامة وركنا من أركان الإيمان لبين ذلك في آية صريحة لاتحتمل التأويل ناطقة بأنه يرى بالابصار عيانا بلا كيف ولا إحاطة ولا تمثيل ، ولقال النبي ﷺ حين عرف الايمان في حديث جبريل بعد قوله «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» وأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم عيانا بلا كيف ولا تشبيه — ولأمر بتلقين هذا الكل من يدخل في الإسلام والتواتر عنه وعن أصحابه الجرى على ذلك حتى يكون معلوما من الدين بالضرورة ، وإذاً لما وقع فيه خلاف، ولما استنكرت عائشة سؤال مسروق إياها عن رؤية النبي ﷺ لربه حتى قف شعرها من استعظام ذلك، ولو كانت تعتقد أن الرؤية تكون في الآخرة لجميع المؤمنين لما استنكرت واستكبرت حصولها للنبي ﷺ في الدنيا امتيازا له لأن روحه فيها أقوى من أرواح سائر المؤمنين في الآخرة فيطيق مالا يطيقه غيره حتى موسى ﷺ ولقاست هذا الامتياز على الناس بامتيازه — عليه صلوات الله — عليهم بالوحى ورؤية الملائكة وغير الملائكة من عالم الغيب ، على أنه ﷺ كان ليلة المعراج في ذلك العالم لافي عالم الأرض .

فالحكمة الظاهرة لعدم النص القطعي في القرآن على المسألة أنها مما تتحير فيه العقول وربما كانت مما يدخل في عموم مارواه مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود «ما أنت بمحدث قوماً حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» وعموم ماذكره البخارى في كتاب العلم عن على كرم الله وجهه «حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله؟» وروى مرفوعين ولكن بسندين ضعيفين — والمراد بالمعرفة في الثاني مايقابل المنكر ومالا يعقل لا مايقابل الجهل إذ يكون من تحصيل الحاصل وقد زاد فيه آدم ابن أبي اياس وأبو نعيم في المستخرج « ودعوا ماينكرون » ذكره الحافظ في الفتح واستشهد له بأثر ابن مسعود آنفاً ، واستدل به على أن المتشابه لاينبغى أن يذكر عند العامة وفسر مالا ينكرون بمالا يشتبه عليهم فهمه . ولا يسلم قوله هذا على إطلاقه . فانه يجب استثناءما في القرآن منه ، إذ لايجوز كتمانه عن أحد ، على أنه كله من قبيل آيات الرؤية ، ليس فيها مثار للفتنة ، مع عقيدة التنزيه ونفى المماثلة

وقاعدة التفويض التي جرى عليها السلف ، فهذا هو الذي يحول دون اتباع المتشابه إلا لمن في قلبه زيغ ، كما نص في آية المحكم والمتشابه من أول سورة آل عمران . وهذا يؤيد قولنا إن الإمام أحمد لم يكفر منكري الرؤية إلا لأنه كان يعتقد أن الحامل لهم على الانكار هو الزيغ والزندقة .

ثم قال الحافظ : وممن كره التحديث ببعض دون بعض احمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات وأبو يوسف في الغرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين وان المراد (أي بالثاني) ما يقع من الفتن[1] ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ماكان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي . وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة وظاهره في الأصل غير مراد فالامساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب والله أعلم اهـ[2]

---

(١) أي حديث جرابي العلم اللذين حفظهما عن النبي (ص) فبث أحدهما ولو بث الآخر لقطع بلعومه

(٢) ومن ذلك ما ذكره بعض علماء الشام لجمال باشا السفاك من جزاء البغاة الخارجين على امام المسلمين وجماعتهم فاتخذه حجة لدى العامة على صلب من صلبهم بغير حق من نابغي البلاد ، ولم يكن هو منفذاً لأمر سلطانه الذي لم يكن من أئمة الحق بل لم يكن له من السلطة شيء إذ جمال باشا وجمعيته كانوا هم الخارجين عليه ، وكذلك كان يفعل أمير مكة حسين منذ سمى ملكاً في الحجاز : يقطع الايدي والارجل ممن يخالف سياسته ولو بذنب معتاد أو بغير ذنب شرعي ، حتى روى أن رجلا فر من سجنه الذي هو أقبح مظاهر الظلم والقسوة ، فأمر بقطع يده ورجله من خلاف وان رجلا آخر أنكر في حرم المدينة المنورة اطراء الخطيب له في الخطبة بما هو كذب وزور فأمر به فقطع وصلب ووضع على صدره لوح كتب فيه (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وارجلهم من خلاف) الآية ، وكان هذا من قبل جهره بدعوى الخلافة ، فلو أقره العالم الاسلامي على هذه الدعوى باجازة تلك البيعة الباطلة من بعض أولى العصبية =

(أقول) هذه مسألة كبيرة من مسائل الاجتهاد تدخل فى باب التعارض والترجيح من الأصول ، أعنى التعارض بين ما أوجب الله تعالى من بيان العلم واظهار الشرع وما حرم من الكتمان فى قوله (ليبيننه للناس ولا يكتمونه) و بين ما حرم من الظلم والفساد والفتنة وما وجب من سد ذرائعها مما هو مجمع عليه ، ولم أر لأحد من العلماء تحقيقاً لهذا البحث وليس هذا محله .[1]

(٢) الرؤية فى العمل النومى

قد ثبت بالتجربة المكررة والرؤية البصرية أن بعض الناس يعملون فى حال النوم المعطل لجميع الحواس أعمالا دقيقة كالقراءة والكتابة وتركيب الأدوية بسرعة ومهارة يعجزون عن مثلها فى اليقظة ، وقد كان يخرج أحدهم من منزله ، ثم يعود إليه وهو مغمض العينين وقد يفتحهما ولا يرى بهما إلا ما توجهت ارادته إليه كبعض الصيادلة الذى راقبه طبيب عرف حاله فرآه يقرأ وصفات الأطباء ويركب ماجاء فيها فألقى إليه فيها وصفة دواء سام يقتل شاربه فى الحال ، فقرأها وأعاد التأمل فيها ، وقال : لا شك أن هذا

= الجاهلية العمية فالى أى حد كان يتهوك ويتقحم فى جرأته على تحريف كتاب الله تعالى واستحلال دماء المسلمين به ؟ وانما نزلت الآية تهديداً للبغاة الخارجين على امام المسلمين وجماعتهم — بقطع الطرق وتهديد الامن العام ونهب الأموال وقتل الأنفس ، لا على أفراد العصاة وان اقترفوا أكبر الكبائر كالقتل والسرقة وقد منع الله عقاب البغاة بذلك إذا تابوا قبل القدرة عليهم ، وخير الامام فيهم إذا ظهر عليهم بالقوة فقال : إنما جزاؤهم كذا ، أى إذا كانت المصلحة فيه ولم يقل فيهم كما قال فى السارق والسارقة (فاقطعوا أيديهما) وفى الزانى والزانية (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)

(١) طرقه الامام الشاطبى فى (الباب الثامن) من كتاب الاعتصام (فى الفرق بين البدع والمصالح المرسلة والاستحسان) ومما ذكره من الوقائع فى بعض فروعه : ان بعض كبار العلماء افتوا بعض الملوك بوجوب صيام شهرين متتابعين فى كفارة الوقاع فى نهار رمضان دون العتق ، لان الصيام يزجرهم عن إفساد صيامهم دون العتق ، وان مالكا أفتى الرشيد بصيام ثلاثة أيام فى كفارة اليمين ويراجع تفصيله فى (ص ٥٤٨ ج ٣ منه)

غلط أو سبق قلم من الطبيب فأنا لا أركبه وألقاها . وراقب بعضهم رجلا آخر كان يخبر أن نقوده تسرق من صندوقه الحديدى فى كل ليلة فبات عنده فرآه قد قام من فراشه بعد استغراقه فى النوم وفتح صندوقه وأخذ منه بعض النقود وخرج بها فتبعه حتى جاء مكانا خربا فتسلق جداراً من جدره المتداعية ومشى عليه بسرعة ثم نزل فى داخله وحفر فى الأرض حفرة ووضع فيها ما حمله من النقود وعاد فتسلق الجدار ومر عليه مسرعا والمراقب ينظر إليه ولا يستطيع أن يفعل فعله وعاد إلى منزله وأوى إلى فراشه فلما استيقظ فى النهار عد الدراهم وأخبر الرجل الذى بات عنده ليكشف له حال من يسرق صندوقه بما نقص منها فحدثه هذا بما رآه فعجب وأنكره فذهبا إلى المكان فلم يستطع الرجل أن يتسلق الجدار ويمشى عليه مسرعا كما فعل وهو نائم ولكنهما تكلفا ذلك وتريثا فيه حتى وصلا إلى مكان طمر النقود وبحثا عنها فوجداها فى عدة مواضع . ورؤى بعض غلمان أسرتنا مرارا يقوم من النوم ويخرج لحاجته ثم يعود وهو نائم ودخل المطبخ مرة فنظف بعض الآنية فيه وعاد إلى فراشه وهو نائم

وربما كانت هذه الحالة مؤيدة لمذهب من قال إن للانسان نفسين أو روحين تفارقه إحداهما فى حال النوم فقط وتفارقه الثنتان معاً بالموت ، ويقرب هذا من قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)

(٣) الرؤيا والأحلام

الرؤيا النومية والأحلام منها خواطر تتمثل واقعة فى حال النوم وسببها اشتغال الفكر بها أو أسباب تعرض للنائم فيتخيلها بنفسها أو ما يشبهها واقعا وهى أضغاث الأحلام ومنها الرؤيا الصادقة كرؤيا ملك مصر التى أولها له يوسف عليه السلام وأمثالها كثير وقع معناومع غيرنا وثبت بالتواتر ثبوتا لا يحتمل التأويل بالرغم من أنوف المكابرين وقد بيناه من قبل بالتجارب القطعية . وأعلاه وأكمله رؤيا الأنبياء التى هى من مبادىء الوحى وقد وقع للنبى ﷺ رؤية الرب تعالى فى المنام كما روى ابن عباس وأنس وظن بعضهم أنه أراد بها اليقظة ، وقد تقدم ذكر ذلك فى هذه المباحث، ووقع ذلك لغيره أيضا

(٤) الرؤية فى النوم المغناطيسى

النوم المغناطيسى قد اشتهر وكثر وهو يحصل بتنويم صناعى يستعان عليه

بقوة إرادة بعض الناس وتأثيرهم فى أنفس من ينومونه أو ببعض الأعمال التى لا محل لبسطها هنا. والنائم به يغيب إدراكه وشعوره عن كل شيء ماعدا منومه فإن نفسه تكون رهن تصرفه فإذا أمره بشيء خضع لإرادته بقدر مافى نفسه من الاستعداد لذلك وقد ثبت بالتجارب الكثيرة أن المنوم يسأل النائم عن أشياء غائبة أو مستورة ماهى وأين هى؟ فعند سؤاله إياه عنها تتوجه نفسه إليها فيراها ويخبره عنها فيصدق .

فهذه ثلاثة أضرب أو أنواع من الرؤية للشيء لا عمل للأعين فيها إلا أن العرب خصت مايرى فى النوم باسم الرؤيا - بالألف - ومايقع فى اليقظة باسم الرؤية ، ولم تفرق بينهما فى الأفعال، ولعلها لو عرفت النوع الأول والثالث مما ذكرناهنا لسمته رؤيا أيضا

روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عباس (رض) فى قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) قال : هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس وليست رؤيا منام نقول ولكن الله تعالى سماها «رؤيا» لا رؤية . والتحقيق المختار أن الإسراء والمعراج كانا فى حالة روحية قوى فيها سلطان الروح على سنن الله فى الجسد فصار خفيفاً لطيفاً كالأجسام التى تتمثل فيها الملائكة للأنبياء (ع . م) وتمثل فيها الروح للسيدة مريم (ع . م) لا بالروح فقط كما قيل ولا فى المنام كما فى رواية شريك فى كتاب التوحيد من صحيح البخارى وهو يتفق مع قول من قالوا إنهما بالروح والجسد ، إذ إطلاقهم لاينافى هذا القيد - وإن قيل ان الجسد الذى حلته روحه الشريفة ليلتئذ غير جسده المعتاد ليناسب العالم الذى دخل فيه - فكيف ولا مانع من كونه هو بعينه أثرت فيه الروح فلطفته وجعلته كالأثير فى لطفه وقوته فى هذا العالم الدنيوى ، وبقى السلطان للروح فجبريل الذى تمثل للنبى ﷺ بصورة دحية ولمريم بصورة شاب جميل الصورة هو جبريل الذى رآه النبى ﷺ بصورته سادا الأفق الأعلى ، وقال تعالى فيهما (فأوحى إلى عبده ماأوحى) يوضح هذا مايأتى .

(٥) تشكل الملائكة والجن ورؤيتهم فى هذه الحالة

قد ثبت عن أفضل البشر وأصدقهم من أنبياء الله وبعض أوليائه أنهم كانوا يرون الملائكة والجن فى صور لطيفة أو كثيفة وثبت تمثلهم لهم بنص

القرآن وغيره من كتب الوحي .

وقد صح أن النبي ﷺ لم ير جبريل ملك الوحي في صورته التي خلقه الله تعالى عليها إلا مرتين ، وقد علم بالقطع أنه رآه في الصور التي كان يتشكل فيها مراراً تعد بالمئين أو أكثر ، وليست محصورة في عدد نزوله بآيات القرآن وسوره ، وقد كان من تلك الصور صورة دحية الكلبي رضي الله عنه ، ومنها صورة الرجل الغريب الذي سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان الخ ، وهذا النوع من الصور الكثيفة رآه فيه من حضر مجيئه من الصحابة (رض) ومنها صور لطيفة لم يكن يراه فيها غير النبي ﷺ وقوله في حديث الوحي الذي رواه الشيخان : « وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول » يشمل النوعين ، وورد أنه ﷺ مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط فرآهما ولم يرهما غيره ، ومعنى هذا ان الله تعالى أراه مثالا لهما ، وهذا غير تمثل الملك له بارادته وعمله

وقد رأى ﷺ غير جبريل من الملائكة ورأى بعض الشياطين أيضاً متمثلة في صور ، وكان يعبر عن ذلك بالرؤية . فثبت بهذا أن الرؤية للشيء لا تقتضي رؤية حقيقته في الواقع ونفس الأمر ، وإن كان مخلوقا ، له جنس ينقسم إلى أنواع تحتها أصناف ، وشخوص لها أمثال

فاذا كان المخلوق يرى مخلوقا مثله رؤية لا يدرك بها كنهه ولا يحيط بحقيقته ولا يشاركه فيها كل من له عينان مثله ـ وهذا مما يؤمن به المعتزلة والشيعة والاباضية كغيرهم ـ فهل يستنكر أن تكون رؤية الرب الذي ليس كمثله شيء بلا كيف ولا مثال وعلى غير المعهود في رؤية بعضنا لبعض كما استنكر هؤلاء الذين قال شاعرهم :

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا　　شنع الورى فتستروا بالبلكفة

أم يصح مع هذا أن يصر بعض أهل السنة على تقييد رؤيته تعالى بالابصار وأعين الرءوس واستنكار تسميتها رؤية روحية مع الاتفاق بينهم على أن الادراك بجميع أنواعه للنفس لا للجسد ، كما ترى توضيحه في المسألة التالية

(٦) الكشف وكون الادراك للنفس

إن العلم والادراك في الحقيقة للروح وان الحواس والدماغ آلات حسية للعلم ببعض الحسيات بحسب سنن هذه الحياة الدنيا وقد ثبت بما تقدم من الشواهد

أن النبي ﷺ كان برى من وراءه كما يرى من أمامه وهى رؤية روحية غير مقيدة بيصر العينين ولا بالمقابلة وثبت نحو من هذا لبعض المكاشفين بالروايات التي وصلت إلى درجة التواتر ، ومن هذه المكاشفة مايقع فى حال الصحة بقوة توجيه الارادة إلى الشيء أو فجائيا بغير قصد ، كما وقع لمؤلف هذا التفسير فى صغره فقد رأى جدته لأمه وهو مضطجع مسجى فى بستان لها تمشى فى الطريق جائية إليه حتى إذا مارآها قد وصلت إلى مدخل البستان من الطريق العام ناداها فأجابته ، ويبعد أن يكون هذا تخيلا صادف الواقع ، وله أمثال ونظائر لولاها لتعين القول بذلك ـ وقد وقع لنا منه مع بعض الناس ما كنا نحمله على المصادفة لئلا يقيسوا عليه دجل المحتالين ولئلا نقع فى الغرور ، ولكن مجموع مانقله الثقات منه لا يحتمل التأويل . ومنه مايقع فى النفس بغير رؤية ولا تخيل وان كان فيما من شأنه أن يرى ، وليس مما نحن فيه

وقد يقع فى أحوال مرضية كالمريض الذى كان يعالجه الطبيب شبلى شميل بمصر وكان يخبر بأشياء غائبة وبأمور قبل وقوعها فيصدق بالضبط الدقيق ، ومن الأول انه أخبر بأن قريبا له قد خرج من داره بالاسكندرية يريد السفر إلى مصر لزيارته ثم أخبر أنه رآه قد وصل إلى محطة الاسكندرية ودخل القطار وبعد مضى ثلاث ساعات وكسور أخبر انه نزل من القطار فى محطة القاهرة وخرج منها وركب مركبة لتحمله إلى الدار التى هو فيها ، ثم أخبر انه وصل إلى الدار ـ وإذا به قد دخل . وكان الطبيب شبلى ينكر مثل هذا وينكر وجود أرواح مستقلة بالوجـود تلابس الأجساد وتفارقها مدركة بالذات ، أى غير مقيدة فى إدراكها بوجودها فى الجسد واكتسابها العلم من حواسه وعصب دماغه ، وقد صار بعد هذه الواقعة التى كتبها بقلمه ، وسمعناها من فمه ، يشبه دماغ الإنسان بالآلة الكهربائية للتلغراف اللاسلكى التى تتلقف من كهرباء الجو مايرسله هذا التلغراف من أخبار السفن أو البلاد البعيدة ، ولكن كان من أخبار مريضه به أنه سيرعف أنفه فى ساعة كذا من نهار غد ويخرج من دمه مايبلغ وزنه كذا . فكان كما قال ، وهذا إخبار عن الشيء قبل وقوعه لايتناوله التشبيه الذى ذكره ، وهـو من الغيب الاضافى الذى خلق الله الأرواح كلها مستعدة لادراكه قبل وقوعه لولا مايشغلها عنه من مدارك الحواس والعقول وهموم الحيـاة ـــ لا من الغيب الحقيقى الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وقد فصلنا

القول فى الفرق بينهما فى تفسير سورة الانعام [1]

(٧) أنواع المدركات وعناصر الكون وأحوالها

إن مدركات البشر الحسية والعقلية لاتتعلق فى حال هذه الحياة الدنيا بكل مافى هذا الكون من أنواع الموجودات بل هناك حجج من الوحى والعقل والعلم تدل على ضد ذلك ـ أما الوحى فقد ثبت فيه أن العالم قسمان ، أو أن الكون قسمان : عالم الغيب وعالم الشهادة —

وأما العقل فمن أحكامه أن عدم العلم بالشىء لايقتضى عدم وجوده وأن من الجائز أن يكون فى الكون موجودات كثيرة لاندركها ولاتشعر بها حواسنا ومشاعرنا لعدم استعدادها لادراكها ألبتة كما أن بعضها لايدرك مايدركه الآخر من الهيئات والألوان والطعوم والروائح مثلا ـ وإما لضعف الحاسة فينا عن إدراك ماهو من متعلقها لفقد بعض شروط ادراكه ، وقد دل العقل على أن الوجود الممكن الذى نعرفه فى الجملة يدل على الوجود الواجب الذى لم تدركه بحواسنا ولم تدرك كنهه عقولنا ، بل دل على وجود آخر من الممكنات وهو مايسميه علماء الكون بالاثير

وأما العلم ـ علم التجربة والبحث العملى فى الوجود ـ فقد أثبت وجود أحياء كثيرة الأنواع ذات تأثير عظيم فى حياة الأحياء من نفع وضر ترى بالمرايا المكبرة دون البصر المجرد وان فيه مواد أخرى لطيفة هى من أصول عناصره التى لم يتم تكوينه إلا بها ، وهى لاتدرك بالحواس ولا بالعقل بادىء بدء وانما عرفت بأعمال التحليل والتركيب والآلات واستخدمت لكثير من المنافع والمضار ، وهى كالعناصر التى يتركب منها الماء والهواء

وقد ثبت بالتجارب العملية ماصار العلم به قطعيا يدخل فى باب الحسيات من أن الجسم الجامد يتحول بالحرارة إلى مائع كما يكون الجليد والثلج ماء ، وان المائع يتحول بهما إلى بخار وهو مانشاهده كالدخان اللطيف يخرج من الماء عند تسخينه ومن كل مائع فيه ماء . وان هذا البخار المائى وغيره يتحول بشدة الحرارة ألى مادة لاترى كالهواء ويسمونها غازاً ، وان الأجسام الجامدة كالذهب والقصدير والمائعة كالماء والغازية كالهواء منها البسيط ومنها المركب ، وان

«١» راجع ص ٤٢١ وكذا ٣١٥ قبله ج ٧ تفسير

البسائط التى تتألف منها المركبات محدودة تعد بالعشرات وصار فى قدرة البشر أن يحللوا المركب ويفرقوا بسائطه بعضها من بعض بصناعة الكيمياء والانهاء وأن يحولوا الجوامد من صفتها فيجعلوها غازات، وأن يجعلوا من الغازات ومن السائلات جوامد، وهم يتخذون منها أغذية وأدوية وسموما قاتلة بل استخرجوا من ماء البحر الملح ذهبا إبريزا

هذه الأعمال التى صارت من صنائع البشر تقرب من العقل والعلم ما صح عن الرسل المعصومين من أن الملائكة وغيرهم من الجن يتشكلون فى صور كثيفة ترى بالأبصار وبصور لا ترى بالأبصار. أى أن الله تعالى أعطى أرواحهم قوة يتصرفون بها فى مادة الكون وفى أنفسهم بأعظم من تصرف علماء الكيمياء فى نفسه، ولكنه من جنسه، فقد أعطى الله تعالى الواحد منهم قدرة على تأليف جسم لروحه من هذه المادة إذا شاء، وحله وتفريقه متى شاء، وقد وضحنا هذا التقريب من قبل وغرضنا من التذكير به هنا إيضاح مسألة تجلى الرب سبحانه تعالى فى الصور أو من وراء الحجب وكون رؤيته لا تقتضى تشبيهه بخلقه كما زعم من لم يعلموا من أنواع الادراك والمدركات المخلوقة ما يقتضى تشبيه بعضها ببعض وقد قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

(٨) مذاهب الصوفية فى الرؤية

الصوفيه فرقة من فرق المسلمين المختلفين فى الأصول وهم لا يقلدون اماما واحدا فى الفروع بل منهم المجتهدون فيها ومنهم المقلدون لأهل المذاهب المشهورة ويكثر فيهم الشافعية كما أن أكثر المعتزلة والمرجئة من الحنفية. وقد غفل من لم يعدهم من الفرق الثلاث والسبعين. وانما الكلام فيمن يسمون صوفية الحقائق، وهم أقرب إلى الفلاسفة الروحيين الاشراقيين والى قدماء الشيعة منهم إلى أهل السنة والأثر وجمهورهم يجلون الصحابة ولاسيما الخلفاء الراشدين وعلماء السلف ولاسيما العباد منهم. ومنهم المعتدلون وأهل الحديث كشيخ الاسلام أبى اسماعيل الهروى صاحب منازل السائرين ومنهم الغلاة الذين مرق بعضهم من الإسلام بنزغات الباطنية وزيغهم وهم غلاة الرافضة من الاسماعلية إلى البهائية وزعماؤهم من الفرس ومنهم البكتاشية وقد راجت دعوتهم فى بلاد الترك والالبان. ويقابلهم صوفية الأخلاق وأهل السنة منهم يقولون فى الرؤية مايقول سائر

أهل السنة وكذا المعتدلون من أهل الحقائق فترى أباحامد الغزالى من علمائهم قد فسر الرؤية بما ينطبق على مذهب الأشعرى . وشأن سائر مقلدتهم كشأن سائر المقلدين للمذاهب الاخرى

وأما صوفية الحقائق المستقلون فجمهور أهل الوحدة منهم يدخلونهافى مسائل الوحدة ، فغلاة وحدةالوجودليس عندهم إلاوجودواحد لهمظاهر ومجالى فهم يثبتون الرؤية بهذا الاعتبار و إلافالرائى والمرئى واحدعندهم ، يعنون أن الرب عين العبد والعبدعين الرب فالله تعالى يرى نفسه بمايتجلى فيهمن صور عبيدهأو ماشاءمن خلقه، هذاتناقض وهذيان بديهى البطلان ، وحسبناماننشره فى المنار من ابطاله وتناقضه لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى . وأماأصحاب وحدة الشهودمنهم فمذهبهم أن الرب تعالى يتجلى لعبدهالمؤمن فى الدنيا تجليا غيركامل وفىالآخرة تجليا كاملا ، فيفنى العبد بهذا التجلى عن نفسه وعن كل ماسوى ربه فلايرى غيره وهو يراهبكل روحه المدركة لا بعينيه فقط ،ومن كلام ابن الفارض فيه * إذامابدت ليلى فكلى أعين* فان الرؤية بآلة الباصرة انما تكون للأرواح المحبوسة فى هيا كل الأجساد المقيدة بسنن اللهفيها كاتقدم آنفا ، فهى كالمحبوس فى سجن له نوافذ وكوى قليلة يرى منها بعض مايحاذيهادون غيرهمماوراء السجن وهم يثبتون تجليه تعالى فىالصور المختلفة ولا يرون ذلك محالا يجب تأويله بل يبقون الأحاديث فى ذلك على ظاهرها كجمهور السلف

ولكل من هؤلاء وأولئك أقوال وشواهد مشتركة يشتبه معها بعضهم ببعض فيعسر التزييل بينهم ، ومنها استشهادهم بالحديث القدسى الذى أخرجه البخارى فى صحيحه فانتقد عليه لعلة فى سنده وذكره (١) النووى فى الأربعين ومحل الشاهد منه « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » ومعناهالذى يتفق مع أسلوب اللغة وقواعد الشرع : كنت متعلق سمعه وبصره وسائر جوارحه ، أى فلا توجه إرادته هذه الجوارح إلا إلى ما يعلم أنه يرضى ربه ولا ينسى مراقبته فى أعمالها ، وكل من القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود يستدل به على مذهبه . ومن شعرهم فى ذلك :

(١) رواه عن خالد بن مخلد الكوفى وهو من شيوخه وقد وثقه بعضهم وقال احمد: له مناكير وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به .

أعارته طرفا رآها به فكان البصير بها طرفها

وللشيخ محيي الدين بن عربي كلام فى كل ماسبق ذكره من الآيات والأحاديث على طريقتهم فى الوحدة فى الباب الحادى والأربعمائة من الفتوحات المكية وهو :

كلمة لابن عربي فى الرؤية

« قال الله عزوجل (لاتدركه الأبصار) وقال عز وجل لموسى عليه السلام (لن تراني) وكل مرئى لايرى الرائى إذا رآه منه الاقدر منزلته ورتبته فما رآه وما رأى إلا نفسه ولولا ذلك ماتفاضلت الرؤية فى الرائين إذ لو كان هو المرئى مااختلفوا لكن لما كان هو مجلى رؤيتهم أنفسهم لذلك وصفوه أنه يتجلى وانه يرى ولكن شغل الرائى برؤيته نفسه فى مجلى الحق حجبه عن رؤية الحق فلذلك لو لم تبد للرائى صورته أو صورة كون من الأكوان ربما كان يراه فما حجبنا عنه إلا أنفسنا فلو زلنا عنا مارأيناه لأنه ما كان يبقى ثم بزوالنا من يراه ؟ وان نحن لم نزل فما نرى إلا أنفسنا فيه وصورنا وقدرنا ومنزلتنا فعلى كل حال مارأيناه ، وقد نتوسع فنقول قد رأيناه ونصدق كما أنه لو قلنا رأينا الانسان صدقنا فى أن نقول رأينا من مضى من الناس ومن بقى ومن فى زماننا من كونهم إنسانا لامن حيث شخصية كل إنسان ، ولما كان العالم أجمعه وآحاده على صورة حق ورأينا الحق فقد رأينا وصدقنا ، وان نظرنا إلى عين التمييز فى عين عين لم نصدق ، وأما قوله ﷺ فى حديث الدجال ودعواه انه إله فعهد إلينا رسول الله ﷺ أن أحدنا لايرى ربه حتى يموت لأن الغطاء لاينكشف عن البصر إلا بالموت والبصر من العبد هوية الحق فعينك غطاء على بصر الحق فبصر الحق أدرك الحق ورآه لاأنت فان الله (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ولاألطف من هوية تكون عين بصر العبد وبصر العبد لايدرك الله، وليس فى القوة أن يفصل بين البصرين والخبير علم الذوق فهو العليم خبرة أنه بصر العبد فى بصر العبد وكذا هو الأمر فى نفسه وإن كان حيا فقد استوى الميت والحى فى كون الحق تعالى بصرهما وماعندهما شيء فان الله لايحل فى شيء ولايحل فيه شيء إذ (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) اه وقد تكلم على الآية فى مواضع أخرى وعلى جميع الأحاديث الواردة فى المسألة وكلامه متعارض بعضه يتأول بتكلف أو بدون تكلف.

﴿ ٨ كلمة فى النور والحجب والتجلى فى الصور ﴾

قال المحقق ابن القيم فى (مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين) للهروى فى الكلام على الدرجة الثانية من منزلة (اللحظ) مانصه .

« ونور الكشف عندهم هو مبدأ الشهود وهو نور تجلى معانى الأسماء الحسنى على القلب فتضىء به ظلمة القلب . ويرتفع به حجاب الكشف ، ولا تلتفت إلى غير هذا فتزل قدم بعد ثبوتها ، فانك تجد فى كلام بعضهم « تجلى الذات يقتضى كذا وكذا ، وتجلى الصفات يقتضى كذا وكذا ، وتجلى الأفعال يقتضى كذا وكذا » والقوم عنايتهم بالألفاظ فيتوهم المتوهم انهم يريدون تجلى حقيقة الذات والصفات والأفعال للعيان ، فيقع من يقع منهم فى الشطحات والطامات ، والصادقون العارفون براء من ذلك ، وإنما يشيرون إلى كمال المعرفة وارتفاع حجب الغفلة والشك والاعراض ، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السوى بالكلية ، فلا يشهد القلب سوى معروفه ، وينظرون هذا بطلوع الشمس فانها إذا طلعت انطمس نور الكواكب ولم تعدم الكواكب ، وانما غطى عليها نور الشمس فلم يظهر لها وجود وهى موجودة فى أماكنها ، هكذا نور المعرفة إذا استولى على القلب وقوى سلطانها وزالت الموانع والحجب عن القلب . ولا ينكر هذا إلا من ليس من أهله ، ولا يعتقد أن الذات المقدسة والأوصاف برزت وتجلت للعبد كما تجلى سبحانه للطور ، وكما يتجلى يوم القيامة للناس الاغالط فاقد للعلم ، وكثيراً مايقع الغلط من التجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر إلى نورة الذات والصفات . فان العبادة الصحيحة والرياضة الشرعية والذكر المتواطىء عليه القلب واللسان يوجب نوراً على قدر قوته وضعفه ، وربما قوى ذلك النور حتى يشاهد بالعيان فيغلط فيه ضعيف العلم والتمييز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية فيظنه نور الذات ، وهيهات ! ثم هيهات ! نور الذات لا يقوم له شىء . ولو كشف سبحانه وتعالى الحجاب عنه لتدكدك العالم كله كما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له القدر اليسير من التجلى .

« وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « ان الله سبحانه لا ينام ولاينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » فالاسلام له نور ، والإيمان له نور أقوى منه ، والإحسان له نور

أقوى منها ،[١] فاذا اجتمع الاسلام والإيمان والإحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله امتلأ القلب والجوارح بذلك النور، لا بالنور الذى هو صفة الرب تعالى فان صفاته لا تحل فى شىء من مخلوقاته . كما أن مخلوقاته لا تحل فيه ، فالخالق بائن عن المخلوق بذاته وصفاته ، فلا اتحاد ولا حلول ولا ممازجة . تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا » اه

أقول : هذا التصوف الموافق للكتاب والسنة لا تصوف ابن عربى والفرق بين نفى كل منهما للحلول ان هذا يقول ان الخلق والخالق شىء واحد والشىء لا يحل فى نفسه والآخر يقول ان النسبة بينهما المباينة التامة . وهذا التوحيد هو الحق الذى كان عليه السلف الصالح (رض)

وقال المحقق ابن القيم (رح) فى فوائد الذكر من الكلم الطيب وهو :

« إن الذكر نور للذاكر فى الدنيا ، ونور له فى قبره ،ونور له فى معاده يسعى بين يديه على الصراط[٢] فى استنارة القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى قال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟) فالأول هو المؤمن الذى استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره . والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته . والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح فى النور . والشقاء كل الشقاء فى فواته . ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يبالغ فى سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله فى لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه حتى يقول « واجعلنى نوراً » فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور فى ذراته الظاهرة والباطنة ، وأن يجعله محيطاً به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نوراً ، فدين الله تعالى عز وجل نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التى أعدها لأوليائه نور يتلألأ ، وهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض ، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه ، وفى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم يوم الطائف « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات

(١) انما كان نور الاحسان أقوى لانه عبارة عن الاحسان فى الاسلام والايمان فهو الكمال فيهما عملا واعتقادا

(٢) كذا والظاهر أن ههنا حذفا قبل قوله : فى استنارة

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليّ غضبك ، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات من وجهه » وفي بعض ألفاظ هذا الأثر : نور السموات من نور وجهه ، ذكره عثمان الدارمي ، وقد قال تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها) فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الأرض وليس اشراقها لشمس ولا قمر فان الشمس تكور ، والقمر يخسف ويذهب نورهما ، وحجابه تبارك وتعالى النور . قال أبو موسى « قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » ثم قرأ (أن بورك من في النار ومن حولها) فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره . ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل وكشف من الحجاب شيئاً يسيرا ساخ الجبل في الأرض وتدكدك ولم يقم لربه تبارك وتعالى . وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى (لا تدركه الابصار) قال ذلك الله عز وجل إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء . وهذا من بديع فهمه رضي الله عنه ودقيق فطنته ، كيف وقد دعا رسول الله ﷺ أن يعلمه الله التأويل ، فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له وان رأته فالادراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس ولله المثل الأعلى نراها ولا ندركها كما هي عليه ولا قريبا من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه (لا تدركه الأبصار) فقال ألست ترى السماء؟ قال بلى قال أفتدركها ؟ قال لا . قال فالله تعالى أعظم وأجل » اهـ[1]

---

(١) كان أهل النظر المشتغلون بالفلسفة اليونانية يتأولون جميع الآيات والأحاديث الواردة في صفات الرب تعالى وينكرون على علماء الأثر الاخذ بظواهرها مع التنزيه والتفويض حتى أن الاشعرية الذين أرادوا أن يكونوا وسطا بين غلاة النظار من الجهمية وغيرهم وبين أهل الحديث كالحنابلة قد بالغ بعضهم في التأويل

قد أشار هذا العالم المحقق بهذه الجملة الوجيزة من كلامه الطويل فى موضوعها إلى جملة ماورد « فى النور » من نصوص الكتاب والسنة فقد سمى الله تعالى نفسه نورا وورد النور فى أسمائه الحسنى المأثورة وأسند النور إلى اسم الذات فى قوله (الله نور السموات والأرض) وأسنده رسوله إلى وجهه تعالى بقوله « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات » ومثله فى آثار أخرى والجمهور يفسرون الوجه بالذات . وهذا نوع من استعمال النور غير إضافته إليه تعالى فى قوله (وأشرقت الأرض بنور ربها) وقوله (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) على أن نوره فى الأخيرة كتابه ووحيه وكلامه الذى هو من صفاته ، والمراد به فى الا ظهر ما فيه آيات الهداية ، فهو كقوله (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ومثله إطلاق اسم النور على النبى (ص) فى قوله (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) على وجه . وورد مثل هذا فى كتب العهد الجديد عند النصارى مرويا عن المسيح عليه السلام كقول يوحنا فى رسالته الأولى « ١ : ٥ وهذه هى البشرى التى سمعناها منه ونبشركم بها : أن الله نور وليس فيه ظلمة ألبتة » وأطلق النور على المسيح نفسه فى موضع من انجيلى لوقا و يوحنا

ومن المعلوم أن النور حسى ومعنوى ، فالأول يرى بالبصر ويرى به البصر سائر المبصرات ، والثانى يدرك بالبصيرة وتدرك به البصيرة الحق والخير

حتى صار الخلاف بينهم وبين غلاة النظر لفظيا . والباعث لهم على ذلك محاولة تطبيق النصوص على نظريات الفكر التى عدوا الكثير منها قطعيا وليس بقطعى ونحمد الله تعالى أن العلوم الكونية قد نقضت فى هذا العصر أكثر تلك النظريات الفلسفية اليونانية وقربت نصوص الكتاب والسنة من الافهام ، ومما ثبت بها اخيراً أن هذه الكهربائية التى رأى البشر كثيراً من عجائبها هى الأصل فى تكوين مادة العلم كله وأطوارها ، وهى نور أو مصدر النور والحركة التى يحدثها النور أو تحدثه ، وإذا كان الخالق البارىء المنزه عن نقص المخلوقات التى لا يكمل شىء منها إلا به قد حجب عنها بالنور ، فلك أن تفهم أن الكهرباء وما جعلها الله أصلا له من تكوين العالم المادى هى الحجاب المانع من رؤية الرب تعالى فيه وان انكشاف هذا الحجاب لا يكون الا فى الجنة ، وان انكشافه هو الذى يوصل أهلها إلى أعلى وأكمل درجات المعرفة به تعالى وهى الرؤية بغير كيف ولا ادرك ، وقد نصر العلم مذهب السلف ، على تأويلات الخلف ، ولله الحمد

والصلاح. وكذلك نور الآخرة قسمان حسي ومعنوي ، وأما نور الله تعالى الذي هو صفة من صفاته قد أضيف الى وجهه وأسند إلى ذاته فهو فوق هذا وذاك لا يعرف كنهه سواه عز وجل، وهو غير النور الذي هو حجابه المانع من رؤية ذاته و إدراك كنهه، ولا يكبرن عليك أيها الانسان المعجب بنفسك هذا العجز عن إدراك نور الله عز وجل ، فان هذا النور الحسي الذي تراه بعينك لا تدرك حقيقته ولم يدركها أحد من أبناء جنسك الى الآن، ولم يستطع أحد أن يضع له تعريفا يحدد هذه الحقيقة. ولم يكن المتقدمون يعرفون منه إلا ما يرونه من نار الأرض ونيرات السماء ، ثم عرف المتأخرون هذه الكهرباء والراديوم فدخل بذلك العلم والعمل في طور جديد إذا قيل إنه فوق طور العقل والفلسفة والعلم التي انتهى اليها البشر قبله لم يكن هذا القول مبالغة، وقد كانت الصوفية تقول إن وراء مدارك عقول البشر علوما صحيحة منطبقة على حقائق خارجية لا محض نظريات فكرية. فيقول مدعو الفلسفة والمنطق إن هذه خرافات خيالية. قال ابن الفارض

فثم وراء العقل علم يدق عن   مدارك غايات العلوم الصحيحة

فأي عقل كان يتصور أنه يمكن لشخص واحد أن يوقد مالا يحصى من المصابيح في دار ومدينة كبيرة في طرفة عين وأن يطفئها في طرفة عين ؟ وأن هذه المصابيح توقد بلا زيت ولا نار ، و إنما تشعل بتحريك هنة صغيرة بعيدة عنها ولكنها متصلة بها بسلك دقيق ، وأي عقل كان يتصور أن البشر يتخاطبون و يسمع بعضهم كلام بعض على بعد ألوف من الأميال ؟ وهذا بعض خواص هذه الكهرباء

نعم إن علماء المسلمين قرروا أن أمثال هذه الأمور من الممكنات لا المستحيلات فورود نظائرها في أخبار الآخرة لا يقتضي أن في الدين شيئا يرده العقل الصحيح بالبرهان ، ولكن جماهير الكفار بالرسل لم تستطع عقولهم تصورها ولا التصديق بها — بل نرى ضعفاء العقل والعلم من المسلمين أنفسهم يظنون فيما نقلناه آنفاً من كتاب الوابل الصيب أنه من المشكلات التي لا تتفق معهما إلا بضرب من التأويل — لأجل هذا علقنا عليه الحاشية الوجيزة المثبتة معه هنا عند طبع الكتاب في (مجموعة الحديث النجدية) ليعلموا أن منتهى ماوصل اليه علماء الكون يؤيد مذهب السلف فيها وفي أمثالها، و يبطل قاعدة المتأولة في جعل نظريات أفكارهم ومألوفات عقولهم وقضايا معلوماتهم

الكلامية القليلة أصلا ترجع اليه نصوص الكتاب والسنة ولو بالتأويل، وقد علمنا أن بعض الذين اطلعوا على هذه الحاشية فى مجموعة الحديث لم يفهموها فاضطربوا فيها ولهم العذر فانها على غرابة موضوعها وجيزة لم توضح المقام لأمثالهم كما كان يجب . ولكن لها فيما سبق من المسائل والمباحث فى رؤية الرب تعالى نظائر تغنى من استحضرها عن الايضاح، ولا بأس مع ذلك من زيادة فيه وإن لم تخل من تكرار لبعض القضايا

تقدم أن البشر لم يصلوا الى الإحاطة بكنه شيء من حقائق هذه المخلوقات وإنما يعرفون منها ظواهرها وبعض خواصها وسنن الخالق فيها ، فهم أولى بالعجز عن إدراك حقيقة الخالق وصفاته وأفعاله ، وإنما عرفوه سبحانه وعرفوا صفاته وأفعاله بآياته الكونية فى خلقه ، وآياته الكلامية المنزلة على رسله ،ففى كل شيء له آيات تدل على وحدانيته وعلمه ومشيئته وقدرته وحكمته ورحمته ،فهو تعالى ظاهر فى كل شيء بدلالته عليه وباطن فى كل شيء يحجب عبده به عنه

إن اشتغال العبد بشؤون الخلق يحجبه عن معرفة ربه وعن مراقبته وعن عبادته وعن شكره إذا هو اشتغل بها لذاتها وماله من اللذة والمنفعة العاجلة فيها، كما أنها تكون آيات ودلائل لمعرفته ووسائل لمراقبته وبواعث لعبادته وذكره وشكره إذا هو نظر بهذه النية ، وإن تجليه سبحانه للأبرار فى الآخرة يكون بقدر هذا .. كما أن حجب الفجار عنه يكون بقدر مقابله الذى ذكر قبله (جزاءا وفاقا)فسعة العلم بالكون وسننه ونظامه ومنافعه قد تكون من أسباب سعة المعرفة بالله والكمال الذى يقرب منه . وقد تكون من أسباب الجهل بالله والبعد عنه، ولو كان هؤلاء العلماء الذين عرفوا فى هذا العصر أضعاف مانقل عن الأولين من أسرار هذا العالم قد نظروا فيه بنور الله واهتدوا فى مباحثهم بهداية وحيه لوصلوا إلى درجة عالية من الكمال - على أن ارتقاءهم فى الأسباب وبحاثهم المتصل فى كشف أسرار العالم لا بد أن ينتهيا بهم إلى المعرفة الصحيحة والعبودية الكاملة التى بينها الرب سبحانه فى آخر كتبه للبشر على لسان خاتم رسله لهم كما أرشد اليه فى قوله (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط)

ذلك بأنهم سيجدون فى حقائق العلوم التى يهتدون اليها باتصال أبحاثهم

وتتابعها مصداقا لهذا الكتاب فيما أخبر عنه من عالم الغيب ولقاء الله تعالى وكل ما كفر به المقيدون بنظريات عقولهم القاصرة وعلومهم الناقصة ، كالأرواح والملائكة والجن وتمثلهما فى الصور المختلفة ، وتجلى الرب سبحانه لعباده بقدر استعداد أنفسهم وارتقاء أرواحهم من وراء الحجب التى كانت تحجبهم عنه وأن فيما وصلوا إليه من العلم اليوم مايقرب ذلك من المدارك وقد بينا بعض الأمثلة فى هذه المباحث وغيرها . وإن من أعظم مايشغل هؤلاء الباحثين فى هذا العلم مسألة بدء الخلق كيف كان، ومن أى شيء كان ؟ وقد سبق لهم أن جزموا بأن هذه الاجرام السابحة فى ملكوت الله من السموات والأرض قد كانت مادة واحدة سديمية تشبه الدخان فانفتقت وانفصل بعضها من بعض فكانت اجراما متعددة — وقد جاءهم محمد النبي الأمى ﷺ بما هو صريح فى ذلك قبل علمهم به بقرون وأجيال كثيرة كما بيناه فى موضعه

ثم اهتدوا فى هذا الجيل إلى أن أصل تلك المادة التى انفتق رتقها بما ذكر المؤلفة من عشرات العناصر قد كان مصدرها هذه الكهرباء التى دخلت بها علوم البشر وأعمالهم فى طور غريب عجيب ولا تزال عجائبها كل يوم فى ازدياد

والمسألة التى أشرنا إليها فى الحاشية التى علقناها على عبارة ابن القيم فى النور هى ماذكره أخيراً من أن للكهربائية دقائق - أو ذرات أو ذريرات أو جواهر فردة - مستقلة بنفسها سموها (الالكترونات) ورجحوا أنها هى قوام كل جواهر المادة التى يتألف منها بناء العالم العلوى والسفلى ، وأن اهتزاز هذه الذرات أو الجواهر الفردة هو سبب طيف النور، وأن له اهتزازات مختلفة وأنها هى منشأ تغير العناصر الطبيعية والكيمائية . وقد بينا من قبل أن هؤلاء العلماء قرروا القول من قبل بأن حركة المادة هى سبب جميع التغيرات والتطورات فى هذا العالم إذ هى منشأ النور والحرارة التى قلنا إنها تحول الجوامد إلى مائعات والمائعات إلى غازات ، فالظاهر من كل ما تقدم أن الكهرباء هى الأصل لكل الكائنات التى تقدر مساحتها بحسب بعض النظريات العلمية بمئة وخمسين مليون سنة من سنى النور، وهو يقطع فى الثانية ١٨٦٢٣٠ ميلا فى أقرب تقدير وأحدثه فى الدقيقة ٧،١٧٩،٨٠٠ وفى الساعة ٤٣٠،٧٨٨،٠٠٠ أى أربعمائة وثلاثين مليون ميل

وسبعمائة وثمانية وثمانين ألف ميل ، فكم يقطع فى اليوم ، ثم كم يكون فى السنة ؟؟
(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

إن ماظهر من أسرار القوة الكهربائية إلى الآن يقرب من العقل أن تكون إرادة الله تعالى وحكمته كما قالوا منشأ التكوين والتطور فى عالم الامكان بسرعة حركتها وكونها مصدر النور ، فارتباط أجزاء العالم بها وانتظامه بسنن الله تعالى فيها معقول ، وأما تولد العناصر منها وتجمعها وصيرورتها ماسديما كالدخان أو الغمام أو بخار الماء فهو طور ثان متأخر عن تولد بعض عناصر المادة من بعض وارتقاء ذلك فى سلسلة الأسباب المتقدمة إلى جواهر الكهربائية الفردة ، فاذا فرضنا أن الكهرباء أول ماخلق الله تعالى من المادة فانها تكون آخر حجاب مادى مما حال بين الماديين و بين معرفته تعالى فى الدنيا ، و يحول بينهم و بين رؤيته فى الآخرة ، فاذا انكشف هذا الحجاب وانتهى بالإيمان فى الدنيا فانه ينتهى بالرؤية فى الآخرة التى هى أكمل المعرفة

ولكن الحجب كثيرة كما تقدم وكون الكهرباء أول ماخلق الله تعالى من المادة لم يبلغ درجة العلم القطعى الآن ، فهى باعترافهم مركبة ، ومنقسمة إلى موجبة وسالبة ، وآثارها من إثارة الحركة وتوليد النور وغير ذلك إنما تكون باقتران الزوجين الموجب والسالب ، فيجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى ابتداء كما يجوز أن يكون بسبب مادى آخر ، أو بسبب روحى سابق عليها فى الخلق فيكون هو الحجاب الأخير الذى لا يبقى بعد انكشافه إن هو انكشف إلا معرفة الخالق ورؤيته كفاحا بدون حجاب البتة ــ فهذا ما أشرت إليه فى تلك الحاشية من التقريب بين ماورد من التجلى الإلهى فى الحجب ومن وراء الحجب ، ولكن كان من السهو جعلنا إياها على إجمالها و إبهامها فى مجموعة الحديث النجدية وأ كثر قرائها لا إلمام لهم بشىء من هذه العلوم والاصطلاحات التى يستغنون عنها فى هذا المقام بقوة إيمانهم واعتصامهم فيه بهدى السلف وتكرر التنبيه فيهما على أننا إنما نذكر أمثال هذه المسائل فى المنار وفى تفسيره التقريب معانى النصوص من عقول المطلعين على هذه العلوم من أبناء هذا العصر المفتونين بها ، فاذا رأى هؤلاء أن أبعد ماورد فى الكتاب والسنة عن مألوف البشر من أخبار عالم الغيب يتفق مع أحدث ماقرره العلم المبنى على التجارب والبحث العملى فالمرجو

أن يكون أجذب لهم إلى الإيمان، وهذا يكثر يوما بعد يوم، ومنه ما صار حقائق واقعة ومنه ما قرب منها حتى وردت الأنباء فى هذه الايام بالاهتداء إلى ضرب من العلاج بالكهربائية يعيد إلى الشيوخ قوة الشباب ونضارته وذلك يقرب كون أهل الجنة شبابا لا يهرمون، وسنقرب مسألة الرؤية بأوضح مثال فى بحث الكلام الإلهى، وقد صرحنا مرارا بأن كل ما نورده من تقريب وتأليف بين العلم والدين، ومن تفسير أو تأويل لرد شبهات الزائغين، فإننا لا نخرج به عن قاعدتنا فى المعتقد المعتمد عندنا فى جميع أمور الدين من العقائد والعبادات والفضائل، وهو ما كان عليه أهل الصدر الأول من سلفنا الصالح.

وقد سبق لنا بحث مثل بحثنا هذا على قاعدتنا هذه فى تفسير قوله تعالى (٢ : ٢٩٠ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) من جزء التفسير الثانى، بعضه لنا وبعضه للأستاذ الامام فيراجع فى ص ٢٦٠ـ٢٦٧

(تنبيه) ان ادخال مباحث علوم الكون فى التفسير هو من أهم أركانه والعمل بهدى القرآن فيه، فهو مملوء بذكر آيات الله فى خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، وكان سلفنا من مفسرى السلف والخلف يذكرون ما يعلمون من أسرار الخلق وكذا ما يتلقونه عن أهل الكتاب حتى الذين لا يوثق بعلمهم ولا روايتهم وهو مما ينتقد عليهم.

« الكلمة الجامعة الخاتمة فى مسألة الرؤية »

خلاصة الخلاصة أن رؤية العباد لربهم فى الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل النعيم الروحانى الذى يرتقى إليه البشر فى دار الكرامة والرضوان، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله تعالى فى كتابه المجيد (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وقوله فى الحديث القدسى الذى رواه عنه رسوله ﷺ «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأن هذا وذاك مما يدل على مذهب السلف الذى عبر بعضهم عنه بأوجز عبارة اتفق عليها جميعهم وهى « أنها رؤية بلا كيف » ويؤيد ذلك اضطراب جميع أصناف العلماء فى النصوص الواردة فى نفيها وإثباتها سواء منهم أهل اللغة وأساطين البيان، ونظار الفلسفة وعلم الكلام، ورواة الأحاديث والآثار

ومرتاضو الصوفية وأولو الكشف والإلهام ، فلم تتفق طائفة من هؤلاء على قول فصل قطعى تقنع به بقية الطوائف بدليلها اللغوى أو الأصولى أو العقلى أو فهم النص النقلى أو تسليم إلهامها الكشفى ، ولكن من نظر فى جميع ماقالوه نظر استقلال وانصاف يجزم بأن ماكان عليه عامة السلف من إثبات كل مايصح به النقل وتفويض تأويله الذى يكون عليه فى الآخرة إلى الله عز وجل هو الحق الذى يطمئن به القلب و يؤيده العلم والعقل فهو الأسلم والأحكم والأعلم والله يعلم وأنتم لاتعلمون.

﴿ خلاصة القول فى مسألة الكلام الإلهى ﴾

اضطرب المتكلمون فى الكلام الإلهى كما اضطربوا فى مسألة رؤيته تعالى واستوائه على عرشه وغيرهما من صفاته وشئونه فذهب الذين بنوا قواعد عقائدهم على اقتضاء التنزيه للتأويل إلى أن الكلام من صفات الافعال كالخلق والرزق (بالمعنى المصدرى) ولهذا قالوا إن القرآن مخلوق ، والحق الذى كان عليه السلف الصالح أن كلام الله تعالى صفة من صفاته الذاتية كالعلم وهو مثله لايقتضى التشبيه إذ من المعلوم بدليل النقل والعقل أن الخالق لايشبه المخلوق كما تقدم شرحه فى مسألة الرؤية فلا نعيده والعهد به قريب ، وإنما نكتب شيئا تقرب به المسألة من الافهام ، بعد تفنيد تقاليد علم الكلام ، فإن أكثر متكلمى الأشعرية قد عقدوها تعقيداً شديدا بما حاولوا به التوفيق بين نصوص أئمة السنة ونظريات العقل بقولهم : إن الكلام نفسى ولفظى ، فالأول صفة قديمة قائمة بذاته تعالى . والثانى عبارة عن ذلك المعنى القائم بالذات تؤدى باللفظ الذى يحصل بالصوت والحروف التى تكتب بالقلم ، وكل من الحروف والأصوات والألفاظ التى تكيفها الاصوات حادثة مخلوقة . قالوا : وإنما منع السلف من التصريح بذلك وأنكروا على من قال إن القرآن مخلوق ، لأن القرآن يسمى كلام الله بمعنى دلالته على صفة الله القديمة فلهذا الاشتراك يخشى أن يفضى القول بخلق كلمات القرآن الملفوظة والمكتوبة إلى القول بأن كلام الله تعالى الذى هو صفته القديمة مخلوق .

وهذه فلسفة مردودة مخالفة لمذهب السلف كأمثالها من تأويل سائر الصفات ، وهى غير معقولة المعنى أيضا ، فإن القرآن لامدلول له إلا معانى مفرداته وجملة هذه المعانى منها القديم وهى معانى أسماء الله تعالى وصفاته ، وسائرها حادثة

وقد ورد فيه ذكر « كلام الله » فى مواضع لامدلول لها إلا مايسمونه هم الكلام اللفظى ـ كقوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالمراد بكلام الله القرآن قطعا ، إذ لا يمكن أن يقال إنهم يسمعون صفة الله تعالى القائمة بذاته ، وقوله فى اليهود (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه) يعنى التوراة وقوله فى المخلفين من الاعراب (يريدون ان يبدلوا كلام الله) يعنى وعده فى القرآن فيما سبق فى السورة ، إذ لا يمكن أن يقال إن هؤلاء يبدلون وأولئك يحرفون صفة الله تعالى

وقد اغتر بهذه الفلسفة الكلامية الجماهير الكثيرون لصدورها عن بعض كبار النظار ، الذين ملأت شهرتهم الاقطار ، فاعجب الباحثون منهم بها ، وقلدهم الأكثرون فيها ، ورجع عنها أساطين المذهب بعد تمحيصها ومقابلتها بأقوال السلف المؤيدة بالنصوص . فأكثر المتكلمين المستقلين المخلصين رجعوا إلى مذهب السلف فى أواخر أعمارهم . ولكن بقى عامة الأشعرية متبعين لما قرروه لهم من قبل ذلك فى كتبهم ، كدأب الجماعات فى كل مايتخذونه مذهبا لهم ، على أن الرجوع كان فى الاغلب بالتدريج والمزج بين التفويض والتأويل ، فلم يشعر به إلا الافراد من أهل الدليل

وقد أعجبنى من كلام هؤلاء النظار المنيبين قول الإمام أبى محمد عبد الله الجوينى والد إمام الحرمين فى رسالة له فى نصيحة المسلمين عند رجوعه إلى مذهب السلف فى هذه المسألة واخواتها التى يتأولها أصحابه الأشاعرة لتصريحه ورده على شيوخه قال :(١)

«انى كنت برهة من الدهر متحيرا فى ثلاث مسائل : مسألة الصفات ومسألة الفوقية ومسألة الحرف والصوت فى القرآن المجيد ، وكنت متحيرا فى الأقوال المختلفة الموجودة فى كتب أهل العصر فى جميع ذلك من تأويل الصفات وتحريفها أو إمرارها والوقوف فيها ، أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل فأجد النصوص فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ناطقة منبئة بحقائق هذه الصفات ، وكذلك فى إثبات العلو والفوقية ، وكذلك فى الحرف والصوت . ثم

(١) طبعت هذه الرسالة فى مجموعة الرسائل (المنيرية هذه الايام فرأينا عبارتها جلية مؤيدة لما أجملناه فى بحث الرؤية فاحببنا نقلها لحسن بيانها واحترام الجمهور لصاحبها

أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم منهم من يؤول الاستواء بالقهر والاستيلاء، ويؤول النزول بنزول الأمر، ويؤول اليدين بالقدرتين أو النعمتين، ويؤول القدم بقدم صدق عند ربهم، وأمثال ذلك. ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله تعالى معنى قائما بالذات بلا حرف ولا صوت، ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم

« وممن ذهب إلى هذه الأقوال أو بعضها قوم لهم في صدري منزلة مثل طائفة من فقهاء الأشعرية الشافعيين لأني على مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه عرفت فرائض ديني وأحكامه فأجد مثل هؤلاء الشيوخ الاجلة يذهبون إلى مثل هذه الأقوال وهم شيوخي، ولي فيهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمهم، ثم انني مع ذلك أجد في قلبي من هذه التأويلات حزازات لا يطمئن قلبي إليها، وأجد الكدر والظلمة منها، وأجد ضيق الصدر وعدم انشراحه مقروناً بها، فكنت كالمتحير المضطرب في تحيره. المتململ من قلبه في تقلبه وتغيره

« وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الحصر والتشبيه، ومع ذلك فاذا طالعت النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أجدها نصوصاً تشير إلى حقائق هذه المعاني وأجد الرسول ﷺ قد صرح بها مخبراً عن ربه واصفاله بها، وأعلم بالاضطرار أنه ﷺ كان يحضر في مجلسه الشريف العالم والجاهل والذكي والبليد والاعرابي الجافي ثم لا أجد شيئاً يعقب تلك النصوص التي كان يصف ربه بها لا نصا ولا ظاهرا مما يصرفها عن حقائقها ويؤولها كما تأولها هؤلاء مشايخي الفقهاء المتكلمين، مثل تأويلهم الاستيلاء بالاستواء، ونزول الأمر للنزول وغير ذلك، ولم أجد عنه ﷺ أنه كان يحذر الناس من الإيمان بما يظهر من كلامه في صفته لربه من الفوقية واليدين وغيرها، ولم ينقل عنه مقالة تدل على أن لهذه الصفات معاني أخر باطنة غير ما يظهر من مدلولها»

بعد هذا شرع الإمام الجويني في إيراد النصوص من الكتاب العزيز والأحاديث النبوية في مسألة علو الرب تعالى وهي معروفة ولبعض حفاظ السنة فيها مصنفات خاصة كابن قدامة والذهبي، وكتاباهما مطبوعان عندنا. ثم قال في المسألة من وجهة النظر العلمية « ومن عرف هيئة العالم ومركزه من علم الهيئة وانه ليس له إلا جهتا العلو والسفل ثم اعتقد بينونة خالقه عن العالم فمن لوازم البينونة

أن يكون فوقه لأن جميع جهات العالم فوق وليس السفل إلا المركز وهو الوسط »

ثم إنه وضح هذه المسألة فى آخر الرسالة وقال قبل ذلك وبعد بيان مسألة صفة العلو :

« فصل » إذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبه التأويل وعمارة التعطيل، وحماقة التشبيه والتمثيل ، وأثبتنا علو ربنا سبحانه وفوقيته واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح فى ذلك والصدور تنشرح له ، فان التحريف تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف فى ذلك جهل وعىّ مع كون الرب تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقوفنا عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه فى تعريفنا إياها ، فما وصف لنا نفسه بها إلا لنثبت ماوصف به نفسه لنا ولا نقف فى ذلك[1] وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة . فمن وفقه الله تعالى للاثبات بلا تحريف ولا تكييف ولا وقوف فقد وقع على الأمر المطلوب منه إن شاء الله تعالى .

« فصل » والذى شرح الله صدرى فى حال هؤلاء الشيوخ الذين أولوا الاستواء بالاستيلاء والنزول بنزول الأمر واليدين بالنعمتين والقدرتين هو علمى بانهم مافهموا فى صفات الرب تعالى إلا مايليق بالمخلوقين ، فما فهموا عن الله استواء يليق به ولا نزولا يليق به ولا يدين تليق بعظمته بلا تكييف ولا تشبيه فلذلك حرفوا الكلم عن مواضعه وعطلوا ماوصف الله تعالى نفسه به ، ونذكر بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

« لاريب أنا نحن وإياهم متفقون على إثبات صفات الحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة والارادة والكلام لله ونحن قطعا لا نعقل من الحياة إلا هذا العرض الذى يقوم باجسامنا وكذلك لا نعقل من السمع والبصر إلا أعراضاً تقوم بجوارحنا فكما أنهم يقولون حياته ليست بعرض وعلمه كذلك وبصره

---

(١) فى كلام الجوينى هذا أوضح تفنيد لمنع بعض المتكلمين من تلقين العامة الآيات والأحاديث الواردة فى صفاته تعالى كما اقترحوه على شيخ الإسلام ابن تيمية بما كان لهم من المكانة عند الحكومة المصرية فى زمنه بعد الجوينى الذى يعدونه هو وولده امام الحرمين من شيوخهم وأئمتهم .

كذلك هي صفات كما تليق به لا كما تليق بنا فكذلك نقول نحن: حياته معلومة وليست مكيفة وعلمه معلوم وليس مكيفا وكذلك سمعه وبصره معلومان وليس جميع ذلك اعراضاً بل هو كما يليق به .

« ومثل ذلك بعينه فوقيته واستواؤه ونزوله ، ففوقيته معلومة أعني ثابتة كثبوت حقيقة السمع وحقيقة البصر فإنهما معلومان ولا يكيفان ، كذلك فوقيته معلومة ثابتة غير مكيفة كما يليق به . واستواؤه على عرشه معلوم غير مكيف بحركة أو انتقال يليق بالمخلوق ، بل كما يليق بعظمته وجلاله صفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت ، غير معقولة من حيث التكييف والتحديد ، فيكون المؤمن بها مبصراً من وجه أعمى من وجه ، مبصراً من حيث الإثبات والوجود ، أعمى من حيث التكييف والتحديد ، وبهذا يحصل الجمع بين الإثبات لما وصف الله تعالى نفسه به وبين نفي التحريف والتشبيه والوقوف ، وذلك هو مراد الرب تعالى منا في ابراز صفاته لنا لنعرفه بها ونؤمن بحقائقها ، وننفي عنها التشبيه ، ولا نعطلها بالتحريف والتأويل ، ولا فرق بين الإستواء والسمع ، ولا بين النزول والبصر ، الكل ورد في النص .

« فان قالوا لنا في الاستواء شبهتم ، نقول لهم في السمع شبهتم ، ووصفتم ربكم بالعرض ، فان قالوا لا عرض بل كما يليق به ، قلنا في الاستواء والفوقية لا حصر بل كما يليق به . فجميع مايلزموننا به في الاستواء والنزول واليد والوجه والقدم والضحك والتعجب من التشبيه نلزمهم به في الحياة والسمع والبصر والعلم ، فكما لا يجعلونها هم اعراضاً كذلك نحن لا نجعلها جوارح ، ولا مايوصف به المخلوق ، وليس من الانصاف أن يفهموا في الاستواء والنزول والوجه واليد صفات المخلوقين فيحتاجوا إلى التأويل والتحريف .

« فان فهموا في هذه الصفات ذلك فيلزمهم أن يفهموا في الصفات السبع[1] صفات المخلوقين من الأعراض فما يلزموننا به في تلك الصفات من التشبيه والجسمية فنلزمهم به في هذه الصفات من العرضية ، وما ينزهون ربهم به في الصفات السبع وينفون عنه

---

(١) يعني الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وهي التي يسمونها صفات المعاني ويجعلون مدار معرفة الله عليها .

عوارض الجسم فيها ، فكذلك نحن نعمل فى تلك الصفات التى ينسبوننا فيها إلى التشبيه سواء بسواء ، ومن أنصف عرف ماقلنا واعتقده وقبل نصيحتنا ودان لله باثبات جميع صفاته هذه وتلك ، ونفى عن جميعها التشبيه والتعطيل والتأويل والوقوف ، وهذا مراد الله تعالى لنا فى ذلك لأن هذه الصفات وتلك جاءت فى موضع واحد وهو الكتاب والسنة ، فاذا أثبتنا تلك بلا تأويل وحرفنا هذه وأولناها كنا كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض ، وفى هذا بلاغ وكفاية ان شاء الله تعالى

﴿ فصل ﴾ وإذا ظهر هذا وبان انجلت الثلاث المسائل بأسرها وهى مسألة الصفات من النزول واليد والوجه وأمثالها ومسئلة العلو والاستواء ومسئلة الحرف والصوت . أما مسألة العلو فقد قيل فيها ماقتحه الله تعالى وأما مسألة الصفات فتساق مساق مسألة العلو ولا نفهم منها مانفهم من صفات المخلوقين بل يوصف الرب تعالى بها كما يليق بجلاله وعظمته : فينزل كما يليق بجلاله وبعظمته ، ويداه كما يليق بجلاله وعظمته ، ووجهه الكريم كما يليق بجلاله وعظمته . فكيف ننكر الوجه الكريم ونحرف ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى دعائه « أسألك لذة النظر إلى وجهك » وإذا ثبتت صفة الوجه بهذا الحديث وبغيره من الآيات والنصوص فكذلك صفة اليدين والضحك والتعجب ، ولا نفهم من جميع ذلك إلا مايليق بالله عز وجل وبعظمته لا مايليق بالمخلوقات من الأعضاء والجوارح تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

(ثم قال) وأما مسألة الحرف والصوت فتساق هذا المساق فان الله تعالى قد تكلم بالقرآن المجيد وبجميع حروفه فقال تعالى (الم) وقال (المص) وقال (ق والقرآن المجيد) وكذلك جاء فى الحديث فينادى يوم القيامة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » وفى الحديث « لاأقول الم حرف . ولكن الف حرف ، لام حرف ميم حرف » فهؤلاء مافهموا من كلام الله تعالى إلا مافهموه من كلام المخلوقين فقالوا ان قلنا بالحروف فان ذلك يؤدى إلى القول بالجوارح واللهوات [1] وكذلك إذا

---

(١) اللهوات جمع لهاة ، وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى الفم ، ويجمع أيضا على لهى ولهات .

قلنا بالصوت أدى ذلك إلى الحلق والحنجرة ، عملوا في هذا من التخبط كما عملوا فيما تقدم من الصفات

« والتحقيق هو أن الله تعالى قد تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فانه قادر والقادر لا يحتاج إلى جوارح ولا إلى لهوات ، وكذلك له صوت كما يليق به يسمع ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس إلى الحلق والحنجرة : كلام الله تعالى كما يليق به وصوته كما يليق به ، ولا ننفي الحرف والصوت عن كلامه سبحانه لافتقارهما منا إلى الجوارح واللهوات ، فانهما من جناب الحق تعالى لا يفتقران إلى ذلك . وهذا ينشرح الصدر له ويستريح الإنسان به من التعسف والتكلف بقوله : هذا عبارة عن ذلك

« فان قيل هذا الذي يقرؤه القارىء هو عين قراءة الله تعالى وعين تكلمه هو ؟ قلنا لا بل القارىء يؤدي كلام الله تعالى والكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئا لا إلى من قاله مؤديا مبلغا ، ولفظ القارىء في غير القرآن مخلوق وفي القرآن لا يتميز اللفظ المؤدى عن الكلام المؤدى عنه ، ولهذا منع السلف عن قول « لفظي بالقرآن مخلوق » لأنه لا يتميز كما منعوا عن قول « لفظي بالقرآن غير مخلوق » فان لفظ العبد في غير التلاوة مخلوق وفي التلاوة مسكوت عنه كيلا يؤدي الكلام في ذلك إلى القول بخلق القرآن وما أمر السلف بالسكوت عنه يجب السكوت عنه والله الموفق اهـ

(يقول مؤلف هذا التفسير) ان لدينا في تقريب صفة الكلام من الافهام قولا آخر ، وهو ان جميع ماثبت في النصوص من صفات الله تعالى وشؤونه فالتعبير عنه مستعار مما وضعه الناس في اللغة لأنفسهم فنفهم بهذه المراد من تلك بقدر الطاقة البشرية ونعرف بدليلي العقل والنقل الفرق بينهما وأن النسبة بينهما المباينة في الحقيقة . وقد عبر أبو حامد الغزالي عن ذلك تعبيرا بليغا في قوله من كتاب الشكر من الإحياء :

« إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع ، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها ، فلم تكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادىء إشراقها ،

فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض فى نور الشمس ولكن لضعف فى أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا : لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع » ثم ذكر المشيئة والمحبة والكراهة والرضا والغضب ، فلم يفرق بين ما يسمونه صفات المعاني وما يسمونه صفات الأفعال التي يتأولها أصحابه الأشعرية تحكما منهم .

ونحن نعلم من أنفسنا أن لنا كلاما هو صفة من صفاتنا وشأن من شؤوننا تتعلق بما يتعلق به علمنا ولكن تعلق العلم عبارة عن انكشاف المعلومات للنفس وتعلق الكلام عبارة عن كشفها وتصويرها بما يدل عليها فى النفس أو لمن تريد كشفها له ، تقول : حدثتنى نفسى بكذا ، وقلت فى نفسى كذا ، وفى حديث عمر يوم السقيفة « وكنت زورت فى نفسى مقالة » يعنى هيأت فى نفسى كلاما لأقوله . وقال الشاعر :

عندى حديث أريد اليوم أذكره   وأنت تعلم دون الناس فحواه

وأما أداء الكلام لمن تريد اعلامه ببعض ما نعلم فله طرق أعمها تعبير اللسان ويليه تعبير القلم ، والأول غريزة فى النطق خاصة بالبشر بمقتضاها تواضعوا على الألفاظ الدالة على معانى المعلومات ، فاتسعت بقدر اتساع دائرة علومهم ، والثانى صناعة هداهم الله تعالى إليها بشعورهم بالحاجة إلى إيصال معلوماتهم إلى البعيد عنهم الذى لا يسمع كلامهم اللسانى و إلى حفظها لمن يجيء بعدهم . وقد استحدثوا فى هذا العصر آلة لخطاب البعيد باللسان سموها (التليفون) وسميناها (المسرة) بكسر الميم وتشديد الراء[1] توصل الكلام من دار إلى دار ومن بلد أو قطر إلى آخر بأسلاك كهربائية تصل بين آلات المتخاطبين وقد استغنوا أخيرا عن هذه الاسلاك فى بعض المواضع . واستحدثوا آلة لحفظ الأصوات الكلامية وغيرها وإعادتها عند الحاجة ولو بعد موت صاحبها سموها (الفونغراف) وكانوا استحدثوا قبل ذلك آلة لنقل الكلام من مكان إلى مكان فى البلد الواحد وفى البلاد

(١) أخذناها من قول القاموس : المسرة بكسر الميم الآلة يسار بها كالطومار

والأقطار المختلفة بأسلاك كهربائية موصلة بين الآلات المؤدية للكلام والقابلة له بما هو من قبيل الخط لا الصوت ، وهى الآلة المعروفة بالتلغراف .

فكل من هذا وذاك أداء للكلام الذى يقوم فى نفس صاحبه ويريد ايصاله إلى غيره وكل منها يسمى كلامه حقيقة كما يعلم من استعمال العرب الخلص والمخضرمين والمولدين الذين تلقوا عنهما ومن بعدهم ، وللأخطل الشاعر المشهور فى دولة بنى أمية بيت من الشعر تداوله المتكلمون واستشهدوا به على الكلام النفسى والكلام اللفظى ، يفهم منه أن الأول عنده هو حقيقة مدلول الكلمة وأن الثانى مجاز مرسل وهو :

ان الكلام لفى الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وليس هذا بحجة لغوية على ماذكر ، وقصارى الاحتجاج بشعر الشاعر أن استعماله الذى يستعمله صحيح فى اللغة فى مفرداته وتركيبه ، وذلك لا يقتضى أن يكون رأيه فيه صحيحا ، ولا أن يكون كل مايقوله حقا فى الواقع ولا فى اعتقاده ولاسيما إذا كان شعرا ، فاستعمال العرب لمادة الكلام تدل على أن اللفظ المركب الدال بالوضع على المعانى كلام حقيقة ، وقد قال الزمخشرى فى حقيقة الأساس من هذه المادة : سمعته يتكلم بكذا ، وكلمته وكالمته ، وكانا متصارمين فصارا يتكالمان ، وموسى كليم الله . ونطق بكلمة فصيحة وبكلمات فصاح وبكلم اه

فلكلام الإنسان صفة أو ملكة فى نفسه يناجيها بها ويصور فيها ما ينظمه أو يقدره ويزوره ليخاطب به غيره ، وصفة أو ملكة فى لسانه ، وصفة أو صورة فيما يرسمه بقلمه على الورق ، وصورة أخرى فيما يحرك به آلة التلغراف السلكي أو غير السلكى مخاطبا لبعض الناس فى بعض البلاد ، وصورة أخرى فى الهواء تحدث عند النطق به زمنا قصيرا ، وقيل انه أطول مما يظن ، وصورة أخرى فيما ينقشه المكرفون فى لوح آلة الفونوغراف تكون محفوظة فيه إلى أن تعيده الآلة كما ألقى فيها صوتا مؤلفا من الألفاظ الدالة على المعانى .

وكلام كل أحد ما ينشئه فى نفسه ويؤديه إلى غيره بطريقة من الطرق التى ذكرناها ، وينقل عن قليل من البشر أنهم قد يؤدون بعض كلامهم الذى فى أنفسهم إلى بعض المستعدين بقوة توجيه الارادة وانهم قد يطلعون على بعض

ما يجول فى أنفس غيرهم من الكلام ، فمن لم يصدق هذا عنهم فليعد الاعتبار به من ضرب المثل ، ومهما تكن الوسيلة التى وصل بها علم المنشىء للكلام إلى غيره فان غيره يصير مثله فى تصوره فى نفسه وفى تصويره لغيره بالوسائل المشار اليها آنفاً ، مثال ذلك قول لبيد (رض)

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

تألف نظم هذا البيت فى نفس لبيد بمقتضى الصنعة والغريزة التى بها يصور الانسان مافى علمه لنفسه ولغيره ، وسمعه الناس من لسانه فنقلوه عنه بألسنتهم ثم بأقلامهم ، ولا يزال بعضهم يرويه عن بعض، ويمكنهم فى هذا العصر أن يتناقلوه بالتلفون والتلغراف . ولكنه فى أى صورة ظهر وبأية وسيلة نقل هو من كلام لبيد قاله منذ أربعة عشر قرنا ، وليس كلام أحد ممن ينشده اليوم بلسانه أو يرقمه بقلمه أو يؤديه الى غيره بالتلغراف أو غيره

إذا تذكرت هذا كله فى كلام الانسان المخلوق على ضعفه ونقصه . وأن الكلام من صفات الكمال التى أثبتها الله تعالى لنفسه — وتذكرت مع هذا كمال الخالق وتنزهه عن مشابهة خلقه فى ذاته وصفاته وأفعاله — وأنه كلفك الايمان بوجوده وباتصافه بجميع ماوصف به نفسه من غير تعطيل ولا تشبيه — فأى عثرة يعثر بها عقلك إذا آمنت بأن لله تعالى كلاما هو صفة من صفاته الثابتة له أزلا وأبدا لأنها مرآة علمه الأزلى الأبدى ، وأنه بلغ بعض رسله من الملائكة ماشاء من كلامه ليوحوه الى رسله من البشر ليبلغوه لأممهم كما خاطب موسى بما شاء منه ، وأن هذا الكلام واحد على اختلاف تبليغه وحفظه ، فقيامه بذات الله تعالى غير تمثله فى نفس جبريل ، وفى نفس موسى ، حين سمعه من وراء حجاب ، وأداء جبريل إياه ونزوله به على قلب محمد ﷺ وعلى من قبله من الرسل (ع.م) غير أداء الله تعالى إياه الى جبريل ، وقيامه فى نفس الملك غير قيامه فى البشر ، كما أن قيامه فى الهواء عند التلفظ به غير قيامه فى لوح الفونغراف ، وكلاهما غير قيامه فى الصحف وكونه على اختلاف صوره وطرق أدائه واحداً فى كونه كلام الله القديم الأزلى كما قلنا فى بيت لبيد من كون انشادنا له وكتابتنا إياه اليوم لاينافى كونه كلام لبيد القديم

النفسي غير الأزلي — وكلام الله القديم الأزلي حقيقة أولى (ولله المثل الأعلى) فلا حاجة تدعو العقل الى وصفه بأنه مخلوق أو حادث . لأن المخلوقين المحدثين يتناقلونه بألسنتهم وأقلامهم ، وسائر آلاتهم المحدثة ، ولا إلى التفصي من القول بأنه ذو حروف مرتبة ، ولا بأن تلقيه يسمى سماعا . كقوله تعالى (حتى يسمع كلام الله)

إذا جعلت هذا البيان وسيلة لفهم ما ورد في الكتاب والسنة من إثبات الكلام لله تعالى وكون ما أوحاه الى رسله عليهم الصلاة والسلام من كلامه تعالى مع اجتناب التعطيل والتشبيه جميعا وفاقا للسلف الصالح ، ومع التقريب بالمثال المناسب لحال هذا العصر في علومه وفنونه ، فلك بعد هذا أن تجعله مثالا يقرب من عقلك معنى تجلي الرب سبحانه في الصور المختلفة والحجب على تنزهه عن مشابهة تلك الصور والحجب

قد علمت أن للكلام حقيقة ، ولك — مع أمن اللبس — أن تقول صورة هي مظهر العلم في النفس ومبدأ إظهار ما شاء العالم المتكلم أن يظهره من علمه لغيره ، وأن له صورا أخرى في أنفس من ألقي اليهم شيء منه على اختلاف أحوال أنفسهم من ملكية و بشرية ، وصورا أخرى في الهواء وفي الخط على الكاغد وفي النقش على ألواح الفونوغراف . وهذه الصور على مابينها من التباين التام مظاهر لحقيقة واحدة هي ما أراد العالم المتكلم إظهاره من علمه بكلامه كبيت لبيد الشاعر ـ وكقوله تعالى (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد)

فمن تلقى هذه الصورة من لسان القارىء ، أو من الصورة التي كتبت بها السورة بحروف من الخط الكوفي ، أو النسخي أو الفارسي أو غيرها علم بها من كلام الله عين ماعلمه جبريل وموسى ومحمد وغيرهم من الرسل في التلقي عن الله تعالى بلا واسطة ، أو التلقي عن جبريل عليه السلام . وهو عين كلام الله تعالى القائم بنفسه من حيث إنه هو المظهر لمعاني هذه السور من علمه ومن حيث إنه لا عمل

ولا كسب لأحد من المبلغين لها فى تأليف عبارتها لا جبريل ولا محمد عليهما السلام ولا الصحابة الذين بلغوها للتابعين قولا وكتابة ، ولا يقتضى هذا تأويل الكلام الإلهى ولا تعطيله ولا حدوثه ، ولا تشبيهه بكلام خلقه . كما أن علمه تعالى لا يشبه علم خلقه ، ولا يقتضى أيضا ان نكون قد أدركنا كنه هذه الصفة بفهمنا لما بلغنا تعالى إياه من علمه بها ، كما أن اطلاعه إيانا على ما علمه فى الأزل وفيما لا يزال من كونه أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد — لا يقتضى إدراك كنه علمه بذلك ، بل نحن لم ندرك كنه كلامنا فى أنفسنا ولا فى الهواء ولا فى غيره مما ذكر آنفا

وكذلك نقول : إن ماثبت فى الصحاح من تجلى الرب تعالى فى الصور المختلفة وتعرفه لمن شاء ببعضها دون بعض لا يقتضى حدوثه ولا مشابهته للصور ولا لحجاب النور ولا لغيره من خلقه ولا إدراك كنهه عز وجل : ومعرفة المؤمنين له ببعضها دون بعض المعرفة بعضهم لكلامه بتبليغ اللسان دون الكتابة أو بالكتابة دون اللسان ، وكل ذلك كمال له وإنما النقص ما تخيله نفاة الرؤية والصفات من جعل الخالق تعالى معنى سلبيا

﴿ تتمة السياق فى الرؤية والكلام ﴾

أخبرنا الله تعالى فى الآيات السابقة بأنه منع موسى رؤيته يعني فى الدنيا وبشره بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالته وبكلامه ، ثم أخبرنا فيها بما آتاه

يومئذ بالإجمال فقال ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ﴾ أى أننا أعطيناه ألواحا كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر فى القلوب ترغيبا وترهيبا . وتفصيلا لكل نوع من أصول التشريع وهى أصول العقائد والآداب، وأحكام الحلال والحرام . وتفصيلها ذكرها معدودة مفصولا بعضها من بعض . وإسناد الكتابة إليه تعالى إما على معنى أن ذلك كان بقدرته تعالى وصنعه لا كسب لأحد فيه ، وإما على معنى أنها كتبت بأمره ووحيه سواء كان الكاتب لها موسى أو الملك (عليهما السلام) قال بعض المفسرين: إن الألواح كانت مشتملة على التوراة وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة

والراجح أنها كانت أول ماأوتيه من وحى التشريع فكانت أصل التوراة الاجمالى وكانت سائر الأحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل عليه و يخاطبه الرب تعالى بها فى أوقات الحاجة إليها كالقرآن ، واختلفوا فى عدد الألواح فقيل كانت عشرة وقيل سبعة وقيل اثنين ، قال الزجاج يجوز أن يقال فى اللغة للوحين ألواح . وهذا كل مايصح أن يذكر من خلافهم فيها . . وأما تلك الروايات الكثيرة فى جوهرها ومقدارها وطولها وعرضها وكتابتها وما كتب فيها كلها من الإسرائيليات الباطلة التى منها فى المسلمين أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه واغتر بها بعض الصحابة والتابعين ان صحت الروايات عنهم وقد لخص السيوطى منها فى الدر المنثور ثلاث ورقات ــ أى ست صفحات ــ واسعات من القطع الكبير ، وليس منها شىء يصح أن يسمى درة و إن كان منها أن الألواح من الياقوت أو من الزمرد أو من الزبرجد كما أن منها أنها من الحجر ومن الخشب ، وقد أعجبنى من الحافظ ابن كثير أنه لم يذكر من تلك الروايات شيئا على سعة اطلاعه ، وقد تبع فى هذا عمدته فى التفسير ابن جرير رحمهما الله تعالى ، ولكن ذكر بعضها الألوسى من المتأخرين تبعاً لغيره كرواية الطبرانى والبيهقى فى الدلائل عن محمد بن يزيد الثقفى قال : اصطحب قيس بن خرشة وكعب الأحبار حتى إذا بلغا صفين وقف كعب ثم نظر ساعة ثم قال : ليهراقن بهذه البقعة من دماء المسلمين شىء لا يهراق ببقعة من الأرض مثله . فقال قيس : مايدريك ؟ فإن هذا من الغيب الذى استأثر الله به ، فقال كعب مامن الأرض شبر إلا مكتوب فى التوراة التى أنزل الله على موسى مايكون عليه ومايخرج منه إلى يوم القيامة واستدل به الألوسى على أن قوله تعالى (من كل شىء) على أوسع مايحمله اللفظ من العموم وأنا أظن أن هذا القول موضوع على كعب و إن كنت أخالف الجمهور فى مسألة تعديله ، وتأول الألوسى له هذا القول الظاهر بطلانه بالبداهة بقوله : ولعل ذلك من باب الرمز كما ندعيه فى القرآن اه . وماذكرت هذا إلا للتعجيب من فتنة هذه الروايات الباطلة إلى أى حد وأى زمن وصل تأثيرها السىء حتى أن هذا النقادة قد اغتر بمثل هذا منها وتأويله بما هو باطل مثله ، فانه لم يصح عن أحد من أئمة المسلمين الذين يعتد بعلمهم بكتاب الله تعالى أنه ليس فى العالم أو فى الأرض شبر إلا وقد كتب فيه (أى القرآن) مايقع فيه وما يخرج منه : و إنما قال مثل هذا بعض المجازفين

والخياليين من الصوفيـة على أنه من الكشف الذى يدعونه . راجع تفسـير (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) فى ص ٣٩٤ – ج ٧ تفسير

هذا ، وأما ماورد فى التوراة الحاضرة فى شأن الألواح فمنه ماجاء فى سفر الخروج من (٢٣ : ١٢) وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعلمهم الكلمات العشر)وجاء فى وصف اللوحين منه (٣٢ : ١٥ ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده : لوحان مكتوبان على جانبيهما ، من هنا ومن هناك كانا مكتوبين ١٦ واللوحان هما صنعة الله والكتابة هى كتابة الله منقوشة على اللوحين) وفيه أن موسى رمى باللوحين من يديه عندمارأى العجل الذى عبده قومه فى أيام مناجاته لله تعالى ،وفى أول الفصل (٣٤ : ١ ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحى حجر كالأولين فاكتب عليهما الكلام الذى كان على الحجرين الأولين اللذين كسرتهما . . . ـ ٤ فنحت لوحى حجر كالأولين و بكر موسى فى الغداة وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب وأخذ فى يده لوحى الحجر) و يليه أن الرب هبط فى الغمام ووقف عنده هناك ومر قدامه ووعده ووصاه وأمره بأوامر ونهاه عن أمور و يلى ذلك (٢٧ وقال الرب لموسى اكتب لك هذا الـكلام لأنى بحسبه عقدت عهداً معك ومع بنى إسرائيل ٢٨ وأقام هناك عند الرب أربعين يوما وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلام العهـد الكلمات العشر) وههنا يحتمل أن يرجع ضمير «فكتب» إلى الرب تعالى وأن يرجع إلى موسى ، ولو لم يرد ماتقدم عن (٣٢ : ١٦) لكان هذا متعينا بقرينة قول الرب له قبله أكتب لك هـذا الـكلام ، وله نظائر . وأما الوصـايا العشر فقد نقلنا نصها فى تفسير (٦ : ١٥٤ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن) من صورة الانعام عقب وصايا القرآن التى هى أجمع وأكمل منها (ص ٢٠٢ ج ٨ تفسير)

ومن هذا الذى نقلناه هنا يعلم مافى تلك الاسرائيليات التى أوردها السيوطى فى التفسـير المأثور من المخالفة للتوراة ، إذ من المعلوم أن ماكان من التحريف اللفظى فى التوراة من نقص وزيادة وغلط قد كان قبل الإسـلام ، ولم يكن بعده إلا التحريف المعنوى ـ فما فى تلك الروايات من تعيين جوهر الألواح ومساحتها وكتابتها وماكتب فيها من وصف أمة محمد (ص) وغيره مما يخالف هذه التوراة

فهو باطل أراد به واضعوه أن يذكر المسلمون فى تفسير القرآن وغيره من كتبهم مايصد اليهود وغيرهم عن الإسلام ، بأن دعوته مبنية على الكذب والبهتان ، ولم يدر أولئك الذين كانوا يكتبون كل ما يسمعون شيئاً من هذا الكيد والمكر اليهودى ، ونحمد الله أنه لم يرج منه على جهابذة نقد الحديث إلا القليل

وأما قوله تعالى ﴿ فخذها بقوة ﴾ فهو مقول قول مقدر لأنه أمر لموسى والخطاب قبله للنبى الخاتم عليهما الصلاة والسلام ـ والمعنى كتبنا له فى الألواح ماذكر، وقلنا له خذها بقوة ـ أو وقلنا له هذه رسالتنا أو وصايانا وأصول شريعتنا وكلياتها فخذها بقوة ، أى حال كونك ملتبساً بجد وعزيمة وحزم ، أو أخذا بقوة وعزم ، وذلك أن المراد بها تكوين شعب جديد بتربية جديدة شديدة مخالفة كل المخالفة لما نشأ عليه من الذل والعبودية لفرعون وقومه والأنس بما كانوا عليه من الشرك والوثنية ومفاسدها ، فاذا لم يكن المتولى تربيةهؤلاء القوم والمرشد لهم صاحب عزيمة قوية وبأس شديد وعزم ثابت فانه يعجز عن سياستهم وتربيتهم ، و يفشل فى تنفيذ أمر الله فيهم

﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ قيل إن (أحسن) هنا بمعنى ذى الحسن التام الكامل وليس فيه معنى تفضيل شىء آخر ، وهو ما يعبرون عنه بقولهم : اسم التفضيل على غير بابه ـ أى وأمرقومك بالاستمساك والاعتصام بهذه المواعظ والأحكام المفصلة فى الألواح التى هى كاملة الحسن ـ وقيل إنه على الأصل فيه من تفضيل بعض المضاف إليه على بعض ومنه الحقيقى والاعتبارى والاضافى ، فأصول العقائد من الإيمان بالله تعالى وتوحيده وتنزيهه أفضل وأشرف من الأحكام العملية ، ولكن لا يصح أن يراد هنا ، قيل إلا إذا أريد بالأخذ الشروع والابتداء ـ والأوامر أفضل من النواهى و يصح أن تراد فى مثل الأمر بعبادة الله وحده والنهى عن اتخاذ الصوروالتماثيل، وكلاهما من الوصايا التى كتبت فى الألواح وذلك أن الإخلاص لله تعالى فى العبادة أمر وجودى يتحلى به العقل وتتزكى به النفس ، وترك اتخاذ الصور والتماثيل أمر سلبى محض إذا لم يكن أثرا للاخلاص فى العبادة وسدا للذريعة فلا قيمة له فانه لم ينه عنه إلا لأنه من ذرائع الشرك ، و إلا فقد يتركه المرء لعدم الداعية وان كان مشركا ـ والفرض أفضل من النفل ، ولكن ليس فى الوصايا العشر نوافل و يقال مثله فى قولهم

والعزيمة أفضل من الرخصة ، ومثل هذا التعبير قوله تعالى (واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم) والمجال فيه أوسع، فان القرآن أحسن ما أنزله الله تعالى إلى خلقه على ألسنة رسله باكماله تعالى الدين به وبغير ذلك من مزاياه ، والخطاب فيه لأمة الدعوة أى للناس كافة لأنه معطوف على قوله (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) ثم ان فيما أنزله فيه العزيمة والرخصة وفيه من الندب ماهو أفضل من مقابله كالصدقة بالدين بدل انظار المعسر به وهو واجب ، وكالعفو فى مقابلة القصاص .

وقوله تعالى ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ من حكاية خطابه لقوم موسى بالتبع له ، إذ وجه الأمر فيما قبله إليه وإليهم، فهو داخل فى مقول القول الذى خوطب به نبينا ﷺ من قصتهم ، والجملة استئناف لبيان عاقبة الذين فسقوا عن أمر الله وجحدوا بآياته فلم يأخذوا بأحسنها ، كأنه يقول: إن لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة وتتبعوا أحسنه كنتم فاسقين عن أمر ربكم، فيحل بكم ماحل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجاكم الله منهم ونصركم عليهم، وسيريكم ماحل بهم بعدكم من الغرق. أو الفاسقين من سكان البلاد المقدسة والمباركة التى وعدكم إياها وسينصركم عليهم بطاعتكم له وأخذكم ميثاقه بقوة

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيرها : أى سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتى كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب . وقال ابن جرير: وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً مايصير إليه حال من خالفني - على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصرى - وقيل معناه سأريكم دار الفاسقين أى من أهل الشام وأعطيكم إياها، وقيل منازل قوم فرعون . والأول أولى والله أعلم، لان هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه ، والله أعلم اهـ ومن مباحث رسم المصحف الإمام أن كلمة (سأريكم) زيد فيها واو قبل الراء لئلا تشتبه بسأراكم، إذ كانوا يرسمونها بالياء غير منقوطة فالمراد بها ضبط الكلمة كالضمة والله أعلم.

والعبرة التى يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارىء لهذه الآية من وجوه (أحدها) أن الكتاب الالهى يجب أخذه بقوة وإرادة وجد عزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الاصلاح وتكوين الأمة تكويناً جديداً صالحاً ، ويتأكد ذلك فى الرسول

المبلغ له والداعى إليه والمنفذ له بقوله وعمله ، ليكون لقومه فيه أسوة حسنة .وتلك سنة الله تعالى فى سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية وإن لم تكن بهداية الدين ، والدين أحوج إلى القوة والعزيمة لانه اصلاح للظاهر والباطن جميعاء وقد أمر الله تعالى بنى اسرائيل بما أمر به رسولهم ﷺ من أخذ الكتاب، أو ميثاق الكتاب ، بقوة أمراً مقروناً بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم ، كما تقدم فى سورة البقرة (٢ : ١٣ و٩٣) وسيأتى مثله فى هـذه السورة (الاعراف) وقد أخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الأمم التى كان لها من القوى العددية والحربية والنظامية والمالية والصناعية ماليس لهم ، وإنما سادوا بالعمل بهدايته كما أراد الله تعالى ـ لا بالتغنى بقراءته فى المحافل ، ولا بالتبرك المحض بالمصحف ، كما يفعل مقلدة الخلف الطالح ، إن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به فى الدنيا والآخرة ، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالاعراض عنه وهجر هدايته فى الدنيـا والآخرة (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) .

(ثانيها) أن سبب تخويف بنى إسرائيل عنـد تبليغهم الميثاق الإلهى بوقوع الجبل بهم وأمرهم فى تلك الحال أن يأخذوه بقوة هى أن أحـكام التوراة التى أخذ عليهم الميثـاق بأخذها بقوة شاقة حرجة ، وحكمة مافيهـا من الشدة والحرج أن القوم كانوا مستضعفين مستذلين باستعباد المصريين لهم منـذ أجيال كثيرة وكان القوم أو الأقوام الذين وعدوا بأن يغلبوهم على بلادهم جبـارين أولى قوة وأولى بأس شديد ، وكان من سنة الله تعالى فى البشر أن تتربى أفرادهم وشعوبهم بالشدة والارتياض بالصبر ، والجهـاد بالمال والنفس ، ولهذا أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببنى إسرائيل فى طريق التيـه وهو الجنوبى من برية سيناء دون الطريق الشمالى القريب من مدن فلسطين إذ لم يكن لهم طاقة بقتال جبارى الكنعانيين وقتئذ ، فكتب الله تعالى عليهم التيه أربعين سنة ملك فى أثنائهـا الذين استذلهم المصريون ونشأ من صغارهم ومواليـدهم جيل جديد تربى فى حجر الشرع الجديد ، والتيـه الشديد ، كما بيناه فى تفسير سورة

المائدة (ص ٣٣٢ – ٣٣٨ ج ٦ تفسير)

(ثالثها) أن الاسرائيليين قد عظم ملكهم باقامة شريعتهم بقوة حتى إذا غلب الغرور على العمل وظنوا ان الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم لنسبهم ولقبهم وهو «شعب الله» فسقوا وظلموا ، فأنزل الله بهم البلاء ، وسلط عليهم البابليين الأقوياء ، فثلوا عرشهم وتبروا ملكهم ، ثم ثابوا إلى رشدهم ، فرحمهم الله واعاد لهم بعض ملكهم وعزهم ، ثم ظلموا وأفسدوا فسلط عليهم النصارى فمزقوهم كل ممزق ، فظلوا عدة قرون متكلين على المسيح الموعود ليعيد لهم ملكهم بخوارق العادات ، ثم ربتهم الشدائد ونورهم العلم العصرى فطفقوا يستعدون لاستعادة هذا الملك بكل ما فى الامكان من الأسباب وفى مقدمتها المال والنظام والكيد والدهاء مع المحافظة على التقاليد الدينية فى ذلك حتى انتهى بهم السعى إلى استخدام الدولة البريطانية بما فصلناه فى بيان العبرة فى قوله تعالى (١٣٦ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) من هذه السورة (ص ٩٧ ج ٩)

(رابعها) ان المسلمين الذين اتبعوا سننهم وسنن النصارى شبرا بشبر وذراعا بذراع فى الضر دون النفع كما فصلناه فى غير هذا الموضع قد اغتروا بدينهم كما اغتروا واتكلوا على لقب « الاسلام » ولقب « أمة خاتم الرسل » ﷺ ، ولكنهم لم يثوبوا إلى رشدهم ، لأن الذين سلبوا ملكهم وعزهم لم يسوسوهم بشدة مربية كافية ، بل اجتهدوا فى إفساد عقائدهم وأخلاقهم ، وإيقاع الشقاق والتفريق فيما بينهم ، بل أفسدوا كذلك من لم يستولوا على ملكهم منهم ، بتوليهم التربية والتعليم لكثيرين منهم ، كانوا عونا لهم على ما يريدون من ثل عروشهم والسيادة عليهم بالتدريج كالعثمانيين والمصريين كما فصلناه فى مواضع أخرى [1] ولا يزال هؤلاء المتفرنجون المخربون يجدون فى قتل هذه الأمة وهم يظنون أنهم يجددون ، ويفسدون عليها أمرها ويحسبون أنهم يصلحون (ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون)

(١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ

(١) أقربها مقالة « ماضى الأزهر وحاضره ومستقبله » فى ج٩ من المنار م٢٥

بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟

انتهى بالآية التى قبل هاتين الآيتين فصل من فصول قصة موسى عليه السلام وهاتان الآيتان استئناف مرتب على جملة ماتقدمه منها بين الله فيه لخاتم رسله فى الأولى منهما سنته فى ضلال البشر بعد مجىء البينات فى كل زمان، ويدخل فيه قوم فرعون من الغابرين دخولا أوليا، وينطبق على رؤساء كفار قريش المعاندين له ﷺ من الحاضرين وبين فى الثانية جزاءهم على تكذيبهم وكفرهم، قال:

﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ هذا بيان لسنته تعالى فى تكذيب البشر لدعاة الحق والخير من الرسل وورثتهم وسببه الاول التكبر فان من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى لأجل اتباعه، فهم يكونون دائما من المكذبين بالآيات الدالة عليه الغافلين عنها وتلك حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملئه. وإنما ذكرت هذه السنة العامة من أخلاق البشر بصيغة المستقبل لإعلام النبى ﷺ بأن الطاغين المستكبرين من مشيخة قومه لن ينظروا فى آيات القرآن الدالة على صدقه ﷺ فى دعوى الرسالة من وجوه كثيرة بيناها مرارا، والدالة على وحدانية الله تعالى بما أقامته عليها من البراهين الكثيرة ولا فى غيرها مما أيده ويؤيده به من آياته الكونية لتكبرهم فى الأرض بالباطل، فوجهة نظرهم تنحصر فى تفضيل أنفسهم عليه ﷺ بأنهم سادة قريش وكبراؤها وأغنياؤها وأقوياؤها فلايليق بهم أن يتبعوا من هو دونهم سنا وقوة وثروة وعصبية، والمعنى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق من قومك أيها الرسول ومن غيرهم فى كل زمان ومكان كما صرفت فرعون وملأه عن آياتى

التى آتيتها رسولى موسى — والتكبر صيغة تكلف أو تكثر من الكبر الذى هو غمط الحق بعدم الخضوع له واحتقار الناس، فهو شأن من يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق ، أو يساوى نفسه بشخص ، والأصل الغالب فى التكبر أن يكون بغير الحق ، وقد يتصور أن يتكلف الانسان اعلاء نفسه على غيره أو اكثاره من الاستعلاء عليه بحق كالترفع عن المبطلين ، واهانة الجبارين ، واحتقار المحاربين . فقوله تعالى (بغير الحق) يكون على هذا صلة للتكبر وهو قيد له ، و إلا كان بيانا للواقع . أو المعنى أنهم يتكبرون حالة كونهم متلبسين بغير الحق أى منغمسين فى الباطل فأمثال هؤلاء لاقيمة للحق فى نفسه عندهم ، فهم لا يطلبونه ولا يبحثون عنه وقد تظهر لهم آياته ويجحدونها وهم بها موقنون ، كما قال تعالى فى آل فرعون (١٤:٢٧ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقال فى طغاة قريش (٣٣:٦ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ هذا إما عطف على الجملة (سأصرف ..) أى سأصرفهم عن آياتى المنزلة والكونية فينصرفون .وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها — وإما عطف على (يتكبرون) فيكون هو وما بعده بيانا لصفات المتكبرين وأحوالهم، وأولها أنهم إن يروا كل آية من الآيات التى تدل على الحق وتثبت وجوده لا يؤمنوا بها فان كثرة الآيات بتعدد أنواعها وأفرادها إنما تفيد من كان طالبا للحق ولكنه جاهل أو شاك أو سيء الفهم ، فاذا خفيت عليه دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره ، وفى هذا إعلام للنبى ﷺ بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومه إنما يقصدون التعجيز ، لا استبانة الحق بالدليل ، فهم ان أجيبوا إلى طلبهم لا يؤمنون ، ولهذا نظائر تقدم بعضها فى سورة الأنعام مفصلا تفصيلا .

﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ﴾ الرشد الصلاح والاستقامة وضده الغى وهو الفساد ، وفيه ثلاث لغات : ضم أوله وسكون ثانيه وبه قرأ الجمهور هنا — وفتحهما وبها قرأ حمزة والكسائى — والرشاد وقد وردت فى سورة المؤمن حكاية عن فرعون (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) ومثلها السقم والسقم والسقام — والمعنى أن من صفة هؤلاء الذين مرنوا على الضلال

واستمرؤا مرعى الغي والفساد ، أن ينفروا من الهدى والرشاد ، فإن رأى أحدهم سبيله واضحة جلية لايختار لنفسه جعلها سبيلا له بإيثارها وتفضيلها على ماهو عليه ، وما كل أحد يصل إلى هذه الدرجة من الغي لأن من الناس من يسلك سبيل الغي على جهل فاذا علم بما تنتهى به اليه من الفساد ، ورأى لنفسه مخرجا منها ، تركها واختار سبيل الرشد عليها .

﴿وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا﴾ وهذه الحالة شر مما قبلها فإن هذه إيجابية وتلك سلبية ، وبينهما حال أخرى وهي حال من ليس فيه من نور البصيرة وزكاء النفس مايحمله على سلوك سبيل الرشد إذا رآه لضعف همته ، ولكنه يكره الغي والفساد إذا لم يصل من اعتلال الفطرة وظلمة البصيرة إلى تفضيله على الرشد وإيثار سبيله واختيارها لنفسه إذا رآها بحيث لايصرفه عن الفساد إلا جهل سبيله أو العجز عن سلوكها .

فمن اجتمعت له هذه الأحوال أو الصفات فهو الذى أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلم تبق له سبيل من أسباب الحق والرشد يسلكها ، وقد علل ذلك سبحانه بقوله :

﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ يعني أن الله تعالى لم يخلقهم مطبوعين على شيء مما ذكر طبعا ، ولم يجبرهم ويكرههم عليه إكراها . بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدالة على الحق ، والصدود عن سبيله الموصلة إلى الرشد ، وكانوا غافلين عنها دون أهوائهم لايعطونها حقها من النظر والتأمل والتفكر والتدبر ، لاشتغالهم عن ذلك بأهوائهم ، وعصبيتهم لأنفسهم ولآبائهم ، وبذلك قطعوا على أنفسهم طريق الهدى . فالغفلة هنا هي الغفلة المطبوعة المانعة من أسباب العلم والفطنة ، لا أي نوع من أنواع الغفلة ، بل هي المبينة فى قوله تعالى من أواخر هذه السورة (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون) الضالون من هؤلاء الغافلين عن آيات الله تعالى وما تهدى إليه من معرفته والاستعداد للحياة الأخرى الباقية هم الذين يقول الله تعالى فى وصفهم (أولئك فى ضلال بعيد) ويقول (قد ضلوا ضلالا بعيدا) إذ كان لهم من الانهماك فيما هم فيه والغرور به واحتقار ما سواه ما يصدهم عن توجيه عقولهم إلى غيره

ومنهم متفرنجة المسلمين الجغرافيين فى هذا العصر يحتقرون هداية الدين الروحية وما لها من التأثير العظيم فى تهذيب النفس وحملها على الخير وصدها عن الشرور من الفواحش والمنكرات ، وإنما غرهم وأضلهم أنهم فى عصر وصل فيه الغربيون إلى غاية بعيدة من الفنون والصناعات ، كأنهم يرون ان من عاش فى هذا العصر يجب أن يكون مثلهم عبداً لشهواته ، ومقتضى ذلك انه كان الأفضل لبنى إسرائيل ان لايتبعوا موسى عليه السلام لأنه لم يكن عنده من زينة الدنيا وقوتها وصناعاتها وفنونها ما كان عند فرعون وقومه (فاعتبروا يا أولى الأبصار)

ثم قال تعالى ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ ﴾ الآيات فى الآية التى قبل هذه بمعنى الدلائل والبينات من براهين عقلية ، نظرية كانت أو علمية أو كونية ، كآياته تعالى فى الأنفس والآفاق، ومنها معجزات الأنبياء عليهم السلام ، وأظهرها وأقواها القرآن العظيم ، من حيث هو دال على صدق النبى الأمى فى دعوى الرسالة من وجوه كثيرة تقدم بيانها ــ وأما الآيات المذكورة فى هذه الآية فالظاهر المتبادر أنها الآيات المنزلة من حيث اشتمالها على الهداية والاصلاح بتزكية الأنفس من خرافات الشرك وفساد الأخلاق ومنكرات الأعمال . واللقاء مصدر لقى الشيء أو الشخص ولاقاه كالملاقاة إذا صادفه أو قابله أو انتهى إليه ، يقال لقى زيدا ولاقاه ولقى خيرا أو شرا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) * ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ولقى جزاءه . قال الراغب وملاقاة الله عز وجل عبارة عن القيامة وعن المصير إليه قال (واعلموا أنكم ملاقوه)(وقال الذين يظنون انهم ملاقو الله)

والمعنى والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق والهدى على رسلنا فلم يؤمنوا لهم ولا اهتدوا بها ، وكذبوا بلقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء على الأعمال ــ على الخير بالثواب وعلى الشر بالعقاب فاتبعوا أهواءهم ــ لايجزون هنالك إلا ما كان من تأثير أعمالهم النفسية والبدنية معا أو النفسية فقط (كترك الواجبات) فى أرواحهم وأنفسهم من حق وخير زكاها وأصلحها ، أو من باطل وشر دسّاها وأفسدها ــ إن الله لايظلم الناس فى الجزاء مثقال ذرة ، وإنما مضت سنته بجعل الجزاء فى الآخرة أثرا للعمل مرتبا عليه ترتب المسبب على السبب ، كأنه هو نفسه وقد شرحنا هذا المعنى مرارا « تراجع كلمة جزاء فى فهارس التفسير »

(١٤٧) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا : لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

﴿ قصة اتخاذ بنى إسرائيل للعجل ﴾

فى أثناء مناجاة موسى عليه السلام لربه عز وجل فى جبل الطور اتخذ قومه من بنى إسرائيل عجلا مصوغا من الذهب والفضة وعبدوه من دون الله تعالى لما كان رسخ فى قلوبهم من فخامة مظاهر الوثنية الفرعونية فى مصر، ذكرت هذه القصة هنا معطوفة على ماقبلها من خبر المناجاة وألواح الشريعة لما بين السياقين من الملاقة والاشتراك فى الزمن . قال تعالى

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ﴾ الحلى بالضم والتشديد جمع حلى بالفتح والتخفيف فهو كثدى جمعا لثدى . وهذا الحلى استعاره نساء بنى إسرائيل من نساء المصريين قبل خروجهم من مصر فملكوه باذن الله تعالى ، والعجل ولد البقرة سواء كانت من العراب أو الجواميس فهو كالحوار لولد الناقة والمهر لولد الفرس والحمل لولد الشاة والجدى لولد المعز الخ . والجسد الجثة و بدن الإنسان حقيقة ، و يطلق على غيره مجازا والأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف، وقال فى لسان العرب : الجسد جسم الانسان ولا يقال لغيره من الاجسام المغتذية ، ولا يقال لغير الانسان جسد من خلق الأرض والجسد البدن تقول منه تجسد كما تقول من الجسم تجسم ، ابن سيده: وقد يقال للملائكة والجن جسد . غيره : وكل خلق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجن مما يعقل فهو جسد . وكان عجل بنى إسرائيل جسداً يصيح لا يأكل ولا يشرب، وكذا طبيعة الجن ، قال عز وجل (فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار) « جسداً » بدل من عجل لأن العجل هنا هو الجسد ، وان شئت حملته على الحذف أى ذا جسد ، وقوله (له خوار) يجوز أن تكون الهاء راجعة إلى العجل وأن

تكون راجعة إلى الجسد ، وجمعه أجساد . وقال بعضهم فى قوله (عجلا جسداً) قال أحمر من ذهب . وقال أبو إسحق فى تفسير الآية : الجسد هو الذى لا يعقل ولا يميز إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط ، وقال فى قوله (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) قال جسد واحد يعنى على جماعة ، قال ومعناه وما جعلناهم ذوى أجساد إلا ليأكلوا الطعام وذلك أنهم قالوا (مالهذا الرسول يأكل الطعام) فأعلموا أن الرسل أجمعين يأكلون الطعام وأنهم يموتون . المبرد . وثعلب : العرب إذا جاءت بين كلامين بجحدين كان الكلام إخباراً (قالا) ومعنى الآية إنما جعلناهم جسداً ليأكلوا (قالا) ومثله فى الكلام : ماسمعت منك وما أقبل منك معناه إنما سمعت منك لاقبل منك (قالا) وان كان الجحد فى أول الكلام كان الكلام مجحوداً جحداً حقيقياً (قالا) وهو كقولك : ما زيد بخارج قال الأزهرى جعل الليث قول الله عز وجل (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) كالملائكة (قال) وهو غلط ومعناه الاخبار كما قال النحويون، أى جعلناهم جسداً ليأكلوا الطعام (قال) وهذا يدل على أن ذوى الأجساد يأكلون الطعام وأن الملائكة روحانيون لا يأكلون الطعام وليسوا جسداً فان ذوى الأجساد يأكلون الطعام . اه وقولهم معناه الاخبار أى الاثبات

والخوار صوت البقر وهو بضم أوله كأمثاله من أسماء الأصوات : رغاء الابل وثغاء الغنم ، و يعار المعز ، ومواء الهر ونباح الكلب الخ

وعلم من القصة فى سورة طه أن السامرى هو الذى أخذ منهم ما حملوه من أوزار زينة قوم فرعون فألقاها فى النار فصاغ لهم منها عجلا أى تمثالا له صورة العجل و بدنه وصوته ؛ و إنما نسب ذلك هنا إليهم لأنه عمل رأى جمهورهم الذين طلبوا أن يكون لهم آلهة ، قال الحافظ ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل هل صار لحما ودما له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر ؟ على قولين . والله أعلم اه روى القول الأول عن قتادة وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك أنه خار خورة واحدة ولم يثن . فمن قال إنه حلت فيه الحياة علله بأن السامرى رأى جبريل حين جاوز ببنى إسرائيل البحر، وفى رواية عند نزوله إلى موسى (عليهما السلام) راكبا فرسا ما وطىء بها أرضا إلا حلت فيها الحياة واخضر النبات فأخذ من أثرها قبضة فنبذها فى جوف

تمثال العجل فصار حيا له خوار وفسروا بهذا ماحكاه الله تعالى عنه فى سورة طه وسيأتى بيانه فى تفسيرها، ولكن قال بعض هؤلاء إن خواره كان بتأثير دخول الريح فى جوفه وخروجها من فيه ، كقول الآخرين الذين قالوا إنه لم يكن حيا، والروايات فى حياته لا يصح منها شىء ولذلك وقف الحافظ ابن كثير فلم يرجح أحد القولين على الآخر ، وفى تفسير القصة من سورة طه روايات كثيرة من خرافات الاسرائيليات ،فيها ضروب من الكذب والضلالات، وسنعود اليها فى تفسير سورة طه إن شاء الله وقدر لنا الحياة .

قال تعالى فى بيان ضلالهم ، وتقريعهم على جهالتهم ، ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا؟ ﴾ أى ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الإله الحق، وخاصة ماله من حق العبادة على الخلق ، بما يكلم به من يختاره منهم لرسالته ، ويعلمه مايجب أن يعرفوه من صفاته وسبيل عبادته ، كما يكلم رب العالمين رسوله موسى عليه السلام ويهديه سبيل الشريعة التى تتزكى بها أنفسهم ، وتقوم بها مصالحهم ، فعلم بهذا أن من شأن الرب الإله الحق أن يكون متكلما ، وأن يكلم عباده ويهديهم سبيل الرشاد باختصاصه من شاء منهم واعداده لسماع كلامه ، وتلقى وحيه وتبليغ أحكامه وفى سورة طه (أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) فالمراد بالقول هداية الوحى ، والمعنى أنه ليس له من صفات الرب الإله هداية الإرشاد التى مرجعها صفة الكلام ، ولا الضر والنفع اللذين هما متعلق صفتى القدرة والإرادة . ثم قال تعالى :

﴿ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ أى اتخذوه وهم يرون انه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم، ولا يهديهم لما فيه رشادهم، ولا يملك دفع الضر عنهم، ولا إسداء النفع اليهم ، أى إنهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبهة دليل ، بل عن تقليد لما رأوا عليه المصريين من عبادة العجل «أبيس» من قبل ، ولما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد ، وكانوا ظالمين لأنفسهم بهذا الاتخاذ الجهلى الذى يضرهم ولا ينفعهم بشىء .

﴿ ولما سقط فى أيديهم ﴾ يقال : سقط فى يده وأسقط فى يده — بضم أولهما على البناء للمفعول — وكذا بفتح أول الثلاثى على قلة فى اللغة

وشذوذ فى القراءة — أى ندم ، ويقولون فلان مسقوط فى يده وساقط فى يده أى نادم كما فى الأساس ولكنه فسره فى الكشاف بشدة الندم والحسرة وجعله من باب الكناية ، وفى اللسان : وسقط فى يد الرجل — زل وأخطأ وقيل ندم ، قال الزجاج يقال للرجل النادم على مافعل الحسر على مافرط منه : قد سقط فى يده وأسقط.. وفى التنزيل العزيز (ولما سقط فى أيديهم) قال الفارسى: ضربوا باكفهم على أكفهم من الندم ، فان صح ذلك فهو إذاً من السقوط ، وقد قرىء « سقط فى أيديهم » كأنه أضمر الندم أى سقط الندم فى أيديهم ، كما تقول لمن يحصل على شيء وان كان مما لا يكون فى اليد : قد حصل فى يده من هذا مكروه ، فشبه مايحصل فى القلب وفى النفس بما يحصل فى اليد ويرى بالعين اهـ زاد الواحدى فى تفسيره :وخصت اليد لأن مباشرة الأمور بها كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك) أو لأن الندم يظهر أثره بعد حصوله فى القلب فى اليد بعضها والضرب بها على أختها ونحو ذلك فقد قال سبحانه فى النادم (فأصبح يقلب كفيه) (ويوم يعض الظالم على يديه) وفى تاج العروس : وفى العباب هذا نظم لم يسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام سقط ، لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه فيسقط ، وذكر اليد لأن الندم يحدث فى القلب وأثره يظهر فى اليد كقوله تعالى (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) ولأن اليد هى الجارحة العظمى ، فربما يسند إليها مالم تباشره كقوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك) اهـ

والمعنى أنهم لما اشتد ندمهم وحسرتهم على مافعلوه ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أى وعلموا أنهم قد ضلوا بعبادة العجل أو تبين لهم ضلالهم به وتحقق بما قاله وفعله موسى حتى كأنهم رأوه رأى العين ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ أى أقسموا نه لا يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التى وسعت كل شيء ، قائلين لئن لم يرحمنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ لسعادة الدنيا وهى الحرية والاستقلال فى أرض الموعد ولسعادة الآخرة وهى دار الكرامة والرضوان

وقد بحث بعض الغواصين على نكت البلاغة فى تقديم الندم فى الذكر على تبين الضلالة مع أن المعروف فى العادة أن يندم الانسان على ما علم من ذنبه فقال القطب الشيرازى ما معناه موضحا ـ ان الانتقال من الجزم بأن هذا الشيء أو الأمر

حق إلى استبانة الجزم بضده أو نقيضه لا يكون دفعة واحدة فى الأغلب بل الأغلب أنه ينتقل من الجزم بصحته أو حقيقته إلى الشك فيها ثم إلى الظن بالضد أو النقيض ثم إلى الجزم به ، ثم إلى تبينه واليقين فيه الذى يعبر عنه بالرؤية ، والقوم كانوا جازمين بأن مافعلوه صواب ، والندم عليه ربما رقع لهم فى حال الشك فيه فيكون تبين الضلال متأخراً عن الندم اه

وأقول : جاء فى سياق القصة المفصل من سورة طه أنه لما أنكر عليهم هارون عليه السلام عبادة العجل وذكرهم بتوحيد الربوبية الدال على وجوب توحيد العبادة للرب وحده (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) فلما رجع موسى وأنب هارون (قال) فيما قاله له (ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني أفعصيت أمرى ؟) لك (اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) فعند تصريح موسى بأنهم ضلوا ، ورؤيتهم ما كان من غضبه والقائه بالألواح حتى تكسرت وأخذه برأس أخيه هارون ولحيته وجره إليه ندموا على ما فعلوا ، فان كان هذا الندم عن تقليد وطاعة لموسى لا عن علم يقينى بأن عملهم ضلال فالراجح أن يكون العلم القطعى المعبر عنه بقوله (ورأوا أنهم قد ضلوا) قد حصل بعد تحريق موسى للعجل ونسفه فى اليم .

فإن كان من قواعد النحو أن العطف بالواو لا يقتضى الترتيب ، فمن قواعد علم المعانى أن مالا يجب الترتيب فيه بزمان ولا رتبة أن يقدم فى سرده وفى نسقه الاهم ، فان لم يكن تقديم الندم هنا لسبقه فى الزمن فالأظهر أنه للمبالغة فى استشعارهم استحقاق العقاب كأنه يقول انهم على ندمهم وتوبتهم التى من شأنها محو الذنب وترك العقاب وعلى كونهم صاروا على علم يقيني ببطلان عبادة العجل ووجوب تخصيص الرب بالعبادة - قالوا ذلك القول الدال على أن مجموع الأمرين لا يكفى لاستحقاق المغفرة إلا برحمة الله تعالى ، ومن المعلوم ان العلم بالضلال وحده لا يقتضى العفو والمغفرة إلا إذا ترتب عليه العمل بمقتضاه وهو التوبة والرجوع إلى الله تعالى بالعمل فان الذين ضلوا على علم ولم يتوبوا أشد الناس عقابا - فعلم بذلك أن تقديم الندم أهم من تقديم العلم بالضلال ، وهذا من فضل الله الذى لم نره لأحد ، وقد علم منه وجه تقديم ذكر الرحمة على ذكر المغفرة وهو أنها سببها ، فان التوبة ومعرفة الحق لا يكفيان للمغفرة بدونها ، ولا غرو فقد ورد فى الصحيحين عن أبى

هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يدخل أحداً عمله الجنة . قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا » الخ الحديث ، وفي مسلم من حديث جابر « لايدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار . ولا أنا إلا برحمة من الله » وأمثل الاجوبة في الجمع بين الحديث وبين الآيات الكثيرة الصريحة في دخول الجنة بالعمل أن ذلك بفضل الله ورحمته فان عمل أي عامل لايستحق عليه لذاته ذلك النعيم الكامل الدائم ، بل لايفي عمل أحد ببعض نعم الله تعالى عليه في الدنيا . وأما قولهم إن دخول الجنة بالرحمة واقتسامها بالأعمال فهو لا يدفع التعارض بين الآيات والحديث فان منها (١٦ : ٣٣ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)(١)

(١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ . قَالَ : ابْنَ أُمَّ ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

(١) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقوله ﷺ « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » لايناقض قوله تعالى (جزاء بما كنتم تعملون) فان المنفي نفي بباء المقابلة والمعاوضة كما يقال : بعت هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بباء السبب فالعمل لايقابل الجزاء وان كان سببا للجزاء ، ولهذا من ظن انه قام بما يجب عليه وانه لايحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » وروى « بمغفرته » ومن هذا أيضاً الحديث الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال « ان الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم » الحديث .

﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾ ذكر فى أول مادة أ س ف من لسان العرب ان الأسف شدة الحزن والغضب . والأكثرون لا يشترطون شدتهما قال فى المصباح : أسف أسفاً من باب تعب حزن وتلهف فهو أسف مثل تعب ، وأسف مثل غضب وزنا ومعنى ، ويعدى بالهمزة فيقال آسفته . وقال الراغب : الأسف الحزن والغضب معاً ، وقد يقال لكل منهما على الانفراد ، وحقيقته ثوران دم القلب بشهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضباً ، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا ، ولذلك سئل ابن عباس عن الحزن والغضب؟ فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظا وغضبا، ومن نازع من لا يقوى عليه اظهره [1] حزنا وجزعا . وبهذا النظر قال الشاعر :

* فحزن كل أخى حزن أخو الغضب *

ثم ذكر ان الأسف فى الآية التى نفسرها هو الغضبان فهو إذا مترادف ، وقد فاته هنا ما نمهد من تحقيقه لمدلولات الالفاظ ، وما أظن أن مانقله عن ابن عباس يصح ، فان ماذكر من المقابلة بين الغضب والحزن إنما يظهر بين الغضب والحقد ، وإنما الحزن ألم النفس بفقد ما تحب من مال أو أهل أو ولد . وليس من شهوة الانتقام فى شىء . ومن شواهد استعمال الأسف بمعنى الحزن قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام (وقال يا أسفى على يوسف) ومن شواهد استعماله بمعنى الغضب قوله تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ولا يوصف ربنا تعالى بالحزن ولا يسند إليه . وغضبه سبحانه ليس كغضب البشر ألما فى النفس ، ولا أثر غليان دم القلب ، تعالى ربنا عن هذه الانفعالات والآلام البشرية ، وإنما هو صفة تليق به هى سبب العقاب . والجمع بين الغضبان والأسف فى صفة موسى عليه السلام يدل على ان الأسف بمعنى الحزن .

والمعنى أنه لما رجع موسى من الطور إلى قومه غضبان على أخيه هارون إذ رأى أنه ضعف فى سياسته لهم ، ولم يكن ذا عزيمة فى خلافته فيهم ، حزينا على ماوقع

---

(١) كذا والمعنى يقتضى أن يقال . أخفاه ، أو أسره .

منهم من كفر الشرك ، وإغضاب الله عز وجل ﴿ قال بئسما خلفتمونى من بعدى ﴾ أى بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة الرب تعالى من بعد ماكان من شأنى معكم ان لقنتكم التوحيد وكففتكم عن الشرك و بينت لكم فساده و بطلانه وسوء عاقبة أمره حين رأيتم القوم الذين يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر ـ فكان الواجب عليكم أن تخلفوني باقتفاء سيرتى ولكنكم خلفتمونى بضدها إذ صنعتم لكم صنما كأصنام أولئك القوم أو كأحد أصنام المصريين فعبده بعضكم. ولم يردعكم عن ذلك سائركم ـ فالتو بيخ عام ، وفيه تعريض خاص بهارون عليه السلام لأنه جعله خليفته فيهم كما تقدم

﴿ أعجلتم أمر ربكم ؟ ﴾ قال فى لسان العرب: وعجله سبقه ، وعجله استعجله وفى التنزيل العزيز (أعجلتم أمر ربكم) أى استبقتم، قال الفراء : تقول عجلت الشيء أى سبقته وأعجلته استحثثته اه وقال فى الكشاف : يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام، ونقيضه تم عليه ، وأعجله عنه غيره ، و يضمن معنى سبق فيعدى تعديته، فيقال عجلت الأمر ، والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع اليكم فحدثتم أنفسكم بموتى فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم، وروى أن السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال (هذا إلهكم وإله موسى) إن موسى لن يرجع وإنه قد مات اه وقال ابن كثير وقوله (أعجلتم أمر ربكم) أى استعجلتم مجيئى اليكم وهو مقدر من الله تعالى اه، وقد نقل الآلوسى كلام الكشاف من غير عزو كعادة أكثر المؤلفين بعد سلف الأمة ثم قال: وذهب يعقوب الى أن السبق معنى حقيقى له من غير تضمين. والأمر واحد الأوامر ، وعن الحسن أن المعنى أعجلتم وعد ربكم الذى وعدكم من الاربعين ؟ فالأمر عليه: واحد الأمور اه والمراد بالأربعين ما بينه من أنها الليالى التى واعد موسى ربه كما تقدم

ثم قال ﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه ﴾ أى وطرح الألواح من يديه ليأخذ برأس أخيه مما كان من شدة غضبه لله تعالى وأسفه لما فعل قومه

من الشرك به ولما ظن من تقصير أخيه وأخذ بشعر رأس أخيه يجره اليه بذؤابته. إذ كان الواجب عليه في اجتهاد موسى أن يردعهم و يكفهم عن عبادة العجل إن قدر كما فعل هو بتحريقه و إلقائه في اليم ـ وأن يتبعه إلى جبل الطور إن لم يقدر كما حكى الله تعالى عنه في سورة طه (قال : ياهارون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أفعصيت أمرى ؟) والاجتهاد يختلف باختلاف أحوال المجتهدين ، فالقوى الشديد الغضب للحق بالحق كموسى صلى الله عليه وسلم . يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه الحلم ، ولين العريكة كهارون عليه السلام وقد بحث بعض المفسرين في إلقاء الألواح وما روى من تكسر بعضها هل يتضمن تقصيرا في تعظيم كلام الله ؟ وكيف يمكن أن يقع مثل ذلك من الرسول المعصوم ولو في حال الغضب الشديد ؟ بل توهم بعضهم أنه يتضمن في نفسه إهانة للألواح فوجب بيان المخرج منه . والمختار عندنا في الجواب عن هذه الأوهام : أن إلقاء الألواح لايقتضي إهانة لها ، كما أن إلقاء العصا لإقامة الحجة على السحرة لايتضمن مثل ذلك ، فالالقاء في نفسه لايقتضى ذلك لغة ولا عادة ، و إنما يقع مايقع من مثل ذلك بقصده وهو ممتنع هنا قطعا — و إن كان الغضب مظنة له . فعلم بهذا أن ما أطال به بعضهم لاطائل تحته ولا حاجة اليه

وماذا كان جواب هارون عليه السلام ﴿ قال : ابن أمَّ إن القوم استضعفونى

وكادوا يقتلوننى ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم هنا وفي سورة طه (ابن أم) بكسر الميم على حذف ياء المتكلم للتخفيف وهى تطرح في المنادى المضاف ، وقرأها الباقون بالفتح وعللوها بزيادة التخفيف و بالتشبيه بخمسة عشر ، وقرىء في الشواذ «ابن أمى» بإثبات الياء على الأصل . قال في الكشاف : قيل كان أخاه لأبيه وأمه ، فان صح فانما أضافه إلى الأم اشارة إلى أنهما من بطن واحد ، وذلك أدعى إلى العطف والرقة وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ، ولأنها هى التى قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها اه وهو حسن إلا قوله فاعتد بنسبها فإن النسب لا يتوقف على الإيمان . واسم أمهما (يوكابد) بنت لاوى كما في التوراة عندهم

والمعنى يا ابن أمى لا تعجل بمؤاخذتى وتعنيفى فاننى لم آل جهدا فى الانكار على القوم والنصح لهم ولكنهم استضعفونى فلم يرعووا لنصحى ولم يمتثلوا أمرى، بل قاربوا أن يقتلونى ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ أى فلا تفعل بى من المعاتبة والاهانة مايشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين لأنفسهم بعبادة العجل بأن تلزنى بهم فى قرن من الغضب والمؤاخذة فلست منهم فى شىء. والظاهر أنه يعنى بالأعداء والظالمين فريقا واحدا وهم الذين عبدوا العجل فأنكر عليهم فوجدوا عليه وكادوا يقتلونه، وهذا دليل على أنه كان دون موسى فى قوة الارادة وشدة العزيمة، وهو ما اتفق عليه علماؤنا وعلماء أهل الكتاب

وماذا كان من أثر هذا الاستعطاف فى قلب موسى عليه السلام ﴿قال: رب اغفرلى ولأخى ﴾ أى اغفرلى ما اغلظت عليه به من قول وفعل، واغفرله ما عساه قصر فيه من مؤاخذة القوم، لما توقعه من الايذاء حتى القتل، ﴿وأدخلنا فى رحمتك﴾ التى وسعت كل شىء بجعلها شاملة لنا واجعلنا مغمورين فيها. وهو أبلغ من «وارحمنا» ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وهذا ثناء، يدل على مزيد الثقة فى الرجاء، والدعاء فى جملته أقوى فى استعتاب هارون من الاعتذار له، وأدل على تخييب أمل الأعداء فى شىء مما يثير حفيظة الشماتة، قال الزمخشرى فى تعليله: ليرضى أخاه و يظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسى فرط فى حسن الخلافة، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ولا تزال منتظمة لهما فى الدنيا والآخرة اهـ

برأ القرآن المجيد هارون عليه السلام من جريمة اتخاذ العجل ومن التقصير فى الانكار على متخذيه وعابديه من قومه ؛ وهذا من أهم المواضع التى هيمن بها على كتب الأنبياء التى فى أيدى أهل الكتاب فصحح أغلاط محرفيها، وهو يحثوا التراب فى أفواه الطاعنين فيه وفيمن جاء به (برأهما الله تعالى) بزعمهم أنه أخذ عن التوراة ما فيه من أخبار موسى وغيره من انبياء بني اسرائيل، فانه

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كان أميا لم يقرأ ولم يطلع على شيء من تلك الكتب ولم يكن فى بلده من يعرف من تلك الكتب شيئا، وقد كان يقرأ على أعدى المعاندين له من قومه مثل قوله تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) وقوله (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) ولو كان يعلم أو كانوا يعلمون شيئا من تلك الكتب لكذبه فى هذا أولئك الجاحدون والمعاندون وقد تقدم الاحتجاج بهذا ، والغرض هنا إقامة حجة أخرى وهى أنه لو كان ﷺ نقل عن التوراة لوافقها فى كل ما نقله وهو قد خالفها فى مواضع بما جعله منزله جل جلاله مهيمنا ورقيبا عليها ، ومصححا لأهم ما وقع من التحريف فيها ، ومنه تبرئة هارون وغيره من الرسل عليهم السلام من الذنوب والجرائم التى عزيت إليهم فيها فجعلتهم قدوة سيئة كجعل هارون عليه السلام هو الصانع للعجل كما هو مفصل فى الفصل الثانى والثلاثين من سفر الخروج قال :

« (١) ولما رأى الشعب ان موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى اصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه (٢) فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها (٣) فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى كانت فى آذانهم واتوا بها إلى هارون (٤) فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى اصعدتك من أرض مصر (٥) فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال غدا عيد للرب (٦) فبكروا فى الغدا واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب (٧) فقال الرب لموسى : اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذى اصعدته من أرض مصر (٨) زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر »

وبعد هذا ذكر أن الرب قال لموسى إن هذا الشعب صلب الرقبة وان غضبه

اشتد عليهم ليفنيهم ، وان موسى استرحمه أن لايفعل ولا يشمت بهم المصريين وذكره وعده سبحانه لإبراهيم واسحق ويعقوب بتكثير نسلهم ، ثم ذكر مسألة عودة موسى إلى قومه وما فعل ثم قال

« ١٩ وكان عند ما اقترب إلى المحلة انه أبصر العجل والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل ٢٠ ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل ٢١ وقال موسى لهارون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة ٢٢ فقال هارون لا يحم غضب سيدى علىّ ، أنت تعرف الشعب أنه فى شر ٢٣ فقالوا لى اصنع لنا آلهة تسير أمامنا » الخ

ثم ذكر طلب موسى من الرب أن يغفر لقومه وأمر الرب إياهم بأن يقتل كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه ـ وان بنى لاوى فعلوا ذلك فقتل منهم فى ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف رجل . وقد تقدم ذكر هذه المسألة فى سورة البقرة

---

(١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ﴾ فى هذه الآية وجهان أحدهما أنها كلام مستأنف لبيان ما استحقه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل قفى به على ما كان من شأن موسى مع هارون عليهما السلام فى أمرهم ، لان من سمع ذلك أو قرأه تستشرف نفسه لمعرفة هذا ـ فهو إذا مما أوحاه الله تعالى يومئذ إلى موسى (ع م) والمراد بالغضب الإلهى فيه ما اشترطه تعالى فى قبول توبتهم من قتل أنفسهم وكان ذلك بعد عودة موسى إلى مناجاته فى الجبل ، والذلة مايشعرون به من هوانهم على الناس وظنهم عند لقاء كل أحد أنه يتذكر برؤيتهم ماكان منهم فيحتقرهم ، وقال بعضهم إن هذه الذلة خاصة بالسامرى وهى

ماحكم به عليه من القطيعة واجتناب الناس بقول موسى له (اذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس) أى : لاأمس أحداً ولا يمسنى أحد .

﴿ وكذلك نجزى المفترين ﴾ أى ومثل هذا الجزاء فى الدنيا نجزى المفترين على الله تعالى فى أزمنة الأنبياء أو فى كل زمان إذا فضحوا بظهور افترائهم كما فضح هؤلاء ، وجعله بعض مفسرى السلف خاصا بافتراء البدع ، قال الحسن البصرى ان ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين، وهكذا روى أيوب عن أبى قلابة أنه قرأ هذه الآية (وكذلك نجزى المفترين) وقال هى والله لكل مفترى إلى يوم القيامة ، وقال سفيان ابن عيينة كل صاحب بدعة ذليل . نقل ذلك ابن كثير فى تفسيره ، وهو مشروط بكون افتراء الابتداع فى أزمنة الرسل عليهم السلام على ماقيدناه به لان الله تعالى كفل لهم النصر ، أو فى دار الإسلام والعدل التى تقام فيها السنة ، وأما البدعة فى دار الكفر أو دار الظلم والبدع والفسق والظلم فهى كظلة من الدخان أو قزعة من السحاب تحدث فى حندس ليلة مطبقة السحاب ، حالكة الإهاب ، لاتكاد تظهر ، فيكون لأصحابها احتقار يذكر .

والوجه الثانى ان هذا كلام معترض فى القصة خاطب الله به خاتم رسله لانذار المجاورين له فى المدينة ماسيكون من سوء عاقبتهم فى افترائهم على الله وعداوتهم لرسوله ، وانكارهم مافى كتبهم من البشارة به ، ووصفهم باتخاذ العجل لشبههم بهم وكونهم خلفاً لهم فى افتراء كل منهما على الله فى عهد ظهور حجته على لسان رسوله . كما عيرهم فى آيات أخرى بقتل النبيين بغير الحق وغير ذلك من جرائم سلفهم . وروى هذا الوجه عن عطية العوفى قال المراد سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأريد بالغضب والذلة ما أصاب بنى النضير وقريظة من القتل والجلاء أو ما أصابهم من ذلك ومن ضرب الجزية عليهم اهـ وتوجيهنا أظهر . قال الزمخشرى ويجوز ان يتعلق « فى الحياة الدنيا » بالذلة وحدها ويراد سينالهم غضب فى الآخرة وذلة فى الحياة الدنيا (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) اهـ وأقول إن لم يكن هذا هو المراد فعذاب الآخرة مقدر فى الكلام دل عليه ذكر الدنيا ، على ماعلم من اطراده بنصوص أخرى .

﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ هذه الآية فى حكم من تاب وقبلت توبته فدل على أن ما سبقها هو حكم

من لم يتب أو من لم تقبل توبته والمعنى ان الذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصى ثم تابوا ورجعوا من بعدها إلى الله تعالى بأن رجع الكافر عن كفره وتركه وآمن بالله ورسوله ، ورجع العاصى عن عصيانه وأخلص الإيمان وزكاه بالعمل بموجبه ان ربك أيها الرسول من بعد تلك الجرائم ، ـ أو من بعد ماذكر من التوبة والإيمان الصحيح الباعث على العمل الصالح ، لغفور لهم أى لستور عليهم ، محاء لما كان منهم رحيم بهم أى منعم عليهم بالجنة ، هكذا صور المعنى فى الكشاف ثم قال وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم، عظم جناياتهم أولا ثم أردفها تعظيم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فان عفوه وكرمه أعظم وأجل ، ولكن لا بد من حفظ الشريطة وهى وجوب التوبة والانابة ، وما وراءه طمع فارغ ، وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم اه .

وأقول إن طمع أكثر الفساق بالمغفرة قد ذهبت بحرمة الأمر والنهى من قلوبهم حتى استحل كثير منهم المحرمات ، وكانوا شراً ممن قالوا (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) وماطمعهم بثمرة إيمان ، بل أمانى حمق وجدل على أطراف اللسان .

قال ﷺ « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن شداد ابن أوس بسند صحيح .

---

(١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ

ثم قص تعالى علينا ما كان من أمر موسى بعد غضبه فقال :

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ السكوت فى أصل اللغة ترك الكلام فهو هنا مجاز تشبيه أو تمثيل مبنى على تصوير الغضب بشخص ذى قوة ورياسة يأمر وينهى فيطاع قال الزمخشرى : هـذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك — فترك النطق بذلك وقطع الاغراء ، (قال) ولم يستحسن هـذه الكلمة كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولانه من قبيل شعب البلاغة ، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة

« ولما سكن عن موسى الغضب » (وهي من الشواذ) لانجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة ، وطرفا من تلك الروعة ؟ اهـ .

والمعنى أنه لما سكن غضب موسى باعتذار أخيه ولجأ إلى رحمة الله وفضله يدعو ربه بأن يغفر لهما عاد إلى الألواح التي ألقاها فأخذها ، وفي نسختها — أي ما نسخ وكتب منها فهي من النسخ كالخطبة من الخطاب — هدى وإرشاد من الخالق سبحانه للذين يرهبون ربهم ويخشون عقابه بالفعل أو بالاستعداد — أو يرهبون ما يغضب ربهم من الشرك والمعاصي .

---

(١٥٤) وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَٰتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِنْ قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَّا ؟ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ . قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِآيَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ الاختيار صيغة تكلف من مادة الخير كالانتقاء من النقى (بالكسر وحقيقته دهن العظام ومجازه لباب كل شىء والاصطفاء من الصفو - والانتخاب من النخب وأصله انتزاع الصقر وغيره من الجوارح قلب الطائر ثم صار يقال لكل من انتزع لب الشىء وخياره : نخبه وانتخبه وتطلق النخبة (بالضم مع سكون الخاء وفتحها) على الجيد المختار من كل شىء كما أطلقوا النخب والنخيب والمنتخب على الجبان الذى لا فؤاد له والافين الذى لا رأى له ، كأنه انتزع فؤاده وعقله بالفعل . والكلام معطوف على ماقبله ، والمعنى : وانتخب موسى سبعين رجلا من خيار قومه للميقات الذى وقته الله تعالى له ودعاهم للذهاب معه إلى حيث يناجى ربه من جبل الطور ، فالاختيار يكون من فاعل مختار وشىء مختار منه فيتعدى للثانى بمن وكأن نكتة حذف « من » الإشارة إلى كون أولئك السبعين خيار قومه كلهم لا طائفة منهم (١)

﴿ فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ﴾ أى فلما أخذتهم رجفة الجبل وصعقوا قال موسى يارب انى أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان فأهلكتهم وأهلكتنى معهم حتى لا أقع فى حرج شديد مع بنى اسرائيل فيقول قد ذهبت بخيارنا لاهلاكهم - أى واذ لم تفعل من قبل فأسألك برحمتك أن لا تفعل الآن - وهذا مفهوم التمنى فقد أراده موسى ولا يبعد أن يكون قد نطق به إذا كانت لغته لا تدل عليه كلغتنا وكان من إيجاز القرآن الاكتفاء بذكر التمنى الدال عليه . واختلف المفسرون هل كان هذا بعد أن أفاق موسى من صعقة تجلى ربه للجبل عقب سؤاله الرؤية إذ كان من معه من شيوخ بنى اسرائيل ينتظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة كما تقدم ؟ أو كان بعد عبادة العجل ذهبوا للاعتذار وتأكيد التوبة وطلب الرحمة

(١) والنحويون يعدون مثل هذا الحذف لحرف الجر وايصال الفعل بالمفعول ونصبه مباشرة سماعيا لاقياسيا على كثرته ومنه قول الفرزدق :

منا الذى اختير الرجال سماحة ... وجودا اذا هب الرياح الزعازع

وقول الآخر

فقلت له اخترها قلوصا سمينة ... ونابا علابا مثل نابك فى الحيا

أى اختر من الابل ناقة قلوصا أى طويلة القوائم وهى أول مايركب ، ونابا وهى المسنة

وكما اختلفوا فى هذا اختلفوا فى سبب أخذ الرجفة إياهم هل كان طلبهم رؤية الله تعالى جهرة كما تقدم فى سورة البقرة أو سببا آخر؟ قال الحافظ ابن كثير .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية إن الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فوفد بهم ليدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا مالم تعطه أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا . فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال موسى رب لو شئت أهلكتهم - الآية . وقال السدى إن الله تعالى أمر موسى أن يأتيه فى أناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا لن نؤمن لك ياموسى حتى نرى الله جهرة فانك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا فقام موسى يبكى ويقول يارب ماذا أقول لبنى اسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم ؟ (رب لو شئت أهلكتهم من قبل و إياى) وقال محمد بن اسحق اختار موسى من بنى اسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وأسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه ياموسى أطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الليل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه و يدعوه و يرغب إليه و يقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل و إياى) قد سفهوا أتهلك من ورائى من بنى اسرائيل اه

أقول كل ما نقل عن مفسرى المأثور فى هذه المسألة وأمثالها مأخوذ عن الاسرائيليات غير الموثوق بها إذ ليس فيه شىء مرفوع إلى النبى ﷺ و إنما يرجح من بعدهم

بعض أقوالهم على بعض بكونه أقرب إلى ظاهر نظم الآيات وأساليبها وتناسبها من غيره : وأما التوراة التى فى أيدى أهل الكتاب فقدذكرت خبرالسبعين من شيوخ بنى إسرائيل فى سياق مناجاة موسى عليه السلام لربه كما تقدم وقد نقلنا المهم منها فى ذلك ومجموع عباراتها مضطربة ففيها أن السبعين مع موسى وهارون وناداب وابيهو « رأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا » (خروج ٢٤ : ١٠ و١١) وفيها أن الرب قال لموسى إذ طلب منه رؤية مجده « لاتقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لايرانى ويعيش » ثم ذكر له انه أى الرب يضعه فى نقرة صخرة ويستره بيده حتى يجتاز — أى الرب — قال « ثم ارفع يدى فتنظر ورائى وأما وجهى فلا يرى » (خروج ٢٣ : ١٨ — ٢٣)

وفى سفر العدد وقائع ذكر فيها غضب الرب على بنى إسرائيل لتمردهم وعنادهم واتهام اللاويين منهم لموسى وهارون بحب الرياسة والترفع عليهم وزعمهم انهم كلهم مقدسون والرب فى وسطهم وفيه أن الرب أهلك منهم خلقا كثيراً وكان موسى يستغيثه ليرفع الهلاك عنهم ويرحمهم ولا أذكر أن فى شىء منها ذكرعدد السبعين ولكن فى بعضها ذكر شيوخ إسرائيل وفى بعضها ذكر عدد ٢٥٠ رجلا وذلك فى الفصل ١٦ من سفر العدد وهاك بعضه

(٢٠) وكلم الرب موسى وهارون قائلا (٢١) افترزا من بين هذه الجماعة فانى افنيهم فى لحظة (٢٢) فخرا على وجهيهما وقالا اللهم اله أرواح جميع البشرهل يخطىء رجل واحد فتسخط على كل الجماعة (٢٣) فكلم الرب موسى قائلا (٢٤) اطلعوا من حوالى مسكن قورح وداثان وابيرام (٢٥) فقام موسى وذهب إلى داثان وابيرام وذهب وراءه شيوخ إسرائيل (٢٦) فكلم الجماعة قائلا اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم (٢٧) فطلعوا من حوالى مسكن قورح وداثان وابيرام وخرج داثان وابيرام ووقفا فى باب خيمتيهما مع نسائهما و بنيهما وأطفالها (٢٨) فقال موسى بهذا تعلمون أن الرب قد أرسلنى لأعمل كل هذه الأعمال وانها ليست من نفسى (٢٩) إن مات هؤلاء كموت كل إنسان واصابتهم مصيبة كل إنسان فليس الرب قد ارسلنى (٣٠) ولكن ان ابتدع الرب بدعة وفتحت

الأرض فاها وابتلعتهم وكل مالهم فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب (٣١) فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التى تحتهم (٣٢) وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم و بيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال (٣٣) فنزلوا هم وكل من كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة (٣٤) وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لأنهم قالوا لعل الأرض تبتلعنا (٣٥) وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور » اهـ المراد منه ومبدأ هذه القصة فى أول الفصل ١٦ وفى آخره أنه أخذهم الوباء إذ لم يتوبوا

وما فى سورة البقرة من ذكر مسألة عبادة العجل وذكر مسألة طلب بني إسرائيل لرؤية الله جهرة وأخذ الصاعقة إياهم يدل على أن هذه الواقعة غير الأولى ونقلنا هنالك عن الأستاذ الإمام اختيار استقلال كل منهما دون الأخرى وقوله انها مذكورة فى كتبهم فان كان يعنى ما نقلناه آنفا عن سفر العدد أو مافى معناه وهو مما لم يذكر فيه عدد السبعين فلعله يريد أن ما ذكر فى القرآن مختصر بقدر العبرة كسنته وان السبعين هم الذين أهلكوا أولا و إن لم يذكر الكاتب عددهم ثم هلك غيرهم فكان الجميع ٢٥٠

فان كانت الآية تشير إلى هذه القصة فقول موسى ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ إشارة إلى قورح وجماعته من اللاويين المغرورين المتمردين ، وهل هم الذين طلبوا من موسى رؤية الله تعالى جهرة لغرورهم بأنفسهم أم غيرهم ؟ وان كانت فى عابدى العجل فهى دليل على أن عقلاء بنى إسرائيل وأصحاب الروية منهم لم يعبدوه و إنما عبده السفهاء وهم الأكثرون.

﴿ان هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء﴾ « ان » نافية والفتنة الاختبار والامتحان مطلقا أو بالأمور الشاقة والباء فى « بها » للسببية ، أى ماتلك الفعلة التى كانت سببا لأخذ الرجفة إياهم إلا محنتك وابتلاؤك الذى جعلته سببا لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية ، وما يستحقون عليه من عقوبة ومثوبة ، وسنتك فى جريان مشيئتك فى خلقك بالعدل والحق ، والنظام الحكيم فى الخلق ، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك ولست بظالم لهم فى تقديرك ، وتهدى من تشاء ولست بمحاب لهم فى

توفيقك ، بل أمر مشيئتك دائر بين العدل والفضل، ولك الخلق والأمر ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ أى أنت المتولى لأمورنا ، والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا فاغفر لنا ماتترتب عليه المؤاخذة والعقاب من مخالفة سنتك ، أو التقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك، بأن تستر ذلك علينا ، وتجعله بعفوك كأنه لم يصدر عنا وارحمنا برحمتك الخاصة، فوق ماشملت به الخلق كلهم من رحمتك العامة وأنت خير الغافرين حلما وكرما وجودا ، فلا يتعاظمك ذنب، ولا يعارض غفرانك مايعارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوى نفس ــ وماذكر فى المغفرة يدل على اعتبار مثله فى الرحمة لدلالته عليه ــ أى وأنت خير الراحمين رحمة وأوسعهم فيها فضلا واحسانا ، فإن رحمة جميع الراحمين من خلقك ، نفحة مفاضة على قلوبهم من رحمتك ، حذف ذكر الرحمة استغناء عنه بذكر المغفرة فإن ترتيب التذييل فى الثناء عليه تعالى على طلب مغفرته ورحمته معا ، يقتضى أن يكون هذا الثناء بهما معا فاكتفى بذكر الأولى لدلالتها على الثانية قطعا ، فهو من الايجاز المسمى فى علم البديع بالاكتفاء ، وقد غفل عن هذا من قال من المفسرين إنه اكتفى بذكر المغفرة لأنها الأهم ولم لم يكتف بذكر الرحمة لأنها أعم ، ولأنها قد تستلزم المغفرة دون العكس ، فان معنى المغفرة سلبى وهو عدم المؤاخذة على الذنب ، والرحمة فوق ذلك فهى احسان إلى المذنب لايستحقه إلا بعد المغفرة ولذلك يقدم ذكر المغفرة على ذكر الرحمة ، لأن التخلية كما يقولون مقدمة على التحلية . فلا يليق خلع الحلل النفيسة ، إلا على الأبدان النظيفة ، وقد قال موسى عليه السلام فى دعائه لنفسه ولأخيه (رب اغفر لى ولأخى وادخلنا فى رحمتك) الآية . وقال نوح عند توبته من سؤاله النجاة لولده الكافر (وإلا تغفر لى وترحمني أكن من الخاسرين) وعلمنا تعالى من دعائه فى خاتمة سورة البقرة (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) وقلما ذكر اسم الله (الغفور) فى كتابه العزيز إلا مقرونا باسمه (الرحيم) ومن غير الأكثر قرنه بالشكور وبالحليم وبالودود ويقرب معناهن من معنى الرحيم ، ومرد قرنه بالعفو وبالعزيز لاقتضاء المقام ذلك .

ودعاء موسى عليه السلام هنا لنفسه مع قومه بضمير الجمع قد اقتضاه مقام المناجاة والمعرفة الكاملة ، ومن كان أعرف بالله وأكمل استحضارا لعظمته ،كان

أشد شعورا بالحاجة إلى مغفرته ورحمته، وإن كان مايستغفر منه تقصيرا صغيرا بالنسبة إلى ذنوب الغافلين والجاهلين، أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، فان كان هذا الدعاء عقب طلب الرؤية، فوجه طلبه للمغفرة والرحمة لنفسه أظهر، لأن طلبه ذاك كان ذنبا له، صرح بالتوبة منه، وإن كان عقب طلب السبعين رؤية الله جهرة فالأمر أظهر، لأن الذنب مشترك، وإن كان على أثر حادثة عبادة العجل، فقد علم ما كان من شدته فيها على أخيه هارون عليهما السلام، وانه طلب لكل من نفسه وأخيه المغفرة على الانفراد والرحمة بالاشتراك، وإن كان عقب تمرد بني اسرائيل الذي عاقبهم الله تعالى عليه باهلاك بعضهم وتهديدهم بالاستئصال، فادخال نفسه معهم من باب الاستعطاف، إذ لم ينقل عنه فيه شيء مما يعد من ذنوب الأنبياء عليهم السلام.

﴿ تخطئة من اتهم الكليم عليه السلام بالجرأة على ربه في هذا المقام ﴾

كنت في أول العهد بطلبي للعلم في طرابلس الشام اسمع بعض العلماء والأدباء ينقلون عن بعض الصوفية أن موسى عليه السلام لم يقل لربه عز وجل (إن هي إلا فتنتك) إلا وقد كان في مقام الانس والادلال الذي يطلق اللسان بمثل هذا المقال، وان هذا خير جواب عما قيل من أن هذا القول جرأة عظيمة تاب منها عليه السلام. وقال الآلوسي في تفسير الآية: والقول بأن اقدامه عليه السلام على أن يقول (إن هي إلا فتنتك جرأة عظيمة فطلب من الله غفرانها والتجاوز عنها مما يأباه السوق، عند أرباب الذوق، ولا أظن أن الله تعالى عد ذلك ذنبا منه، ليستغفره عنه، وفي ندائه السابق مايؤيد ذلك اه

وأقول لامجال للقول بالجرأة ولا بالادلال. وما كان هذا بالذي يخطر للعربي القح ببال، ولا للعالم الدقيق بمعاني المفردات وأساليب المقال، وسببه كلمة «الفتنة» فقد اشتهر من عهد بعيد فيما أظن أن معناها اغراء الشر بين الناس وأراهم يتناقلون استعمال قوله تعالى (والفتنة أشد من القتل) بهذا المعنى، وله أصل في استعمال العرب فانها تطلق على الحرب ويوصف الشيطان بالفتان. ولكن هذا وذاك من المعاني الفرعية لهذه المادة وإنما معناها الأصلي الذي تفرعاها وأمثالها وأضدادها منه الامتحان والاختبار ولا سيما الشاق الذي يظهر به جيد الشيء أو الشخص من رديئه، كعرض الذهب على النار: لتصفية الغش

من النضار ، ومثله الفضة بل كل ماأدخل النار يسمى مفتونا كما يقال دينار أو درهم مفتون ، و يسمى حجر الصائغ الفتانة ، وقدورد تسمية الملكين الذين يمتحنان الناس عقب الموت بفتانى القبر ، وفسروا فتنة الممات وفتنة القبر بسؤال الملكين ، وقال تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أى اختبار لكم يتبين بهما قدر وقوفكم عند الحق والتزامكم الكسب الحلال ، وقال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)

وجملة القول أن الفتن والفتون مصدرى فتن معناهما الابتلاء للاختبار وظهور حقيقة حال المفتونين أو لتصفيتهم وتمحيصهم ، ومن الأول قوله تعالى لموسى فى هذه الواقعة التى نحن بصدد تفسيرها على قول بعضهم (إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) فقوله عليه السلام لربه (إن هى إلا فتنتك) مأخوذ من قول ربه له (إنا قد فتنا قومك) فلا جرأة فيها ولا إدلال ، دع مايرد هذه الدعوى من منافاتها لموقف التوبة والاستغفار — ومن الثانى قوله تعالى له فى قصته من سورة طه (وفتناك فتونا) أى أصطفيناك من الشوائب حتى صرت أهلا لاصطناعنا ورسالتنا . وتقدم تحقيق هذا اللفظ من قبل ﴿ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ﴾ أى وأثبت وأوجب لنا برحمتك وفضلك حياة حسنة فى هذه الدنيا من العافية و بسط الرزق ، وعز الاستقلال والملك ، والتوفيق للطاعة ، ومثوبة حسنة فى الآخرة بدخول جنتك ونيل رضوانك ، فهو كقوله تعالى فيما علمنا من دعائه (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) فإن ثمرة دين الله على ألسنة جميع رسله سعادة الدارين : الدنيا والآخرة ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ فى لسان العرب : هاد يهود هودا (أى من باب قال) وتهود تاب ورجع إلى الحق فهو هائد ، وقوم هود — مثل حائك وحوك و بازل و بزل — قال إعرابى * إنى امرؤ من مدحه هائد * وفى التنزيل (إنا هدنا إليك) أى تبنا إليك وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير و إبراهيم . قال ابن سيده : عداه بالى لأن فيه معنى رجعنا : ابن الاعرابى : هاد إذا رجع من خير إلى شر أو من شر إلى خير ، وداه إذا عقل ، و يهود اسم القبيلة قال :

أولئك أولى من يهود بمدحه إذا أنت يوما قلتها لم تؤنب

وقيل إنما هذه القبيلة يهوذ فعربت بقلب الذال دالا اهـ ملخصا والمعنى إنا تبنا

إليك مما فرط من سفهائنا من طلب الآلهة وعبادة العجل ، وتقصير خيارنا فى الإنكار عليهم - أومن طلب رؤيتك أومن تمرد المغرورين على شريعتك ، وكفر نعمتك - تبنا ورجعنا إليك فى جملتنا مستغفرين مسترحمين كما فعل أبونا آدم إذ تاب إليك من معصيته فتبت عليه وهديته واجتبيته ، فكانت تلك سنتك فى ولده - يدل على هذا المعنى فصل قوله « إنا هدنا إليك » فانه فى مقام التعليل والاستدلال على استحقاق التائب المنيب بالقول والفعل والاعتقاد للمغفرة وقد كان مما حكاه الله تعالى من وحيه إلى موسى فى سورة طه (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وبماذا أجابه الله تعالى ؟

﴿ قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ أى قد كان من سبق رحمتى غضبى أن أجعل عذابى خاصا أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين وأما رحمتى فقد وسعت كل شيء فى العالمين ، فهى من صفاتى القديمة الأزلية التى قام بها أمر العالم منذ خلقته ، والعذاب ليس من صفاتى بل من أفعالى المرتبة على صفة العدل ، ولهذا عبر عن التعذيب بالفعل المضارع وعن تعلق الرحمة بالفعل الماضى . وهذه الرحمة هى العامة المبذولة لكل مخلوق ولولاها لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وهنالك رحمة خاصة يوجبها ويكتبها تعالى لبعض المؤمنين المحسنين ويبذل ما شاء منها لمن شاء بغير كتابة منه ، وما كتابته إلا فضل منه ورحمة ، وأما العذاب فلم يرد فى الكتاب ولا فى خبر المعصوم أن الله تعالى كتبه على نفسه ، ولكن أثبته وتوعد به فكان لا بد من وقوعه ، ولأنه من متعلقات صفتى العدل والحكمة ، وقد أفرط قوم فى النظر إلى عموم الرحمة وغفلوا عن النظر فى مقتضى العدل والحكمة ، والوعيد على الكفر والمعصية ، فذهب بعضهم إلى عدم تعذيب أحد من المؤمنين ، وآخرون إلى عدم تعذيب أحد من العالمين ، ومن هؤلاء بعض غلاة التصوف الذين زعموا أن العذاب صورى لا حقيقى وأنه مشتق من العذوبة وإن فى جهنم من هم أحب إلى الله تعالى من كثير من أهل الجنة - جعلهم الله منهم - وأفرط آخرون فى النظر إلى مقتضى الحكمة فأوجبوا عليه تعالى تعذيب العصاة بارتكاب الكبائر لا الكفار فقط ، ولولا أن صار هذا وذاك مذهبا لسهل جمع كلمة الفريقين على الأخذ

بظواهر نصوص القرآن ، فى كل صفة من صفات الرحمن ، ولما قال مثل الزمخشرى من جهابذة البيان ، فى تفسير قوله تعالى (عذابى أصيب به من أشاء) أى من وجب على فى الحكمة تعذيبه ولم يكن فى العفو عنه مساغ لأنه مفسدة انتهى فقد فسر من يشاء تعالى تعذيبه بمن وجب عليه تعذيبه ، وجماعته يقولون إن هذا وجوب عقلى لايدخل الامكان سواه ولا تتعلق القدرة بخلافه ، وهذا المعنى ينافى المشيئة منافاة قطعية فكيف تفسر به ؟ ياليت الزمخشرى لم ينتحل مذهبا ولم ينظر فى خلاف المذاهب ، واذا لكان كشافه حجة على أصحابها ومرجعاً لهم فى تحرير معانى نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف إذ كان من أدق علماء هذه اللغة فهما واحسنهم بيانا لما فهم ، ومسألة الوجوب على الله تعالى نظرية فكرية لا لغوية ، والجمع بين الحكمة والرحمة لا يقتضى أن يجب على الله تعالى شيء لذاته ، وليس فى النصوص مايدل على هذا الوجوب إلا أن يوجبه تعالى بمشيئته ، بمعنى كتابته وجعله أمراً مقضيا ، وليس فى إيجابه على نفسه بمشيئته ما فى إيجاب عقول خلقه عليه من معنى استعلاء غيره عليه تعالى — أو من ايهام كونه عز وجل محكوماً بما ينافى سلطانه الاختيارى الذى هو فوق كل سلطان ، بل لا سلطان سواه ، وإنما سلطان غيره به ومنه ، فلو لم يكن فى اختلاف التعبير إلا مراعاة الأدب لكفى

﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الخ أى وإذ كان الأمر كذلك فسأكتب رحمتى كتبة خاصة وأثبتها بمشيئتى إثباتا لايحول دونه شيء للذين يتقون الكفر والمعاصى والتمرد على رسولهم ، ويؤتون الصدقة المفروضة التى تتزكى بها أنفسهم ، وغيرها من أركان الدين ، وخص الزكاة بالذكر دون الصلاة ومادونها من الطاعات لأن فتنة حب المال تقتضى بنظر العقل والاختبار بالفعل أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين لغيرها من الفرائض . وفيه إشارة إلى شدة حب اليهود الدنيا وافتتانهم بجمع المال ومنع بذله فى سبيل الله ، وقوله تعالى (والذين هم بآياتنا يؤمنون) معناه وسأكتبها كتبة خاصة للذين يصدقون بجميع آياتنا التى تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إذعان ، مبنى على العلم والايقان ، دون التقليد للآباء وعصبيات الاقوام ، ونكتة إعادة الموصول (الذين) مع الضمير (هم) إما جعل الموصول الأول عاماً لقومه

الذين دعا لهم ، من استمروا على التزام التقوى واداء الزكاة منهم وجعل الثانى خاصا بمن يدركون بعثة خاتم الرسل عليه السلام و يتبعونه كما يعلم مما بعده — وإما لبيان الفصل بين مفهوم الإسلام ومفهوم الإيمان والتعريض بأن الذين طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة والذين عبدوا العجل والذين قالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) لم يكونوا مؤمنين بآيات الله العامة ولا الخاصة التى جاء بها نبيهم إذ لم يكونوا يعقلونها بل كانوا متبعين له لانقاذهم من ظلم المصريين — و بيان أن كتابة الرحمة الخاصة إنما تكون لمن جمعوا بين الإسلام وهو إتباع الرسل بالفعل ، والإيمان الصحيح بالآيات الإلهية المفيدة لليقين المانع من العودة إلى الشرك بمثل عبادة العجل والمقتضى لاتباع من يأتى من الرسل بمثل هذه الآيات ، وفى هذا توطئة لما بعده ، فهو بيان لصفة من يكتب تعالى لهم الرحمة على الإطلاق ، و يدخل فيهم موسى عليه السلام ومن يصدق عليهم ماذكر من قومه وذلك يفيد استجابة دعائه بشرطه ، و يليه بيان أحق الأمم بهذه الرحمة ذكر على سبيل الاستطراد المقصود بالذات على سنة القرآن ، فى الانتقال من قصص الرسل إلى أمة خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو قوله عز وجل

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الامى ﴾ فصل الاسم الموصول هنا لأنه بيان مستأنف للموصول الأخير أو للموصولين الذين قبله معا ، وهم الذين يتقون و يؤتون الزكاة ، والذين يؤمنون بالآيات ، ولو وصله فقال (والذين يتبعون الرسول النبى الأمى) الخ لكان مغايرا لها فى الماصدق فى المفهوم بأن يراد بالأخير من يدركون بعثة الرسول النبى الأمى ويتبعونه بالفعل فى زمنه و بعد زمنه ، و يراد بمن قبلهم من يصدق عليهم معنى صلة الموصولين فى زمن موسى وما بعده إلى زمن محمد عليهما السلام . ومعنى الفصل على الوجه الأخير اتحاد الموصولات الثلاثة فى المفهوم والماصدق جميعا . والمعنى: أن كتابة الرحمة كتبة خاصة هى للمتصفين بما دلت عليه صلات الموصلات الثلاثة و إنما هم الذين يتبعون الرسول الموصوف بأنه النبي الأمى نسبة إلى الأم ، والمراد به الذى لايقرأ ولا يكتب ، وكان أهل الكتاب يسمون العرب بالأميين ، ولعله كان لقبا لأهل الحجاز ومن جاورهم دون أهل اليمن . لكن ظاهر قوله تعالى فى الخونة من اليهود (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين

سبيلي) العموم وليس بنص فيه ، وقال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) ولم ينقل أن الله تعالى بعث نبيا أميا غير نبينا ﷺ فهو وصف خاص لا يشارك محمداً ﷺ فيه أحد من النبيين . والأمية آية من أكبر آيات نبوته فانه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة وهي مايصلح مافسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم وعمل بها فكان لها من التأثير في العالم مالم يكن ولن يكون لغيره من خلق الله . وتعريف الرسول والنبي الموصوف بالأمية كلاهما للعهد كما يعلم مما سنبينه من بشارات الأنبياء بنبينا ﷺ . والرسول في اصطلاح الشرع أخص من النبي فكل رسول نبي وما كل نبي رسول ، ولذلك جعل بعض المفسرين نكتة تقديم الرسول على النبي هنا كونه أهم وأشرف أو أنهما ذكرا هنا بمعناهما اللغوى كقوله (وكان رسولا نبيا) وما أشرنا اليه من نكتة التقديم أظهر ، وهو النبي الأمي وصف مميز للرسول الذي يجب كل أحد اتباعه متى بعث ، وأن الرسول هو المعروف الذي نزل فيه (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) - الخ آيته المعروفة في سورة آل عمران (١)

والنبي في اللغة (فعيل) من مادة النبأ بمعنى الخبر المهم العظيم الشأن أو بمعنى الارتفاع وعلو الشأن والأول أظهر وأكثر العرب لايهمزه بل نقل أنه لم يهمزه إلا أهل مكة ولكن النبي ﷺ أنكر على رجل قال له : يانبيء الله . وأما في الاصطلاح فالنبي من أوحى الله اليه وأنبأه بما لم يكن يعلم بكسبه من خبر أو حكم يعلم به علما ضروريا أنه من الله عز وجل ، والرسول نبي أمره الله تعالى بتبليغ شرع ودعوة دين وبإقامته بالعمل ، ولا يشترط في الوحي اليه أن يكون كتابا يقرأ وينشر ، ولا شرعا جديدا يعمل به ، ويحكم بين الناس . بل قد يكون تابعا لشرع غيره كالرسل من بني اسرائيل كانوا متبعين لشريعة التوراة عملا وحكما بين الناس كما قال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم به النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) الآية

(١) تراجع ص ٣٥١ ج ٣ من التفسير

وقد يكون ناسخا لبعضه كما نسخ عيسى ﷺ بعض أحكام التوراة وأقر أكثرها . كما يدل على ذلك مثل قوله تعالى حكاية لما خاطب به بنى اسرائيل (ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) وسيرته المأثورة عن الاناجيل الأربعة وغيرهم تدل على ذلك ففيها أنه ماجاء لينقض الناموس (أى التوراة) وإنما جاء ليتمم ، وأنه أحل لهم بعض ماحرم عليهم حتى ما دل عليه عموم ترك العمل يوم السبت فخصه بغير العمل الصالح من أمور الدنيا بل نرى فرق النصارى الرسميين بعد تكوين نظام الكنيسة قد تركوا ماعدا الوصايا العشر من شريعة التوراة واستبدلوا يوم الأحد بيوم السبت فيما حرمت الوصايا من العمل فيه وخالف الأكثرون وصية النهى عن اتخاذ الصور والتماثيل ولكن لا يستطيعون أن يأتوا بدليل على هذا من قول المسيح ولا من فعله .

وجملة القول أن الرسول أخص فى عرف شرعنا من النبي ، فكل رسول نبى ولا عكس . وإذا أطلق الرسول بالمعنى الذى يعم رسل الملائكة كان من هذا الوجه أعم من النبي لأن الله اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، ولم يجعل فيهم أنبياء فنبينا ﷺ نبى رسول ، وجبريل عليه السلام رسول غير نبى ، وآدم عليه السلام نبى غير رسول كأكثر أنبياء بنى اسرائيل ، وهذا على قول المحققين فى نص حديث الشفاعة فى الصحيحين وغيرهما الناطق بأن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، وقد تقدم فى الكلام على عدد الرسل من تفسير سورة الأنعام جواز تسميته رسولا فى عرف بعض أهل الكلام ، وأنهم لهذا العرف عدوه من الرسل الذين تجب معرفة رسالتهم وأول هؤلاء حديث الشفاعة تأويلات تجدها هنالك (١)

وصف الله الرسول الذى أوجب اتباعه على كل من أدركه من بنى اسرائيل وغيرهم بصفات ونعوت (أولها) (أنه هو النبي الأمى الكامل)

(ثانيها) ـ قوله تعالى ـ﴿ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ومعناه الذى يجد الذين يتبعونه من بنى إسرائيل صفته ونعته مكتوبة عندهم فى التوراة والانجيل ، وإنما ذكر الانجيل والسياق فى قوم موسى لأن المخاطب به

---

(١) راجع ص ٦٠٢ — ٦٠٩ ج ٧ تفسير

بالذات بنو اسرائيل ، ومما هو مأثور عن المسيح عليه السلام فى هذه الأناجيل : لم أبعث إلا إلى خراف اسرائيل الضالة . ولا يعارضه ماورووا عنه من أمره تلاميذه أن يكرزوا بالانجيل فى الخليقة كلها إذ يجمع بينهما ان يراد بالخليقة ماكانوا يسمونه (اليهودية) والعبارة الاولى نص بصيغة الحصر لاتحتمل التأويل .وقال أبو السعود (الذى يجدونه مكتوبا) باسمه ونعوته الشريفة بحيث لايشكون أنه هو ولذلك عدل عن أن يقال يجدون نعته أو وصفه مكتوبا عندهم ،والظرف (عندهم) لزيادة التقرير وأن شأنه عليه السلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم اه وسيأتى بيان ذلك فى فصل خاص

ثالثها ورابعها — قوله — ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ يحتمل أنه استئناف لبيان أهم مايحتاجون إليه عند بعثته — ويحتمل أنه تفسير لما كتب والمعروف ماتعرف العقول السليمة حسنه وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والمصلحة بحيث لايستطيع العاقل المنصف السليم الفطرة أن يرده أو يعترض عليه إذا ورد الشرع به . والمنكر ماتنكره العقول السليمة وتنفر منه القلوب وتأباه على الوجه المذكور أيضا . وأما تفسير المعروف بما أمرت به الشريعة والمنكر بما نهت عنه فهو من قبيل تفسير الماء بالماء. وكون ماقلناه يثبت مسألة التحسين والتقبيح العقليين وفاقا للمعتزلة وخلافا للاشعرية مردود اطلاقه بأننا انما نوافق كلا منهما من وجه ونخالفه من وجه اتباعا لظواهر الكتاب والسنة وفهم السلف لها فلا ننكر إدراك العقول الحسن الأشياء مطلقا ولا نقيد التشريع بعقولنا ولا نوجب على الله شيئا من عند أنفسنا بل نقول إنه لاسلطان لشىء عليه فهو الذى يوجب على نفسه ماشاء ان شاء كما كتب على نفسه الرحمة لمن شاء وأن من الشرع مالم تعرف العقول حسنه قبل شرعه ، وان كل ماشرعه تعالى يطاع بلا شرط ولاقيد .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسير هذا الأمر والنهى مانصه . هذه صفة الرسول ﷺ فى الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه السلام لايأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول (ياأيها الذين آمنوا) فارعها سمعك فانه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه :ومن أهم ذلك وأعظمه

مابعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لاشريك له والنهى عن عبادة ماسواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال الإمام أحمد — وذكر سنده إلى أبى حميد وأبى أسيد (رض) أن رسول الله ﷺ قال «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه» رواه أحمد (رض) باسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب

خامسها وسادسها — قوله تعالى ﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ الطيب ماتستطيبه الأذواق من الأطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة، ومن الأموال ماأخذ بحق وتراض فى المعاملة . والخبيث من الأطعمة ماتمجه الطباع السليمة وتستقذره ذوقا كالميتة والدم المسفوح، أو تصد عنه العقول الراجحة لضرره فى البدن كالخنزير الذى تتولد من أكله الدودة الوحيدة — أو لضرره فى الدين كالذى يذبح للتقرب به إلى غير الله تعالى على سبيل العبادة، أى لاما يذبح لتكريم الضيفان، من صغير وكبير أو أمير أو سلطان . والذى يحرم ذبحه أو أكله لتشريع باطل لم يأذن به الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى : والخبيث من الأموال ما يؤخذ بغير الحق كالربا والرشوة والغلو والسرقة والخيانة والغصب والسحت . وقد كان الله تعالى حرم على بنى إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم كما قال (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) الآية . وتقدم تفسيرها فى سورة النساء . وحرموا هم على أنفسهم طيبات أخرى لم يحرمها الله تعالى عليهم، وأحلوا لأنفسهم أكل أموال غير الاسرائيليين بالباطل كما حكى الله تعالى عنهم بعد ذكر استحلال بعضهم أكل ما يأتمنهم عليه العرب (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وتقدم تفسيرها فى سورة آل عمران

(سابعها) — قوله تعالى ﴿ ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم﴾ الإصر الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه من الحراك لثقله، وهو مثل لثقل

تكليفهم وصعوبته نحو اشتراط قتل الأنفس فى صحة توبتهم. وكذلك الأغلال مثل لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة، قالها الزمخشرى. وذكر الثانى عدة أمثلة من شدة أحكام التوراة. وقال ابن كثير: أى أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما إلى اليمن « بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا، وتطاوعا ولا تختلفا » والحديث رواه الشيخان وغيرهما حاصل ما تقدم أن بنى اسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدة فى أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات كالذى يحمل أثقالا يئط منها وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والاغلال فى عنقه ويديه ورجليه. وقد بينا فى مواضع أخرى حكمة أخذ بنى اسرائيل بالشدة فى الأحكام وأن المسيح عليه السلام خفف عنهم بعض التخفيف فى الأمور المادية وشدد عليهم فى الأحكام الروحية لما كان من إفراطهم فى الأولى وتفريطهم فى الأخرى، وكل هذا وذاك قد جعله الله تعالى تربية موقوتة لبعض عباده ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى العادلة السمحة الرحيمة التى يبعث بها خاتم الرسل الذى أوجب اتباعه على كل من أدركه من الرسل وأقوامهم.

﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ يطلق التعزير فى اللغة على الرد والضرب والمنع والتأديب والتعظيم. وقال الراغب: التعزير النصرة مع التعظيم. وروى عن ابن عباس: عزروه عظموه ووقروه. ولكن ورد فى سورة الفتح (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، والأقرب إلى فقه اللغة ما حققه الزمخشرى فى الكشاف هنا قال (وعزروه) ومنعوه حتى لايقوى عليه عدو، وأصل العزر المنع، ومنه التعزير للضرب دون الحد، لأنه منع عن معاودة القبيح، ألا ترى إلى تسميته الحد، والحد هو المنع اه. جاء فى لسان العرب بعد نقل الأقوال، وجعله من قبيل الاضداد: والعزر النصر بالسيف. وعزره عزرا، وعزره (تعزيرا) أعانه وقواه ونصره، قال الله تعالى (لتعزروه وتوقروه) وقال تعالى (وعزرتموهم) جاء فى التفسير:

لتنصروه بالسيف ومن نصر النبي ﷺ بالسيف فقد نصر الله عز وجل، وعزرتموهم عظمتوهم ،وقيل: نصرتموهم. قال ابراهيم بن السرى: وهذا هو الحق والله تعالى أعلم — وذلك أن العزر فى اللغة الرد والمنع، وتأويل عزرت فلانا أى أدبته إنما تأويله فعلت به مايردعه عن القبيح، كما إذا نكلت به تأويله فعلت به مايجب أن ينكل معه عن المعاودة. فتأويل عزرتموهم نصرتموهم بأن تردوا عنهم أعداءهم، ولو كان التعزير هو التوقير لكان الاجود فى اللغة الاستغناء به والنصرة إذا وجبت فالتعظيم داخل فيها ، لأن نصرة الأنبياء هى المدافعة عنهم أو الذب عن دينهم وتعظيمهم وتوقيرهم اه المراد منه .

والمعنى إن الذين آمنوا — أى يؤمنون — بالرسول النبي الأمى عند مبعثه أى من قوم موسى ومن كل قوم — فانه لم يقل فالذين آمنوا به منهم بل أطلق — ويعزرونه بأن يمنعوه ويحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والاجلال ، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز ، ونصروه باللسان والسنان، واتبعوا النور الأعظم الذى أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون ، أى الفائزون بالرحمة العظمى والرضوان ، دون سواهم من أهل كل زمان ومكان . فمنهم الفائزون بدون مايفوز به هؤلاء ، كأتباع سائر الأنبياء ، ومنهم الخائبون المخذولون ، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون .

﴿ فصل فى بيان بشارات التوراة والإنجيل وغيرهما ﴾
بنبينا ﷺ

اعلم أنه قد سبق لنا ذكر بشارات كتب أنبياء بني اسرائيل بنبينا ﷺ فى مواضع من هذا التفسير بعضها بالاجمال و بعضها بشيء من التفصيل وفى مواضع من المنار كما يعلم من فهارسهما ، ونريد هنا أن نفصل القول فى ذلك تفصيلا كافيا لأنه هو المكان المناسب له أتم المناسبة ، فنقول :

كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتناقلون خبر بعثته (ص) فيما بينهم ويذكرون البشارات به من كتبهم حتى إذا مابعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون وكان علماؤهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء

اليهود وتميم الدارى من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ورضى عنهم ،والروايات فى هذه كثيرة ، ومن أعجبها قصة سلمان الفارسى (رض) وأما الذين أبوا واستكبروا فكانوا يكتمون البشارات به فى كتبهم ويؤلون ما بقى منها لمن أطلع عليه و يكتمونه عمن لم يطلع عليه، وقد أبى المتأخرون ولاسيما الافرنج منهم على المتقدمين فى المكابرة والتأويل والتضليل لذلك وصح العلامة المحقق الشيخ رحمة الله الهندى هذه المسألة فى كتابه (اظهارالحق) بأمور جعلها مقدمات لبشارات تلك الكتب به ﷺ فرأينا أن نقتبسها بنصها، قال رحمه الله تعالى فى سياق مسالك الاستدلال على نبوته ﷺ مانصه:

﴿ المسلك السادس ﴾

أخبار الانبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام ، ولما كان القسيسون يغلطون العوام فى هذا الباب تغليطا عظيما استحسنت أن أقدم على نقل تلك الاخبار أموراً ثمانية تفيد الناظر بصيرة

﴿ الأمر الاول ﴾

إن الانبياء الاسرائيليه مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام أخبروا عن الحوادث الآتية ، كحادثة بخت نصر ، وقورش والاسكندر وخلفائه ، وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل ، و يبعد كل البعد أن لايخبر أحد منهم عن خروج محمد ﷺ الذى كان وقت ظهوره كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تأوى طيور السماء فى أغصانها ، فكسر الجبابرة والاكاسرة وبلغ دينه شرقا وغربا وغلب الاديان ، وامتد دهراً بحيث مضى على ظهوره مدة الف ومائتين وثمانين الى هذا الحين ، و يمتد إن شاء الله الى آخر بقاء الدنيا ، وظهر فى أمته ألوف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقنين ، والاولياء ذوى الكرامات والمجاهدات ،والسلاطين العظام. وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى وغيرهما ، فكيف يجوز العقل السليم انهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الاخبار عن هذه الحادثة العظيمة

﴿ الامر الثاني ﴾

أن النبي المقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط فى اخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية ، فى السنة الفلانية، فى البلد الفلاني، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الاخبار فى غالب الاوقات مجملا عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جليا بواسطة القرائن،وقد يبقى خفيا عليهم أيضا لا يعرفون مصداقه الا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عني، وظهور مصدق ادعائه بالمعجزات ، وعلامات النبوة ، و بعد الادعاء ، وظهور صدقه يصير جليا عندهم بلا ريب ، ولذلك يعاتبون كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله(٥٢ويل لكم أيها الناموسيون لانكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم) كما هو مصرح به فى الباب الحادى عشر من انجيل لوقا. وعلى مذاق المسيحيين قد يبقى خفيا على الانبياء فضلا عن العلماء ، بل قد يبقى خفيا على النبي المخبر عنه على زعمهم فى الباب الاول من انجيل يوحنا هكذا ١٩ (وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من اورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت ؟) ٢٠ (فاعترف ولم ينكر ، واقر إني لست أنا المسيح) ٢١ (فسألوه اذا ماذا ؟ أنت ايليا ، فقال : أنا لست ايليا ، فسألوه أنت النبي ؟ فأجاب : لا)٢٢ (فقالوا له :من أنت لنعطي جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟) ٢٣ (قال : أنا صوت صارخ فى البرية قوموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبي) ٢٤ (وكان المرسلون من الفريسيين) ٢٥(فسألوه وقالوا له : فما بالك تعمد ان كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي ؟)

والالف واللام فى لفظ النبي الواقع فى الآية ٢١ و ٢٥ للعهد ، والمراد النبي المعهود الذى أخبر عنه موسى عليه السلام فى الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء[(١)] على ما صرح به العلماء المسيحية ، فالكهنة واللاويون كانوا من علماء اليهود وواقفين على كتبهم ، وعرفوا أيضا ان يحيى عليه السلام نبي،لكنهم شكوا فى انه المسيح

(١) هو سفر تثنية الاشتراع وهو الخامس والاخير من اسفار التوراة و يعبر عنه صاحب الحق بسفر الاستثناء اخذاً من بعض التراجم

عليه السلام أو ايليا عليه السلام أو النبي المعهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام، فظهر منه أن علامات هؤلاء الأنبياء الثلاثة لم تكن مصرحة في كتبهم بحيث لا يبقى الاشتباه للخواص⁽¹⁾ فضلا عن العوام ، فلذلك سألوا أولا : أنت المسيح؟ فبعدما أنكر يحيى عليه السلام عن⁽²⁾ كونه مسيحا ، سألوه : أنت ايليا ؟ فبعدما أنكر عن (٢) كونه ايليا أيضا سألوه أنت النبي أي (المعهود) ؟ ولو كانت العلامات مصرحة لما كان للشك محل ، بل ظهر منه أن يحيى عليه السلام لم يعرف نفسه أنه ايليا حتى أنكر فقال : لست أنا ، وقد شهد عيسى أنه ايليا في الباب الحادي عشر من انجيل متى قول (؟) عيسى عليه السلام في حق يحيى عليه السلام هكذا ١٤ (و إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي) وفي الباب السابع عشر من انجيل متى هكذا ١٠ (وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة : إن ايليا ينبغي أن يأتي أولا) ١١ (فأجاب يسوع وقال لهم : إن ايليا يأتي أولا و يرد كل شيء) ١٢ (ولكني أقول لكم: إن ايليا قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا، كذلك ابن الانسان أيضا سوف يتألم منهم) ١٣ (حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان) وظهر من العبارة الأخيرة أن علماء اليهود لم يعرفوه بأنه ايليا وفعلوا به ما فعلوا ، وان الحواريين أيضا لم يعرفوه بأنه ايليا، مع أنهم كانوا أنبياء في زعم المسيحيين وأعظم رتبة من موسى عليه السلام ، وكانوا اعتمدوا من يحيى عليه السلام ورأوه مرارا ، وكان مجيئه ضروريا قبل إلههم ومسيحهم — وفي الآية ٣٣ من الباب الأول من انجيل يوحنا قول يحيى هكذا (وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي : الذي ترى الروح نازلا ومستقرا عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس) ومعنى قوله (وأنا لم أكن أعرفه) على زعم القسيسين أنا لم أكن أعرفه معرفة جيدة بأنه المسيح الموعود به ، فعلم أن يحيى عليه السلام ما كان يعرف عيسى عليه السلام معرفة يقينية بأنه المسيح الموعود به إلى ثلاثين سنة مالم ينزل الروح القدس، لعل كون ولادة المسيح من العذراء لم يكن من العلامات المختصة بالمسيح، و إلا فكيف

---

(١) كذا والمراد بحيث لا تبقى فيها اشتباه على الخواص بل كانت مجملة لا تخلوا من الخفاء والاشتباه (٢) كلمة عن زائدة إذ يقال انكر الشيء لا أنكر عنه

يصح هذا ؟ لـكني أقطع النظر عن هـذا وأقول : إن يحيى أشرف الأنبياء الاسرائيلية بشهادة عيسى عليه والسلام ، كما هو مصرح به فى الباب الحادى عشر من انجيل متى ، وان عيسى عليه السلام إلهه وربه على زعم المسيحيين ، وكان مجيئه ضروريا قبل المسيح ، وكان كونه ايليا يقينيا ، فاذا لم يعرف هذا النبي الاشرف نفسه إلى آخر العمر ، ولم يعرف إلهه وربه إلى المدة المذكورة ، وكذا لم يعرف الحواريون الذين هم أفضل من موسى وسائر الأنبياء الاسرائيلية مدة حياة يحيى انه ايليا فماذا رتبه العلماء والعوام عندهم فى معرفة النبي اللاحق بخبر النبي المتقدم عنه وترددهم فيه ؟ وقيافا رئيس الـكهنة كان نبيا على شهادة يوحنا ، كما هو مصرح به فى الآية الحادية والخمسين من الباب الحادى عشر من انجيله، وهو أفتى بقتل عيسى عليه السلام وكفره وأهانه ، كماهو مصرح به فى الباب السابع والعشرين من إنجيل متى . ولو كانت علامات المسيح فى كتبهـم مصرحة بحيث لا يبقى الاشتباه (فيها) على أحد ما كان مجال لهذا النبي المفتى بقتل إلهه و بكفره أن يفتى بقتله وكفره .

ونقل متى ولو قال فى الباب الثالث ومرقس ويوحنا فى الباب الأول من أناجيلهم خبراشعيا فى حق يحيى عليهما السلام ، وأقر يحيى عليـه السلام بأن هذا الخبر فى حقه على ماصرح به يوحنا ، وهذا الخبر فى الآية الثالثة من الباب الأربعين من كتاب أشعيا هكذا (صوت المنادى فى البرية سهلوا طريق الرب أصلحوا فى البوادى سبيلا لالهنا) ولم يذكر فيه شيء من الحالات المختصة بيحيى عليه السلام لا من صفاته ، ولا من زمان خروجه ، ولا مكان خروجه ، بحيث لا يبقى الاشتباه ، ولولم يكن ادعاء يحيى عليه السلام بأن هذا الخبر فى حقه وكذا ادعاء مؤلفى العهد الجديد لما ظهر هذا للعلماء المسيحية وخواصهم فضلا عن العوام لأن وصف النداء فى البرية يعم أكثر الأنبياء الاسرائيلية الذين جاؤا من بعد اشعيا عليه السلام ، بل يصدق على عيسى عليه السلام أيضا ، لأنه كان ينادى مثل نداء يحيى عليه السلام : توبوا لأنه قد اقترب ملـكوت السماء وسيظهر لك فى (الأمر السادس) حال الاخبارات التى نقلها الانجيليون فى حق عيسى عليه السلام

عن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام . ولا ندعي ان الأنبياء الذين اخبروا عن محمد ﷺ كان إخبار كل منهم بصفته مفصلا بحيث لا يكون فيه مجال التأويل للمعاند

قال الإمام الفخر الرازي في ذيل تفسير قوله تعالى (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) : واعلم أن الأظهر في الباء في قوله (بالباطل) انها باء الاستعانة كالتي في قولك كتبت بالقلم . والمعنى (لاتلبسوا الحق) بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين . وذلك لأن النصوص الواردة في التوراة والانجيل في أمر محمد عليه السلام كانت نصوصا خفية تحتاج في معرفتها إلى الاستدلال ، ثم انهم كانوا يجادلون فيها و يشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب القاء الشبهات ، انتهى كلامه بلفظه

وقال المحقق عبد الحكيم السيالكوتي في حاشيته على البيضاوي : هذا فصل يحتاج إلى مزيد شرح ، وهو انه يجب أن يتصور أن كل نبي أتى بلفظة معرضة و إشارة مدرجة ، لا يعرفها إلا الراسخون في العلم ، وذلك لحكمة إلهية . وقد قال العلماء : ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي ﷺ لكن باشارات ، ولو كان منجليا للعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه . ثم ازداد ذلك غموضا بنقله من لسان إلى لسان من العبراني إلى السرياني ، ومن السرياني إلى العربي . وقد ذكرت محصلة ألفاظ من التوراة والانجيل إذا اعتبرتها وجدتها دالة على صحة نبوته عليه السلام ، بتعريض هو عند الراسخين في العلم جلي ، وعند العامة خفي . انتهى كلامه بلفظه

﴿ الأمر الثالث ﴾

ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح وايليا ادعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضاً لما علمت في الأمر الثاني أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولا أنت المسيح : ولما أنكر سألوه : أنت ايليا ؟ ولما أنكر سألوه : أنت النبي ؟ أي النبي المعهود الذي أخبر به موسى ، فعلم أن هذا النبي كان منتظراً مثل المسيح وايليا ، وكان مشهوراً بحيث ما كان محتاجا إلى ذكر الاسم ، بل الاشارة إليه كانت

كافية . وفى الباب السابع من انجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا ٤٠ (فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبى) ٤١ (وآخرون قالوا : هذا هو المسيح) وظهر من الكلام أيضاً أن النبى المعهود عندهم كان غير المسيح ، ولذلك قابلوه بالمسيح

﴿ الأمر الرابع ﴾

ادعاء ان المسيح خاتم النبيين ولا نبى بعده باطل لما عرفت فى الأمر الثالث أنهم كانوا منتظرين للنبى المعهود الآخر الذى يكون غير المسيح وإيليا عليهم السلام ، ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده ولأنهم يعترفون بنبوة الحواريين و بولس ، بل بنبوة غيرهم أيضا . وفى الباب الحادى عشر من كتاب الأعمال هكذا ٢٧ (وفى تلك الأيام انحدر الأنبياء من أورشليم إلى انطاكية) ٢٨ (وقام واحد منهم اسمه أغابوس وأشار بالروح أن جوعا عظيما كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة الذى صار فى أيام كلوديوس قيصر) فهؤلاء كلهم كانوا أنبياء على تصريح انجيليهم . وأخبر واحد منهم اسمه أغابوس من وقوع الجدب العظيم . وفى الباب الحادى العشرين من الكتاب المذكور هكذا ١٠ (و بينما نحن مقيمون أياما كثيرة انحدر من اليهودية نبى اسمه اغابوس) ١١ (فجاء إلينا وأخذ منطقة بولس وربط يدى نفسه ورجليه وقال : هذا يقوله الروح القدس الرجل الذى له هذه المنطقة ، هكذا سيربطه اليهود فى أورشليم و يسلمونه إلى أيدى الأمم) وفى هذه العبارة أيضا تصريح بكون أغابوس نبيا ، وقد يتمسكون لإثبات هذا الادعاء بقول المسيح المنقول فى الآية الخامسة عشرة من الباب السابع من انجيل متى هكذا (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة) والتمسك به عجيب لأن المسيح عليه السلام أمر بالاحتراز من الأنبياء الكذبة لا الأنبياء الصدقة أيضا ، ولذلك قيد بالكذبة نعم لو قال : احترزوا من كل نبى يجىء بعدى ، لكان بحسب الظاهر وجه للتمسك وإن كان واجب التأويل عندهم لثبوت نبوة الأشخاص المذكورين . وقد ظهر الأنبياء الكذبة الكثيرون فى الطبقة الأولى بعد صعوده ، كما يظهر من الرسائل

الموجودة فى العهد الجديد فى الباب الحادى عشر من الرسالة الثانية إلى أهل قورنيثوس هكذا ١٢ (ولكن ماأفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة كى يوجدوا كما نحن أيضاً فيما يفتخرون به) ١٣ (لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون ، مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح) فمقدسهم ينادى بأعلى نداء ان الرسل الكذبة الغدارين ظهروا فى عهده ، وقد تشبهوا برسل المسيح .

وقال آدم كلارك المفسر فى شرح هذا المقام : هؤلاء الأشخاص كانوا يدعون كذبا أنهم رسل المسيح ، وما كانوا رسل المسيح فى نفس الأمر ، وكانوا يعظون ويجتهدون ، لكن مقصودهم ما كان إلا جلب المنفعة) وفى الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا (أيها الأحباء لاتصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله ؟ لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا إلى العالم) فظهر من العبارتين أن الأنبياء الكذبة قد ظهروا فى عهد الحواريين . وفى الباب الثامن من كتاب الأعمال هكذا ٩ (وكان قبلا فى المدينة رجل اسمه سيمون يستعمل السحر ويدهش شعب السامرة قائلا انه شىء عظيم) ١٠ (وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين : هذاهو قوة الله العظيمة) وفى الباب الثالث عشر من الكتاب المذكور هكذا (ولما اجتازا الجزيرة إلى باقوس وجدا رجلا ساحراً نبياً كذابا يهوديا اسمه باريشوع) وكذا سيظهر الدجالون الكذابون يدعى كل منهم أنه المسيح ، كما أخبر عيسى عليه السلام (وقال : لايضلكم أحد فان كثيرين سيأتون باسمى قائلين : أنا هو المسيح ويضلون كثيرين) كما هومصرح فى الباب الرابع والعشرين من إنجيل متى . فمقصود المسيح عليه السلام التحذير من هؤلاء الأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبة ، لامن الأنبياء الصادقين أيضا ، ولذلك قال بعد القول المذكور فى الباب السابع (من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا) ومحمدصلى الله عليه وسلم من الأنبياء الصادقين كماتدل عليه ثماره على ماعرفت فى المسالك المتقدمة ، ولااعتبارلمطاعن المنكرين كما ستعرف فى الفصل الثانى ، ولأن كل شخص يعلم أن اليهود ينكرون عيسى ابن مريم عليهما السلام ويكذبونه ، وليس عندهم رجل أشر منه من ابتداء العالم إلى

زمان خروجه ، وكذا ألوف من الحكماء والعلماء الذين هم من أبناء صنف القسيسين وكانوا مسيحيين ثم خرجوا عن هذه الملة لاستقباحهم إياها ينكرونه و يستهزؤون به و بملته وألفوا رسائل كثيرة لاثبات آرائهم واشتهرت هذه الرسائل فى أكناف العالم و يزيد متبعوهم كل يوم فى ديار أوربا ، فكما أن إنكار اليهود وهؤلاء الحكماء والعلماء فى حق عيسى عليه السلام غير مقبول عندنا ، فكذا إنكار أهل التثليث فى حق محمد صلى الله عليه وسلم غير مقبول عندنا

﴿ الأمر الخامس ﴾

الاخبارات (١) التى نقلها المسيحيون فى حق عيسى عليه السلام لاتصدق عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم ، ولذلك هم ينكرونه أشد الانكار ، والعلماء المسيحية لايلتفتون فى هذا الباب إلى تفاسيرهم وتأويلاتهم ، و يفسرونها و يؤولونها بحيث تصدق فى زعمهم على عيسى عليه السلام (ونقل هنا عبارة عن ميزان الحق بهذا المعنى ثم قال) كاأن تأويلات اليهود فى الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة ، وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين فى الاخبارات التى هى فى حق محمد صلى الله عليه وسلم مردودة غير مقبولة عندنا وسترى أن الإخبارات التى ننقلها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم أظهر صدقا من الإخبارات التى نقلها الانجيليون فى حق عيسى عليه السلام فلا بأس علينا إن لم نلتفت إلى تأويلاتهم الفاسدة وكما أن اليهود ادعوا فى حق بعض الإخبارات التى هى فى حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين أنها فى حق مسيحهم المنتظر ، أوفى حق غيره ، أو ليست فى حق أحد . والمسيحيون يدعون أنها فى حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم ، فكذا نحن لانبالى بمخالفة المسيحيين فى حق بعض الاخبارات التى هى فى حق محمد صلى الله عليه وسلم لو قالوا إنها فى حق عيسى عليه السلام . وسترى أيضاً أن صدقها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم أليق من صدقها فى حق عيسى عليه السلام فادعاؤنا أحق من ادعائهم

(١) الأخبار جمع خبر والمؤلف يجمع هذا الجمع على اخبارات ولاحاجة إلى ذلك

﴿ الأمر السادس ﴾

مؤلفو العهد الجديد باعتقاد المسيحيين دوو الالهام. وقد نقلوا الاخبارات فى حق عيسى عليه السلام، فيكون هذا النقل على زعمهم بالالهام، فأذكر نبذا منها بطريق الأنموذج ليقيس المخاطب حال هذه الاخبارات بالاخبارات التى أنقلها فى هذا المسلك فى حق محمد ﷺ و إن سلك أحد من القسيسين مسلك الاعتساف وتصدى لتأويل الاخبارات التى أنقلها فى هذا المسلك يجب عليه أن يوجه أولا الاخبارات التى نقلها مؤلفو العهد الجديد فى حق عيسى عليه السلام ليظهر المنصف اللبيب حال الاخبارات التى نقلها الجانبان، و يقابلهما باعتبار القوة والضعف. و إن غمض النظر عن توجيه الاخبارات العيسوية التى نقلها المؤلفون المذكورون وأول الاخبارات المحمدية التى أنقلها فى هذ المسلك يكون محمولا على عجزه وتعصبه لأنك قد علمت فى الأمر الثانى والخامس أن المعاند له مجال واسع للتأويل فى أمثال هذه الاخبارات، و إنما اكتفيت على نبذ [1] مما نقله مؤلفو العهد الجديد لأنه إذا ظهر أن البعض منها غلط يقينا، والبعض منها محرف، والبعض منها لايصدق على عيسى عليه السلام إلا بالادعاء البحت والتحكم الصرف، ظهر أن حال الاخبارات الأخر التى نقلها المسيحيون الذين ليسوا ذوى إلهام ووحى يكون أسوأ فلا حاجة إلى نقلها.

﴿ الخبر الأول ﴾ ماهو المنقول فى الباب الاول من إنجيل متى ؟ وقد عرفت فى بيان الغلط الخمسين فى الفصل الثالث من الباب الأول أنه غلط [2] على أن كون

---

١ ــ يقال اكتفى بالشىء ولكنه ضمنه معنى اقتصر فعداه بعلى، والتضمين سماعى عندهم

٢ ــ هذا نص الغلط الخمسين الذى أشار اليه : فى الباب الأول من انجيل متى (وهذا كله لكى يتم ماقيل من الرب بالنبى القائل وهوذا العذراء تحبل و تلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا) والمراد بالنبى عند علمائهم اشعياء عليه السلام حيث قال فى الآية الرابعة عشرة من الباب السابع من كتابه هكذا (لأجل هذا يعطيكم الرب عينه علامة ها العذراء تحبل و تلد ابنا و يدعى اسمه عمانوئيل) وأقول هو غلط بوجوه. الأول: أن اللفظ الذى ترجمه الانجيلى ومترجم كتاب اشعياء (العذراء)

مريم عذراء وقت الحبل غير مسلم عند اليهود والمنكرين ، ولا يتم عليهم حجة لأنها قبل ولادة عيسى عليه السلام كانت فى نكاح يوسف النجار على تصريح الإنجيل واليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام يقولون : إنه ولد يوسف النجار كما هو مصرح به فى الآية ٥٥ من الباب ١٣ من إنجيل متى ، والآية ٤٥ من الباب الاول والآية ٤٢ من الباب السادس من إنجيل يوحنا ، وإلى الآن يقولون هكذا ، بل أشنع منه . والعلامة الاخرى المختصة بعيسى عليه السلام غير مذكورة فى هذا الخبر

هو علمة مؤنث علم والهاء فيه للتأنيث ومعناه عند علماء اليهود المرأة الشابة سواء كانت عذراء أو غير عذراء ويقولون إن هذا اللفظ وقع فى الباب الثلاثين من سفر الأمثال ومعناه ههنا المرأة الشابة التى زوجت وفسر هذا اللفظ فى كلام اشعيا بالمرأة الشابة فى التراجم اليونانية الثلاثة أعنى ترجمة ايكوئلا . وترجمة تهيودوشن . وترجمة سميكس . وهذه التراجم الثلاثة عندهم قديمة يقولون إن الأولى ترجمت سنة ١٣٩ والثانية سنة ١٧٥ والثالثة سنة ٢٠٠ وكانت معتبرة عند القدماء من المسيحيين سيما ترجمة تهيودوشن فعلى تفسير علماء اليهود والتراجم الثلاثة فساد كلام متى ظاهر الخ

الثانى ـ ما سمى أحد عيسى عليه السلام بعمانوئيل لا أبوه ولا أمه بل سمياه يسوع وكان الملك قال لأبيه فى الرؤيا وتدعو اسمه يسوع كما هو مصرح فى إنجيل متى وكان جبريل قال لأمه : ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع كما هو مصرح فى إنجيل لوقا . ولم يدع عيسى عيسى عليه السلام فى حين من الأحيان أن اسمى عمونائيل

الثالث ـ أن القصة التى وقع فيها هذا القول تأبى أن يكون مصداق هذا القول عيسى عليه السلام لأنها هكذا : أن راصين ملك أرام وفاقاح ملك اسرائيل جاء إلى أورشليم لمحاربة احاز بن يوثان ملك يهوذا فخاف خوفا شديدا من اتفاقهما فأوحى الله إلى اشعيا أن يقول لتسلية أحاز : لاتخف فانهما لايقدران عليك وستزول سلطنتهما . وبين علامة خراب ملكهما أن امرأة شابة تحبل وتلد ابنا وتصير أرض هذين الملكين خربة قبل أن يميز هذا الابن الخير عن الشر . وقد ثبت أن أرض فاقاح قد خربت فى مدة إحدى وعشرين سنة من هذا الخبر فلا بد أن يتولد(*) هذا الابن قبل هذه المدة وتخرب قبل تميزه وعيسى عليه السلام تولد بعد سنة ٧٢١ من خرابها . الخ اهـ ص ١٠٧ من إظهار الحق فكيف تكون بشارة اشعيا منطبقة على المسيح وقصتها ماسمعت

(*) يستعمل المؤلف تولد ويتولد بمعنى ولد ويولد . والوجه هنا أن يقال : فلا ان يكون هذا الابن قد ولد قبل هذه المدة .

﴿ الخبر الثانى ﴾ ما هو المنقول فى الآية السادسة من الباب الثانى من انجيل متى ، وهو اشارة إلى الآية الثانية من الباب الخامس من كتاب ميخا . ولا تطابق عبارة متى عبارة ميخا ، فاحداهما محرفة [١] وقد عرفت فى الشاهد الثالث والعشرين من المقصد الأول من الباب الثانى أن محققيهم اختاروا تحريف عبارة ميخا ، لكن ادعوا أن هذا لأجل المحافظة على الانجيل فقط و(هو) عند المخالف باطل

﴿ الخبر الثالث ﴾ ما هو المنقول فى الآية الخامسة عشرة من الباب المذكور من إنجيل متى [٢]

﴿ الخبر الرابع ﴾ ما هو المنقول فى الآية ١٧ و١٨ من الباب المذكور ؟ (٤ و٥)

١ — هذا نص عبارة متى (٦ : ٢ وأنت يا بيت لحم يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لان منك يخرج مدبر يرعى شعبى اسرائيل . وهـذا نص نبوة ميخا « ٥ : ٢ أما أنت يا بيت لحم افراته وأنت صغيرة ان تكونى بين الوف يهوذا فمنك يخرج الذى يكون متسلطا على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل .

٢ ـ نص متى هكذا ٢ : ١٥ « وكان هناك إلى وفاة هيرودس لكى يتم ماقيل من الرب بالنبى القائل من مصر دعوت ابنى » والمراد بالنبى القائل هو يوشع عليه السلام واشار الانجيلى إلى ١١ : ١ من كتابه وهو « لما كان اسرائيل غلاما احببته ومن مصر دعوت ابنى » هكذا فى ترجمة الاميركان الاخيرة المطبوعة سنة ١٨٧٠ وكان نص الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا كما قال الشيخ رحمة الله : أن اسرائيل منذ كان طفلا أنا أحببته ومن مصر دعوت اولاده . قال الشيخ رحمة الله فى الشاهد ١٥ من شواهد اغلاط هذه الكتب : فهذه الآية فى بيان الاحسان الذى فعله الله فى عهد موسى عليه السلام ببنى اسرائيل ، وحرف الانجيلى صيغة الجمع «اولاده» بالمفرد « ابنى » وضمير الغائب بالمتكلم فقال «ماقال» وحرف لاتباعه مترجم العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ أيضا لكن لا تخفى خيانته على من طالع هذا الباب لانه وقع فى حق المدعوين بعد هذه الآية كلما دعوا ولوا وجوههم وذبحوا البعاليم وقربوا للاصنام . ولاتصدق هذه الأمور على عيسى عليه السلام بل لاتصدق على اليهود الذين كانوا معاصريه ولا على الذين كانوا قبل ميلاده إلى خمسمائة سنة لأن اليهود كانوا تابوا من عبادة الاوثان توبة جيدة قبل ميلاده بخمسمائة وستة وثلاثين سنة بعد ما اطلقوا من اسر بابل ثم لم يحوموا حولها بعد تلك التوبة ، كما هو مصرح فى التوارة اهـ ص ١٠٨ ج ١ اظهار الحق

٤ و٥ ـ فى الباب الثانى من انجيل متى هكذا ١٧ حينئذ تم ماقيل بأرميا النبى القائل ١٨ صوت سمع فى الرامة : نوح وبكاء وعويل كثير راحيل تبكى على أولادها ولا تريد

﴿ الخبر الخامس ﴾ ماهو المنقول فى لآية الثالثة والعشرين من الباب المذكور؟ وهذه الأخبار الثلاثة غلط (٦) كما عرفت فى الفصل الثالث من الباب الأول

﴿ الخبر السادس ﴾ الآية التاسعة من الباب السابع والعشرين من انجيل متى (٧) وقد عرفت فى الشاهد التاسع والعشرين من المقصد الثانى من الباب الثانى أنه غلط، على أن هذا الحال يوجد فى الباب الحادى عشر من كتاب زكريا ولا مناسبة له بالقصة التى نقلها متى لأن زكريا عليه السلام بعدما ذكر اسمى عصوين ورعى قطيع (فانه) يقول هكذا ـ ترجمة عربية سنة ١٨٤٤ ـ (١٢ وقلت لهم ان حسن فى أعينكم فهاتوا أجرى والافكفوا. فوزنوا أجرى ثلاثين من الفضة) ١٣ (وقال لى الرب ألقها إلى صناع التماثيل ثمنا كريما ثمنونى به، فأخذت الثلاثين من الفضة

ان تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين. وهذا أيضا غلط وتحريف من الانجيلى لأن هذا المضمون وقع فى الآية الخامسة عشر من الباب الحادى والثلاثين من كتاب ارميا، ومن طالع الآيات التى قبلها وبعدها علم ان هذا المضمون ليس فى حادثة هيرودس بل فى حادثة بختنصر التى وقعت فى عهد ارميا فقتل فيها الوف من بنى اسرائيل واسر الوف منهم واجلوا إلى بابل ولما كان فيهم كثير من آل راحيل أيضا تألم روحها فى عالم البرزخ فوعد الله أنه يرجع اولادها من أرض العدو إلى تخومهم اهـ ص ١٠٩ ج ١ منه

٦ ـ الآية ٢٣ من الباب الثانى من انجيل متى هكذا «وأتى وسكن فى مدينة يقال لها ناصرة لكى يتم ماقيل بالأنبياء أنه سيدعى الناصريا » وهذا أيضا غلط ولا يوجد فى كتاب من كتب الأنبياء، وينكر اليهود هذا الخبر أشد الانكار وعندهم هذا زور وبهتان بل يعتقدون أنه لم يقم نبى من الجليل فضلا عن ناصرة كما هو مصرح فى الآية ال٥٢ من الباب السابع من انجيل يوحنا ولعلماء المسيحية « ههنا » اعتذارات ضعيفة غير قابلة للالتفات اهـ ص ١٠٩ و ١١٠ منه

٧ ـ الآية ٩ من الباب ال٢٧ من انجيل متى هكذا : وحينئذ كمل قول النبى ارميا حيث قال « فقبضوا الدراهم الثلاثين ثمن والثمن الذى ثمنه بنو اسرائيل» ولفظ ارميا غلط من الاغلاط المشهورة فى انجيل متى لان هذا لايوجد فى كتاب ارميا ولايوجد هذا المضمون فى كتاب آخر من كتب العهد العتيق ايضا بهذه الألفاظ، نعم توجد فى الآية ١٣من الباب ال١١ من كتاب زكريا عبارة تناسب هذه العبارة التى نقلها متى، لكن بين العبارتين فرق كبير يمنع ان يحكم ان متى نقل عن هذا الكتاب ومع قطع النظر عن هذا الفرق لاعلاقة لعبارة كتاب زكريا عليه السلام بهذه الحادثة التى ينقلها متى منها. وفى هذا الموضع اقوال مضطربة لعلماء المسيحيين سلفا وخلفا الخ اهـ ص ١٨٥ منه

وألقيتها فى بيت الرب إلى صناع التماثيل) فظاهر كلام زكريا انه بيان حال لا اخبار عن الحادثة الآتية ، وأن يكون آخذ الدراهم من الصالحين مثل زكريا عليه السلام لا من الكافرين مثل يهوذا .

﴿ الخبر السابع ﴾ ما نقله مقدسهم بولس فى الآية السادسة من الباب الأول من الرسالة العبرانية (٨) وقد عرفت حاله فى الفصل الثالث أنه غلط لا يصدق على عيسى عليه السلام .

﴿ والخبر الثامن ﴾ الآية الخامسة والثلاثون من الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا (لكى يتم ماقيل بالنبى القائل سأفتح بأمثال فى وأنطق بمكتوبات منذ تأسيس العالم) وهو اشارة إلى الآية الثانية من الزبور الثامن والسبعين ؛ لكنه ادعاء محض وتحكم بحت ، لان عبارة هذا الزبور هكذا (٢ أفتح بالأمثال فى وأنطق بالذى كان قديما ٣ كل ما سمعناه وعرفناه وآباؤنا أخبرونا ٤ ولم يخفوه عن أولادهم إلى الجيل الآخر إذ يخبرون بتسابيح الرب وقواته وعجائبه التى صنع ٥ إذ أقام الشهادة فى يعقوب ووضع الناموس فى إسرائيل كل الذى أوصى آباؤنا ليعرفوا به أبناءهم ٦ لكى ما يعلم الجيل الآخر بينهم المولودين ٧ فيقومون أيضاً ويخبرون به أبناءهم ٨ لكى يجعلوا اتكالهم على الله ، ولا ينسوا أعمال الله ويلتمسوا وصاياه ٩ لئلا يكونوا مثل آبائهم الجيل الأعرج المتمرد الذى لم يستقم قلبه ولا آمنت بالله روحه) .

وهذه الآيات صريحة فى أن داود عليه السلام يريد لنفسه ، ولذا عبر عن نفسه بصيغة المتكلم ، ويروى الحالات التى سمعها من الآباء ليبلغها إلى الأبناء على حسب عهد الله ، لتبقى الرواية محفوظة . وبين من الآية العاشرة إلى الخامسة والستين حال انعامات الله والمعجزات الموسوية ، وشرارة بنى إسرائيل وما لحقهم بسببها ثم قال (٦٦ واستيقظ الرب كالنائم مثل الجبار المفيق من الخمر ٦٧ فضرب أعداءه فى الوراء وجعلهم عاراً إلى الدهر ٦٨ وأبعد محلة يوسف

---

(٨) الآية الـ ٦ من الباب الأول من الرسالة العبرانية هكذا : وأيضا متى ادخل البكر إلى العالم يقول وتسجد له كل ملائكة الله . ولم نعثر على عبارة المؤلف فى تغليطها

ولم يختر سبط أفرام ٦٩ بل اختار سبط يهوذا الجبل صهيون الذى أحب ٧٠ وبنى مثل وحيد القرن قدسه وأسسه فى الأرض إلى الأبد ٧١ واختار داود عبده وأخذه من مراعى الغنم ٧٢ ومن خلف المرضعات أخذه ليرعى يعقوب عبده وإسرائيل ميراثه ٧٣ فرعاهم بدعة قلبه وبفهم يديه أهداهم) .

وهذه الآيات الأخيرة أيضاً دالة صراحة على أن هـذا الزبور فى حق دواد عليه السلام فلا علاقة لهذا بعيسى عليه السلام .

﴿ الخبر التاسع ﴾ فى البـاب الرابع من انجيل متى هكذا (١٤ لكى يتم ماقيل باشعيا النبى القائل ١٥ أرض زبلون وأرض نفتـاليم طريق البحر عبر الاردن جليل الأمم ١٦ الشعب الجالس فى ظلمة أبصر نوراً عظيما . والجالسون فى كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور) وهو اشارة إلى الآية الأولى والثانية من الباب التاسع من كتاب أشعيا وعبارته هكذا (١ ـ فى الزمان الأول استخفت أرض زبلون وأرض نفتالى ، وفى الآخر تثقلت طريق البحر عبر الاردن جليل الأمم ٢ الشعب السالك فى الظلمة رأى نوراً عظيما . السـاكنون فى بلاد ظلال الموت أشرق عليهم نور) وفرق مابين العبارتين فاحداهما محرفة ، ومع قطع النظر عن هذا لادلالة لكلام أشعيا على ظهور شخص بل الظاهر أن أشعيا عليه السلام يخبر أن حال سكان أرض زبلون ونفتالى كان سقيما فى سالف الزمان ثم صار حسناء كما تدل عليه صيغ الماضى، أعنى : استخفت ، وتثقلت ، ورأى وأشرق ، وإن عدلنا عن الظاهر وحملناها على المجاز بمعنى المستقبل وقلنا إن رؤية النور واشراقه عليهم عبارة عن مرور الصلحاء بأرضهم ، فادعاء ان مصداق هذا الخبر عيسى عليـه السلام فقط تحـكم صرف ، لان كثيراً من الأولياء والصلحاء مر بتلك الأرض ولا سيما أصحاب محمد ﷺ وأولياء أمته أيضاً الذين زالت ظلمة الكفر والتثليث من هذه الديار بسببهم ، وظهر نور التوحيد وتصديق المسيح كما ينبغى . واكتفى خوفا من التطويل على (؟) هذا القدر . ونقلت الأخبار الأخر أيضاً فى (إزالة الأوهام) وغيره من مؤلفاتي وبينت وجوه ضعفها .

﴿ الأمر السابع ﴾

إن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالبا الأسماء فى تراجمهم و يوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد ، وأنهم يزيدون تارة شيئا بطريق التفسير فى الكلام الذى هو كلام الله فى زعمهم ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم . ومن تأمل فى تراجمهم المتداولة بألسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور كثيرة . وأنا أورد أيضا بطريق الأنموذج بعضا منها .

١ ـ فى الآية الرابعة عشرة من الباب السادس عشر من سفر التكوين فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (لذلك دعت اسم تلك البير بير الحى الناظرنى) فترجموا اسم البئر الذى كان فى العبرانى بالعربى .

٢ ـ وفى الآية الرابعة عشرة من الباب الثانى والعشرين من سفر التكوين فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (هكذا سمى ابراهيم اسم الموضع مكان يرحم الله زائره) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ (دعا ابراهيم اسم ذلك الموضع الرب يرى) فترجم المترجم الأول الاسم العبرانى بمكان يرحم الله زائره ، والمترجم الثانى بالرب يرى (*)

٣ ـ وفى الآية العشرين من الباب الحادى والثلاثين من سفر التكوين فى الترجمة العربية المطبوعة سنه ١٦٢٥ وفى سنة ١٨٤٤ هكذا (فكتم يعقوب أمره عن حميه) وفى ترجمة أردو (الترجمة الأوردية) المطبوعة سنة ١٨٢٥ لفظ لابان موضع حميه فوضع مترجمو العربية لفظ الحمى موضع الاسم .

٤ ـ وفى الآية العاشرة من الباب التاسع والأربعين من سفر التكوين فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ (فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر

(*) وفى ترجمة الاميركانيين الأخيرة رجعوا إلى الأصل العبرانى «يهوه يرأه» بسكون الهاء فيهما وإثبات الهمزة فى يرأه . ولكن قالوا فى تتمة الآية «حتى إنه يقال اليوم : فى جبل الرب يرى » وترجمة الجزويت بالعربية فى الموضعين .

من فخذه حتى يجيء الذى له الكل وإياه تنتظر الأمم) فقوله (الذى له الكل) ترجمة لفظ «شيلوه» وهذه الترجمة موافقة للترجمة اليونانية ، وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (فلا يزول القضيب من يهوذا والرسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذى هو له وإليه يجتمع الشعوب) وهذا المترجم ترجم لفظ شيلوه (بالذى هو له) وهذه الترجمة موافقة للترجمة السريانية . وترجم هذا اللفظ محققهم المشهور ليكلرك بعاقبته . وفى ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٢٥ وقع لفظ شيلا ، وفى الترجمة اللاتينية ولنكيت (الذى سيرسل) فالمترجمون ترجموا لفظ شيلوه بما ظهر وترجح عندهم ، وهذا اللفظ كان بمنزلة الاسم للشخص المبشر به

٥ ـ وفى الآية الرابعة عشرة من الباب الثالث من سفر الخروج فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ (فقال الله لموسى: أهيه أشراهيه) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (قال له الأزلى الذى لايزال) فلفظ أهيه أشراهيه كان بمنزلة اسم الذات ، فترجمه المترجم الثانى بالأزلى الذى لايزال

٦ ـ وفى الآية الحادية عشرة من الباب الثامن من سفر الخروج فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (تبقى فى النهر فقط) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (تبقى فى النيل فقط)

٧ ـ وفى الآية الخامسة عشرة من الباب السابع عشر من سفر الخروج فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فابتنى موسى مذبحا ودعا اسمه الرب عظمتى) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (وبنى مذبحا وسماه الله علمى) وترجمة اردو موافقة لهذه الاخيرة فأقول مع قطع النظر عن الاختلاف إن المترجمين ترجموا الاسم العبرانى (١)

٨ ـ وفى الآية الثالثة والعشرين من الباب الثلاثين من سفر الخروج فى الترجمتين المذكورتين هكذا (من ميعة فائقة) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (من المسك الخالص) وبين الميعة والمسك فرق مافسروا الاسم العبرانى

---

(١) الأصل العبرانى «يهوه نسى» وهو الذى اعتمد فى الترجمة الاميركانية الاخيرة ونص ترجمة الجزويت «وبنى موسى مذبحا وسماه الرب رايتى» ورايتى بمعنى علمى

بما ترجح عندهم (١)

٩ ـ وفى الآية الخامسة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء (أى التثنية)فى الترجمتين المذكورتين هناك(فمات هناك موسى عبدالرب)وفى الترجمة العربية المطبوعةسنة ١٨١١ هكذا(فمات هناك موسى رسول الله) فهؤلاء المترجمون لو بدلوا فى البشارات المحمدية لفظ رسول الله بلفظ آخر فلا استبعاد منهم

﴿ تركنا الشاهدين ١٠ و ١١ للاختصار ﴾

١٢ـ وفى الآية الرابعة عشرة من الباب الحادى عشر من انجيل متى فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (فان أردتم أن تقبلوه فهو ايليا المزمع أن يأتى)وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ (فان أردتم ان تقبلوه فهذا هو المزمع بالاتيان) فالمترجم الأخير بدل لفظ ايليا بهذا ، فأمثال هؤلاء لو بدلوا اسما من أسماء النبى ﷺ فى البشارة فلا عجب.

١٣ ـ وفى الآية الأولى من الباب الرابع من انجيل يوحنا فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (لما علم يسوع) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٦٠ (لما علم الرب)فبدل المترجمان الأخيران لفظ يسوع الذى كان علم عيسى عليه السلام بالرب الذى هو من الألفاظ التعظيمية ، فلو بدلوا اسما من أسماء النبى ﷺ بالالفاظ التحقيرية لأجل عادتهم وعنادهم فلا عجب (٢)

وهذه الشواهد تدل على ترجمة الأسماء وإيراد لفظ آخر بدلها

١ ـ فى الباب السابع والعشرين من انجيل متى هكذا (ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلى إيلى، لماذا شبقتنى ؟ أى إلهى إلهى لماذا تركتنى) وفى الباب الخامس عشر من انجيل مرقس هكذا (وفى الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا الوى الوى لماذا شبقتنى ، الذى تفسيره الهى الهى لماذا تركتنى)

---

(١) وفى ترجمة الجزويت « من أفخر الأطياب من المر القاطر » الخ.

(٢) بمثل هذا بينا انه لاغرابة فى ورود اسم نبينا ﷺ فى انجيل برنابا بلفظ محمد ، فانه ترجمة لاسم الفارقليط كما سيجىء.

فلفظ : أى الهى الهى لماذا تركتنى، فى انجيل متى ، وكذا لفظ : الذى تفسيره إلهى إلهى لماذا تركتنى فى انجيل مرقس، ليسا من كلام الشخص المصلوب يقينا، بل الحقا بكلامه

٢ — فى الآية السابعة عشرة من الباب الثالث من انجيل مرقس هكذا (لقبهما ببوان رجس أى ابنى الرعد) فلفظ «أى ابنى الرعد» ليس من كلام عيسى عليه السلام ، بل هو إلحاق

٣ — فى الآية الحادية والأربعين من الباب الخامس من انجيل مرقس هكذا (وقال لها طليثا قومى ، الذى تفسيره ياصبية لك أقول قومى) فهذا التفسير إلحاق ليس من كلام عيسى عليه السلام

٤ — فى الآية الرابعة والثلاثين من الباب السابع من انجيل مرقس فى الترجمة المطبوعة سنة ١٨١٦ (ونظر إلى السماء وتأوه وقال : افثايعنى انفتح) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (ونظر إلى السماء وتنهد وقال : افاثاء الذى هو انفتح) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (ونظر إلى السماء وتنهد وقال له : انفتح الذى هو انفتح) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا (ورفع نظره نحو السماء وقال له : افثا أى انفتح) ومن هذه العبارة وان لم يعلم صحة اللفظ العبرانى أهو افثا أو افاثا أو انفتح لأجل اختلاف التراجم التى منشأ اختلافها عدم صحة ألفاظ أصولها لكنه يعلم يقينا أن لفظ أى انفتح أو الذى هو انفتح إلحاق ليس من كلام عيسى عليه السلام

وهذه الأقوال المسيحية الأربعة التى نقلتها من الشاهد الأول إلى ههنا تدل على أن المسيح عليه السلام كان يتكلم باللسان العبرانى الذى كان لسان قومه، وما كان يتكلم باليونانى ، وهو قريب القياس أيضا لانه كان عبرانيا ابن عبرانية نشأ فى قومه العبرانيين فنقل أقواله فى هذه الاناجيل فى اليونانى نقل بالمعنى ، وهذا أمر آخر زائد على كون أقواله مروية برواية الآحاد

٥ — فى الآية الثامنة والثلاثين من الباب الأول من انجيل يوحنا هكذا (فقالا له : ربى ، الذى تفسيره يامعلم) فقوله : الذى تفسيره يامعلم — الحاق ليس من كلامهما

٦ — فى الآية الحادية والأربعين من الباب المذكور فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ (قد وجدنا مسيا الذى تأويله المسيح) وفى الترجمة الفارسية

المطبوعة سنة ١٨١٦ (ماسيح را كه ترجمة آن كرسطوس ميباشدميافتيم) وترجمة أوردو المطبوعة سنة ١٨١٤ توافق الفارسية، فيعلم من الترجمتين العربيتين ان اللفظ الذى قاله اندراوس هومسيا وان المسيح ترجمته ، ومن الترجمة الفارسية واردو (أى الترجمة الاوردية) ان لفظ الأصل هو المسيح وكرسطوس ترجمته ، و يعلم من ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ ان لفظ الأصل خرستة ، وان المسيح ترجمته . فلا يعلم من كلامهم أى لفظ كان الأصل؟ أمسيا أم المسيح أم خرستة؟ وهذه الألفاظ وإن كان معناها واحداً لكن لا شك أن الذى قاله اندراوس هوواحدمن هذه الثلاثة يقيناً ، وإذا ذكر اللفظ والتفسير فلا بد من ذكر لفظ الأصل أولا ، ثم من ذكر تفسيره ، لكنى أقطع النظر عن هذا وأقول : إن التفسير المشكوك فيه أياما كان إلحاق ليس من كلام اندراوس

٧ — فى الآية الثانية والأربعين من الباب الأول من انجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام فى حق بطرس الحوارى فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (أنت تدعى ببطرس الذى تأويله الصخرة) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ (ستسمى أنت بالصفا المفسر ببطرس) وفى الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ (ترا بكيفاس كه ترجمة آن سنك است تداخو اهند كرد) أمطر الله حجارة على تحقيقهم وتصحيحهم لا يتميز المفسر من كلامهم عن المفسر ، لكنى أقطع النظر عن هذا وأقول : إن التفسير ليس من كلام المسيح عليه السلام ، بل هو إلحاق ، وإذا كان حال تراجمهم وحال تحقيقهم فى لقب إلههم ولقب خليفته كما علمت فكيف نرجو منهم صحة بقاء لفظ محمد أو أحمد أو لقب من ألقابه صلى الله عليه وسلم .

(ثم قال بعد إيراد شواهد أخرى ما نصه) :

فاذا كانت خصلة أهل الدين والديانة ماعرفت فما ظنك بغير أهل الديانة ؟ بل الحق ان التحريف القصدى بالتبديل بالزيادة والنقصان من خصالهم كلهم أجمعين فبعض الأخبار التى نقلها العلماء الأسلاف من أهل الإسلام مثل الإمام القرطبى وغيره إذا لم تجدها موافقة فى بعض الألفاظ للتراجم المشهورة الآن فسببه غالبا هذا التغيير ، لأن هؤلاء العلماء من أهل الاسلام نقلوا عن الترجمة العربية التى كانت رائجة فى عهدهم ، و بعد زمانهم وقع الاصلاح فى تلك الترجمة و يحتمل أن

أن يكون ذاك السبب اختلاف التراجم لكن الأول هو المعتمد ، لانا نرى أن هذه العادة جارية إلى الآن فى تراجمهم ورسائلهم ، ألا ترى إلى ميزان الحق الخ

﴿ الأمر الثامن ﴾

إن بولس وإن كان عند أهل التثليث فى رتبة الحواريين لكنه غير مقبول عندنا ولا نعده من المؤمنين الصادقين ، بل من المنافقين الكذابين ومعلمى الزور والرسل الخداعين الذين ظهروا بالكثرة بعد عروج المسيح كما عرفت فى الأمر الرابع . وهو خرب الدين المسيحى ، وأباح كل محرم لمعتقديه . وكان فى ابتداء الأمر مؤذيا للطبقة الأولى من المسيحيين جهرا ، لكنه لما رأى هذا الإيذاء الجهرى لا ينفع نفعا معتداً به دخل على سبيل النفاق فى هذه الملة وادعى رسالة المسيح وأظهر الزهد الظاهرى ، ففعل فى هذا الحجاب ما فعل ، وقبله أهل التثليث لاجل زهده الظاهرى ولأجل افراغ ذمتهم من جميع التكاليف الشرعية ، كما قبل أناس كثيرون من المسيحيين فى القرن الثانى منتش الذى كان زاهدا مرتاضا وادعى أنه هو الفارقليط الموعود به فقبلوه لأجل زهده ورياضته كما سيجىء ذكره فى البشارة الثامنة عشرة ورده المحققون من علماء الإسلام سلفا وخلفا .

قال الإمام القرطبى رحمه الله فى كتابه فى حق بولس هذا مجيبا لبعض القسيسين فى بحث مسألة الصوم هكذا : « قلنا ذلك — أى بولس — هو الذى أفسد عليكم أديانكم ، وأعمى بصائركم وأذهانكم ، ذلك هو الذى غير دين المسيح الصحيح ، الذى لم تسمعوا له بخبر ، ولا وقفتم منه على أثر ، هو الذى صرفكم عن القبلة ، وحلل لكم كل محرم كان فى الملة ، ولذلك كثرت أحكامه عندكم وتداولتموها بينكم » انتهى كلامه بلفظه .

وقال صاحب (تخجيل من حرف الانجيل) فى الباب التاسع من كتابه فى بيان فضائح النصارى فى حق بولس هذا هكذا « وقد سلبهم بولس هذا من الدين بلطيف خداعه ، إذ رأى عقولهم قابلة لكل مايلقى إليها وقد طمس هذا الخبيث رسوم التوراة » انتهى كلامه بلفظه ، وهكذا أقوال علمائنا الآخرين .

فكلامه عندنا مردود ورسائله المنضمة بالعهد العتيق كلها واجبه الرد ولا نشترى

قوله بحبة خردل فلا انقل عن أقواله فى هذا المسالك شيئاولا يكون قوله حجة علينا

وإذ قد عرفت هذه الأمور الثمانية أقول ان الأخبار الواقعة فى حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن أيضا مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب ومن عرف أولا طريق إخبار النبى المتقدم عن النبى المتأخر على ما عرفت فى الأمر الثانى ثم نظر ثانيا بنظر الانصاف إلى هذه الأخبار وقابلها بالاخبار التى نقلها الانجيليون فى حق عيسى عليه السلام — وقد عرفت نبذا منها فى الأمر السادس — جزم بأن الأخبار المحمدية فى غاية القوة . وأنقل فى هذا المسلك عن الكتب المعتبرة عند علماء بروتستنت ثمانى عشرة بشارة

(البشارة الأولى)

فى الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء (التثنية) هكذا (١٧ فقال الرب لى نعم جميع ما قالوا ١٨ وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم واجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به ١٩ ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فانا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ فأما النبى الذى يجترى بالكبرياء ويتكلم فى اسمى ما لم آمره بأنه يقوله أم باسم آلهة غيرى فليقتل ٢١ فان اجبت وقلت فى قلبك كيف استطيع أن اميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب ٢٢ فهذه تكون لك آية ان ما قاله ذلك النبى فى اسم الرب ولم يحدث فالرب لم يكن تكلم به بل ذلك النبى صوره فى تعظم نفسه ولذلك لاتخشاه)

وهذه البشارة ليست بشارة بيوشع عليه السلام كما يزعم الآن احبار اليهود ولا بشارة بعيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستنت بل هى بشارة بمحمد ﷺ لعشرة أوجه .

(الوجه الأول) قد عرفت فى الأمر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به فى هذا الباب وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام

(والوجه الثانى) أنه وقع فى هذه البشارة لفظ مثلك ويوشع وعيسى عليهما

السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه السلام ، أما أولا فلانهما من بنى إسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء (التثنية) وهى هكذا (١٠ ولم يقم بعد ذلك نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه » الخ وأما ثانيا فلأنه لا مماثلة بين يوشع و بين موسى عليهما السلام لأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهى و يوشع ليس كذلك بل هو متبع لشريعته، وكذا لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام لأن عيسى عليه السلام كان إلها وربا على زعم النصارى وموسى عليه السلام كان عبدالله وأن عيسى عليه السلام على زعمهم صار ملعونا لشفاعة الخلق كما صرح به بولس فى الباب الثالث من رسالته إلى أهل غلاطية وموسى عليه السلام ما صار ملعونا لشفاعتهم وأن عيسى عليه السلام دخل الجحيم بعد موته كما هو مصرح به فى عقائد أهل التثليث وموسى عليه السلام ما دخل الجحيم وان عيسى عليه السلام صلب على زعم النصارى ليكون كفارة لأمته وموسى عليه السلام ما صار كفارة لأمته بالصلب وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات بخلاف شريعة عيسى عليه السلام فانها فارغة عنها على ما يشهد به هذا الانجيل المتداول بينهم وان موسى عليه السلام كان رئيسا مطاعا فى قومه نفاذا لأوامره ونواهيه وعيسى عليه السلام لم يكن كذلك

(الوجه الثالث) أنه وقع فى هذه البشارة « لفظ من بين اخوتهم» ولا شك ان الاسباط الاثنى عشر كانوا موجودين فى ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المقصود كون النبي المبشر به «منهم» لقال منهم لا «من بين اخوتهم» لأن الاستعمال الحقيقى لهذا اللفظ ان لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببنى إسرائيل كما جاء لفظ الاخوة بهذا الاستعمال الحقيقى فى وعد الله لهاجر فى حق اسمعيل عليه السلام فى الآية الثانية عشرة من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وقبالة جميع اخوته ينصب المضارب) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا

(بحضرة جميع اخوته يسكن)وجاء بهذا الاستعمال ايضا فى الآية الثامنة عشرة من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين فى حق اسمعيل فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (منتهى اخوته جميعهم سكن) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (أقام بحضرة جميع اخوته) والمراد بالاخوة ههنا بنو عيسو واسحاق وغيرهم من ابناء ابراهيم عليه السلام وفى الآية الرابعة عشرة من الباب العشرين من سفر العدد هكذا (ثم أرسل موسى رسلا من قادس الى ملك الروم قائلا : هكذا يقول أخوك اسرائيل انك قد علمت كل البلاء الذى أصابنا) وفى الباب الثانى من سفر (التثنية) هكذا (٣ وقال لى الرب ٤ ثم أوص الشعب انكم ستجوزون فى تخوم اخوتكم بنى عيسو الذين فى ساعير وسيخشونكم ٥ فلما جزنا أخوتنا بنى عيسو الذين يسكنون ساعير الخ) والمراد باخوة بني اسرائيل بنو عيسو ، ولاشك أن استعمال لفظ اخوة بنى اسرائيل فى بعض منهم كما جاء فى بعض المواضع من التوراة استعمال مجازى ولا تترك الحقيقة ولايصار الى المجاز مالم يمنع من الحمل على المعنى الحقيقى مانع قوى، و يوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بنى اسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما

(الوجه الرابع) أنه قد وقع فى هذه البشارة لفظ « سوف أقيم » و يوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى عليه السلام داخلا فى بنى اسرائيل نبيا فى ذلك الوقت ، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ

(الوجه الخامس) أنه وقع فى هذه البشارة لفظ : اجعل كلامى فى فمه ، وهو اشارة الى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب،والى أنه يكون أميا حافظا للكلام،وهذا لايصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الامرين فيه

(الوجه السادس) أنه وقع فى هذه البشارة : ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به فأنا أكون المنتقم منه . فهذا الامر لما ذكر لتعظيم هذا النبى المبشر به فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الامر عن غيره من الانبياء فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الاخروى الكائن فى جهنم أو المحن والعقوبات الدنيوية التى تلحق المنكرين من الغيب ، لان هذا الانتقام لا يختص بانكار

نبي دون نبي ، بل يعم الجميع ، فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعي . فظهر منه أن هذا النبي يكون مأمورا من جانب الله بالانتقام من منكره فلا يصدق على عيسى عليه السلام ، لأن شريعته خالية عن أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد

(الوجه السابع) في الباب الثالث من كتاب الأعمال في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (١٩ فتوبوا وارجعوا كي تمحى خطاياكم ٢٠ حتى إذا تأتي أزمنة الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادى به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ الذي إياه ينبغي للسماء أن تقبله الى الزمان الذي يسترد فيه كل شيء تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر ٢٢ إن موسى قال : إن الرب إلهكم يقيم لكم نبيا من إخوتكم مثلي له تسمعون في كل ما يكلمكم به ٢٣ ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبي تهلك من الشعب) وفي الترجمة الفارسية ....

﴿ حذفنا النص الفارسي استغناء عنه بما يذكره من مضمونه وهو قوله: ﴾

فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على أن هذا النبي غير المسيح عليه السلام ، وأن المسيح لابد أن تقبله السماء إلى زمان ظهور هذا النبي ، ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين — وتأمل في عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفي لإبطال ادعاء علماء بروتستنت أن هذه البشارة في حق عيسى عليه السلام

وهذه الوجوه السبعة التي ذكرتها تصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم أكمل صدق ، لأنه غير المسيح عليه السلام ، ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة (١) كونه عبد الله ورسوله (٢) كونه ذا والدين (٣) كونه ذا نكاح وأولاد (٤) كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية (٥) كونه مأموراً بالجهاد (٦) اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته (٧) وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء في شريعته (٨) اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز فيها (٩) حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان فيها (١٠) كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية (١١) أمره بحد الزنا (١٢) تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص (١٣) كونه قادرا على تنفيذها (١٤) تحريم الربا (١٥) أمره بإنكار من

يدعو إلى غير الله (١٦) أمره بالتوحيد الخالص (١٧) أمره الأمة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله. لا ابن الله أو الله ، والعياذ بالله (١٨) موته على الفراش (١٩) كونه مدفونا كموسى (٢٠) عدم كونه ملعونا لأجل أمته .

وهكذا أمور أخر تظهر إذا تؤمل فى شريعتهما ، ولذلك قال الله تعالى فى كلامه المجيد (٧٣: ١٥ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) وكان من اخوة بنى اسرائيل لانه من بنى اسماعيل وأنزل عليه الكتاب ، وكان أميا جعل كلام الله فى فمه وكان ينطق بالوحى كما قال الله تعالى (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى) وكان مأموراً بالجهاد وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش والاكاسرة والقياصرة وغيرهم ، وظهر قبل نزول المسيح من السماء ، وكان للسماء أن تقبل المسيح عليه السلام إلى ظهوره ليرد كل شىء إلى أصله ، ويمحق الشرك والتثليث وعبادة الاوثان ، ولا يرتاب أحد من كثرة أهل التثليث فى هذا الزمان الأخير ، لان هذا الصادق المصدوق قد أخبرنا على أتم تفصيل وأكمل وجه بحيث لا يبقى ريب ما بكثرتهم وقت قرب ظهور المهدى رضى الله عنه ، وهذا الوقت قريب إن شاء الله ، وسيظهر الإمام ويظهر الحق عن قريب ويكون الدين كله لله ، جعلنا الله من أنصاره وخدامه آمين .

(الوجه الثامن) أنه صرح فى هذه البشارة بأن النبى الذى ينسب إلى الله مالم يأمره يقتل فلو لم يكن محمد ﷺ نبيا حقا لكان قتل ، وقد قال الله فى القرآن المجيد أيضاً (٦٩: ٤٤ ، ٤٥ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين) وما قتل ، بل قال الله فى حقه (٥ : ٦٧ والله يعصمك من الناس) وأوفى وعده ولم يقدر على قتله أحد حتى لقى الرفيق الأعلى ﷺ، وعيسى عليه السلام قتل وصلب على زعم أهل الكتاب . فلو كانت هذه البشارة فى حقه لزم أن يكون نبياً كاذبا كما يزعمه اليهود ، والعياذ بالله .

(الوجه التاسع) ان الله بين علامة النبى الكاذب (وهى) ان اخباره عن الغيب المستقبل لا تخرج صادقة ، ومحمد ﷺ أخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلة كاعلمت

فى المسلك الأول وظهر صدقه فيها [١] فيكون نبيا صادقا لا كاذبا .

(الوجه العاشر) أن علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به فى التوراة لكن بعضهم أسلم وبعضهم بقى فى الكفر - كما أن قيافا وكان رئيس الكهنة ونبيا على زعم يوحنا عرف أن عيسى هو المسيح الموعود به ولم يؤمن بل أفتى بكفره وقتله كما صرح به يوحنا فى الباب الحادى عشر والثامن عشر من انجيله - كما روى من حديث مخيريق أنه كان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وغلبت عليه إلفة دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم (غزوة) أحد ، وكان يوم السبت فقال : يامعشر اليهود والله انكم لتعلمون ان نصر محمد عليكم لحق . قالوا : فان اليوم يوم السبت ؟ قال: لا سبت. ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى النبى ﷺ بأحد ، وكان يوم السبت ، وعهد إلى من ورائه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فمالى لمحمد يصنع فيه ما أراه الله تعالى ، فقاتل حتى قتل ، فكان رسول الله ﷺ يقول « مخيريق خير يهود » وقبض النبى ﷺ أمواله ، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال « أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس [٢] فقال : أخرجوا إلى أعلمكم ، فقالوا : عبد الله بن صوريا فخلا به رسول الله ﷺ فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظللهم من الغمام : أتعلم أنى رسول الله ؟ قال : اللهم نعم ، وان اليهود يعرفون ما أعرف ، وان صفتك ونعتك لمبين فى التوراة ولكن حسدوك قال « فما يمنعك أنت » ؟ قال : أكره خلاف قومى ، عسى أن

---

(١) ظهر صدق بعضها فى زمنه كانتصاره على المشركين ودخوله المسجد الحرام مع المؤمنين ، آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، وغلب الروم للفرس ، وبعضها لأصحابه كفتح مصر وبلاد كسرى وقيصر ، وقتل الفئة الباغية لعمار ، ولا يزال يظهر الكثير منها عصرا بعد عصر ، ومن أغربها قوله ﷺ « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » الحديث رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة مرفوعا . والسياط المذكورة هى الكرابيج ، والرءوس التى كأسنمة البخت هى التى يوضع عليها البرانيط وأشباهها

(٢) المدراس المدرس أى المعلم .

يتبعوك و يسلموا فأسلم - وعن صفية بنت حيي رضى الله عنها «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا ، فهششت إليهما فما التفت إلى أحد منهما مع ما بهما من الهم فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي : أهو هو ؟ (أى المبشر به فى التوراة) قال : نعم والله ، قال : أتثبته وتعرفه ؟ قال : نعم . قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبداً » — فتلك عشرة كاملة

(فان قيل) إن إخوة بنى إسرائيل لا تنحصر فى بنى إسماعيل لأن بنى عيسو و بنى أبناء قطورا زوجة ابراهيم عليهما السلام من اخوتهم أيضا (قلت) نعم هؤلاء أيضا من إخوة بنى اسرائيل لكنهم لم يظهر أحد منهم يكون موصوفا بالأمور المذكورة ، ولم يكن وعد الله فى حقهم أيضا بخلاف بنى اسماعيل فانهم كان وعد الله فى حقهم لإبراهيم ولهاجر عليهما السلام مع أنه لا يصح أن يكون مصداق هذا الخبر بنو عيسو على ما هو مقتضى دعاء أسحق عليه السلام المصرح به فى الباب السابع والعشرين من سفر التكوين . وللعلماء بروتستنت اعتراضان نقلهما صاحب الميزان فى كتابه المسمى بحل الاشكال فى جواب الاستفسار (الأول) أنه وقع فى الآية ١٥ من الباب ١٨ من سفر الاستثناء (التثنية) هكذا (فان الرب إلهك يقيم من بينك من بين اخوتك) الخ ، فلفظ «من بينك» يدل دلالة ظاهرة على أن هذا النبى يكون من بنى اسرائيل لا من بنى اسماعيل (والثانى) أن عيسى عليه السلام نسب هذه البشارة إلى نفسه فقال فى الآية ٤٦ من الباب الخامس من انجيل يوحنا (أن موسى كتب فى حقى)

(أقول) آية التثنية على وفق التراجم الفارسية وتراجم اردو هكذا (فان الرب إلهك يقيم من بينك من بين اخوتك نبيا مثلى فاسمع منه) والقسيس أيضا نقلها هكذا . والجواب أن اللفظ المذكور لا ينافى مقصودنا لأن محمداً عليه السلام لما هاجر إلى المدينة وبها تكامل أمره قد كان حوله بلاد اليهود كخيبر و بنى قينقاع والنضير وغيرهم فقد قام من بينهم ، ولأنه إذا كان من إخوتهم فقد قام من بينهم ، ولأن قوله

من بين اخوتك بدل من قوله «من بنيك» يدل على اشتمال على رأى ابن الحاجب ومتبعيه القائلين بكفاية علاقة الملابسة غير الكلية والجزئية فى تحقق هذا البدل نحو جاءنى زيد أخوه . وجاءنى زيد غلامه ، و بدل اضراب على رأى ابن مالك ، والمبدل منه على كلا التقديرين غير مقصود، و يدل على كونه غير مقصود أن موسى عليه السلام لما أعاد هذا الوعد من كلام الله فى الآية الثامنة عشرة لم يوجد فيه لفظ من بينك ، ونقل بطرس الحوارى أيضا هذا القول ولم يوجد فيه هذا اللفظ كما علمت فى الوجه السابع ، وكذا نقله استفانوس أيضا ولم يوجد فى نقله أيضا هذا اللفظ كما صرح به فى الباب السابع من كتاب الأعمال وعبارته هكذا (هذا هو موسى الذى قال لبنى اسرائيل نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من اخوتكم له تسمعون) فسقوطه فى هذه المواضع دليل على كونه غير مقصود فاحتمال البدل قوى جدا .

وقال صاحب الاستفسار : إن لفظ من بنيك إلحاقى زيد تحريفا و يدل عليه ثلاثة أمور (الأول) أن المخاطبين فى هذا الموضوع كانوا بنى اسرائيل كلهم لا البعض فقوله : من بنيك خطاب لجميع القوم فصار لفظ من اخوتك لغواً محضاً لا معنى له ، لكن لفظ من إخوتك جاء فى الموضع الآخر أيضا فيكون صحيحاً ، ولفظ من بنيك إلحاقيا زيد تحريفا (الثانى) أن موسى عليه السلام لما نقل كلام الله لاثبات قوله لم يوجد فيه هذا اللفظ ولا يجوز أن يكون ماقال موسى مخالفا لما قاله الله (والثالث) أن الحواريين كلما نقلوا هذا الكلام لم يوجد فيه لفظ من بينك ، وإن قلتم ان المحرف إذا حرف فلم يحرف الكلام كله ؟ (قلت) نحن نرى فى محاكم العدالة دائما ان القبالجات المحرفة يثبت تحريف الألفاظ المحرفة فيها من مواضع أخرى منها غالبا[1] وان شهود الزور يؤخذ ببعض بياناتهم . فالوجه الوجيه على ان عادة الله جارية بأنه لايهدى كيد الخائنين و بأنه يظهر خيانة خائن الدين بمقتضى رحمته ، فبمقتضى هذه العادة يصدر عن الخائن شىء ما تظهر به خيانته ، على أنه لا توجد ملة يكون أهلها كلهم خائنين . فالخائنون الذين حرفوا كتب العهدين كان لهم لحاظ ما[2] من جانب بعض المتدينين فلذلك ما بدلوا الكل انتهى

---

(١) لعل معنى القبالجات الوثائق والمستندات ومعنى الجملة أنها على وجود التحريف فيها يحتج ببعض عباراتها على إثبات التحريف فيها « وكذا على غيره » .

(٢) لعله أراد أن يقول : كان عليهم عيون ورقباء

أقول : هذا الجواب بالنسبة إلى عادة أهل الكتاب كما عرفت فى الأمر السابع وأقول فى الجواب عن الاعتراض الثانى إن آية الانجيل هكذا (لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى لأنه هو كتب عنى) وليس فيها تصريح بأن موسى عليه السلام كتب فى حقه فى الموضع الفلانى بل المفهوم منه أن موسى كتب فى حقه (مطلقا) وهذا يصدق إذا وجد فى موضع من التوراة إشارة إليه ، ونحن نسلم هذا الأمر كما ستعرف فى ذيل بيان البشارة الثالثة ، لكننا ننكر أن يكون قوله إشارة إلى هذه البشارة للوجوه التى عرفتها ، وقد ادعى هذا المعترض فى الفصل الثالث من الباب الثانى من الميزان أن الآية الخامسة عشرة من الباب الثالث من سفر التكوين إشارة إليه ، فهذا القدر يكفى لتصحيح قول عيسى عليه السلام ، نعم لو قال عيسى عليه السلام إن موسى عليه السلام ما أشار فى أسفاره الخمسة إلى نبى من الأنبياء الا إلىّ لكان لهذا التوهم مجال فى هذه الحال .

﴿ البشارة الثانية ﴾

الآية ٢١ من الباب ٣٢ من سفر الاستثناء (التثنية) هكذا (هم أغارونى بغير إله وأغضبونى بمعبوداتهم الباطلة وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب و بشعب جاهل أغضبهم) والمراد بشعب جاهل العرب لأنهم كانوا فى غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام ، وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من هاجر الجارية : فمقصود الآية أن بنى اسرائيل أغارونى بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون . فأوفى بما وعد ، فبعث من العرب النبى صلى الله عليه وسلم فهداهم إلى الصراط المستقيم ، كما قال الله تعالى فى سورة الجمعة (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس فى الباب العاشر من الرسالة الرومية لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم فى العلوم والفنون ، وكان [illegible]

الحكماء المشهورين مثل سقراط و بقراط وفيثاغورس وافلاطون وارسطاطاليس وارشميدس و بليناس وأقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الألهيات والرياضيات والطبيعيات وفروعها قبل عيسى عليه السلام ، وكان اليونانيون فى عهده على غاية درجة الكمال فى فنونهم ، وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها، وعلى سائر كتب العهد العتيق أيضا بواسطة ترجمة سبتوجنت التى ظهرت باللسان اليونانى قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة ، لكنهم ماكانوا معتقدين للملة الموسوية، وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكمية الجديدة كما قال مقدسهم هذا فى الباب الأول من الرسالة الأولى إلى أهل قورنثيوس هكذا (٢٢ لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة ٢٣ ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوبا لليهود عثرة ولليونانيين جهالة) فلا يجوز أن يكون المراد بالشعب الجاهل اليونانيين، فكلام مقدسهم فى الرسالة الرومية إما مؤول أو مردود — وقد عرفت فى الأمر الثامن أن قوله ساقط عن الاعتبار عندنا .

﴿ البشارة الثالثة ﴾

فى الباب الثالث والثلاثين [1] من سفر التثنية فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (٢ وقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير [2] واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار فى يمينه سنة من نار [3]. فجيئه من سيناء اعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام وإشراقه من ساعير اعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام واستعلانه من جبل فاران إنزاله القرآن ، لأن فاران جبل من جبال مكة ، فقد جاء فى بيان حال اسماعيل عليه السلام من سفر التكوين (٢١ : ٢٠ وكان الله معه ونما وسكن فى البرية وصار شابا يرمى بالسهام ٢١ وسكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر) ولا شك أن اسماعيل عليه السلام

(١) هذا الباب هو الأخير من سفر التثنية . وفى الآية الأولى منه أن هذه البشارة قالها موسى قبل موته مباركا بها بنى اسرائيل «٢» فى التراجم الأخيرة سعير بالكسر والمراد بها واحد وفيها زيادة وأتى من «٣» المراد بالسنة الشريعة . وترجمة الجزويت «عن يمينه قبس شريعة لهم» ربوات القدس وليس فيها ألوف الاطهار .

كانت سكناه بمكة ، ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا ، فانتشرت فى هذه المواضع ، لأن الله لو خلق نارا فى موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا اتبع تلك الواقعة وحى نزل فى ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك ، وقد اعترفوا بأن الوحى اتبع تلك (النار التى رآها موسى) فى طور سيناء . فكذا لابد أن يكون فى ساعير وفاران .

﴿ البشارة الرابعة ﴾

فى الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله فى حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وعلى اسماعيل استجيب لك، هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدا فسيلد إثنى عشر رئيسا واجعله لشعب كبير)قوله « أجعله لشعب كبير » يشير إلى محمد ﷺ لأنه لم يكن فى ولد اسماعيل من كان لشعب كبير غيره وقد قال الله تعالى حاكيا دعاء ابراهيم واسماعيل فى حقه عليهم السلام فى كلامه المجيد أيضا (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم).

وقال الامام القرطبى فى الفصل الأول من القسم الثانى من كتابه : وقد تفطن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم فقال : يخرج مما ذكر من عبارة التوراة فى موضعين اسم محمد ﷺ بالعدد على مايستعمله اليهود فيما بينهم (الأول) قوله جدا جدا بتلك اللغة « بمادماد» وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون لأن الباء اثنان والميم أربعون والألف واحد والدال أربعة والميم الثانية أربعون والألف واحد والدال أربعة ، وكذلك الميم من محمد أربعون والحاء ثمانية والميم أربعون والدال أربعة [1]

(والثانى) قوله « لشعب كبير » بتلك اللغة « لغوى غدول» فاللام عندهم ثلاثون والغين ثلاثة ـ لأنه عندهم فى مقام الجيم ، إذ ليس فى لغتهم جيم ولا صاد والواو

(١) يؤيد هذا ماروى عن احبار اليهود المجاورين المدينة فى زمن البعثة من ظنهم أن الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور لبيان أجل الأمة الاسلامية .

ستة والياء عشرة والغين أيضا ثلاثة والدال أربعة والواو ستة واللام ثلاثون فمجموع هذه أيضا اثنان وتسعون ، انتهى كلامه بتلخيص ما .

وعبدالسلام كان من أحبار اليهود ثم أسلم فى عهد السلطان المرحوم بايزيد خان، وصنف رسالة صغيرة سماها بالرسالة الهادية فقال فيها «إن أكثر أدلة أحبار اليهود بحرف الجمل الكبير ، وهو حرف أبجد، فان أحبار اليهود حين بنى سليمان النبى عليه السلام بيت المقدس اجتمعوا وقالوا : يبقى هذا البناء أربعمائة وعشرة سنين، ثم يعرض له الخراب ، لأنهم حسبوا لفظة «بزأت» ثم قال: واعترضوا على هذا الدليل بأن الباء فى بماد ماد ليست نفس الكلمة بل هى أداة وحرف جىء به للصلة، فلو أخرج منه لاحتاج اسم محمد إلى باء ثانية ويقال: بماد ماد (قلنا) من المشهور عندهم إذا اجتمع البا آن (إحدهما) أداة (والآخر) من نفس الكلمة تحذف الأداة وتبقى التى هى من نفس الكلمة ، وهذا شائع عندهم فى مواضع غير معدودة فلا حاجة إلى إيرادها » انتهى كلامه بلفظه .

أقول : قد صرح العلماء بأن من أسمائه ﷺ مادماد كما فى شفاء القاضى عياض

﴿ البشارة الخامسة ﴾

جاء فى ترجمات سنة ١٧٢٢ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ العربية من سفر التكوين (٤٩ : ١٠ فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر من فخذه حتى يجىء الذى له الكل وإياه تنتظر الأمم) وفى ترجمة سنة ١٨١١ (فلا يزول القضيب من يهوذا والراسم من تحت أمره إلى أن يجىء الذى هو له إليه تجتمع الشعوب) ولفظ الذى له الكل أو الذى هو له ترجمة لفظ «شيلوه» وفى ترجمة هذا اللفظ اختلاف كثير فيما بينهم كما عرفت فى الأمر السابع أيضا . وقال عبدالسلام فى الرسالة الهادية هكذا (لا يزول الحاكم من يهوذا ولا راسم من بين رجليه حتى يجىء الذى له واليه تجتمع الشعوب) وفى هذه الآية دلالة على مجىء سيدنا محمد ﷺ بعد تمام حكم موسى وعيسى ، لأن المراد من الحاكم هو موسى ، لأنه بعد يعقوب ماجاء صاحب شريعة إلى زمان موسى إلا موسى ، والمراد من الراسم هو عيسى لأنه بعد موسى إلى زمان عيسى ماجاء صاحب شريعة إلا عيسى ، و بعدهما ماجاء صاحب شريعة

إلا محمد . فعلم أن المراد من قول يعقوب فى آخر الأيام ، هو نبينا محمد ﷺ لأنه فى آخر الزمان بعد مضى حكم الحاكم والراسم ماجاء إلا سيدنا محمد ﷺ ويدل عليه أيضاً قوله : حتى يجىء الذى له أى الحكم بدلالة مساق الآية وسياقها وأما قوله (واليه مجتمع الشعوب) فهى علامة صريحة ودلالة واضحة على أن المراد منها هو سيدنا محمد لأنه ما اجتمع الشعوب إلا إليه ، وإنما لم يذكر الزبور لأنه لا أحكام فيه ، وداود النبى تابع لموسى ، والمراد من خبر يعقوب هو صاحب الاحكام » انتهى كلامه بلفظه

أقول : إنما أراد من الحاكم موسى عليه السلام لأن شريعته جبرية انتقامية ، ومن الراسم عيسى عليه السلام لأن شريعته ليست بجبرية ولا انتقامية . وان أريد من القضيب السلطنة الدنيوية ، ومن المدبر الحاكم الدنيوى — كما يفهم من رسائل القسيسين من فرقة بروتستنت ومن بعض تراجمهم — فلا يصح أن يراد بشيلوه مسيح اليهود كما هو مزعومهم ، ولا عيسى عليه السلام كما هو مزعوم النصارى (أما الأول) فظاهر لأن السلطنة الدنيوية والحاكم الدنيوى زالا من آل يهوذا من مدة هى أزيد من ألفى سنة من عهد بخت نصر ، ولم يسمع إلى الآن حسيس مسيح اليهود (وأما الثانى) فلأنهما زالا من آل يهوذا أيضا قبل ظهور عيسى عليه السلام بقدر ستمائة سنة من عهد بخت نصر ، وهو أجلى بنى يهوذا إلى بابل ، وكانوا فى الجلاء ثلاثا وستين سنة لا سبعين كما يقول بعض علماء برتستنت تغلطا للعوام — كما عرفت فى الفصل الثالث من الباب الأول — ثم وقع عليهم فى عهد انتيوكس ما وقع فانه عزل أنياس حبر اليهود وباع منصبه لأخيه ياسون بثلثمائة وستين وزنة ذهب يقدمها له خراجا كل سنة ، ثم عزله وباع ذلك لأخيه مينالاوس بستمائة وستين وزنة ، ثم شاع خبر موته فطلب ياسون أن يسترد لنفسه الكهنوت ، ودخل أورشليم بألوف من الجنود فقتل كل من كان يظنه عدوا له — وهذا الخبر كان كاذبا — فهجم أنتيوكس على أورشليم وامتلكها ثانية فى سنة ١٧٠ قبل ميلاد المسيح وقتل من أهلها أربعين ألفا ، وباع مثل ذلك عبيداً . وفى الفصل العشرين من الجزء الثانى من مرشد الطالبين فى بيان الجدول التاريخى فى الصفحة ٤٨١ من النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٢ من الميلاد

(انه نهب أورشليم وقتل ثمانين ألفاً) اهـ . وسلب ماكان فى الهيكل من الأمتعة النفيسة التى كانت قيمتها ثمانمائة وزنة ذهب ، وقرب خنزيراً وقودا على المذبح للاهانة ثم رجع إلى إنطاكية وأقام فيلبس أحد الأراذل حاكما على اليهودية — وفى رحلته الرابعة إلى مصر أرسل أبولو ينوس بعشرين ألفاً من جنوده وأمرهم أن يخربوا أورشليم ويقتلوا كل من فيها من الرجال ويسبوا النساء والصبيان فانطلقوا إلى هناك ، وبينما كان الناس فى المدينة مجتمعين للصلاة يوم السبت هجموا عليهم على غفلة ، فقتلوا الكل إلا من أفلت إلى الجبال أو اختفى فى المغاور ونهبوا أموال المدينة وأحرقوها ، وهدموا أسوارها وخربوا منازلها ، ثم ابتنوا لهم من بسائط ذلك الهدم قلعة حصينة على جبل اكرا ، وكانت العساكر تشرف منها على جميع نواحى الهيكل ، ومن دنا منهم يقتلونه ، ثم أرسل انتيوكس أثانيوس ليعلم اليهود طقوس عبادة الاصنام اليونانية ، ويقتل كل من لا يمتثل ذلك الأمر ، فجاء أثانيوس إلى أورشليم ، وساعده على ذلك بعض اليهود الكافرين ، وأبطل الذبيحة اليومية ، ونسخ كل طاعة للدين اليهودى عموماً وخصوصاً ، وأحرق كل ماوجده من نسخ كتب العهد العتيق بالفحص التام وكرس الهيكل للمشترى ، ونصب صورة ذلك على مذبح اليهود ، وأهلك كل من وجده مخالفاً أمر أنتيوكس ، ونجا متاثياس الكاهن مع أبنائه الخمسة فى هذه الداهية وفروا إلى وطنهم مودين فى سبط دان ، فانتقم من هؤلاء الكفار انتقاما ماقدروا عليه على استطاعته كما هو مصرح به فى التواريخ ، فكيف يصدق هذا الخبر على عيسى عليه السلام ؟

وان قالوا ان المراد ببقاء السلطنة والحكومة امتياز القوم كما يقول بعضهم الآن (قلنا) هذا الأمر كان باقيا إلى ظهور محمد ﷺ ، وكانوا فى أقطار العرب ذوى حصون وأملاك غير مطيعين لأحد ، مثل يهود خيبر وغيرهم كما تشهد به التواريخ وبعد ظهور محمد ﷺ ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وصاروا فى كل أقليم مطيعين للغير — فالاليق أن يكون المراد بشيلوه النبى ﷺ لا مسيح اليهود ولا عيسى عليه السلام

﴿ البشارة السادسة ﴾

الزبور الخامس والأربعون هكذا (١ — فاض قلبى كلمة صالحة أنا أقول أعمالى للملك ٢ لسانى قلم كاتب سريع الكتابة ٣ بهى فى الحسن أفضل من بنى البشر ٤ انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الدهر ٤ تقلد سيفك على فخذك أيها القوى بحسنك وجمالك ٥ استله وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق وتهديك بالعجب يمينك ٦ نبلك مسنونة أيهـا القوى فى قلب أعداء الملك ، الشعوب تحتك يسقطون ٧ كرسيك يا ألله إلى دهر الداهرين ، عصـا الاستقامة عصا ملـكك ٨ أحببت البر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك ٩ المر والميعة والسليخة من ثيابك ، من منازلك الشريفة العاج التى أبهجتك ١٠ بنات الملوك فى كرامتك ، قامت الملكة من عن يمينك مشتملة بثوب مذهب موشى ١١ اسمعى يا بنت وانظرى وألصق بأذنيك وانسى شعبك وبيت أبيك ١٢ فيشتهى الملك حسنك لأنه هو الرب إلهك وله تسجدين ١٣ بنات صور يأتينك بالهدايا ، لوجهك يصلى كل أغنياء الشعب ١٤ كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى ١٥ يبلغن إلى الملك عذارى فى أثرها قريباتها إليك يقدمن ١٦ يبلغن بفرح وابتهـاج يدخلن إلى هيكل الملك ١٧ ويكون بنوك عوضا من آبائك وتقيمهم رؤساء على سـائر الأرض ١٨ سأذكر اسمك فى كل جيل وجيل من أجل ذلك تعترف لك الشعوب إلى الدهر وإلى دهر الداهرين)

من المسلم عند أهل الـكتاب أن داود عليه السلام يبشر فى هـذا الزبور بنبى يكون ظهوره بعد زمانه ، ولم يظهر إلى هذا الحين عند اليهود نبى يكون موصوفا بالصفات المذكورة فى هذا الزبور ، ويدعى علماء بروتستنت أن هذا النبى عيسى عليه السلام ، ويدعى أهل الإسلام سلفاً وخلفاً أن هـذا النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

فأقول : انه ذكر فى هذا الزبور من صفات النبى المبشر به هذه الصفات :

١ — كونه حسناً ٢ كونه أفضل البشر ٣ كون النعمة منسكبة على شفتيه ٤ كونه مباركاً إلى (آخر) الدهر ٥ كونه متقلداً بالسيف ٦ كونه قويا ٧ كونه ذا حق ودعة وصدق ٨ كون هداية يمينه بالعجب ٩ كون نبله مسنونة ١٠ سقوط الشعب تحته ١١ كونه محبا للبر ومبغضاً للاثم ١٢ خدمة بنات الملوك إياه ١٣ إتيان الهدايا إليه ١٤ انقياد كل أغنياء الشعب له ١٥ كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم ١٦ كون اسمه مذكوراً جيلا بعد جيل ١٧ مدح الشعوب إياه إلى دهر الداهرين

وهذه الأوصاف كلها توجد فى محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه

أما الأول فلأن أبا هريرة رضى الله عنه قال « مارأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وإذا ضحك يتلألأ فى الجدار » وعن أم معبد رضى الله عنها قالت: فى بعض ماوصفته به « أجمل الناس من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب »

وأما الثانى فلأن الله تعالى قال فى كلامه المحكم (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) الآية . وقال أهل التفسير : أراد بقوله (ورفع بعضهم درجات) محمداً صلى الله عليه وسلم أى رفعه على سائر الأنبياء من وجوه متعددة ، وقد أشبع الكلام فى تفسير هذه الآية الامام الهمام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير ، وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » أى لا أقول ذلك فخراً لنفسى بل تحدثاً بنعمة ربى .

وأما الثالث فغير محتاج إلى البيان حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف وقال الرواة فى وصف كلامه : إنه كان أصدق الناس لهجة ، فكان من الفصاحة بالمحل الأفضل والموضع الأكمل .

وأما الرابع : فلأن الله قال (إن الله وملائكته يصلون على النبى) وألوف ألوف من الناس يصلون عليه فى الصلوات الخمس (وغيرها)

وأما الخامس : فظاهر ، وقد قال هو بنفسه « أنا رسول الله بالسيف »

وأما السادس : فكانت قوته الجسمانية على الكمال كما ثبت أن ركانة خلا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض شعاب مكة قبل أن يسلم فقال « يا ركانة

ألا تتقى الله وتقبـل ما أدعوك اليه ؟ فقال : لو أعلم والله ما تقول حقا لاتبعتك فقال : أرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال ! نعم ، فلما بطش به صلى الله عليه تعالى عليه وآله وسلم أضجعه لايملك من أمره شيئاً ، ثم قال: يامحمد عد فصرعه أيضاً فقال : يامحمد إن ذا لعجب ! فقال ﷺ « وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن اتقيت الله وتبعت أمرى ، قال : ماهو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة» فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يديه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال لها : ارجعى مكانك. فرجع ركانة إلى قومه فقال : يابنى عبد مناف ما رأيت اسحر منه ثم أخبرهم بما راى » وركانة هذا كان من الأقوياء والمصارعين المشهورين (١)

وأما شجاعته فقد قال ابن عمر رضى الله عنهما : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله ﷺ. وقال على رضى الله عنه « وانا كنا إذا حمى البأس واحمرت الحـدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب الى العدو منه . ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً »

وأما السابع : فلأن الأمانة والصدق من الصفات الجبلية له ﷺ كما قال النضر بن الحارث لقريش « قد كان محمد فيـكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيـكم ، وأصدقـكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم إنه ساحر ، لا والله ما هو بساحر» وسأل هرقل عن حال النبى ﷺ أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا »

وأما الثامن : فلأنه رمى يوم بدر ، وكذا يوم حنين وجوه الـكفار بقبضة

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الاصابة ، قال ابن حبان فى اسناد خبره وفى المصارعة نظر : يشير إلى الحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى من رواية أبى الحسن العسقلانى عن جعفر بن محمد بن ركانة عن أبيـه ... الحـديث قال الترمذى : غريب وليس اسـناده بقائم اهـ أقول : ورواه البيهقى من طريق ابن اسحق عن أبيه وعن ركانة وأخرجه هو وأبو نعيم عن أبى امامة مطولا وفيه زيادة مجىء الشجرة ، وان ركانة لم يكن يصرعه أحد

تراب فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه ، فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلا وأسراً .
فأمثال هذه من عجيب هداية عينه

وأما التاسع : فلأن كون أولاد اسماعيل أصحاب النبل فى سالف الزمان ، غير محتاج إلى البيان ، وكان هذا الأمر مرغوبا له ، وكان يقول « ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » و يقول « ارموا بنى أسماعيل فان أباكم كان رامياً » و يقول عليه السلام « من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا » .

وأما العاشر : فلأن الناس دخلوا أفواجا أفواجا فى دين الله فى مدة حياته

وأما الحادى عشر : فمشهور يعترف به المعاندون أيضاً كما عرفت فى المسلك الثانى

وأما الثانى عشر : فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة المسلمين فى الطبقة الأولى ، ومنها شهريار بنت يزدجرد كسرى فارس كانت تحت الإمام الهمام الحسين رضى الله عنه

وأما الثالث عشر والرابع عشر : فلأن النجاشى ملك الحبشة ومنذر بن ساوى ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا ، وهرقل قيصر الروم أرسل إليه بهدية ، والمقوقس ملك القبط أرسل إليه ثلاث جوار وغلاماً أسود و بغلة شهباء وحماراً أشهب وفرساً وثياباً وغيرها

وأما الخامس عشر : فقد وصل من أبناء الإمام الحسن رضى الله عنه إلى الخلافة وألوف فى أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها ، وفازوا بالسلطنة والامارة العالية ، و إلى الآن أيضاً فى ديار الحجاز واليمن وفى غيرهما توجد الأمراء والحكام من نسله صلى الله عليه وسلم ، وسيظهر إن شاء الله المهدى رضى الله عنه من نسله ، و يكون خليفة الله فى الأرض و يكون الدين كله لله فى عهده الشريف

وأما السادس عشر والسابع عشر : فلأنه ينادى ألوف ألوف جيلا بعد جيل فى الأوقات الخمسة بصوت رفيع فى أقاليم مختلفة : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، و يصلى عليه فى الأوقات المذكورة غير المحصورين من المصلين ، والقراء يحفظون منشوره ، والمفسرون يفسرون معانى فرقانه ، والوعاظ

يبلغون وعظه ، والعلماء والسلاطين يصلون إلى خدمته ، ويسلمون عليه من وراء الباب ويمسحون وجوههم بتراب روضته ويرجون شفاعته . (١)

ولا يصدق هذا الخبر فى حق عيسى عليه السلام كما يدعيه علماء بروتستنت ادعاء باطلا ، لانهم يشيرون إلى الخبر المندرج فى الباب الثالث والخمسين من كتاب أشعيا فى حق عيسى عليه السلام ، وهذا نصه : ليس له منظر وجمال ، ورأيناه ولم يكن له منظر واشتهيناه مهاناً ، وآخر الرجال رجل الأوجاع مختبراً بالأمراض ، وكان مكتوماً وجهه ، ومزدولا ولم نحسبه ونحن حسبناه كأبرص ومضروبا من الله ومخضوعاً، والرب شاء أن يسحقه (٢) .

وهذه الأوصاف ضد الأوصاف التى فى الزبور المذكور فلا يصدق عليه كونه حسناً ولا كونه قويا ، وكذا لا يصدق عليه كونه متقلداً بالسيف ، ولا كون نبله مسنونة ، ولا انقياد الأغنياء له ، ولا إرسالهم إليه الهدايا ، بل هم على زعم النصارى أخذوه وأهانوه واستهزؤا به وضربوه بالسياط ثم صلبوه ، وما كان له زوجة ولا ابن، فلا يصدق دخول بنات الملوك فى بيته ، ولا كون أبنائه بدل آبائه رؤساء الأرض

﴿ فائدة ﴾ ترجمة الآية الثامنة التى نقلتها مطابقة للترجمة الفارسية للزبور التى كانت عندى ، ولتراجم اردو للزبور وموافقة لنقل مقدسهم بولس لانه نقل هذه الآية فى الباب الأول من رسالته العبرانية هكذا ترجمة عربية سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ (أحببت البر وأبغضت الاثم ، لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وتراجم اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١ مطابقة للتراجم العربية ، فالترجمة التى تكون مخالفة لما نقلت تكون غير صحيحة ، ويكفى ردها إلزاما كلام مقدسهم ، وقد عرفت فى مقدمة الباب الرابع أن إطلاق لفظ الاله والرب وأمثالها جاء على العوام فضلا عن الخواص . والآية السادسة من الزبور الثانى والثمانين هكذا (أنا قلت انكم آلهة وبنو العلى كلكم) فلا يرد

---

(١) هذا مما جاء به رسول الله ﷺ وكتبه مصححه .

(٢) ان ترجمة الاميركان الأخيرة وترجمة الجزويت تخالف هذه الترجمة فى بعض العبارات كما هو شأنهم فى جميع الترجمات ولذلك وضع صاحب إظهار الحق التنبيه الآتى

ما قال صاحب مفتاح الأسرار انه وقع فى الآية المذكورة هكذا (أحببت البر وأبغضت الشر من أجل ذلك ياالله مسيح إلهك بدهن البهجة أفضل من رفقائك) ولا يقال لشخص غير المسيح ياالله مسيح إلهك الخ، لانا لانسلم أولا صحة ترجمته لكونها مخالفة لكلام مقدسيهم (وثانياً) لو قطعنا النظر عن عدم صحتها أقول ادعاؤه صريح البطلان لان لفظ الله ههنا بالمعنى المجازى لا الحقيقى ، ويدل عليه قوله إلهك ، لان الإله الحقيقى لا إله له ، فاذا كان بالمعنى المجازى يصدق فى حق محمد ﷺ كما يصدق فى حق عيسى عليه السلام [1] .

(قد حذفنا هنا ٦ بشارات من ٧ — ١٢ للاختصار)

﴿ البشارة الثالثة عشرة ﴾

فى الباب الثالث من انجيل متى هكذا (١ وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية ٢ قائلا : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات) وفى الباب الرابع من انجيل متى هكذا (١٢ ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل ... ١٧ من ذلك الزمن ابتدأ يسوع يكرز ويقول : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات ... ٢٣ وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت) الخ وفى الباب السادس من انجيل متى فى بيان الصلاة التى علمها عيسى عليه السلام تلاميذه هكذا (١٠ ـ ليأت ملكوتك) ولما أرسل الحواريين إلى البلاد الاسرائيلية للدعوة والوعظ وصاهم بوصايا منها هذه الوصية أيضاً (وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات) كما هو مصرح به فى الباب العاشر من انجيل متى ، ووقع فى الباب التاسع من انجيل لوقا هكذا (١ ودعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم قوة وسلطانا على جميع الشياطين وشفاء أمراض ٢ وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله ويشفوا المرضى) وفى الباب العاشر من انجيل لوقا هكذا (١ و بعد ذلك عين الرب سبعين آخرين أيضاً وأرسلهم) الخ (فقال لهم) الخ (٨ وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم فكلوا مما يقدم

---

(١) أى من جهة العبارة فبقى ما تقدم من المرجحات لارادة محمد ﷺ

لكم (٩) واشفوا المرضى الذين فيها وقولوا لهم : قد اقترب منكم ملكوت الله (١٠) وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى شوارعها وقولوا (١١) حتى الغبار الذى لصق بنامن مدينتكم ننفضه لكم ،ولكن اعلموا هذا أنه قداقترب منكم ملكوت الله) — فظاهر أن كلا من يحيى وعيسى والحواريين والتلاميذ السبعين بشر بملكوت السموات ، و بشر عيسى عليه السلام بالألفاظ التى بشر بها يحيى عليه السلام،فعلم أن هذا الملكوت كما لم يظهر فى عهد يحيى عليه السلام،فكذلك لم يظهر فى عهد عيسى عليه السلام ،ولا فى عهد الحواريين والسبعين ، بل كل منهم مبشر به ومخبر عن فضله ومترج لمجيئه ،فلا يكون المراد بملكوت السموات طريقة النجاة التى ظهرت بشريعة عيسى عليه السلام ، و إلا لما قال عيسى عليه السلام والحواريون والسبعون : إن ملكوت السموات قد اقترب،ولما علم التلاميذ أن يقولوا فى الصلاة وليأت ملكوتك ، لأن هذه الطريقة قد ظهرت بعد ادعاء عيسى عليه السلام النبوة بشريعته ، فهو عبارة عن طريقة النجاة التى ظهرت بشريعة محمد ﷺ فهؤلاء كانوا يبشرون بهذه الطريقة الجليلة ، ولفظ ملكوت السموات بحسب الظاهر يدل على أن هذا الملكوت يكون فى صورة السلطنة لا فى صورة المسكنة ، وأن المحاربة والجدال فيه مع المخالفين يكونان لأجله ، وأن مبنى قوانينه لابد أن يكون كتابا سماويا ، وكل من هذه الأمور يصدق على الشريعة المحمدية.

وقول علماء المسيحية : إن المراد بهذا الملكوت شيوع الملة المسيحية فى جميع العالم و إحاطتها بكل الدنيا بعد نزول عيسى عليه السلام.فتأويل ضعيف خلاف الظاهر ، ويرده التمثيلات المنقولة عن عيسى عليه السلام فى الباب الثالث عشر من إنجيل متى مثلا قال (٢٤ يشبه ملكوت السموات إنساناً زرع زرعا جيداً فى حقله ...) ثم قال : (٣١ يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله ...) ثم قال (٣٣ يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع) فشبه ملكوت السموات بانسان زارع لا بنمو الزراعة وحصادها ، وكذلك شبه بحبة خردل لا بصيرورتها شجرة

عظيمة وشبهه بخميرة لا باختمار جميع الدقيق . وكذا يرد هذا التأويل قول عيسى عليه السلام بعد بيان التمثيل المنقول فى البيان الحادى والعشرين من إنجيل متى هكذا (٤٣ لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم و يعطى لأمة تعمل أثماره) فان هذا القول يدل على أن المراد بملكوت السموات طريقة النجاة نفسها لا شيوعها فى جميع العالم و إحاطتها بكل العالم و إلا لامعنى لنزع الشيوع والإحاطة من قوم و إعطائها لقوم آخرين . فالحق أن المراد بهذا الملكوت هى المملكة التى أخبر عنها دانيال عليه السلام فى الباب الثانى من كتابه [1] فمصداق هذا الملكوت وتلك المملكة نبوة محمد ﷺ والله أعلم وعلمه أتم

﴿ البشارة الرابعة عشرة ﴾

فى البـاب الثالث عشر من انجيل متى هكذا (٣١ قدم لهم مثلا آخر قائلا يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله (٣٢) وهى أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول ، وتصير شجرة حتى ان طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها) فملكوت السماء طريقة النجاة ، التى ظهرت بشريعة محمد ﷺ لأنه نشأ فى قوم كانوا حقراء عند العالم لكونهم من أهل البوادى غالبا وغير واقفين على العلوم والصناعات ، محرومين من اللذات الجسمانية ، والتكلفات الدنيوية ، ولاسيما عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر فبعث الله منهم محمداً ﷺ فكانت شريعته فى ابتداء الأمر بمنزلة حبة خردل ، أصغر الشرائع بحسب الظاهر ، لكونها لعمومها نمت فى مدة قليلة ، وصارت أكبرها ، وأحاطت شرقا وغربا ، حتى إن الذين لم يكونوا مطيعين لشريعة من الشرائع تشبثوا بذيل شريعته

﴿ البشارة الخامسة عشرة ﴾

فى الباب العشرين من إنجيل متى هكذا (١ فان ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكرمه ٢ فاتفق مع الفعلة

(١) قد بينها المؤلف فى البشارة الرابعة عشرة وهى مما حذفناه للاختصار

على دينار فى اليوم وأرسلهم إلى كرمه ٣ ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما فى السوق بطالين ٤ فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا ٥ وخرج أيضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ٦ ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياما بطالين فقال لهم : لماذا وقفتم ههنا كل النهار بطالين ٧ قالوا له : لأنه لم يستأجرنا أحد . قال لهم : اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم ٨ فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله : ادع الفعلة واعطهم الأجرة مبتديا من الآخرين إلى الأولين ٩ فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً ١٠ فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا ديناراً ديناراً ١١ وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت ١٢ قائلين : هؤلاء الآخرون عملوا ساعة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر ١٣ فأجاب وقال لواحد منهم : ياصاحب ما ظلمتك أما اتفقت معى على دينار ؟ ١٤ فخذ الذى لك واذهب فإنى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك ١٥ أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى أم عينك شريرة لأنى أنا صالح ١٦ هكذا يكون الآخرون أولين ، والأولون آخرين ، لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون) اهـ فالآخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يقدمون فى الأجر وهم الآخرون الأولون كما قال النبى ﷺ « نحن الآخرون السابقون »[1] وقال « إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى »

(١) الحديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما وفى رواية زيادة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » الخ وقال ﷺ « مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجراء فقال من يعمل لى من غدوة إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل لى من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ فأنتم هم ، فغضبت اليهود والنصارى فقالوا ما لنا أكثر عملا وأقل عطاء ؟ قال هل نقصتكم من حقكم (وفى رواية هل ظلمتكم من حقكم

شيئا) قالوا لا . « فذلك فضلى أوتيه من أشاء » رواه البخارى من حديث ابن عمر .

﴿ البشارة السادسة عشر ﴾

فى الباب الحادى والعشرين من انجيل متى هكذا (٣٣ اسمعوا مثلا آخر كان إنسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة و بنى برجا وسلمه إلى كرامين وسافر ٣٤ ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره ٣٥ فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ٣٦ ثم أرسل أيضا عبيداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك) ٣٧ (فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلا : يهابون ابنى ٣٨ وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم : هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ٣٩ فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ٤٠ فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ ٤١ قالوا له أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً و يسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها ٤٢ قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناؤن هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب ؟ كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ٤٣ لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم و يعطى لأمة تعمل أثماره ٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه ٤٥ ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم)

أقول إن رب بيت كناية عن الله ، والكرم كناية عن الشريعة ، و إحاطته بسياج ، وحفر المعصرة فيه ، و بناء البرج كنايات عن المحرمات والمباحات والأوامر والنواهى ، وان الكرامين الطاغين كناية عن اليهود ، كما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنه تكلم عليهم ، والعبيد المرسلين كناية عن الأنبياء عليهم السلام والابن كناية عن عيسى عليه السلام — وقدعرفت فى الباب الرابع أنه لا بأس بإطلاق هذا اللفظ عليه ، وقد قتله اليهود أيضاً فى زعمهم ، والحجر الذى رفضه البناؤن كناية عن محمد ﷺ ، والأمة التى تعمل أثماره كناية عن أمته ﷺ وهذا هو الحجر الذى كل من سقط عليه ترضض ، وكل من سقط هو عليه سحقه .

وما ادعاه علماء المسيحية بزعمهم : أن هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام فغير صحيح لوجوه

(الأول) أن داود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا ٢٢ (الحجر الذي رذله البناؤن هو صار للزاوية ٢٣ من قبل الرب كانت هذه وهي عجيبة في أعيننا) فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى السلام ، وهو من اليهود من آل يهوذا من آل داود عليه السلام . فأي عجب في أعين اليهود عموماً لكون عيسى عليه السلام رأس الزاوية ولا سيما في عين داود عليه السلام ، خصوصا لأن مزعوم المسيحيين أن داود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام في مزاميره تعظيما بليغاً و يعتقد الألوهية في حقه : بخلاف آل اسماعيل ، فان اليهود كانوا يحقرون أولاد إسماعيل غاية التحقير فكان كون أحد منهم رأسا للزاوية عجيبا في أعينهم

(والثاني) أنه وقع في وصف هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه . ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأنه قال : (وان سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا ادينه ، لأني لم آت لادين العالم بل لاخلص العالم) كما هو في الباب الثاني عشر من إنجيل يوحنا . وصدقه على محمد ﷺ غير محتاج إلى البيان ، لأنه كان مأموراً بتنبيه [1] الفجار الاشرار فان سقطوا عليه ترضضوا ، و إن سقط هو عليهم سحقهم

(الثالث) قال النبي ﷺ « مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف بها النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل » [2] ولما ثبتت نبوته بالأدلة الاخرى ، كما ذكرت نبذاً منها في المسالك السابقة فلا بأس بأن استدل في هذه البشارة بقوله أيضاً

(والرابع) أن المتبادر من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الابن

---

(١) لو قال بتأديب أو كبح أو زجر الفجار لكان أظهر (٢) الحديث رواه الشيخان عن جابر وأبي هريرة قال الثاني « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا (وفي رواية بنيانا) فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به و يعجبون له و يقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »

﴿ البشارة السابعة عشر ﴾

في الباب الثاني من المشاهدات هكذا (٢٦ ومن يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية فسأعطيه سلطانا على الأمم ٢٧ فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما اخذت أيضا من عند أبي ٢٨ واعطيه كوكب الصبح ٢٩ من له أذن فليسمع مايقول الروح بالكنايس) فهذا الغالب الذى أعطى سلطانا على الأمم ويرعاهم بقضيب من حديد هو محمد ﷺ ، كما قال الله في حقه (وينصرك الله نصراً عزيزاً) وقد سماه سطيح الكاهن صاحب الهراوة — روى أنه ليلة ولادته ﷺ انشق إيوان كسرى أنوشروان ، وسقط منه أربع عشرة شرفة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغارت بحيرة ساوة بحيث صارت يابسة ، ورأى الموبذان في نومه أن إبلا صعابا تقود خيلا عرابا فقطعت دجلة وانتشرت في بلادها ، فخاف كسرى من حدوث هذه الامور ، وأرسل عبد المسيح إلى سطيح الكاهن الذي كان في الشام ، ولما وصل عبد المسيح اليه وجده في سكرات الموت فقال سطيح : إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة وفاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفرس مقاما ، ولا الشام لسطيح شاما ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ماهو آت آت ، ثم مات سطيح من ساعته ، ورجع عبد المسيح فأخبر أنوشروان بما قال سطيح ، فقال كسرى : إلى أن يملك أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور ، فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه فهلك آخرهم يزدجرد في خلافته . والهراوة بكسر الهاء العصا الضخمة : وكوكب الصبح عبارة عن القرآن ، قال الله في سورة النساء (وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) وقال في سورة التغابن (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا)

قال صاحب صولة الضيغم بعد نقل هذه البشارة : قلت للقسيسين ويت ووليم عند المناظرة : إن صاحب هذا القضيب من حديد محمد ﷺ

فاضطربا بسماع هذا الأمر وقالا : إن عيسى عليه السلام حكم بهذا الكنيسة ثياتيرا فلا بد أن يكون ظهور مثل هـذا الشخص هناك ، ومحمد ﷺ ماراح هنـاك ، قلت : هذه الكنيسة فى أية ناحية كانت ؟ فرجعا إلى كتب اللغة وقالا : كانت فى أرض الروم قريبة من استانبول ، قلت : راح أصحاب محمد ﷺ فى خلافة الفاروق الأعظم عمر رضى الله عنه إلى هذه البـلاد وفتحوها و بعد الصـحابة رضى الله عنهم كان المسلمون أيضا متسلطين عليها فى أكثر الأوقات ثم تسلط عليها سلاطين آل عثمان أدام الله سلطنتهم من مدة مديدة ، وهم متسلطون إلى هذا الحين . فهذا الخبر صريح فى حق محمد ﷺ انتهى كلامه

قلت : إن الفاضل عباس على الجاجوى الهندى صنف أولا كتابا كبيراً فى الرد على أهل التثليث سماه (صولة الضيغم على أعداء ابن مريم) ثم ناظر هو رحمه الله و يت ووليم القسيسين فى بلد كانفور من بلاد الهند وألزمهما ثم اختصر كتابه وسمى المختصر (خلاصة صولة الضيغم) ومناظرته كانت قبـل أن أناظر صاحب ميزان الحق فى أكبر آباد بمقدار اثنتين وعشرين سنة

﴿ البشارة الثامنة عشرة ﴾

هذه البشـارة واقعة فى آخر أبواب انجيل يوحنا وانا انقلهـا عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ فى بلدة لندن فاقول : فى الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا (١٥ ان كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياى ١٦ وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد ١٧ روح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم ٢٦ والفار قليط روح القدس الذى يرسله الأب باسمى هو يعلمكم كل شىء وهو يذكركم كل ماقلتـه لكم ٣٠ والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون) وفى الباب الخامس عشر من انجيل يوحنا هكذا (٢٦ فاما إذا جاء الفارقليط الذى أرسله أنا اليكم من الأب روح الحق الذى من الأب ينبثق فهو يشهد لأجلى ٢٧ وأنتم تشهدون لأنكم معى من الابتداء) وفى الباب السادس عشر من انجيل يوحنا هكذا (٧ لكنى أقول لكم الحق أنه خير لكم أن

أنطلق لأنى ان لم انطلق لم يأتكم الفار قليط فاما إن انطلقت أرسلته اليكم ٨ فإذا جاءذاك يوبخ العالم على خطيئةوعلى بروعلى حكم (* ٩ أما على الخطيئةفلأنهم لم يؤمنوا بى ١٠ وأما على البر ، فلأنى منطلق إلى الأب ، ولستم ترونى بعد ١١ وأما على الحكم فان أكون (رئيس) هـذا العالم قد دين ١٢ وان لى كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن ١٣ و إذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع و يخبركم بما سيأتى ١٤ وهو يمجدنى لأنه يأخذ مما هو لى و يخبركم ١٥ جميع ماهو للأب فهو لى فمن أجل هذا قلت إن مما هو لى يأخذ و يخبركم)

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرين (الأمر الأول) أنك قد عرفت في الأمر السابع أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم أن يترجموا غالبا الأسماء (أى الأعلام) وأن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبرانى لا باليونانى فإذاً لا يبقى شك فى أن الانجيلى الرابع ترجم اسم المبشر به باليونانى بحسب عادتهم ثم مترجموا العربية عربوا اللفظ اليونانى بفارقليط وقد وصلت إلى رسالة صغيرة بلسان أردو من رسائل القسيسين فى سنة ألف ومائتين وثمانية وستين من الهجرة وكانت هذه الرسائل طبعت فى كلكته وكانت فى تحقيق لفظ (فارقليط) وادعى مؤلفها أن مقصوده أن ينبه المسلمين على سبب وقوعهم فى الغلط من لفظ فارقليط وكان ملخص كلامه أن هـذا اللفظ معرب من اللفظ اليونانى « فان قلنـا إن هذا اللفظ اليونانى الأصـل باراكلى طوس فيكون بمعنى المعزى والمعين والوكيل وان قلنا أن اللفظ الأصل بير كلوطوس يكون قريبا من معنى محمد وأحمد ، فمن استدل من علماء الإسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصل بيركلوطوس ومعناه قريب من معنى محمد وأحمد فادعى أن عيسى عليـه السلام أخبر بمحمد أو أحمد لكن الصحيح أنه باراكلى طوس » انتهى ملخصا من كلامه (يقول محمد رشيد مؤلف هذا التفسير) انى اوضح هنـا ما كتبه الشيخ

* فى التراجم الأخيرة كلمة دينونة موضع كلمة حكم

رحمة الله بكلمة للدكتور محمد توفيق صدقى أوردها فى هذا المقام فى كتابه (دين الله فى كتب أنبيائه) قال رحمه الله :

هذا اللفظ (الفارقليط) يونانى ويكتب بالانكليزية هكذا (Paraclete) بارقليط أى (المعزى) ويتضمن أيضاً معنى المحاج كما قال بوست فى قاموسه، وهناك لفظ آخر يكتب هكذا (Periclite) ومعناه رفيع المقام سام . جليل . مجيد . شهير . وهى كلها معان تقرب من معنى محمد واحمد ومحمود .

ولا يخفى أن المسيح كان يتكلم بالعبرية فلا ندرى ماذا كان اللفظ الذى نطق به عليه السلام ؟ ولا ندرى إن كانت ترجمة مؤلف هذا الانجيل له بلفظ (Paraclete) صحيحة أو خطأ ؟ ولا ندرى إن كان هذا اللفظ (Paraclete) هو الذى ترجم به من قبل أم لا ؟ لأننا نعلم أن كثيراً من الألفاظ والعبارات وقع فيها التحريف من الكتاب سهواً أو قصداً ، كما اعترفوا به فى جميع كتب العهدين (راجع الفصل الثالث) فإذا كان اللفظ الأصلى (Periclite) بيرقليط فلا يبعد أنه حرف عمداً أو سهواً إلى (Paraclete) بارقليط حتى يبعدوه عن معنى اسم النبى ﷺ ، ومما يسهل عليهم ذلك تشابه أحرف هذه الكلمة فى اللغة اليونانية .

وعلى كل حال فسواء كان هو (Paraclete) بارقليط أو (Periclite) بيرقليط ، فمعنى كل منهما ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم فهو معز المؤمنين على عدم إيمان الكافرين ، وعلى عدم وجود الشر فى هذا العالم بإيضاح أن هذه هى إرادة الله لحكمة يعلمها هو ، ومعز أيضاً للمصابين والمرضى والفقراء وغيرهم بعقيدة البعث والقيامة ، وهو صلى الله عليه وسلم كان يحاج الكفار والمشركين وغيرهم (إذا كان معناها المحاجّ المجادل [1] كما قال بوست) وهو شهير سام جليل مجيد إذا كان اللفظ الأصلى (بيرقليط) والعبارات الواردة فى انجيل يوحنا فى هذه المسألة لا تنطبق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم كما بين ذلك صاحب كتاب إظهار الحق ومؤلف كتاب (فتح الملك العلام فى بشائر دين الإسلام) وكما أشرنا إلى ذلك فى

---

(١) ومن شواهده قوله تعالى « وجادلهم بالتى هى أحسن » .

صفحة ٨٢ من هذا الكتاب اﻫ ونعود إلى سياق صاحب اظهار الحق الشيخ رحمة الله ، قال رحمه الله :

وأقول : ان التفاوت بين اللفظين يسير جدا وان الحروف اليونانية كانت متشابهة ، فتبدل بيركلوطوس بباراكلي طوس فى بعض النسخ من الكاتب قريب القياس . ثم رجح أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الأخر ، ومن تأمل فى الباب الثاني من هذا الكتاب والأمر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الانصاف اعتقد يقينا بأن مثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد بل لا يبعد أن يكون من المحسنات .

(والأمر الثانى) أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد ﷺ انهم مصاديق لفظ فارقليط مثلا منتنس المسيحى الذى كان فى القرن الثانى من الميلاد وكان مرتاضا شديد الارتياض وأتقى أهل عهده : ادعى فى قرب سنة ١٧٧ من الميلاد فى آسيا الصغرى الرسالة وقال : إنى الفارقليط الذى وعد بمجيئه عيسى عليه السلام ، وتبعه اناس كثيرون فى ذلك كما هو مذكور فى بعض التواريخ وذكر وليم ميور حاله وحال متبعيه فى القسم الثانى من الباب الثالث من تاريخه بلسان اردو المطبوع سنة ١٨٤٨ من الميلاد هكذا : ان البعض قالوا انه ادعى أنه الفارقليط يعنى المعزى روح القدس ، وهو كان اتقى (؟) ومرتاضاً شديداً (؟) ولأجل ذلك قبله الناس قبولاً زائداً ، انتهى كلامه .

فعلم أن انتظار الفارقليط كان فى القرون الأولى المسيحية أيضاً ولذلك كان الناس يدعون انهم مصاديقه ، وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم — وقال صاحب لب التواريخ : إن اليهود والمسيحيين من معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم كانوا منتظرين لنبي ، فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم لأنه ادعى انه هو ذلك المنتظر ، انتهى ملخص كلامه — فيعلم من كلامه أيضاً أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبي فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الحق ، لان النجاشى ملك الحبشة لما وصل إليه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم قال : أشهد بالله أنه النبي الذى ينتظره أهل الكتاب ، وكتب الجواب وكتب فى الجواب : أشهد أنك

رسول الله صادقا ومصدقا ، وقد بايعتك و بايعت ابن عمك — أى جعفر بن أبى طالب — وأسلمت على يديه لله رب العالمين اه وهذا النجاشى كان قبل الاسلام نصرانيا

وكتب المقوقس ملك القبط فى جواب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم هكذا: إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيا قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك اه والمقوقس هذا وان لم يسلم لكنه أقر فى كتابه: أنى قد علمت أن نبيا قد بقى . وكان نصرانيا فهذان الملكان ما كانا يخافان فى ذلك الوقت من محمد صلى الله عليه وسلم لأجل شوكته الدنياوية .

وجاء الجارود بن العلاء فى قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : والله لقد جئت بالحق ، ونطقت بالصدق ، والذى بعثك بالحق نبيا لقد وجدت وصفك فى الانجيل ، و بشر بك ابن البتول ، فطول التحية لك ، والشكر لمن أكرمك ، لا أثر بعد عين ، ولا شك بعد يقين ، مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله . ثم آمن قومه وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بأنه قد بشر به ابن البتول أى عيسى عليه السلام ، فظهر أن المسيحيين أيضاً كانوا منتظرين لخروج نبى بشر به عيسى عليه السلام .

فإذا علمت ذلك فأقول: إن اللفظ العبرانى الذى قاله عيسى عليه السلام مفقود واللفظ اليونانى الموجود ترجمة ، لكنى اترك البحث عن الأصل واتكلم على هذا اللفظ اليونانى فأقول : إن كان اللفظ اليونانى الأصل بيركاوطوس ، فالأمر ظاهر وتكون بشارة المسيح فى حق محمد صلى الله عليه وسلم بلفظ هو قريب من محمد واحمد وهذا و إن كان قريب القياس بالنظر إلى عاداتهم لكنى أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم الزاما وأقول إن كان اللفظ اليونانى الأصل بارا كلى طوس كما يدعون فهذا لا ينافى الاستدلال أيضاً لأن معناه المعزى والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وهذه المعانى كلها تصدق على محمد ﷺ

وأنا أبين الآن أولا أن المراد بالفارقليط النبى المبشر به أعنى محمدا صلى الله

عليه وسلم لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذى جاء ذكره فى الباب الثانى من كتاب الأعمال ، واذكر ثانيا شبهات علماء المسيحية وأجيب عنها فأقول : أما الأول فيدل عليه أمور .

(١) إن عيسى عليه السلام قال أولا (إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى) ثم أخبر عن الفارقليط فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقى عليهم بعد ضرورى وواجب الرعاية فلو كان الفارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة إلى هذه الفقرة لأنه ما كان مظنونا أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لأنهم كانوا مستفضين منه من قبل أيضاً بل لا مجال للاستبعاد أيضاً لأنه إذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لامحالة ظهورا بينا فلا يتصور انكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم فى صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد[1] فهو عبارة عن النبى المبشر به فحقيقة الأمر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوة أن الكثيرين من أمته ينكرون النبى المبشر به عند ظهوره أكده أولا بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجيئه .

(٢) إن هذا الروح متحد بالأب مطلقا وبالابن نظرا إلى لاهوته اتحادا حقيقيا فلا يصدق فى حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبى المبشر به فانه يصدق هذا القول فى حقه بلا تكلف .

(٣) أن الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لا من خواص هذ الروح المتحد بالله فلا يصدقان على الروح ويصدقان على النبى المبشر به بلا تكلف

(٤) أن عيسى عليه السلام قال (هو يذكركم كل ماقلته لكم) ولم يثبت فى رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إياه .

(٥) أن عيسى عليه السلام قال (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون (أن يوجد) حتى إذا كان — أى وجد وبعث — تؤمنون) وهذا يدل على أن المراد

---

(١) هذه العبارة لا تفهم لركاكتها وفسادها وأقرب مايفهم منها بالقرينة انه ليس ظهوره عندهم فى صورة المظنة يقتضى الاستبعاد

به ليس الروح لأنك قد عرفت في الأمر الأول أنه ما كان عدم الإيمان مظنوناً منهم وقت نزوله بل لا مجال للاستبعاد أيضاً، فلا حاجة إلى هذا القول، وليس من شأن الحكيم العاقل أن يتكلم بكلام فضول، فضلا عن شأن النبي العظيم الشأن، فلو أردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله، وفي غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية .

(٦) إن عيسى عليه السلام قال (هو يشهد لأجلي)وهذا الروح ما شهد لأجله بين أيدي أحد لأن تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضاً فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون هم الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ما شهد بين أيديهم بخلاف محمد ﷺ فإنه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدقه وبرأه عن إدعاء الألوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال . وبرأ أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر براءتهما في القرآن في مواضع متعددة وفي الأحاديث في مواضع غير محصورة .

(٧) إن عيسى عليه السلام (قال وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء (وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة١٨١٦ هكذا) وتشهدون أنتم أيضا لأنكم كنتم معي من الابتداء) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا (وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء) فيوجد في هذه التراجم الثلاث لفظ أيضا وكذا يوجد في التراجم الفارسية المطبوعة سنة١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ ترجمة لفظ أيضا فلفظ أيضاً سقط من التراجم التي نقلت عنها عبارة يوحنا سهوا أو قصدا فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة الفار قليط ، فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار لم توجد مغايرة بين الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هي شهادته بعينها لأن هذا الروح مع كونه إلهاً متحداً بالله اتحاداً حقيقياً بريا من النزول والحلول والاستقرار والشكل التي هي من عوارض الجسم والجسمانيات نزل مثل ريح عاصفة وظهر في أشكال ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم يوم الدار فكان حالهم كحال من عليه أثر الجن ، فكما أن قول الجن يكون قوله في تلك

الحالة فكذلك كانت شهادة الروح هي شهادة الحواريين فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبي المبشر به فان شهادته غير شهادة الحواريين .

(٨) إن عيسى عليه السلام قال : إن لم انطلق لم يأتكم الفارقليط فأما ان انطلقت أرسلته اليكم) فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين في حضوره لما أرسلهم إلى البلاد الاسرائيلية فنزوله ليس بمشروط بذهابه فلا يكون مرادا بالفارقليط ، بل المراد به شخص لم يستفض منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام لأن وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلتين في زمان واحد غير جائز بخلاف ما إذا كان الآخر متبعا لشريعة الأول أو يكون كل من الرسل متبعا لشريعة واحدة لأنه يجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم مابين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

(٩) إن عيسى عليه السلام قال (يوبخ العالم) فهذا القول بمنزلة النص الجلي لمحمد ﷺ لأنه وبخ العالم سيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام توبيخا لا يشك فيه إلا معاند بحت، وسيكون ابنه الرشيد محمد المهدي رفيقا لعيسى عليه السلام في زمان قتل الدجال الأعور ومتابعيه، بخلاف الروح النازل يوم الدار فإن توبيخه لا يصح على أصول أحد وما كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضا لأنهم كانوا يدعون إلى الملة بالترغيب والوعظ وما قال رانكين في كتابه المسمى بدافع البهتان الذي هو بلسان اردو في رده على خلاصة (صولة الضيغم) إن لفظ التوبيخ لا يوجد في الإنجيل ولا في ترجمة من تراجم الإنجيل وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقا بينا لأجل أن محمدا ﷺ وبخ وهدد كثيرا إلا أن مثل هذا التغليط ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله انتهى كلامه فمردود وهذا القسيس إما جاهل غالط أو مغالط ليس له إيمان ولا خوف من الله، لأن هذا اللفظ يوجد في التراجم العربية المذكورة التي نقلت عنها عبارة يوحنا وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٧١ في رومية العظمى وعبارة الترجمة العربية

المطبوعة فى بيروت سنة ١٨٦٠ هكذا (ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية الخ وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ وفى التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ يوجد لفظ الالزام. ولفظ التبكيت والالزام أيضا قريبان من التوبيخ لكن لاشكاية منه لأن مثل هذا الأمر من عادات علماء بروتستنت ولذلك ترى أن مترجمى الفارسية وأردو تركوا لفظ فار قليط لشهرته عند المسلمين فى حق محمد ﷺ ومترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ فاق أسلافه هؤلاء أيضاً حيث ارجع إلى الروح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا اللفظ (أى مدلوله) مؤنث وليس بمذكر

(١٠) قال عيسى عليه السلام (أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بى) وهذا يدل على أن الفار قليط يكون ظاهرا على منكرى عيسى عليه السلام موبخا لهم على عدم الإيمان به والروح النازل يوم الدار ما كان ظاهراً على الناس موبخا لهم

(١١) قال عيسى عليه السلام (إن لى كلاما كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن) وهذا ينافى إرادة الروح النازل يوم الدار لأنه مازاد حكما على أحكام عيسى عليه السلام فانه على زعم أهل التثليث كان أمر الحواريين بعقيدة التثليث و بدعوة أهل العالم كله فأى أمر حصل لهم أزيد من أقواله التى قالها إلى زمان صعوده. نعم إنهم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التى هى ماعدا بعض الأحكام العشرة المذكورة فى الباب العشرين من سفر الخروج وحللوا جميع المحرمات وهذا الأمر لايجوز فى شأنه أن يقال إنهم ما كانوا يستطيعون حمله لأنهم استطاعوا حمل سقوط حكم تعظيم السبت الذى هو أعظم أحكام التوراة وكان اليهود ينكرون كون عيسى عليه السلام مسيحا موعودا به لأجل عدم مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الأحكام كان أهون عندهم ، نعم قبول زيادة الأحكام لأجل ضعف الإيمان وضعف القوة إلى زمان صعوده كما يعترف به علماء بروتستنت كان خارجا عن استطاعتهم فظهر أن المراد بالفار قليط نبى تزاد فى شريعته أحكام و يثقل حملها على المكلفين الضعفاء وهو محمد صلى الله عليه وسلم

بالنسبة إلى الشريعة العيسوية (*

(١٢) إن عيسى عليه السلام قال : ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل مايسمع ، وهذا يدل على أن الفارقليط يكون بحيث يكذبه بنو إسرائيل ، فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ، ولا مجال لمظنة التكذيب في حق الروح النازل يوم الدار ، على ان هذا الروح عندهم عين الله ، فلا معنى لقوله : بل يتكلم بما يسمع ، فمصداقه محمد صلى الله عليه وسلم فانه كان في حقه مظنة التكذيب ، وليس هو عين الله ، وكان يتكلم بما يوحي إليه كما قال الله تعالى (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى) وقال (إن أتبع إلا ما يوحى إلى)

(١٣) ان عيسى عليه السلام قال : انه يأخذ مما هو لى ، وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق ، وقادر مطلق ، ليس له كمال منتظر ، بل كل كمال من كمالاته حاصل له بالفعل ، فلابد أن يكون الموعود به من الجنس الذي يكون له كمال منتظر . ولما كان هذا الكلام موهماً أن يكون هذا النبي متبعاً لشريعته دفعه بقوله فيما بعد (جميع ما للاب فهو لى فلأجل هذا قلت مما هو لى يأخذ) يعنى ان كل شيء يحصل للفارقليط من الله فكأنه يحصل منى كما اشتهر : من كان لله كان الله له — فلأجل هذا قلت : أن مما هو لى يأخذ

وأما الثاني أعنى الشبهات التى توردها علماء بروتستنت فخمسة

(الشبهة الأولى) جاء في هذه العبارة تفسير الفارقليط بروح القدس ، وروح الحق ، وهما عبارتان عن الاقنوم الثالث ، فكيف يصح أن يراد بالفارقليط محمد صلى الله عليه وسلم ؟

أقول في الجواب : ان صاحب ميزان الحق يدعى في تأليفاته كون ألفاظ روح الله ، وروح القدس ، وروح الحق ، وروح الصدق ، وروح فم الله ، بمعنى واحد . قال في الفصل الأول من الباب الثاني من مفتاح الأسرار في الصفحة ٣٥

*) الأظهر المختار عندنا ان أهل عصر عيسى عليه السلام لم يكونوا يستطيعون حمل شريعة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لفقد الاستعداد لها وهو استقلال الفكر والحكم والارادة التي حباها الله تعالى للأمة العربية في زمن البعثة المحمدية

من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : ان لفظ روح الله ، ولفظ روح القدس فى التوراة والانجيل بمعنى واحد انتهى. فادعى أن هذين اللفظين يستعملان بمعنى واحد فى العهدين — وقال فى حل الاشكال ، فى جواب كشف الأستار : من له إلمام ما بالتوراة والانجيل فهو يعرف ان ألفاظ روح القدس وروح الحق وروح فم الله وغيرها بمعنى روح الله ، فلذلك ما رأيت اثباته ضروريا انتهى

فاذا عرفت هذا القول فنحن نقطع النظر عن صحة ادعائه وعدم صحته ههنا ونسلم ترادف هذه الألفاظ على زعمه ، لكننا ننكر أن استعمالها فى كل موضع من مواضع العهدين بمعنى الأقنوم الثالث ، ونقول قولا مطابقا لقوله من له شعور ما بكتب العهدين يعرف أن هذه الألفاظ تستعمل فى غير الأقنوم الثالث كثيرا ففى الآية الرابعة عشرة من الباب السابع والثلاثين من كتاب حزقيال قول الله تعالى فى خطاب ألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال عليه السلام هكذا : (فأجعل فيكم روحى) ففى هذا القول روح الله بمعنى النفس الناطقة الانسانية لا بمعنى الأقنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم — وفى الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا ترجمة عربية سنة ١٧٦٠ (١ أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله ؟ لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا إلى العالم ٢ بهذا تعرفون روح الله : كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله ٦٠٠٠ نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ، ومن ليس من الله لا يسمع لنا من هذا تعرف روح الحق وروح الضلال) وهذه الجملة الواقعة فى الآية الثانية (بهذا تعرفون روح الله) وفى التراجم العربية الأخر سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (بهذا يعرف روح الله (وفى ترجمة سنة ١٨٢٤ (فانكم تميزون روح الله) ولفظ روح الله فى الآية الثانية ، ولفظ روح فى الآية السادسة بمعنى الواعظ الحق لا بمعنى الاقنوم الثالث : ولذلك ترجم مترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٤٥ لفظ كل روح بكل واعظ ، ولفظ الأرواح بالواعظين فى الآية الأولى ، ولفظ روح فى الآية الثانية بالواعظ من جانب الله . ولفظ روح الحق فى الاية السادسة بالواعظ الصادق . وترجم لفظ روح الضلال

بالواعظ المضل ، وليس المراد بروح الله وروح الحق الاقنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم ، وهو ظاهر . فتفسير الفار قليط بروح القدس وروح الحق لايضرنا لأنهما بمعنى الواعظ الحق ، كما ان لفظ روح الحق روح الله بهذا المعنى فى الرسالة الأولى ليوحنا ، فيصح اطلاقهما على محمد ﷺ بلا ريب

(الشبهة الثانية) ان المخاطبين بضمير « كم » الحواريون ، فلا بد أن يظهر الفارقليط فى عهدهم ، ومحمد ﷺ لم يظهر فى عهدهم .

(أقول) هذا أيضا ليس بشىء ، لأن منشأه ان الحاضرين وقت الخطاب لابد أن يكونوا مرادين بضمير الخطاب ، وهو ليس بضرورى فى كل موضع . ألا ترى أن قول عيسى عليه السلام فى الاية الرابعة والستين من الباب السادس والعشرين من انجيل متى فى خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع هكذا . (وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء) وهؤلاء المخاطبون قد ماتوا : ومضت على موتهم مدة هى أزيد من ألف وثمانمائة سنة ، ومارأوه آتيا على سحاب السماء ، فكما ان المراد بالمخاطبين ههنا الموجودون من قومهم وقت نزوله من السماء ، فكذلك فيما نحن فيه المراد الذين يوجدون وقت ظهور الفارقليط .

(الشبهة الثالثة) أنه وقع فى حق الفار قليط ان العالم لايراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه ، وهو لايصدق على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الناس رأوه وعرفوه

أقول : هذا أيضا ليس بشىء ، وهم أحوج الناس تأويلا فى هذا القول بالنسبة إلينا ، لأن روح القدس عين الله عندهم ، والعالم يعرف الله أكثر من معرفة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن نقول : ان المراد بالمعرفة المعرفة الحقيقية الكاملة . ففى صورة التأويل الاشتباه فى صدق هذا القول على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون المقصود ان العالم لايعرفه معرفة حقيقية كاملة ، وأنتم تعرفونه معرفة حقيقية كاملة . والمراد بالرؤية المعرفة ، ولذا لم يعد عيسى عليه السلام لفظ الرؤية بعد لفظ أنتم ، بل قال : وأنتم تعرفونه ، ولو حملنا الرؤية على الرؤية البصرية يكون نفى الرؤية محمولا على ماهو المراد فى قول الانجيل الأول فى الباب

الثالث عشر من إنجيله .وأنقل عبارته عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (١٣ فلذلك أضرب لكم الأمثال لأنهم ينظرون ولا يبصرون ، و يسمعون ولا يستمعون ولا يفهمون (١٤) وقد كمل فيهم تنبؤ أشعيا حيث قال: إنكم تستمعون سمعا ولا تفهمون ، وتنظرون نظرا ولا تبصرون) فلا اشكال أيضا

وأمثال هذين الأمرين و إن كانت معانى مجازية لكنها بمنزلة الحقيقة العرفية ووقعت فى كلام عيسى عليه السلام كثيرا ، فى الآية السابعة والعشرين من الباب الحادى عشر من انجيل متى هكذا (وليس أحد يعرف الابن إلا الأب ولا أحد يعرف الأب إلا الابن ،ومن أراد الابن أن يعلن له) وفى الآية الثامنة والعشرين من الباب السابع من انجيل يوحنا هكذا (الذى أرسلنى حق الذى أنتم لستم تعرفونه) وفى الباب الثامن من انجيل يوحنا هكذا (١٩ لستم تعرفوننى أنا ولا أبى لو عرفتمونى لعرفتم أبى أيضا ٥٥ ولستم تعرفونه أى الله الخ) وفى الآية الخامسة والعشرين من الباب السابع عشر من انجيل يوحنا هكذا (أيها الأب إن العالم لم يعرفك ،أما أنا فعرفتك) فى الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا (٧ لو كنتم قد عرفتمونى لعرفتم أبى أيضا ،ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه ٨ قال له: فيلبس ياسيد أرنا الاب وكفانا ٩ قال له يسوع : أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفنى يافيلبس الذى رآنى فقد رأى الأب ،فكيف تقول أنت أرنا الاب؟) فالمراد بالمعرفة فى هذه الأقوال المعرفة الكاملة ، و بالرؤية المعرفة ،و إلا لاتصح هذه الأقوال يقيناً ،لأن العوام من الناس كانوا يعرفون عيسى عليه السلام فضلا عن رؤساء اليهود والكهنة والمشايخ والحواريين ورؤية الله بالبصر فى هذا العالم ممتنعة عن أهل التثليث أيضا

(الشبهة الرابعة) أنه وقع فى حق الفارقليط (أنه مقيم عندكم وثابت فيكم) و يظهر من هذا القول أن الفارقليط كان فى وقت الخطاب مقيما عند الحواريين وثابتاً فيهم ، فكيف يصدق على محمد ﷺ

أقول : إن هذا القول فى التراجم الأخرى هكذا فى الترجمة العربية سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (لانه مستقر معكم وسيكون فيكم) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة

١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٣٩ كلها مطابقة لهاتين الترجمتين ، وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا : (ماكث معكم و يكون فيكم) فظهر أن المراد بقوله ثابت فيكم الثبوت الاستقبالى يقينا فلا اعتراض به بوجه من الوجوه ، و بقى قوله مقيم عندكم

فأقول : لا يصح حمل هذا القول على معنى هو مقيم عندكم الآن لانه لاينافى قوله (أنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر) وقوله (قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون.وقوله.إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط) و إذا أول نقول انه بمعنى الاستقبال كما أن القول الذى بعده بمعنى الاستقبال ومعناه يكون مقيما عندكم فى الاستقبال ، فلا خدشة فى صدقه على محمد ﷺ والتعبير عن الاستقبال بالحال بل بالماضى فى الأمور التيقنة كثير فى العهدين — ألا ترى أن حزقيال عليه السلام أخبر أولا عن خروج يأجوج ومأجوج فى الزمان المستقبل و إهلاكهم حين وصولهم الى جبال اسرائيل . ثم قال فى الآية الثامنة من الباب التاسع والثلاثين من كتابه هكذا (ها هو جاء وصار يقول الرب الاله هذا هو اليوم الذى قلت عنه) فانظروا الى قوله ها هو جاء وصار — وهذا القول فى الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٣٩ هكذا (اينك رسيد وبوقوع بيوست) فعبر عن الحال المستقبل بالماضى لكونه يقينا لاشك فيه ، وقد مضت مدة أزيد من ألفين وأربعمائة وخمسين سنة ، ولم يظهر خروجهم — وفى الآية الخامسة والعشرين من الباب الخامس من إنجيل يوحنا هكذا (الحق أقول لكم أنه تأتى ساعة ، وهى الآن حين يسمع الاموات صوت ابن الله والسامعون يحيون) فانظروا إلى قوله وهى الآن ، وقد مضت مدة أزيد من ألف وثمانمائة ولم تجىء هذه الساعة ، وهى إلى الآن مجهولة لايعرف أحد متى تجىء

(الشبهة الخامسة) فى الباب الاول من كتاب الأعمال هكذا (٤ وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لايبرحوا من أورشليم ، بل ينتظروا موعد الأب الذى سمعتموه منى ٥ لان يوحنا عمد بالماء ، وأما أنتم فستتعمدون بالروح القدس ليس هذه الايام بكثير) وهذا يدل على أن الفارقليط هو الروح النازل يوم الدار .لان المراد بوعد الاب هو الفارقليط .

أقول : الادعاء بأن المراد بوعد الأب هو الفارقليط ادعاء محض ، بل هو غلط لثلاثة عشر وجهاً ، وقد عرفتها ، بل الحق أن الأخبار عن الفارقليط شيء والوعد بانزال الروح عليهم مرة أخرى شيء آخر . وقد وفى الله بالوعدين ، وقد عبر عن الوعد الأول بمجيء الفارقليط ، وههنا بوعد الأب ، غاية الأمر أن يوحنا نقل بشارة الفارقليط ، ولم ينقلها الإنجيليون الباقون — ولوقا نقل موعد نزول الروح الذى نزل يوم الدار ، ولم ينقله يوحنا . ولا بأس فيه فانهم قد يتفقون فى نقل الأقوال الخسيسة ، كركوب عيسى عليه السلام على الحمار وقت الذهاب إلى أورشليم ، اتفق على نقله الأربعة ، وقد يتخالفون فى نقل الأحوال العظيمة ، ألا ترى أن لوقا انفرد بذكر إحياء ابن الأرملة من الأموات فى نايين ، وبذكر إرسال عيسى عليه السلام سبعين تلميذاً ، وبذكر ابراء عشرة برص ، ولم يذكر هذه الحالات أحد من الإنجيليين ، مع أنها من الحالات العظيمة ، وأن يوحنا انفرد بذكر وليمة العرس فى قانا الجليل ، وظهور من يسوع فيه معجزة تحويل الماء خمراً وهذه المعجزة أول معجزاته ، وسبب ظهور مجده وإيمان التلاميذ به وبذكر إبراء السقيم فى بيت صيدا فى اورشليم ، وهذه أيضا معجزة عظيمة ، والمريض كان مريضاً من ثمان وثلاثين سنة ، وبذكر قصة امرأة أخذت فى زنا ، وبذكر إبراء الأكمه ، وهذا أيضا من أعظم معجزاته ، وهى مصرحة بهما فى الباب التاسع وبذكر إحياء العازار من بين الأموات ، ولم يذكرها أحد من الإنجيليين ، مع أنها حالات عظيمة ، وهكذا حال متى ومرقص ، فانهما انفردا بذكر بعض المعجزات والحالات التى لم يذكرها غيرهما . وإذ طال البحث فى هذا المسلك فلنقتصر على هذا القدر من البشارات التى نقلتها عن كتبهم المعتبرة عندهم فى زماننا . اهـ

﴿ بشارة إنجيل برنابا ﴾

ذكر الشيخ رحمة الله بعد هذا أنه لم يعن بايراد البشارات من الكتب التى يعدها أهل الكتاب غير قانونية إلا ببشارة إنجيل برنابا : وقد نقلها عن مقدمة ترجمة القسيس سايل الانكليزى للقرآن المجيد ، وهذه ترجمتها :

(اعلم يابرنابا أن الذنب وإن كان صغيراً يجزى الله عليه لأن الله غير راض

عن الذنب ، ولما اكتسب امى وتلاميذى لأجل الدنيا سخط الله لأجل هذا الأمر وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم فى هذا العالم على هذه العقيدة غير اللائقة ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم ولا يكون لهم اذية هناك وإنى وإن كنت بريا لكن بعض الناس لما قالوا فى حقى إنه الله وابن الله كره الله هذا القول ، واقتضت مشيئته أن لا تضحك الشياطين يوم القيامة منى ولا يستهزؤن بى ، فأراد بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء فى الدنيا بسبب موت يهوذا ، ويظن كل شخص أنى صلبت لكن هذه الاهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجىء محمد رسول الله فاذا جاء فى الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس) ترجمة كلامه

أقول هذه البشارة عظيمة وان اعترضوا بأن هذا الإنجيل رده مجالس علمائنا السلف [1] أقول لا اعتبار لردهم وقبولهم كما علمت بما لامزيد عليه فى الباب الأول وهذا الإنجيل من الأناجيل القديمة ويوجد ذكره فى كتب القرن الثانى والثالث فعلى هذا كتب هذا الإنجيل قبل ظهور محمد ﷺ بمئتى [2] سنة ولا يقدر أحد أن يخبر بغير الإلهام بمثل هذا الأمر قبل وقوعه بمئتى سنة فلا بد أن يكون هذا قول عيسى عليه السلام وإن قالوا إن أحداً من المسلمين حرف هذا الإنجيل بعد ظهور محمد ﷺ قلت هذا الاحتمال بعيد جداً لأن المسلمين ماالتفتوا إلى هذه الأناجيل الأربعة أيضاً فكيف إلى إنجيل برنابا ويبعد أن يؤثر تحريف أحد من المسلمين فى إنجيل برنابا تأثيراً تغير به النسخ الموجودة عند المسيحيين أيضاً وهم يزعمون أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أسلموا ذالوا عن كتب العهدين البشارات المحمدية وحرفوها فعلى زعمهم أقول إن

«١» يعنى مجامع الأساقفة «٢» ههنا غلط ظاهر لاندرى سببه فقد كان ظهور النبى ﷺ أوائل القرن السابع للمسيح فاذا كان قد ذكر إنجيل برنابا فى القرن الثانى يكون قبل ظهور النبى ﷺ بخمسة قرون على أن برنابا كتبه فى القرن الأول كما أمره المسيح عليه السلام وإن لم يرد له ذكر قبل ذلك التاريخ ، وأما النسخ التى وقعت فى أيدى علماء اوربة فاقدمها عهدا يتراوح تاريخه بين منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السادس عشر ، ولكنه لم يشتهر إلا فى أوائل القرن الثامن عشر

هؤلاء العلماء الكبار حرفوا على زعمهم ولم يؤثر تحريفهم فى كتبهم التى كانت موجودة عندهم فى مواضع هذه البشارات فكيف أثر تحريف بعض المسلمين فى انجيل برنابا فى النسخ التى كانت عندهم؟ فهذا الاحتمال واضعيف جدا، واجب الرد اه

وقد ختم الشيخ (رحمة الله) رحمه الله تعالى هذه البشارات بتنبيه ذكر فيه القارىء بما بينه مفصلا من اختلاف النصارى فى ترجمة كتبهم والتغيير فيها زمناً بعد زمن لئلا يظن من أطلع على ما أورده ورآه مخالفاً لغير الترجمات التى نقل عنها أنه هو المخطىء فيما نقله ، وهذا مشهور لا يستطيعون إنكاره

بعد هذا أقول ان الشيخ رحمه الله لم ير انجيل برنابا و إنما نقل هذه البشارة من مقدمة سايل المستشرق الانجليزى لترجمته للقرآن المجيد ، وسايل هذا قد اطلع على احدى النسختين اللتين وجدتا من هذا الأنجيل فى فى أول القرن الثامن عشر ، وهى النسخة الاسبانية وقد فقدت ، إذ كان المتعصبون من النصارى يتلفون كل ما عثروا عليه من هذا الانجيل وغيره من الأناجيل التى تعدها الكنيسة غير قانونية . وأما النسخة الأخرى فهى باللغة الايطالية القديمة وكانت فى خزانة كتب (الفاتيكان) فسرقها منها راهب اسمه (مرينو) فى أواخر القرن السادس عشر ، ويظن أنها هى النسخة الموجودة الآن فى خزانة كتب بلاط (فينا) . وقد ترجمت هذه النسخة بالانكليزية فى هذا العصر فسعينا إلى ترجمتها بالعربية سنة ١٣٢٥ وطبعناها طبعاً دقيقاً فى مطبعة المنار ، وإننا ننقل عنها هنا نص بعض بشاراته بنبينا ﷺ غير البشارة التى نقلها الشيخ رحمة الله إذ هى متعددة

جاء فى الفصل الثاني والسبعين من هذا الأنجيل أن المسيح عليه السلام أخبر الحواريين أنه سينصرف عن هذا العالم ثم قال :

(٧ فبكى حينئذ الرسل قائلين : يا معلم لماذا تتركنا ، لأن الأحرى بنا أن نموت من أن تتركنا ٨ أجاب يسوع : لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا [1] ٩ لأني لست أنا الذى خلقتكم ، بل الله الذى خلقكم يحميكم ١٠ أما من خصوصى فانى قد أتيت لأهيء الطريق لرسول الله الذى سيأتى بخلاص العالم ١١

---

(١) يو ١٤ : ٢٧

ولكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتى أنبياء كذبة[1] كثيرون يأخذون كلامى وينجسون إنجيلى

١٢ حينئذ قال اندراوس : يامعلم اذكر لنا علامة لنعرفه

(١٣ أجاب يسوع : أنه لا يأتى فى زمنكم بل يأتى بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلى ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً ١٤ فى ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذى تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختارى الله وهو سيظهره للعالم ١٥ وسيأتى بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم ١٦ وأنى أسر بذلك ، لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقى ١٧ وسينتقم من الذين سيقولون انى أكبر من انسان ١٨ الحق أقول لكم : إن القمر سيعطيه رقاداً فى صباه ومتى كبر هو أخذه كفيه ١٩ فليحذر العالم أن ينبذه لأنه سيفتك بعبدة الأصنام ٢٠ فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيراً ، ولم يبق يشوع على المدن التى أحرقوها وقتلوا الأطفال ٢١ لأن القرحة المزمنة يستعمل لها الكى)

(٢٢ وسيجىء بحق أجلى من سائر الأنبياء وسيوبخ من لا يحسن السلوك فى العالم ٢٣ وسيحيى طرباً أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضاً ٢٤ فمتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض ، واعترف بأنى بشر كسائر البشر . فالحق أقول لكم : أن نبى الله حينئذ يأتى)

وجاء فى الفصل السادس والتسعين من محاورة بين المسيح ورئيس كهنة اليهود : أن الكاهن سأله عن نفسه فأجاب بذكر اسمه واسم أمه ، وبأنه بشر ميت ثم قال الانجيل ما نصه :

(٣ أجاب الكاهن : أنه مكتوب فى كتاب موسى أن إلهنا سيرسل لنا مسيّا الذى سيأتى ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتى للعالم برحمة الله ٤ لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيا الله الذى ننتظره ؟)

(٥ أجاب يسوع : حقاً إن الله وعد هكذا ولكنى لست هو ، لأنه خلق

(١) مت ٢٤ : ١١

قبلى وسيأتى بعدى [(١)]

(٦ أجاب الكاهن : اننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبى وقدوس الله ٧ لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها و إسرائيل أن تفيدنا حبا فى الله بأية كيفية سيأتى مسيا ؟

(٨ أجاب يسوع : لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى [(٢)] إنى لست مسيا الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا ابراهيم [(٣)] قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل العرب ٩ ولكن عند مايأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله ١٠ فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى حتى لايكاد يبقى ثلاثون مؤمناً ١١ حينئذ يرحم الله العالم ، ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله ١٢ الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام ١٣ وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر ١٤ وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ١٥ وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا)

ثم قال فى الفصل ٩٧ مانصه :

(١ ومع أني لست مستحقا أن أحل سير حذائه قد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه (٢ فأجاب حينئذ الكاهن مع الوالى والملك قائلين لاتزعج نفسك يايسوع قدوس الله لأن هذه الفتنة لا تحدث فى زمننا مرة أخرى لأننا سنكتب إلى مجلس الشيوخ الرومانى المقدس بإصدار أمر ملكى أن لاأحد يدعوك فيما بعد الله أو ابن الله) (٤ فقال حينئذ يسوع : إن كلامكم لايعزيننى لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور ٥ ولكن تعزيتى هى فى مجىء الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فىّ وسيمتد دينه و يعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا ابراهيم ٦ وأن مايعزينى هو وان لا نهاية لدينه لأن الله سيحفظه صحيحا .

---

(١) انجيل يوحنا ١ : ١٥ (٢) تكرر هذا القسم فى هذا الانجيل وهو بمعنى قول نبينا ﷺ « والذى نفس محمد بيده » (٣) تك ٢٢ : ١٨

(٧ أجاب الكاهن : أيأتى رسل آخرون بعد مجىء رسول الله ؟)

(٨ فأجاب يسوع : لايأتى بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله ٩ ولكن يأتى عدد غفير من الأنبياء الكذبة وهو ما يحزنني ١٠ لأن الشيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيتسترون بدعوى انجيلى

(١١ أجاب هيدروس : كيف أن مجىء هؤلاء الكافرين يكون بحكم الله العادل ؟

(١٢ أجاب يسوع : من العدل أن من لايؤمن بالحق لخلاصه يؤمن بالكذب العنته ١٣ لذلك أقول لكم : إن العالم كان يمتهن الأنبياء الصادقين دائما وأحب الكاذبين كما يشاهد فى أيام ميشع وأرميا [1] لأن الشبيه يحب شبيهه

(١٣ فقال الكاهن حينئذ : ماذا يسمى مسيا ؟ وما هى العلامة التى تعلن مجيئه ١٤ أجاب يسوع : إن اسم مسيا عجيب ، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى ١٥ قال الله : اصبر يامحمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلائق التى أهبها لك ، حتى أن من يباركك يكون مباركا ، ومن يلعنك يكون ملعوناً ١٦ ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولى للخلاص وتكون كلمتك صادقة ، حتى إن السماء والأرض تهنان ، ولكن إيمانك لايهن أبدا ١٧ ان اسمه المبارك محمد .

١٨ حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يأالله أرسل لنا رسولك ، يامحمد تعال سريعاً لخلاص العالم !) اه

وأما البشارة التى نقلها الشيخ رحمة الله فى إظهار الحق فهى من الفصل العشرين بعد المئتين ، وليس بعده غير فصلين من هذا الانجيل ، وترجمتها قريبة من الترجمة الأخيرة للانجيل كله .

﴿ تنبيه ﴾

لقد كان من مواضع ارتياب الباحثين من علماء أوربة فى هذا الانجيل ذكره لخاتم النبيين ﷺ باسمه العلم عند المسلمين (محمد) وقد ذهب بعضهم إلى أن بعض

[1] فى ار ٢٦ : ١٨

المسلمين قد دسوا فيه ذلك ، وقوى شبهتهم ما وجد من التعليقات العربيـة على حواشى النسخة الطليانية الموجودة منه إلى هذا العهد .

وقد فندنا هذه الشبهة فى مقدمتنا لطبعة هذا الانجيل العربية بما بيناه من استحالة صدور هذه الحواشى عن مسلم ، فانها على فساد لغتها وعجمتها مخالفـة لما يعرفه كل مسلم عربياً كان أو عجميا لأنه من أذكار الدين كـكلمة سبحان الله فهى تذكر فى هذه الحواشى بتقديم المضاف إليه على المضاف هكذا « الله سبحان » وبعد أن أوردنا فى المقدمة أمثلة أخرى كهذه قلنا :

« ولذلك أمثلة أخرى : أضف إليها عدم اطلاع المسلمين فى الاندلس وغيرها على هذا الانجيل كما حققه الدكتور مرجليوث المستشرق الانكليزى ، ؤيداً تحقيقه بخلو كتب المسلمين الذين ردوا على النصارى من ذكره ، وناهيك بابن حزم الاندلسى وابن تيمية المشرقى فقـد كانا أوسع علماء المسلمين فى الغرب والشرق اطلاعا كما يعلم من كتبهما ولم يذكرا فى ردهما على النصارى هذا الانجيل .

« بقى أمر يستنكره الباحثون فى هذا الانجيل بحثاً علمياً لادينياً أشد الاستنكار وهو تصريحه باسم « النبى محمد » عليه الصلاة والسلام قائلين . لا يعقل أن يكون ذلك كتب قبل ظهور الإسلام ، إذ المعهود فى البشارات أن تكون بالـكنايات والاشارات ، والعريقون فى الدين لا يرون مثل ذلك مستنكراً فى خبر الوحى . وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزى أنه رأى فى دار الـكتب البابوية فى الفاتيكان نسخة من الانجيل مكتوبة بالقلم الحميرى قبل بعثة النبى ﷺ وفيها يقول المسيح (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمـد) وذلك موافق لنص القرآن بالحرف ، ولـكن لم ينقل عن أحـد من المسلمين أنه رأى شيئاً من هذه الأناجيل التى فيها هذه البشارات الصريحة ، فيظهر أن فى مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الأناجيل والكتب التى كانت ممنوعة فى القرون الأولى ما لو ظهر لأزال كل شبهة عن انجيل برنابا وغيره .

« على أنه لا يبعد أن يكون مترجم برنابا باللغة الإيطالية قد ذكر اسم « محمد » ترجمة ، وان يكون قد ذكر فى الأصل الذى ترجم هو عنه بلفظ يفيد معناه كلفظ

الفارقليط ، ومثل هذا التساهل معهود عند المسيحين فى الترجمة كما بينه الشيخ رحمة الله بالشواهد الكثيرة من كتبهم فى الأمر السابع من المسالك السادس من الباب السادس من كتابه إظهار الحق ، وزاده بعد ذلك بياناً فى البشارة الثامنة عشرة » اهـ .

وإنى أزيد مثالا على ما سبق من اختلاف ترجمة الاعلام والالقاب والصفات فى كتب أهل الكتاب يقرب لفهم القارىء هذه المسألة وهو ماجاء فى نبوة النبى حجى من البشارة بنبينا ﷺ قال :

بشارة النبى حجى بمحمد ﷺ :

« ٢ : ٦ هكذا قال رب الجنود : هى مرة بعد قليل فأزلزل السموات والأرض والبحر واليابسة ٧ وأزلزل كل الأمم ، ويأتى مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً ، قال رب الجنود ٨ لى الفضة ولى الذهب يقول رب الجنود ٩ مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول ، قال رب الجنود ١٠ وفى هذا المكان أعطى السلام ، يقول رب الجنود »

أقول قبل كل شيء : إن اسم أو لقب « مشتهى الأمم » هو فى الأصل العبرانى عند اليهود « حمدوت » ومعناه الذى يحمد فهو صيغة مبالغة من الحمد كملكوت من الملك . فحمدوت الأمم هو الذى تحمده الأمم ، وهو معنى محمد ومحمود ، فالأول اسم فاعل من حمده بالتشديد إذا حمده كثيراً ، ومن تحمده الأمم يكون محموداً حمداً كثيراً أى محمدا . والثاني اسم مفعول من حمد الثلاثى ، ومحمود من أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم

فهل بعد هذا يبعد أن يكون لفظ الفارقليط اليونانى مترجماً من لفظ حمدوت العبرانى ، ونسخ الانجيل العبرانية التى نقلت ألفاظ المسيح عليه السلام بحروفها قد فقدت ولا ندرى سبب فقدها ؟ بل نحن معاشر المسلمين نتهم مجامع الاساقفة التى تحكمت فى الأناجيل القديمة ، فعدت بعضها قانونيا و بعضها غير قانونى ، وصاروا يتلفون ما هو غير قانونى ، بل نحن لا نعتقد بتنصر القيصر قسطنطين الأول ولا نعتقد اخلاصه فيه ، بل نعتقد أن ذلك كان عملا سياسيا منه ، وانه استعان بالمجامع على تحويل النصرانية عن صراط التوحيد إلى وثنية القدماء من اليونانيين

وأساتذتهم من قدماء المصريين، الذين دانوا بعقيدة التثليث قبل المسيح بألوف من السنين . ولو بقيت نسخ تلك الأناجيل لـكان لأهل العلم الاستقلالى فى الغرب والشرق من التحقيق فيها مالم يكن لأولئك الأساقفة الذين قبلوا منها ماوافق اعتقادهم وردوا مالم يوافقه ، كأن عقائدهم التقليدية المتأثرة بنصرانية قسطنطين السياسية بعد ثلاث قرون خلت للمسيح هي الأصل ، والأناجيل المأثورة هى الفرع ، تعرض على تلك التقاليد فيقبل منها ما وافقها ويرد ماخالفها؟

وها نحن أولاء نرى إنجيل برنابا أرقى من هذه الأناجيل الأربعة فى العلم الإلهى والثناء على الخالق عز وجل ، وفى علوم الأخلاق والآداب والفضائل ، فان كان بعض الباحثين كالدكتور خليل سعاده الذى ترجم لنا هـذا الانجيل يعلل هذا بموافقته لفلسفة أرسطو التى كانت رائجة فى قرون المسيحية الأولى — فان بعض علماء أوربة الباحثين المستقلين قد طعن بمثل هذه الشبهة فى شريعة موسى وفى آداب الأناجيل الاربعة فقالوا : إن التوراة مستمدة من شرائع المصريين الذين نشأ موسى فى حجر فرعونهم — ثم قال بعضهم : إنها مستمدة من شريعة حمورابى التى هى أصل شرائع البابليين وكانت كتابة التوراة الحاضرة بعد السبى البابلى ، وفيها ألوف من الكلمات البابلية — وقالوا : إن الآداب المسيحية مستمدة من كتب اليونان والرومان فى الفلسفة العملية الاخلاق . .

ونحن مع أهل الـكتاب لا نعتد بهذه الشبهات ، ولـكنا نقيم الحجة عليهم بها فى مثل المقام الذى نحن فيه وأمثاله مما لامحل لبسطه هنا .

ثم ان بقية بشارة حجى لاتصدق على غير نبينا ﷺ محمد الأمم فهو الذى زلزل رب الجنود ببعثته العالم ، ونصره بالجنود وبالحجة جميعا ، وكان مجده دين الله به أعظم من مجده بموسى وسائر أنبياء قومه ، وفرضت شريعة الزكاة وخمس الغنائم تنفق فى سبيل الله فكانت الفضة والذهب لله — وفى النسخة السبعينية للعهد القديم : إن الآية التاسعة من هذه البشارة ، « إن المجد القديم لهذا البيت أعظم من المجد الذى كان للهيكل الاول » وهذه العبارة أظهر فى المراد من ترجمة النصارى التى نقلنا عنها ، وحسبنا هنا من البشارات الكثيرة ، ومن

يهدى الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلا هادى له ونحمده تعالى أن جعلنا من أمة خاتم رسله والدعاة إلى ملته وصلى الله عليه وآله وسلم تسليما

(١٥٧) قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

ذكرت رسالة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية التى قبل هذه من قصة موسى عليه السلام استطراداً بحسب نظم الكلام ، ولكنها هى المقصودة بالذات من القصة ومن سائر قصص الرسل عليهم السلام ، ولما كان ذكرها فى سياق القصة لدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وإقامة الحجة عليهم بذكره ﷺ فى كتبهم والبشارة برسالته على ألسنة أنبيائهم ، وبيان مايكون لهم من الفلاح والفوز بالإيمان به ﷺ اتباعه ناسب أن يقفى على ذلك ببيان عموم بعثته ﷺ ودعوة الناس كافة إلى الإيمان بالله تعالى وبه فقال عز وجل مخاطباله صلواته وسلامه عليه :

﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾ هذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم وجهه اليهم محمد بن عبد الله النبى العربى الهاشمى بأمر الله تعالى ينبئهم به أنه رسول الله تعالى اليهم كافة لا إلى قومه العرب خاصة كما زعمت العيسوية من اليهود فهو كقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) وقوله (وأوحى إلى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) أى وأنذر به كل من بلغه من الثقلين ، فمن قال إنه يؤمن برسالته إلى العرب خاصة لايعتد بإيمانه لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية مما جاء به ، وما فى معناها كقوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وهو يشمل عقلاء الجن . وفى هذا المعنى أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه ﷺ بالرسالة العامة كحديث جابر فى الصحيحين وغيرهما قال رسول الله ﷺ أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة

فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، و بعثت إلى الناس عامة » وفى رواية كافة . ورواه آخرون عن غيره بألفاظ أخرى . ولما كانت الشفاعة على إطلاقها غير خاصة به ﷺ ذهب الجمهور إلى أن الخاص به الشفاعة العظمى لجميع الخلق بفصل القضاء فيهم ومحاسبتهم ليعلم مستقر كل منهم وفى أحاديث الصحيحين وغيرهما أن أهل الموقف يرسلون الوفود إلى آدم فنوح فابراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام يطلبون منهم الشفاعة عند الله تعالى بفصل القضاء ، فيعترف كل منهم بأن هذا ليس من شأنه و يقول «لست هناكم » و يطلب النجاة لنفسه و يحيلهم على من بعده ، حتى إذا أحالهم عيسى على محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين أجابهم إلى طلبهم وقال «أنالها» وفى رواية «أنا صاحبكم » فيشفع فى فصل القضاء بين الخلق فتقبل شفاعته . وقيل إن المراد غير هذه الشفاعة وقيل مايعمها وغيرها ، والروايات فى الشفاعة متداخلة مضطربة ، ولسنا بصدد تحقيق القول فيها

ثم وصف الله عز وجل نفسه فى هذا المقام بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلاهية وبالاحياء والإماتة فقال ﴿ الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى و يميت ﴾ والمراد بملك السموات والأرض التصرف والتدبير فى العالم كله لما جرى عليه عرف البشر من أن السموات هى العوالم التى تعلو هذه الأرض التى يعيشون فيها وصاحب الملك والتصرف والتدبير فيهما هو ربهما رب العالمين ، وهو واحد ، ولو كان لغيره تصرف لتعارض مع تصرفه وفسد النظام العام ، فان وحدة النظام فى جملة المخلوقات وعدم التفاوت والتعارض فيها دليل على وحدة مصدرها وتدبيرها ، و إذا كان رب الخلائق واحداً وجب أن يكون هو المعبود وحده ، لا إله إلا هو ، والتوحيد بقسميه ، توحيد الربوبية بالايمان وتوحيد الالوهية بالإيمان والعمل أى عبادة الله وحده — هما أصل الدين وأساسه ، والركن الأول لعقائده ، وقد اقترن برسالة الرسول ﷺ وهى الركن الثانى ، وأما وصفه تعالى بالإحياء والإماتة وهو بعض تصرف الرب فى خلقه فيتضمن عقيدة البعث بعد الموت التى هى الركن الثالث من أركان الايمان ، فقد أدمجت فى دعوى الرسالة أركان الدين الثلاثة — وهو من ايجاز القرآن الغريب — و بنى على ذلك الدعوة

إلى الإيمان على طريقة التفريع على هذا الأصل بل الأصول، وذلك قوله عز من قائل ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي ﴾ أي فآمنوا يا أيها الناس من جميع الأمم بالله الواحد في ربوبيته وألوهيته الذي يحيي كل ماتحله الحياة في العالم ، ويميت كل مايعرض له الموت بعد الحياة ، وهذا أمر يتجدد كل يوم فتشاهدونه ومثله البعث العام بعد الموت العام وخراب هذا العالم ، وآمنوا برسوله المطلق الممتاز بأنه النبي الأمي الذي بعثه في الأميين (العرب) رسولا إلى الخلق أجمعين ، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويطهرهم من خرافات الشرك والرذائل والجهل والتفرق والتعادي بعصبيات الأجناس واللغات والأوطان ليكونوا بهدايته أمة واحدة يتحقق بها الاخاء البشري العام ، وقد بشر به الأنبياء الكرام عليهم السلام لأنه المتم المكمل لما بعثوا به من هداية الأقوام وأميته ﷺ من أعظم معجزاته ، وأية آية على صحة دعوى الرسالة أقوى وأظهر من تعليم الأمي الذي لم يتعلم شيئا لجميع الأمم ، مافيه صلاحهم وفلاحهم من العلوم والحكم ؟

﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ أي يؤمن بما يدعوكم إلى الإيمان به من توحيد الله تعالى وكلماته التشريعية التي أنزلها لهداية خلقه ، وهي مظهر علمه وحكمته ورحمته ، وكلماته التكوينية التي هي مظهر إرادته وقدرته وحكمته . وبعد أمرهم بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ أي واتبعوه بالاذعان الفعلي لكل ماجاءكم به من أمر الدين فعلا وتركا ، رجاء اهتدائكم بالإيمان وباتباعه لما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة ، فثمرة الإيمان والاسلام اهتداء صاحبهما ووصوله بالفعل لسعادة الدارين كما فصلناه في غير هذا الموضع ، ودليله الفعلي في الدنيا أنه ما آمن قوم بنبي إلا وكانوا بعد الإيمان به خيرا مما كانوا قبله من هناء المعيشة والعزة والكرامة في دنياهم ، وأظهر التواريخ وأقربها عهدا تاريخ الأمة المحمدية ، ومن العجائب أن يصل بهم الجهل بعد ذلك إلى ترك هذه الهداية التي نالوا بها الملك العظيم والعز والسؤدد والغنى والحضارة ، وأعجب منه أن يزول المعلول بزوال علته وهم لايشعرون به فيعودوا إليه ، وأعجب من هذين أن يصل بهم الجهل إلى أن يعتقد كثير منهم في هذا العصر أن هداية الإسلام التي سعدوا بها ثم شقوا بتركها هي سبب هذا الشقاء الأخير لاتركها

﴿ فصل في معنى اتباع الرسول وموضوعه ولوازمه ﴾

قوله تعالى هنا (واتبعوه) أعم من قوله في الآية التي قبلها (واتبعوا النور الذي أنزل معه) فذلك في اتباع القرآن خاصة وهذه تشمل اتباعه ﷺ فيما شرعه من الأحكام من تلقاء نفسه ، على القول بأن الله تعالى أعطاه ذلك وأذن له به ، واتباعه في اجتهاده واستنباطه من القرآن إذا كان تشريعاً ـ كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها كالجمع بين الأختين المنصوص في القرآن ـ ولا يدخل فيه اتباعه فيما كان من أمور العادات كحديث « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه طيب مبارك » رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة والحاكم وصححه ورواه غيرهما بألفاظ أخرى وأسانيده ضعيفة ، وحديث « كلوا البلح بالتمر » الخ رواه النسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشة وصححوه ، فإن هذا من أمور العادات التي لا قربة فيها ولا حقوق تقتضي التشريع ، بخلاف حديث « كلوا لحوم الاضاحي وادخروا » رواه أحمد والحاكم عن أبي سعيد وقتادة بن النعمان وسنده صحيح . فإن الأضاحي من النسك ، والاكل منها سنة فأمر المضحي به للندب ، وادخارها جائز له ، ولولا الأمر به لظن تحريمه أو كراهته لعلاقة الاضاحي بالعيد فهي ضيافة الله تعالى للمؤمنين في أيام العيد . فالتشريع إما عبادة أمرنا بالتقرب إلى الله تعالى بها وجوباً أو ندباً ، وإما مفسدة نهينا عنها اتقاء لضررها في الدين كدعاء غير الله فيما ليس من الأسباب التي يتعاون عليها الناس وكأكل المذبوح لغير الله وتعظيم غير الله بما شرع تعظيم الله به من الذبح له والحلف باسمه ـ أو لضررها في العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامة ـ وإما حقوق مادية أو معنوية أمرنا بأدائها إلى أهلها كالمواريث والنفقات ومعاشرة الأزواج بالمعروف ، أو أمرنا بالتزامها لضبط المعاملات كالوفاء بالعقود ، وبإدخال حكم الاستحباب وحكم كراهة التنزيه في التشريع تتسع أحكامه في أمور العادات كما يعلم مما يأتي :

ليس من التشريع الذي يجب فيه امتثال الأمر واجتناب النهي ما لا يتعلق به حق الله تعالى ولا لخلقه لا جلب مصلحة ولا دفع مفسدة كالعادات والصناعات والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث وما يرد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء ارشاداً لا تشريعاً إلا ما ترتب على النهي عنه وعيد كلبس الحرير ،

وقد ظن بعض الصحابة (رض) أن انكار النبي ﷺ لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب للتشريع كتلقيح النخل فامتنعوا عنه فاشاص (خرج تمره شيصاً أى رديئاً أو يابساً) فراجعوه فى ذلك فأخبرهم أنه قال ماقال عن ظن ورأى لاعن تشريع وقال لهم « أنتم أعلم بأمر دنياكم » والحديث معروف فى صحيح مسلم وحكمته تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية كالزراعة والصناعة لايتعلق بها لذاتها تشريع خاص بل هى متروكة إلى معارف الناس وتجاربهم .

وكانوا يراجعونه أيضاً فيما يشتبه عليهم أهو من رأيه ﷺ واجتهاده الدنيوى أو بأمر من الله تعالى وإن لم يكن تشريعاً كسؤاله عن الموضع الذى اختاره للنزول فيه يوم بدر، قال له الحباب بن المنذر (رض) : أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا متقدم عنه ولا متأخر ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه بأنه رأى لاوحى وأن المعول فيه على المصلحة ومكايد الحرب أشار بغيره فوافقه ﷺ .

وإذا اشتبه على بعض الصحابة بعض هذه المسائل فغيرهم أولى بأن يعرض لهم الاشتباه فى كثير منها ، وكان النبي ﷺ يبين لأولئك الحق فيما اشتبهوا فيه، ومن ذا يبين ذلك من بعده ؟ ولو لم يتخذ الناس اجتهاد العلماء من بعده ديناً يوجبون اتباعه لهان الأمر ، ولكن اتخاذه ديناً قد كثرت به التكاليف ، ووقع المسلمون به فى حرج عظيم فى الازمنة التى ضعف فيها الاتباع ، فثقلت على الطباع ، فصاروا يتركون ماثقل عليهم منها ، وجرأهم ذلك على ترك المشروع القطعى الذى لاحرج ولا عسر فيه ، ثم جرهم ذلك إلى ترك بعضهم للدين كله ودعوة غيرهم إلى ذلك ، والجامدون من مقلدة الفقه المتشددين فى إلزام الأمة التدين باجتهاد الفقهاء لايشعرون بهذه العاقبة السوءى ولا يبالون إذ أشعرهم المصلحون .

مثال ما شدد به بعضهم من ذلك صبغ الشيب بالسواد هو من الأمور العادية المتعلقة بالزينة المباحة إذ لاتعبد فيه ولا حقوق لله ولا للناس ، إلا ما قد يعرض فيه وفى مثله كالزى من كون فعله أو تركه صار خاصاً بالكفار وفعله بعض المسلمين تشبها بهم أو صار بفعله له مشابها لهم بحيث يعد منهم ، وفى ذلك ضرر معنوى وسياسى معروف عند الباحثين فى سنن الاجتماع من كون المتشبه بقوم تقوى عظمتهم فى نفسه من حيث تضعف فيها رابطته بقومه وأهل ملته ، وقد ورد فى صبغ الشيب أخبار وآثار يدل بعضها على استحبابه عادة لا عبادة ولو بالسواد ، وفهم بعض

العلماء منهما استحبابه شرعا ، وفهم آخرون من بعض آخر كراهته بالسواد ، بل قال المشددون منهم بتحريمه، فصار المقلدون لهم ينكرون على فاعله و يعدونه عاصيا لله تعالى ، فخالفوا هدى السلف فى المسألة وفى القاعدة العامة وهى عدم الإنكار فى المسائل الاجتهادية التى وقع فيها الخلاف .

فمن الاخبار فى المسألة ماورد فى الصحيح «أن أبا قحافة والد أبى بكر الصديق (رض) جاء أو أتى به يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة[1] بياضا فقال رسول الله ﷺ غيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد» فاستدل الشافعية بهذا الحديث على تحريم الصبغ بالسواد مع أن الحديث فى واقعة عين تتعلق بأمر عادى فلا هى من مسائل الحرام والحلال ولا من المسائل التى يعتبر فيها العموم كما هو مقرر فى الأصول ، وهى مع ذلك معارضة باطلاق الأمر بصبغ الشيب الموجه للأمة وهو قوله ﷺ « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » رواه الشيخان وأصحاب السنن الأربعة ـ و بقوله ﷺ «إن أحسن ماغيرتم به هذا الشيب الحناء والكتم» وظاهره تغييره بهما معا، وإلا لقال أو الكتم ، و يؤيده ماصح عن أبى بكر الصديق (رض) انه كان يخضب بالحناء والكتم معا ، وقد حقق العلامة ابن الأثير أن الخضاب بهما معا يكون أسود . وقال بعضهم إنه أسود يضرب إلى الحمرة أى ليس حالكا، والجمع بين القولين أنه يكون شديد السواد إذا كان قويا مشبعا و يضرب إلى الحمرة إذا كان خفيفا وهو أسود على كل حال

وذكر بعض العلماء أن سبب أمر النبى ﷺ باجتناب السواد فى تغيير شيب أبى قحافة أنه لم يستحسنه لشيخ بلغ من الكبر عتيا، وكان شعر رأسه ولحيته كالثغامة فى شدة بياضه كله، ومن رجع إلى ذوق البشر العام أدرك أن السواد لا يليق بمثله و يؤيده ماذكره الحافظ فى الفتح عن ابن شهاب الزهرى انه قال: كنا نخضب بالسواد إذ كان الوجه جديداً فلما نفض الوجه والاسنان تركناه اهـ، ولمثل هذه الخصوصيات قال الأصوليون إن وقائع الأعيان لاعموم لها. وذكر الحافظ فى الفتح أيضا أن الذين أجازوا الصبغ بالسواد تمسكوا بالأمر المطلق بتغييره مخالفة للأعاجم (وقال) وقد رخص فيه طائفة من السلف منهم سعد بن أبي وقاص وعقبة بن عامر والحسن والحسين وجرير وغير واحد (أى من الصحابة) أقول وقد نقل النووى فى شرح الحديثين من صحيح مسلم عن

(١) الثغام بالفتح نبت له نور أبيض شديد البياض واحدته ثغامة

القاضي عياض بعد جزمه هو بأن الأصح المختار عند الشافعية تحريم السواد ما نصه:

«وقال القاضي: اختلف السلف من الصحابة والتابعين في الخضاب وفي جنسه فقال بعضهم ترك الخضاب أفضل. ورووا حديثا عن النبي ﷺ في النهي عن تغيير الشيب ولأنه ﷺ لم يغير شيبه، روى هذا عن عمر وعلي وأبي وآخرين رضي الله عنهم. وقال آخرون الخضاب أفضل وخضب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم للأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره، ثم اختلف هؤلاء فكان أكثرهم يخضب بالصفرة منهم ابن عمر وأبو هريرة وآخرون، وروى ذلك عن علي. وخضب جماعة منهم بالحناء والكتم وبعضهم بالزعفران، وخضب جماعة بالسواد. روى ذلك عن عثمان والحسن والحسين ابني علي، وعقبة بن عامر وابن سيرين وأبي بردة وآخرين (قال القاضي) قال الطبراني[1] الصواب أن الآثار المروية عن النبي ﷺ بتغيير الشيب وبالنهي عنه كلها صحيحة وليس فيها تناقض بل الأمر بالتغيير لمن شيبه كشيب أبي قحافة والنهي لمن له شمط فقط (قال) واختلاف السلف في فعل الامرين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك مع أن الأمر والنهي في ذلك ليس للوجوب بالاجماع، ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه في ذلك (قال) ولا يجوز أن يقال فيهما ناسخ ومنسوخ (قال القاضي) وقال غيره هو على حالين فمن كان في موضع عادة أهله الصبغ أو تركه فخروجه عن العادة شهرة ومكروه والثاني انه يختلف باختلاف نظافة الشيب فمن كانت شيبته تكون نقية أحسن منها مصبوغة فالترك أولى ومن كانت شيبته تستبشع فالصبغ أولى (قال النووي) هذا ما نقله القاضي والأصح الأوفق للسنة ما قدمناه عن مذهبنا والله أعلم اهـ

أقول إن هذا الإصرار من النووي رحمه الله تعالى على تصحيح مذهب أصحابه وجعله أوفق للسنة من غريب تعصبه لهم بعد العلم بعمل بعض عظماء الصحابة والتابعين بخلافه وسائر ما نقله عن القاضي وغيره في المسألة، ومنه قول الامام الطبري من أن الأمر في هذه المسألة ــ وكذا أمثالها ــ ليس للوجوب والنهي ليس للتحريم لأنها من أمور العادات والزينة والتجمل بين الناس، وما نقله عنه وعن غيره من كونها تختلف باختلاف السن وباختلاف العادة والأحوال بين الناس، ويعتبر فيها الذوق في الزينة هو الصواب كما قال الطبري، وأي مدخل للتحريم في مثل هذا ولا محرم في الشريعة السمحة إلا ما كان ضارا؟

(١) كذا في الاصل والذي أذكره أن قائل هذا هو الامام الطبري لا الحافظ الطبراني.

وقد سبق لنا تفصيل لهذه المسألة وأمثالها كسنن الفطرة فى فتاوى المنار ، ومنه أن حديث ابن عباس عند أبى داود « يكون قوم فى آخر الزمان يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة » ضعيف متنا وسنداً بل قال ابن الجوزى انه موضوع و يؤيده أن من آيات الوضع فى متنه الوعيد بالحرمان من رائحة الجنة على أمر من العادات ولا يحرم من الجنة إلا الـكافر بالمعنى الأخص دع مخالفته لحـديث الصحيحين ، وفى سنده عبد الكريم غير منسوب والظاهر انه ابن أبى المخارق وهو ضعيف ، فان قيل يحتمل أنه الجزرى الذى روى عنه الشيخان قلنا التصحيح لا يثبت بالاحتمال ولا سيما فى أمر مخالف لأصول الشرع كهذا الوعيد وان ابن حبان منع من الاحتجاج بما ينفرد به عبد الكريم الجزرى كهذا الحديث

وما نقله القاضى عن الذين اختاروا عدم تغيير الشيب من أن النبى ﷺ لم يغير شيبته غير صحيح بل ثبت فى الصحيح أنه خضب رواه البخارى وغيره عن ابن عمر وأم سلمة وله باب فى شمائل الترمذى فيراجع مع شروحه . وفى الأصول أن أفعاله ﷺ لا تدل من حيث هى على وجوب ولا ندب شرعى وانما تدل على الإباحة لأنه لا يفعل الحرام ، وعدم فعله لعادة من عادات الناس أولى بأن لا يدل على حرمتها ولا كراهتها دينا .وقد صح انه نبه الأمة إلى أن بعض أعماله فى بعض العبادات لم يقصد بها التشريع كوقوفه فى عرفات والمزدلفة لئلا يلتزموها تدينا فيكونوا قد شرعوا من الدين مالم يأذن به الله . على أن من توخى اتباعه عليه صلوات الله وسلامه فى العادات حبا فيه وتذكراً لحياته الشريفة بدون أن يعتقد أن ذلك من الدين أو يوهم الناس ذلك أو يتحمل ضرراً لا يباح التعرض له شرعا ومن غير أن يكون سبب شهرة مذمومة شرعا ـ لجدير بأن يكون اتباعه هذ مزيد كمال فى إيمانه من حيث انه بتحرى ذلك يزيد تذكره للنبى ﷺ وحبه له ، وقد انفرد من الصحابة ابن عمر (رضى الله عنهما) بتتبع أعماله وعاداته وتقلبه فى سفره ولا سيما سفر حجة الوداع وتحرى اتباعه فى ذلك كله ولم يكن سائر الصحبة يفعلون ذلك لئلا يعده الناس تشريعا فيكون جناية على الدين فالزيادة فيه كالنقص منه وهى تتضمن تكذيب قوله تعالى (اليوم أكملت لـكم دينكم)

وجوب تبليغ دعوة الإسلام ورسالة محمد ﷺ لجميع البشر

ومما يدخل فى أحكام رسالته ﷺ للناس كافة أن الله تعالى لا يقبل ايمان أحد بلغته دعوته على وجهها الصحيح إلا بالإيمان به واتباعه ، وأنه يجب على

أمته أى أمة الإجابة وهم الذين اهتدوا بما جاء به من الإيمان والإسلام ، أن يبلغوا دعوته لجميع الناس من جميع الأمم ، على الوجه الذى يحرك إلى النظر ، ويجب أن يكون القائمون بذلك منهم جماعات تتعاون عليه إذ لا يغنى الأفراد غناء الجماعات سواء أكانت الدعوة إلى أصل الإيمان الاجمالى الذى هو بدء الدعوة ـ أم إلى الشرائع التفصيلية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويشمل ذلك كله قوله تعالى (٣ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقد ذكرنا فى تفسيرها ما بسطه شيخنا الأستاذ الإمام من كون الراجح المختار أن قوله تعالى (ولتكن منكم أمة) تجريد كقول القائل : ليكن لى منك صديق . أى لتكن صديقا لى ، وأنه يجب على جميع المسلمين أن يكونوا دعاة إلى الخير الأعظم الذى هداهم الله إليه ، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، كل على قدر حاله واستطاعته كما كان المسلمون فى الصدر الأول ، وأنه مع ذلك يجب أن يتألف للدعوة جماعات تعد لها عدتها وإن هذا متعين على الوجه الآخر فى الآية وهو جعل منكم للتبعيض الخ

(راجع ص ٢٧ ـ ٤٥ ج ٤ تفسير وكذا ص ٢٨ منه)

وتبليغ الدعوة إلى الإسلام على الوجه الذى تقوم به الحجة يختلف باختلاف الزمان والمكان والأفراد والأقوام ، فقد كان مشركو العرب فى عصر البعثة يؤمنون بأن الله تعالى هو رب العالمين وخالق الخلق ومدبر أموره وإنما كانوا يشركون بعبادته غيره من الملائكة والجن والأصنام زاعمين أنهم يقربونهم إليه زلفى ويشفعون لهم عنده فيقضى لهم حاجهم من جلب خير ودفع ضر بوساطتهم ، وكانوا ينكرون البعث والحياة بعد هذه الحياة الدنيا وينكرون الرسالة والوحى من الله لبعض البشر فكان النبى ﷺ يدعوهم أولا إلى التوحيد الذى هو عنوان الإسلام وباب الدخول فيه لأنه الركن الأعظم ، ثم انه كان يقيم لهم الحجج والبراهين على توحيد الألوهية وهو إفراد الله وحده بالعبادة وعلى حقية الرسالة والبعث والجزاء مع دفع ما عندهم من الشبهات على ذلك كما تراه مفصلا فى سورة الأنعام التى هى أجمع سورة فى القرآن لذلك وكذا فى غيرها من السور المكية . ويلى ذلك دعوتهم إلى أصول الشريعة وقواعدها الكلية فى الآداب والفضائل والحلال والحرام ثم إلى الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد .

وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فكانوا يؤمنون بالله وبالوحى

والرسل والبعث والجزاء ، ولكن دخلت على أكثرهم الوثنية القديمة بجميع أصولها وفروعها ولاسيما النصارى الذين أقاموا عقيدتهم على أساس التثليث المعروف عن قدماء المصريين والهنود وغيرهم من الوثنيين ، وكان اليهود يزعمون أن النبوة والرسالة محصورة فى بنى اسرائيل لا يمكن أن يبعث الله رسولا من غيرهم ، وكانت التوراة قد فقدت فى غزو البابليين لهم . ثم كتب بعضهم لهم توراة بعد عدة قرون هى عبارة عن تاريخ دينى مشتمل على قصص الأنبياء إلى عهد موسى وهارون وعلى ما تذكر الكاتب من شريعة التوراة مع تحريف وأغلاط كثيرة ، وكان الانجيل الذى جاء به عيسى عليه السلام من وعظ وتعليم و بشارة قد ادعاه كثيرون فظهر فى العصر الأول بعده زهاء سبعين إنجيلا اختار الجمهور الذى جمع شمله الملك قسطنطين ـ الوثنى الذى تنصر سياسة ـ أربعة منها فيها كثير من الخلاف والتعارض ، وذلك بعد المسيح بثلاثة قرون وفشا فيهم منذ عهد هذا الملك الوثنى المتنصر عبادة السيدة مريم عليها السلام وغيرها من الصالحين حتى صارت الكنائس النصرانية كهياكل الأوثان مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة — فكانت دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الاسلام وحججه عليهم التى أنزلها الله عليه فى القرآن تختلف من بعض الوجوه عن دعوة المشركين الأصليين كما تراه مبسوطا فى السور الطول الأربع الأولى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة — ففى الجزء الأول من البقرة من القرآن : يوجه أكثر الكلام إلى اليهود وذكرت فيه النصارى بالعرض ـ وأوائل سورة آل عمران نزلت فى حجاج نصارى نجران . وفى أواخر النساء كلام فى أهل الكتاب أكثره فى النصارى ـ وجل سورة المائدة فى أهل الكتاب عامة والنصارى خاصة

وأما هذا العصر فقد كثرت فيه الملاحدة والمعطلة ، وتجددت للكفار على اختلاف فرقهم شبهات جديدة يتوكئون فيها على مسائل من العلوم العصرية لم تكن معروفة عند الأقدمين ، وحدثت للناس آراء ومذاهب فى الحياة فيها الحسن والقبيح ، والنافع والضار ، بل منها ما قد يفضى إلى فساد العالم وتقويض دعائم العمران . ومثار ذلك كله ذيوع التعاليم المادية وفوضى الآداب وتدهور الأخلاق وتغلب الرذائل على الفضائل ، وقد ظهر هذا الفساد فى أفظع صورة فى حرب المدنية الكبرى وما ولدته من تفاقم شره

المستعمرين وشرهم وفظائعهم فى الشرق ، وانتشار البلشفية ومفاسدها فى البلاد الروسية وغيرها ، وبث دعوتها فى العالم - فصار من الواجب مراعاة ذلك فى الدعوة إلى الدين والاحتجاج له ورد الشبه التى توجه إليه . وقد ذكرت فى تفسير آية سورة آل عمران المشار إليها آنفا (أى ٣ : ١٠٤) حاجة الداعى إلى الاسلام فى هذا الزمان إلى أحد عشر علما منها السياسة ولغات الأقوام الذين توجه إليهم الدعوة وأشرت هنالك إلى مقالة كنت كتبتها قبل ذلك فى المنار فى الدعوة وطريقها وآدابها

اللغة العربية لغة الإسلام

ومما يدخل فى بحث اتباعه صلوات الله وسلامه عليه تعلم لغته التى هى لغة الكتاب الإلهى الذى أوحاه الله تعالى إليه وأمر جميع من اتبعه ودان بدينه أن يتعبده به وأن يتلوه فى الصلاة وغير الصلاة مع التدبر والتأمل فى معانيه ، وذلك يتوقف على اتقان لغته وهى العربية . فالمسلمون يبلغون الدعوة لكل قوم بلغتهم حتى إذا ماهدى الله من شاء منهم ودخل فى الاسلام علموه أحكامه ولغته ، وكذلك كان يفعل الخلفاء الفاتحون فى خير القرون وما بعدها إلى أن تغلبت الأعاجم على العرب وسلبوهم الملك فوقفت الدعوة إلى الاسلام وضعف العلم بالعربية إلى أن قضى عليها الترك وحرمتها حكومتهم عليهم فى هذا الزمان ، لتقطع كل صلة لهم بدين القرآن ، وقد فصلنا هذه المباحث فى مجلة المنار تفصيلا

ومما نشرناه فى هذا الموضوع مقال فى لغة الاسلام نشرناه أولا فى بعض الجرائد اليومية وفيه تصريح للامام الشافعى رضى الله عنه بوجوب تعلم اللغة العربية على جميع المسلمين فى رسالته فى أصول الفقه ، ذلك بأنه يبين أن القرآن كله نزل بلسان العرب ليس فيه شىء إلا بلسانهم ثم قال ما نصه . « فان قال قائل : ما الحجة فى أن كتاب الله محض بلسان العرب لايخلطه فيه غيره ؟ فالحجة فيه كتاب الله ، قال تبارك وتعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)

« فان قال قائل : فان الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة ؟ (قيل) قد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ويكون على الناس كافة أن يتعلموا

لسانه ، أو مايطيقونه منه · ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم [١] ؟ فان قال قائل .
فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم ؟؟

قال الشافعى رحمه الله تعالى . فالدلالة على ذلك بينة من كتاب الله عز وجل فى غير موضع ، فاذا كانت الالسنة مختلفة بمالايفهه بعضهم عن بعض فلابدأن يكون بعضهم تبعا لبعض ، وأن يكون الفضل فى اللسان المتبع على التابع وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى ﷺ ، ولا يجوز ـ والله تعالى أعلم ـ أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد ، بل كل لسان تبع للسانه وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه، وقد بين الله تعالى ذلك فى غير آية من كتابه .قال الله عز ذكره (وانه لتنزيل رب العالمين *نزل به الروح الأمين* على قلبك لتكون من المنذرين* بلسان عربى مبين) وقال (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) وقال(وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها)وقال تعالى (حم والكتاب المبين * اناجعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)

قال الشافعى رحمه الله تعالى :فأقام حجته بأن كتابه عربى فى كل آية ذكرناها ، ثم أكد ذلك بأن نفى جل وعز عنه كل لسان غير لسان العرب فى آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون :انما يعلمه بشر .لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وقال (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ؟ أأعجمى وعربى ؟)

«قال الشافعى رحمه الله تعالى : وعرفنا قدر نعمه بما خصنا به من مكانه فقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ....) الآية ، وقال هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم)الآية ، وكان مما عرف الله تعالى نبيه ﷺ من انعامه ان قال (وإنه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه بكتابه وقال (وانذر عشيرتك الأقربين) وقال (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأم القرى مكة

«١» أى يحتمل ذلك عقلا وان قام الدليل على مقابله فعلا

وهى بلده وبلد قومه ، فجعلهم فى كتابه خاصة ، وأدخلهم مع المنذرين عامة ،وقضى أن ينذروا بلسانهم العربى لسان قومه منهم خاصة

« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب مابلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيماافترض عليه من التكبير ،وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك، وما ازداد من العلم باللسان الذى جعله الله لسان من ختم به نبوته ،وأنزل به آخر كتبه، كان خيراً له ، كما عليه ان يتعلم الصلاة والذكر فيها ويأتى البيت وماأمر باتيانه ويتوجه لما وجه له ، ويكون تبعا فيما افترض عليه وندب اليه لامتبوعا

« قال الشافعى رحمه الله : وانما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيرهم لأنه لايعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه،وجماع معانيه وتفرقها .ومن علمها انتفت عنه الشبه التى دخلت على من جهل لسانها ؛ فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين والنصيحة لهم فرض لا ينبغى تركه ، أو إدراك نافلة خير لايدعها إلا من سفه نفسه ، وترك موضع حظه ؛ فكان يجمع مع النصيحة لهم قياما بإيضاح حق ، وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين طاعة لله وطاعة الله جامعة للخير » اه. ثم ذيلنا هذا النقل بما نذكر هنا ملخصه ببعض تصرف وهو :

هذا ما قاله الإمام الشافعى فى رسالة الأصول الشهيرة المطبوعة بمصر بنصها ، ولاتحسبن ان هذا مذهب له خالفه فيه غيره من أئمة المسلمين،كلا انه اجماع لااختلاف فيه ،وقد اشتهرت رسالته هذه فى جميع أقطار الإسلام إذ كانت هى أول ما كتب فى أصول الفقه ، وقد خالفه بعض المجتهدين فى بعض مسائل الأصول دون هذه المسألة فلم يخالفه ولم يناقشه أحد فيها ،ولا فيما أورده من الأدلة عليها ،وأوضح الأدلة على هذا إجماع المسلمين سلفاً وخلفا على التعبد بتلاوة القرآن العربى وأذكار الصلاة والحج وغيرهما بالعربية ،لم يشذ عن هذا سنى ولا شيعى ولا أباضى ولا خارجى ولا معتزلى

نعم ان المسلمين قد قصروا فى دراسة هذه اللغة بعد ضعف الخلافة الاسلامية وتغلب الأعاجم فعطلوا بذلك بعض ما أمرهم الله تعالى به من تدبر القرآن والعبرة والاتعاظ

بآياته وفهم عقائده وفقه أحكامه ، ولكن روى قول شاذ عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى بجواز أداء بعض أذكار الصلاة والتلاوة فيها بغير العربية لمن تعذر عليه تعلم ما يجب منهما أى من الأفراد لضعف فى نطقه وفهمه ، وقد صح عنه أيضاً أنه رجع عن هذا القول ، على أنه مقيد بالضرورة الشخصية ، ولم يقل هو ولا غيره باطلاق ذلك وأنه يسع أى شعب أعجمى أن يستغنى فى دينه عن لغة كتابه وسنته ، والدليل على هذا أن جميع مقلديه من الأعاجم لايزالون يقرؤون القرآن وأذكار الصلاة والحج وغيرها بالعربية وكذلك خطبة صلاة الجمعة والعيدين إلا ماشذت به الحكومة الكمالية التركية فأمرت الخطباء بأن يخطبوا بالتركية تمهيداً للصلاة بها لخلع ربقة الإسلام وقد بلغنا أن جماعة المصلين من الترك لما سمعوا خطبة الجمعة بالتركية نكروها ونفروا منها واتخذوا خطباءها سخريا لأن للعربية سلطانا على أرواحهم يخشعون لها وإن لم يفهموا كل عباراتها ولأنهم اعتادوا أن يسمعوها بنغم خاص وأداء خاص لا تقبله اللغة التركية كالعربية

وليست عبادات الإسلام وحدها هى التى تتوقف على العربية بل معرفة أحكام المعاملات تتوقف عليها أيضاً فان أحكام الشريعة بجميع أنواعها حتى المدنية والسياسية متوقفة على الاجتهاد المعبر عنه فى عرف هذا العصر بالتشريع ، وقد أجمع علماء الاصول من جميع المذاهب الإسلامية على توقف الاجتهاد فى الشرع واستنباط الأحكام على معرفة اللغة العربية معرفة تمكن صاحبها من فهم أحكام القرآن والسنة ، وقد وضحنا هذه المسألة و بينا وجه الحاجة اليها فى هذا العصر فى كتاب (الخلافة ـ أو الامامة العظمى) فتراجع فيه

وجملة القول : أن إقامة دين الإسلام متوقفة على لغة كتابه المنزل وسنة نبيه المرسل ، سواء فى ذلك هدايته الروحية ، ورابطته الاجتماعية ، وحكومته العادلة المدنية ، وأن المسلمين لم يكونوا فى عصر من العصور أحوج إلى الوحدة المفروضة عليهم المتوقفة على هذه اللغة منهم فى هذا العصر الذى تمزقوا فيه كل ممزق، فأصبحوا أكلة لمنهومى الاستعمار ومستعبدى الامم والشعوب ، وصدق فيهم قول النبى ﷺ « يوشك أن تداعى عليكم الامم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » الحديث

بحث ترجمة القرآن

سيقول بعض الجاهلين لحقيقة الإسلام وكونه دينا روحانيا مدنيا سياسيا ، وبعض أولى العصبية الجنسية الجاهلية : إن مقتضى ماذكرت أنه لايمكن إقامة دين الإسلام كما يجب إلا باللغة العربية ، فلماذا لايجوز على شعوب المسلمين ماجاز على شعوب النصارى مثلا من ترجمة كتبهم المقدسة بلغاتهم المختلفة مع بقائهم على دين النصرانية وملة المسيح عليه السلام ؟

ونقول (أولا) إن المسألة عندنامسألة نقل واتباع لامسألة رأى،وقدعلمت أن أئمتنا مجمعون على ماذكرنا (وثانيا) اننا نحن المسلمين لا نعتقد أن النصارى على ملة المسيح عليه السلام ولا يصح أن نزيدعلى ذكراعتقادناهذا فى صحيفة عمومية [1] وثالثا إن ترجمة القرآن المعجز للبشر ترجمة تؤدى معانيه تأدية تامة كما أنزلها الله تعالى و يبقى بها معجزا وآية ـ متعذرة ، وقد بيناهذا بالايضاح فى مجلتنا (المنار) ولامحل له هنا، (ورابعا) إذا فرضنا أن ترجمة الكتاب والسنة لاتخل بفهم أصول الدين وفروعه وتشريعه أفلا تخل بماهوموضوع هذا المقال من وجوب وحدتهم وتعارفهم وتعاونهم ـ وتوقف ذلك على لغة واحدة ضرورى ـ فاذا لم تكن لغة جميع أفرادشعوبهم فلتكن ممايتقنه طوائف رجال الدين ودعاة الوحدة والاتفاق منهم ؟ بلى بلى اه

﴿ تفصيل القول فى ترجمة القرآن ﴾

كتبنا فى فاتحة المجلد ٢٦ من المنار مقالا فى مسألة ترجمة القرآن نذكر هنا منه مايلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * (سورة يوسف ١٢ : ١ و ٢)

---

(١) المراد بها جريدة الاهرام التى نشرنا فيها هذا المقال

وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدثُ لهم ذكرا * (سورة طه ٢٠: ١١٣)

ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين * (الأحقاف٢٦: ١٢)

ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون* قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون * (سورة الزمر ٣٩: ٢٦ و ٢٧)

حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * (سورة فصلت ٤١: ١ — ٣)

حم* والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * و إنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم* (الزخرف ٤٣: ١ـ ٤)

وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير (سورة الشورى ٤٢: ٧)

و إنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين * و إنه لفى زبر الأولين * أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل * ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين (سورة الشعراء ٢٦: ١٩٢ـ ١٩٩)

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى و بشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر ،لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين * (سورة النحل١٦: ١٠٢و١٠٣)

ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ؟قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ،أولئك ينادون من مكان بعيد * (سورة فصلت ٤١ : ٤٤)

وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق * (سوره الرعد ١٣: ٣٧)

﴿ أما بعد﴾ فهذه آيات محكمات هن أم الكتاب فى هذا الباب ،تجاوزن جمع القلة

إلى جمع الكثرة وعدون إشارات الإيجاز وحدود المساواة إلى باحة الإطناب ، ينطقن بنصوص صريحة لا تحتمل التأويل ، ولا تقبل التبديل ولا التحويل ، بأن الله تبارك وتعالى هو الذى أنزل هذا الكتاب الذى جعله آخر كتبه ، على خاتم أنبيائه ورسله . قرآنا عربيا ، وأنه هو الذى جعله قرآنا عربيا ، وأنه هو الذى أوحاه قرآنا عربيا ، وأنه هو الذى فصل آياته قرآنا عربيا ، وأن الروح الأمين ، نزل به على قلب خاتم النبيين ، بلسان عربى مبين ، وأنه ضرب فيه للناس من كل مثل ، والمراد بالناس أمة الدعوة من جميع الملل والنحل ، حال كونه قرآنا عربيا غير ذى عوج ، وأنه أمر خاتم رسله أن ينذر به (أم القرى) ومن حولها من جميع الورى ، وأنه على إنزاله إياه قرآنا عربيا للانذار والذكرى ، والوعيد والبشرى ، لعلهم يعقلون ولعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ، أنزله حكما عربيا ، وأمر من أنزله عليه أن يحكم بين جميع الناس بما أراه الله فيه من الحق والعدل ، الذى جعله فيه حقا مشاعا لا هوادة فيه ولا محاباة لقرابة ولا فضل ، فقال (إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما) اقرأ الآيات (من سورة النساء ٤ . ١٠٤ـ ١١٤) بطولها . وراجع سبب نزولها ، فعلم من هذه الآيات المحكمة أن القرآن هداية دينية عربية ، وأنه حكومة دينية مدنية عربية ، عربية اللسان ، عامة لجميع شعوب نوع الانسان .

وصلوات الله وتحياته المباركة الطيبة على محمد النبي العربى الأمين ، الذى جعله سيد ولد آدم وفضله على جميع النبيين والمرسلين ، بإكمال دينه بلسانه وعلى لسانه وإرساله لجميع العالمين ، وجعل هداية رسالته باقية إلى يوم الدين ، بقوله عمت رحمته (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين * ٢١ : ١٠٦) وقوله تبارك اسمه (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * ٢٥ : ١) وقوله تعالى جده (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ٣٤ : ٣٨) وقوله جل جلاله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما * ٣٣ : ٤٠) وقوله عم نواله فيما أنزله عليه فى حجة الوداع يوم الحج الأكبر (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا * ٥ : ٤)

وقد بلغ صلوات الله وسلامه عليه دعوة ربه كما أمر ، فبدأ بأم القرى ثم بما حولها من

جزيرة العرب وشعوب العجم ، باللسان العربى الذى قضى الله أن يوحد به ألسنة جميع الأمم ، فيجعلهم أمة واحدة بالعقائد والعبادات والآداب والشرع واللغة ، ليكونوا بنعمته إخوانا لامثار بينهم للعداوات التى تفرق بين الناس بعصبيات الأنساب والأقوام والأوطان والألسنة ، فكتب ﷺ كتبه إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بلغة الإسلام العربية ككتبه إلى ملوك العرب وأمرائهم ، و بلغ أصحابه ما أمر الله به أمته من تعميم الدعوة ، و بشرهم بأن نورها سينتشر ما بين المشرق والمغرب ، فصدع الصحابة والتابعون لهديهم ، وجميع دول الإسلام من بعدهم ، بما أمروا به من نشر هذا الدين بلغته ، فى كلا قسمى شريعته عبادته وحكومته .

فكان الإسلام ينتشر فى شعوب الأعاجم من قارات الأرض الثلاث (آسية وأفريقية وأوربة) بلغته العربية ، فيقبل الداخلون فيه على تعلم هذه اللغة بباعث العقيدة ، وضرورة إقامة الفريضة ، ولاسيما فريضة الصلاة التى هى عماد الدين ، وأعظم أركانه بعد التصريح بالشهادتين ، اللتين هما عنوان الدخول فيه ، على أنهما من أعمال الصلاة أيضا ، فكان تعلم العربية من ضروريات الإسلام ، عند جميع تلك الشعوب والأقوام ، بالاجماع العلمى العملى ، التعبدى والسياسى ، الا ماكان من تقصير دولة الترك العثمانيين ، بعدم جعل العربية لغة رسمية للدواوين ، كسلفهم من السلجوقيين والبويهيين ، حتى بعد تنحلهم للخلافة الإسلامية ، ورفع ألويتهم على مهد الإسلام من البلاد الحجازية ، فآل ذلك إلى التعارض والتعادى بين العصبية التركية اللغوية ورابطة الإسلام ، فالتفرق والتقاتل بين الترك والعرب فإلغاء الخلافة العثمانية فاسقاط دولة آل عثمان ، وتأليف جمهورية تركية العصبية والتربية والتعليم ، أوربية العادات والتقنين والتشريع ، وإبطال ما كان فى الدولة من المصالح الإسلامية ، كمشيخة الإسلام والأوقاف والمدارس الدينية والمحاكم الشرعية ، وصرحوا بأن حكومتهم هذه مدنية غربية لادينية وأنهم فصلوا بين الدين والدولة فصلا باتا كما فعلت الشعوب الافرنجية ، على أنهم لما وضعوا قانون هذا الجمهورية قبل التجرؤ على كل ما ذكر ، وضعوا فى مواده ان الدين الرسمى للدولة هو الاسلام مراعاة للشعب التركى المسلم ، كما وضعوا فيه مواد أخرى تنافى الإسلام من استقلال المجلس الوطنى المنتخب بالتشريع بلا قيد ولا شرط ، ومن إباحة الردة واستحلال ماحرم الشرع . وظهر أثر

ذلك بالقول والفعل ، كالطعن الصريح فى الدين والاستهزاء به حتى فى الصحف العامة وكاباحة الزنا والسكر المسلمين والمسلمات ، و بروز النساء التركيات فى مماهد الفسق ومحافل الرقص كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، إلى غير ذلك من منافيات الدين ، ولكن هذا كله لم يرو غليل العصبية اللغوية التورانية ، ولم يذهب بحقدها على الرابطة الاسلامية ، وآدابها الدينية العربية ، بل كان من كيدها لها السعى لازالة كل ما هو عربى من نفس الشعب التركى ولسانه ، وعقله ووجدانه ، ليسل عليهم سله من الاسلام ، بمعونة التربية الجديدة والتعليم العام ، بل عمدوا إلى هذه الشجرة الطيبة الثابت أصلها ، الراسخ فى أرض الحق والعدل والفضل عرقها ، الممتد فى أعالى السماء فرعها ، التى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، عمدوا إليها لاجتثاث أصلها واقتلاع جذرها بعد ماكان من التحاء عودها ، وامتلاخ أملودها ، وخضد شوكتها وعضد خصلتها ، بعد أن نعموا بضعة قرون بثمرتها ، وإنما تلك الشجرة الطيبة هى القرآن الكريم الحكيم المجيد العربى المبين ، هى الزيتونة المباركة الموصوفة بأنها لاشرقية ولا غربيــة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، فإذا مسته نار الإيمان بحرارتها اشتعل نورا على نور (يهدى الله لنوره من يشــاء و يضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم)

و إنما أعنى بقطع هذه الشجرة المباركة من أرض الشعب التركى محاولة حرمانه منه ، ذلك بأنهم ترجموا القرآن بالتركية لا ليفهمه الترك ، فان تفاسيره بلغتهم كثيرة وكان من مقاصد ابطال المدارس الدينية ابطال دراستها (أى التفاسير حتى التركية) وحظر مدارسة كتب السنة وكتب الفقه ونحوها ، لأنها مشحونة بآيات القرآن العربية ، وبالأحاديث النبوية العربية ، و بآثار السلف الصالح العربية و بالحكم والأمثال وشواهد اللغة العربية ، وهم يريدون محو كل ماهو عربى من اللغة التركية ، ومن أنفس الأمة التركية ، حتى إنهم ألفوا جمعية خاصة لما عبروا عنه « بتطهير اللغة التركية » من اللغة العربية ، واقترح بعضهم كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية ، و إذا طال أمد نفوذ الملاحدة فى هذا الشعب الاسلامى الكريم فانهم سينفذون هذا الاقتراح قطعا كما نفذوا غيره حتى استبدال قرآن تركى بلغة بعض ملاحدة التورانيين ، بالقرآن الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب خاتم النبيين ، بلسان عربي مبين ،

المتعبد بألفاظه العربية بإجماع المسلمين ، والمعجز ببلاغته العربية لجميع العالمين، وكونه حجة الله تعالى عليهم إلى يوم الدين .

* * *

أرأيت أيها القارىء هذا الخطب العظيم ؟ أرأيت هذا البلاء المبين ؟ أرأيت هذه الجرأة على رب العالمين ؟ أرأيت هذه الصدمة لدين الله القويم؟ أرأيت هذا الشنآن والاحتقار لإجماع المسلمين ؟ ورفض ماجروا عليه مدة ثلاثة عشر قرنا ونصف ؟ ثم أرأيت بعد هذا كله ما كان من تأثيرذلك فى مصر أعرق بلاد الإسلام فى الفنون العربية ، والعلوم الإسلامية .

لقد كان من تأثير ذلك ما هو أقوى البراهين ، على فوضى العلم والدين ، واختلال المنطق وفساد التعليم ، والجهل الفاضح بضروريات الإسلام وشؤون المسلمين ، لقد كان أثر ذلك الجدال والمراء ، وتعارض الآراء والأهواء، وتسويد الصحائف المنشرة ، بمثل ما شوهوها به فى مسألة الخلافة ، وقد كان يجب أن تكون مسألة القرآن أبعد عن أهواء الخلاف ، للنصوص الكثيرة الصريحة فيها، و إجماع السلف والخلف بالعلم والعمل عليها،وعدم شذوذ أصحاب المذاهب والفرق حتى المبتدعة عنها ، فقد كثر الخلاف والتفرق فى الدين ، وتعددت الأحزاب والشيع فى المسلمين ، على ماورد فى النهى عن ذلك والوعيد عليه فى الآيات الصريحة ، والأحاديث الصحيحة ، وارتد بعض الفرق عن الدين ، بضروب من فاسد التأويل ، وسخافات من أباطيل التحريف ، كما فعل زنادقة الباطنية وغيرهم، قبل أن يقووا و يصرحوا بكفرهم ، ولم تقم فرقة تنتمى إلى الإسلام بترجمة القرآن ولا ضلت طائفة بترجمة أذكار الصلاة والأذان ، لأجل الاستغناء بها فى التعبد لله ،عن اللفظ المنزل من عند الله ، وانما قصارى ما وقع من الخلاف فيما حول ذلك من فروع المسأله ، ومن تصوير الفقهاء للوقائع النادرة ، انه إذا أسلم أعجمى مثلا وأردنا تعليمه الصلاة فلم يستطع لسانه أن ينطق بألفاظ الفاتحة فهل يصلى بمعانيها من لغته ، أم يستبدل بها بعض الأذكار العربية المأثورة مؤقتاً ريثما يتعلم القرآن كما ورد فى بعض الأحاديث ،أم يصلى بترجمة الفاتحة بلغته ؟ نقل القول الأخير عن أبى

حنيفة وحده مع مخالفة جميع أصحابه له ، ونقل عنه أنه رجع عنه إلى الاجماع ، وما ينقل عن أحد من المسلمين أنه عمل به ﴿ على أنه لاحجة فى عمل أحد ولا فى قوله ، غير المعصوم ﴾ فكان هذا الاجماع العام المطلق مما يؤيد حفظ الله تعالى للقرآن ، وأراد ملاحدة الترك أن يبطلوه فى هذا الزمان (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * (سورة الصف ٦١: ٩ و١٠)

منشأ فكرة ترجمة القرآن وسببها

لقد كان ضعف الخلافة القرشية بجهل الخلفاء وترفهم وفسقهم سبباً لتفرق المسلمين فتخاذلهم فضعفهم ، إذ كان سبباً لتأسيس عدة دول اسلامية تتنازع السلطة - ولضعف اللغة العربية وترك الأعاجم لها ، فاضطرارهم إلى ترجمة بعض الكتب الدينية وتدريس العربية منها بالترجمة فالشعور بالحاجة إلى ترجمة القرآن نفسه بلغاتهم لأجل فهمه بالاجمال ، ثم بالحاجة إلى ترجمته بسائر اللغات لأجل الدعوة بترجمته إلى الإسلام ، ولما انفردت دولة الترك العثمانيين دون سائر دول الأعاجم الإسلامية بجعل لغتهم رسمية لها ، ثم بادعاء منصب الخلافة لسلطانها ، اقتضى ذلك تعمد هذه الدولة لاضعاف الأمة العربية ولمعاداتها ، ولتفضيل لغة أبناء جنسهم ، على لغة كتاب ربهم وسنة رسولهم ، ثم لتفضيل رابطة جنسهم ولغتهم على رابطة دينهم ، ثم للاستغناء عن هذه بتلك ومن ثم صارت جامعة اللغة والقومية معارضة للجامعة الإسلامية وسببا لمعاداتها . ثم تجدد لدعاة العصبية الجنسية التركية سبب آخر لترجمة القرآن وهو التمهيد به إلى المروق من الإسلام ، ولم يفعل هذا إلا الترك الذين نالوا بالإسلام دون غيره مانالوا من العز والملك الكبير

إن ملاحدة الترك ودعاة العصبية الجنسية منهم قد بثوا فى قومهم فكرة الاستغناء عن القرآن المنزل من الله تعالى باللسان العربي بترجمته باللسان التركى قبل عهد الحرية الدستورية بسنين . وقد أنكرنا هذا عليهم قولا وكتابة ، وأول من سمعنا منه هذا الرأى محمد عبيد الله افندى الذى صار بعد الدستور مبعوثاً

وأنشأ في الاستانة جريدة عربية باللغة العربية لأجل خداع العرب وإضلالهم . سمعت هذا الرأى الفاسد منه في مصر ورددت عليه فيه . ثم سمعته في الاستانة من غيره أيضاً وأنكرته عليهم ، وقد ذكرته في مواضع من مجلد المنار الثالث عشر

(منها) قولنا في (الفتوى ٢٧ ص ٣٤٣ ج ٥ م ١٣ الذي صدر في سلخ جمادى الأولى سنة ١٣٢٧) في سياق تخطئة محمد عبيد الله افندى في ادعائه أن الإسلام نشر بالاكراه عليه بالسيف

« ليست هذه المسألة هي التي شذ فيها وحدها هذا الرجل ، فإن له شذوذاً في مسائل أخرى دينية وتاريخية كادعائه أن نبوة النبي ﷺ ماتمت ولا تتم إلا بترجمة القرآن إلى جميع اللغات ، وكادعائه أن غير العرب من المسلمين يمكنهم الاستغناء في دينهم عن معرفة اللغة العربية ، وعن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى آية العالمين ، معجزاً للبشر على ممر السنين ، بترجمته إلى التركية والفارسية وغيرها من اللغات وإن كان المترجم يترجم حسب فهمه ، فيختلف مع غيره ، فيكون لكل أهل لغة قرآن ، وإن كانت الترجمة لا يمكن أن يتحقق فيها الإعجاز كالقرآن المنزل من عند الله تعالى ، ولا يصح التعبد بتلاوتها ، ولا يتحقق فيها غير ذلك من خصائص القرآن ، وقد سبق لي مناظرة معه في هذه المسألة بمصر منذ سنين اهـ

ومنها — ما ذكرته في (ج ٧ منه ص ٥٤٩) في سياق سمر مع طلعت بك (باشا) ناظر الداخلية بداره في الآستانة : ذكر لي فيه أن هذا الرجل سينشىء جريدة عربيـة لأجل التآلف بين العرب والترك ، فذكرت له أنه يخشى أن يكون تأثيرها زيادة الشقاق لما هو معروف به من كراهة العرب ، وزعمه إمكان استغناء الترك عن لغتهم وعن قرآنهم العربي بترجمته بالتركية الخ وكذلك كان

ومنها — قولنا في مناجاة لله تعالى (في ص ٣٨٤ منه) : اللهم إنك تعلم أن من هؤلاء (أي المفسدين) من يفوق سهام كيده ومكره للأمة العربية التي شرفتها وفضلتها بخاتم أنبيائك ورسلك ، وخير كتبك المنزلة لهداية خلقك ، وخاطبت سلفها الصالح بقولك الحق (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الخ

« اللهم إنهم حسدوها أن جعلت كتابك عربيا مبيناً ، فهم يريدون ترجمته ليكون عرضة لتحريف المحرفين ، واختلاف المتفقين ، اللهم إنك أنزلته لتجمعهم عليه ، وهم يحاولون ترجمته لكل شعب من المسلمين ليتفرقوا فيه ، اللهم إنه حبلك المتين الذى أمرتنا أن نعتصم به ، ولا نتفرق عنه بقولك (٣ : ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهو بيناتك التى قلت فيها (٣ : ١٠٥ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات)

« اللهم إنهم يزعمون أن رسالة خاتم رسلك ما تمت إلى الآن ، وأنها لاتتم إلا بترجمة القرآن ، وأنت قلت وقولك الحق (٥ : ٣ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليهم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً)

ومنها — قولنا فى آخر الفتوى ٣٢ منه (ص ٥٧١) فى سياق الدعوة إلى الاهتداء بالكتاب والسنة : ولا يتم هذا الاهتداء إلا بالعناية باللغة العربية ، ولا شيء أضر على الإسلام فى هذا العصر ممن يدعو إلى ترجمة القرآن إلى اللغات المختلفة ، ليستغنى المسلمون بالترجمة عن القرآن المنزل من عند الله تعالى بلسان عربي مبين . فالغاية من هذه المفسدة إذا وقعت (لاسمح الله) أن يكون الأعاجم من المسلمين عرضة لترك الدين ، وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى ا هـ

وقد راجت دعوة ملاحدة الترك إلى الاستغناء عن كتاب الله المنزل بعد قبض ملاحدة جمعية الاتحاد والترقى على أعنة الدولة العثمانية تمهيداً منهم لما نفذه أندادهم الكماليون من بعدهم من نبذ الدولة التركية لأحكام الإسلام ، وسعيها لسل الشعب التركى منه أيضاً

وقد كان مما نشر الاتحاديون من الكتب الممهدة لهذا السبيل كتاب (قوم جديد) الذى انتقدناه ونشرنا ترجمة بعض مسائله فى المجلد السابع عشر من المنار (سنة ١٣٣٥) والمراد بكلمة قوم جديد انشاء شعب تركى غير مسلم . ومما قلناه فى آخر مقال طويل منه (ص١٦٠ ج ٢ م ١٧) عنوانه (مفاسد المتفرنجين . فى أمر الاجتماع والدين) مانصه :

« يرى هؤلاء العاملون أنه ليس فى طريقهم عقبة تحول دون بلوغ المقصد

بالسرعة التي يبغون من وراء هذا العمل إلا حاجة الترك إلى اللغة العربية لأجل الدين . و يرون أن هذا الدين ولغته مما يعيق تكوين أمة تركية محضة على الطراز الافرنجي الفرنسي ، فاجتهدوا في إزالة هذا المانع بمزيلين .

(أحدهما) ترجمة القرآن بالتركية ودعوة الترك إلى الاستغناء عن القرآن العربي بما سموه القرآن التركي . و إذا استغنوا عن القرآن يستغنون بالأولى عن غيره من كتب الحديث والتفسير والفقه وسائر العلوم والفنون العربية .

(الثاني) نشر الكتب والرسائل التي تجعل الجنسية التركية أعلى وأسمى في النفوس من رابطة الدين تمهيداً للثانية بالأولى ...

(وذكرنا من هذه الكتب كتاب قوم جديد ، وأشرنا إلى بعض مفاسده) ثم نشرنا نموذجا من كتاب (قوم جديد) هذا في (ص ٥٣٩ - ٥٤٤ منه)أوله قوله في (ص ١٤ منه) : يجب تعطيل جميع المساجد والتكايا الموجودة في الآستانة ماعدا الجوامع التي بناها السلاطين [1] وتخصيص نفقاتها بالشئون الحربية والعسكرية ، كما ورد في الآيات الكريمة والاعمال النبوية ، و يليه(؟) قوله في ص ١٥ بفرضية ترجمة القرآن .

ومنه ماذكره من صفات من سماهم (قوم عتيق) من تمسكهم بالصوم والصلاة والحج والزكاة ، والعمل بكتب فقه الأئمة الاربعة التي وصفها بأنها مملوءة بالنفاق والشقاق ، وزعم أن العمل بها غير جائز — ثم قال في صفات (جديد) مانصه :

« وأما القوم الجديد فإنهم لا يبالون بمثل هذه الخرافات القديمة ، بل استخرجوا من الأحكام القرآنية والحديثية الأركان الدينية الآتية (١) العقل (٢) كلمة الشهادة (٣) الأخلاق الحسنة (٤) الجهاد مالا و بدناً والحرب (٥) السعي لاعداد لوازم الحرب . . . الخ . ثم بسطنا هذه المسائل من وسائل ومقاصد في المجلد التاسع عشر . وقد صدّق كل ماقلناه وارتأيناه من مقاصد ملاحدة الترك مافعلته الحكومة الكمالية من إلغاء الأحكام الشرعية كلها ، وجعل جميع سياستها وأحكامها حتى الشخصية مدنية أوربية ، و إلغاء المحاكم

---

(١) [illegible]

الشرعية ، والأوقاف الاسلامية ، والمدارس الدينية ـ دع إلغاء ماعمل باسم الدين من المبتدعات كتكايا أصحاب الطرق مقلدة المتصوفة الخ . صدقوا بالفعل كل ماقلناه من مقاصدهم ، وكان بعض المسلمين الجاهلين بحال الدولة التركية وتأثير التفرنج فيها ينكرون علينا مانقوله عن علم وخبرة وغيرة على الاسلام ظنا منهم أنه إضعاف للدولة حامية الإسلام ، وإنما كان حرصاً على تقوية الدولة بالاسلام وتقوية الإسلام بالدولة ، لأننا نعلم مالا يعلمون من إفضاء هذه الضلالات والعصبية الجنسية إلى إضاعة هؤلاء المتعصبين المفتونين للاسلام والدولة معا ـ وكذلك كان.

وقد كان بعض الترك الروسيين استفتانا فى مسألة الترجمة قبل أن نعلم بهذا الغرض الفاسد فأفتيناه فيها لذاتها إذ لم يكن يخطر ببالنا أن أحداً من المسلمين يتوسل بذلك إلى إخراج شعب اسلامى من الاسلام ـ وهذا نص السؤال والجواب

﴿ فتوى المنار فى حظر ترجمة القرآن ﴾

نشرت فى ص ٢٦٨ ـ ٢٧٤ م ١١ ج ٤ منه المؤرخ ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٢٦

(س ١) من الشيخ أحسن شاه أفندى أحمد (من روسيا)

حضرة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا

نرجو أن تعيروا جانب الالتفات لهذه المسألة المهمة :

ذكر الفاضل أحمد مدحت أفندى من علماء الترك العثمانيين فى كتابه « بشائر صدق نبوت » ماترجمته :

إن ترجمة القرآن مسألة مهمة عند المسلمين وجميع المباحثات التى دارت بشأن ترجمة هذا الكتاب المجيد لم ترس على نتيجة ، وذلك لوجوه (الأول) أن ترجمته بالتمام غير ممكنة لإعجازه من جهة البلاغة (والوجه الثانى) أن فيه كثيراً من الكلمات لايوجد لها مقابل فى اللغة التى يترجم إليها ، فيضطر المترجم إلى الإتيان بما يدل عليها مع شىء من التغيير . ثم إذا نقلت هذه الترجمة إلى لغة أخرى يحدث فيها شىء من التغيير أيضا وهلم جرًّا ، فيخشى من هذا أن يفتح

(والوجه الثالث) أن كلمات الكتب السماوية

يستخرج منها بعض إشارات وأحكام بطريق الحساب ، فإبدالها بالترجمة يسد هذا الطريق ، مثال ذلك أن سعدى جلبي كتب فى حاشيته على البيضاوى عند تفسير سورة الفاتحة أنه إذا أخرجت الحروف المكررة من سورة الفاتحة التى هى أول القرآن وسورة الناس التى هى آخر سورة تكون الحروف الباقية ثلاثة وعشرين قال : وفى ذلك إشارة إلى مدة سنى النبوة المحمدية — فإذا ترجم القرآن لايبقى فى الترجمة مثل هذه الفوائد التى هى من جملة معجزاته انتهى «من إشارات صدق نبوت »

أما أدباؤنا معشر الترك الروسيين ، فإنهم مصرون على ترجمته و يقولون : لامعنى للقول بأنه لايجوز ترجمة القرآن إلا إيجاب بقائه غير مفهوم ، فلذا يذهبون إلى وجوب ترجمته ، وهو الآن يترجم فى مدينة قزان ، وتطبع ترجمته تدريجاً ، وكذلك تشبث بترجمته إلى اللسان التركى زين العابدين حاجى البا كوى أحد فدائية القفقاز ، فنرجو من حضرة الأستاذ التدبر فى هذه المسألة

حرره الامام الحقير أحسن شاه أحمد
الـكاتب الدينى السمارى

(جواب المنار له) إن من تقصير المسلمين فى نشر دينهم أن لايبينوا معانى القرآن لأهل كل لغة بلغتهم ، ولو بترجمة بعضه [1] لأجل دعوة من ليس من أهله اليه ، وإرشاد من يدخل فيه عند الحاجة بقدر الحاجة . و إن من زلزال المسلمين فى دينهم أن يتفرقوا إلى أمم تكون رابطة كل أمة منها جنسية نسبية أو لغوية أو قانونية ، و يهجروا القرآن المنزل من الله تعالى على خاتم رسله ، المعجز بأساوبه و بلاغته وهدايته ، المتعبد بتلاوته ، اكتفاء بأفراد من كل جنس يترجمونه لهم بلغتهم بحسب مايفهم المترجم

هذا الزلزال أثر من آثار جهاد أوربا السياسى والمدنى للمسلمين . زين لنا أن نتفرق ونقسم إلى أجناس ، ظانا كل جنس منا أن فى ذلك حياته ، وما ذلك إلاموت الجميع . ولا نطيل فى هذه المسألة هنا ، ولـكننا نذكر شيئا مما يخطر فى البال من مفاسد هجر المسلمين للقرآن المنزل (بلسان عربى مبين) — استغناء

(١) أقصد بالترجمة هنا المعنوية التفسيرية لاالفظية الحرفية .

عنه بترجمة أعجمية يغنيهم عنها تفسيره بلغتهم ، مع المحافظة على نصه المتواتر المحفوظ من التحريف والتبديل - مع مراعاة الاختصار فنقول :

(١) إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية تطابق الأصل متعذرة كما يعلم من المسائل الآتية ، والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن ، أوفهم من عساه يعتمد هو على فهمه من المفسرين ، وحينئذ لا تكون هذه الترجمة هى القرآن ، وإنما هى فهم رجل للقرآن يخطىء فى فهمه ويصيب ، ولا يحصل بذلك المقصود المراد من الترجمة بالمعنى الذى تنكره

(٢) إن القرآن هو أساس الدين الإسلامى ، بل هو الدين كله ، إذ السنة ليست ديناً إلا من حيث انهـا مبينة له . فالذين يأخذون بترجمته يكون دينهم مافهمه مترجم القرآن لهم ، لا نفس القرآن المنزل من الله تعالى على رسوله محمد ﷺ والاجتهاد بالقياس انما هو فرع عن النص ، والترجمة ليست نصاً من الشارع ، والاجماع عند الجمهور لابد أن يكون له مستند والترجمة ليست مستنداً . فعلى هذا لا يسلم لمن يجعلون ترجمة القرآن قرآنا شىء من أصول الاسلام

(٣) ان القرآن منع التقليد فى الدين وشنع على المقلدين فأخذ الدين من ترجمة القرآن هو تقليد لمترجمه ، فهو إذاً خروج عن هداية القرآن لا اتباع لها

(٤) يلزم من هذا حرمان المقتصرين على هـذه الترجمة مما وصف الله به المؤمنين فى قوله (١٢ : ١٠٨ قل هـذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وأمثالها من الآيات التى تجعل من مزايا المسلم استعمال عقله وفهمه فيما أنزل الله [1]

(٥) كما يلزم حرمانهم من هذه الصفات العالية يلزم منع الاجتهاد والاستنباط من عبارة المترجم ، لأن الاجتهاد فيها مما لا يقول به مسلم

(٦) ان من يعرف لغة القرآن وما يحتاج اليه فى فهمه كالسنة النبوية وتاريخ الجيل الأول الذى ظهر فيه الاسلام يكون مأجورا بالعمل بما يفهمه من القرآن

---

(١) أعني كقوله تعالى فى أول سورة الاعراف (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) والمنزل الينا من ربنا هو القرآن العربى كما صرحت به الآيات ، فاتباع الترجمة مخالف لكل من الأمر والنهى فى هذه الآية

و إن أخطأ فى فهمه ، لأنه بذل جهده فى الاهتداء بما أنزله الله هداية له . كما يعلم ذلك من معاملة النبى ﷺ لأصحابه فيما فهموه من كيفية التيمم إذ عذر المختلفين فى فهمها والعمل بها، ومثله معاملته لهم فيما فهموه من نهيه عن صلاة العصر إلا فى بنى قريظة ، ولذلك شواهد أخرى ولا أخال مسلما يجهل لعبارة . ترجم القرآن هذه المزية

(٧) إن القرآن ينبوع للهداية والمعارف الالهية ، لا تخلق جدته ، ولا تفتأ تتجدد هدايته ، وتفيض للقارىء على حسب استعداده حكمته ، فربما ظهر للمتأخر من حكمه وأسراره مالم يظهر لمن قبله ، تصديقا لعموم حديث « فَرُبَّ مبلغ أوعى من سامع » وترجمته تبطل هذه المزية ، إذ تقيد القارىء بالمعنى الذى صوره المترجم بحسب فهمه ؛ مثال ذلك أن المترجم قد يجعل قوله تعالى (١٥: ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) من المجاز بالاستعارة أى إن اتصال الريح بالسحاب وحدوث المطر عقب ذلك يشبه تلقيح الذكر للأنثى وحدوث الولد بعد ذلك كما فهم بعض المفسرين . فاذا هو جرى على ذلك بأن فرضنا أنه لا يوجد فى اللغة التى يترجم بها لفظ يقوم مقام (لواقح) العربى فى احتمال حقيقته ومجازه إذا أطلق فان القارئين يتقيدون بهذا الفهم ، ويمتنع عليهم أن يفهموا من العبارة ما هى حقيقة فيه ، وهو كون الرياح لواقح بالفعل . إذ هى تحمل مادة اللقاح من ذكور الشجر إلى إناثه ، فان لم ينطبق هذا المثال على القاعدة لتيسر ترجمة الآية ترجمة حرفية ، فان هناك أمثلة أخرى ، وحسبنا أن يكون هذا موضحا . والترجمة تقف بنا عند حدّ من الفهم يعوزنا معه الترقى المطلوب

(٨) ذكر الغزالى فى كتاب « إلجام العوام عن علم الكلام » أن ترجمة آيات الصفات الالهية غير جائزة ، واستدل على ذلك بما هو واضح جدًّا . وقد ذكرنا عبارته فى تفسير (٣: ٦ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمُّ الكتاب وأخر متشابهات) و بين أن الخطأ فى ذلك مدرجة للكفر [1]

(٩) ذكر الغزالى فى الاستدلال على ماتقدم أن من الألفاظ العربية مالا يوجد لها فارسية تطابقها — أى ومثل الفارسية التركية وغيرها — فما الذى

« ١ » راجع ص ٢٢٨ م ٩ او ٢١٤ من الجزء الثالث من التفسير

يفعله المترجم فى مثل هذه الألفاظ ، وهو إن شرحها بحسب فهمه ، ربما يوقع قارىء ترجمته فى اعتقاد مالم يرده القرآن ؟

(١٠) قد ذكر ذلك أيضاً : أن من الألفاظ العربية مالها فارسية تطابقها « لكن ماجرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها لها » فإذا أطلق المترجم اللفظ الفارسى يكون هنا مؤدياً المعنى الحقيقى للفظ العربى . وربما كان مراد الله هو المعنى المجازى ، ومثل الفرس غيرهم من الأعاجم . وهذا المقام من مزلات الأقدام إذا كان الكلام عن الله عزّ وجل وصفاته وأفعاله

(١١) ذكر أيضاً فى هذا المقام . أن من هذه الألفاظ ما يكون مشتركا فى العربية ، ولا يكون فى العجمية كذلك . فقد يختار المترجم غير المراد لله من معنيي المشترك ، ولا يخفى مافيه ، وقد مرّ نظيره آنفاً .

(١٢) من المقرر عند العلماء أنه إذا ظهر دليل قطعى على امتناع ظاهر آية من آيات القرآن فإنه يجب تأويلها حتى تتفق مع ذلك الدليل . والفرق بين تأويل ألفاظ القرآن وتأويل ألفاظ ترجمته لا يخفى على عاقل لاسيما فى الآيات المتشابهة والألفاظ المشتركة

(١٣) إن لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصا فى نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة ، وإذا فات يفوت بفوته خير كثير ، فيا طالما كان جاذبا إلى الاسلام ، حتى قال أحد فلاسفة أوربا وهو فرنسى نسيت اسمه : إن محمداً كان يقرأ القرآن بحال مؤثرة تجذب السامع إلى الإيمان به ، فكان تأثيره أشد من تأثير ماينقل عن غيره من الأنبياء من المعجزات . وحضر الدكتور فارس افندى نمر مرة الاحتفال السنوى لمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالقاهرة ، فافتتح الاحتفال تلميذ بقراءة آيات من القرآن ، فقال لى الدكتور فارس افندى : إن لهذه القراءة تأثيراً عميقاً فى النفس . ثم لما كتب خبر الاحتفال فى جريدته (المقطم) كتب ذلك . فإذا كان لتلاوة القرآن هذا التأثير حتى فى نفس غير المؤمن به ، فكيف نحرم منها المسلمين بترجمة القرآن لهم

(١٤) إذا ترجم التركي والفارسي والهندي والصيني الخ القرآن ، فلا بد أن يكون بين هذه التراجم من الخلاف مثل ما بين تراجم كتب العهد العتيق والعهد الجديد عند النصارى [١] وقد رأينا ما استخرجه لهم صاحب إظهار الحق من الخلافات التي كنا نقرؤها ونحمد الله تعالى أن حفظ كتابنا من مثلها ، فكيف نختارها بعد ذلك لأنفسنا ؟

(١٥) ان القرآن هو الآية الكبرى على نبوة محمد ﷺ ، بل هو الآية الباقية من آيات النبيين . وإنما يظهر كونه آية باقية محفوظا من التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف ، بالنص الذي نقلناه عمن جاء به من عند الله والترجمة ليست كذلك.

هذا ماتراءى لنا من الوجوه المانعة من ترجمته للمسلمين ليكون لهم قرآن أعجمي بدل القرآن العربي ، وإذا كان بعض هذه الوجوه مما يمكن ادخاله في البعض — وإنما ذكر هكذا لزيادة الايضاح — فان هناك وجوها أخرى يمكن استنباطها لمن تأمل وفكر في وقت صفاء الذهن وصحة البدن ، بل منها ماتركناه مع تذكره .

وأما دعوى القائلين بوجوب ترجمته أن عدم جواز الترجمة يستلزم ايجاب بقائه غير مفهوم فهي ممنوعة ، فاننا نقول: إن فهمه سهل ، ولكن ليس لأحد أن يجعل فهمه حجة على غيره فكيف يجعله دينا لشعب برمته ؟ وإن لاهتداء المسلم الأعجمي بالقرآن درجتين — درجة دنيا خاصة بالعوام الذين لا يتيسر لهم طلب العلم فيحفظون الفاتحة وبعض السور القصيرة لأجل قراءتها في الصلاة ويترجم لهم تفسيرها ، وتقرأ أمامهم في مجالس الوعظ بعض الآيات ويذكر لهم تفسيرها ، بلغتهم كما جرى عليه كثير من الأعاجم حتى ببلاد الصين — ودرجة عليا المشتغلين بالعلم وهؤلاء يجب أن يتقنوا لغته ويستقلوا بفهمه مستعينين بكلام المفسرين غير مقلدين لأحد منهم .

ان الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام على أيدي الصحابة الكرام قد فهموا أن للاسلام لغة خاصة به لا بد أن تكون عامة بين أهله ليفهموا كتابه الذي

---

(١) بل يكون الخلاف عندنا أشد لعجز جميع البشر عن ترجمة القرآن دون التوراة والأنجيل .

يدينون به ويهتدون بهديه ، ويعبدون الله بتلاوته ، ولتتحقق بينهم الوحدة المشار إليها بقوله فيه (٢١ : ٩٢ ان هذه أمتكم أمة واحدة) ويكونوا جديرين بأن يعتصموا به وهو حبل الله فلا يتفرقوا ، ولتكمل فيهم اخوة الإسلام التى حتمها عليهم بقوله (٤٩ : ١٠ إنما المؤمنون اخوة) ولذلك انتشرت اللغة العربية فى البلاد التى فتحها الصحابة بسرعة غريبة مع عدم وجود مدارس ولا كتب ولا أساتذة للتعليم ، واستمرت الحال على ذلك فى زمن الأمويين فى الشرق والغرب وفى أول مدة العباسيين حتى صارت العربية لغة الملايين من الاوربيين والبربر والقبط والروم والفرس وغيرهم فى ممالك تمتد من القاموس المحيط الغربى (الاتلانتيك) إلى بلاد الهند ، فهل كان هذا إلا خيراً عظيما تآخت فيه شعوب كثيرة ، وتعاونت على مدنية كانت زينة الأرض ، وضياء ونوراً لأهلها ؟ .

ثم هفا المأمون فى الشرق هفوة سياسية حركت العصبية الجنسية فى الفرس فأنشؤا يتراجعون إلى لغتهم ويعودون إلى جنسيتهم ، وجاء الاتراك ففعلوا بالعصبية الجنسية مافعلوا ، فسقط مقام الخلافة وتمزق شمل الإسلام بقوة ملوك الطوائف . ولكن لم تصل الفتنة بالناس إلى ايجاد قرآن أعجمى للأعاجم وابقاء القرآن العربى المنزل خاصاً بالعرب ، بل بقى الدين والعلم عربيين وراء إمامهما الذى هو القرآن.

فالواجب على دعاة الاصلاح فى الإسلام الآن أن يجتهدوا فى إعادة الوحدة الإسلامية إلى ما كانت عليه فى الصدر الأول خير قرون الإسلام ، وأن يستعينوا على ذلك بالطرق الصناعية فى التعليم ، فيجعلوا تعلم العربية إجبارياً فى جميع مدارس المسلمين ، ويحيوا العلم بالإسلام بطريقة استقلالية لا يتقيدون فيها بآراء المؤلفين فى القرون الماضية المخالفة لطبيعة هذا العصر فى أحوالها المدنية والسياسية . ولكننا نرى بعض المفتونين منا بسياسة أوربا يعاونونها على تقطيع بقية ما ترك الزمان من الروابط الإسلامية بتقوية العصبيات الجنسية حتى صار بعضهم يحاول إغناء بعض شعوبهم عن القرآن المنزل ! : ألا إنها فتنة فى الأرض وفساد كبير وقى الله المسلمين شرها . فهذا ما أقوله الآن فى ترجمة القرآن للمسلمين دون

تفسيره لهم بلغتهم مع بقائه إماماً لهم ، ودون ترجمته لدعوة غـيرهم به إلى الاسلام مع أن المترجم بين المعنى الذى يفهمه هو . انتهت الفتوى

وملخص هذه الفتوى أن ترجمـة القرآن ترجمة حرفية متعذرة ويترتب عليه مفاسد كثيرة ، فهو محظور لا يبيحه الإسلام لأنه جناية عليه وعلى أهله . ولا يجوز أن تسمى الترجمة قرآنا ولا كتاب الله ولا ان يسند شيء منها إليه تعالى فيقال قال الله كذا لان كتاب الله وقرآنه عربى بالنص القطعى والاجماع الشرعى من سلف أهل الملة كلهم وخلفها لا الإجماع الأصولى المختلف فيه ، ولأنها ليس لها شيء من من خصائص القرآن اللفظية ولا المعنوية كالإعجاز ، وهى لابد أن تكون مخالفة له فى المعنى كمخالفتها فى اللفظ فاسنادها إليه تعالى كذب عليه وكفر بكتابه . بل أجمع المسلمون على أنه لايجوز إبدال لفظ من ألفاظ المصحف بلفظ آخر يرادفه من من اللغة العربية ككلمتى «شك ، وريب» فى قوله تعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه) وأما الترجمة المعنوية التى هى عبارة عن تفسير مايحتاج إلى تفسيره منه بلغة أخرى فغير محرم ، وإنما تتبع فيه المصلحة الشرعية بقدرها

﴿أقوال الفقهاء فى المسألة﴾

﴿ ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير اللغة العربية ﴾ (١)

المعول عليه عند الأئمة وسائر العلماء أنه لايجوز كتابة القرآن ولا قراءته ولا ترجمته بغـير العربية مطلقا ، إلا فيما نقل عن أبى حنيفة وصاحبيه من جواز قراءة القرآن بالفارسية فى خصوص الصلاة ، وإليك بعض النصوص فى ذلك :

قال شيخ الاسلام أبو الحسن المرغينانى الحنفى فى التجنيس : ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالاجماع ، لأنه يؤدى إلى الاخـلال بحفظ القرآن ، لأنا أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى فانه دلالة على النبوة، ولأنه يؤدى إلى التهاون بأمر القرآن اه

وقال فى معراج الدراية : من تعمد قراءة القرآن أو كتابته بالفارسية فهو

---

(١) نقلنا هذا الفصل من رسالة للأستاذ الشيخ محمد حسنين العدوى أحد كبار علماء الأزهر

مجنون أو زنديق ، والمجنون يداوى ، والزنديق يقتل ، وروى ذلك عن أبى بكر محمد بن الفضل البخارى اهـ

وفى الدراية : ان القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً بالإجماع ، وقد أنزل حجة على النبوة ، وعلماً على الهدى ، والهدى بمعناه ، والحجة بنظمه . وكما ان الاخلال بالمعنى يسقط حكم القراءة ، كذلك الاخلال بالنظم ، ولأن حفظ القرآن واجب فى الجملة ليكون حجة على الحكم ، ولا قراءة تجب إلا فى الصلاة ، فعلم أنها متعلقة بعين ماأنزل ليقع الحفظ بها اهـ

وروى عن الإمام أبى حنيفة كما فى الهداية وغيرها : جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة مطلقا ؛ وعن الصاحبين : إذا كان لايحسن العربية ، أما إذا كان يحسنها فلا يجوز ؛ وتفسد صلاته إذا قرأ بغير العربية

وروى أبو بكر الرازى : رجوع الإمام إلى قولهما وعليه الاعتماد — وقال الامام الزاهدى فى الجامع الصغير : ان مانقل عن أبى حنيفه وصاحبيه من أن القراءة بالفارسية تفسد الصلاة لمن قدر على العربية ، أما عند العجز فلا فساد (محله) إذا قرأ بالفارسية كل لفظ بما هو فى معناه من غير أن يزيد فيه شيئاً . أما إذا قرأ على سبيل التفسير فتفسد صلاته بالاجماع اهـ

وهو تقييد حسن ، لأنه حينئذ يكون متكلما بكلام غير القرآن من كلام الناس وهو مفسد للصلاة

وأصل الاختلاف فى ذلك كما فى بدائع الصنائع وأحكام القرآن لحجة الإسلام الجصاص قوله تعالى (فاقرؤا ماتيسر من القرآن) حيث أمر بالقراءة ، والأمر للوجوب ، ولا موضع لوجوب القراءة غير الصلاة ؛ فوجب أن يكون المراد القراءة فى الصلاة ، فذهب الصاحبان إلى أنه إذا قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية ، فقد قرأ ماليس بقرآن ، فقد خرج عن عهدة الأمر : لأن الفارسى ليس قرآنا ، والقرآن هو المنزل بلغة العرب ، قال تعالى (إنا أنزلناه قرآنا عربيا) وأيضاً فالقرآن هو المعجز ، والاعجاز من جهة اللفظ يزول بزوال النظم العربى ، فلا يكون الفارسى قرآنا لانعدام الاعجاز ؛ ولهذا لم تحرم قراءته على

الجنب والحائض ، غير أنه إذا كان لا يحسن العربية ، فقد عجز عن مراعاة لفظه فيجب عليه مراعاة معناه ليكون التكليف بحسب الإمكان اهـ — والمراد مطلق المعنى ، وإلا فمعنى النظم المعجز لا تؤديه الترجمة كما هو ظاهر

ولا يعنينا الآن بيان وجه استدلال الإمام بالآية على ماذهب اليه بعد أن صح رجوعه إلى قول الصاحبين

فظهر أن قول الثلاثة بجواز قراءة القرآن بغير العربية فى الصلاة لمن لا يحسنها ليس مبناه أن الترجمة تصير قرآنا عند العجز عن أدائه بالعربية ، فيفرض عليه ذلك فى هذه الحالة ، بل المفروض عليه حينئذ تعلم العربى ، لأنه القرآن المأمور به فى الصلاة ، وإنما هو مبني على الاكتفاء بالمعنى فى حقه لعجزه ، ولأنه الميسور له من معنى القرآن الذى هو مجموع النظم والمعنى المأمور به فى الصلاة . ولما كان أداء المفروض موقوفا على النظم العربي ، وليس ذلك ميسورا له أتى بالترجمة بدلا عنه لتقوم مقامه فى أداء المعنى المفروض ، مع أنها ليست قرآناً ، لأن القرآن هو كلام الله ، المنزل بلغــة العرب ، والترجمة ليست كذلك — وفى الدراية : قراءة غير العربى تسمى قرآناً مجازاً . ألا ترى أنه يصح نفى القرآن عنه فيقال : ليس بقرآن وإنما هو ترجمته ، وإنما جوزناه للعاجز إذا لم يخل بالمعنى ، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى ، فالإتيان به أولى من الترك مطلقا ، إذ التكليف بحسب الوسع اهـ

وظاهر أن مسألة القراءة فى الصلاة شىء ، ومسألة ترجمة القرآن وقراءته بغير اللغة العربية مطلقا شىء آخر . والكلام فى الثانى دون الأول ، ولا يلزم من جواز الأول على فرض تسليمه جواز الثانى ، حتى ينسب إلى الإمام وصاحبيه القول بجواز ترجمة القرآن وقراءته خارج الصلاة ، وكتابته بغير اللغة العربية ، وكيف ذلك وقد أجمعت كتبهم على أن الخلاف فى خصوص الصلاة . وأصله أن الأمر بالقراءة إنما هو فى الصلاة دون غيرها كما أطبقوا على أنه المراد فى قوله تعالى (فاقرؤا ماتيسر من القرآن) والقرآن المعروف هو اللفظ المنزل بلغة العرب خاصة

وفى شرح أصول البزدوي للإمام عبد العزيز بن أحمد البخارى الحنفى

والقرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً فى قول عامة العلماء ، وهو الصحيح من قول أبى حنيفة ، إلا أنه لم يجعل النظم ركناً لازماً فى جواز الصلاة خاصة ، وإنما هو لازم فيما سواه من الأحكام الأخرى ، كوجوب الاعتقاد ، وحرمة كتابة المصحف بالفارسية ، وحرمة المداومة والاعتياد على القراءة بها اهـ

وقد نقل أن الامام رجع عن هذا القول فى الصلاة أيضاً إلى القول بعدم جواز الصلاة بالفارسية مطلقا ، فيكون النظم ركنا لازما عنده فى كل حالة كما ذكره العلامة الألوسى فى تفسيره عند قوله (وإنه لفى زبر الأولين) بناء على عود الضمير إلى القرآن باعتبار معناه. وفى رواية عنه تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية. وفى أخرى إنها إنما تجوز بالفارسية فى الصلاة للعاجز عن العربية. وقد صح رجوعه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقا جمع من الثقات المحققين لضعف الاستدلال بهذه الآية عليه كما لا يخفى ؛ فان الظاهر عود الضمير فى الآية على القرآن بتقديم مضاف أى وإن ذكر القرآن لفى الكتب المتقدمة . وهذا كما يقال إن فلاناً فى دفتر الأمير اهـ ملخصاً

ومن هذا يعلم مافى استدلال بعضهم بقول الامام على جواز ترجمة القرآن بأى لغة خارج الصلاة وداخلها للقادر والعاجز ، لأنه على رواية التخصيص بالفارسية لا تجوز بغيرها مطلقا ، وعلى رواية رجوعه الى قول صاحبيه لا تجوز خارج الصلاة مطلقاً ، ولا للقادر فى الصلاة ، وعلى رواية الثقات عنه : لا تجوز مطلقا بغير العربية فى الصلاة وغيرها للقادر والعاجز . والمعول عليه رأيه الأخير الذى صح رجوعه إليه كما هو رأى الجماعة ، فكيف يصح الاستدلال بقوله على جواز ترجمة القرآن مطلقا ؟ اهـ (ص ٣١-٣٦)

ثم قال فى فصل آخر (ص ٣٩)

« ومذهب الشافعية عدم جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة مطلقا سواء كان يحسن العربية أو لا يحسنها ، وفى فتاوى شيخ الاسلام ابن حجر [1] من أئمة

---

(١) يريد أحمد بن حجر الهيتمى الفقيه ولم يلقب بشيخ الاسلام وإنما لقب به [illegible] أيضاً

الشافعية ـ وقد سئل هل تحرم كتابة القرآن بالعجمية كقراءته ؟ فأجاب بقوله :
قضية مافى المجموع عن الأصحاب التحريم . ووجهه بما لايخرج عما قدمناه فراجعه ،

« وقال الإمام الزركشى من أئمة الشافعية رحمه الله : الأقرب المنع من كتابة القرآن بالفارسية كما تحرم قراءته بغير لغة العرب ، وفى شرح العباب أن كتابة القرآن العظيم بالعجمى تصرف فى اللفظ المعجز الذى حصل به التحدى بما لم يرد بل بما يوهم عدم الاعجاز بل بالركاكة لأن الألفاظ العجمية فيهـا تقديم المضاف إليه على المضاف ، وذلك مما يخل بالنظم و يشوش الفهم ، وقد صرحوا بأن الترتيب مناط الاعجاز . وهو ظاهر فى حرمة تقديم آية على آية يعنى أو كلمة على كلمة كما يحرم ذلك قراءة اه

« بل نصوا على أن فى ترتيب حروف الكلمات القرآنية ومراعاة التناسب فيما بينها من الصفات من وجوه الاعجاز مالا يقدر أحد من البشر على الاتيان بمثله فضلا عما فى ترتيب الكلمات والجمل من اللطائف والأسرار مما لايحوم حول بيانه لسان أو دركه جنان

« ومع اتفاقهم على عدم جواز كتابة القرآن بغير العربية اختلفوا فيما إذا كتب بغيرها : هل يحرم مسه وحمله للحائض والجنب ؟ ذهب الجمهور إلى الجواز لأنه ليس بقرآن ونقل العلامة الشوبرى عن الشافعية أن القرآن إذا كتب بغير العربية يحرم مسه وحمله للحائض والجنب إذ لايخرج بذلك عن كونه قرآنا والا لم تحرم كتابته اه ولعل المراد به أنه لم يخرج بذلك عن كونه متضمنا معنى القرآن بقدر ماتسعه أوضاع اللغة المكتوب بها وان خرج عن نظمه وأسلوبه ، وإعطاؤها حكم القرآن حملا ومسا عندهم إنمـا هو احترام لهذا القدر و إلحاق لنقوش الرسم العجمى بالرسم المخطوط العربى مع مرعاة جانب المعنى فى الجملة

« ولم يلاحظ مثل ذلك فى التفسير مع أن نظم القرآن موجود فيه متخلل بين سطوره لم يطرأ عليـه تغيير ولا تبديل نظراً إلى أن المجموع المركب من القرآن وغيره لايطلق عليه اسم القرآن ولا ترجمته بل يسمى تفسيراً فقط ، والغالب أن تكون ألفاظه أكثر من ألفاظ القرآن فروعى جانبه فى الحكم كما روعى فى التسمية ،

والكتابة بغير العربية وان لم يكن نظم القرآن موجوداً فيهما بذاته ولا هى دالة عليه بهيئته ولكن لوضع نقشه مكان النقش الدال عليه واقامته مقامه نزل منزلته

« والحاصل أن الرسوم الكتابية لما كانت كلها من وضع البشر لا فرق بين عربى وغيره أعطيت حكما واحداً حملا ومسا بخلاف الألفاظ فان نظم القرآن من وضع الله تعالى وماعداه من صنع البشر ، فلذلك لم ينزّل غير النظم المعجز منزلته قراءة وتعبداً ، ونزل الرسم غير العربي منزلة العربي حملا ومساً عند هذه الطائفة

« ومذهب الحنابلة أن الصلاة تفسد بالقراءة بالفارسية ونحوها عند العجز وعدمه وهو يدل على منع قراءة القرآن وكتابته بغير العربية مطلقا

« ومذهب المالكية أنه لاتجوز قراءة القرآن وكتابته بغير العربية ولذلك أوجبوا تعلم الفاتحة على من لايحسن قراءتها فى الصلاة بالعربية ان أمكن وإلا ائتم بمن يحسنها فان لم يكن فالمختار سقوطها وسقوط القيام لها وقيل يجب قيامه بقدر ماتيسر من الذكر

« إذا علمت هذا فالمعول عليه عند جميع الأئمة أنه لاتجوز كتابة القرآن ولا قراءته بغير العربية لعاجز أو قادر لا فى الصلاة ولا خارجها إلا ما تقدم عن السادة الحنفية فى خصوص الصلاة للعاجز عن العربية وقد علمت مافيه وتصحيح الثقات رجوع الإمام عنه

« ومن ذلك تعلم ما فى قول صاحب الكافى من علماء الحنفية (أن اعتاد القراءة بالفارسية أو أراد أن يكتب مصحفا بها يمنع وان فعل فى آية أو آيتين لافان كتب القرآن وتفسير كل حرف وترجمته جاز) اهـ

« فانه ان أراد بالترجمة الترجمة الحرفية للقرآن فقد علمت أنهما لا تجوز مطلقا ذكر معها تفسير أو لم يذكر لأنها تحريف وتغيير للنظم لا يدفعه اقتران التفسير به وان أراد الترجمة التفسيرية فهذه جائزة مطلقاً بالشرط الذى بيناه وليست ترجمة القرآن ، على أن نصوص الفقهاء من الحنفية وغيرهم تخالفه

وللذلك أفتى صاحب الفضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر بمنع ترجمة القرآن ووجوب مصادرة المصحف المشتمل على الترجمة الحرفية وان كان معها ترجمة

تفسيرية [1]

« وما يتوهم من جواز الترجمة الحرفية أخذا من ظاهر قوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فليس بصحيح لأن المعنى كما ذكره الألوسي وغيره أن المشرك إذا طلب الأمان بعد انقضاء الأجل المضروب يؤمن حتى يتدبر الأمر ويتعظ بما يدعى إليه من هدى الإسلام ، فإن كان من العرب تتلى عليه آيات الله وكلامه لأنه من أعرف الناس بدلالتها وأعلمهم ببراعة أسلوبها وبلاغة نظمها ، وكثير منهم كانوا إذا سمعوا القرآن خروا له سجدا وهم صاغرون ، وآمنوا به وهم لإعجازه مذعنون ، وإن كان من غير العرب الذين لا يعرفون اللغة العربية يبين له ما يرشده للحق ويهديه إلى الصراط المستقيم لا بخصوص كلام الله تعالى

واقتصر في الآية على ذكر السماع لأنها مسوقة لبيان حال مشركي العرب وهم من أهل اللسن والبلاغة ، وإن كان لفظها يتناولهم وغيرهم من المشركين والمراد حتى ينصاعوا لطاعة الله ورسوله.

« وقد علمت مما سلف حكم ترجمة كتبه ﷺ وأن بعثها إلى الكفار مشتملة على بعض الآيات القرآنية لا ينهض دليلا على جواز الترجمة الحرفية للقرآن الكريم لجواز أن يكون ترجمة ما وقع فيها من نحو الآية والآيتين ترجمة تفسيرية لا حرفية ولو سلم أنها حرفية فهي لم تذكر في الكتب على أنها من نظم القرآن ولا قصد بها تلاوته بل سيقت الدعوة إلى حكمها ضمن كتبه عليه الصلاة والسلام اهـ

---

(١) يعني الترجمة الانكليزية الحديثة لبعض الهنود المطبوعة مع المصحف الشريف فقد جاءت نسخ منها إلى مصر ، فسألت الحكومة مشيخة الأزهر عنها فأفتى شيخ الأزهر بما ذكر فمنعت الحكومة إدخال الترجمة إلى الديار المصرية ، وسبق مثل هذا في بيروت ، فقد أرسل إليها بعض النسخ من هذه المصاحف المطبوعة مع الترجمة الانكليزية فأرسلتها إدارة الجمرك إلى مفتي بيروت حسب النظام المتبع فأفتى بمنعها فمنعت

﴿ شبهات من أباح ترجمة القرآن فى هذا الزمان ﴾

قد كان مما نشكو من فوضى العلم والدين فى هـذا الزمان : أن بعض الناس كتبوا مقالات فى الجرائد خالفوا فيها جماعة المسلمين منذ ظهور الاسـلام إلى اليوم فزعموا أن ترجمة القرآن مباحة : وجاءوا بشبهات يحتجون بها على رأيهم ، بعضها آراء لهم ، و بعضها أقوال من الكتب لم يفهموها ، فهى لا تدل على زعمهم ، ولو دلت عليها لم تكن حجة ، لأنها كآرائهم ، وما كان لأحد أن ينقض برأيه بناء رفع سمكه القرآن ، وأجمعت عليه الأمة قولا وعملا

(الشبهة الأولى) ما استدل به بعض الحنفية لامامهم على قوله الذى كان خطر له ، ثم رجع عنه لظهور بطلانه له ، كما أنه لم يتابعه عليه أصحابه ، ولا عمل به أحد من أتباعه . أعنى ماسبقت الاشارة اليه مرارا من جواز قراءة العاجز عن النطق بالعربية لما عجز عنه من القرآن فى الصلاة بالفارسية ، أعنى بما استدل له بقوله تعالى فى سورة الشعراء (و إنه لفى زُبُر الأولين) قال الزمخشرى فى كشافه فى تفسيرها و إن القرآن ـ يعنى ذكره مثبت فى سائر الـكتب السماوية . وقيل : إن معانيه فيها ، و به يحتج لأبى حنيفة فى جواز القراءة بالفارسية فى الصلاة حيث قيل : (و إنه لفى زُبُر الأولين لـكون معانيه فيها اهـ . ونقله عنـه آخرون كصاحب التفسيرات الأحمدية . وصاحب فتح البيان ، ونقله عنهم فى هذه الأيام بعض الأزهريين فى الجرائد عند مادار الجدال فى حكم ترجمة القرآن باللغات الأعجمية وادّعى أن الزمخشرى فهم هذا من الآية

ونقول فى رد هذه الشبهة (أولا) إن الزمخشرى لم يفهم هذا من الآية ، بل فهم غيره ، ونقله بصيغة التمريض والتضعيف «قيل» وانما الذى فهمه واعتمده ماقبله ، ولعله لولا عادة المنتمين إلى مذهب مجتهد لحـكاية كل مايؤيدقوله من قوى وضعيف لم ينقله ولو بصيغة التمريض ، وله كثير من النقول الضعيفة التى لا يحمل تبعتها لاشارته إلى ضعفها

(ثانياً) أن سبب اشارته إلى ضعفه هو أن تفسير المعانى بما ذكروه ظاهر البطلان لا يمكن أن يريده الامام أبو حنيفة ، ولا من دونه فى علم اللغة والدين، أعنى أن تكون معانيه هى مدلول كلمة القرآن كله أو بعضه ، بأن تكون سورة الفاتحة الواجبة فى الصلاة — وهى موضوع مسألة أبى حنيفة قبل كل شىء — موجودة فى التوراة بهذا النظم والترتيب ، ولكن بألفاظ عبرانية ، إذ لو كان الأمر كذلك لكان القرآن ترجمة للتوراة ، وصح أن يقال : إنه هو التوراة ، ولا نطيل فى بيان وجوه فساد هذا القول و بطلانه ، وما كان يترتب عليه لو كان مرادا من الأباطيل كاحتجاج اليهود وغيرهم على النبى ﷺ بأنه لم يأت بكتاب جديد من عند الله بل بترجمة بعض التوراة .

(ثالثاً) إن فرضنا أن هذا مراد فى بعض القرآن كقصة موسى التى فى سورة الشعراء أو مطلقا دون الفاتحة ، ومثل قصة بدر وأحد ، وأن من قرأ قصة موسى فى سورة الشعراء يصح أن يقول : قرأت التوراة مترجمة بالعربية، فإن هذا على كونه — ليس بصحيح أيضاً على حقيقته — لا يدل على جواز ترجمة القرآن كله كما أن الذى يقرأ القصة فى سفر الخروج من التوراة لا يصح أن يقول : قرأت القرآن ، الذى هو موضوع الخلاف . و إنما قصارى ما يدل عليه أن تجوز قراءة عبارة التوراة الموافقة للقرآن فى الصلاة ، وأن يقاس عليها جواز ترجمتها بالفارسية مثلا ، ولم يقل بالأصل أبو حنيفة ولا غيره من علماء المسلمين حتى يصح قياسهم عليه . وههنا مجال واسع للتجهيل والسخرية بمن يتهوكون مثل هذا التهوك الذى نحن بصدده ، و ينشرونه على الناس فى مسألة عظيمة كهذه نتركه عفواً عنهم .

(رابعاً) اتفق السلف والخلف من علماء التفسير على أن الكلام فى الآية يقدر فيه مضاف قبل ضمير القرآن ومضاف قبل زُبر الأولين — كما قال ابن جرير — والمعنى وإن ذكره أو خبره أو دليل صدقه — مثلا — لثابت فى بعض زُبر الأولين. ولهم فى الضمير قولان (أحدهما) أنه القرآن — وهو المتبادر من السياق قبله — والثانى أنه النبى (ص) كما قال (يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل)

(خامسا) ان الذى يوجد من معانى القرآن فى كتب الرسل الأولين قسمان (أحدهما) عام يوجد فيها كلها ، وهو أصول الدين الإلهى المطلق من الايمان بالله تعالى وعبادته وحده ، والايمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح وما يقابل ذلك من الزجر عن الشرك والمعاصى والرذائل — ويصح حمل الآية عليه على حد قوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً) الخ (والثانى) خاص وهو الأقرب إلى السياق سابقه ولاحقه ، وهو أن المراد مافى هذه السورة وأمثالها من قصة موسى وكذا غيره من الرسل عليهم السلام التى كانت مجهولة عند النبي ﷺ وقومه وأهل بلده خاصة ، ولذلك قال بعدها (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل) كما قال عقب قصة موسى فى سورة القصص مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم محتجا على صدق ماجاء به (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) الآيات

فهل يصح الذى علم أو فهم أن يقول فى الآية إنها تدل على جواز ترجمة القرآن بالفارسية أو غيرها ، وان الترجمة مع هذا تسمى قرآنا ، وكلام الله ، ويتعبد بها ، خلافا لنصوص القرآن القطعية ، ولاجماع الأمة منذ وجد الاسلام ، إلى اليوم ؟؟ لك أن تقول : إن فوضى العلم والدين : يصح معها ماهو أبعد من هذا عن العلم والفهم ، كما صح لعالم أزهرى أن يقول: إن الزمخشرى رجح القول الذى رأيت أنه حكاه حكاية بصيغة التضعيف ، وأنه ليس فى سياق الآية ولا فى قواعد اللغة ما يمنع هذا التفسير . وقد علمت قطعاً أن سياق الآية والمتبادر من اللغة يمنع ذلك !!!

﴿الشبهة الثانية﴾ قول هذا الأزهرى « وإن رجعنا إلى قول الفقهاء — لأن الجواز وعدمه من مباحثهم — رأينا الإمام الشافعى روى عنه فى الأم أن الأعجمى أن ينطق بالقرآن مترجما إلى غير العربية فى الصلاة ، وأن ماينطق به إذا أراد القراءة به صحت صلاته ، وعنده ماينطق به قراءة وقرآنا . وأنه يجوز وجود جماعة تصلى فى مسجد يقرأ الإمام فى تلك الصلاة بلسان أعجمى ، ويقرأ المؤتمون به بلسان أعجمى ، كذلك أم القرآن وغيرها من السور ماداموا لايحسنون العربية » اه

ياللعجب ويالفوضى ! الامام الشافعى يجيز للأعجمى أن يقرأ القرآن فى

الصلاة مترجما إلى غير العربية ويسمى الترجمة قرآنا ؟ الامام الشافعى يجوز إقامة صلاة الجماعة العامة فى المسجد بإمام يقرأ بلسان أعجمى ، وجماعة يقرؤون بلسان أعجمى ، سواء فى ذلك أم القرآن وغيرها من السور ؟ وماذا بقى ؟ إذا كان الشافعى يجيز قراءة القرآن فى الصلاة باللسان الأعجمى للامام وللجماعة وللأفراد بمثل هذا الاطلاق الذى حكاه هذا العالم الأزهرى عن الأم ، فما معنى ذلك البيان المفصل الذى أورده فى رسالته فى الأصول فى إثبات كون القرآن عربياً ، وأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم العربية ليقرأه بها فى الصلاة كما أنزله الله الخ ؟ ؟ .

(والجواب) عن هذه الشبهة أن صاحبها تقوّل على الشافعى ما لم يقل ، على أنه كان قد نقل بعض عبارته بتصرف ، ثم فسرها بما نقلناه عنه ، فقصر فى النقل ، وأخطأ فى الفهم ، ولا نتهمه بتعمد التقوّل على الإمام الشافعى ، وهذا نص عبارة الأم :

« فان أمّ أعجمى أو لحّان فأفصح بأمّ القرآن ، أو لحن لحناً لا يحيل معنى شىء منها أجزأته وأجزأتهم ، وإن لحن فيها لحناً يحيل معنى شىء منها لم تجز من خلفه صلاتهم ، وأجزأته إذا لم يحسن غيره ، كما يجزيه أن يصلى بلا قراءة إذا لم يحسن القراءة . ومثل هذا إن لفظ منها بشىء بالأعجمية وهو لا يحسن غيره أجزأته صلاته ، ولم تجز من خلفه ، قرؤا معه أو لم يقرؤا ، وإذا ائتموا به فان أقاما معاً أمّ القرآن أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمى فى شىء من القرآن غيرها أجزأته ومن خلفه صلاتهم إذا كان أراد القراءة لما نطق به من عجمة ولحن . فان أراد به كلاماً غير القراءة فسدت صلاته ، فان ائتموا به فسدت صلاتهم » اهـ

ذكرت هذه الأحكام فى الأم فى فصل عنوانه (إمامة الأعجمى) والأعجمى كالأعجم من فى لسانه لكنة وفهاهة ، سواء كان عربياً أو عجمياً ، وضده الفصيح الجيد النطق كما فى المصباح وغيره . وحكم الأعجمى أنه يغتفر له ما ذكر آنفاً من اللحن فى الصلاة منفرداً وإماماً أو منفرداً فقط ، كما يغتفر ترك القراءة فيها مطلقاً لمن لا يحسنها . وقوله الأخير الذى لم يفهمه الناقل فكان محل الشبهة وهو « وإذا ائتموا به » الخ ، معناه أن الأعجمى الذى لا يحسن القراءة إذا أمّ مثله

فأقاما معاً أم القرآن أى أحسن كل من الإمام والمأموم قراءة الفاتحة ، أو لحنا جميعاً فى غير الفاتحة ، أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمى فى شىء من القرآن غير الفاتحه كانت صلاة كل منهما صحيحة ، لأن اللحن والعجمة والرطانة الأعجمية فى غير الفاتحة لاتبطل الامامة ولا الصلاة، إذ ركن القراءة فى الصلاة هو الفاتحة ، وما عداه من القرآن فهو مستحب لافرض ولا واجب — وليس عند الشافعى فى الصلاة واجب غير فرض — والمفروض أن ماذكر من النطق بالأعجمية أو باللسان الأعجمى فى غير الفاتحة سببه العجز عن القراءة الفصيحة لا التلاعب ولا قصد غير القراءة ، وإلا بطلت صلاتهما .

ولا يدخل فى هذا الباب شىء من تعمد ترجمة القرآن والاستغناء بالعجمى المترجم به عن القرآن العربى المنزل من عند الله تعالى ، وتسميته قرآنا . كيف وقد صرح الشافعى فى الرسالة بوجوب قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها بالعربية كما أنزله الله تعالى ، وبوجوب أداء سائر الأذكار المأمور بها بالعربية أيضاً . وبوجوب تعلم العربية على كل مسلم لذلك . وهذا نص عبارته (كما فى ص ٩ من الطبعة الأميرية التى مع كتاب الأم له) :

« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب مابلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك » الخ .

هذا نص الشافعى بعد أن أطال فى كون كل مافى القرآن عربى ، وكتب مذهبه متفقة فى المسألة كسائر كتب المسلمين وأتباعه أشدهم فيها — أليس من العجيب مع هذا أن يتجرأ عالم أزهرى فيعزو إلى رواية الأم عن الشافعى ماياتى على إطلاقه .

(١) إن للأعجمى أن ينطق بالقرآن مترجما إلى غير العربية فى الصلاة .

(٢) وإن ما ينطق به إذا أراد القراءة به صحت صلاته وعد ما ينطق قراءة وقرآنا .

(٣ و ٤) وإنه يجوز وجود جماعة تصلى فى مسجد يقرأ الامام فى تلك الصلاة

بلسان أعجمى أم القرآن وغيرها من السور ماداموا لا يحسنون العربية

أين ذكر الشافعى الترجمة وأباحها للاعجمى ؟ اللهم هذا افتراء عليه

أين أجاز الشافعى إقامة الجماعة فى مسجد يقرأ إمامه فيها الفاتحة وغيرها بلسان أعجمى الخ ؟ وعبارته المنقولة عنه آنفا صريحة فى كون عجز الأعجمى عن الافصاح ولو ببعض الفاتحة عذراً له دون من يصلى خلفه ، فانهم لا تصح صلاتهم معه . وعدم الإفصاح بالألفاظ العربية شيء والترجمة بلسان عجمى شيء آخر

وجملة القول أن عبارة الإمام الشافعى فى هذا المقام خاصة بمن لا يحسن النطق بالقرآن ، وما يعذر به وما لا يعذر به هو ومن يأتم به . ومثل هذا العجز معهود فى كل زمان نسمعه بآذاننا ممن يتعلمون لغة غير لغتهم ولا يتقنونها من العرب أو العجم ؛ فهم يحرفون و يلحنون و يخلطون ألفاظا من اللغة التى يجيدونها باللغة التى لا يجيدونها بغير اختيار . ونعيد القول ونؤكده بأن تعمد ترجمة القرآن والقراءة به لا تدخل فى شيء من كلام الامام ، ولم تخطر ببال أحد من اتباعه فى مذهبه عندما شرحوا كلامه، وفصلوا أحكامه، ولا تخطر ببال أى قارىء له يفهم ما يقرأ

﴿ الشبهة الثالثة ﴾ ان الدلائل على وجوب فهم القرآن فى الصلاة وتدبره فيها وفى خارجها صريحة والآيات الواردة فيها محكمة ، ولا يتم أداء هذا الواجب إلا بترجمة القرآن بلغات جميع الشعوب العجمية التى تدين بالإسلام . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

والجواب عن هذه الشبهة من وجهين (أحدهما) ان الفهم والتدبر وما يراد بهما من الخشوع والاعتبار إنما يتم بتعلم المسلمين لغة الكتاب الآلهى لا بتحويل الكتاب الآلهى إلى لغاتهم كلها كما فصله الإمام الشافعى فى رسالة الأصول وأقره جميع المسلمين لسبق الاجماع وجريان العمل على ذلك فى الصدر الأول . ويؤكده أن ترجمة القرآن ترجمة صحيحة تؤدى ما فيه من المعانى والتأثير كما أراد الله تعالى متعذرة ومستلزمة لتغيير كلام الله ، وهذا دليل وسند الاجماع على تحريمها فتعين أن يكون المسلمون تابعين لما أنزل الله تعالى دون أن يكون ما أنزله تعالى تابعاً لغاتهم . ولا يعقل أن يؤثر المؤمن بالله و بكتابه ورسوله لغة قومه على لغة

كتاب الله ورسوله ، ولهذا كان قدماء العجم من المسلمين يزاحمون العرب بالمناكب في تلقي العربية من أعراب البادية وفي جميع علومها وفنونها وآدابها كعلوم الشريعة نفسها ، وذلك أن إيمانهم كان برهانيا وجدانيا ، وما أحدث التنافس بين لغة الدين الذي عليه مدار سعادة الدارين ولغة الآباء من العجم إلا بعض زنادقة الفرس الأولين وملاحدة الترك المتأخرين . وأما قدماء مسلمي الترك الذين أعرضوا عن العربية وفنونها فكانت آفتهم الجهل ، فالخوف من عودة السلطان والسيادة إلى العرب — وهذا هو الذي أعدهم لقبول دسائس الافرنج بالدعوة إلى عصبية الجنس واللغة التي قوضت سلطنتهم (امبراطوريتهم) العظمى بجهلهم

﴿ ثانيهما ﴾ ان مالا بد منه من التلاوة في الصلاة وهو الفاتحة وبعض الآيات أو السور القصيرة يمكن أن يفسر لكل مسلم بحفظه تفسيراً يتمكن به من فهم معناه والاعتبار به ، فهو لا يتوقف على ترجمته وتسميتها كلام الله كذبا على الله وخلافا لنص كتاب الله واجماع المسلمين — فضلا عن ترجمة جميع القرآن كذلك

﴿ الشبهة الرابعة ﴾ مسألة تبليغ الدعوة إلى الإسلام وقد بينا بطلانها من قبل ، ونزيدها هنا بيانا فنقول :

لئن كان اطلاع بعض الأفراد من أعاجم الشرق والغرب على ترجمة القرآن سبباً لاسلامهم، فعلته أنهم عرفوا منها أصول الإسلام ومقاصده كلها أو بعضها ، وذلك كاف لتفضيله على غيره من الأديان كلها ، ولم يكن سببه ترجمته كتأثير أصله المعجز للبشر ، في إقناع العقول ، وهداية القلوب ، الذي كان سبب اهتداء العرب ، وقلب طباعهم ، وجمع كلمتهم ، وارتفاع رايتهم ، وخضوع الأمم والشعوب لهم . ولو بلغت هذه الأصول والمقاصد للأعاجم بلغاتهم بأسلوب آخر بأن يذكر كل أصل في فصل خاص مع الشواهد عليه من القرآن والسنة ، ببيان معاني نصوصهما بالتفسير ، وإقامة الأدلة عليه من النقل والعقل — لكان يكون ذلك أقرب إلى الاقناع، وأشد تأثيراً في هداية المستعد للاسلام . فان هذه هي الطريقة المثلى للدعوة، وهي التي جرى عليها سلفنا خير القرون ، وشهد لهم بذلك أصدق الشهود ، وأبعدها عن الجرح والطعن — وهي

سيرتهم الفضلى فى فتوحهم، وعدلهم المطلق فى أحكامهم، وصلاحهم وإصلاحهم فى أعمالهم، وبذلك انتشر الاسلام فى الشرق والغرب، وساد أهله الأمم والشعوب بسرعة لم يعرف لها نظير فى التاريخ

فإسلام الأمة العربية كان بتأثير هداية القرآن وهدى النبي ﷺ وجهاده به كما قال تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) (نهدى به من نشاء من عبادنا) ويهدى به كثيراً) (يهدى به من اتبع رضوانه سبل السلام) وقال لنبيه (وجاهدهم به جهاداً كبيراً) وقد كان كل ما كان من اضطهاد رؤساء قومه المعاندين له ﷺ لأجل صده عن تبليغ القرآن للعرب ، لجزمهم بما يكون من جذبهم به الى اتباعه كما قال لهم عمه أبو لهب فى أول العهد بتبليغهم الدعوة : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه. ولم يكن ﷺ يطلب منهم ثم من كل من كان يعرض نفسه عليهم فى الموسم فى الموسم إلا حمايته ليبلغ دعوة ربه. ولما أسلم من أسلم من الانصار فى موسم الحج سراً. ونشروا الدعوة فى عاصمتهم يثرب، وصار لهم قوة يحمونه بها من قريش. هاجر إليهم فما زالت قريش تقاتله إلى أن رضى منهم بعد استكمال قوته أن يصالحهم فى الحديبية بالشروط التى يرضونها مع كراهة أصحابه كلهم لها فى مقابلة الشرط الوحيد الذى كان هو أهم المهمات عنده عليه صلوات الله وسلامه. وهو حرية الاختلاط والاجتماع بينه وبين سائر العرب، لعلمه بأن سماعهم للقرآن ولا سيما منه كاف لإسلام السواد الأعظم منهم، وكذلك كان

وكذلك ما فعل خلفاؤه وأصحابه الهادون المهديون من العجائب فى نشر الإسلام وفتح الاقطار، وثل عروش أعظم دول الأرض قوة وعظمة ونظاما وتشريعا وحضارة، وتبديل ممالكهم وشعوبها بذلك كله ما هو خير منه — ما فعلوا ذلك كله إلا بتأثير القرآن

وأما انتشار الاسلام فى الأعاجم فقد كان بتبليغ الصحابة ثم من تبعهم فى هديهم من العرب فالعجم للدعوة ، وكان برهانهم عليها من أحوالهم الصالحة وسيرتهم الحسنى أقوى تأثيرا فى تلك الشعوب من أقوالهم التى كانت تنقل إليها بالترجمة. ولم ينتشر الاسلام فى شعب منها بترجمة القرآن بلغته ، وقراءتهم لترجمته ، وإنما

كانت درجة الهدى والعلم والعمل ترتفع فيهم بقدر تدبرهم له بعد تعلم لغته ، فكان من متقني لغة القرآن من الموالى كبار الأئمة المجتهدين من أهل الحديث وأهل الرأى ، وجهابذة علوم اللغة وفنونها ، وأفراد العباد ، ونوابغ الأدباء ، وفحولة الشعراء .

وقد كان إيمانهم الصحيح بتلك الدعوة المثلى هو الذى حملهم على طلب لغة الدين (العربية) من غير إلزام حاكم ، ولا نظام تعليم إجبارى تؤسس له المدارس

وقد ترجم القرآن فى هذه القرون الأخيرة بأشهر لغات الشعوب الكبيرة من غربية وشرقية ، فكانت ترجمته مثاراً للشبهات وسببا للمطاعن ، أكثر مما كانت سببا للاهتداء إلى الاسلام

(فان قيل) إن مثار الشبهات لم يكن من الترجمة بل من الخطأ فيها ، وذلك يتلافى بالترجمة الصحيحة التى ندعوا اليها ؛ وإن سبب الطعن لم يكن إلا سوء قصد من أعداء الاسلام من دعاة النصرانية أو الملاحدة ، وهؤلاء يطعنون فى القرآن العربى المنزل أيضا

(قلت) إنى على علمى بهذا أقول إن الترجمة أكبر عون على الأمرين ، فان الذى يطعن فى القرآن المنزل إما أن يكون ضعيفا فى اللغة العربية أو حاذقا لها راسخا فيها فالأول شبيه بمن يحاول فهم القرآن من الترجمة أكثر ما يؤتى من جهله باللغة ، وأما الثانى فهو يتكلف الطعن تكلفا يكابر به وجدانه ؛ ويغالب ذوقه وبيانه ، فيجيء طعنه ضعيفاً سخيفاً ، ويكون الرد عليه سهل المسالك واضح المنهج ، وقلما يكون الدفاع عن الترجمة كذلك وإن كانت صحيحة ، ولن تكون صحيحة إلا فى بعض الجمل أو الآيات القصيرة ، دون السور والآيات الطويلة . بل بعض المفردات تتعذر ترجمتها بمفردات من اللغات الأخرى تؤدى المراد منها وانه ليوجد فى كل لغة من هذه المفردات التى لا يوجد لها مرادف فى لغة أخرى . وفى كلام بعض العارفين باللغة العربية وغيرها من اللغات المشهورة ما يدل على أن العربية أغناهن بهذه المفردات ، دع ما لها من الخصائص فى فنون المجاز والكنايات .

تعذر ترجمة القرآن

قد تكرر فى كلامنا الجزم بتعذر ترجمة القرآن ، والمسلم الصحيح الإسلام لا يحتاج إلى دليل على هذا لأنه يؤمن بأن القرآن معجز للبشر بأسلوبه ونظمه العربى المنزل ، كما أنه معجز بهدايته وإصلاحه للبشر ، وقد تحدى النبى ﷺ العرب بهذه الاعجاز وتحدى المسلمون به من بعدهم فثبت عجز الجميع عن الاتيان بمثله ، وصدق قوله عز وجل (١٧ : ٨٩ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) والترجمة لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مثل الأصل ، فالآية نص قطعى على عجز الانس والجن عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم عوناً ومساعداً لبعض ، فكيف يمكن أن يأتى بمثله فرد أو جماعة ؟

وإن الذين يريدون ترجمته من الترك لصرف قومهم بها عن الكتاب المنزل من عند الله ليسوا بمؤمنين به ، فتقوم عليهم هذه الحجة ، وإن كثيراً من المسلمين المقلدين الذين يجهلون كثيراً من أصول الاسلام وفروعه لينخدعون بشبهات القائلين بترجمة الكلام الالهى باللغات المختلفة ، ولا يدرون أنه غير ممكن ولا أنه غير جائز ، وإذ قد بينا للفريقين عدم جوازه وما يترتب عليهما من المفاسد بالادلة المقنعة وجب أن نبين لهما الدلائل على عدم إمكانها من جهة اللغة ، ولا نقتصر على بيانها من جهة الشرع فقط

وقد علم أننا نعنى بالترجمة حقيقة معناها والمراد منها الذى هو محل النزاع وهو التعبير عن الآيات العربية بما يؤدى معانيها وتأثيرها من لغة أخرى

وإن توفية هذا الموضوع حقه يقتضى تأليف كتاب مستقل ، ولكننا نكتفى بقليل من الشواهد تغنى عن الكثير ، ونبدأ بالمفردات ونثنى بالجمل ثم نعززها بكلمة فى الأساليب

أما المفردات فاما حقيقة وإما مجاز وإما كناية وكل منها إما لغوى سبق به استعمال العرب ، وإما شرعى أوما انفرد به التنزيل ، ومنها المشترك الذى وضع لعدة معان فى اللغة تعرف المراد منها بالقرائن . ومن علماء اللغة والأصول من أثبت

أن اللفظ قد يستعمل فى حقيقته ومجازه والمشترك فى معنييه أو معانيه إذا لم يمنع من ذلك مانع ، وقد جرى على هذا الجمع شيخ المفسرين الإمام محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره وتبعناه فيه . ثم إن هذه المفردات تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف معان ، وكل منها أقسام لكل منها مواقع فى الاستعمال

ومن المعلوم بالقطع لدى العارفين باللغات المتعددة أنه لا يمكن أن تتفق لغتان من لغات العالم فى جميع مفرداتها ، ولا فى طرق دلالتها ، وإذا فرض اتفاق لغتين فى حقيقة لفظ واحد ومجازه وكنايته بحيث يترجم أحدهما بالآخر مهما يكن المراد منه للمتكلم فلن يمكن مثل هذا فى الأوضاع الجديدة الشرعية والعرفية ، كالألفاظ الموضوعة فى القرآن لصفات الله تعالى وغير ذلك من عالم الغيب أو لبعض العبادات . ولذلك ذهب بعض علماء اللغات وعلماء الاجتماع إلى استحالة قيام لغة مقام أخرى فى آدابها ومعارفها ومعانيها العقلية والشعرية

مثال ذلك : الأسماء الموضوعة ليوم القيامة وهى كثيرة وكل لفظ منها له معنى تدل عليه مادته العربية ، وهذا المعنى مراد لتحققه فى ذلك اليوم ، كالواقعة والقارعة والطامة والصاخة والحاقة والغاشية الخ وقد أقمت الحجة على طبيب تركى فى القسطنطينية بهذه الألفاظ ، إذ زعم أنه يترجم القرآن المجيد — وهو لا يحسن التعبير عن مراده باللغة العربية كما يجب — قلت له : لكم أن تفسروه بالتركية كما فعل بعض علمائكم من قبل . وأما الترجمة فهى مما يتعذر على أهل اللغات التى هى أغنى من لغتكم وأوسع وإن أتقنوا العربية . . . ثم سألته : كيف تترجم هذه المفردات المفردة الموضوعة ليوم القيامة ؟ قال إنه يترجمها بيوم القيامة . قلت اذاً تفوت المعانى الاشتقاقية المقصودة بالذات من هذه الأسماء وهى بيان صفات ذلك اليوم مبدأ وغاية وما يقع فيه ، وما فيها من الوعظ والنذر المؤثرة فى الخوف والرجاء ، والرادعة عن المعاصى . وإذا ترجمت بمعناها الاشتقاقى لم يفهم منها أن المراد بها صفة يوم القيامة ، فان القارعة اسم فاعل يوصف به فى الحقيقة امرأة تقرع أحدا بالمقرعة ، وفى المجاز داهية تقرع القلوب بأهوالها ، والقرع فى أهل اللغة ضرب شىء على شىء — كما قال الراغب — وأخص منها (الصاخة) وهى الضربة ذات الصوت

الشديد يصخّ المسامع أى يقرعها حتى يصمها أو يكاد ، أو الذى يضطرها إلى الاصاخة والاصغاء

وإذا أنت فسرت الكلمة بيوم القيامة ، ووصفته بالقارعة فى سورتها ، وبالصاخة فى سورة (عبس وتولى) تكون قد انفلتّ من مأزق الترجمة إلى سعة التفسير ، وحينئذ قد تكون عرضة لغلط فى التفسير يضيع به شىء من مراد الله تعالى من هذه الألفاظ . وإذا كان قد وقع فى هذا بعض المفسرين بالعربية ، فالمترجم بلغة غير العربية أولى بالغلط ، فان بعض المفسرين قال : إن المراد بالقارعة الداهية التى تقرع القلوب . وهذا التفسير مردود بدلالة القرآن نفسه ، فان الله تعالى يقول فى شرح هذا القرع (٥٢ : ١ — ٢ إذا وَقعتِ الواقِعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضةٌ رافعة * إذا رُجَّتِ الأرضُ رجا * وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا * فكانت هباء منبثاً) فهذا عين المراد من قوله تعالى (القارعة ما القارعة ؟ وما أدراك ماالقارعة ؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش) .

ويوضح هذا من نظريات الهيئة الفلكية ماذهب إليه بعض الفلكيين من أن خراب هذا العالم لايتصوّر إلا بدنوّ بعض النجوم ذوات الأذناب من الأرض وصدمه أوقرعه لها قرعة شديدة على نسبة قوة الجذب ، تبس به الجبال أى تتفتت حتى تكون هباء منبثا فى الفضاء ، وحينئذ يبطل نظام الجاذبية العامة ، فتتناثر الكواكب وتتصادم كما قال تعالى فى وصف ذلك اليوم (وإذا الكواكب انتثرت) فانطباق الآيات المختلفة الواردة فى وصف يوم القيامة من السور المتفرقة على هذه النظرية الفلكية التى لم تكن فى عصر التنزيل معروفة للعرب ولا لغيرهم من علماء الفلك على الطريق القديم ، قد تعد فى هذا العصر من معجزات القرآن وعجائبه ، وفاقا لما ورد فى وصفه من الأثر (ولا تنتهى عجائبه) ولكنه لايظهر من ترجمة القرآن الحرفية ، فيكون قصورها وعدم موافقتها الأصل من طرق متعددة

فلما سمع منى ذلك الطبيب التركى المغرور هذا الشرح بهت ولم يحر جوابا — على أننا رأينا فى الصحف أن الذين شرعوا يترجمون القرآن فى هذه الأيام قد فسروا (يوم الدين) فى الفاتحة بيوم القيامة ، والدين الجزاء على الأعمال ،

وذكره مقصود بالذات ، وله من التأثير ماليس ليوم القيامة ، فانه يذكر التالى للفاتحة فى الصلاة وغيرها بأن الله سيحاسبه على أعماله ويجزيه بها « إن خيراً فخير ، و إن شراً فشر »

وأذكر من مفردات الأفعال دلالة صيغها من نحو التكلف والتكثير والمشاركة والمطاوعة الخ ومن مفردات حروف المعانى والأدوات الفروق فى العطف ونكت وضع بعضها فى موضع الآخر كقوله فى سورة الأنعام (٦ : ١١ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقوله فى سورة العنكبوت (٢٩ : ٢٠ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) فعطف النظر فى الأول بثم المفيدة للتراخى ، وفى الثانى بالفاء المفيدة للتعقيب . فهل يوجد فى سائر اللغات مثل هذا العطف الذى تقتضيه المعانى ، كما بيناه فى تفسير الآية الأولى مع مقارنات أخرى (ص ٣٢١ ج ٧ تفسير) وله نظائر أخرى فى تفسيرنا

وأذكر من معانى الأدوات ماحققه الامام عبد القاهر الجرجانى من الفرق بين الحصر بإنما والحصر بحرفى النفى والاثبات كقولك : ماهو إلا كذا . وهو أن موضوع «إنما» على أن تجىء لخبر لايجهله المخاطب ولا يدفع صحته ، أو لمانزل هذه المنزلة ، وأن الخبر بالنفى والاثبات يكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه وقد وقد ذكرنا هذه القاعدة بالأمثلة فى تفسير قوله تعالى من سورة الأنعام (٦ : ١٤٥ قل لاأجد فيما أوحى إلىّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقاً أهلّ لغير الله به) وبينا سبب حصر هذا المعنى بإنما فى سورتى النحل والبقرة وأن الجمع بينهما هو أن آية الأنعام هى أول مانزل فى هذا الحصر، فكان لما ينكره المشركون ويجهله المسلمون ، وأن آيتى النحل والبقرة نزلتا بعد ذلك فكانت فى معنى صار معروفا . فهل يوجد مثل هذا الفرق فى الأدوات فى اللغة التركية وغيرها ؟ وهل يفهم المترجمون هذه الدقائق فى الكتاب الالهى فيراعونها فى ترجمتهم ، إن كانت لغتهم تساعدهم على ذلك ؟

ومن هذا الباب : الفرق بين إن و إذا الشرطيتين ذكرنى به قولى الآن « إن

كانت لغتهم تساعدهم على ذلك » وهو أن الأصل فى شرط «إن» أن يكون مما يجهله المخاطب أو ينكره أو يشك فيه أو ما ينزل هذه المنزلة ، وأن شرط « إذا » بخلافه كما هو مقرر فى علمى المعانى والنحو بأمثلته .

وأما الجمل فأكتفى منها بإيراد شاهد واحد، وهى الجملة المقيدة بالحال والفرق فيها بين الحال المفردة وجملة الحال ويترتب على ذلك أحكام شرعية كما بيناه فى تفسير قوله تعالى من سورة النساء (يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا ـ ٤ : ٤٣) فقوله تعالى (وأنتم سكارى) جملة حالية مقيدة للنهى وقوله (جنباً) حال مفردة مقيدة له أيضاً، ولكن الأولى تفيد النهى عن السكر قبل الصلاة لئلا يأتى وقت الصلاة فى حال السكر فيضطر السكران إلى ترك الصلاة أو إلى أدائها وهو سكران وهو المنهى عنه فى الآية . وأما الثانية فلا تدل على ترك أسباب الجنابة قبل وقت الصلاة ولا فى وقتها إلا أن يعلم انه لا يتمكن من فعل الطهارة وأداء الصلاة قبل ذهاب الوقت . ومثاله ما قاله الفقهاء فى النذر وهو ان من قال : لله على أن أعتكف صائماً وجب عليه أن يصوم لأجل الاعتكاف ولا يجزئه أن يعتكف فى رمضان ، ومن قال : لله على أن أعتكف وأنا صائم لا يلزمه صوم لأجل الاعتكاف بل يجزئه أن يعتكف فى رمضان . ويراجع وجه كل منهما فى تفسير الآية (ص ١١٥ ج ٥ تفسير) فهل يفهم مترجم القرآن بالتركية مثل هذه الدقائق ؟ وهل تساعده لغته على مراعاتها إن كان يفهمها ؟ أم يحتاج إلى شرح وتفسير لبيانها فيكون مفسراً لا مترجما ؟ ؟ .

هذا شاهد من شواهد دقة التعبير فى الأحكام الشرعية العملية . وأما دقة التعبير، وبلاغته فى الوصف المفيد للموعظة والتأثير ، فمن عجائب شواهده وصف الظالمين يوم القيامة فى قوله تعالى من سورة إبراهيم (٤٢ و ٤٣ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم * وأفئدتهم هواء)

شخوص الأبصار عبارة عن ارتفاعها وكون أجفانها مفتوحة ساكنة لا تطرف (ومهطعين) من أهطع البعير إذا صوّب عنقه ومد بصره ، وقيل الاهطاع أن تقبل ببصرك على المرئى تديم النظر إليه لا تلتفت إلى غيره، ويأتى بمعنى الاسراع . و(مقنعى

رءوسهم) من أقنع البعير رأسه إلى الحوض ليشرب إذا رفعه، وقيل إنه يكون رفعاً وخفضاً فهو من أسماء الاضداد، وقوله (لا يرتد إليهم طرفهم) معناه أن لهم فى شخوص الأبصار وإهطاعها مع امتداد الأعناق وتصويبها إلى ما تنظر إليه شغلا شاغلا لها أن ترجع إليهم فتكون طوع إرادتهم يوجهونها حيث شاؤا، بل هم فى هول وكرب لا مشيئة ولا سلطان لهم معهما على أبصارهم ، بل عيونهم ممدودة مفتوحة لا تطوف ولا تتحرك ولا تتوجه إلى شيء آخر بتصويب ولا تصعيد . ثم بين علة هذا وسببه فى النفس فقال (وأفئدتهم هواء) أى خلاء خاوية من العقل فاقدة للقوة والإرادة .

لعمر الحق إذا تصور من يفهم هذا الوصف حق الفهم قوما هذه حالهم فى ذلك اليوم حتى كأنه يراهم ليأخذن الرعب بمخنقه ، وليستحوذن الذعر على شعوره وإدراكه ، ولا سيما إذا كان من العرب الخلص أو الاعراب الأقحاح .

وأذكر من الكنايات مثل الرفث وإفضاء الزوج إلى الزوج وقوله تعالى (فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً) وقوله تعالى (أو لامستم النساء) وقوله (نساؤكم حرث لكم) وقوله (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) فاذا فرضنا أن فى اللغة التركية وغيرها لفظاً بمعنى التغشى الدال على الستر ولفظاً بمعنى الحرث وهو الزرع ـ لأن معانيها كالمسّ والملامسة مشتركة بين الشعوب ـ فهل تستعمل هذه الألفاظ وما فى معناها فى لغاتهم كناية عن الوظيفة الزوجية السرية كما تستعمل فى العربية ؟

وأما أسلوب القرآن فالكلام فيه هو البحر الخضم ، والقاموس المحيط الأعظم فانه أظهر وجوه الإعجاز اللفظية ، وذلك أنه يمزج فنون الكلام ، وينظم مقاصد الهداية والإرشاد ، على اختلاف أنواعها ، وتباين موضوعاتها ، مزجا متلائما ، ونظما متناسباً متناسقا ، موافقا للذوق السليم ، مطابقا لنكت البلاغة . فالعقائد الالهية، والدلائل العلمية والعقلية ، والأخبار الغيبية ، والسنن الكونية والاجتماعية ، والمواعظ الأخلاقية والأدبية ، وأحكام العبادات والمعاملات القضائية والسياسية، وقصص الأنبياء ، ووصف الأرض والسماء ، وما فيهما من جمادات وأحياء ، وما بينهما من هواء وهباء ، تراه كله فى السورة الواحدة ، وترى الكثير منه فى آية واحدة ، بعبارة بديعة مؤثرة ، ينتقل فيها العقل من فائدة إلى فائدة، ويتقلب

فيها القلب من موعظة إلى موعظة ، مع منتهى الأحكام والمناسبة ، بحيث لا تمل تلاوته ، ولا تفتأ تتجدد هدايته، حتى إن بعض الأدباء وأهل الذوق فى اللغة العربية من غير المسلمين يترددون فى ليالى رمضان على بيوت معارفهم من المسلمين، ليسمعوا القرآن ، و يمتعوا قلوبهم وأذواقهم بسماع ترتيله ، بذلك النظم الذى ليس بشعر ولا سجع ، ولا كلام مرسل ، بل هو نظم خاص ، قابل للأداء بالنغمات المختلفة المؤثرة على تفاوت آياته وفواصله فى الطول والقصر ، فالآية قد تكون كلمة مفردة أو كلمتين وجملة أو جملتين ، أو جملا قليلة أو كثيرة ، وكلها مخالفة لسائر أساليب الكلام العربى المنثور والمنظوم ، ولكل نوع منها تأثير غريب فى ترتيلها وتجويدها ، بالأصوات الملائمة لمعانيها

صليت الفجر مرة فى أهل بيتى بسورة القمر ، وتلوتها بصوت خاشع صادع مناسب لزواجرها ونذرها ، فقالت لى الوالدة : إن هذه النذر تقصم الظهر ، وصارت تسميها سورة النذر . وقالت مثل هذا القول مرة أخرى فى سورة (ق) فهل يتصور مثل هذا التأثير للترجمة التركية أو غيرها من لغات الأعاجم فى أنفس أهلها كما يؤثر فى أنفسهم مادون القرآن من كلام بلغاتهم ؟ كلا

نموذج من ترجمة تركية

إننى بعد كتابة ماذكر تذكرت أن عند بعض معارفى ترجمة تركية للقرآن فاستعرتها منه ، فإذا هى ترجمة جميل بن سعيد ـ وسيأتى ذكرها ـ وإذا فيها من النقص والحذف والخطأ فوق ما كنت أظن ، و يظن أنه أخذها من الترجمة الفرنسية لأنه هو لا يعرف العربية ، وهذه جرأة قبيحة لا تصدر عن رجل يؤمن بالله وكتابه ورسوله ، وتدل على سوء نية هؤلاء الناس فى الترجمة وكون غرضهم منها العبث بدين الإسلام وتنفير الترك منه ، وفتح أبواب الطعن لهم فيه . وقد راجعنا فيها ماذكرنا من أسماء يوم القيامة فوجدناه يذكر ألفاظها العربية و يفسرها بيوم القيامة . وأما كنايات الوقاع فحذف منها قوله تعالى (فلما تغشاها) واكتفى بكلمة بما يدل على الحمل .

وترجم الملامسة بمامعناه و إذا وجدتم بالمناسبات الجنسية مع النساء فتنظفوا

وفيه ما فيه . وأما الحرث فترجمه بكلمة « تارلا » وهى الأرض المعدة لزرع الحبوب دون المشجرة، ومن المعلوم أن الكناية تجامع الحقيقة، فأحلال الرفث إلى النساء فى ليالى رمضان يدل بمفهومه على حظر الرفث بالقول على الصائم وهو المعنى الحقيقى للكلمة كما يدل على تحريم الفعل المكنى عنه . والترجمة التركية لا تفيد الدلالتين

وترجم قوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)الخ بما معناه: لا تصلوا فى حال سكركم بل انتظروا أن تجيئوا إلى حال يمكنكم أن تفهموا فيها ماتقولون ـ ولا تعبدوا فى حال كونكم جنبا بل انتظروا الغسل . وهذه ترجمة تفسيرية باطلة من وجوه كما يرى القارىء وليس فيها تفريق بين الحالين ولا بين الحكمين .

وأما قوله تعالى فى الظالمين (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) فقد ترجمه بما معناه الحرفى : يمهلهم الله إلى يوم يعطفون فيه أنظارهم إلى السماء بصورة كاملة ، وستبقى قلوبهم فارغة وأنظارهم ثابتة ، وهم يسرعون بعجلة رفعت رءوسهم اه فزاد على الأصل توجيه النظر إلى السماء وقوله بصورة كاملة أراد به تفسير شخوص البصر وهو لا يؤدى معناه ولا يصور ذلك الوصف البليغ المؤثر للأبصار الشاخصة ، والرءوس المقنعة ، والأعناق المهطعة ، بل لم يذكر الرءوس والأعناق ألبتة . وإذا كان بهذه الدركة من العجز مع استعانته بالألفاظ العربية فكيف تكون ترجمتهم لكتاب الله تعالى إذا حاولوا أن تكون تركية خالصة خالية من الألفاظ العربية كما يطلب غلاة غواتهم ؟

هذا وان فى هذه الترجمة من الغلط وتحريف المعانى والزيادة والنقصان مالا يعقل له المطلع عليه سبباً إلا تعمد الاضلال، لأن الجهل وحده لا يهبط بهذا المترجم إلى هذا الدرك الأسفل مع ادعائه الوقوف عند حدود التعبير عن مدلول اللفظ العربى بلفظ تركى ، كوظيفة مترجمى المحاكم القضائية .

فمن التحريف المخل الدال على سوء النية ترجمة قوله تعالى(وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة) (سورة يونس آية ٨٧) اتفق مفسرو السلف والخلف على أن معنى اتخاذ بيوتهم قبلة أن يصلوا فيها

فكأنه قال اجعلوها مساجد ، وهو الصحيح ـ أو أن يوجهوها إلى القبلة ـ قيل هى الكعبة ، وقيل بيت المقدس إلا ماذكره بعضهم من احتمال جعلها متقابلة متقاربة ولكن المترجم التركى ترجمها بقوله

« قومكز ايجون مصرده خانه لر إنشا ايديكز . و بوتلرينى قبلة طرفنه توجيه ايديكز » أى أنشئوا فى مصر بيوتا لقومكم ووجهوا أصنامها لجهة القبلة (؟؟) فما قول العالم الاسلامى فى ترجمة للقرآن تعلم الترك ان الله تعالى أجاز لبنى اسرائيل اتخاذ الاصنام . والعياذ بالله تعالى .

وليس هذا هو الغلط الوحيد فى ترجمة هذه الآية الكريمة بل هو الأفحش وفيها أيضاً انه ترجم تبوّأ البيوت بانشاء البيوت وهو غلط وانما معناه سكناها

ومن الحذف والاسقاط انه أسقط من ترجمة سورة البقرة قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء (١ : ٢٨) وأسقط ذكر المن والسلوى من الآية ٥٤ منها ـ وأسقط وصف القرآن بالقيم من أول سورة الكهف والأمر بالسجود والاقتراب من آخر سورة العلق ... وغير ذلك مما يشق إحصاؤه

نعم قد بلغنا ان رئيس الأمور الدينية فى الجمهورية التركية قد أعلن ان هذه الترجمة مملوءة بالأغلاط فلا يجوز الاعتماد عليها . ولكن هذه الحكومة لم تجمع نسخها وتمنع استعمالها وطبعها فهى منتشرة، وبلغنا انها ألفت لجنة لترجمة القرآن أى مسلم يعتمد عليها وعلى لجنتها فى عمل يعده المسلمون العارفون بالاسلام جناية عليه وهدماً له ؟

صفة ترجمات القرآن التركية

وقد نشرت جريدة الأخبار المصرية رسالة لمراسلها من الاستانة[1] فى هذا الموضوع جاء فيها بعد الموافقة على ترجمة الترك للقرآن وتحبيذها ما نصه :

« كان أول مترجم للقرآن الكريم زكى افندى مغامز ، وهو مسيحى سورى وقد اطلعنا على ترجمته صدفة قبل طبعها ، فأبدينا رأينا فى الحال، وكنا السبب فى عدم طبعها ، ثم قام على أثر ذلك الشيخ محسن فانى (هو حسين كاظم بك)

(١) هو عمر رضا افندى المصرى من محررى الجرائد التركية

أحد أعلام تركيا فى الأدب والفضل، وتصدى لترجمة القرآن الكريم مع جماعة من زملائه، وقد رأيناه لا يؤدى المعانى حقها، لا يؤديها فى أحسن صورة يمكن أن تؤدى بها فى اللغة التركية، ولذلك فاننا (١) انتقدناه مرارا.

ثم قام بعدها جميل سعيد بك حفيد كمال باشا ناظر المعارف الأسبق، فترجم القرآن. لقد كان المنتظر أن تكون الترجمة الثانية أحسن وأكمل من الأولى إنما لم يتحقق ذلك الأمل، ولذلك فاننا (٢) قد انتقدنا جميل بك أمر انتقاد، ولم نترك له أى منفذ للتخلص، وقد أراد حضرته أن يجيبنا على انتقاداتنا بتخفيف أهمية أخطائه فلم يفلح فى ذلك، بل كان جوابه أعدل شاهد على أنه غير كفء للعمل الذى أراد أن يقوم به. والأدهى من ذلك أننا عند انتقادنا له ظننا أنه ترجم القرآن من لغة من لغات أوربا، لا من أصله العربى، واستدللنا على ذلك ببعض الدلائل، فلم يستطع أن يجيبنا على ذلك ببنت شفة، ولذلك فإننا (٣) فى مقالتنا الثانية شددنا عليه الحملة لآخر درجة، وقلنا له: إنه فضح الشعب التركى باقتراف هذه الجريرة المدهشة، لأن الشعب التركى شعب مسلم منذ عشرات القرون، شعب يخدم المدنية الاسلامية، ويتولى زعامة الأمم الاسلامية منذ قرون، شعب يفهم القرآن الكريم من أصله العربى منذ قرون شعب أنجب المئات من العلماء الذين فسروا القرآن، وتبحروا فى جميع العلوم المستفادة منه. فعار أن يقرأ ترجمة القرآن فى هذا القرن من لغة مبشر متعصب!

وقد أخرجنا لذلك المترجم كثيراً من أخطائه التى لم يستطع أن يرد عليها، وعدا هذا فان رياسة الأمور الدينية فى أنقرة لم تتأخر مطلقاً فى القيام بواجبها، بل إنها عند انتشار كل ترجمة من هذه التراجم حذرت الناس منها ونبهتهم إلى ما فيها من التحريفات. وبذلك قضت على تلك الكتب بما تستحقها اهـ. المراد منه.

---

(١) هذا التعبير أى تأخير الفاء وجعل ما قبلها متعلقا بما بعدها صار فاشيا فى الجرائد وهو خطأ صوابه هنا: فلذلك انتقدناه الخ (٢ و ٣) تراجع الحاشية السابقة.

وجاء فى جريدة الأهرام فى ٢٩ رمضان سنة ١٣٤٢ مانصه :

ترجمة القرآن بالتركية

أقدم فريق من الترك أخيراً على تنفيذ الفكرة التى طالما تمنوا تنفيذها ، وهى أن يترجموا القرآن بالتركية ، و يستغنوا به عن النظم العربى المبين ، فشرع مصطفى افندى الميننابى وزير الحقانية السابق ، والشيخ محسن فانى ، ومصطفى بك ، وسيف الدين بك فى نشر الترجمة التركيـة بأقلامهم ، وقد انشأت مجلة (سبيل الرشاد) التركية مقالة علمية جليلة فى انتقاد هذه الترجمة، و بيان مواطن الخلل فيها ، وقدمت لذلك نموذجا من الغلطات الموجودة فى ترجمة (سورة الفاتحة) فقط ، فبلغت ست غلطات لا يجوز التسامح فى واحدة منها . فمن ذلك خطؤهم فى وضع لفظ يدل على المعنى المندمج فى حرف (أل) من (الحمد) وحشوهم لفظا زائداً فى ترجمة (الرحمن الرحيم) وتقول المجلة التركية إنهم قطعوا بذلك نظم الـكلمات القدسية ، بل سحقوا ما فيها من الدرر ، وترجموا وغيروا لفظ (يوم الدين) بلفظ (يوم القيامة) وقد أبانت المجلة التركية الفروق العظيمة بين اللفظين وزادوا فى الفاتحة نداء « يا ألله » مرتين بلا لزوم . و بذلك حوّلوا بلاغة القرآن وإيجازه إلى شـكل غير لطيف ، وترجموا كلة (إهدنا) بلفظ « أرنا » قالت المجلة : و بذلك نحوا نحو مذهب المعتزلة ، ولا ندرى أقصدوا ذلك أم هى رمية من غير رام ؟ وحرفوا نظم (صراط الذين أنعمت عليهم) فجعلوا « الصراط » فى الترجمة مفعول الانعام ، وهو مفعول الهداية ، فجاءت ترجمتهم هـكذا : « الصراط الذى أنعمته على غير المغضوب عليهم ولا الضالين »

قالت مجلة (سبيل الرشاد) : والحق أن جرأة أناس هذا مبلغ علمهم بلغة القرآن ، على أن يترجموا القرآن لمما يدعو إلى الأسف، و إنه لاثم عظيم ، قالت: ورجاؤنا إليهم أن يستغفروا الله مما ارتكبوا من الاثم العظيم ، وأن يتوبوا إليه ، و يتحوّلوا عن هذا العمل السقيم الذى حاولوه اهـ

وتقول : بلغنا أنهم لم يتوبوا وانهم مأمورون بذلك من حكومة انقره ، وان ترجمتهم ستكون الرسمية والله أعلم

قد علم مما تقدم أن كل ترجمة حاولها الترك قاصرة عن أداء معاني القرآن الظاهرة التى يفهمها كل قارىء يسهل التعبير عنها بكل لغة، دع ماأشرنا إليه من المعانى الدقيقة، والأوصاف الممتازة فى البلاغة، وأسماء الله تعالى وصفاته وعالم الغيب، والتعبير عنها بالمفردات والجمل والأساليب الخاصة باللغة العربية دون لغات العجم ولا سيما التركية الفقيرة، وهذا يفتح أبوابا واسعة للشبهات والمطاعن فيه و يسد أبوابا واسعة لضروب من التفسير والتأويل الدافعة لها، وضروب من المعارف هى من أعظم الآيات البينات له. وقد علمنا أن الترك حظروا تعليم اللغة العربية وفنونها والعلوم الشرعية فى بلادهم . فعلى هذا لايجد قارىء ترجمتهم التركية للقرآن فى الاجيال الآتية مرجعا لتفسير هذه الترجمة إذا هو استشكل أوطعن له أحد فى شيء منها

وأضرب لذلك من المثل قوله تعالى (والتين والزيتون) الذى سأل عنه مصطفى كمال باشا بعض علمائهم، فأجابه بأن الجواب لايمكن بيانه فى أقل من نصف ساعة، فهزأ به الباشا، وأراد أن يجعله مثلا فى الجهل، وهو أجدر بهذا الوصف فى هذا المقام لتوهمه أنه يكفى فى الجواب أن يذكر له مرادف التين بالتركية وهو « انجير » وذلك العالم يعذر إذا اعتقد أن هذا الرجل الكبير فى مقامه وفى معارفه العسكرية لا يعقل أن يسأل عن تفسير بعض المفردات العربية بما يقابلها فى التركية، واعتقد أنه انما يريد بالسؤال معنى إقسام الله تعالى ببعض الشجر والبقاع والبلاد وحكمته، كما إذا سأل هذا الفقيه من الباشا عما يسميه رجال الحرب « خط الرجعة » مثلا، فانه لايمكن أن يريد بذلك تفسير كلمة خط وكلمة الرجعة لغة

ولعل ذلك العالم كان يعتقد أن الباشا لم يسأل هذا السؤال إلا وهو منكر لورود القسم بالتين والزيتون كما يؤخذ من كلام له كثر نقله عنه، وهو احتقار التعاليم والنظم التى وضعت فى صدر الاسلام، وزعمه أنها وضعت لقوم منحطين فى الحضارة والفنون، فلا يليق اتباعها فى هذا العصر الذى ارتقت فيه الصناعات والفنون والمعارف المادية، واستباح المترفون فيه الرذائل باسم المدنية، فأراد أن يزيل من فكره هذه الشبهات الجهلية، ويبين له معنى صيغة القسم عند العرب وهو تأكيد الكلام وحكمة ما فى القرآن من الإقسام بالمخلوقات، كالتذكير بما فيهما من الآيات، ومناسبة

كل قسم منه لما أقسم به عليه لتوكيده ، كالإقسام بالنجم على هداية النبي ﷺ ورشاده، لأن كلامنهما يهتدى به ، ثم الانتقال من ذلك إلى ماورد فى التفسير المأثور مناسبا لذلك ، ولا بأس ببيان ذلك وإن طال الاستطراد إزالة لشبهة مصطفى كمال باشا وأمثاله لئلا يكون تأخيراً للبيان عن وقت الحاجة فنقول :

إن الجمع فى قوله تعالى (والتين والزيتون * وطورسينين * وهذا البلد الأمين) بين نوعين من الشجر وموقعين من بقاع الأرض لم يكن إلا لمناسبة جامعة بينهما كما هو المعهود فى التنزيل ، وفيما دونه من كلام البلغاء أيضا ، ولما كان من المعلوم قطعاً أن طور سينين (أى سيناء) مهبط الوحى على موسى ﷺ ومظهر نبوّته — وأن البلد الأمين (مكة) مهبط الوحى على محمد ﷺ ومظهر نبوّته — ترجح أن يكون المراد بالتين والزيتون الكناية عن مظهرين من مظاهر النبوة والدين ، كما يكنى بالإهرام أو أبى الهول عن حضارة الفراعنة ، وبشجر الأرز عن جبل لبنان مثلا .

وإذا رجعنا للتفسير المأثور عن السلف فى ذلك نرى فيه عن ترجمان القرآن وحبر الأمة ابن عباس (رض) قولين (أحدهما) مارواه عنه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفاسيرهم وهو أن المراد بالتين مسجد نوح (عليه السلام) الذى بناه على الجودى — أى حيث استوت سفينته بعد الطوفان ، والزيتون بيت المقدس وطور سينين مسجد الطور والبلد الأمين مكة (ثانيهما) ماروواه عنه الأخير من أن المراد بالتين والزيتون المسجد الحرام والمسجد الأقصى حيث أسرى بالنبي ﷺ الخ : ويقوى الأول تعدد رواته وموافقة التاريخ له كما بينه شيخنا الأستاذ الامام من وجه آخر فى تفسير السورة من جزء عم فانه قال بعد حكاية أشهر أقوال المفسرين ما نصه :

« وقال قليل من المفسرين إن الاقسام هو بالنوعين لذاتهما التين والزيتون قالوا : لكثرة فوائدهما ، ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعها معهما فى نسق واحد غير مفهومة ، ولهذا رجح أنهما موضعان ، وقد يرجح أنهما النوعان من الشجر ، ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا ، بل لما يذكر أن به من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى أحوال البشر . قال صاحب هذا القول

إن الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل من أول نشأته إلى يوم بعثة النبى ﷺ : فالتين إشارة إلى عهد الانسان الأول فانه كان يستظل فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين ، وعند مابدت له ولزوجته سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين . والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك لأنه بعد أن فسد البشر وأهلك الله من أهلك منه بالطوفان ونجى نوحا فى سفينته واستقرت السفينة نظر نوح إلى ماحوله فرأى المياه لاتزال تغطى وجه الأرض فأرسل بعض الطيور لعله يأتى اليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض فغاب ولم يأت بخبر ، فأرسل طيراً آخر فرجع اليه يحمل ورقة من شجر الزيتون فاستبشر وسر وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تعمر . ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة فى الأرض التى محى عمرانها بالطوفان ، فعبر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والإقسام هنا بالزيتون التذكير بتلك الحادثة ، وهى من أكبر مايذكر به من الحوادث . وطورسينين إشارة الى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد فى العالم بعد ماتدنست جوانب الأرض بالوثنية ، وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم الى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى ﷺ جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع ، ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الاختلاف فى الدين ، وحجب نوره بالبدع وإخفاء معناه بالتأويل وإحداث ماليس منه بسبيل ، فمن الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ماسبق من أطوار الانسانية وبين مايلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدى من مكة المكرمة ، واليه أشار بذكر البلد الأمين . وعلى هذا القول الذى فصلنا بيانه يتناسب القسم والمقسم عليه كما ترى » اه المراد منه

ومن هذا الشرح تعلم أن ذلك العالم التركى على علم لايشاركه مصطفى كمال باشا فى شىء منه ، وأنه مصيب فى تقدير زمن الجواب بنصف ساعة كما تعلم أن الترجمة التركية لن تكون إلا قاصرة عن احتمال مثل هذا التفسير ، وانها تمهيد للاضلال والتكفير .

سبحان الله ! أتشك فى كون مراد ملاحدة الترك بترجمة القرآن التوسل بها

إلى الطعن فيه والتشكيك فى كونه كلام الله عز وجل ، وإقامة الشبهات على بطلان دين الاسلام ، وترك المسلم منهم فى ظلمات لا يبصر فيها بصيصاً من النور يهتدى به إلى الدفاع عن دينه ؟ أنشك فى هذا بعد اقدامهم على إبطال التشريع الاسلامى من حكومتهم حتى فى الأحكام الشخصية من زواج وطلاق وإرث تفضيلا للتشريع الأوربى عليه على اختلافه ، وابطال التعليم الاسلامى من بلادهم واضطهاد علماء الدين حتى فى ملابسهم ، فقد أكرهوهم على لبس الزى الخاص بغير المسلمين كغيرهم ، ولم يبالوا بمراعاة وجدان أحد ولا اعتقاده فى ان ذلك معصية لله تعالى بل هو آية الردة عن دينه - فعلوا هذا والسواد الأعظم من الشعب التركى يدين الله بالاسلام وجدانا وتسليما يحمله على الفضائل ويزعه عن الرذائل ، ولعلماء الدين احترام عنده ، ثم لم يستطع أحد منهم أن يدافع عن دين الشعب بكلمة مع كون مادة القانون الأساسى للجمهورية التركية الناطقة بأن دين الدولة هو الإسلام لما تنسخ كما نسخت أحكام الإسلام نفسها ، ذلك بأن من عارض الحكومة فى عمل من أعمالها هـذه يساق إلى محكمة خاصة تسمى محكمة الاستقلال مفوضة بأن تحكم بالقتل للدفاع عن هـذه الحكومة اللادينية من غـير استناد إلى شرع منزل ولا قانون مدون ، ويكون حكمها نهائيا لا استئناف له ولا مراجعة فيه ، وقد قتل كثير من العلماء والأتقياء المعارضة فى وضع القلنسوة الافرنجية (البرنيطة) موضع العمامة واستبدالها بها ؟

هذا ما يجرى اليوم فماذا يكون فى الغد إذا لم يجد المسلم التركى بين يديه فى بلاده من كتب دينه إلا ترجمة للقرآن بالصفة التى عرفت أغلاطها وقصورها ؟ نعم إن هؤلاء الملاحدة أنفسهم سيفسرونها له بما يزيده بعداً عن الإسلام ويعده للكفر به وعداوته وعداوة أهله ، ان طال أمر استبدادهم فيه

لا تقل : وما يمنع بقية أهل الدين منهم أن يفسروها له بالتركية تفسيراً يصحح الاغلاط ويدفع الشبهات ؟ فان الذين منعوا ماعلمت يمنعون هذا أيضا وينشرون تفاسير ملاحدتهم المؤيدة لغرضهم وهم يستمدونها من خصوم الإسلام كدعاة النصرانية وشياطين السياسة الأوربية ، وملاحدة المادية دع مايمليه عليهم الجهل أو الـكفر

أذكر مثالا واحداً من ذلك قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

بلغنى من عالم عربى أقام فى الآستانة سنين كثيرة يخالط علماءها عن عالم تركى أعرفه وكنت أعده من أفضل علمائها الجامعين بين العلم والتدين ومعرفة حال العصر أنه يشتغل بترجمة القرآن ، وأنه يقول بقول الباطنية الأولين : فى هذه الآية وهو أن العبادة من صلاة وصيام لم تفرض إلا على من لم يصلوا فى العلم إلى درجة اليقين، ومن وصل إلى هذه الدرجة ترتفع عنه العبادة بنص هـذه الآية من القرآن . ويكفى هذا التأويل لابطال جميع عبادات الإسلام . فان اليقين أمر يمكن لكل أحـد أن يدعيه ،ويمكن اضلال جماهـير الناس بالوصول اليه ، وفى التحكم فيما يطلب اليقين فيه

ونقول فى إبطال هذه الضلالة (أولا) : إنها طعن صريح فى النبى الأعظم صلوات الله وسلامه عليه بأنه لم يكن على يقين فى دينه وعلمه بالله عز وجل ، فان الخطاب له ﷺ فى الآية ، وهو المعنى به أولا وبالذات وان كان الحكم عاما . وذلك بالتبع لمـا قبله من الامتنان عليه بايتائه السبع المثانى والقرآن العظيم ، وأمره بالتبليغ والصدع به وتهوين أمر المشركين عليه وإنبائه بكفايته تعالى أمر المستهزئين منهم بعد هذا قال (١٥ : ٩٤ ـ ٩٩ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون *فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقد ورد فى التفسير المأثور أن المراد باليقين الموت ، وان المعنى : واعبد ربك مادمت حيا . ونقلوا شواهد له من الاستعمال . وفسروا به قوله تعالى حكاية عن أهل النار (٧٤ : ٤٦ و٤٧ وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين *)

(ثانيا) إن أصل اليقين شرط فى صحة الإيمان والايمان الصحيح شرط فى صحة العبادة ، فاليقين فى الإسلام مبدأ لاغاية ، والحنفية الذين تلقى هذا التركى الدين على مذهبهم يقولون : ان الإيمان لايقبل الزيادة ولا النقصان ، لأن التصديق إذا لم يكن يقينا لايكون إيمانا ،وليس فوق اليقين غاية تكون هى الزيادة . وفى هـذا البحث نظر ليس هذا محله

(ثالثا) ان اليقين الذى ينتهى اليه تصديق الانسان فى الدين أو غـيره لايصح التعبير عنه بالاتيان ونحوه كالمجىء لأنه يـكون فى نفسه وعقله ، وانما يعبر

به عما يرد على الإنسان من الخارج بذاته أو بأسبابه كالموت والعلم الخبرى ، أو المنتزع من المعلوم الخارجي ، دون نتيجة القياس العقلى . فقوله تعالى (حتى يأتيك اليقين) كقوله (ويأتيه الموت من كل مكان) وقوله (من قبل أن يأتى أحدكم الموت) وقوله (حتى إذا جاء أحدكم الموت) .

ونكتفي بهذا القدر من الاستطراد للدفاع عن القرآن فى تفسيره ، فهو أفضل مايدافع به عنه ، بل هو من مقاصد التفسير لامن الاستطراد الأجنبى عنه . وما ضعف اهتداء الناس بالقرآن الا بخلوّ تفسيره من تطبيق عقائده وأحكامه على أحوال الناس ودفع الشبهات التى تصدهم عنه .

(١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

بين تعالى فى الاستطراد الخاص بنبوّة خاتم الرسل ﷺ كتابة رحمته للذين يتبعونه من قوم موسى وعيسى عليهما السلام ، وقال فى متبعيه (أولئك هم المفلحون)أى دون غيرهم من الذين كفروا به ولم يتبعوا النور الذى أنزل معه بعد بعثته وبلوغ دعوته ، وذلك لا ينافى كون المتبعين لموسى حق الاتباع قبل بعثته ﷺ على هدى وحق وعدل وأنهم من المفلحين ، فانما أفادته جملة (أولئك هم المفلحون) من الحصر اضافى لاحقيقى كما أشرنا إليه آنفاً وبيناه فى تفسير تلك الآية . ولذلك بين سبحانه فى هذه الآية حال خواصّ أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الاتباع ، عاطفاً إياهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين ﷺ فقال :

﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون ﴾ أى ومن قوم موسى (أيضاً) جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذى جاءهم به من عندالله تعالى و يعدلون به دون غيره إذا حكموا بين الناس ، لا يتبعون فيه الهوى ، ولا يأكلون السحت والرشى ، فالظاهر المتبادر أن هؤلاء ممن كانوا فى عصره وبعد عصره حتى بعدما كان من ضياع أصل التوراة ثم وجود النسخة المحرفة بعد السبى ، فان الأمم العظيمة لاتخلو من أهل

الحق والعدل . وهذا من بيان القرآن للحقائق ، وعدله فى الحكم على الأمم ، كقوله (٣ : ٧٥ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً) وقيل فى وجه التناسب والاتصال : إنه ذكر هؤلاء من قومه فى مقابل متخذى العجل للدلالة على أنهم كانوا بعض قومه لا كلهم ، وهو جائز على بعد يقدر بقدر بعد هذه الآية عن قصة العجل ، وما قلناه أظهر .

(فان قيل) إن قوله « يهدون ويعدلون » للحال المفيد الاستمرار (قلنا) إن أمثالهما حكى فيه حال الغابرين وحدهم بصيغة المضارع كثير ، ووجهه ان التعبير لتصوير الماضى فى صورة الحاضر ، وما هنا يشمل أهل الحق من قوم موسى إلى زمن نزول هذه السورة ممن لم تكن بلغتهم دعوة النبى الامى خاتم النبيين ﷺ وهم الذين كانوا كلما بلغت أحداً منهم الدعوة قبلها وأسلم، وقد ورد فى وصفهم آيات صريحة وحمل بعضهم هذه الآية التى نفسرها عليهم وحدهم .

قالوا : ان المراد بهؤلاء الأمة من آمن بالنبى ﷺ من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه . ونقول انه نزل فى هؤلاء آيات صريحة كقوله فى آخر سورة آل عمران (٣ : ١٩٩ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) وهذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها ليست صريحة فى هذا ، بل السياق ينافيه لأنها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به ﷺ فالمتبادر فيها أنها فى خواص قوم موسى فى عهد موسى وبعد عهده ومنهم النبيون والربانيون والقضاة العادلون ، كما يعلم بالقطع من آيات أخرى . فالآيات فى الخيار من أهل الكتاب ثلاثة أنواع (١) الصريحة فى الذين ادركوا النبي ﷺ وآمنوا قبل إيمانهم أو بعده كقوله تعالى فى سورة البقرة (١٣١ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) وقوله فى سورة القصص (٢٨: ٥٢ ـ ٥٥ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * إلى قوله — أولئك يؤتون أجرهم مرتين ـ الآيات) ومثلهن فى سورة الانعام والرعد والاسراء والقصص والعنكبوت الخ (٢) الصريحة فى الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام واستقاموا معه ثم فى

عهد من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها كالآية التى نحن بصدد تفسيرها (٣) المحتملة للقسمين كقوله تعالى (٣: ١١٣ – ١١٥ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله) الخ فراجع تفسيرهن (فى ص ٧٠–٨٣ ج ٤ تفسير)

وفى تفسير الأمة هنا خرافات اسرائيلية ذكر بعضها ابن جرير عن ابن جريج انه قال : بلغنى كذا ، وذكر أن سبطا من بنى اسرائيل ساروا فى نفق من الأرض فخرجوا من وراء الصين الخ . وذكر عن ابن عباس مايؤيد هذا بدون سند . وابن جريج على سعة علمه وروايته وعبادته شر المدلسين تدليسا لأنه لايدلس عن ثقة وأئمة الجرح والتعديل لايعتمدون بشىء يرويه بغير تحديث ، ونقل هذه الخرافة كثيرون ، وزادوا فيها ماعزوه إلى غيره أيضا وبحثوا فيها مباحث ، ولا يستحق شىء من ذلك أن يحكى.

---

(١٥٩) وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَٰتِ مَارَزَقْنَٰكُمْ وَمَاظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

هذا سياق آخر من أخبار قوم موسى عليه السلام عطف على ماقبله لمشاركته إياه فى كل مايقصد به من العظات والعبر . قال تعالى :

﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما ﴾ أى وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ومنهم الظالمون والفاسقون – كما سيأتى بعد بضع آيات – قطعناهم فجعلناهم اثنتى عشرة قطعة أى فرقة تسمى أسباطا أى أمما وجماعات يمتاز كل منها بنظام خاص فى معيشته وبعض شئونه كما يأتى قريبا فى مشارب مائهم . والمشهور من معنى السبط – بكسر السين – أنه ولد الولد

مطلقاً ، وقد يخص بولد البنت . وأسباط بنى اسرائيل سلائل أولاده العشرة — أى ماعدا لاوى — وسلائل ولدى ابنه يوسف وهما (افرايم ومنسى) وأما سلالة لاوى ، فنيطت بها خدمة الدين فى جميع الأسباط ولم تجعل سبطا مستقلا. وقد تقدم تفصيل ذلك (١) فالأسباط بيان للفرق والقطع التى هى أقسام بنى اسرائيل ليعلم أنها سميت بذلك ، كما سميت الفرق فى العرب بالقبائل ، والأمم بيان للمراد من معنى الأسباط الاصطلاحى . والأمة الجماعة التى تؤلف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد ، وتقدم بيان ذلك أيضا .

﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ﴾ تقدم فى سورة البقرة مثل هذا مع تفسيره وهو (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) فأفاد ماهنا أن قومه استسقوه ، وما هنالك انه استسقى ربه لقومه ، وكلاهما قد حصل . والاستسقاء طلب الماء للسقيا ، وتعريف الحجر فى هاتين السورتين المكية (الأعراف) والمدنية (البقرة) لتعظيم جرمه ، وقد عبر عنه فى التوراة بالصخر — أو تعظيم شأنه ، أو كليهما ، وكلاهما عظيم ، وقد يكون للعهد كما تدل عليه عبارة التوراة ، إذ عينت مكانه من جبل حوريب . والانبجاس والانفجار واحد. يقال: بجسه أى فتحه فانبجس، وبجّسه (بالتشديد) فتبجس ، كما يقال : فجره (كنصره) إذا شقه فانفجر ، وفجره (بالتشديد) فتفجر — وزعم الطبرسى أن الانبجاس خروج الماء بقلة ، والانفجار خروجه بكثرة ، وأنه عبر بهما لافادة أنه خرج أولا قليلا ثم كثر . وأدق منه قول الراغب : الانبجاس أكثر مايقال فيما يخرج من شىء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شىء واسع ، فاستعمل حيث ضاق المخرج اللفظان — أى وهو حجر موسى — وقال(وفجرنا خلالها نهرا)(وفجرنا الأرض عيونا) ولم يقل بجسنا اهـ

أقول : ولكن رواة اللغة فسروا أحدهما بالآخر ، وذكروا من الشواهد عليه

(١) راجع ص ٨٦ ج ٦ تفسير .

ما يدل على الكثرة . قال فى اللسان : البجس انشقاق فى قربة أو حجر أو أرض ينبع منه الماء ، فان لم ينبع فليس بانبجاس وأنشد * وكيف غربى دالج تبجسا *(١) والسحاب يتبجس بالمطر ، والانبجاس عام ، والنبوع للعين خاصة ، و بجست الماء فانبجس أى فجرته فانفجر ، وبجس بنفسه يبجس ، يتعدى ولا يتعدى . وسحاب بُجّس ، وتبجس أى انفجر اهـ وفى الأساس : انبجس الماء من السحاب والعين : انفجر ، وتبجس : تفجر الخ ... وسحاب بُجس و بجسها الله . قال ابن مقبل :

له قائد دُهْمُ الرباب وخلفه روايا يبجسن الغمام الكنهورا (٢)

وحاصل المعنى : وأوحينا الى موسى حين استسقاه قومه فاستسقى ربه لهم (كما فى آية البقرة) بأن اضرب بعصاك الحجر فضربه فنبعت منه عقب ضربه اياه اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد أسباطهم ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ أى قد عرف أناس كل سبط المكان الذى يشربون منه ، إذ خص كل منهم بعين لا يأخذ الماء إلا منها لما فى ذلك من النظام ، واتقاء ضرر الزحام . وفى أول سفر العدد من التوراة : أن عدد الرجال الصالحين للحرب من بنى اسرائيل كان يزيد على ستمائة ألف من ابن عشرين فما فوقه ، فعلى هذا يكون عدد الجميع رجالا ونساء وأطفالا لا يقل عن ألفى ألف (مليونين) وللمؤرخ النقاد الحكيم ابن خلدون تشكيك معروف فيما قاله المؤرخون تبعا للتوراة فى كثرة هذا العدد من وجوه كثيرة ، فصلها فى أول مقدمة تاريخه ، ولكن لا يمكن الشك فى أنهم كانوا ألوفا كثيرة أو عشرات الألوف فاذا لم يكن لهم فى سيناء موارد للماء غير تلك العيون التى انفجرت من صخر فى جبل (حوريب) متصل به ، فلا بد أن تكون مساحة ذلك الصخر واسعة جدا ، وأن يكون السهل أمامه أفيح ليسع الألوف من الأسباط يردون و يصدرون . وقد اختلف

(١) أى وكفت وسالت كوكيف دلوى ماتح من البئر وهو الدلج . فالوكيف مصدر كالوكف والوكوف (٢) الرباب السحاب ، والكنهور كسفرجل السحاب المتراكم ، والروايا الابل التى تحمل الماء . والكلام فى وصف سحاب ماطر ، يقول : إن له قائدا من السحاب السود ، وخلفه سحائب ثقال من حمل الماء كالروايا يبجسن أى يفجرن الغمام المتراكم بالوابل المدرار

علماء أهل الكتاب فى مدلول لفظ (حوريب) الذى أمر الله موسى أن يذهب الى صخر فيه فيجده —أى الرب — عنده أو عليه ، وأن يضرب به بعصاه فينفجر منه الماء هل هو جبل سيناء نفسه أم بين اللفظين عموم وخصوص — ويزعم بعضهم أنه الصخر المذكور فى الوادى الذى يسمى (وادى اللجاء) ويعين بعض الرهبان مكانه ولا يعنينا شىء مما ذكر إلا أننا نجزم بأن ما فى كتب التفسير عندنا من صفة ذلك الحجر وحجمه وشكله ككونه كرأس الشاة أو أكبر وكونه يوضع فى الجوالق أو يحمل على ثور أو حمار — كل ذلك من الخرافات الاسرائيلية التى كانوا يتلقونها بالقبول أيها أغرب. وقد نقل ابن كثير على احتراسه كثيرا منها

وفى عرائس المجالس عن وهب بن منبه أن موسى كان يقرع لهم أقرب حجر فتنفجر منه عيون ... فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطشا ، فأوحى الله اليه بأن يكلم الحجارة فتطيعه، فقالوا: كيف بنا إذا مضينا الى الأرض التى ليس فيها حجارة؟ فأمر الله موسى أن يحمل معه حجرا فحيثما نزل ألقاه ! الخ وهذا من الخرافات التى اختلقها وهب، ليس لها أصل عند اليهود ولا عند المسلمين. ولولا جنون الرواة بكل ما يقال عن بنى اسرائيل لما قبلوا من مثله أن يشرب مئات الألوف أو الملايين من حجر صغير يحمل كما قبلوا من مزاعمه أن رأس الرجل من قوم هود عليه السلام كان كالقبة العظيمة !! وقد عدوه مع أمثال هذه الخرافات ثقة فى الرواية (!)

﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ الغمام السحاب أو الأبيض أو الرقيق منه أى وسخرنا لهم الغمام يلقى عليهم ظله فيقيهم لفح حرارة الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل ،وتسمى السحابة ظلة بالضم ككل ما أظلك من فوق. ولولا كثرة السحاب فى التيه لأحرقتهم الشمس إذ لم يكن هنالك شجر يستظلون به

﴿ وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾ المن مادة بيضاء تنزل من السماء (الجو) كالطل حلوة الطعم تشبه العسل ، وإذا جفت تكون كالصمغ ، وقد كثر نزوله على بنى اسرائيل فى التيه، وهو موصوف فى التوراة بأن طعمه كطعم قطائف بالزيت، ومنظره

كقطر المقل ، وعبر عنه فيها بخبر السماء . وقد كان يقوم مقام الخبز . و يقول كثير من المفسرين انه هو المعروف عند الأطباء بالترنجبين . وقال (الدكتور بوست) فى قاموس الكتاب المقدس : لا يجوز أن يشتبه بين هذا المن والمن الطبى الذى هو عصير منعقد من شجرة الدردار ولاهو أيضاً ــ المن الذى يتكون من شجرة الطرفاء وعلل ذلك بقوله (١) إن الاسرائيليين لم يروه قبل رحلتهم (٢) لا يوجد المنّ العربى إلا تحت الطرفاء وفى أول الصيف فقط (٣) يمكن حفظه مدة طويلة ولا يدود (٤) لا يمكن طحنه أو دقه (٥) يتكوّن المن كل يوم من أيام الأسبوع مدة الفصل اه . وفى قوله نظر لاحاجة إلى شرحه ، وهو يريد به إثبات ماقاله من أن هذا المن كان « عجيبة » أى معجزة أو كرامة لموسى عليه السلام . ونحن لاننكر ما آتى الله كليمه من الآيات البينات والحجج على قومه لاصلاحهم . وقد كان أفسدهم استعباد المصريين لهم ويكفى أن تكون المعجزة فى نزولها بتلك الكثرة التى كانت تكفى تلك الألوف وتقوم عندهم مقام الخبز كما اعترف به هو فى (السلوى) فقد وافق غيره فى أنها هى طير السمان المعروف وقال : إنها كانت تهاجر من أفريقية (ولاسيما مصر) فتصل إلى سيناء تعبة فتقع على الأرض أو تسفّ فتؤخذ باليد . وقيل طير تشبه السمان ولكنها أكبر منها .

﴿ كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾ هنا قول مقدّر يكثر مثله فى التنزيل وكلام العرب أى وقلنا لهم — أو أنزلنا ماذكر عليهم قائلين : كلوا من طيبات مارزقناكم ، فوضع هذا الوصف المن والسلوى موضع الضمير لتعظيم شأن المنة بهما . و إسناد الرزق إلى ضمير جمع العظمة تأكيد للتنبيه والتذكير بما يجب من شكره تعالى على ذلك . و يقدر مثل هذا فى آية البقرة المدنية ، و إن كانت خطابا لبنى إسرائيل المجاورين للنبى ﷺ فى المدينة ولمن بلغه من غيرهم ، فان الخطاب لهم هنالك إنما كان بما وقع لأجدادهم فهو بمعنى الحكاية فى آية الأعراف إلا أن الكلام هنا كان موجهاً أولا إلى المشركين لأن السورة مكية ، ولذلك اتحد عجز الآية فى السورتين وهو :

﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أى وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ولكن كان دأبهم ظلم أنفسهم دون ربهم الذى لاينال تأثير أحد بظلم ولا غيره فكانوا يجنون على أنفسهم بكفر النعم والجحود وغيرهما آنا بعد آن وجيلا بعد جيل ، كما هو مبين فى القرآن بالاجمال وفى التوراة بالتفصيل . فتقديم أنفسهم على يظلمون المفيد لقصر ظلمهم عليها إنما هو لبيان أن كفرهم بنعمة الله تعالى يضرهم ولا يضره تعالى كما فى الحديث القدسى الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ذر رضى الله عنه مرفوعا « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمافلا تظالموا » . (ومنه) « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » ولايدخل فى معنى القصر أنهم لايظلمون الناس فانه لم يكن معهم أحد فى التيه فينفى عنهم ظلمه ولما اتصلوا بالناس بعد الخروج منه وكان منهم العادلون ومنهم الظالمون ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم . وإن كان ظلمه لنفسه مما يجهل أنه ظلم لها لأنه يتجلى له فى صورة المنفعة ، وإنما تكون عاقبته المضرة ، وهكذا شأن جميع الظالمين والمجرمين . ينوون بظلمهم وإجرامهم نفع أنفسهم جهالة منهم . ولا يزال طوائف من بنى إسرائيل يقدمون على ضروب من ظلم الناس يقصدون بها نفع أنفسهم وقومهم ، وهى تنذر بخطر كبير ، وشر مستطير ، كالفتنة التى أثاروها فى بلاد الروسية بتعاليم الاشتراكية المسرفة المعبر عنها بالبلشفية ، ومحاولة انتزاع فلسطين من الأمة العربية ؛ وهذا مما يدخل فى مضمون التمادى والاستمرار على الظلم المعبر عنه بجملة (كانوا أنفسهم يظلمون) إذ هى تفيد أن هذا صار دأبا وعادة لهم

---

(١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ

تقدم مثل هاتين الآيتين فى سورة البقرة وبين ما هنا وما هنالك فروق فى التعبير نبينها هنا فنقول

(١و٢) قال تعالى هنا ﴿ وإذ قيل لهم ﴾ لأن القصة خطاب وجه أولا إلى أهل مكة ، فالحكاية فيه عن بنى إسرائيل حكاية عن غائب والأصل أن يذكر ضميره فيه ولذلك قال « لهم » فى سورة البقرة « وإذ قلنا » والمعنى واحد إذ المعلوم أن القائل هو الله تعالى ، وقد روعى هنالك السياق فى خطاب بنى إسرائيل إذ قبلها « وإذ فرقنا بكم البحر . . . وإذ واعدنا موسى . . . » فناسب أن يقول « وإذ قلنا » ولم يقل فيها « لكم » كما قال هنا « لهم » لأن القول كان لأجداد المخاطبين من ألوف السنين لا لهم أنفسهم ، ولم يقل « لهم » أيضا لأن السياق لم يكن حكاية عن غائب مجهول يحتاج إلى تعيينه ، بل هو تذكير الخلف بما تقوم به عليهم الحجة من شؤون السلف ، لأنهم وارثوا أخلاقهم وغرائزهم وعاداتهم ، فهو إذن مشترك بين الخلف الحاضر ، والسلف الغابر ، وزيادة « لهم » تلصقه بالغائب وحده فتكون حكايته لبنى إسرائيل كحكايته لعرب مكة وغيرهم ، فتأمل

(٣) قال ههنا ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ وفى سورة البقرة « ادخلوا » والفائدة ههنا أتم لأن السكنى تستلزم الدخول ولا عكس . وتظهر فائدة اختلاف التعبير فى الفعلين بما يليهما من العطف عليهما وهو

(٤و٥) قال ههنا ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ وفى سورة البقرة « فكلوا منها حيث شئتم رغداً » فعطف الأمر بالأكل هنالك بالفاء لأن بدءه يكون عقب الدخول كأكل الفواكه والثمرات التى كانت توجد فى كل ناحية من القرية ـ والسكنى أمر ممتد يكون الأكل فى أثنائه لا عقبه ، بل لا يقال عقب السكنى إلا فيمن يترك هذه السكنى ، ولذلك عطف عليه هنا بالواو التى تفيد الجمع بين الأمرين مطلقاً بلا ملاحظة ترتيب ولا تعقيب . وقد وصف هنالك الأكل بالرغد وهو الواسع الهنيء والتبشير به يناسب حال الدخول ، إذ الأمر لدى الداخل مجهول .

(٦) قال ههنا ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ وقدم هنالك ما أخر

هنا وأخر ماقدمه أى فى الذكر ، وهو لايدل على طلب ترتيب بين الأمرين لأن العطف فيه بالواو الدالة على طلب الأمرين مطلقاً ، ولكن لوكان التعبير فى الموضعين واحداً لفهم منه أن المقدم فى الذكر أرجح أو أهم ولو فى الجملة كما هى القاعدة فى التقديم لذاته . فكان الاختلاف دالا على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك و بين عكسه . لأن المراد منها لايقتضى ترتيباً بين مادلت عليه كلة (حطة) وهو الدعاء بأن تحط عنهم أوزارهم وخطاياهم كقولك اللهم غفراً[1] و بين دخول باب القرية فى حال التلبس بالتواضع والخشوع لله تعالى وتنكيس الرءوس شكراً لجلاله على نواله ، كما فعل النبى الأعظم ﷺ لما دخل مكة فاتحاً

---

(٧) قال ههنا ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ قرأ نافع وابن عامر و يعقوب (تغفر) بالتاء والفاء المفتوحة ورفع (خطيئاتكم) وهو يناسب (وإذ قيل لهم) وقرأ الجمهور نغفر بالنون وكسر الفاء ونصب « خطيئاتكم » بكسر تائها وهو يناسب ما بعده وهو كون « سنزيد » للمتكلم المعظم . والمعنى فيهما واحد ، لأن المخاطب الذى يغفر الذنوب واحد . وقرأ ابن عامر (خطيئتكم) بالافراد . وهو بمعنى الجمع لأنه مضاف فيفيد العموم ، ولعل فيه إشارة إلى خطيئة خاصة مشتركة . وقرأ أبو عمرو (خطاياكم) وبها قرأ الجمهور فى آية البقرة ، مع اختلافهم فى فعل المغفرة كما هنا . وكتابة الكلمتين فى المصحف الامام تحتمل كل ما ذكر فى الكلمتين ، وفائدة الاختلاف لفظية وهى التوسع فى القراءة ، وقال القطب الشيرازى إن فائدة الاختلاف بين قراءتى الافراد والجمع للخطيئة أن هذه الذنوب تغفر لهم إذا فعلوا ما أمروا به من قول وفعل سواء كانت قليلة كواحدة أو كثيرة

---

(٨) قال ههنا ﴿سنزيد المحسنين﴾ بدون واو على الاستئناف البيانى وهوجواب سؤال كأنه قيل: وماذا بعد المغفرة ؟ أى سنزيد المحسنين فى عملهم جزاء حسناً على

---

(١) قالوا رفعت كلمة حطة مع كونها فى موضع النصب بمعنى حط عنا خطايانا حطة — للدلالة على معنى الثبات والاستقرار . والتقدير حاجتنا حطة ، وهو أحسن من تقدير مسألتنا حطة كما قدروا ؛ أى حاجتنا أن تحط عنا ذنوبنا حطا خاصا أو تاما فان كلمة حطة بكسر الحاء تدل على هيئة الحط و نوعه

احسانهم . وفى سورة البقرة (وسنزيد بالعطف ، والمعنى واحد . وقد يكون طرح الواو أدل على كون هذه الزيادة تفضل محض ليس مشاركا المغفرة فيما جعل سبباً لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بحط الأوزار

---

(٩) قال هىهنا ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم ﴾ وفيه زيادة (منهم) على مثله من سورة البقرة وسببها ما تقدم نظيره فى قوله تعالى (وإذ قيل لهم) الخ من الحاجة إلى ذكر ضمير المحكى عنهم لربط الكلام ، وهذه الحاجة منتفية فى سورة البقرة كما علمت من الفرق السابع آنفاً ،وليس لزيادة البيان كما قيل ، بل هو الأصل ههنا ولا حاجة إليه هنالك وإن كان حكاية عن الغائبين لأنه لم يخرج عن سياق مخاطبة خلفهم الحاضرين .

وأما معنى تبديلهم قولا غير الذى قيل لهم فقد تقدم بيانه فى تفسير آية البقرة وملخصه أنهم عصوا بالقول والفعل . وخالفوا الأمر مخالفة تامة لا تحتمل الاجتهاد ولا التأول ، فلم يراعوا ظاهر مدلول لفظه ، ولا فحواه والمقصد منه ، حتى كأن المطلوب منهم غير الذى قيل لهم ، ولو قال فبدلوا قولا بقول ، أو فبدلوا ما قيل لهم ، لم يدل على هذا المعنى كله .

ولا ثقة لنا بشيء مما روى فى هذا التبديل من ألفاظ عبرانية ولا عربية ، فكله من الاسرائيليات الوضعية ، كما قاله الاستاذ الإمام هنالك . وإن خرج بعضه فى الصحيح والسنن موقوفاومرفوعاً كحديث أبي هريرة المرفوع فى الصحيحين وغيرهما « قيل لبنى اسرائيل (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : حطه ، حبة فى شعرة » وفى رواية شعيرة رواه البخارى فى تفسير السورتين من طريق همام بن منبه أخى وهب وهما صاحبا الغرائب فى الاسرائيليات . ولم يصرح أبو هريرة بسماع هذا من النبى ﷺ فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار إذ ثبت أنه روى عنه ،وهذا مدرك عدم اعتماد الأستاذ رحمه الله تعالى على مثل هذا من الاسرائيليات وإن صح سنده ولكن قلما يوجد فى الصحيح المرفوع شيء يقتضى الطعن فى سندها .

(١٠ — ١٢) قال ههنا ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾

وقال هنالك (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) فالاختلاف فى ثلاثة مواضع (أولها) بين الإرسال والانزال وهو لفظى إذ الإرسال من فوق عين الانزال (ثانيها) بين المضمر « عليهم » والمظهر (على الذين ظلموا) والمراد منهما أن ذلك الرجز عذاب كان خاصاً بالذين ظلموا لاعاما فحسن أن يقول فى آية الأعراف « عليهم » لتصريحه بسببية الظلم بعده ولو قال « فأرسلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون » لكان تكرار التعليل بالظلم منافياً للبلاغة ، وهذا التكرار منتف فى آية البقرة لأن التعليل فيها بالفسق لا الظلم (ثالثها) بين يظلمون ويفسقون وفائدته بيان أنهم كانوا جامعين بين الظلم الذى هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو للغير ، و بين الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة ولو فى غير الظلم للنفس أو للناس . وحسن أن تكون هذه الزيادة فى آية البقرة لانها نزلت آخراً . والرجز العذاب الذى تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس فى شؤونهم ومعايشهم كما تقدم تحقيقه فى تفسير الآية (١٣٣) من هذه السورة وذكرنا فيها قول المفسرين إن الرجز الذى أرسله الله على الظالمين فى قصة دخول القرية هو الطاعون وأنه جائز ولكن لم يثبت بنقل صحيح ، وقد عزاه بعض المفسرين إلى وهب بن منبه

إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة ، وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة ، لا تاريخ شعوب ومدائن ، ولا تحقيق وقائع ومواقع . والعبرة فى هذه القصة أن نتقى الظلم والفسق . ونعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل الآخرة ، وأنه قد عاقب بنى اسرائيل بظلمهم ، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل ، وكثرة وجود الأنبياء فيهم . ومنه السياق الآتى

---

(١٦٢) وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ

مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ، قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
(١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
(١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ

هذه الآيات تفصيل لقوله تعالى فى سورة البقرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) إلى آخر الآيتين وقد تقدم تفسيرها ، ولا أعلم للقصة ذكراً من كتب اليهود المقدسة ولكنها كانت معروفة عندهم ، ولولا ذلك لبهتوا النبى ﷺ فى المدينة عند مانزل عليه (ولقد علمتم) أو لما آمن من آمن به من علمائهم إذا كانوا لايعلمون ما حكى لهم عن الله تعالى انهم يعلمونه مؤكداً بلام القسم ، وإذا قال غير المسلم المؤمن : انه اطلع على القصة فى بعض كتبهم المقدسة أو التاريخية غير المقدسة أو سمعه من بعضهم ـ قلنا أولا : ان آيات سورة الاعراف هذه نزلت بمكة فى أوائل الاسلام ، ولم يكن النبى ﷺ لقى أحداً من اليهود ـ ومن المعلوم قطعاً انه كان أمياً لم يقرأ الكتب كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون) الخ . وثانياً : انه ﷺ لم يكن يصدقهم بعد معاشرتهم فى المدينة بكل ما يحكون عن كتبهم بل كذبهم عن الله تعالى فى كثير منها ، ولم يكن يصدقهم فى كل ما يقولونه غير منقول عن كتبهم بالأولى : وهاك تفسير الآيات بمدلول ألفاظها ، ولا نعتمد على شىء من الروايات فيها .

﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والسؤال فيه للتقرير المتضمن للتقريع ، والادلال بعلم ماضيهم . والمعنى واسأل بنى إسرائيل عن أهل المدينة التى كانت حاضرة البحر أى قريبة منه ،

راكبة لشاطئه ﴿ إذ يعدون فى السبت ﴾ أى اسأل عن حالهم فى الوقت الذى كانوا يعتدون فى السبت ، ويتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه

﴿ إذ تأتيهم حيتانهم ﴾ أى سمكهم ـ ولايزال أهل الحجاز يسمون السمكة حوتاً

كبيرة كانت أو صغيرة ، وأهل سورية يخصون السمكة الكبيرة باسم الحوت — وقد أضيفت الحيتان إليهم لما كان من ابتلائهم بها ، واحتيالهم على صيدها ، وكانت تأتيهم ﴿ يوم سبتهم ﴾ أى تعظيمهم للسبت ، فهو مصدر سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ﴿ شرعا ﴾ أى ظاهرة على وجه الماء كما روى عن ابن عباس ، وفى رواية أخرى عنه ظاهرة من كل مكان — وهى جمع شارع ، كالركع السجد جمع الراكع والساجد ، من شرع عليه إذا دنا وأشرف ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴾ أى ولا تأتيهم يوم لا يعظمون السبت فعلا وتركا . قيل إنها اعتادت أن لا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت ، فأمنت وصارت تظهر فيه ، وتخفى فى الأيام التى لا يسبتون فيها لما اعتادت من اصطيادها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها فى يوم السبت أغراهم ذلك بالاحتيال على صيدها ففعلوا .

﴿ كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ أى مثل هذا البلاء بظهور السمك لهم نبلوهم أى نختبرهم أو نعاملهم معاملة المختبر لحال من يريد إظهار كنه حاله ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر عن أمر ربهم ، واعتدائهم حدود شرعه .

﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ أى واسألهم عن حال أهل تلك القرية فى الوقت الذى قالت أمة وجماعة منهم كيت وكيت تدل هذه الآية على أن الذين كانوا يعدون فى السبت بعض أهل القرية لا كلهم وأن أهلها كانوا ثلاث فرق : فرقة العادين التى أشير إليها فى الآية الأولى ، وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان ، ووعظوهم ليكفوا عنه وهى التى أشير إليها فى هذه الآية . وفرقة اللائمين للواعظين التى قالت لهم : لم تعظون قوماً قضى الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد ، فهو اما مهلكهم بالاستئصال ، أو بعذاب شديد دون الاستئصال ، أو المعنى مهلكهم فى الدنيا ومعذبهم فى الآخرة — وأيا ما كان المراد فأو هنا هى المانعة للخلو من وقوع أحد الجزاءين ، لا المانعة لجمعهما ، فهى لا تنفى اجتماعهما . وفى الآية من الايجاز البليغ ما لا يوجد نظيره فى غير القرآن .

﴿ قالوا : معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ أى قال الواعظون للائمين : نعظهم وعظ عذر نعتذر به إلى ربكم عن السكوت على المنكر وقد أمرنا بالتناهي عنه، ورجاء فى انتفاعهم بالموعظة ، وحملها لهم على اتقاء الاعتداء الذى اقترفوه . أى فنحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق يأسكم

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أى فلما نسى العادون المذنبون ، ما ذكرهم ووعظهم به اخوانهم المتقون ، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسيّ فى كونه لا تأثير له ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ أى عن العمل الذى تسوء عاقبته أى أنجيناهم من العقاب الذى استحقه فاعلو السوء بظلمهم ﴿وأخذنا الذين ظلموا ﴾ وحدهم ﴿بعذاب بئيس﴾ أى شديد من البأس وهو الشدة ، أو البؤس وهو المكروه أو الفقر ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أى بسبب فسقهم المستمر ، لا بظلمهم فى الاعتداء فى السبت فقط . وذلك أن وصفهم بأنهم ظلموا تعليل لأخذهم بعذاب بئيس ، على قاعدة كون بناء الحكم أو الجزاء على المشتق يدل على أن المشتق منه علة له ، ولكن الله تعالى لا يؤاخذ كل ظالم فى الدنيا بكل ظلم يقع منه ولو كان قليلا فى الصفة أو العدد ـ وان شئت قلت فى الكيف أو الكم ـ بدليل قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) وقوله (و يعفو عن كثير) و إنما يؤاخذ الأمم والشعوب فى الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب التى يظهر أثرها فيها بالاصرار والاستمرار عليها ، وهو ما أفاده هنا فى هؤلاء اليهود قوله تعالى (بما كانوا يفسقون) وانما يكون العقاب على بعض الذنوب دون بعض فى الدنيا خاصا بالأفراد أو الجماعات الصغيرة من المذنبين كأهل هذه القرية الذين كانوا بعض أهل قرية من أمة كبيرة ، وأما الأمم الكبيرة فهى التى تصدق عليها سنن الله فى عقاب الأمم إذا غلب عليهم الفسق والظلم كقوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) إلا أن يقال إن الفاسقين من أهل تلك القرية كانوا أقل من الفريقين الآخرين . وقد عاقب الله بنى إسرائيل كافة بتنكيل البابليين ثم النصارى بهم وسلبهم ملكهم ، عند ما عم فسقهم ، ولم يدفع

ذلك عنهم وجود بعض الصالحين فيهم ، إذا لم يكونوا يخلون منهم .

والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ، ونجاة الصالحين الذى نهوهم عن عمل السوء وارتكاب المنكر ، وسكتت عن الفرقة التى أنكرت على الواعظين وعظهم وانكارهم ، فقيل : انها لم تنج ، لأنها لم تنه عن المنكر بل أنكرت على الذين نهوا ، وقيل : بل نجت ، لأنها كانت منكرة للمنكر مستقبحة له ، ولذلك لم تفعله ، و إنما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهى ، وجزمها بأن القوم قد استحقوا عقاب الله باصرارهم فلا يفيدهم الوعظ ، وروى هذا عن ابن عباس كما روى عنه أنه كان متردداً فى هذه الفرقة حتى أقنعه تلميذه عكرمة بنجاتها . وقد رجح الزمخشرى وغيره هذا قال :

(فان قلت) الأمة الذين قالوا : لم تعظون ؟ من أى الفريقين هم ؟أمن فريق الناجين أم المعذبين (قلت) من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، وما قالوا ماقالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم ، و إذا علم الناهى حال المنهى وأن النهى لايؤثر فيه ، سقط عنه النهى ، وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث . ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر ، والجلادين المرتبين للتعذيب ، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يكن إلا سبباً للتلهى بك . وأما الآخرون فانما لم يعرضوا عنه إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أو لفرط حصرهم ، وجدّهم فى أمرهم ، كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله (فلعلك باخع نفسك) اه

أقول : إن ماذكره من سقوط النهي عن المنكر أو وجوب تركه فى حالة اليأس من تأثيره مرجوح ولا سيما إذا أخذ على اطلاقه ، و إنما هو شأن أضعف الايمان فى حديث «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه احمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبى سعيد الخدرى (رض) و إنما تكون هذه الحالة أضعف الايمان عند عدم استطاعة ماقبلها ، فان استطاع النهى وسكت عنه لم يكن له عذر مطلقا ، ولذلك اختلف فى هؤلاء الساكتين .

المحتملة حالهم للعذر وعدمه ، واليأس قلما ينشأ إلا من ضعف فى النفس أوالايمان، وكأين من مكاس وجلاد ومدمن خمر تاب وأناب ، والمحققون لم يجعلوا احتمال الأذى ولا يقينه موجباً لترك النهى عن المنكر ولا لتفضيله على الفعل بل قالوا فى هذه الحالة بالجواز ، واستدلوا على تفضيل النهى بحديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه أحمد والنسائى وابن ماجه وغيرهم

وفى بئيس عدة قراآت أخرى بين متواترة وشاذة ، تتخرج على الخلاف فى أصل صيغته ، وعلى لغات العرب فى التصرف فى المهموز : فقرأها أبو بكر على خلاف عنه بيئس بوزن ضيغم — وابن عامر بكسر الباء وسكون الهمزة بناء على أنه أصله بئس بوزن حَذِر فنقلت حركة الهمزة إلى الفاء للتخفيف ككبد فى كبد ، ونافع بيس على قلب الهمزة ياء كذئب وذيب ، أو على أنه فعل الذم وصف به فجعل اسما ، ومن الشواذ بيّس كريس على قلب الهمزة ياء وإدغامها ، وبيس كهين على تخفيف المشدّدة ، وبأس بوزن فاعل

﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه ﴾ أى فلما عتوا عن أمر ربهم عتو إباء واستكبار عن ترك مانهاهم عنه الواعظون ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ هذا القول للتكوين أى تعلقت إرادتنا بأن يكونوا قردة خاسئين أى صاغرين أذلاء فكانوا كذلك

قيل : إن هذا بيان وتفصيل للعذاب البئيس فى الآية السابقة ، وقيل : هو عذاب آخر ، وإن الله عاقبهم أولا بالبؤس والشقاء فى المعيشة ، لأن من الناس من لا يربيه ويهذبه إلا الشدة والبؤس ، كما إن منهم من يربيه ويهذبه الرخاء والنعمة ، وبكل يبتلى الله عباده ويمتحنهم كما قال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال فى بنى إسرائيل (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ولكن هؤلاء القوم لم يزدهم البؤس والسوء إلا عتواً وإصراراً على الفسق والظلم فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ، ومسخهم مسخ خلق وبدن فكانوا قردة بالفعل، أو مسخ خلق ونفس ، فكانوا كالقردة فى طيشها وشرها ، وإفسادها لما تصل اليه أيديها ، والأول قول الجمهور والثانى قول مجاهد: قال مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ، مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

هذه الآيات خاتمة قصة بنى إسرائيل فى هذه السورة ، وما سيأتى من نبأ الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها مثل عام ليس فيه مايدل على أنه كان منهم كما روى عن بعض المفسرين فهو لايدخل فى قصتهم ، ومناسبة هذه لما قبلها مباشرة أنها بيان لجريان سنة الله العامة فى عقاب الأمم وانطباقها على اليهود عامة ، بعد بيان عقابه تعالى لطائفة منهم قال عز وجل :

﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ تأذن صيغة تفعل من الايذان ، وهو الاعلام الذى يبلغ فيدرك بالآذان ، ويتضمن هنا تأكيد القسم ، ومعنى العهد المكتوب الملتزم ، بدليل مجىء لام القسم ونون التوكيد فى جوابه ، والمعنى : واذكر أيها الرسول الخاتم العام إذ أعلم ربك هؤلاء القوم المرة بعد المرة أنه قد قضى فى علمه وكتب على نفسه ، وفاقا لما أقام عليه نظام الاجتماع البشرى من سننه ليبعثن ويسلطن عليهم إلى يوم القيامة من

يسومهم سوء العذاب ، أى يريده و يوقعه بهم، عقابا على ظلمهم وفسقهم وفسادهم، وهو مجاز من سوم الشيء ، كما يقال سامه خسفاً . وسوء العذاب ما يسوء صاحبه و يذله ، وهو هنا سلب الملك ، و إخضاع القهر

ومصداق هذا وتفصيله على ماقررنا قوله تعالى فى اول سورة الاسراء (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً — إلى قوله — و ليتبروا ماعلوا تتبيراً) ثم قال (عسى ربكم أن يرحمكم و إن عدتم عدنا) الآية أى و إن عدتم بعد عقاب المرة الآخرة إلى الافساد، عدنا إلى التعذيب والاذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذى اقاموه بعد نجاتهم من السبى البابلى ، وقهروهم واستذلوهم ، ثم جاء الاسلام فماداه منهم الذين كانوا هربوا من الذل والنكال ولجؤا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين ، ولم يفوا للنبي ﷺ بما عاهدهم عليه إذ أمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم ، بل غدروا به وكادوا له ، ونصروا المشركين عليه ، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم ، فأجلى بعضهم ، وقتل بعضاً ، وأجلى عمر من بقى منهم ثم فتح عمر سورية بعضها بالصلح كبيت المقدس ، و بعضها عنوة ، فصار اليهود من سيادة الروم الجائرة القاهرة فيها إلى سلطة الاسلام العادلة ، ولكنهم ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال . وقد بينا حقيقة حالهم ، وما يحاولونه من استعادة ملكهم فى هذا الزمان فى غير هذا الموضع من هذا التفسير ، وفى مواضع من المنار

﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ للأمم التى تفسق عن أمره وتفسد فى الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها — فحق عليها القول — فدمرناها تدميراً) أى أمرناهم بالحق والعدل ، والرحمة والفضل ، فعصوا وفسقوا عن الأمر ، وأفسدوا وظلموا فى الأرض ، فحق عليهم القول ، بمقتضى سنته تعالى فى الخلق ، فحل بهم الهلاك على الفور .

﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن تاب عقب الذنب ، وأصلح ما كان أفسد فى

الأرض ، قبل أن يحق عليه القول (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وهذا كما قال فى اليهود بعد ذكر إفسادهم مرتين (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا) وقلما ذكر الله عذاب الفاسقين المفسدين ، الا وقرنه بذكر المغفرة والرحمة للتائبين المحسنين ، حتى لا ييأس صالح مصلح من رحمته بذنب عمله بجهالة ، ولا يأمن مفسد من عقابه اغترارا بكرمه وعفوه وهو مصر على ذنبه ،

ثم بين تعالى كيف كان بدء إذلال اليهود بإزالة وحدتهم ، وتمزيق جامعتهم فقال ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمما ﴾ أى وفرقناهم فى الأرض حال كونهم أمماً بالتقدير ، أو صيرناهم أمما متقطعة ، بعد أن كانوا أمة متحدة ﴿ منهم الصالحون ﴾ كالذين نهوا الذين اعتدوا فى السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله تعالى فيهم من بعد موسى إلى عهد عيسى عليهم السلام ، والذين آمنوا بمحمد خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ ومنهم ناس دون وصف الصلاح لم يبلغوه ، وهم درجات أو دركات ، منهم الغلاة فى الكفر والفسق ، كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق ، ومنهم السماعون للكذب الأكالون للسحت ، إلى غير ذلك مما هو شأن الأمم الفاسدة فى كل عصر ، تفسد بالتدريج لا دفعة واحدة كما نراه فى أمتنا الاسلامية

﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ أى امتحناهم ، وبلونا سرائرهم واستعدادهم ، بالنعم التى تحسن ، وتقر بها الأعين ، وبالنقم التى تسوء صاحبها ، وربما حسنت بالصبر والإنابة عواقبها ، رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم ، وينيبوا إلى ربهم ، فيعود برحمته وفضله عليهم .

﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ أى فخلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح ، والبر والفاجر ، خلف سوء وبدل شر ، قيل : إن الخلف بسكون اللام يغلب فى الأشرار ، وإنما يقال فى الأخيار خلف بالتحريك كسلف ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ الذى هو التوراة عنهم ، وقامت الحجة به عليهم ،

فماذا كان شأنهم؟ الجواب ﴿ يأخذون عرض هـذا الأدنى ﴾ أى يأخـذون عرض هذا الشيء الأدنى . أى هـذا الحطام الحقير من متاع الدنيا ، والمراد به ماكانو يأكلونه من السحت والرشى ، والاتجار بالدين والمحاباة فى الحكم والفتوى ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ أى سيغفر الله لنا ، ولا يؤاخذنا بما أذنبنا ، فاننا شعبه الخاص ، وسلائل أنبيائه ، ونحن أبناؤه وأحباؤه وماهذه الأقوال إلا أمانى ، وغرور وأوهام ، قال ابن كثير ، وقال مجـاهد : هم النصارى ، وقد يكون أعم من ذلك اه وكل من القولين ينافيه مقتضى السياق ، فأوائل النصارى كانوا صالحين ، وسابق الكلام ولاحقه فى اليهود وحدهم ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ أى يقولون ذلك والحال أنهم مصرون على ذنبهم إن يأتهم عرض آخر مثل الذى أخذوه أو بالباطل يأخذوه لا يتعففون عنه وإنما وعد الله فى كتبه بالمغفرة للتائبين الذين يتركون الذنوب ندما وخوفا من الله ورجاء فيه ، ويصلحون ماكانوا أفسدوا ، كما تكرر فى القرآن ، ومنه فى سياق قصة موسى مع بنى إسرائيل خطاباً لهم من سورة طه (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى).

وقد رد الله تعالى عليهم زعمهم بقوله ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لايقولوا على الله إلا الحق ﴾ الاستفهام للتقرير ، أى قد أخذ عهد الله وميثاقه فى كتابه بأن لايقولوا عليه غـير الحق الذى بينه فيه ، فـما بالهم يجزمون بأن الله سيغفر لهم مع اصرارهم على ذنوبهم على خلاف مافى الكتاب ﴿ودرسوا مافيه﴾ أى من تحريم أكل أموال الناس بالباطل والـكذب على الله كقولهم إنه سيغفر لهم وغير ذلك ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق فى العمل بكتابه كما فى آخر سفر تثنية الاشتراع

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟ ﴾ أى والدار الآخرة وما أعده الله فيها للذين يتقون الرذائل والمعاصى خير من الحطام الفانى من عرض

الدنيا بالرشوة والسحت وغير ذلك ، أفلا تعقلون ذلك وهو ظاهر جلى لايخفى على عقل لم يطمسه الطمع الباطل ، فى الحطام العاجل ، فترجحون الخير على الشر ، والنعيم العظيم الدائم ، على المتاع الحقير الزائل ، وقد علم من الآية ان الطمع فى متاع الدنيا هو الذى استحوذ على بني اسرائيل فأفسد عليهم أمرهم ، ولا يزال هذا التفانى فيه أخص صفاتهم ،

وقد سرى شيء كثير من هذا الفساد إلى المسلمين ، حتى رجال الدين الذين ورثوا الكتاب الكريم ، والقرآن الحكيم ، ودرسوا مافيه ، غلب على أكثرهم الطمع فى حطام الدنيا القليل ، وعرضها الدنيء ، والغرور بالنسبة إلى الاسلام والتحلى بلقبه ، والتعلل بأمانى المغفرة مع الإصرار على الذنب والاتكال على المكفرات والشفاعات ، وهم يقرؤن مافى الكتاب من النهى عن الامانى والأوهام ، ومن نوط الجزاء بالأعمال ، والمغفرة بالتوبة والاصلاح ، وكون الشفاعة لاتقع إلا بإذن الله لمن رضى عنه كقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) وان يرضى الله عن فاسق ولا منافق (فان ترضوا عنهم فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين) بل ما قص الله علينا مثل هذه الايات من أخبار بنى اسرائيل إلا لنعتبر بأحوالهم ونتقى الذنوب التى أخذهم بها ، ولكننا مع هذا كله أتبعنا سننهم شبراً بشبر وذراعا بذراع ، الا اننا نحمد الله ان هذا الاتباع فينا غير عام ، وانه لايزال فينا طائفة ظاهرة على الحق يطعن فيها الجماهير الذين صار الاسلام فيهم غريبا ، وقد شرحنا ذلك مرارا بل صرحت الايات بالتحذير من اتباع أهل الكتاب فى أمانيهم وفى فسقهم كقوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به) الخ وقوله (ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قرأ (تعقلون) بالتاء نافع وابن عامر وابن ذكوان وأبو جعفر وسهل ويعقوب وحفص فقيل إن الخطاب به لليهود المحكى عنهم بطريق الالتفات ، وقيل بل هو خطاب لهذه الأمة لتعتبر بحالهم ، وتجتنب ماكان سببا لسوء مآلهم ، من الإصرار

على سوء أعمالهم ، وقرأ الآخرون (يعقلون) على الأصل في الحكاية عن الغائبين، ولو صح ما قيل من أن هذه الآيات نزلت وحدها في المدينة لصح أن يقال إن الخطاب موجه إلى اليهود المجاورين لها ، لأنهم آخر ذلك الخلف ، الذي نزل فيه هذا الوصف في ذلك الوقت

﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لانضيع أجر المصلحين ﴾ قرأ الجمهور يمسكون بتشديد السين من مسك تمسيكا بمعنى تمسك تمسكا ، ومثله قدم بمعنى تقدم ، ومنه (لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) وقرأ أبو بكر وحماد يمسكون بالتخفيف من الامساك . — أي والذين يستمسكون بعروة الكتاب الوثقى ويعتصمون بحبله في جميع أحوالهم وأوقاتهم ، وأقاموا الصلاة التي هي عماد الدين في أوقاتها ﴿ انا لانضيع أجر المصلحين ﴾ انا لا نضيع أجرهم لأنهم هم المصلحون . والله لايضيع أجر المصلحين ، فهو خبر قرن بالدليل ، ومثله قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع أجر من أحسن عملا)

﴿ واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾ لعل حكمة ختم قصة بني اسرائيل بهذه الآية هنا للتذكير ببدء حالهم في انزال الكتاب عليهم في إثر بيان عاقبة أمرهم في مخالفته والخروج عنه ، فان في تلك الفاتحة اشارة الى هذه الخاتمة ، وذلك عندما أخذ عليهم الميثاق ليأخذن بالشريعة بقوة وعزم فانه رفع فوقهم الطور وأوقع في قلوبهم الرعب من خوف وقوعه بهم، فلا غرو اذا آل أمرهم الى ترك العمل به بعد طول الامد وقساوة القلوب ، والانس بالذنوب ، وقد تقدم في معنى هذه الآية آيتان من سورة البقرة وأشير اليه في سورة النساء . وذكرنا آية الاعراف هذه في سياق تفسير آية البقرة الأولى . والمعنى واذكر أيها الرسول النبي الأمي إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل جبل الطور أي رفعناه كما عبر به في الآيات الأخرى وهو المروى عن ابن عباس — أو زلزلناه وهو مرفوع فوقهم مظلل لهم — كما يقال نتق السقاء اذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة : قال الجمهور انه اقتلعه وجعله فوقهم (فان قيل) لو كان الأمر كذلك لكان ظلة بالفعل

لا كالظلة ، فان الظلة كل ما أظلك من فوقك ، ويصدق رفع الجبل فوقهم كالظلة وجودهم فى سفحه واستظلالهم به (قلنا) إنه و إن صح هذا التأويل فان رفع الجبل على الوجه الاول إنما كان لاخافتهم لا لإظلالهم وأما ظنهم أنه واقع بهم فانما جاء من زلزلته واضطرابه ، على أن الله تعالى قادر على قلعه وجعله فوقهم وكم رأوا من آياته ماهو أدل على قدرته تعالى من ذلك

﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ وقلنا لهم فى تلك الحالة : خذوا ماأعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيمة وعزم على احتمال مشاقه﴿واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ أى واذكروا ما فيه من الاحكام أوامرها ونواهيها ، أو اعملوا به لئلا تنسوه — فان ذلك يعدكم للتقوى ويجعلها مرجوة لكم ، فان الجدّ وقوة العزم فى اقامة الدين يهذب النفس و يزكيها ، والتهاون والاغماض فيه يدسيها و يفريها (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غٰفِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

هذه الآيات بدء سياق جديد فى شؤن البشر العامة المتعلقه بهداية الله لهم بما أودع فى فطرتهم وركب فى عقولهم من الاستعداد للايمان به وتوحيده وشكره ، فى إثر بيان هدايته لهم بارسال الرسل وانزال الكتب فى قصة بنى إسرائيل ، فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة ، أو سياق سياق على ، قال تعالى

﴿ واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ الظهور جمع ظهر وهو العمود الفقرى لهيكل الانسان الذى هو قوام بنيته ، ومركز النخاع الشوكى

الذى عليه مدار حياته ، فيصح أن يعبر به عن جملة وجوده الجسدى الحيوانى ، والذرية سلالة الانسان من الذكور والإناث . قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب (ذرياتهم) بالجمع والباقون بالإفراد ومعناهما واحد فان المفرد المضاف يفيد العموم ، ورسمها فى المصحف الامام واحد ، وقوله (من ظهورهم) بدل من بنى آدم بمعناه والجمهور على أنه بدل البعض من الكل ، وهو الظاهر إذا لم يرد بهذا البعض ذلك الكل ، وقال أبو البقاء هو بدل اشتمال .

والمعنى واذكر أيها الرسول فى اثر ذكر أخذ ميثاق الوحى على بنى إسرائيل خاصة ، ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة ، إذ استخرج من بنى آدم ذريتهم بطنا بعد بطن ، فخلقهم الله على فطرة الاسلام ، وأودع فى أنفسهم غريزة الإيمان ، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لابد له من فاعل ، وكل حادث لابد له من محدث ، وأن فوق العوالم الممكنة القائمة على سنة الأسباب والمسببات ، والعلل والمعلولات ، سلطانا أعلى على جميع الكائنات ، هو الأول والآخر هو المستحق للعبادة وحده ، — وقد بسطنا هذه المسألة — وهذا معنى قوله تعالى ﴿ وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ﴾ أى أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه بما أودعه فى غريزته واستعداد عقله قائلا قول إرادة وتكوين ، لا قول وحى وتلقين ، ألست بربكم ؟ فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال ، لا بلسان المقال : بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا . فهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) وهذا النوع من التعبير والبيان يسمى فى عرف علماء البلاغة بالتمثيل ، وهو أعلى أساليب البلاغة وشواهده فى القرآن وكلام البلغاء كثيرة .

بين سبحانه سبب هذا الاشهاد وعلته فقال :

﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أى فعلنا هذا منعا لاعتذاركم أو احتجاجكم يوم القيامة بأن تقولوا : إذا أنتم أشركتم به . إنا كنا

غافلين عن هذا التوحيد للربوبية وما يستلزمه من توحيد الالهية بعبادة الرب وحده والمراد أنه تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل .

﴿ أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ جاهلين ببطلان شركهم ، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ باختراع الشرك فتجعل عذابنا كعذابهم ، مع عذرنا بتحسين الظن بهم ، والمراد أن الله تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد آبائهم وأجدادهم ، كما أنه لم يقبل منهم الاعتذار بالجهل ، بعد ما أقام عليهم من حجة الفطرة والعقل .

﴿ وكذلك نفصل الآيات لعلهم يرجعون ﴾ أى ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم ، ولعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليدهم ، والآيات تدل على أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة بالشرك بالله تعالى ولا بفعل الفواحش والمنكرات التى تنفر منها الفطرة السليمة ، وتدرك ضررها وفسادها العقول المستقلة ، وإنما يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه أن لا يعرف إلا منهم . وهو أكثر العبادات التفصيلية .

هذا ما يتبادر إلى الفهم من الآيات لذاتها ولكن ورد فى أخذ الذرية من بنى آدم واشهادهم على أنفسهم أحاديث وآثار لا يمكن أن تعرف إلا من خبر الوحى . وقد كانت موضوع بحث ومناقشة بين علماء المعقول والمنقول فنورد أمثل ما قالوه فيها . قال الامام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

« يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » . وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ

عليه وسلم «يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني السري بن يحيى أن الحسن ابن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال: فتناول القوم الذرية بعد ماقتلوا المقاتلة ، فبلغ رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية» ؟ فقال رجل: يارسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال « إن خياركم أبناء المشركين ، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها و ينصرانها» قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه (و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية ، وقد رواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصري به ، وأخرجه النسائي في سننه من حديث هشيم بن يونس ابن عبيد عن الحسن قال: حدثني الأسود بن سريع فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم ، قال الإمام أحمد :حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به ؟ قال: فيقول نعم : فيقول قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي» أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به

﴿حديث آخر﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير — يعني — ابن حازم عن كلثوم ابن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال : ألست بربكم ؟

قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا – إلى قوله – المبطلون » وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم عن صاعقة عن حسين بن محمد المروزى به ، ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث حسين بن محمد به ، إلا أن ابن أبى حاتم جعله موقوفا . وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به وقال : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير هكذا قال ، وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه ، كذا رواه اسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم عن جبير عن أبيه به ، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب ابن أبى ثابت وعلى بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله ، وكذا رواه العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن أبى هلال عن أبى حمزة الضبعى عن ابن عباس قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو فى أذىّ من الماء . وقال أيضا : حدثنا على بن سهل حدثنا ضمرة ابن ربيعة حدثنا أبو مسعود عن جويبر : مات ابن الضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال : فقال ياجابر إذا أنت وضعت ابنى فى لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده . فان ابنى مجلس ومسئول ، ففعلت الذى به أمر ، فلما فرغت قلت يرحمك الله عمّ يسأل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ قال : يُسأل عن الميثاق الذى أقرّ به فى صلب آدم قلت : يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذى أقرّ به فى صلب آدم ؟ قال : حدثنى ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم فى صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة . فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا أحمد بن أبي ظبية عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) قال « أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » أحمد بن أبى ظبية هذا هو أبو محمد الجرجانى قاضى قومس ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائى فى سننه وقال : أبو حاتم الرازى يكتب حديثه ، وقال ابن عدى : حدث بأحاديث كثيرة غرائب . وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدى عن سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قوله ، وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال الامام أحمد : حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك وحدثنا اسحق بن مالك عن زيد بن أبى أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون » فقال : يارسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » وهكذا رواه أبو داود عن القعنبى والنسائى عن قتيبة ، والترمذى عن اسحق بن موسى عن معن ، وابن أبى حاتم عن يونس ابن عبد الأعلى عن ابن وهب ، وابن جرير من حديث روح بن عبادة وسعيد ابن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من رواية أبى مصعب

الزبيرى كلهم عن الامام مالك بن أنس به قال الترمذى : وهذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر ، وكذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة ، زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة ، وهذا الذى قاله أبو حاتم رواه أبو داود فى سننه عن محمد ابن مصفى عن بقية عن عمرو بن جعثم القرشى عن زيد بن أبى أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهنى عن نعيم ابن ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) فذكره . وقال الحافظ الدارقطنى : وقد تابع عمرو بن جعثم بن زيد بن سنان أبو فروة الرهاوى ، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم (قلت) الظاهر أن الامام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم ابن ربيعة عمداً لما جهل حال نعيم ولم يعرفه ، فانه غير معروف إلا فى هذا الحديث ، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ، ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات ، ويقطع كثيراً من الموصولات والله أعلم

﴿حديث آخر﴾ قال الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص عينيه قال : أى رب من هذا ؟ قال . هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة قال : أى رب قد وهبت له من عمرى أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال أو لم تعطها ابنك داود قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريته » ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين به وقال : صحيح على

شرط مسلم ولم يخرجاه ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدثه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الاجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تذكر نعمتي وقال آدم : يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً ؟ قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك» ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم

﴿ حديث آخر ﴾ قال عبد الرحمن بن قتادة النضرى عن أبيه عن هشام بن حكيم رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله ابتدأ الأعمال أم قد قضي القضاء قال : فقال رسول الله ﷺ « ان الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه

﴿ حديث آخر ﴾ روى جعفر بن الزبير — وهو ضعيف — عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه ، وأهل الشمال بشماله ، فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم قالوا بلى ثم خلط بينهم ، فقال قائل له يا رب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم في صلب آدم » رواه ابن مردويه

﴿ أثر آخر ﴾ قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) الآيات قال فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم قالوا بلى) الآية قال فاني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيرى ،

ولا رب غيرى ، ولا تشركوا بى شيئاً ، وانى سأرسل لكم رسلا لينذروكم عهدى وميثاق وأنزل عليكم كتبى ، قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لارب لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال يارب لو سويت بين عبادك قال انى أحببت ان أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذى يقول تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) الآية وهو الذى يقول (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله) الآية . ومن ذلك قال (هذا نذير من النذر الأولى) ومن ذلك قال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الآية رواه عبد الله بن الامام أحمد فى مسند أبيه ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه فى تفاسيرهم من رواية أبى جعفر الرازى به . وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد من السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بايرادها عن التطويل فى تلك الآثار كلها وبالله المستعان

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الاشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس — وفى حديث عبدالله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لامرفوعان كما تقدم ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ومن رواية الحسن البصرى عن الاسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا: ولهذا قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم) ولم يقل من ظهره ذرياتهم أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، كقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ثم قال (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) الآية . وتارة تكون حالا كقوله تعالى (ما كان للمشركين

أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك كقوله تعالى (وإنه على ذلك لشهيد) كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله (وآتاكم من كل ما سألتموه) قالوا ومما يدل على أن الاشهاد حجة عليهم فى الاشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فان قيل اخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده، الجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد، ولهذا قال (أن يقولوا) أى لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أى عن التوحيد غافلين، أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا الآية » اه كلام ابن كثير.

وقد بسط العلامة ابن القيم هذه المسألة فى كتاب الروح فى سياق البحث فى خلق الأرواح قبل الاجساد — فذكر الروايات المرفوعة والموقوفة والآثار فيها وما قيل من الجرح والتعديل فى أسانيدها ثم قال: —

وههنا أربع مقامات (أحدها) ان الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم، فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم (والثانى) ان الله سبحانه أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته (الثالث) ان هذا هو تفسير قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) (الرابع) انه أن تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفراغ من خلقها وإنما يتجدد كل وقت إرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها.

(فأما المقام الأول) فالآثار متظاهرة به مرفوعة وموقوفة (وأما المقام الثانى) فانما أخذه من أخذه من المفسرين من الآية وظنوا انه تفسيرها، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر. قال أبو اسحق: جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التى أخرجها فهما تعقل به كما قال (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير. وقال ابن الانبارى: مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم فى هذه الآية ان الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب

أولاده وهم فى صور الذر ، فأخذ عليهم الميثاق انه خالقهم وأنهم مصنوعون ، فاعترفوا بذلك وقبلوا ، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ماعرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب ، وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد ، والنخلة التى سمعت وانقادت حين دعيت

وقال الجرجانى: ليس بين قول النبى ﷺ «ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته » وبين الاية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض . وقوله تعالى (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أى عن الميثاق المأخوذ عليهم ، فاذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهودا عليهم بأخذ الميثاق قال : وفى هذا دليل على التفسير الذى جاءت به الرواية من أن الله تعالى قال للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا . قال : وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ على الأرواح دون الأجساد ان الأرواح هى التى تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها العقاب ، والأجساد أموات لاتعقل ولاتفهم . قال: وكان اسحق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى، وذكر انه قول أبى هريرة قال اسحق : وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم وأشهدهم، قال الجرجانى : واحتجوا بقوله تعالى(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء) والأجساد قد بليت وضلت فى الأرض ، والأرواح ترزق وتفرح، وهى التى تلذ وتألم ، وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر ، وبيان ذلك فى الأحلام موجود ، ان الانسان يصبح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باق فى نفسه مما تلاقى الروح دون الجسد

قال : وحاصل الفائدة فى هذا الفصل انه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبلغ وممن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالايات والدلائل التى نصبها فى نفسه وفى العالم وبالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمثلات المنقولة اليهم اخبارها ، غير انه عز وجل لايطالب أحدا منهم من الطاعة إلا بقدر مالزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الأدلة ، وبين سبحانه ماهو عامل فى البالغين الذين ادركوا الأمر

والنهي وحجب عنا علم ماقدره في غير البالغين ، إلا أنا نعلم أنه عدل لايجوز في حكمه ، وحكيم لاتفاوت في صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل ، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين

﴿ فصــــل ﴾

ونازع هؤلاء غيرهم في كون هـذا معنى الآية وقالوا معنى قوله (وإذ أخـذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) أى أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفا في أصـلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسـهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه مايشهد على أنه باريه ونافذ الحـكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل مايرون ويشـاهدون إلى التصـديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال في غير هذا الموضع (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يريد هم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفرة وكما تقول قد شهدت جوارحى بقولك تريد قد عرفته فكأن جوارحى لو استشهدت وفي وسعها أن تنطق لشهدت ، ومن هذا إعلامه وتبيينه أيضاً (شهد الله أنه لا إله إلا هو) يريد أعلم وبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكام وغيرهم ، هذا كلام ابن الانبارى وزاد الجرجانى بيانا لهذا القول فقال حا كياً عن أصحابه إن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بما هو كائن ومالم يكن بعد مما هو كائن كالكائن إذ علمه بكونه مانع من غير كونه تابع في مجاز العربية أن يوضـع ماهو منتظر بعد مما لم يقع بعد ، موقع الواقع لسبق علمه بوقوعه كما قال عز وجل في مواضع من القرآن كقوله (ونادى أصحاب النار ونادى أصحاب الجنـة — ونادى أصحاب الاعراف) قال فيكون تأويل قوله (وإذ أخذ ربك) وإذ يأخذ ربك وكذلك قوله (وأشهدهم على أنفسهم) أى ويشهدهم بما ركبه فيهم من العقـل الذى يكون به الفهم ، ويجب به الثواب والعقاب وكل من ولد وبلغ الحنث ، وعقل الضر والنفع ، وفهم الوعـد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق في التوحيد بما ركب فيه من

العقل ، وأراه من الآيات والدلائل على حدوثه ، وأنه لايجوز أن يكون قد خلق نفسه و إذا لم يجز ذلك فلابد له من خالق هو غيره ليس كمثله ، وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ولم يقدح فيه مانع من فهم إلا إذا حزبه أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء و يشير اليها بأصبعه علماً منه بأن خالقه تعالى فوقه و إذا كان العقل الذى منه الفهم والإفهام مؤديا إلى معرفة ماذكرنا ودالاعليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقدأخذ عليه العهد والميثاق إذ جعل فيه السبب والأدلة اللذين بهما يؤخذ العهد والميثاق ، وجائز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم كما قال الله عز وجل (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً) قال واحتجوا بقوله ﷺ « رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى ينتبه »

وقوله عز وجل (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ثم قال (وحملها الانسان) الأمانة هى عهد وميثاق فامتناع السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة خلوها من العقل الذى يكون به الفهم والإفهام وحمل الإنسان إياها لمكان العقل فيه قال وللعرب فيها ضروب نظم فمنها قوله

ضمن القنان لفقعس بثباتها إن القنان لفقعس لايأتلى

والقنان جبل فذكر أنه قد ضمن لفقعس وضمانه لهم أنهم كانوا إذا حزبهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا اليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة

كأجارف الجولان هلك ربه وجوران منها خاشع متضائل

وأجارف الجولان جبالها وجوران الأرض التى إلى جانبها وقال هذا القائل ان فى قوله تعالى (ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) دليلا على هذا التأويل لأنه عز وجل أعلم أن هذا الأخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . والغفلة ههنا لاتخلو من أحد وجهين إما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق فأما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه فى كتابه أنه أخذ

عليهم عهداً وميثاقا بمعرفة البعث والحساب وإنما ذكر معرفته فقط ، وأما أخذ الميثاق فالأطفال والأسقاط إن كان هذا العهد مأخوذاً عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعدما أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغاً يكون منهم غفلة عنه فيجحدونه وينكرونه فمتى تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم وذكر ما لا يجوز ولا يكون محال وقوله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فلا يخلو هذا الشرك الذى يؤاخذون به أنفسهم أن يكون منهم أو من آبائهم ، فان كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك إلا بعد البلوغ وثبوت الحجة عليهم إذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره ، وإن كان من غيرهم فالأمة مجمعة على أن لا تزر وازرة وزر أخرى كما قال عز وجل فى الكتاب وليس هذا بمخالف لما روى عن النبي ﷺ « إن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد » لأنه ﷺ اقتص قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه فوضع الماضى من اللفظ موضع المستقبل ، قال وهذا شبيه بقصة قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به) فجعل سبحانه ما أنزل على الأنبياء من الكتاب والحكمة ميثاقا أخذه من أممهم بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) ثم قال للأمم (أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فجعل سبحانه بلوغ الأمم كتابه المنزل على أنبيائهم حجة عليهم كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به إقراراً منهم : قلت : وشبيه به أيضا قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا) فهذا ميثاقه الذى أخذه عليهم بعد إرسال رسله إليهم بالإيمان به وتصديقه ، ونظيره قوله تعالى (والذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) فهذا عهده إليهم على ألسنة رسله ومثله قوله تعالى لبنى اسرائيل (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) ومثله (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)

وقوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) فهذا ميثاق أخذه منهم بعد بعثهم كما أخذ من أممهم بعد انذارهم وهذا الميثاق الذى لعن سبحانه من نقضه وعاقبه بقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية)فإنما عاقبهم بنقضهم الميثاق الذى أخذه عليهم على ألسنة رسله وقد صرح به فى قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون) ولما كانت هذه الآية ونظيرها فى سورة مدنية خاطب بالتذكير بهذا الميثاق فيها أهل الكتاب فإنه ميثاق أخذه عليهم بالإيمان به وبرسله . ولما كانت آية الاعراف هذه فى سورة مكية ذكر فيها الميثاق والاشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقروا بربوبيته ووحدانيته وبطلان الشرك وهو ميثاق واشهاد تقوم به عليهم الحجة وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الاهلاك فلا بد أن يكونوا ذاكرين له عارفين به وذلك بما فطرهم عليه من الإقرار بربوبيته وأنه ربهم وفاطرهم وانهم مخلوقون مربوبون ثم أرسل اليهم رسله يذكرونهم بما فى فطرهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم وأمره ونهيه ووعده ووعيده ونظم الآية إنما يدل على هذا من وجوه متعددة (أحدها) أنه قال : وإذ أخذ ربك من بنى آدم ولم يقل آدم وبنو آدم (الثانى) انه قال من ظهورهم ولم يقل ظهره ، وهذا بدل بعض من كل أو بدل اشتمال وهو أحسن و (الثالث) أنه قال ذرياتهم ولم يقل ذريته (الرابع) أنه قال وأشهدهم على أنفسهم أى جعلهم شاهدين على أنفسهم فلا بد أن يكون الشاهد ذاكرا لما شهد به وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار لايذكر شهادة قبلها (الخامس) أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الاشهاد إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة (إنا كنا عن هذا غافلين) والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التى فطروا عليها كما قال تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (السادس) تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين معلوم إنهم غافلون بالاخراج لهم من صلب آدم كلهم واشهادهم

جميعا ذلك الوقت ، فهذا لا يذكره أحد منهم (السابع) قوله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فذكر حكمتين فى هذا التعريف والاشهاد (إحداهما) أن لا يدّعوا الغفلة (والثانية) أن لا يدعوا التقليد فالغافل لاشعور له ، والمقلد متبع فى تقليده لغيره (الثامن) قوله تعالى (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى لو عذبهم بجحودهم وشركهم لقالوا ذلك وهو سبحانه إنما يهلكهم لمخالفة رسله وتكذيبهم ، فلو أهلكهم بتقليد آبائهم فى شركهم من غير إقامة الحجة عليهم بالرسل لأهلكهم بما فعل المبطلون ، أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه . وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون وإنما يهلكهم بعد الإعذار والانذار (التاسع) أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه ، واحتج عليهم بهذا الاشهاد فى غير موضع من كتابه كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله فأنى يؤفكون ؟) أى فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الاقرار منهم أن الله ربهم وخالقهم وهذا كثير فى القرآن ، فهذه هى الحجة التى أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقوله تعالى (أفى الله شك فاطر السموات والأرض ؟) فالله تعالى إنما ذكرهم على ألسنة رسله بهذا الاقرار والمعرفة ولم يذكرهم قط بإقرار سابق على إيجادهم ولا أقام به عليهم حجة (العاشر) أنه جعل هذا آية وهى الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها بحيث لا يتخلف عنها المدلول وهذا شأن آيات الرب تعالى فإنها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به فقال تعالى (وكذلك نفصل الآيات) أى مثل هذ التفصيل والتبيين نفصل الآيات (لعلهم يرجعون) من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الايمان ، وهذه الآيات التى فصلها هى التى بينها فى كتابه من أنواع مخلوقاته وهى آيات أفقية ونفسية ، آيات فى نفوسهم وذواتهم وخلقهم وآيات فى الأقطار والنواحى مما يحدثه الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسله وعلى المعاد والقيامة ومن أبينها ما أشهد به كل واحد على نفسه من أنه

ربه وخالقه ومبدعه ، وانه مربوب مخلوق مصنوع حادث بعد ان لم يكن ، ومحال أن يكون حدث بلا محدث أو يكون هو المحدث لنفسه ، فلا بد له من موجد أوجده ليس كمثله شيء ، وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة وهذه الآية وهى قوله تعالى (و إذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) مطابقة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » ولقوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه) ومن المفسرين من لم يذكر إلا هذا القول فقط كالزمخشرى ، ومنهم من لم يذكر إلا القول الأول فقط ومنهم من حكى القولين كابن الجوزى والواحدى والماوردى وغيرهم . قال الحسن بن يحيى الجرجانى : فان اعترض معترض فى هذا الفصل بحديث يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ثم ردهم فى ظهره » وقال ان هذا مانع من جواز التأويل الذى ذهبت إليه لامتناع ردهم فى الظهر ، ان كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتمام العقل . قيل له : إن معنى ثم ردهم فى ظهره : ثم يردهم فى ظهره ، كما قلنا إن معنى أخذ ربك يأخذ ربك فيكون معناه ثم يردهم فى ظهره بوفاتهم لأنهم إذا ماتوا ردوا إلى الأرض للدفن وآدم خلق منها ورد فيها : فاذا ردوا فيها فقد ردوا فى آدم وفى ظهره إذ كان آدم خلق منها وفيها رد بعض الشيء من الشيء وفيما ذهبتم إليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه و بين ماجاء به القرآن فى هذا المعنى إلا أن يرد تأويله إلى ماذكرنا لأنه عز وجل قال (و إذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) ولم يذكر آدم فى القصة إنما هو ههنا مضاف إليه لتعريف ذريته انهم أولاده ، وفى الحديث انه مسح ظهره فلا يمكن رد ماجاء فى القرآن وما جاء فى الحديث إلى الاتفاق إلا بالتأويل الذى ذكرناه . قال الجرجانى وأنا أقول : ونحن إلى ماروى فى الآية عن رسول الله صلى الله عليه آله وسلم وما ذهب إليه أهل العلم من السلف الصالح أميل وله أقبل وبه آنس . والله ولى التوفيق لما هو أولى وأهدى

على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر في الرد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ في النظم الجارى ومجاز العربية بسهولة وإمكان من غير تعسف ولا استكراه وهو أن يكون قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) مبتدأ خبره من الله عز وجل عما كان منه في أخذ العهد عليهم و «إذ» يقتضى جوابا يجعل جوابه قوله تعالى (قالوا بلى) وانقطع هذا الخبر بتمام قصته، ثم ابتدأ عز وجل خبراً آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة فقال « شهدنا » يعنى نشهد. قال الحطيئة:

شهد الحطيئة حين يلقى ربه　　أن الوليد أحق بالعذر

بمعنى يشهد الحطيئة، يقول تعالى نشهد إنكم ستقولون يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين أى عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمؤاخذة بالكفر، ثم أضاف اليه خبرا آخر فقال (أو تقولوا) بمعنى وأن تقولوا لأن أو بمعنى واو النسق مثل قوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) فتأويله ونشهد أن تقولوا يوم القيامة (إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) أى أنهم أشركوا وحملونا على مذهبهم في الشرك في صبانا فجرينا على مذاهبهم واقتدينا بهم فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم، والذنب في ذلك لهم (قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) يدل على ذلك قولهم (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى حملهم إيانا على الشرك فتكون القصة الأولى خبرا عن جميع المخلوقين بأخذ الميثاق عليهم. والقصة الثانية خبرا عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار، وقال فيما ادعاه المخالف إنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر، لاختلاف ألفاظهما فيهما قولا يجب قبوله بالنظائر والعبر التى تؤيد بها مخالفته فقال: إن الخبر عن رسول الله ﷺ أن الله مسح ظهر آدم أفاد زيادة خبر كان في القصة التى ذكر الله تعالى في الكتاب بعضها ولم يذكر كلها، ولو أخبر ﷺ بسوى هذه الزيادة التى أخبر بها، فما عسى أن يكون قد كان في ذلك الوقت الذى أخذ فيه العهد مما لم يضمنه الله كتابه لما كان في ذلك خلاف ولا تفاوت. بل كان زيادة في الفائدة وكذلك الألفاظ إذا اختلفت في ذاتها وكان مرجعها الى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضا كما قال عز وجل في كتابه في خلق آدم فذكر مرة

أنه خلق من تراب ، ومرة أنه خلق من حمأ مسنون ، ومرة من طين لازب ومرة من صلصال كالفخار . فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها أيضا فى الأحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحمأة ، والحمأة غير التراب إلا أن مرجعها كلها فى الأصل الى جوهر واحد وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال فقوله سبحانه وتعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) وقوله ﷺ «إن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته » معنى واحد فى الأصل إلا أن قوله ﷺ «مسح ظهر آدم» زيادة فى الخبر عن الله عز وجل ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته منه مسح لظهور ذريته واستخراج ذرياتهم من ظهورهم ، كما ذكر تعالى لأنا قد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه ، لكن لما كان الطبق الأول من صلبه، ثم الثانى من صلب الأول ، ثم الثالث من صلب الثانى جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فرعه وهو أصلهم ، وكما جاز أن يكون ما ذكر الله عز وجل أنه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم جاز أن يكون ما ذكر ﷺ أنه استخرجه من ظهر آدم من ظهور ذريته ، إذ الأصل والفرع شىء واحد . وفيه أيضا أنه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم فى الخبر احتمل أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم كما قال عز وجل (فظلت أعناقهم لها خاضعين) والخبر فى الظاهر عن الأعناق والنعت للأسماء المكنية فيها وهو مضاف اليها كما كان آدم مضافا اليه هناك ، وليست جميعا بالمقصودين فى الظاهر بالخبر ، ولا يحتمل أن يكون قوله (خاضعين) للأعناق لأن وجه جمعها خاضعات ، ومنه قول الشاعر :

وتشرق بالقول الذى قد أذعته * كما شرقت صدر القناة من الدم

فالصدر مذكر وقوله شرقت أنث لإضافة الصدر إلى القناة اه

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ

أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)

هذا مثل ضرب به الله تعالى للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله ﷺ على ما أيدها به من الآيات العقلية والكونية ، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها حافظاً لقواعدها وأحكامها ، قادراً على بيانها والجدل بها ، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفاً لعلمه تمام المخالفة ، فسلبها لأن العلم الذى لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبه الحية التى تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض (ويسمى هذا الجلد المسلاخ) أو كان فى التباين بين علمه وعمله كالمنسلخ من العلم التارك له ، كالثوب الخلق يلقيه صاحبه والثعبان يتجرد من جلده حتى لا تبقى له به صلة ، على حد قول الشاعر :

خلقوا ، وما خلقوا لمكرمة   فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا ، وما رزقوا سماح يد   فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فحاصل معنى المثل : أن المكذبين بآيات الله تعالى المنزلة على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه على إيضاحها بالحجج والدلائل كالعالم الذى حرم ثمرة الانتفاع من علمه ، لأن كلا منهما لم ينظر فى الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص وهاك تفسير الآيات بما يدل عليه نظمها العربى ، ويتلوه ما ورد من الروايات فيها ونظرة فيه ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ التلاوة القراءة وإلقاء الكلام الذى يعاد ويكرر للاعتبار به ، والضمير فى عليهم للناس المخاطبين بالدعوة وأولهم كفار مكة . والسورة مكية ، وقيل لليهود لأن المثل تابع لقصة موسى فى السورة ، والنبأ الخبر الذى له شأن ، وهذا الذى آتاه الله آياته من مبهمات القرآن لم يبين الله ولا رسوله فى حديث صحيح عنه اسمه ولا جنسه ولا وطنه لأن هذه الأشياء لا دخل لها فيما أنزل الله تعالى الآيات لبيانه . وانسلاخه منها

تجرده وانسلاله منها وتركه إياها بحيث لا يلتفت إليها لا اهتداء ولا اعتبار ولا عمل والتعبير بالانسلاخ المستعمل عند العرب فى خروج الحيات والثعابين أحياناً من جلودها يدل على أنه كان متمكناً منها ظاهراً لا باطناً

﴿ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ أى فترتب على انسلاخه منها باختياره أن لحقه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة له إذ لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة ما يحول دون قبول وسوسته ، وأعقب ذلك أن صار من الغاوين أى الفاسدين المفسدين

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أى ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات إلى درجات الكمال والعرفان ، التى تقرن فيها العلوم بالأعمال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) — لفعلنا ، بأن نخلق له الهداية خلقا ، ونحمله عليها طوعاً أو كرهاً ، فان ذلك لا يعجزنا ، وإنما هو مخالف لسنتنا .

﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ أى ولكنه اختار لنفسه التسفل المنافى لتلك الرفعة بأن أخلد ومال إلى الأرض وزينتها وجعل كل حظه من حياته التمتع بما فيها من اللذائذ الجسدية ، فلم يرفع إلى العالم العلوى رأساً ، ولم يوجه إلى الحياة الروحية الخالدة عزما ، واتبع هواه فى ذلك فلم يراع فيه الاهتداء بشىء مما آتيناه من آياتنا ، وقد مضت سنتنا فى خلق نوع الانسان بأن يكون مختاراً فى عمله ، المستعد له فى أصل فطرته ، ليكون الجزاء عليه بحسبه ، وأن نبتليه ونمتحنه بما خلقنا فى هذه الأرض من الزينة والمستلذات (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) ونولى كل انسان منهم ماتولى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)

وقد مضت سنتنا أيضاً بأن اتباع الانسان لهواه بتحريه وتشهيه ماتميل إليه نفسه فى كل عمل من أعماله دون ما فيه المصلحه والفائدة له من حيث هو جسد

وروح ، يضله عن سبيل الله الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ويتعسف به فى سبل الشيطان المردية المهلكة قال تعالى لخليفته داود عليه السلام (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال تعالى فى أول ماأوحاه إلى كليمه موسى عليه السلام بعد ذكر الساعة (فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى) وقال جل جلاله لخاتم أنبيائه عليه صلواته وسلامه (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) والآيات فى ذم الهوى والنهى عنه كثيرة وحسبك منها قوله (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)

وحاصل معنى الشرط والاستدراك : أن من شأن من أوتى آيات الله تعالى أن ترتقى نفسه ، وترتفع فى مراقى الكمال درجته لما فيها من الهداية والإرشاد والذكرى ، وإنما يكون ذلك لمن اخذ هذه الآيات وتلقاها بهذه النية « وإنما لكل امرىء مانوى » وأما من لم ينو ذلك ولم تتوجه إليه نفسه وإنما تلقى الآيات الالهية اتفاقا بغير قصد ، أو بنية كسب المال والجاه ، ووجد مع ذلك فى نفسه مايصرفه عن الاهتداء بها فلن يستفيد منها ، وأسرع به ان ينسلخ منها ، فهو يقول: لو شئنا لرفعناه بها لأنها فى نفسها هدى ونور ، ولكن تعارض المقتضى والمانع وهو إخلاده إلى الأرض واتباع هواه

قالوا فلان عالم فاضل فأكرموه مثلما يقتضى
فقلت : لما لم يكن عاملا تعارض المانع والمقتضى

﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ اللهث بالفتح واللهاث بالضم: التنفس الشديد مع إخراج اللسان، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والاعياء أو العطش ، وأما الكلب فيلهث فى كل حال سواء أصابه ذلك أم لا ، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تركته وادعاً آمناً ، وهذا الرجل صفته كصفة الكلب فى حالته هذه وهى أخس أحواله وأقبحها ، والمراد والله أعلم ـ أنه كان من إخلاده إلى الأرض واتباع هواه فى أسوأ حال ، خلافا لما كان يبغى من نعمة العيش وراحة البال ، فهو فى هم دائم مما شأنه أن يهتم به ، وما شأنه أن لا يهتم به من صغائر الأمور وخسائس الشهوات ، كدأب عباد الأهواء

وصغار الهمم تراهم كاللاهث من الإعياء والتعب وإن كان مايعنون به ويحملون همه حقيراً لا يتعب ولا يعيي ، ولا ترى أحداً منهم راضياً بمـا أصابه من شهواته وأهوائه ، بل يزيد طمعا وتعباً كلما أصاب سعة وقضى أربا

فما قضى منها أحد لبانته ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى ذلك الأمر البعيد الشأو فى الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين ، والمقلدين الجاهلين ، كذبوا لظنهم أن الإيمان بها يسلبهم مايفخرون به من العزة والعظمة باتباعهم لغيرهم ، ويحط من قدر آبائهم وأجدادهم الذين قلدوهم فى ضلالهم ، ويحول دون تمتعهم بما يشتهون من لذاتهم ، فلهذا الظن الباطل لم ينظروا فى الآيات نظر تفكر واستقلال ، وتبصر واستدلال ، بل نظروا إليها – لا فيها – من جهة واحدة وهى أن اتباعها يحط من أقدارهم ، ويعد اعترافا بضلال سلفهم الذين يفخرون بهم ، ويحرمهم التمتع بحظوظهم وأهوائهم

فكان مثلهم مثل الذى أوتى الآيات فانسلخ منها ، وذلك لا يعيب الآيات وإنما يعيب أهل الأهواء الذين حرمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها ، وكأين من إنسان حرم الانتفاع بمواهبه الفطرية بعدم استعماله إياها فيما يرفعه درجات فى العلم والعمل ، وكأين من إنسان استعمل حواسه فى الضر ، وعقله وذكاءه فى الشر ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أى فاقصص أيها الرسول قصص ذلك الرجل المشابهة حاله لحال هؤلاء المكذبين بما جئت به من الآيات البينات فى مبدإ أمره وغايته ، ومعناه وصورته ، رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم ، على التفكر والتأمل ، فاذا هم تفكروا فى ذلك تفكروا فى المخرج منه ، ونظروا فى الآيات ، وما فيها من البينات ، بعين العقل والبصيرة ، لا بعين الهوى والعداوة ، ولا طريق لهدايتهم غير هذه ، والآية تدل على تعظيم شأن ضرب الأمثال فى تأثير الكلام وكونه أقوى من سوق الدلائل والحجج المجردة ، ويدل على تعظيم شأن التفكر ،

وكونه مبدأ العلم وطريق الحق ، ولذلك حث الله عليه فى مواضع من كتابه ، وبين أن الآيات والدلائل إنما تساق إلى المتفكرين لأنهم هم الذين يعقلونها وينتفعون بها

وقد تكرر قوله تعالى (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فى عدة سور من القرآن ، وقد قال تعالى ضاربا مثلا للحياة الدنيا والغرور بها يناسب سياقنا هذا (١٠ : ٢٤ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) وقد قال بعض علماء الغرب : إن الفارق الحقيقى بين الانسان المدنى ، والإنسان الوحشى هو التفكر اه . فبقدر التفكر فى آيات الله تعالى المنزلة على رسوله وآياته فى الانفس والآفاق ، وسننه وحكمه فى البشر وسائر المخلوقات ، يكون ارتقاء الناس فى العلوم والأعمال ، من دينية ودنيوية

﴿ ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أى ساء مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا فى الامثال ، وقبحت صفتهم فى الصفات ، وما كانوا بما اختاروه لأنفسهم من الاعراض عن التفكر فى الآيات ، ومن النظر اليها نظر العدو الشانىء يظلمون أحداً وانما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها ، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادة الدنيا والآخرة

هذه مافهمته من معنى الآيات كتبته (بمكة المكرمة) وليس عندى شىء من كتب التفسير أستعين به على الفهم ، وكنت قرأت تفسيرها فى بعض الكتب ولكن لم يبق منه فى ذهنى إلا تنازع الأشعرية والمعتزلة فى تفسير (ولو شئنا لرفعناه بها) هل يدل على مشيئة الله تعالى لضلال الرجل أم لا ، ولاشك فى أن الله يفعل مايشاء ، وأن كل شىء يقع بمشيئته ، ولكن مشيئته تجرى فى العالم بمقتضى سننه وتقديره — وإلا ماورد فى الروايات المأثورة من قصة الرجل الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وأن أكثرها على أنه من بنى إسرائيل وأن اسمه (بلعام) واسم

أبيه (باعورا) وهذا مما تلقاه أولئك المفسرون من الإسرائيليات وصار ينقله بعضهم عن بعض لثقتهم بالراوى لكونه ممن اغتروا بصلاحهم ككعب الأحبار ووهب بن منبه . وهاك خلاصة تلك الروايات . منقولة عن الدر المنثور للحافظ السيوطى

قال رحمه الله تعالى

قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية أخرج الفريابى وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه عن عبدالله بن مسعود (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن أبر ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء وفى لفظ بلعام بن عامر الذى أوتى الاسم كان فى بنى إسرائيل

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) الآية ، قال : رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم تعلم اسم الله الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت دنياى وآخرتى فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخ مما كان فيه وفى قوله (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) قال : ان حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن طرد لهث

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه) الآية ، قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت اجعل لى منها واحدة ، قال : فلك واحدة فما الذى تريدين ؟ قالت ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت

عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليه، فدعا الله فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال ، هو رجل يدعى بلعم من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها . وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وفي لفظ نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت، وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال : قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فقال لها «هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً؟ » قالت نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يافارعة ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها »

وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال : قال أمية بن أبي الصلت :

ألا رسول لنا منا يخبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا

قال : ثم خرج أمية إلى البحرين وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام أمية بالبحرين ثماني سنين ، ثم قدم فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه (بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم) حتى فرغ منها، وثب أمية يجر رجليه فتبعته قريش تقول: ما تقول ياأمية ؟ قال : أشهد أنه على الحق ، قالوا فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر في أمره ، ثم خرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الاسلام ورجع إلى الطائف فمات بها ، قال ففيه أنزل الله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن نافع ابن عاصم بن عروة بن مسعود قال : اني لفي حلقة فيها عبد الله بن عمرو فقرأ

رجل من القوم الآية التي في الاعراف (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) فقال : أتدرون من هو ؟ فقال بعضهم هو صيفي بن الراهب ، وقال بعضهم هو بلعم رجل من بني اسرائيل ، فقال لا ، فقالوا من هو ؟ قال أمية بن أبي الصلت

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الشعبي في هذه الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : قال ابن عباس : هو رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن باعورا ، وكانت الأنصار تقول هو ابن الراهب الذي بني له مسجد الشقاق ، وكانت ثقيف تقول هو أمية بن أبي الصلت . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو صيفي بن الراهب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : هو نبي في بني إسرائيل يعني بلعم أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ماهم عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (فانسلخ منها) قال نزع منه العلم . وفي قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لرفعه الله بعلمه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال : بعث نبي الله موسى بلعام بن باعورا إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله وكان مجاب الدعوة ، وكان من علماء بني اسرائيل فكان موسى يقدمه في الشدائد فأقطعه وأرضاه فترك دين موسى وتبع دينه ، فأنزل الله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) قال كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لو شئنا لرفعناه بايتائه الهدى ، فلم يكن للشيطان عليه سبيل ، ولكن الله يبتلي من يشاء من عباده (ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) قال أبى أن يصحب الهدى ، فمثله (كمثل الكلب) الآية ، قال هذا مثل الكافر ميت الفؤاد كما أميت فؤاد الكلب

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه

آياتنا فانسلخ منها) قال أناس من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاهم الله من آياته وكتابه فانسلخ منها فجعله مثل الكلب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) قال لدفعنا عنه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض قال سكن (إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) إن تطرده بدابتك ورجليك وهو مثل الذى يقرأ الكتاب ولا يعمل به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (ولكنه أخلد إلى الأرض) قال ركن ، نزع. وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (إن تحمل عليه) قال : إن تسع عليه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله إن تحمل عليه يلهث قال الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له، مثل الذى يترك الهدى ، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع كان ضالا قبل أو بعد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن المعتمر قال : سئل أبوا المعتمر عن هذه الآية (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) فحدث عن سيار: أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان قد أوتى النبوة وكان مجاب الدعوة ، ثم إن موسى أقبل فى بنى إسرائيل يريد الأرض التى فيها بلعام ، فرعب الناس منه رعبا شديداً فأتوا بلعام فقالوا : ادع الله على هذا الرجل ، قال حتى أؤامر ربى فآمر فى الدعاء عليهم فقيل له لا تدع عليهم ، فان فيهم عبادى ، وفيهم نبيهم. فقال لقومه: قد آمرت فى الدعاء عليهم وإنى قد نهيت ، قال فأهدوا إليه هدية فقبلها ، ثم راجعوه فقالوا : ادع الله عليهم ، فقال حتى أؤامر فآمر فلم يحار اليه شىء ، فقال قد آمرت فلم يحار إلى شىء ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى فأخذ يدعو عليهم فاذا دعا جرى على لسانه الدعاء على قومه ، فاذا أرسل أن يفتح على قومه جرى على لسانه أن يفتح على موسى وجيشه ، فقالوا ما نراك إلا تدعوا علينا . قال : ما يجرى على لسانى إلا هكذا ، ولو دعوت عليهم ما استجيب لى ، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم ان الله يبغض الزنا ، وإن هم وقعوا بالزنا هلكوا فأخرجوا النساء فانهم قوم مسافرون فعسى أن يزنوا فيهلكوا

فأخرجوا النساء تستقبلهم فوقعوا بالزنا فسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً · وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال : كان اسمه بلعم وكان يحسن اسما من أسماء الله فغزاهم موسى فى سبعين ألفا ، فجاءه قومه فقالوا : ادع الله عليهم ، وكانوا إذا غزاهم أحد أتوه فدعا عليهم فهلكوا ، وكان لا يدعو حتى ينام فينظر مايؤمر به فى منامه ، فنام ، فقيل له ادع الله لهم ولا تدع عليهم، فاستيقظ فأبى أن يدعو عليهم ، فقال لهم زينوا لهم النساء فانهم إذا رأوهن لم يصبروا) حتى يصيبوا من الذنوب فتدالوا عليهم اه

ذلك ما لخصه السيوطى عن رواة التفسير المأثور ، وكله مما انخدع به بعض الصحابة والتابعين من الإسرائيليات ان صحت الروايات عنهم ، وبعضها قوى السند . وقد أورد الحافظ ابن عساكر فى تاريخه جل هذه الروايات وزاد عليها وانتقد بعضها ، وذكر أن من رواتها كعب الأحبار ووهب بن منبه ، ومما عزاه إلى رواية وهب وفيه مخالفة لغيره أن قصة بلعام كانت فى قتال فرعون من الفراعنة لأمة موسى بعد وفاته وان بلعام من أنبياء بنى إسرائيل ؛ وذكر عنه رواية أخرى وقال بعد سياق طويل للقصة لاحاجه إلى نقله مانصه :

« وحكيت هذه القصة عن كعب وفيها ان معسكر موسى عليه السلام كان بأرض كنعان من الشام بين أريحا وبين الأردن وجبل البلقاء والتيه فيما بين هذه المواضع ، ثم ساق القصة على نمط ماتقدم إلا أن فيها بدل « اندلع لسانه » وجاءته لمة فأخذت بصره فعمى .

« وحكى عن وهب انه قال : ان بلعام أخذ أسيرا فأتى به إلى موسى فقتله (قال) وهكذا كانت سنتهم انهم يقتلون الأسرى (قال) فقوله تعالى (فانسلخ منها) يقول الإسم الأعظم الذى أعطاه الله عز وجل إياه

وروى محمد بن إسحق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال « كان مثل بلعم بن باعورا فى بنى اسرائيل كمثل أمية بن أبى الصلت فى هذه الأمة »

(قال ابن عساكر) قلت : والحديث موقوف على ابن المسيب ، فتأمل (??)

(قال) « وأقول : فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر العدد من التوراة ذكر بلعام

وقصته مطولة وهى أشبه برواية وهب ، غير أن الذين دونوا التوراة الموجودة اليوم برءوا بلعام فقالوا إنه ذهب إلى منزله ولم يدع على بنى إسرائيل ولم يصبه شيء ، فان كانت الآيات نزلت فى حكاية بلعام فيكون القرآن قدأظهر ماكتمه التوراتيون وأظهر ماخبأوه ويكون هذا من جملة المعجزات الدالة على أن القرآن من عند الله تعالى وإن كانت فى غيره فالله أعلم بمن نزلت . على أن الصحيح أن الآيات شاملة لكل من كانت هذه صفته من كل من آتاه الله الآيات التى هى الحجج التى جاء بها الأنبياء ثم انه انسلخ منها — إلى أن قال — والصواب فى تفسير هذه الآية : أنه لايخص منه شيء إذا كان لا دلالة على خصوصه من خبر ولا عقل» اهـ المراد من كلام ابن عساكر

أقول : ان هذا الحافظ كان مطلعاً على التوراة التى فى أيدى أهل الكتاب وهى عين التى بين أيدينا منها إلا ما فى اختلاف الترجمات القديمة والحديثة من الفروق، وهى وان كان فيها اختلاف فى المعانى فان يصل الى الحد الذى فى روايات وهب وكعب وغيرهما من رواة الاسرائيليات الكاذبة . وابن عساكر يرجح قول وهب على ما فى التوراة لأنه ثقة عنده فى الرواية ويعد روايته دليلا على معجزة للقرآن ، ولو ذكر القرآن ان الرجل الذى آتاه الله آياته هو بلعام هذا أو لو صح هذا فى خبر مسند متصل عن النبى ﷺ لكان صحيحاً ، ولكن يجب أن نعلم من أين جاء وهب بهذه القصة، وهو لم يكن الا راوياً لما عند أهل الكتاب وماقاله مخالف لما عندهم ؟

وقصة بلعام مفصلة فى الفصول ٢٢ ـ ٢٤ من سفر العدد وفيها أنها وقعت فى « عربات موآب من عبر أردن أريحا » من أرض مدين كما نقول (أو مديان كما يقولون) وأن بالاق بن صفور (بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء) ملك الموآبين طلب من بلعام بن بعور أن يلعن بنى إسرائيل لينصره الله عليهم ووعده بمال كثير ، فأوحى الله الى بلعام أن لا يفعل فلم يفعل

وفى قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست أن بلعام هذا من قرية فثور من بين النهرين قال « وكان نبيا مشهوراً فى جيله، والظاهر انه كان موحداً يعبد

الله(!!)وليس ذلك بعجيب لانه من وطن ابرهيم الخليل حيث يظن ان جرثومة تلك العبادة كانت لم تزل معروفة عند أهل تلك البلاد ما بين النهرين فى أيام ذلك الرجل ، وقد ذاع صيت هذا النبى بين أهل ذلك الزمان فملا شأنه وصارت الناس تقصده من جميع أنحاء البلاد ليتنبأ لهم عن أمور مختصة بهم أو ليباركهم ويبارك مقتنياتهم وما أشبه » ثم ذكر حكاية ملك موآب معه ، فعلى ذلك يكون بلعام عراقياً لا اسرائيلياً ولا موآبياً

وذكر البستانى فى دائرة المعارف العربية ملخص قصة بلعام ثم قال: و بعض مفسرى الكتاب المقدس المدققين ذهب الى ان قصة بلعام المدرجة فى سفر العدد من الاصحاح ٢٢ — ٢٤ دخيلة الخ فتأمل

وجملة القول : أن هذه الروايات الاسرائيلية لايعتد بشىء منها ، ولا قيمة لأسانيدها ، لان من ينتهى اليه السند قد اغتر ببعض ملفقى الاسرائيليات حتما، وقد رأينا شيخ المفسرين ابن جرير لم يعتد بها . ونرجو — وقد راجعنا أشهر ما لديناا من كتب التفسير — أن يكون ما بينا به معنى الآيات أصحها وأكبرها فائدة

وأكبر وجوه العبرة فيها ما نراه من حال علماء الدنيا اللابسين لباس علماء الدين الذين هم أظهر مظاهر المثل فى الانسلاخ من آيات الله والاخلاد الى الأرض واتباع أهوائهم وتفانيهم فى إرضاء الحكام ، وان كانوا مرتدين ، والعوام وان كانوا مبتدعة خرافيين، وهم فتنة للنابتة العصرية تصدهم عن الاسلام، وللعوام فى الثبات على الخرافات والاوهام ، ومنها عبادة القبور بدعاء موتاها فيما لا يطلب الا من الله تعالى ، والطواف بها والنذر لها وغير ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

---

(١٧٨) مَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٧٩) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا . أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ

هاتان الآيتان مقرونتان لمضمون المثل فى الآيات قبلها ، وهو أن أسباب الهدى والضلال إنما ينتهى كل نوع منها بالمرء المستعد إلى كل من الغايتين والعرضة لسلوك كل من النجدين ، بتقدير الله والسير على سننه فى استعمال مواهبه وهداياته الفطرية ، من العقل والحواس فى أحد السبيلين (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) وقد أجمل تعالى هذا المعنى فى الآية الأولى وفصله فى الثانية بإيجاز بديع فقال ﴿من يهد الله فهو المهتدى﴾ أى من يوفقه الله سبحانه وتعالى لسلوك سبيل الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة وإرشاد الدين فهو المهتدى الشاكر لنعمه تعالى الفائز بسعادة الدنيا والآخرة ﴿ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ أى ومن يخذله بالحرمان من هذا التوفيق فيتبع هواه وشيطانه فى ترك استعمال عقله وحواسه فى فقه آياته تعالى وشكر نعمه فهو الضال الكفور الخاسر لسعادة الدنيا والآخرة — لأنه يخسر بذلك مواهب نفسه التى كان بها إنساناً مستعداً للسعادة فتفوته هذه السعادة فوتاً إضافياً فى الدنيا وحقيقياً فى الآخرة .

وفى الآية من محاسن البديع الاحتباك وهو حذف الفوز والفلاح من الجملة الأولى للعلم به من إثبات نظيره ومقابله وهو الخسران فى الجملة الثانية ، وحذف الضال من الجملة الثانية لإثبات مقابله وهو المهتدى فى الجملة الأولى . وإفراد المهتدى فى الأولى مراعاة للفظ (من) وجمع الخاسرين فى الثانية مراعاة لمعناها فإنها من صيغ العموم . وحكمة إفراد الأول الاشارة به إلى أن الحق المراد من الهداية الإلهية نوع واحد وهو الإيمان المثمر للعمل الصالح ، وحكمة جمع الثانى الاشارة إلى تعدد أنواع الضلال كما تقدم بيانه مفصلا فى تفسير قوله تعالى من سورة الأنعام (٦ : ١٥٣ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)

وتفسير قوله تعالى من سورة البقرة (٢ : ٢٥٧ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) الآية [1].

ثم فصل تعالى مافى هذه الآية من الاجمال بقوله ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ﴾

(الذرء) فسروه بالخلق ، وذرأنا خلقنا كما قال ابن عباس وغيره وهو تفسير مراد ولكل مادة معنى خاص وقد تقدم معنى مادة خلق وسنعيده . وقال الراغب: الذرء إظهار الله تعالى ماأبداه . يقال ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم وذكر هذه الآية وغيرها وقال : وقرىء تذرؤه الرياح . وفى اللسان بعد تفسير الذرء بالخلق والاستشهاد بالآية : وقال عز وجل (خلق لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه) قال أبو اسحاق : المعنى يذرؤكم به أى يكثركم بجعله منكم ومن الأنعام أزواجاً . . ثم قال « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق وذرأ وبرأ » وكأن الذرء مختص بخلق الذرية . وفى حديث عمر (رض) كتب إلى خالد « وانى لأظنكم آل المغيرة ذرء النار » يعنى خلقها الذين خلقوا لها ، ويروى ذرو النار ، يعنى الذين يفرقون فيها ، من ذرت الريح التراب إذا فرقته اه المراد منه . وفى الأساس : ذرأنا الأرض وذروناها ، وذرأ الله الخلق وبرأ الخ

فاذا تأملت مع هذه الأقوال استعمال القرآن لهذا الحرف فى النبات والحيوان والانسان خاصة علمت أن الذرء فى أصل اللغة بمعنى بث الأشياء وبذرها وتفريقها وتكثيرها وان اسنادها إلى الله تعالى بمعنى خلق ذلك أى إيجاده ، كما أن أصل معنى الخلق التقدير ، ويسند إلى الله تعالى بمعنى إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لاجزافا ولهذا عطف الذرء والبرء على الخلق فى حديث الدعاء المتقدم .

(والجن) الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بحواس البشر ، ولعل تقديمهم هنا فى الذكر على الانس أنهم أكثر أهل جهنم لأنهم أجدر وأعرق فى الصفات الآتية التى هى سبب استحقاقها ، وكون خلق أصل نوعهم وأوله من

(١) آية الأنعام فى ص ١٩٤ ج ٨ تفسير وآية البقرة ص ٤٠ ج ٣

مارج من نار ، لايقتضي عدم تألمهم من النار كما قد يتوهم ، فان بين حقيقة نوع البشر وحقيقة الطين الذى خلق أبوهم منه بونا عظيما يقاس عليه الجن .

(والقلوب) جمع قلب وهو يطلق فى اللغة العربية على المضغة الصنوبرية الشكل التى فى الجانب الأيسر من جسد الانسان ، إذا كان موضوع الكلام جسد الانسان ، ويطلق عند الكلام فى نفس الانسان و إدراكه وعلمه وشعوره وتأثير ذلك فى أعماله على الصفة النفسية واللطيفة الروحية التى هى محل الحكم فى أنواع المدركات ، والشعور الوجدانى للمؤلمات والملائمات ، أعنى أنه يطلق بمعنى العقل وبمعنى الوجدان الروحى ، الذى يعبر عنه فى عرف هذا العصر بالضمير وهو تعبير صحيح . واشتقاق العقل من عقل البعير لمنعه من السير ، وفى معنى القلب اللب الذى هو جوهر الشىء و يكثر فى التنزيل . ومنه النهية وجمعها نهى ، ومنه قوله تعالى فى سورة طه (٢٠ : ١٢٨ ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) .

ومن استعماله فى معنى العقل قوله تعالى فى سورة الحج (٢٢ : ٤٦ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أوآذان يسمعون بها ؟ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وهى بمعنى الآية التى نفسرها وحذف منها (أو أعين يبصرون بها) استغناء عنه بدلالة مابعده عليه ، والآيات المبصرة بالأعين فى السياحة فى الارض أكثر من المسموعة ، ومن استعماله فى معنى الوجدان النفسى قوله تعالى فى سورة الزمر (٣٩ : ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة) وقوله فى سورة آل عمران والانفال (٣ : ٥١ و ٨ : ١٢ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) وقوله فى النازعات (٧٩ : ٨ قلوب يومئذ واجفة) فالاشمئزاز والرعب والوجيف شعور وجدانى ، لاحكم عقلى ، وقد يستعمل فى المعنيين معاً ، والاقرب ان منه فقه القلوب هنا فان الفقه لا يحصل إلا بنوع من الادراك يصحبه وجدان يبعث على العمل ، كما يعلم مما نذكره فى تحقيق معناه وقد يتعارض مقتضى العقل والوجدان ، كوجدان اللذة والألم والحب والبغض التى تحمل على أعمال مخالفة لحكم العقل فى المنافع والمضار .

وسبب استعمال القلب بمعنى الوجدان الحسى والمعنوى وهو الضمير ما يشعر

به المرء من انقباض أو انشراح عند الخوف والاشمئزاز والسرور والابتهاج ، ولذلك قال النبي ﷺ لوابصة حين جاء يسأله عن البر والاثم وقد علم ﷺ ذلك قبل السؤال « استفت قلبك ، البر مااطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والاثم ماحاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » رواه الامام أحمد والدرامى باسناد حسن ومسلم مختصراً . ثم توسعوا في استعماله فاستعملوه بمعنى الادراك العقلى المؤثر في النفس لا مطلق التصور والتصديق . فهو لا ينافي كون مركزهما الدماغ ، على ان الاستعمالات اللغوية ، لايجب أن توافق الحقائق العلمية .

(والفقه) قد فسروه بالعلم بالشيء والفهم له — وكذا بالفطنة كما في جل المعاجم أو كلها ، وقالوا : فقه (كعلم وفهم وزنا ومعنى) وقالوا فقه (ككرم وضخم) فقاهة أى صار الفقه وصفاً وسجية له ، وقال الراغب ، الفقه هو التوصل بعلم شاهد إلى علم غائب . قال السيوطى بعد نقله : فهو أخص من العلم .

وقال ابن الأثير في النهاية إن اشتقاقه من الشق والفتح . أى هذا معناه الأصلى فهو كالفقء بالهمزة ، وهى تتعاقب مع الهاء لاتحاد مخرجهما ، وذكر الحكيم الترمذى هذا واستدل به على أن الفقه بالشيء هو معرفة باطنه والوصول إلى اعماقه ، فمن لا يعرف من الأمور إلا ظواهرها لايسمى فقيها . وذكر أصحاب المعاجم أن اسم الفقه غلب على علم فروع الشريعة ، أى من العبادات والمعاملات وهو اصطلاح حادث لايفسر به ماورد في الكتاب والسنة من هذه المادة ، والتحقيق أنهم لم يكونوا يسمون كل من يعرف هذه الفروع فقيهاً كما ترى من عبارة الغزالى الآتية ولغيرهما هو أوضح منها ، فقد اشترطوا فيه معرفتها بدلائلها .

وذكر الغزالى في (بيان ما بدل من ألفاظ العلوم) أن لفظ الفقه تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها . . . (قال) ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله تعالى (ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) وما يحصل

به الانذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والاجارة ، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه ، كما نشاهد الآن من المتجردين له : وقال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها) وأراد به معانى الإيمان دون الفتوى اهـ وروى عن أبى حنيفة تفسيره بمعرفة النفس مالها وما عليها

وأقول : ذكرت هذه المادة فى عشرين موضعاً من القرآن تسعة عشر منها تدل على أن المراد به نوع خاص من دقة الفهم ، والتعمق فى العلم ، الذى يترتب عليه الانتفاع به ، وأظهره نفى الفقه عن الكفار والمنافقين ، لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفى فقهه عنهم ، ففاتتهم المنفعة من الفهم الدقيق والعلم المتمكن من النفس ومنه قول قوم شعيب لنبيهم (١١:٩١ ما نفقه كثيراً مما تقول) وأن ترائى لغير الفقيه أنه ليس منه ، فانهم كانوا يفهمون كل ما يقول فهما سطحياً ساذجاً لأنه يكلمهم بلغتهم ، ولكن لم يكونوا يبلغون ما فى أعماق بعض الحكم والمواعظ من الغايات البعيدة لعدم تصديقهم اياه ، وعدم احترامهم له ، ولأنه مخالف لتقاليدهم وأهوائهم الصادة لهم عن التفكير فيه والاعتبار به . وأما الموضع العشرون فهو قوله تعالى حكاية عن نبيه موسى (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) وهو لا ينافى ماذكر لأن فصاحة لسان الداعية إلى الدين والواعظ المنذر تعين على تدبر ما يقول وفقهه

إذا تمهد هذا فقوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها) معناه : نقسم أننا قد خلقنا وبثثنا فى العالم كثيراً من الجن والانس لأجل سكنى جهنم والمقام فيها ، أى كما ذرأنا للجنة مثل ذلك ، وهو مقتضى استعداد الفريقين (فمنهم شقى وسعيد)(فريق فى الجنة وفريق فى السعير) و بماذا كان هؤلاء معدين لجهنم دون الجنة ، وماصفاتهم المؤهلة لذلك ؟

(الجواب) : ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها الخ أى لا يفقهون بقلوبهم ما تصلح وتتزكى به أنفسهم من توحيد الله المطهر لها من الخرافات والأوهام ، ومن المهانة والصغار ، فان من يعبد الله تعالى وحده عن إيمان ومعرفة تعلو نفسه ، وتسمو بمعرفة ربه رب

العالمين ، ومدبر الكون بتقديره وسننه ، فلا تذل نفسه بدعاء غيره ، والخوف منه ، والرجاء فيه ، والاتكال عليه ، بل يطلب كل مايحتاج إليه من ربه وحده ، فإن كان مما أقدر الله تعالى عليه خلقه باعلامهم بأسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه ، مراعيا فى طلبه ما علمه من مقادير الخلق وسننه ، وذلك عين الطلب من الله تعالى ولا سيما فى نظر العالم بما ذكر ، وان لم يكن كذلك توجه إلى الله وحده لهدايته إلى العلم بما لا يعلم من سببه ، واقداره على مالا يقدر عليه من وسائله أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه ، أو إيصاله إليه ، ممن أعطاهم من أسبابه ما لم يعطيه ، كالأطباء لمداواة الأمراض ، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال ، والعلماء الراسخين لبيان الحقيقة وحل الاشكال ، ولايتوجه مثل هذا العارف الموحد فى طلب شىء إلى غير مايعرف البشر من الأسباب المطردة ، والوسائل المعقولة المجربة ، كالرقى والنشرات ، والتناجيس والطلسمات ، والعزائم والتبخيرات[1] ولا كرامات الصالحين من الأحياء والأموات ، دع التقرب إليهم بما يعد من العبادات ، كالدعاء الذى هو

(١) الرقى بالضم جمع رقية (كغرف جمع غرفة) وهى ما يقرأ على الملدوغ أو المريض ليبرأ أو يخف ألمه ، ومنه ما يفيد ولا سيما أصحاب الامزجة العصبية الذين يؤثر فيهم الوهم والاعتقاد ، وهى جائزة لذلك إذا كان المقروء حقا كالقرآن وذكر الله ، ومحرمة إذا كان فيه شىء منكر أو مجهول . ولما كان الانتفاع بالرقية غير مطرد جعل النبى ﷺ الاسترقاء مانعا من دخول الجنة بغير حساب ومنافيا للتوكل على الله تعالى ، بخلاف التداوى . والنشر ما يكتب للمريض ويحرق أو يشرب ماؤه بعد أن يذاب ليشفى ، وقد حرمها الفقهاء بالمجهول . والتناجيس ما يعلق على الأطفال وغيرهم من عظم وخرز وغير ذلك لمنع تأثير العين وإلمام الشياطين ، والطلسمات جمع طلسم بكسر الطاء وتشديد اللام والأشهر بفتح فكسر وجمعه طلاسم ، وهو خرافة يكتبون لها أرقاما فى أشكال هندسة للتأثير الخارق للعادة ، والعزائم أقسام يقسم بها على الجن لتخرج من المصروع أو لتحمل على عمل آخر ويحرقون فى أثناء تلاوتها البخور ، وكل هذا من أعمال السحر القديمة خلط بها سحرة المسلمين ومشعوذوهم أسماء الله تعالى . قال ابن حجر الهيتمى - بعد الجزم بتحريم العزائم المقروءة والمكتوبة ان كان فيها اسم لا يعرف معناه وكذلك الرقية - قال مانصه : وماعدا ذلك من التبخيرات والتدخينات ونحوهما مما اعتاد السحرة والفجرة — الحرام الصرف بل الكبير بل الكفر بتفصيله المشهور عندنا ، ومطلقا عند مالك وغيره اهـ

مخ العبادة والركن الأعظم فيها كما ورد فى الحديث والله تعالى يقول (فلا تدعوا مع الله أحدا) ويقول (بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) ويقول (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) ويقول (أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه) ويقول (فلا تخشوهم واخشونى) الخ ويقول (وعلى الله فتوكلوا) ويقول (وعلى الله فليتوكل المتوكلون)

ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها أن ترك الشرور والمنكرات ، والحرص على أعمال الخيرات ، وإن شئت فقل : واجتناب الرذائل ، والتحلى بالفضائل — مناط سعادة الدنيا ، وبها مع الايمان بالله واليوم الآخر يتم الاستعداد لسعادة الآخرة ، وأنها لا يمكن أخذ الناس بها فعلا وتركا ، وسراً وجهرا ، إلا بالتربية الدينية الصحيحة ، ولذلك ترى أعلمهم بصفات النفس البشرية وأخلاقها، وقوانين التربية الصورية وآدابها ، يجنون على أجسادهم وأنفسهم بالاسراف فى الشهوات، والاحتيال على كثرة المقتنيات ، والتعالى على الاقران واللذات، فيجترحون فواحش الزنا واللواط ، ويقترفون جريمتى الرشوة والقمار ، ويستحلون منكرات الحسد والاستكبار، ومنهم أكثر الخونة أعوان الأجانب على استعبادأمتهم، وامتلاك أوطانهم

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها معنى الحياة الروحية ، واللذات المعنوية ، والسعادة الأبدية (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها معنى الآيات الإلهية فى الأنفس والآفاق ، ولا آياته التى يؤيد بها رسله من علميات وكونيات ، وأظهر آياته العلمية الباقية إلى آخر الزمان ، ما أودعه منها فى كتابه القرآن المنزل على رسوله الأمى ﷺ كالعلوم الآلهية والتشريعية والأدبية والاجتماعية، وأخبار الغيب الماضية والآتية ، فهم ينظرون فى ظواهر هذه الآيات ، ويتكلفون لها غرائب التأويلات، ولذلك قال تعالى فى موضوع الآيات (٦ : ٦٦ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض . أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون)[1] وقال (٦: ٩٨ وهو الذى أنشأ كم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد

(١) راجع تفسيرها فى ص ٤٩٠ ج ٧ تفسيرو تطبيقها على حالهم فى الحرب العظمى

فصلنا الآيات لقوم يفقهون) وقال فى عدم فقههم للقرآن (٦ : ٢٦ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وان يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين) وهذه الآية جمعت حرمانهم هداية القلوب والاسماع والابصار فهى شاهد لكل ما جاء فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها ، ومثلها فى سورتى الاسراء (١٧ : ٤٥ و ٤٦) والكهف (١٨ : ٥٥) ولكن الشاهد فيهما على نفى هداية القلوب والاسماع فقط ، إذ هو المناسب الموضوع

ذلك بأن لهم قلوبا لايفقهون بها أسباب النصر على الاعداء من روحية وعقلية ، واجتماعية وآلية ، التى نصر الله بها المؤمنين على الكافرين فى عهد الرسول ﷺ ثم فى عهد الخلفاء الراشدين والمدنيين فى الاسلام ، وجعل العشرة منهم أهلا لغلب المائة فى طور القوة ، والمائة أهلا لغلب المائتين فى طور الضعف ، وعلل ذلك بأن الكفار قوم لايفقهون (الانفال ٨ : ٦٦) وقال فى سورة الحشر (٥٩ : ١٣ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لايفقهون) فمن آيات الدين فى المؤمن أن يكون أفقه من الكافر بنظم الحرب وأسباب النصر الصورية والمعنوية وأ كل اتصافا بها ، وتمتعاً بثمرها . فأين هذا الايمان من مسلمى هذا الزمان؟

ذلك بأن لهم قلوبا لايفقهون بها سنن الله تعالى فى الاجتماع ، وتأثير العقائد الدينية فى جمع الكلمة وقوة الجماعات ، ولاسيما فى عهد النبوة وزمن المعجزات ، ولا يفقهون بها إدالة الله لأهل الحق من أهل الباطل ، بل يحكمون فى ذلك بما يبدو لعقولهم القاصرة من الظواهر ، دون ماوراءها من الفقه الباطن ، كما حكاه الله تعالى عن المنافقين فى آخر سورة التوبة من كونهم لايزدادون بنزول سور القرآن إلا رجساً أى خبثاً ونفاقا ، وكونهم يفتنون ويمتحنون مراراً ، ولايفيدهم ذلك توبة ولا ادكاراً ، حتى إذا ما أنزلت سورة فروا من سماعها فراراً ، لايخافون أن يراهم الله ولكن يخافون أن يراهم المؤمنون (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون) وما حكاه تعالى عنهم فى سورتهم من قصر نظرهم وظلمة بصيرتهم إذ توهموا

أنهم يقنعون المؤمنين من الأنصار بترك الإنفاق على إخوانهم المهاجرين ، وأن ذلك كاف فى انفضاضهم من حول الرسول ﷺ (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا. ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) أى لا يفقهون سر كفاية الله تعالى رسوله والمؤمنين وكفالته لهم ، ولا يفقهون أن سبب إنفاق الأنصار الأبرار رضوان الله تعالى عليهم هو الإيمان الصادق الذى هو أقوى البواعث على بذل المال والنفس فى سبيل الله تعالى ابتغاء مرضاته، فلا يؤثر فيهم قولهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله - إلا احتقارهم لهم على نفقاتهم، وثباتهم على إنفاقهم - لا يفقهون هذا ولا ذاك لأنهم محرومون من وجدان الإيمان ، وإيثار ما عند الله تعالى على جميع ما فى هذه الدار الفانية من متاع

وجملة القول : أن نفى الفقاهة عن قلوب المخلوقين لجهنم يشمل كل ما ذكرنا ، وما فى معناه من أمور الدين وأمور الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس. ومن العبرة فيه : أن الذين يدعون الإيمان فى هذا الزمان لهم قلوب لا يفقهون بها ما ذكر . ولا يعلمون أن من فقهه فهو المخلوق للجنة كما يؤخذ من الحكم على أن من لم يفقهه مخلوق لجهنم، بل صار كثير ممن لا يوصفون بإيمان ولا إسلام يفقهون من سنن الله تعالى المشار الى بعضها فى القرآن مالا يفهمون كأسباب النصر فى الحرب ولذلك نراهم ينصرون فيها على هؤلاء .والله تعالى يقول للمؤمنين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ويقول فيهم (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وليس المعنى أنه ينصرهم بخوارق العادات ، بل إنهم بمقتضى الإيمان هم الذين يفقهون أسباب النصر المادية والمعنوية. وفقاهة الأمر تقتضى العمل بموجبه ، والآيات حجة على المسلمين الجغرافيين بأنهم غير مؤمنين ، وأن لدى أعدائهم من العلم وأخلاق الإيمان أكثر مما عندهم ، وإن لم يبلغوا بها مرتبة الإيمان الاسلامى الكامل . ثم إنهم بعد ذلك يعدون جهلهم وخذلانهم حجة على الإسلام، ويزعمون أنه هو سبب حرمانهم النصر ، والترقى فى معارج العمران — (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) حقيقة الاسلام ، ولا يدرون ما الكتاب

وما الإيمان ، فالقرآن حجة عليهم ، وهم أجهل وأضل من أن يكونوا حجة على القرآن .

وقوله تعالى (لهم قلوب لايفقهون بها) أبلغ من أن يقال: ليس لهم قلوب يفقهون بها لأن إثبات خلق القلوب لهم ، هو موضع قيام الحجة عليهم ، والتعبير الآخر يصدق بأمرين: بعدم وجود القلوب لهم بالمرة ، و بوجود قلوب لايفقهون بها ، وفي الحالة الأولى لاتقوم عليهم حجة لأنهم لم يؤتوا آلة التكليف وهو العقل والوجدان. فلا تكون العبارة نصاً فى قيام الحجة لاحتمالها عدم التكليف. وإنما قال (لايفقهون بها) ولم يقل «لا تفقه» لبيان أنهم هم المؤاخذون بعدم توجيه إرادتهم لفقه الأمور واكتناه الحقائق ، و يقال مثل هذا وما قبله فيما بعده وهو :

﴿ ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها ﴾ ومعنى الجملتين يفهم إجمالا مما فسرنا به فقه القلوب تفصيلا ، أى ولهم أبصار وأسماع لايوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات الله فى خلقه ، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى فى خلقه ، فيهتدوا بكل منها مافيه إلى سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم . وأما التفصيل فيؤخذ من آيات القران الكثيرة المرشدة إلى النظر فى آياته تعالى فى الأنفس والآفاق وفى تدبر القرآن ، وكذا الاستفادة مما يروى و يؤثر من تاريخ البشر ، فان الآذان قد خلقت للانسان ليستفيد من كل مايسمع ، لا من القران فقط ، كا أن الأبصار خلقت له ليستفيد من كل مايبصر ، و إنما يكون ذلك على كماله بتوجيه إرادته إلى استعمال كل منهما فيما خلق له. قال تعالى فى آخر سورة الم السجدة (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم؟ إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ؟ * أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرُز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم. أفلا يبصرون ؟) فهذان مثلان للايات البصرية والسمعية وأمثالها كثير ، ولكن أكثر الذين يسمون أنفسهم أهل القرآن لايفقهون شيئا منها ، وليس الفقه عندهم إلا تقليد علماء فروع الأحكام العملية فيما كتبوه منها ، وقد يكون فى حكايتها دون العمل بها .!!

وفى معنى ماهنا من صفات أهل جهنم قوله تعالى فى الذين علم الله رسوخهم فى الكفر وتباتهم عليه من سورة البقرة (٢ : ٦ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) فقد بين بضرب من التشبيه البليغ عدم انتفاعهم بمواهب القلوب والأسماع والأبصار التى هى آلات العلم والعرفان، وطرق الهدى والإيمان. وقوله فى المنافقين بتشبيه أبلغ (٢ : ١٧ صم بكم عمى فهم لا يرجعون) ومثله المثل (٢:١٦٦ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وقوله فيهم من سورة النحل (١٦ : ١٠٨ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) وقوله فى سورة الجاثية (٤٥ : ٢٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) وقوله فى سورة الأحقاف بعد ذكر هلاك عاد (٤٦ : ٢٥ ولقد مكناهم فيما إن مكنا كم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله) وقوله تعالى فى سورة الأنفال (٨ : ١٩ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون (٢٠) ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (٢١) إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (٢٢) ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) اى ولو أسمعهم سماع تفقه واعتبار والحال أنه قد علم أنهم لا خير فيهم لتولوا عن الاستجابة وهم معرضون .

كرر الرب الحكيم بيان هذه الحقيقة بأساليب مختلفة فى البلاغة كالتشبيه والتمثيل والاحتجاج ، و بيان السنن الاجتماعية لأجل التأثير والتذكير والإنذار ، لمن لم يفقد استعداد الهداية من الكافرين ، ولأجل العظة والذكرى للمؤمنين ، كما ترى فى آيات الأنفال ، ومع هذا التكرار البالغ حد الاعجاز فى البلاغة نرى أكثر المسلمين أشد إهمالا من غيرهم لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم فى النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، لأنهم من أجهل الشعوب بالعلوم التى تعرف بها آياته تعالى فى أعضاء الإنسان ومشاعره وقواه العقلية وانفعالاته النفسية

وآياته فى الجماد والنبات والحيوان والهواء والماء والبخار ، والغازات التى تتركب منها هذه المواد وغيرها ، وسنن النور والكهرباء ، والهيئة الفلكية ، ومن أصاب منهم حظاً من هذه العلوم فإنما أخذه عن الافرنج أو تلاميذهم المتفرنجين فكان مقلداً فيه لهم لامستقلا ، ولم يتجاوز طريقتهم فى البحث عن منافع هذه الأشياء لأجل الانتفاع بها فى هذه الحياة الدنيا ، من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها ربا خالقا مدبراً عليما حكيما ، مريداً قديراً رحيما ، يجب أن يعبد وحده ، وأن يخشى ويحب فوق كل أحد ، وأن تكون معرفته والزلفى عنده ورجاء اثابته فى الآخرة منتهى كل غاية من الحياة ، ولو قصد أولئك العلماء هذا من العلم لأصابوه فان الأمور بمقاصدها و « إنما الأعمال بالنيات » ولكنهم غفلوا عنه ، لتعلق إرادتهم بما دونه ولهذا كان علمهم على سعته ناقصاً أقبح نقص ، وكان الانتفاع به مشوبا بإضرار عظيم باستعمال ماهداهم اليه العلم من خواص الأشياء فى الحرب وآلات القتال ، التى تدمر العمران وتسحق الالوف الكثيرة من البشر فى وقت قصير — وبهذا يصدق على هؤلاء العلماء الذين استعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم فى استنباط حقائق العلوم ونفعها المادى العاجل مايصدق على الذين أهملوا استعمالها ، وآثروا الجهل على العلم بها ، من قوله عز وجل :

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات السلبية كالأنعام من إبل وبقر وغنم ، فى كونهم لاحظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم فى هذه الحياة الدنيا ، بل هم أضل سبيلا من الانعام ، لأن هذه لاتجنى على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية فى أكلها وشربها ونزواتها ، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التى تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية ، وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون فى كل ذلك إسرافا يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها ، ومن الناس من يجاهد هذه الشهوات جهاداً يفرّط فيه بحقوق البدن فلا يعطيه الغذاء الكافى ، ويقصر فى حقوق الزوجية ، أو يقطع على نفسه طريقها بالرهبانية ، فيجنى على شخصه وعلى نوعه بالتفريط كما يجنى عليهما عبيد اللذات بالافراط ، دع الجناية على الأخلاق

والآداب وعلى الأمم والشعوب ،وهداية الاسلام تحظر هذا وذاك وتوجب الأكل من الطيبات والزواج بشرطه ، وتحرم الاسراف فى كل شيء . فلو اهتدى الناس بالقرآن فى فقه أسرار الخلق ومنافعه لجمعوا بها بين ارتقائهم فى معاشهم، واستعدادهم لمادهم ، واتقوا هذا الإسراف فى الشهوات والتنازع عليها الذى أفسد مدنية الإفرنج بما يشكو منه جميع حكمائهم ويجزمون بأنه لابد أن يقضى عليهم .

﴿أولئك هم الغافلون﴾ أى أولئك الموصوفون بكل ماذكر هم ، الغافلون التامو الغفلة عما فيه صلاحهم وسعادتهم فى الحياتين الدنيا والآخرة جميعاً ، أو خيرهما وأكملهما وأدومهما وهى الثانية ، فهم طبقات على درجات فى الغفلة ، الغافلون عن أنفسهم، الغافلون عن استعمال عقولهم ومشاعرهم فى أفضل ماخلقت لأجله من معرفة الله تعالى ، الغافلون عن آيات الله فى الأنفس والآفاق التى تهدى إلى معرفة العبد نفسه وربه ، الغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية ، وحياتهم القومية ، وحياتهم الملية ، الذين يعدون كالأنعام من وجه آخر غير الذى تقدم من مجافاة سنن الفطرة ، وهو حقارتهم ومهانتهم الشخصية والقومية بين الأمم والدول وتسخير غيرهم لهم كما يسخر الأنعام فى سبيل معيشته .

فالقسم الأول من الغافلين هم الذين قال الله تعالى فيهم فى أوائل سورة يونس بعد التذكير بخلق السموات والأرض واستوائه على عرشه وتدبيره أمر العالم ، وكونه يبدىء الخلق ثم يعيده ـ والاعادة فى العادة أهون من البدء ـ والتذكير بآياته فى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وتقديره منازل ليعلم منها عدد السنين والحساب ـ وآياته فى اختلاف الليل والنهار وخلق السموات والأرض ـ قال بعد ذلك ـ (١٠: ٦ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) فهذا نص فى أن النار مأوى الغافلين عن هذه الآيات أى عن دلالتها على وجود خالقها ومدبر النظام فيها وكون إعادة خلق البشر وغيرهم فى طور آخر لايتعاصى على قدرته ، وهو من مقتضى علمه وحكمته ، وعن كون معرفته تعالى أعلى أنواع المعرفة ، وكون التنعم الروحانى بلقائه عز وجل فى دار الكرامة أسمى أنواع النعيم . وإن كان هؤلاء الغافلون عما ذكر من أكبر

العلماء بسنن الله تعالى وحكمه فى خلق العالم العلوى والعالم السفلى، بل حجة الله على هؤلاء العلماء أبلغ وأظهر، لأنهم لو فطنوا لدلالتها على ما ذكر وفقهوه كما يجب لكانوا أسعد فى هذه الحياة الدنيا وأبعد عن شرورها ومفاسدها مما هم عليه الآن، ولاستعدوا بذلك لسعادة الآخرة أكمل استعداد.

كذلك يصدق عليهم قوله تعالى فى أول سورة الروم (٣٠ : ٦ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) فانظر إلى بلاغة القرآن فى إعادة ضمير (هم) وهو للتأكيد الذى اقتضاه وصفهم بالعلم الذى من شأن صاحبه عدم الغفلة

تلك الصفات هى صفات من خلقوا لسكنى الجحيم، وما يقابلها فهو صفات أهل دار النعيم، فأهل النار بنص كتاب الله تعالى هم الأغبياء الجاهلون الغافلون الذين لا يستعملون عقولهم فى فقه حقائق الأمور، ولا يستعملون أسماعهم وأبصارهم فى استنباط المعارف واستفادة العلوم، ومعرفة آيات الله الكونية، وفقه آياته التنزيلية، وهما سبب كمال الإيمان، والباعث النفسى على كمال الاسلام والاحسان، ولن ترى فى كتب التفسير الكثيرة من نبه قراء كتاب الله تعالى إلى هذه المعانى الهادية إلى سبيله وصراطه المستقيم، على أن أكثر المسلمين قد اتخذوا كتاب الله مهجورا، فاذا سألت أشهرهم بعلم التفسير عن معنى هذه الآية قال لك إن الله تعالى خلق للنار خلقاً هم على الكفر والمعاصى مجبورون، لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئا مما من شأنه أن يفهم، فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أولياً — ولهم أعين لا يبصرون بها شيئا من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجاً أولياً — ولهم آذان لا يسمعون بها شيئا من المسموعات، فيتناول الآيات التنزيلية على طرز ماسلف — اهـ ملخصاً من روح المعانى، وما زاد عليه فيه فكلام فى الاعراب ونكت التعبير وتحقيق لمعنى الجبر عند بعض المتكلمين وهو زبدة ما فى كتب التفسير. وأهل النار عندهم من يسمونهم كافرين، وأهل الجنة من يسمونهم مسلمين، وإن كانوا يجهلون حقائق هذه الأمور ويصرون على الفجور، إتكالا على شفاعة أهل القبور، الذين يدعونهم مع الله أو من دون الله لمهمات الأمور، ويذبحون لهم النسائك وينذرون لهم النذور،

وهى عبادات لغير الله يخرجون بهـا من حظيرة الإيمان ، والاحتجاج بالآية على الجبر غفلة وجهل ، بل هى كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل ، ومعناها أن هؤلاء المكلفين من الجن والإنس قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم الباطنة والظاهرة فى علم الهدى الذى يترتب عليه الأعمال المزكية للنفس فكانوا بذلك أهل جهنم ، وليس فيها انه تعالى ذرأهم لجهنم لذواتهم فان ذوات الجنسين كلها متشابهة ، ولم يقل إنه خلقهم عاجزين عن استعمال تلك القوى فى أسباب الهدى بل قال إنهم لم يستعملوها فى ذلك (٦٧: ١٠، ١١ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) ولكن الجدل فى المذاهب هو الذى أوهمهم . ونحمد الله تعالى أن هدانا إلى تفسير الآية بالشواهد الكثيرة من القرآن ، وسنن الله تعالى فى الانسان والاكوان ، وهو مالم نطلع على مثله ، ولا ما يحوم حوله لإنسان . والتحدث بنعمة الله ، مما أمر به الله ، فالحمد لله ثم الحمد لله .

---

(١٨٠) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَٰئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

بين الله تعالى لنا فى الآية السابقة حال المخلوقين لجهنم فى عـدم استعمال عقولهم ومشاعرهم فى الاعتبار بآيات الله والتفقه فى تزكية أنفسهم بالعلم الصحيح الذى يترتب عليه العمل الصالح ، وأن ذلك الإهمال أعقبهم الغفلة التامـة عن أنفسهم وما فيه صلاحها من ذكر الله تعـالى وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات الـكمال — وقفى على ذلك فى هذه الآية بدواء هذه الغفلة وأقرب الوسائل للمخرج منها إلى ضدها فقال :

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ الأسماء جمع اسم ، وهو اللفظ الدال على الذات فقط ، أو على الذات مع صفة من صفاتها سواء كان مشتقا ، كالرحمن الرحيم الخالق الرازق ، أو مصدراً ، كالرب والسلام والعدل . والحسنى جمع أحسن، والمعنى

ولله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات ، فادعوه أى سموه واذكروه ونادوه بها ، لمجرد الثناء وعند السؤال وطلب الحاجات ، فمن الذكر لمحض الثنــاء آية الكرسى ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ الخ وآخر سورة الحشر ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القــدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسمــاء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ وقد ورد فى السنة الدعاء بهــذه الآيات وأن يقول قبلها « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم — ثلاث مرات » رواه الترمذى والدارمى وابن السنى من حــديث معقل بن يسار .

والذكر المحض فوائد كثيرة فى تغذية الإيمان ومراقبة الله تعالى وحبه والخشوع له والرغبة فيما عنده واحتقار مصائب الدنيا وقلة المبــالاة والتألم لما يفوت المؤمن من نعيمها ، ولذلك ورد فى الحديث الصحيح « من نزل به غم أو كرب أو أمر مهم فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم » رواه الشيخان والترمذى والنسائى

ومن الذكر بصيغة النداء ما رواه الترمــذى أنه ﷺ سمع رجلا وهو يقول : « ياذا الجلال والإكرام فقال : قد استجيب لك فسـل » وروى الحاكم فى المستدرك من حديث أنس (رض) قال : قال رسول الله ﷺ لفاطمة : « ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به ؟ أن تقولى إذا أصبحت وإذا أمسيت : ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث ، أصلح شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الحافظ الذهبى على ذلك .

والأدعية بأسماء الله تعالى نداء أو غير نداء كثيرة تراجع فى كتاب الأذكار للنووى ، وكتاب الحصن الحصين لابن الجزرى وغيرهما من كتب السنة .

وأسماء الله كثيرة ، وكلها حسنى بدلالة كل منها على منتهى كمال معناه وتفضيلها على ما يطلق منها على المخلوقين ، كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم .

وفى حديث أبى هريرة فى الصحيحين وغيرهما قال : قال رسول الله ﷺ

« إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » هذا لفظ البخارى فى كتاب الشروط وكتاب التوحيد ومسلم فى الذكر . قال مسلم : وزاد همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « إنه وتر يحب الوتر » وفى الرواية الأخرى له « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من حفظها دخل الجنة ، وإن الله وتر يحب الوتر » (قال) : وفى رواية ابن أبي عمر « من أحصاها » ه ورواه البخارى فى كتاب الدعوات بلفظ « لله تعالى تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحدة من حفظها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » وقوله « إلا واحدة » بالتأنيث وجهه ابن مالك بأنه أنث باعتبار التسمية أو الصفة أو الكلمة .

ورواه الترمذى والحاكم من طريق الوليد بن مسلم وسردا فيه الأسماء التسعة والتسعين ، ورواه غيرهما أيضاً من طريقه وفى سرد الأسماء اختلاف فى الروايات وقد اختلف المحدثون فى سرد الأسماء هل هو مرفوع أو مدرج فى الحديث من بعض الرواة ؟ والراجح أنه مدرج لا مرفوع ، ولم يخرجه الشيخان لتفرد الوليد به والاختلاف عليه فيه وتدليسه واحتمال الادراج كما قال الحافظ فى الفتح ، وروى من طريق أخرى أضعف من هذه . وهذا سرد الأسماء فى أمثل الطرق عن الوليد من جامع الترمذى كما قال الحافظ :

هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور ، الغفار القهار ، الوهاب الرزاق ، الفتاح العليم ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، الحليم العظيم ، الغفور الشكور ، العلى الكبير ، الحفيظ المقيت ، الحسيب الجليل ، الكريم الرقيب المجيب ، الواسع الحكيم ، الودود المجيد ، الباعث الشهيد ، الحق الوكيل ، القوى المتين ، الولى الحميد ، المحصى المبدىء المعيد ، المحيى المميت ، الحى القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد الصمد ، القادر المقتدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الوالى المتعالى ، البر التواب ، المنتقم العفو الرؤف ، مالك الملك ، ذو الجلال

والاكرام ، المقسط الجامع ، الغنى المغنى المانع ، الضار النافع ، النور الهادى ، البديع الوارث ، الرشيد الصبور »

أورد هذه الأسماء الحافظ ابن حجر فى الفتح وذكر اختلاف الروايات فيها وانكار بعض كبار العلماء لرفعها ، كابن حزم والداودى والقاضى أبى بكر بن العربى، والأقوال فى حصرها ومأخذها ثم قال :

« وإذا تقرر رجحان أن سرد الأسماء ليس مرفوعا فقد اعتني جماعة بتتبعها من القرآن من غير تقيد بعدد، فروينا فى كتاب المائتين لأبى عثمان الصابونى بسنده إلى محمد بن يحيى الذهلى أنه استخرج الأسماء من القرآن ، وكذا أخرج أبو نعيم من الطبرانى عن أحمد بن عمر ، والخلال عن ابن أبى عمر ؛ وحدثنا محمد بن جعفر ابن محمد بن على بن الحسين قال : سألت جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء الحسنى فقال: هى فى القرآن ، وروينا فى فوائد تمام من طريق أبي الطاهر بن السرح عن حبان بن نافع عن سفيان بن عيينة الحديث ، يعنى حديث « إن لله تسعة وتسعين اسما » قال فوعدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فابطأ ، فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا ، فعرضناها على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال : نعم هى هذه

« وهذا سياق ماذكره جعفر وأبو زيد قالا : فى الفاتحة خمسة : الله ، رب، الرحمن الرحيم مالك ، وفى البقرة : محيط ، قدير ، عليم ، حكيم ، على ، عظيم ، تواب ، بصير ، ولى ؛ واسع ، كاف ، رؤف ، بديع ، شاكر ، واحد ، سميع، قابض باسط ، حى ، قيوم ، غنى ، حميد ، غفور ، حليم . وزاد جعفر : إله قريب مجيب ، عزيز نصير ، قوى شديد ، سريع خبير ، قال وفى آل عمران . وهاب ، قائم. زاد جعفر الصادق : باعث منعم متفضل ، وفى النساء : رقيب حسيب شهيد مقيت وكيل ، زاد جعفر: على كبير . وزاد سفيان . عفو . وفى الانعام: فاطر قاهر، زاد جعفر : مميت غفور برهان : وزاد سفيان : لطيف خبير قادر ، وفى الأعراف :محى مميت. وفى الأنفال : نعم المولى ونعم النصير ، وفى هود : حفيظ مجيد ودود ، فعال لما يريد ، زاد سفيان : قريب مجيب ، وفى الرعد : كبير متعال ، وفى ابراهيم: منان زاد جعفر : صادق وارث ، وفى الحجر : خلاق ، وفى مريم : صادق وارث ، زاد

جعفر : فرد ، وفى طه عند جعفر وحده : غفار ، وفى المؤمنين : كريم ، وفى النور : حق مبين ، زاد سفيان : نور ، وفى الفرقان : هاد ، وفى سبأ : فتاح وفى الزمر : عالم ، عند جعفر وحده . وفى المؤمن : غافر قابل ذو الطول ، زاد سفيان : شديد ، وزاد جعفر : رفيع ، وفى الذاريات : رزاق ذو القوة المتين ، بالتاء ، وفى الطور : بر ، وفى اقتربت : مقتدر . زاد جعفر : مليك ، وفى الرحمن ، ذو الجلال والاكرام : زاد جعفر (رب المشرقين ورب المغربين) باق معين ، وفى الحديد : أول آخر ظاهر باطن . وفى الحشر : قدوس سلام مؤمن مهيمن عزيز جبار متكبر خالق بارىء مصور ، زاد جعفر : ملك ، وفى البروج : مبدىء معيد ، وفى الفجر : وترا . عند جعفر وحده ، وفى الاخلاص : أحد صمد : هذا آخر مارويناه عن جعفر وأبى زيد وتقرير سفيان من تتبع الأسماء من القرآن ، وفيها اختلاف شديد وتكرار وعدة أسماء لم ترد بلفظ الاسم وهى : صادق منعم متفضل منان مبدىء معيد باعث قابض برهان معين مميت باق

« ووقفت فى كتاب المقصد الأسنى لأبى عبد الله محمد بن ابراهيم الزاهد أنه تتبع الاسماء من القرآن فتاملته فوجدته كرر أسماء وذكر مما لم أره فيه بصيغة الاسم : الصادق والكاشف والعلام ، وذكر من المضاف : الفالق من قوله (فالق الحب والنوى) وكان يلزمه أن يذكر القابل من قوله (قابل التوب)

« وقد تتبعت مابقى من الأسماء مما ورد فى القرآن بصيغة الاسم مما لم يذكر فى رواية الترمذى ، وهى الرب الإله المحيط ، القدير الكافى ، الشاكر الشديد ، القائم الحاكم ، الفاطر الغافر القاهر ، المولى النصير ، الغالب الخالق ، الرفيع المليك ، الكفيل الخلاق ـ الاكرم الأعلى ، المبين ـ بالموحدة ، الحفى ـ بالحاء المهملة والفاء ـ القريب ، الاحد الحافظ . فهذه سبعة وعشرون اسما إذا انضمت إلى الاسماء التى وقعت فى رواية الترمذى مما وقعت فى القرآن بصيغة الاسم تكمل بها التسعة والتسعون وكلها فى القرآن لكن بعضها باضافة كالشديد (من شديد العقاب) والرفيع من (رفيع الدرجات والقائم من قوله (قائم على كل نفس بما كسبت) والفاطر من (فاطر السموات) والقاهر من (وهو القاهر فوق عباده) والمولى والنصير من (نعم المولى ونعم النصير) والعالم من (عالم

الغيب) والخالق من قوله (خالق كل شيء) والغافر من (غافر الذنب) والغالب من (والله غالب على أمره) والرفيع من (رفيع الدرجات) والحافظ من قوله (فالله خير حافظا) ومن قوله (وإنا له لحافظون) وقد وقع نحو ذلك من الأسماء التي في رواية الترمذى وهى المحيي من قوله (لمحيي الموتى) والمالك من قوله(مالك الملك)والنور من قوله (نور السموات والأرض) والبديع من قوله (بديع السموات والأرض) والجامع من قوله (جامع الناس) والحكم من قوله (أفغير الله أبتغى حكما) والوارث من قوله (ونحن الوارثون) والاسماء التي تقابل هذه مما وقع فى رواية الترمذى مما لم تقع فى القرآن بصيغة الاسم، وهى سبعة وعشرون اسما : القابض الباسط ،الخافض الرافع، المعز المذل ، العدل الجليل ، الباعث المحصى ، المبدىء المعيد المميت ، الواجد الماجد ، المقدم المؤخر ، الوالى ذو الجلال والاكرام ، المقسط المغنى ، المانع الضار ، النافع الباقى ، الرشيد الصبور .

« فاذا اقتصر من رواية الترمذى على ماعدا هذه الأسماء وأبدلت بالسبعة والعشرين التى ذكرتها خرج من ذلك تسعة وتسعون اسما وكلها فى القرآن واردة بصيغة الاسم ومواضعها كلها ظاهرة من القرآن إلا قوله « الحفىّ » فانه فى سورة مريم فى قول ابراهيم (سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا) وقل من نبه على ذلك

« ولايبقى بعد ذلك إلا النظر فى الاسماء المشتقة من صفة واحدة مثل:القدير والمقتدر والقادر ، والغفور والغفار والغافر ، والعلى والأعلى والمتعال ،والملك والمليك والمالك ، والكريم والاكرم ، والقاهر والقهار ، والخالق والخلاق ، والشاكر والشكور ، والعالم والعليم ، فاما أن يقال: لا يمنع ذلك من عدها فان فيها التغاير فى الجملة فان بعضها يزيد بخصوصية على الآخر ليست فيه ، وقد وقع الاتفاق على أن الرحمن الرحيم اسمان مع كونهما مشتقين من صفة واحدة،ولومنع من عد ذلك لزم أن لا يعد مايشترك الاسمان فيه مثلا من حيث المعنى مثل الخالق البارىء المصور لكنها عدت لأنها ولو اشتركت

على الايجاد (١) والبارى يفيد الموجد لجوهر المخلوق ، والمصور يفيد خالق الصورة فى تلك الذات المخلوقة ، وإذا كان ذلك لا يمنع المغايرة لم يمتنع عدها اسماء مع ورودها والعلم عند الله تعالى . وهذا سردها لتحفظ ولو كان فى ذلك اعادة ولكنه يغتفر لهذا القصد « الله الرحمن الرحيم ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز ، الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور ، الغفار القهار ، التواب الوهاب ، الخلاق الرزاق الفتاح ، العليم الحليم العظيم ، الواسع الحكيم ، الحى القيوم ، السميع البصير ، اللطيف الخبير ، العلى الكبير ، المحيط القدير ، المولى النصير ، الكريم الرقيب ، القريب المجيب ، الوكيل الحسيب ، الحفيظ المقيت ، الودود المجيد ، الوارث الشهيد ، الولى الحميد ، الحق المبين ، القوى المتين ، الغنى المالك الشديد ، القادر المقتدر ، القاهر الكافى ، الشاكر المستعان ، الفاطر البديع الغافر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الكفيل الغالب ، الحكم العالم الرفيع ، الحافظ المنتقم ، القائم المحيى ، الجامع المليك المتعالى ، النور الهادى ، الغفور الشكور ، العفو الرؤف ، الاكرم الاعلى ، البر الحفى ، الرب الإله ، الواحد الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

ثم قال الحافظ : وقد اختلف فى هذا العدد هل المراد به حصر الاسماء الحسنى فى هذه العدة أو أنها أكثر من ذلك ، ولكن اختصت هذه لأن من أحصاها دخل الجنة ، فذهب الجمهور إلى الثانى ، ونقل النووى اتفاق العلماء عليه ، فقال ليس فى الحديث حصر أسماء الله تعالى ، وليس معناه انه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث أن هذه الاسماء من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ويؤيده قوله ﷺ فى حديث ابن مسعود الذى أخرجه أحمد وصححه ابن حبان « اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أوعلمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » وعند مالك عن كعب الاحبار فى دعاء « واسألك بأسمائك

---

(١) أصل معنى الخلق التقدير ، فالأولى أن يقال : ان الخالق هو الموجد للاشياء بتقدير ونظام لاجزافا .

الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم » وأورد الطبرى عن قتادة نحوه من حديث عائشة انها دعت بحضرة النبي ﷺ بنحو ذلك ، وسيأتي في الكلام على الاسم الاعظم . وقال الخطابي : في هذا الحديث اثبات هذه الاسماء المخصوصة بهذا العدد ، وليس فيه منع ماعداها من الزيادة ، وإنما التخصيص لكونها أكثر الاسماء وأبينها معاني. وخبر المبتدأ في الحديث هو قوله «من أحصاها» لا قوله «لله» وهو كقولك لزيد ألف درهم أعدها للصدقة ، ولعمرو مائة ثوب من زاره ألبسه إياها . وقال القرطبي في المبهم نحو ذلك ، ونقل ابن بطال عن القاضي أبي بكر بن الطيب قال : ليس في الحديث دليل على انه ليس لله من الاسماء إلا هذه العدة ، وإنما معنى الحديث أن من أحصاها دخل الجنة . ويدل على عدم الحصر أن أكثرها صفات وصفات الله لا تتناهى ، وقيل إن المراد الدعاء بهذه الاسماء لأن الحديث مبنى على قوله (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) فذكر النبي ﷺ أنها تسعة وتسعون فيدعى بها ولا يدعى بغيرها حكاه ابن بطال عن المهلب . وفيه نظر لأنه ثبت في أخبار صحيحة الدعاء بكثير من الاسماء التي لم ترد في القرآن، كما في حديث ابن عباس في قيام الليل « أنت المقدم وأنت المؤخر » وغير ذلك . وقال الفخر الرازي : لما كانت الاسما من الصفات وهي اما ثبوتية حقيقية كالحي ، أو اضافية كالعظيم واما سلبية كالقدوس ، واما من حقيقية واضافية كالقدير ، أو من سلبية وإضافية كالأول والآخر ، وإما من حقيقية واضافية وسلبية كالملك والسلوب غير متناهية ، لأنه عالم بلا نهاية قادر على ما لا نهاية له ، فلا يمتنع أن يكون له من[1] ذلك اسم فيلزم أن لا نهاية لأسمائه ، وحكى القاضي أبو بكر بن العربي عن بعضهم أن لله ألف اسم . قال ابن العربي : وهذا قليل فيها ، ونقل الفخر الرازي عن بعضهم أن لله أربعة آلاف اسم ، استأثر بعلم ألف منها وأعلم الملائكة بالبقية ، والأنبياء بألفين منها ، وسائر الناس بألف . وهذه دعوى تحتاج إلى دليل[2] واستدل بعضهم بهذا القول لأنه ثبت في نفس حديث الباب انه وتر يحب الوتر الرواية

---

(١) المقام يقتضي أن يقول من كل ذلك .

(٢) وكذا ماقبلها .

التى سردت فى الأسماء لم يعهد فيها الوتر ، فدل على أن له أسماء أخر غير التسعة والتسعين وتعقبه من ذهب الى الحصر فى التسعة والتسعين ، كابن حزم بأن الخبر الوارد لم يثبت رفعه ، و إنما هو مدرج كما تقدمت الإشارة اليه ، واستدل أيضا على عدم الحصر بأنه مفهوم عدد وهو ضعيف ، وابن حزم ممن ذهب الى الحصر فى العدد المذكور وهو لا يقول بالمفهوم أصلا ، ولكنه احتج بالتأكيد فى قوله ﷺ «إلا واحدا» قال : لأنه لو جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور لزم أن يكون له مائة اسم فيبطل قوله «مائة إلا واحد» وهذا الذى قاله ليس بحجة على ما تقدم لأن الحصر المذكور عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها ، فمن ادعى أن الوعد وقع لمن أحصى زائداً على ذلك خطأ ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد ، واحتج بقوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) وقد قال أهل التفسير : من الإلحاد فى أسمائه تسمية بما لم يرد فى الكتاب أو السنة الصحيحة ، وقد ذكر منها فى آخر سورة الحشر عدة وختم ذلك بأن قال (له الأسماء الحسنى) قال وما يتخيل من الزيادة فى العدد المذكور لعله مكرر معنى و إن تغاير لفظا ، كالغافر والغفار والغفور مثلا فيكون المعدود من ذلك واحدا فقط ، فاذا اعتبرت ذلك وجمعت الأسماء الواردة نصا فى القرآن وفى الصحيح من الحديث لم تزد على العدد المذكور ، وقال غيره : المراد بالأسماء الحسنى فى قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ما جاء فى الحديث « إن لله تسعة وتسعين اسما » فان ثبت الخبر الوارد فى تعيينها وجب المصير اليه و إلا فليتبع من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، فان التعريف فى الأسماء للعهد فلا بد من المعهود ، فانه أمر بالدعاء بها ونهى عن الدعاء بغيرها فلا بد من وجود المأمور به (قلت) والحوالة على الكتاب العزيز أقرب . وقد حصل بحمد الله تتبعها كما قدمته و بقى أن يعمد الى ما تكرر لفظا ومعنى من القرآن فيقتصر عليه و يتتبع من الأحاديث الصحيحة تكملة العدة المذكورة فهو نمط آخر من التتبع عسى الله أن يعين عليه بحوله وقوته آمين . اه (فتح) والمتبادر من الحديث أنه جملتان فالأسماء الشرعية

فى الإسلام ٩٩ وكان الحافظ أجدر العلماء بما رجاه فى آخر كلامه

﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾ أى ادعوه بها أيها المؤمنون واتركوا وأهملوا بلا مبالاة جميع الذين يلحدون فى أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن منهج الحق الوسط، إلى بنيات الطريق ومتفرق السبل، من تحريف أو تأويل، أو تشبيه أو تعطيل، أو شرك أو تكذيب، أو زيادة أو نقصان، أو ماينافى وصفها بالحسنى وهو منتهى الكمال، ذروا هؤلاء الملحدين ولا تبالوا بهم، وكأن قائلا يقول: ولماذا نذرهم فى خوضهم يعمهون؟ فأجاب بقوله تعالى ﴿ سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ أى سيلقون جزاء عملهم عن قريب، بعضهم فى الدنيا قبل الآخرة، وإنما يعمهم جميعهم عقاب الآخرة، إلا من تاب منهم قبل الموت .

وإننا نفصل هذ التفسير الإجمالى بعض التفصيل لفظا ومعنى فنقول :

« ذروا » أمر لم يرد فى اللغة استعمال ماضيه ولا مصدره وهو بمعنى الترك والإهمال فهو بوزن ودع الشىء يدعه ودعا، ومعناه . إلا أن هذا قد استعمل ماضيه ومصدره قليلا، وذاك لم يستعمل منه إلا المضارع « يذر » والأمر « ذر » وتعدد ذكرهما فى التنزيل . وزعم الراغب فى مفرداته أن معناه قذف الشىء لقلة الاعتداد به . وأورد من الشواهد عليه من القرآن ماهو ظاهر فيه، وأشار إلى شاهد واحد يخالفه فى الظاهر ووعد ببيان دخوله فى موضع آخر، ولعله يعنى تفسيره للقرآن، وهو قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) ولم يقل : ويتركون ويخلفون ولعله أجاب عنه بأن المراد : ويتركون أزواجا هن عرضة للاهمال، وعدم الانفاق عليهن فليوصوا لهن، وإلا كانوا هم المهملين لهن، والقاذفين بهن فى بيداء الإهمال والحاجة . ويرد عليه أيضا قوله تعالى حكاية عن المخلفين فى سورة الفتح (ذرونا نتبعكم) وكل ماعداه من استعمال القرآن لهذه الكلمة يظهر فيه معنى الترك لعدم المبالاة والاهتمام . لا القذف كما عبر به، ومنه قوله تعالى فى ناقة صالح حكاية عنه (فذروها تأكل فى أرض الله) وأظهر منه قوله تعالى (ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) (أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض) (رب لاتذر على الأرض) (ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) (وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم) (وتذرون الآخرة)

(ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) (فذرهم وما يفترون) (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) الخ

وأما الالحاد فمعناه العام الميل والازورار عن الوسط حساً أو معنى ، والأول الأصل فيه كأمثاله . ومنه لحد القبر للميت وهو مايحفر فى جانب القبر من جهة القبلة مائلا عن وسطه و يسوى ببناء ونحوه و يوضع فيه الميت، و يقابله الضريح أو الشق وهو وضعه فى وسط القبر (واللحد أفضل فى الشرع) يقال : لحد القبر وألحده ، ولحد الميت وألحد ، أى جعل له لحدا ، ومن كلامهم : ألحد السهم الهدف : أى مال فى أحد جانبيه ولم يصب وسطه ، ولما كان « خيار الامور أوساطها » كان الانحراف عن الوسط مذموماً ، ومنه أخذ التعبير عن الكفر والتعطيل والشك فى الله تعالى بالإلحاد وسمى ذووه الملاحدة والملحدون .

قال الراغب : اللحد حفرة مائلة عن الوسط وقد لحد القبر حفره وألحده وقد لحدت الميت وألحدته : جعلته فى اللحد ، و يسمى اللحد ملحداً وهو اسم موضع من ألحدته . ولحد بلسانه إلى كذا مال . قال تعالى (لسان الذى يَلحدون إليه) من لحد وقرىء (يُلحدون) من ألحد [1] وألحد فلان : مال عن الحق ، والالحاد ضربان : إلحاد إلى الشرك بالله ، و إلحاد إلى الشرك بالأسباب [2] فالأول ينافى الايمان و يبطله ، والثانى يوهن عراه ولا يبطله . ومن هذا النحو قوله (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وقوله (الذين يلحدون فى أسمائه) والالحاد فى أسمائه على وجهين : أحدهما أن يوصف بما لا يصح وصفه به ، والثانى أن يتأول أوصافه على مالا يليق به اه

---

(١) الآية رد على بعض كفار قريش الذين قالوا إن النبى ﷺ يعلمه بشر يعنون روميا كان بمكة يصنع السيوف ، ورأوه ﷺ يقف عنده يتأمل صنعته قال تعالى (لسان الذين يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) فاستعمال الالحاد فيه على القاعدة لانهم مالوا فيه إلى الباطل (٢) هو النظر إلى الأسباب مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيره ، ويخشى الانسان ذلك ، أو يعتقد إنها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى وهو شرك جلى ، والظاهر أن الراغب أراد بهذا النوع المعاصى كالظلم فى الحرم عن قولهم : المعاصى بريد الكفر

أقول : قرأ حمزة (يلحدون) بفتح الياء هنا وفى قوله تعالى فى فصلت (إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا) من لحد والباقون بضمها من ألحد ومعناها واحد كما علمت ، وأخطأ من زعم أن الأول لا يكاد يسمع .

وفى التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) الإلحاد التكذيب وقال فى تفسيره هنا : اشتقوا العزى من العزيز واللات من الله . وعن الأعمش أنه قرأ «يلحدون» بفتح الياء من اللحد وفسره بقوله : يدخلون فيها ما ليس منها ، وعن قتادة فى تفسيره روايتان إحداها يشركون ، والثانية : يكذبون فى أسمائه ، وملخص هذه الروايات : أن من الالحاد فى أسمائه تعالى التكذيب بها و إنكار معانيها وتحريفها بالتأويل ونحوه ، وتسميته تعالى بما لم يسم به نفسه ، و بما لا يليق بكماله وجلاله ، و إشراك غيره به فيها — وهذان قسمان : إشراك فى التسمية ، وهو يقصر على الأسماء الدالة على معنى الألوهية والربوبية وخصائصها ، و إشراك فى المعانى وهى قسمان : معان خاصة بالالوهية والربوبية ، ومعان غير خاصة فى نفسها ، و إنما الخاص به تعالى كمالها ، وهو معنى كونها الحسنى كما يدل عليه تقديم الخبر فى قوله « ولله الأسماء الحسنى » أى له وحده دون غيره كما تقدم . فالإلحاد فى أسمائه الحسنى أقسام

(١) التغيير فيها بوضعها لغيره مما عبد من دونه كما ورد فى « اللات والعزى » وتقدم قريباً ، قيل و « مناة » من اسمه تعالى المنان فان صح كان دليلا على أن العرب كانت قبل الإسلام تطلق هذا الاسم على الله تعالى وهو ليس فى القرآن ولا فى رواية الترمذى لأسمائه تعالى ، ولكن ورد فى بعض الأحاديث وأما لفظ « اللات » فالظاهر أنهم أنثوا به اسم الجلالة « والعزى » مؤنث الاعز كالفضلى مؤنث الأفضل ، والحسنى مؤنث الأحسن .

(٢) تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه فى كتابه أو ما صح من حديث رسوله ﷺ قال بعضهم : أو أجمع عليه المسلمون فانه كما قيل لا بدّ له من مستند منها ومنه « واجب الوجود والواجب » ـ لكن يحتاج هذا إلى قرينة لأن استعماله فى كل واجب عقلى وكل واجب شرعى هو الأكثر — (قال) «والقديم والصانع، وقيل هما مسموعان » وأقول : إن الواجب وواجب الوجود والصانع من اصطلاح المتكلمين

لا يثبت كونها من أسماء الله تعالى بالإجماع الذى قالوا إنه لا بد له مستند من الكتاب أو السنة عند أهله، والصانع مأخذ من قوله تعالى فى سورة النمل (صنع الله الذى أتقن كل شىء) عند من يقول بجوازمثله وهو ضعيف، ويقتضى أن يكون من أسمائه المتقن أيضا. والتحقيق أن باب الاخبار عنه تعالى بأفعاله أوسع من باب اطلاق الاسماء عليه، فان الاسم فى الاصل مادل على الذات ولا يعتبر فيه اتصاف المسمى بمعنى الاسم إن كان له معنى غير العلمية كزيد وحارث وفضل، وما أطلق لأجل معناه فقط يسمى وصفا ونعتا كالحارث يوصف به من يحرث الأرض، والظالم لمن يجور فى فعله أو حكمه، وقد يقصد بالإسم العلم الوصف مع العلمية من باب التفاؤل أو المدح فان لمح عند الاطلاق أدخلوا عليه الألف واللام فقالوا الحارث والفضل وإلا فلا، وهذا سماعى لاقياسى فى العربية. ومنه أسماء الله المنقولة عن اسم فاعل كالخالق والرازق والمؤمن والمهيمن أو صفة مشبهة كالرحمن الرحيم، أو مصدر كالسلام والعدل فكلها يراعى فيها المعنى الوصفى فتسمى صفات، والدلالة على الذات المتصفة بمدلوله الوصفى فتسمى أسماء

ويقتصر فيها كلها على التوقيف وليس منه الواجب والصانع والموجود ولكن يجوز الاخبار بهذه الصفات عنه تعالى، فيقال ان الله موجود وواجب وهو صانع كل شىء والمتقن لكل ما خلقه، ولا يقال فى الدعاء والنداء ياواجب أو ياصانع اغفرلى مثلا، بهذا القدر يصح كلام المتكلمين، ولا يجوز أن يشتق له تعالى أسماء من كل ماأخبر به عن نفسه ولو بصيغة اسم الفاعل، فلم يقل أحد باطلاق اسم الزارع عليه تعالى من قوله (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) ولا الماكر من قوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ولا المخادع أو الخادع من (إن المنافقين يخادعون الله وهوخادعهم) ولكن عدوا منها بعض الصفات المضافة كما تقدم فى الشديد والرفيع والقائم والفاطر، والفرق بين الفريقين أن هذه ذكرت فى سياق الثناء على الله تعالى، وأما تلك فذكرت فى سياق الاحتجاج أو من باب المشاكلة، واسم الصفة لابد أن يدل على الكمال بمجرد إطلاقه وليس هذا منه

وقد اتفق أهل الحق على أن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية ونصوا على إثبات

كل ما ورد فى الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاء ووصفا له ، وإخبارا عنه ، وعلى منع كل ما دل على منعه ، ومنه كل مايسمى إلحاداً فى أسمائه ؛ وكل ماأوهم نقصاً أو كان منافيا للكمال ولوصف الحسنى . وقد منع جمهور أهل السنة كل مالم يأذن به الشارع مطلقا ، وجوز المعتزلة ما صح معناه ودل الدليل على اتصافه به ولم يوهم اطلاقه نقصا ، والفلاسفة أوسع حرية فى هذا الاطلاق . ومنه قول ابن سينا :

مدبر الكل أنت القصد والغرض وأنت عن كل ماقد فاتنا عوض
من كان فى قلبه مثقال خردلة سوى جلالك ، فاعلم أنه مرض

وقد عدوا عليه من إساءة الأدب قوله لخالقه : فاعلم

ذكر ذلك السفّاريني فى شرح عقيدته الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة ثم قال: ومال اليه ــ اى قول المعتزلة بالجواز ــ بعض الأشاعرة كالقاضى أبى بكر الباقلانى وتوقف إمام الحرمين الجوينى ، وفصل الغزالى فجوز أطلاق الصفة وهى ما دل على معنى زائد على الذات ومنع اطلاق الاسم وهو مادل على نفس الذات ، واحتج للقول المعتمد « أنهـا توقيفية » بأنه لايجوز أن يسمى النبى ﷺ بمـا ليس من أسمائه فالبارى أولى. وتعلق المعتزلة بأن أهل كل لغة يسمونه سبحانه باسم مختص بلغتهم كقولهم (خداى) وشاع من غير نكير ، ورد بأنه لو ثبت لكان كافياً فى الاذان الشرعى ، ونقل الألوسى فى تفسيره سياق السفارينى إلى احتجاج المعتزلة بعدم انكار أحدمن المسلمين على اطلاق الفرس (خدا) وزاد عليه اسم (تكرى) وهو تُركى وكافه نون فى النطق، وقال إنهم ادعوا أن هذا إجماع ،وأنه لو ثبت لكان كافيا فى الأذان الشرعى .

وأقول : ان لفظى خدا وتكرى هما الإسم العلم لرب العالمين وخالق الخلق ، وذلك من قبيل الترجمة لإسم الجلالة (الله) وليس من اطلاق اسم جديد عليه فيحتاج إلى نص أو دليل شرعى ،ومثله ترجمة مايمكن ترجمته من الأسماء والصفات وهو المشترك فى اللغات ولا سيما الراقية منها، كالفارسية فهو جائز بخلاف ترجمة مالا يوجد له مرادف فى غير العربية ، كالرحمن والقيوم ــ كما نعتقد ــ ومنع الغزالى فى كتاب إلجام العوام ترجمة صفات الله فى الكلام على المتشابهات منها لما فيها من

خطر مخالفة مراده تعالى وقال ان بعضها لامرادف له فى غير العربية ولبعضها مرادف فى الحقيقة دون المجاز كاليد فهى تطلق فى العربية على الجارحة من أعضاء الانسان، ولها عدة معان مجازية كالنعمة والقدرة والتصرف مثلاوقد أضيفت إليه تعالى فى مواضع قد تختلف معانيها كقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم بيده الملك) (بيدك الخير) (لما خلقت بيدى) (بل يداه مبسوطتان) فلايمكن وضع كلمة ترجمة يد بالفارسية لتفسير هذه الآيات كلها . اه بالمعنى ، وقد أوردت لفظه فى تفسير الآيات المتشابهات من أول سورة آل عمران .

ثم إن الالوسى نقل موافقة القاضى الباقلانى للمعتزلة وذكر أن إمام الحرمين اعترضه بأنه قول بالقياس وهو حجة فى العمليات دون العلميات والأسماء والصفات منها (قال) وروى بعضهم عنه التوقف . ثم ذكر قول الغزالى المتقدم وذكر أنه احتج له بإباحة الصدق واستحبابه ، والصفة لتضمنها النسبة الخبرية راجعة إليه وهى لا تتوقف إلا على تحقيق معناها ، بخلاف الاسم فانه لا يتضمن النسبة الخبرية وانه ليس إلا للابوين أو من يجرى مجراهما (قال الالوسى) وأجيب بأن ذلك حيث لامانع من استعمال اللفظ الدال على تلك النسبة — والخطر قائم — وأين التراب من رب الأرباب ؟ اه

وأقول : مثال ماذكروه وصفه تعالى بالعقل بناء على أنه هو الكمال فى غرائز البشر ولم يرد به الشرع . ويدل على منعه من جهة النظر أيضاً أن معنى العقل فى اللغة العربية يدخل فيه مادلت عليه مادته وهى عقل البعير ، أى ربط ذراعه ووظيفه وشدهما بالعقال (وهو بالكسر الحبل الذى يعقل به البعير وغيره) لمنعه من المشى ، وذلك أن عقل الانسان من شأنه أن يعقله أى يمنعه مما لاينبغى له ، وهذا المعنى لايليق بالبارىء سبحانه وتعالى، فقاعدة الغزالى فى الصفات تقتضى تحكيم رأى كل أحد فى وصف خالقه بما يراه هو حسناً أو كمالا . وقد يكون فى رأى غيره ممن هم أعلم منه غير حسن ولا كمالا ، وهذا ظاهر عقلا لا نقلا فالحق أن لا يطلق عليه المؤمنون من الصفات إلا ما أذن به فى كتابه أو على لسان رسوله ﷺ

تعالى إلى نفسه من الأفعال — بناء على أن ذلك لا يليق به تعالى أو أنه يوهم نقصاً فى حقه عز وجل ، كأن هولاء الملحدين أعلم منه تبارك اسماؤه وجلت صفاته ، وأعلم من رسوله صلواته عليه وسلامه — بما يليق به وما لا يليق، وبما يوهم نقص التشبيه أو غير التشبيه ، كامتناع بعض المبتدعة من ذكر بعض الآيات والأحاديث فى صفات الله تعالى التى زعموا وجوب تأويلها فى عقائدهم ودروسهم وعدم ذكرها فى مجالسهم إلا مقرونة بالتأويل وادعاء أن معناها غير مراد . وقد غلا بعض الأشعرية فى القرون الوسطى فى التأويل غلو الجهمية والمعتزلة أو أشد ، حتى إن منهم من أغروا السلاطين بسجن شيخ الإسلام ابن تيمية لذكره هذه الآيات والأحاديث فى كتبه ودروسه، كصفة علو الله تعالى على خلقه ،ومنها اسم العلى والمتعال، ومنها آيات الاستواء على العرش وأحاديث النزول من السماء ، وانتهى بهم الأمر إلى أن يطلبوا منه التوبة من ذكر هذه الآيات والأحاديث للعامة وان يتعهد بذلك كتابة (!) وهذا من أعاجيب تعصب المذاهب والغرور فى تحكيم العقل أى الآراء النظرية فى النصوص . وان ادعاء أن بعض كلام الله وحديث رسوله مما يجب كتمانه واستبدال نظريات بعض المتأخرين أمثالهم به لمطعن كبير فى الدين ، وفى سلف الأمة الصالحين . وهذا النوع من الالحاد هو غير التأويل للاسماء والصفات وهو القسم الآتي من الالحاد فيها

(٤) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضروب من التأويل ، تقتضى التشبيه أو التعطيل ، فالمشبهة ذهبت إلى جعل الرب القدوس الذى ليس كمثله شيء كرجل من خلقه ، زاعمة أنه وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك كالسمع والبصر والكلام والوجه واليد والرجل والضحك والرضا والغضب . والجهمية ذهبت إلى تأويل جميع صفات الله تعالى حتى جعلته كالعدم . وأهل السنة والجماعة الذين قال الله تعالى فيهم (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) هم الذين جمعوا بين العقل والنقل فى تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه فى ذاته وصفاته وأفعاله و بين وصفه بما وصف به نفسه وتسميته بما سمى به نفسه و إسناد ما أسنده إلى نفسه من الأفعال ، كالاستواء على العرش والعلو على الخلق وغير ذلك . أثبتوا

له كل ذلك مع كمال التنزيه، فقالوا : إن له رحمة ليست كرحمة المخلوق ، وغضباً لا يشبه غضب المخلوق ، واستواء على عرشه ليس كاستواء الملوك المخلوقين على عروشهم ، وانه تعالى علمنا بما بيّن لنا من أسمائه وصفاته وأفعاله كل ما أوجب علينا أن نعلمه من عظمته وكماله وجلاله وجماله وأفعاله ، ولا يمكن بيان ذلك لنا إلا بالألفاظ التي نستعملها في شؤون أنفسنا ، وعلمنا مع ذلك أنه ليس كمثله شيء ، فعصمنا بهذا التنزيه ، أن يضلنا الاشتراك اللفظي فنقع في التشبيه .

(٥) اشراك غيره فيما هو خاص به من أسمائه باللفظ كاسم الجلالة (الله) والرحمن ، ورب العالمين — وما في معناه من الإضافات كرب السماء والأرض ، والسموات والأرض ، أو رب الكعبة ، أو رب البيت — إذا أريد به الكعبة . قال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) وأما إذا أضيف لفظ رب إلى بيت آخر من بيوت الناس في كلام يعينه فلا بأس ، كأن تقول وأنت في بيت أحد الناس وقد حضرت الصلاة : الامامة حق رب البيت ، أو ليؤمنا رب البيت . أو تقول لمن أراد أن يجلس في كرسي صاحب البيت أو على الحشية الخاصة به : هذه تكرمة رب البيت ، وقد نهينا عن الجلوس عليها بدون إذنه . وقالوا : إن كلمة الرب معرفة خاصة به تعالى . ويترجح هذا القول حيث لا قرينة تصرف اللفظ إلى غيره .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في شرحه لحديث « لله تسعة وتسعون اسما » من الفتح بحث انعقاد اليمين بجميع هذه الأسماء عند الحنفية والمالكية وابن حزم مطلقاً ثم قال : والمعروف عند الشافعية والحنابلة وغيرهم من العلماء ان الأسماء ثلاثة أقسام (أحدها) ما يختص بالله تعالى : كاسم الجلالة والرحمن ورب العالمين فهذا ينعقد اليمين به إذا أطلق ولو نوى به غيره (ثانيها) ما يطلق عليه وعلى غيره ولكن الغالب اطلاقه عليه وأن يقيد في حق غيره بضرب من التقييد كالجبار والحق والرب ونحوها ، فالحلف به يمين ، فإن نوى به غير الله فليس بيمين (ثالثها) ما يطلق في حق الله وحق غيره على حد سواء ، كالحي والمؤمن ، فان نوى به غير الله أو أطلق فليس بيمين ، وإن نوى الله تعالى فوجهان . صحح النووي انه يمين ، وكذا في المحرر ، وخالف في الشرحين فصحح أنه ليس بيمين ، واختلف الحنابلة فقال

القاضى أبو يعلى ليس بيمين ، وقال المجد ابن تيمية فى المحرر : إنها يمين اه

(٦) اشراك غيره تعالى فى معانى أسمائه الخاصة مع تغيير اللفظ كاطلاق لفظ (الوسيلة) على بعض الصالحين بمعنى أنه يدعى من دون الله أو مع الله سبحانه لقضاء الحاجات ، ورفع الكربات ، وكفاية المهمات ، من غير طريق الأسباب والعادات ، كطلب ذلك من الأموات ، فلفظ الوسيلة هنا بمعنى (الإله) إذ معناه المعبود ، والدعاء مخ العبادة وأعظم أركانها كما بينا مراراً ، أو (الرب) المدبر للأمر على الإطلاق — فهذا الحاد فى معانى أسماء الله تعالى لا فى ألفاظها

(٧) اشراك غيره فى كمال أسمائه التام الذى وصفت لأجله بالحسنى ، كمن يزعم أو يعتقد أن لغيره تعالى رحمة كرحمته ورأفة أو غير ذلك من معانى أسمائه كالمجيب مثلا، قال تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان) وقال تعالى حكاية عن رسوله صالح عليه السلام (ان ربي قريب مجيب) وأن بعض الذين يدعون غير الله من الموتى يعتقدون انهم أقرب وأسرع فى إجابتهم من الله تعالى فيجمعون بذلك بين الشركين : شرك دعاء غير الله مع اعتقاد إجابته للدعاء — والله يقول (٢٧ : ٦٣ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟) أى لا يجيب المضطر إلا الله ، فهو الاله المستحق للعبادة وحده ، والكفر به بتفضيل غيره عليه سبحانه فى سرعة الاجابة . وقد سمعت امرأة مصرية تدعو وتستغيث فى أمر أهمها : يامتبولى ! يامتبولى ... ! فقلت لها بعد أن هدأ روعها لماذا تدعين المتبولى ولا تدعين الله تعالى ؟ قالت : المتبولى ما يستناش — أى لا يمهل ولا يتأخر فى إجابة من دعاه واستغاث به — وذكرت حكاية متناقلة بين أمثالها وهى : أن رجلا كان قد سرق سمكة فسيخ وأكلها ، فحلفه صاحبها يمينا بالمتبولى ، فحلف به فقيأه الفسيخة ، ولمثل هذه الحكايات يتجرأ أمثال هؤلاء على الحلف بالله تعالى كذبا ولا يتجرؤون على الحلف بمعتقديهم . وهذا نوع آخر من تفضيلهم إياهم على رب العالمين ، وهو من إلحاد الشرك الصريح ويزعمون مع أنهم من المسلمين ، ويتأول لهم علماء الجمود المضلين ، وينبزون من أنكر عليهم بلقب وهابين ، ويمقتون هذا اللقب وإن صار بمعنى الموحدين :

(١٨١) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨٢) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٣) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ؟ : مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٥) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ؟ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ؟ (١٨٦) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ؛ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

بعد الانتهاء من قصة موسى مع قومه التى ختمت بها قصص الرسل من هذه السورة بين الله تعالى لنا فى بضع آيات منها شيئا من شؤون البشر العامة فى الايمان والشرك والهدى والضلال ، وما لفساد الفطرة واهمال مواهبها من العقل والحواس من سوء المآل ، وارشدنا فى آخرها الى ما يصلح فساد الفطرة من دعائه باسمائه الحسنى ، والى ما للالحاد فيها من سوء الجزاء فى العقبى . ثم قفى على هذه البضع الآيات ببضع آيات أخرى فى شأن الامة المحمدية بدأها بوصف أمة الاجابة ، وثنى بذكر المكذبين من أمة الدعوة ، وثلث بتفنيد ما عرض لهم من الشبهة ، فالارشاد الى التفكر الموصل الى فقه الامور وما فى حقائقها من العبرة ، و إلى النظر الهادى إلى مآخذ البرهان والحجة ، لمعرفة صدق الرسول وما فى القرآن من الهداية والعلم والحكمة ، فالموعظة الحسنة المؤثرة فى النفس المستعدة بالتذكير بقرب الأجل ، والاحتياط للقاء الله عز وجل ، وختمها ببيان عدم الطمع فى هداية من قضت سنة الله بضلاله ، وتركه يعمه فى طغيانه . قال تعالى

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) وكلتاهما تفصيل لاجمال قوله تعالى (من يهد الله فهو المهتدى) الخ بدأه ببيان حال من أضلهم وهم الذين أهملوا

استعمال قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم فى فقه آيات الله ، وانهم كثيرون ، ولكنه ما سماهم أمة،لانهم لاتجمعهم فى الضلال جامعة،ولان الباطل كثير وسبله متفرقة. ثم ذكر هنا حال من هداهم الله تعالى وهو أنهم أمة أى جماعة كبيرة ، مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة ، يهدون بالحق و به دون غيره يعدلون ، فسبيلهم واحدة لان الحق واحد لايتعدد ، هؤلاء هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وقد تقدم تفسير هذا التركيب فى قوله تعالى من هذه السورة (٧ : ١٥٨ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون) فليراجع فهو قريب [١] فهاتان الآيتان متقابلتان لقرب الشبه بين أمة موسى وأمة محمد عليهما الصلاة والسلام كقرب الشبه بينهما وقدتقدم بيانه أيضاً [٢] وانما قال (وممن خلقنا)إلخ لمناسبة قوله فى مقابله (ولقد ذرأنا) أى خلقنا ، فهنالك يقول ذرأنا لجهنم من صفتهم كذا ، وهنا يقول وممن خلقنا أى للجنة أمة صفتهم كذا وكذا .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله تعالى (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق) قال ذكر لنا أن النبي ﷺ قال « هذه أمتى ، بالحق يحكمون ويقضون ، ويأخذون ويعطون » وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فيها قال : بلغنا أن نبى الله ﷺ كان يقول إذا قرأها « هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) » وأخرج أبو الشيخ عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : لتفترقن هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقه كلها فى النار الافرقة: يقول الله (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهذه هى التى تنجو من هذه الامة . اهـ ومعلوم ان الشق الاول من هذا الاثر مرفوع الى النبى ﷺ فذكره على رضى الله عنه ليفسر به الفرقة الناجية . وقد فسرها النبي ﷺ فى بعض الروايات بانها هى التى تستقيم على ما كان عليه ﷺ هو وأصحابه ، ومعنى التفسيرين واحد فى مآلها والمراد منه أمة الاجابة لدعوته ﷺ

ثم ذكر حال المكذبين من أمة الدعوة فقال :

---

(١) راجع ص ٣٦٣ ج ٩ تفسير (٢) راجع ص ٣٧ منه

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون ﴾ الاستدراج مأخوذ من الدرج مصدر درج ، أو من الدرجة وهى المرقاة ، يقال درج الكتابَ والثوب وأدرجه إذا طواه - ويعبر بالدرج - وهو المصدر عن المدرج أى المطوى ، ويقال درج فلان بمعنى مات ، وهذه آثار قوم درجوا أى انقرضوا ، جعله الراغب مجازاً بلا استعارة ، ولكن الزمخشرى ذكره فى حقيقة الاساس وقال واستدرجه : رقاه من درجة إلى درجة ، وقيل استدعى هلكته ، من درج إذا مات . وقال الراغب فى «سنستدرجهم» من الآية : قيل معناه سنطويهم طى الكتاب عبارة عن إغفالهم نحو (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) وقيل معناه سنأخذهم درجة بعد درجة وذلك إدناؤهم من الشيء شيئاً فشيئاً كالمراقى والمنازل فى ارتقائها ونزولها اهـ .

أقول : والمراد على هذا أنهم يسترسلون فى غيهم وضلالهم ، من حيث لا يدرون شيئاً من عاقبة أمرهم ، لجهلهم سنن الله تعالى فى المنازعة بين الحق والباطل ، والمصارعة بين الضار والنافع ، وكون الحق يدمغ الباطل ، وماينفع الناس يصرع ما يضرهم ، كما قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) وقوله تعالى (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

وأما المعنى على القول الأول فهو انذار لهم بهذه العاقبة وهو أن الله تعالى سيأخذهم بالعقاب وينصر رسوله عليهم ، ولكن بالتدريج وكذلك كان .

والجمع بين معنيي الاستدراج جائز هنا لظهوره فيمن نزل فيهم أولا وبالذات وهم كفار قريش الجاحدون والمبالغون فى عداوة النبى ﷺ فقد كانوا مغترين بكثرتهم وثروتهم لايعتدون به ولا بغيره ممن آمن به أولا وأكثرهم من الضعفاء الفقراء فما زالوا يتدرجون فى عداوتهم له وقتالهم إياه حتى أظهره الله تعالى عليهم فى غزوة بدر فلم يعتبروا ، ثم زادهم غروراً ظهورهم فى آخر معركة أحد وقال قائدهم أبو سفيان : يوم بيوم بدر - إلى أن كان الفتح الأعظم ، فهذا كله استدراج بمعنى التنقل فى مدارج الغرور ، وبمعنى أخذ الله إياهم وإظهار رسوله ﷺ ومن اتبعه عليهم من حيث لايعلمون سننه تعالى فى هذا ولا ذاك .

وقد فسر السدى الاستدراج بالمعنى الثانى فجعله خاصاً بأخذهم فى غزوة بدر

وفسر بعض المتقدمين الاستدراج بمعناه العام في اللغة كاغترار العصاة بالنعم التي تنسيهم التوبة وتلهيهم عن شكر المنعم، واقتصارهم عليه غفلة عن سبب النزول ومن أنزل فيهم. فهو كقوله تعالى في سورة القلم (٦٨ : ٤٤ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقفى عليها بمثل ماهنا — والسورتان مكيتان ـ وهو قوله تعالى :

﴿ وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ الاملاء الامداد في الزمن والامهال والتأخير مشتق من الملوة والملاوة، وهي الطائفة الطويلة من الزمن، والملوان الليل والنهار قال الراغب وحقيقته تكررهما وامتدادهما، يقال أملى له إذا أمهله طويلا. وأملى للبعير إذا أرخى له الزمام ووسع له في القيد ليتسع له المرعى. (واهجرني مليا) أي زمنا طويلا. والملا بالقصر المفازة الواسعة الممتدة، وأما الاملاء للكاتب بمعنى تلقينه ما يكتب فأصله أملل. فهو ليس من هذه المادة

والكيد كالمكر هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع المكيد له بظاهره فلا يفطن له حتى ينتهي إلى مايسوءه من مخبره وغايته، وأكثره احتيال مذموم، ومنه المحمود الذي يقصد به المصلحة، ككيد يوسف لأخذ أخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم، ولذلك أسند وأضيف إلى الله عز وجل في مثل هذين الموضعين. والجمهور على أن اضافة الكيد والمكر أو إسنادهما اليه تعالى في القرآن من باب المشاكلة أو متأول بمعنى العقاب والجزاء، وما بيناه أدق، والمتين القوي الشديد

ومعنى الآية : وأمهل هؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر وأمد لهم في أسباب المعيشة والقدرة على الحرب بمقتضى سنتي في نظام الاجتماع للبشر كيداً لهم ومكراً بهم، لاحباً فيهم ونصراً لهم، (٢٣ : ٥٥ فذرهم في غمرتهم حتى حين ٥٦ أيحسبون أن مانمدهم به من مال و بنين ٥٧ نسارع لهم في الخيرات؟ بل لايشعرون) وان تسأل عن كيدي فهو قوي متين. قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي موسى «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» فمعنى هذا الإملاء أن سنة الله تعالى في الأمم والأفراد قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق، فالمخذول إذا بغى وظلم ولم ينزل به العقاب الإلهي عقب ظلمه يزداد

بغيا وظلما ولا يحسب للعواقب حسابا فيسترسل فى ظلمه إلى أن تحيق به عاقبة ذلك بأخذ الحكام له أو بتورطه فى مهلكة أخرى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى

وقد نقلنا فى أوائل هذا التفسير عن شيخنا الأستاذ الامام أن عذاب الأمم فى الدنيا مطرد ، وأما عذاب الأفراد فقد يتخلف ويرجأ إلى الآخرة. وحققنا فى مواضع أخرى أن عقاب الأمم وبعض عقاب الأفراد أثر طبيعى لذنوبهم ، فالأمم والشعوب الباغية الظالمة لابد أن يزول سلطانها وتدول دولتها ، والسكير والزناء لايسلمان من الأمراض التى سببها السكر والزنا. والمقامر قلما يموت إلا فقيراً معدما الخ

وقد سردنا الشواهد فى مواضع أخرى على عقاب الأمم من الآيات التى صدقتها شواهد التاريخ الماضى والحاضر وستصدقها فى المستقبل ، وما كانت الحرب الأخيرة العظمى إلا بعض عقاب الله تعالى للذين صلوا نارها ببغيهم وفسوقهم، وسيرون ما هو شر منها إذا لم يرجعوا عن غيهم

بعد هذا أرشدهم إلى المخرج من أكبر شبهة لهم على الرسالة فقال عز وجل

﴿ أولم يتفكروا؟ ما بصاحبهم من جنة ﴾ الجنة بالكسر النوع الخاص من الجنون ، فهو اسم هيئة ، واسم للجن أيضا ولا يصح هنا إلا بتقدير مضاف ، أى من مس جنة — وقد حكى الله تعالى عن قوم نوح أول رسله إلى قوم مشركين أنهم اتهموه بالجنون فقالوا بعد قولهم أنه بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم (٢٣: ٢٥ ان هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) وفى سورة القمر عنهم (٥٣: ٩ كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر) وفى سورة الشعراء حكاية عن فرعون لعنه الله فى موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم (٢٦: ٢٦ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) وقال تعالى عنه فى سورة الذاريات (٥١ : ٣٩ فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون) ثم بين تعالى فى هذه السورة أن جميع الكفار كانوا يقولون هذا القول فى رسلهم فقال (٥٢ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٣) أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون).

وفى معنى آية الاعراف فى خاتم النبيين والمرسلين عدة آيات (منها) قوله تعالى فى كفار مكة من سورة المؤمنين (٢٣: ٦٩) أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت

آباءهم الأولين ؟ (٧٠) أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ (٧١) أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) ومثله فى سورة سبأ(٣٤: ٧ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ (٨) أفترى على الله كذبا ، أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) ثم قال فيها (٤٦ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا : ما بصاحبكم من جنة ، ان هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) وهذه شبيهة بآية الاعراف . وفى أول سورة الحجر (١٥ : ٦ وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون (٧) لو ماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) وفى سورة الصافات (٣٧ : ٣٥) ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) وفى سورة الطور من الرد عليهم (٥٢ : ٢٧ فذكر ، فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) ومثله (٦٨ : ١) ن والقلم وما يسطرون (٢) ما انت بنعمة ربك بمجنون) وفى آخرها (٥١ ويقولون انه لمجنون (٥٢)وما هو إلا ذكر للعالمين)

وفى سورة التكوير بعد وصف ملك الوحى (٨١ : ٢٢ وماصاحبكم بمجنون) روى أبناء حميد وجرير والمنذر وأبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا فدعا قريشاً فخذاً فخذاً : يابنى فلان يابنى فلان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائلهم : ان صاحبكم هذا لمجنون . بات يهوّت (أى يصيح) حتى أصبح . فأنزل الله (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة)

قد علمنا بما سبق أن جميع الكفار كانوا يرمون رسلهم بالجنون لأنهم ادعوا أن الله تعالى خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشراً كغيرهم لا يمتازون على سائر الناس بما يفوق أفق الانسانية، كما علم من نشأتهم ومعيشتهم ، ولأنهم ادعوا مالا يعهد له عندهم نظير ، وليس مما تصل إليه عقولهم بالتفكير ، وهو أن الناس يبعثون بعد الموت والبلى خلقاً جديداً ، ولأن كلا منهم كان يدعى أن الناس مخطئون وهو المصيب ، وضالون وهو المهتدى ، وخاسرون وهو المفلح ، إلا من اتبعه منهم — ولأنهم نهوا عن عبادة الآلهة وأنكروا أنها بالدعاء والتعظيم والنذور لها تقرب

المتوسلين بها إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده ، وأثبتوا ان الشفاعة لله وحده لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، من رضي له لمن رضي عنه ، فلا استقلال لهؤلاء الآلهة بالشفاعة عنده لمن توسل بهم — وشرعوا أنه لا يدعى مع الله أحد من ملك كريم ، ولا صالح عظيم ، فضلا عن صورهم وتماثيلهم المذكرة بهم ، وقبورهم المشرفة برفاتهم ، مع أن المذنب العاصي لا يليق به في رأي المشركين أن يدعو الله تعالى بغير واسطة ولا وسيلة لتدنسه بالذنوب ، فيحتاج إلى من يقربه إليه من أولئك الطاهرين ، وشبهتهم أن الملوك العظام في الدنيا لا يدخل أحد عليهم إلا بإذن وزرائهم وحجابهم . ومن الغريب أن هذه الشبهة الشركية لا تزال متسلسلة في جميع المشركين ، حتى من أشرك من أهل الكتاب والمسلمين ، الذين خالفوا نصوص الكتب الالهية وسنة الرسل إلى أعمال الوثنيين . ولا يرون بأساً في تشبيه رب العالمين وأرحم الراحمين ، بالملوك الظالمين المستبدين .

وأما معنى الآية فالاستفهام فيه للانكار والتوبيخ وهو داخل على فعل حذف للعلم به من سياق القول كما تقدم في أمثاله والتقدير : أ كذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من أول نشأته ، وفي حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، وآيات وحدانية ربه ، وقدرته على إعادة الخلق كما بدأهم وحكمته في ذلك — فان حذف معمول التفكر يؤذن بعموم ما يدل عليه المقام مما تقتضيه الحال كما هي القاعدة المعروفة في علم المعاني —

ألا فليتفكروا ، فالمقام مقام تفكر وتأمل ، انهم ان تفكروا أوشك أن يعرفوا الحق ، وما الحق ؟ (مابصاحبهم من جنة) جملة مستأنفة لبيان الحق في أمر الرسول نفيا واثباتا ، فهي نافية لما رموه به من الجنون ، كقوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وقوله (وما صاحبكم بمجنون) ومثلها آية سبأ (ثم تفكروا : ما بصاحبكم من جنة) ولذلك ختمتا بنفي كل صفة عنه في موضوع

رسالته إلا كونه منذراً مبلغاً عن ربه ، فقال هنا ﴿ ان هو إلا نذير مبين ﴾ الانذار تعليم وارشاد مقترن بالتخويف من مخالفته أي ليس بمجنون ، ليس إلا منذراً ناصحاً ومبلغا عن الله مبينا ، ينذركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة إذا لم تستجيبوا له ، وقد دعاكم لما يحييكم في الدنيا بجمع كلمتكم ، واصلاح أفرادكم ومجتمعكم والسيادة على غيركم ، ويحييكم في الآخرة بلقاء ربكم . وقال هنالك (ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)

وقد عبر عنه فى هاتين الآيتين وفى آية التكوير بالصاحب لهم لتذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى أن تجاوز الأربعين من عمره ، فما عليهم إلا أن يتفكروا حق التفكر فى سيرته الشريفة المعقولة ليعلموا أن الشذوذ ومجافاة المعقول ليس من دأبه ولا مما عهد عنه ، وكذلك الكذب كما قال بعض زعمائهم من أهل مكة : إن محمداً لم يكذب قط على أحد من الناس أفيكذب على الله ؟ وقد قال تعالى فى أولئك الزعماء (فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

وقد بينا فى تفسيرنا هذا شبهة المشركين على الرسل بكونهم بشراً مع الرد عليها[1] كذلك شبهاتهم على البعث مع الرد عليها[2]

ولو تفكر مشركو مكة فى نشأة النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وآدابه وما جربوا من أمانته وصدقه من صبوته إلى أن اكتهل ، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله بعبادته وحده ومن كون حكمته فى خلقه السموات والأرض بالحق تقتضى تنزهه عن العبث (ومنه) أن يكون هذا الانسان السميع البصير العاقل البحاث عن حقائق الأشياء من ماض وحاضر وآت ، ينتهى وجوده بالعدم المحض الذى هو فى نفسه محال ، ثم لو تفكروا فى سوء حالهم الدينية (كعبادة الأصنام) والأدبية والمدنية والاجتماعية وما دعاهم إليه من اصلاحها كلها — لعلموا أن هذا الاصلاح الدينى والأدبى والاجتماعى والسياسى لا يثمر إلا السيادة والسعادة ، وأنه لا يمكن أن يكون مصدره جنون من دعا إليه ، بل إذا كان فيه شىء غير معقول فهو انه لا يمكن أن يكون هذا العلم العالى والاصلاح الكامل من رأى محمد بن عبدالله الأمى الناشىء بين الأميين — ولا أن تكون هذه البلاغة المعجزة للبشر فى أسلوب القرآن ونظمه من كسب محمد الذى بلغ الأربعين ولم ينظم قصيدة ولا ارتجل خطبة — وأن هذه الحجج البالغة على كل ما يدعو إليه القرآن ، والبراهين العقلية والعلمية الكونية لا يتأتى أن تأتى فجأة من ذى عزلة لم يناظر ولم يفاخر ولم يجادل أحداً فيما مضى من عمره كمحمد بن عبد الله — فاذا تفكروا فى هذا كله جزموا بأن هذا كله وحى من الله تعالى

---

(١) راجع ص ٢٠٩ و٣١٥ من ج ٧ تفسير وص ٢٧٨ و ٤٩٥ ج ٨ منه

(٢) راجع ص ٣٥٧ ج ٧ تفسير وص ٢٨٣ و٤٧٠ – ٤٨١ ج ٨ منه

ألقاه فى روعه ونزل من لدنه على روحه، وعلموا أن استبعادهم لذلك جهل منهم ، فالله تعالى القادر على كل شئ يختص برحمته من يشاء . لهذا حثهم على التفكر فى هذا المقام من هذه السورة وغيرها ، وذكر بعدها كونه نذيرا مبينا ، ونذيرا بين يدى عذاب شديد .

ثم إنه دعاهم بعد هذا الى النظر والاستدلال العقلى فقال :

﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء ؟ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ الملكوت الملك العظيم كما تدل عليه صيغة (فعلوت) والمراد بملكوت السموات والأرض مجموع العالم لأن الاستدلال به على قدرة الله تعالى وصفاته ووحدانيته أظهر ، فان العالم فى جملته لا يمكن أن يكون قديما أزليا ولا نزاع بين علماء الكون فى إمكانه ولا فى حدوث كل شىء منه وإنما يختلفون فى مصدره ومم وجد . وهو لا يمكن أن يكون من عدم محض . لأن العدم المحض لا حقيقة له فى الخارج بل هو أمر فرضى ، فلا يعقل أن يصدر عنه وجود — ولا يمكن أن يكون بعضه قد أوجد البعض الآخر ، وهذا بديهى ولذلك لم يقل به أحد ، فلا بد إذاً من أن يكون صادراً عن وجود آخر غيره ، وهو الله واجب الوجود . ثم إن هذا النظام العام فى الملكوت الأعظم يدل على أن مصدره واحد وتدبيره راجع الى علم عليم واحد وحكمة حكيم واحد ، سبحانه وتعالى (أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون)

ومعنى الآية : أكذبوا الرسول المشهور بالأمانة والصدق ، وقالوا : إنه مجنون وهو المعروف عندهم بالروية والعقل ، حتى جعلوا تحكيمه فى تنازعهم على رفع الحجر الأسود هو الحكم الفصل — ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال فى مجموع ملكوت السموات والأرض على عظمته ، والنظام العام الذى قام بجملته ، وما خلق الله من شىء فى كل منهما وإن دق وصغر ، وخفى واستتر ، ففى كل شىء من خلقه له آية تدل على علمه وقدرته ، ومشيئته وحكمته ، وفضله ورحمته ، وكونه لم يخلق شيئا عبثا ، ولا يترك الناس سدى ، تدل على ذلك بوجود ذلك الشىء بعد أن لم يكن ، وبترجيح كل وصف من أوصافه على ما يقابله ، وبما فيها من فائدة ومنفعة ، فكيف بالملكوت الأعظم فى

بجملته ، والنظام البديع الذى قام هو به ؟ أكذبوا وقالوا ماقالوا ولم ينظروا فى العالم الأكبر ، ولا فى ذرات العالم الأصغر ، نظر تأمل واعتبار ، وتفكر واستدلال ، ولا فيما عسى أن يكون عليه الشأن من اقتراب أجلهم ، وقدومهم على الله تعالى بسوء عملهم فأجل الافراد مهما يطل فهو قصير ، ومهما يبعد أملهم فيه فهو فى الحق الواقع قريب ولو نظروا فى الملكوت أو فى شىء ما منه ، واعتبروا بخلق الله تعالى إياه ، لاهتدوا بدلائله إلى تصديق الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، ولو نظروا فى توقع قرب أجلهم لاحتاطوا لأنفسهم ورأوا أن من العقل والروية أن يقبلوا إنذاره ﷺ لهم . لأن خيريته لهم فى الدنيا ظاهرة لم يكونوا ينكرونها ، وأما خيريته فى الآخرة فهى أعظم إذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء ، وهو صدق وحق ، وإن صح إنكارهم له — وما هو بصحيح — فلا ضرر عليهم من الاحتياط له ، كما قال الشاعر :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات ، قلت : إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

فالمجنون إذاً من يترك ما فيه سعادة الدنيا باعترافه ، وسعادة الآخرة ولو على احتمال لا ضرر فى تخلفه ، لا من يدعو الى السعادتين ، أو الى شيئين يجزمون بأن أحدهما نافع قطعاً والآخر إما نافع وإما غير ضار . هذا مادعاهم اليه صاحبهم بكتاب ربهم مؤيداً بالبراهين العقلية والعلمية ، لعلهم يعقلون ويعلمون .

﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ وردت هذه الآية بنصها فى آخر سورة المرسلات (٧٧) التى أقيمت فيها الدلائل على البعث والجزاء وتهديد المكذبين بالويل والهلاك بعد تقرير كل نوع منها . وورد فى الآية الخامسة والثلاثين من سورة الجاثية (٤٥) بعد التذكير بآيات الله للمؤمنين وآياته لقوم يوقنون وآياته لقوم يعقلون قوله : (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟) والحديث فى الجميع كلام الله الذى هو القرآن ، يدل عليه هنا قوله تعالى فى رسوله (إن هو إلا نذير مبين) وفى آية المرسلات القرينة فى تهديد المكذبين له . وفى آية الجاثية افتتاح السورة بذكر الكتاب فيكون معناها فبأى حديث بعد كتاب

الله المذكور فى الآية الاولى وآياته المشار اليها بعدها يؤمنون ؟

والمراد أن محمداً رسول الله ﷺ نذير مبين عن الله تعالى و إنما أنذر الناس بهذا الحديث أى القرآن كما أمره أن يقول (٦ : ١٩ وأوحى إلىّ هـذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وهو أكمل كتب الله بيانا ، وأقواها برهانا ، وأقهرها سلطانا ، فمن لم يؤمن به فلا مطمع فى إيمانه بغيره ، ومن لم يُرْو ظمأه الماء النقاخ المبرد فأى شيء يرويه ؟ ومن لم يبصر فى نور النهار ففى أى نور يبصر ؟ ثم قال تعالى

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾ هذا استئناف بيانى مقرر لجملة هذا السياق ، ومعنى الجملة المراد أن الله تعالى قد جعل هذا القرآن أعظم أسباب الهداية و إنما جعله هدى للمتقين لا للجاحدين المعاندين ، وجعل الرسول المبلغ له أكمل الرسل وأقواهم برهانا فى حاله وعقله وأخلاقه وكونه أمياً — فمن فقد الاستعداد للايمان والهدى بهذا الكتاب ، على ظهور آياته وقوة بيناته ، و بهذا الرسول المتحدى به — فهو الذى أضله الله ، أى قضت سننه فى نظام خلق الانسان ، وارتباط المسببات فى أعماله بالأسباب ، بأن يكون ضالا راسخاً فى الضلال ، و إذا كان ضلاله بمقتضى سنن الله ، فمن يهديه من بعد الله ؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير سننه ولا تبديلها

﴿ ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ أى وهو تعالى يترك هؤلاء الضالين فى طغيانهم كالشيء اللقا الذى لا يبالى به حالة كونهم يعمهون فيه أى يترددون تردد الحيرة والغمة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، وفى هذا بيان لسبب ضلالهم من كسبهم ، وهو الطغيان أى تجاوز الحد فى الباطل والشر من الكفر والظلم والفجور الذى ينتهى بالعمه ، وهو التردد فى الحيرة والارتكاس فى الغمة ، وقد روعى فى إفراد الضمير أولا لفظ من « يضلل » وفى جمعه آخراً معناها وهو الجمع ، ونظائره كثيرة

وقد علم مما قررناه أن إسناد الاضلال إلى الله تعالى ليس معناه أنه أجبرهم على الضلال إجباراً ، وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم اضطراراً لا اختياراً بل معناه أنهم مارسوا الكفر والضلال وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمه فى الطغيان ، ففقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضادها من الهدى والإيمان

وقرأ حمزة والكسائى يذرهم باسكان الراء ، فقيل هو للتخفيف وقيل للاعراب بالعطف على جواب الشرط ، وقرأه بعض القراء بالنون على الالتفات

﴿ تحقيق معنى الفكر والتفكر والنظر العقلي ﴾

من تحقيق المباحث اللفظية في الآيات كلمتا التفكر والنظر العقلي وقد عبر هنا بالتفكر في موضوع استبانة كون النبي ﷺ ليس بمجنون كما زعم بعض غواتهم ، وبالنظر في جملة الملكوت وجزئياته في موضوع الايمان بما جاءهم به الرسول من كتاب الله تعالى ، فنبين ذلك بما تظهر به نكتة الفرق بين التعبيرين ، ويتجلى تفسير الآيتين

الفكر بالكسر عبارة عن التأمل في المعاني وتدبرها وهو إسم من فكر يفكر فكرا (من باب ضرب) وفكر بالتشديد وتفكر ، ومثله الفكرة والفكرى . وفسروه أيضاً بإعمال الخاطر وإجالته في الأمور ، وقال الراغب : الفكرة مطرقة للعلم إلى المعلوم - والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل . . . . ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ولهذا روى « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » إذ كان منزها أن يوصف بصورة . ثم أورد الشواهد من الآيات ومنها آية الاعراف هذه . ثم نقل عن بعض الأدباء أن الفكر مقلوب عن الفرك لكنه يستعمل في المعاني ، وهو فرك الامور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها اه

وقال علماء المنطق : الفكر ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى مجهول تصوري أو تصديقي ، وهو ينافي الحكم على ظواهر الأشياء أوفيها بادي الرأي من غير تمحيص ولا تقدير ، واستعمال القرآن للتفكر والتفكير يدل على أنهما في العقليات المحضة أو في العقليات التي مبادئها حسيات ، فالانسان يفكر فيما ينبغي أن يقوله في المواقف التي تميز الأقوال ، وفيما ينبغي أن يفعله حيث تنتقد الأفعال ، ويفكر في أقوال الناس وأفعالهم ، ويفكر في الأمور الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية ، ويفكر أيضاً في المبصرات كالمسموعات والمعقولات ، وأكثر ما استعمله التنزيل في آيات الله ودلائل وجوده ووحدانيته وحكمته ورحمته

وأما النظر فقد قال الراغب في تعريفه : هو تقليب البصر أو البصيرة في إدراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية ، يقال : نظرت فلم تنظر ، أي لم تتأمل ولم تترو ، وقوله تعالى

(قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) أى تأملوا . واستعمال النظر فى البصر أكثر عنــد العامة ، وفى البصيرة أكثر عند الخاصــة . اهـ وقد اختلف علماء المعقول من المناطقة والمتكلمين فى الفكر والنظر، هل هما مترادفان أو أحدهما أخص من الآخر؟ ولهم كلام طويل فى ذلك أكثره اصطلاحى غير مقيد باستعمال اللغة .

واستعمال القرآن يدل على أن النظر العقلى مبدأ من مبادىء الفكر والتفكير ، كما أن مبدأه هو النظر الحسى فى الغالب كقوله تعــالى (أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت ؟) الخ وقوله (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ؟) الخ ومنه النظر فى عاقبه الأمم برؤية آثارها فى عدة آيات والشــواهد على ذلك فى التنزيل معروفة فلا نطيل فى سردها . والآيات التى نحن بصدد تفسيرها جمعت بين المبدإ الحسى وهو ملكوت الســموات والأرض والمبدإ الفكرى وهو اقتراب الأجل ، وهما وما فى معناهما يدلان على بناء الدين الإسلامى على قاعدتى: النظر العقلى والتفكر اللذين يمتاز بهما الأفراد والأمم بعضها على بعض والله أعلم وأحكم

(١٨٧) يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ : أَيَّانَ مُرْسٰهَا ؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ؛ ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيــكُمْ إِلا بَغْتَةً . يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ؛ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، وَلٰــكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنها ارشاد إلى النظر والتفكر فى أمر الساعة التى ينتهى بها أجل جميع الناس ، فى أثر الإرشاد إلى النظر والتفكر فى اقتراب أجل من كانوا فى عصر التنزيل وعهد نزول هذه السورة منهم ، وبعبارة أخرى أنها كلام فى الساعة العامة ، وبعد الكلام فى الساعة الخاصة . قال تعالى :

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ الساعة فى اللغة جزء قليل غير معين من الزمان ، وتسمى ساعة زمانية ، ومنه قوله تعالى فى أوائل هــذه السورة (٣٣

لا يستأخرون عنه ساعة) وفى اصطلاح الفلكيين جزء من ٢٤ جزءاً متساوية من اليوم والليلة ، وهى تنقسم إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية ــ وقد صار هذا التقسيم عرفا عاما فى جميع البلاد الحضرية يضبط بآلة تسمى الساعة ، وكان معروفا عند العرب ، وثبت فى الحديث « يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة » يعنى نهارها .

وفى لسان العرب: الساعة جزء من أجزاء الليل والنهار والجميع ساعات وساع وجاءنا بعد سَوْع من الليل و بعد سواع . أى بعد هدء منه ــ أو بعد ساعة . والساعة الوقت الحاضر ، وقوله تعالى (و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) يعنى بالساعة الوقت الذى تقوم فيه القيامة فلذلك ترك أن يعرف أى ساعة هى . فان سميت القيامة ساعة فعلى هذا . والساعة القيامة . وقال الزجاج اسم للوقت الذى يصعق فيه العباد والوقت الذى يبعثون فيه وتقوم فيه القيامة ، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى التى ذكرها الله عز وجل فقال (إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون)

ثم ذكر أنه تكرر ذكرها فى القرآن والحديث وانها تطلق فى الاصل بمعنين وهما ماذكرنا أولا من الساعة الزمانية والساعة الفلكية ، وقال فى المعنى الأول : يقال جلست عندك ساعة من النهار أى وقتاً قليلا منه ثم استعير لاسم يوم القيامة . قال الزجاج: معنى الساعة فى كل القرآن الوقت الذى تقوم فيه القيامة ــ يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم ، فلقلة الوقت الذى تقوم فيه سماها ساعة اه

أقول : الصواب أنها استعملت فى القرآن منكرة بمعنى الساعة الزمانية ومعرفة بالالف واللام العهدية بمعنى الساعة الشرعية ، وهى ساعة خراب هذا العالم وموت أهل الارض ، وجمع بينهما فى قوله تعالى (٣٠: ٥٤ و ٥٥ و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون : ما لبثوا غير ساعة) وقيل ان هذا القول هو وجه تسميتها بالساعة

والغالب فى استعمال القرآن التعبير بيوم القامة عن يوم البعث والحشر الذى يكون بعد الموت الذى يكون فيه الحساب وما يتلوه من الجزاء ــ والتعبير بالساعة عن الوقت الذى يموت فيه الاحياء فى هذا العالم و يضطرب نظامه و يخرب بما يكون فيه من الأهوال يتلو بعضها بعضا ، فالساعة هى المبدأ والقيامة هى الغاية ، ففى الاولى

الموت والهلاك ، وفى الآخرة البعث والجزاء . و بعض التعبيرات فى كل منها يحتمل حلوله محل الآخر فى الغالب، وفى المعنى المشترك الذى يعم المبدأ والغاية. وحمل بعض المفسرين الآيات على القيامة الصغرى لكل فرد وهى ساعة موته ، وزاد بعضهم القيامة الوسطى وهى هلاك الجيل أو القرن ، وفسروا به حديث « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة » رواه البخارى من حديث أبى هريرة . وقد يراد بالساعة هنا ساعة زوال الدولة لأن هذا من شؤونها واستدلوا عليه بحديث « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » رواه الديلمى عن أنس مرفوعا . وفى حديث عائشة من صحيح مسلم : كان الأعراب يسألون رسول الله ﷺ عن الساعة فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال « إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » ومثله من حديث أنس عنده أيضاً وهو أصرح من حديث أبى هريرة لإضافة الساعة إليهم . قال الداودى : هذا الجواب من معاريض الكلام فانه لو قال لهم : لا أدرى - ابتداء مع ماهم فيه من الجفاء وقبل تمكن الإيمان فى قلوبهم - لارتابوا فعدل إلى إعلامهم بالوقت الذى ينقرضون هم فيه . وقال الكرمانى : إن هذا الجواب من الأسلوب الحكيم ، أى دعوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى فانها لا يعلمها إلا الله ، واسألوا عن الوقت الذى يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم لأن معرفتكم تبعثكم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته لأن أحدكم لا يدرى من الذى يسبق الآخر اه وقال ابن الجوزى : كان النبى ﷺ يتكلم بأشياء على سبيل القياس وهو دليل معمول به ، فكأنه لما نزلت عليه الآيات فى قرب الساعة كقوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقوله (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) حمل ذلك على أنها لا تزيد على مضى قرن واحد ، ومن ثم قال فى الدجال « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » فجوز خروج الدجال فى حياته . قال وفيه وجه آخر وذكر مثل ماتقدم عن الداوودى ورجحه الحافظ فى الفتح .

ومما اختلفوا فى تفسير الساعة فيه بالوجوه الثلاثة المذكورة قوله تعالى (٦ : ٣١ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها) وقوله تعالى (٦ : ٤٠ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير

الله تدعون إن كنتم صادقين ؟) ويراجع تفسيرها فى الجزء السابع .

وحيث يذكر قيام الساعة كآيات سورة الروم الثلاث (١٠ و١٢ و٥٣) وآية سورة غافر(٤٠ : ٤٦ ويوم تقوم الساعة : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)فالمتبادر منه غايتها يوم البعث والحساب والجزاء — وحيث يذكر التكذيب بها أو المماراة فيها ، فالمراد المدى العام لكل ما وعد الله به وأوعد من أمر مبدئها وغايتها

وحيث يذكر اقتراب الساعة أومجيئها وإتيانها ولاسيما إذا قرن ببغتة فالمتبادرمنه مبدأ القيامة وخراب العالم الذى نعيش فيه،ومن هذاالقبيل السؤال عنهافان السؤال يكون عن أول الأمر المنتظر فى الغالب،ومنه آية الأعراف التى نحن بصددتفسيرها

فقوله تعالى ﴿ أيان مرساها ﴾ معناه يسألونك أيها الرسول عن الساعةقائلين أيان مرساها؟أى متى إرساؤهاوحصولها واستقرارها - أو يسألونك عنها من حيث زمن مجيئها وثبوتها بالوقوع والحصول.. فأيان ظرف زمان ، ومرساها مصدر بمعناه إرساؤها يقال رسا الشيء يرسو ثبت، وأرساه غيره ،ومنه ارساء السفينة وإيقافها بالمرساة التى تلقى فى البحر فتمنعها من الجريان ،قال تعالى(باسم الله مجراها ومرساها) وقال (والجبال أرساها) .

وفى السؤال عن زمن وقوعها بحرف الارساء الدال على استقرار ماشأنه الحركة والجريان أو الميدان والاضطراب نكتة دقيقة هى فى أعلى درج البلاغة . وهو أن قيام الساعة عبارة عن انتهاء أمر هذا العالم وانقضاء عمر هذه الأرض التى تدور بمن فيها من العوالم المتحركة المضطربة ، فعبر بارسائها عن منتهى أمرها ووقوف سيرها ، والساعة زمن وهو أمر مقدر ، لاجسم سائر أو مسير ، ومايقع فيها ويعبر بها عنه فهو حركة اضطراب وزلزال ، لارسو ولا إرساء ، وهو أمر مستقبل لاحاصل ، ومتوقع لاواقع ،وقوله تعالى (٥٢ : ٦ أن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع) معناه انه سيقع حتما ، ولذلك علق به بيان مايقع فيه بقوله(٨ يوم تمور السماء مورا ٩ وتسير الجبال سيرا ١٠ فويل يومئذ للمكذبين) فلم يبق لارسائها معنى الا ارساء حركة هذا العالم فيها . وانه لتعبير بليغ ، لم يمهد له فى كلام

البلغاء نظير، ولم أر أحدا نبه لهـذا . وذكر الساعة أولا والاستفهام عن زمن وقوعها ثانيا على قاعدة تقديم الأهم، وهو المقصود بالذات .

قيل: إن المراد بالسائلين هنا اليهود سألوه عنها امتحانا قالوا إن كان نبياً فانه لا يعين لها زمنا لأن الله تعالى لم يطلع على ذلك أحدا من رسله، وقيل قريش ويرجحه أن السورة مكية ولم يكن فى مكة أحد من اليهود، وصيغة « يسألونك » المتبادر منها الحال لا الاستقبال البعيد. وفى آية الأحزاب (٣٣:٦٣ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) وهذه مدنية.

قال ابن كثير بعد ترجيح كون السائلين من قريش: وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيبا بوجودها كما قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقال تعالى (٤٢ : ١٦ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق . ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد) وقوله (أيان مرساها) قال على بن طلحة عن ابن عباس: منتهاها. أى متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذى هو أول وقت الساعة اه

﴿قل إنما علمها عند ربى﴾ قل أيها النذير إن علم الساعة عند ربى وحده ليس عندى ولا عند غيرى من الخلق شىء منه — وهذا يدل عليه لفظ « إنما » من الحصر كما قال تعالى فى الآية التى فسر بها النبى ﷺ مفاتح الغيب (٣١ : ٣٤ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام) أى عنده لا عند أحد سواه — ومثله قوله تعالى (٤١ : ٤٦ إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها) الآية أى يرد إليه وحده لا إلى غيره . وأشبه الآيات الدالة على استئثار علم الله تعالى بالساعة بآية الأعراف آيتان: آية الأحزاب (٣٣ : ٦٣) وذكرناها آنفا — وآية أواخر النازعات وما بعدها: (٧٩ : ٤٢ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ٤٣ فيم أنت من ذكراها ٤٤ إلى ربك منتهاها ٤٥ إنما أنت منذر من يخشاها ٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) أى إلى ربك وحده من دونك ودون سائر خلقه منتهى أمر الساعة الذى يسألونك عنه، وإنما أنت منذر لأهل الإيمان الذين يخشونها ويستعدون لها لا تعدو وظيفة الإنذار والتعليم والإرشاد .

فهذه الآيات كآية الأعراف سؤالا وجوابا فالسؤال عن الساعة من حيث إرساؤها ومنتهى أمرها، والجواب رد ذلك إلى الرب مضافا إلى ضمير رسوله فما أخبره به فى قوله (إلى ربك منتهاها) هو ما أمره أن يجيب به فى قوله (قل إنما علمها عند ربى) وفيه إيذان بأن ماهو من شأن الرب ، لا يكون للعبد ، فهو تعالى قد رباه ليكون منذراً ومبشرا ، لا للاخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها، والانذار إنما يناط بالاعلام بالساعة وأهوالها ، والنار وسلاسلها وأغلالها، ولا تتم الفائدة منه إلا بإبهام وقتها ، ليخشى أهل كل زمن اتيانها فيه . والإعلام بوقت إتيانها وتحديد تاريخها ينافى هذه الفائدة بل فيه مفاسد أخرى ، فلو قال الرسول للناس إن الساعة تأتى بعد ألفى سنة من يومنا هذا ، مثلا — وألفاسنة فى تاريخ العالم وآلاف السنين تعد أجيالا قريبا — لرأى المكذبين يستهزئون بهذا الخبر ويلحون فى تكذيبه ، والمرتابين يزدادون ارتيابا ، حتى إذا ما قرب الأجل وقع المؤمنون فى رعب عظيم ينغص عليهم حياتهم ، ويوقع الشلل فى أعضائهم ، والتشنج فى أعصابهم ، حتى لا يستطيعون عملا ولا يسيغون طعاما ولا شرابا ، ومنهم من يخرج من ماله وما يملكه ، من حيث يكون الكافرون آمنين ، يسخرون من المؤمنين ، وقد وقع فى أوربة أن أخبر بعض رجال الكنيسة الذين كان يقلدهم الجمهور بأن القيامة تقوم فى سنة كذا فهلعت القلوب واختلت الأعمال ، وأهمل أمر العيال ، ووقف المصدقون ما يملكون على الكنائس والأديار ولم تهدأ الأنفس ويثوب إليها رشدها إلا بعد ظهور كذب النبأ بمجيء أجله دون وقوعه ، فالحكمة البالغة إذاً فى ابهام أمر الساعة العامة للعالم ، وكذا الساعة الخاصة بأفراد الناس ، أو بالأمم والأجيال ، وجعلها من الغيب الذى استأثر الله تعالى به ، على ماسنذكر فى إيضاحه ، فلذلك قال بعد حصر أمرها فى علمه

﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ هذا جواب عن طلب معرفة الوقت الذى يكون ارساؤها فيه ، يقال : جلا لى الأمر وانجلى ، وجلاه فلان تجلية بمعنى كشفه وأظهره أتم الاظهار . واللام الداخلة على وقتها تسمى لام التوقيت كقولهم : وكتب هذا الكتاب لغرة المحرم أو لعشر مضين أو لبقين من صفر . والمعنى لا يكشف حجاب الخفاء عنها ولا يظهرها فى وقتها المحدود عند الرب تعالى الا هو ، فلا

وساطة بينه وبين عباده فى إظهارها ولا الإعلام بميقاتها، وإنما وساطة الرسل عليهم السلام فى الإنذار بها .

وبُنى على هذا الإياس من علم أمرها والإنباء بوقت وقوعها بقوله فى تعظيم شأنها ومن إخفاء وقتها ﴿ ثقلت فى السموات والأرض ﴾ أى ثقل وقعها وعظم أمرها فى السموات والأرض على أهلها من الملائكة والإنس والجن لأن الله تعالى نبأهم بأهوالها، ولم يشعرهم بميقاتها. فهم يتوقعون أمراً عظيماً لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه.

روى عن قتادة فى تفسير الجملة أنه قال : ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون . وقال السدى : خفيت فى السموات والأرض فلا يعلم قيامها ملك مقرب ولا نبى مرسل . فهذان القولان تفسير لثقلها بفقد العلم بها فان المجهول ثقيل على النفس ولا سيما إذا كان عظيما، وروى عن معمر وابن جريج أن ثقلها يكون يوم مجيئها (إذا الشمس كورت) و(إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت) و(إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بساً * فكانت هباء منبثاً) وغير ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها . وعن ابن عباس فى ثقلها : ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة، ولكل رواية وجه صحيح، والمتبادر من الجملة ماذكرناه أولا وهو يتفق مع جملة هذه الروايات .

﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ أى فجأة على حين غفلة، من غير توقع ولا انتظار، ولا إشعار ولا إنذار . وقد تكرر هذا القول فى التنزيل، وجاء فى حديث أبى هريرة من الصحيحين واللفظ للبخارى « ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته [1] فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه [2] ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها » والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون فى أمور معايشهم المعتادة . وأبلغ من هذا قوله تعالى فى أول سورة الحج (٢٢ : ١ ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ٢ يوم

(١) اللقحة الناقة ذات الدر (٢) يليط حوضه بالطين من الإلاطة : طلاه حجارته بالطين أو غيره كالجص ليمسك الماء ويحفظه، والثلاثى منه لاطه يلوطه .

ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد)

فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى فى أعمالهم فيلتزموا فيها الحق ، ويتحروا الخير ، ويتقوا الشرور والمعاصى ، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال . والقيل والقال . وإننا نرى بعض المتأخرين قد شغلوا المسلمين عن ذلك ببحث افتجره بعض الغلاة وهو أن النبي ﷺ لم يبق طول عمره لا يعلم متى تقوم الساعة كما تدل عليه آيات القرآن الكثيرة بل أعلمه الله تعالى به ، بل زعم أنه أطلعه على كل ما فى علمه ، فصار علمه كعلم ربه أى صار نداً وشريكاً لله تعالى فى صفة العلم المحيط بالغيوب التى لا نهاية لها ، ومن أصول التوحيد أنه تعالى لا شريك له فى ذاته ولا فى صفة من صفاته ، والرسول عبد الله لا يعلم من الغيب إلا ما أوحاه الله تعالى اليه لأداء وظيفة التبليغ وستزداد علما ببطلان هذا الغلو خاصة فى تفسير الآية التالية . ولكن الغلاة يرون من التقصير فى مدح النبي ﷺ وتعظيمه أن تكون صفاته دون صفات ربه وإلهه وخالق الخلق أجمعين . فكذبوا كلام الله تعالى وشبهوا به بعض عبيده إرضاء لغلوهم ، ومثل هذا الغلو لم يعرف عن أحد من سلف هذه الأمة ، ولو أراد الله تعالى أن يعلم رسوله ﷺ بوقت قيام الساعة بعد كل ما أنزله عليه فى إخفائها واستئثاره بعلمه لما أكده كل هذا التأكيد فى هذه السورة وغيرها كقوله عز وجل :

﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾ الخ . يسألونك هذا السؤال كأنك حفى مبالغ فى سؤال ربك عنها — أو يسألونك عنها كأنك حفى بهم — فعنها متعلق بيسألونك وجملة « كأنك حفى » معترضة . قال فى مجاز الاساس : أحفى فى السؤال : ألحف . . . وهو حفى عن الأمر : بليغ فى السؤال عنه (كأنك حفى عنها) وقال الأعشى :

فإن تسألى عنى ، فيارب سائل حفى عن الاعشى به حيث أصعدا

واستحفيته عن كذا : استخبرته على وجه المبالغة . وتحفى بى فلان ، وحفى بى

حفاوة ، إذا تلطف بك و بالغ فى إكرامك اه . أقول: ومنه قوله تعالى حكاية عن خليله ابراهيم عليه وعلى نبينا وآلها الصلاة والسلام (إنه كان بى حفياً)

وفى تفسير ابن كثير : عن العوفى عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفى عنها) يقول : كأن بينك و بينهم مودة كأنك صديق لهم . قال ابن عباس: لما سأل الناس النبى ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفى بهم ، فأوحى الله اليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع عليه ملكا مقربا ولا رسولا . وقال قتادة : قالت قريش لمحمد ﷺ إن بيننا و بينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل (يسألونك كأنك حفى عنها) وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وأبى مالك والسدى ، هذا قول، والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره (يسألونك كأنك حفى عنها) قال : استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاك عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفى عنها) يقول كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، قل إنما علمها عند الله . وقال معمر عن بعضهم (كأنك حفى عنها) كأنك عالم بها وقد أخفى الله علمها عن خلقه وقرأ (إن الله عنده علم الساعة) الآية .قال ابن كثير : وهذا القول أرجح فى المعنى من الأول والله أعلم ، ولهذا قال :

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ هذا تكرار للجواب فى اثر تكرار السؤال المبالغة فى التأكيد والإيئاس من العلم بوقت مجيئها ، وتخطئة من يسألون عنه ، وقد ذكر هنا اسم الجلالة للاشعار بأنه هو المستأثر بعلمه لذاته ، كما أشعر ماقبله بأنه من شئون ربوبيته ، وكل منهما مما يستحيل على خلقه ﴿ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾ اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك ، ولا أدب السؤال ، ولا غير ذلك مما يتعلق بهذا المقام ، وإنما يعلم ذلك القليلون وهم المؤمنون بما جاء من أخبارها فى كتاب الله تعالى وبالسماع من رسوله ﷺ كالذين حضروا تمثيل جبريل عليه السلام بصفة رجل وسؤاله للنبى ﷺ عن الايمان والاسلام والاحسان ثم عن الساعة، وقول النبى ﷺ له عند السؤال الأخير «ما المسؤل عنها بأعلم من السائل» يعنى أننا سواء فى هذا الأمر لايعلم أحد منا متى تقوم الساعة .

﴿فصل فيا ورد فى قرب الساعة وأشراطها وما قيل فى عمر الدنيا﴾

إن ماورد فى بعض الأحاديث من قرب قيام الساعة حق مقتبس من القرآن كآية الأحزاب التى ذكرت قريبا ومثلها آية الشورى (٤٢ : ١٧ وما يدريك لعل الساعة قريب) وفى معناها قوله تعالى فى سياق الرد على منكرى البعث والاعادة (١٧ : ٥١ ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا) وفى التعبير عن قربه بلعل وعسى مايناسب عدم إطلاع الله لرسوله على وقته . ولا شك أن قرب ذلك اليوم الذى مقداره من مبدئه إلى غايته خمسون ألف سنة مناسب له ، ولما تقدم من عمر الدنيا وبقى منه ، فالقريب والبعد من الأمور النسبية والمراد قربها بالنسبة إلى مامضى من عمر الدنيا ولا يعلمه إلا الله تعالى .

وماجاء فى الآثار من أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة مأخوذ من الاسرائيليات التى كان يبثها زنادقة اليهود والفرس فى المسلمين حتى رووه مرفوعا ، وقد اغتر بها من لاينظرون فى نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها حتى استنبط بعضهم منها مابقى من عمر الدنيا . وللجلال السيوطى فى هذا رسالة فى ذلك قد هدمها عليه الزمان ، كا هدم أمثالها من التخرصات والأوهام ، وما بث فى الاسرائيليات من الكيد للاسلام

قال السيد الآلوسى فى أثر تفسير الآية : « إنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك ، فانه أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، كا أن اخفاء الأجل الخاص للانسان كذلك . ولو قيل بأن الحكمة التكوينية تقتضى ذلك أيضا لم يبعد . وظاهر الآيات (١) أنه ﷺ لم يعلم وقت قيامها . نعم علم ﷺ قربها على الاجمال ، وأخبر ﷺ به ، فقد أخرج الترمذى وصححه عن أنس مرفوعا « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى (٢) وفى الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا أيضاً « إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وجاء فى غير ما أثر أن عمر الدنيا سبعة

---

(١) الصواب أن نصوص الآيات قطعية فى ذلك (٢) الحديث رواه الشيخان أيضا وكأنه غفل عنه .

آلاف سنة ، وأنه عليه الصلاة والسلام بعث فى أواخر الألف السادسة ، ومعظم الملة فى الألف السابعة .

« وأخرج الجلال السيوطى عدة أحاديث فى أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وذكر أن مدة هذه الأمة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، واستدل على ذلك بأخبار وآثار ذكرها فى رسالته المسماة (بالكشف ، عن مجاوزة هذه الأمة الألف) وسمى بعضهم لذلك هذه الألف الثانية بالمخضرمة لأن نصفها دنيا ، ونصفها الآخر أخرى ، وإذا لم يظهر المهدى على رأس المائة التى نحن فيها ينهدم جميع ما بناه فيها كما لا يخفى ، وكأنى بك تراه منهدما اﻫ

أقول: نقلت هذا لأن كثيراً من الناس يرجعون إلى هذا التفسير فى مثل هذا البحث، فأحببت أن يعرف رأيه فى المسألة من لم يطلع عليه ، وقد مضت المائة التى كان فيها مؤلفه برأسها وذنبها وهى المائة الثالثة عشرة من الهجرة ثم مضى زهاء نصف المائة التى بعدها وهى الرابعة عشرة إذ نكتب هذا البحث فى سنة ١٣٤٥ ولم يظهر المهدى فانهدم ولله الحمد ما بناه السيوطى عفا الله تعالى عنه من الأوهام التى جمعها كحاطب ليل ، ولم يعرج فى مباحثها على ماكتبه أستاذه الأكبر الحافظ ابن حجر فى نقد رواياتها . ونحن نورد هنا ماكتبه الحافظ فى شرحه لحديث « بعثت أنا والساعة كهاتين» من شرحه للبخارى ، ثم نقفى عليه بما يقتضيه المقام

بدأ الحافظ شرحه لمعنى الحديث بأقوال محققى العلماء فى معنى التشبيه بالاصبعين هل المراد به قرب أحداهما من الأخرى أم التفاوت الذى بينهما فى الطول ؟ وما المراد به ؟ والأرجح المختار عندنا من هذه الأقوال أنه ليس بينه ﷺ وبين الساعة نبى آخر فهى تليه . ثم قال « ولا معارضة بين هذا وبين قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة) ونحو ذلك لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معينا ، وقيل معنى الحديث ليس بينى وبين القيامة شىء هى التى تلينى كما تلى السبابة الوسطى . وعلى هذا فلا تنافى بين مادل عليه الحديث وبين قوله تعالى عن الساعة (لا يعلمها إلا هو) اﻫ

أقول إن جملة (لا يعلمها إلا هو) قد وردت فى قوله تعالى من سورة الانعام (٦ : ٥٩ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) لا فى الساعة ولكن ورد فى الصحيح تفسير

مفاتح الغيب بآية آخر سورة لقمان (٣١ : ٣٤ ان الله عنده علم الساعة و ينزل الغيث) الخ فعبارته صحيحة المعنى لا اللفظ ولعله أراد ذلك . ثم قال رحمه الله وأثابه :

« وقال القاضى عياض : حاول بعضهم فى تأويله أن نسبة مابين الأصبعين كنسبة ما بقى من الدنيا بالنسبة إلى مامضى وأن جملتها سبعة آلاف سنة واستند إلى أخبار لا تصح ، وذكر ما أخرجه أبو داود فى تأخير هـذه الأمة نصف يوم وفسره بخمسمائة سنة ، فيؤخذ من ذلك أن الذى بقى نصف سبع وهو قريب مما بين السبابة والوسطى فى الطول (قال) وقد ظهر عدم صحة ذلك لوقوع خلافه ومجاوزة هذا المقدار ، ولو كان هذا ثابتاً لم يقع خلافه

« قلت : قد انضاف إلى ذلك منـذ عهد عياض إلى هـذا الحين ثلاثمائة سنة[1] وقال ابن العربى[2] قيل : الوسطى تزيد على السبابة نصف سبعها وكذا الباقى من الدنيا من البعثة إلى قيام الساعة ؟ قال وهذا بعيد ولا يعلم مقدار الدنيا فكيف يتحصل لنا نصف سبع أمد مجهول ؟ فالصواب الاعراض عن ذلك

« قلت : السابق إلى ذلك أبو جعفر بن جرير الطبرى فانه أورد فى مقدمة تاريخه عن ابن عباس قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة وقد مضى ستة آلاف ومائة سنة ، وأورده من طريق يحيى بن يعقوب عن حماد بن أبى سليمان عن سعيد بن جبير عنه ويحيى هو أبو طالب القاضى الانصارى ، قال البخارى منكر الحديث . وشيخه هو فقيه الكوفة وفيه مقال ، ثم أورد الطبرى عن كعب الاحبار قال : الدنيا ستة آلاف سنة ، وعن وهب بن منبه مثله ، أراد أن الذى مضى منها خمسة آلاف وستمائة سنة ثم زيفهما ورجح ماجاء عن ابن عباس انها سبعة آلاف . ثم أورد حديث ابن عمر الذى فى الصحيحين مرفوعا « ما أجلكم فى أجل من كان قبلكم إلا من صلاة العصر إلى مغرب الشمس » ومن طريق مغيرة بن حكيم عن ابن عمر بلفظ « مابقى لامتى من الدنيا إلا كمقدارما إذا صليت العصر » ومن طريق

---

(١) كان عياض فى القرن السادس وابن حجر فى القرن التاسع وقد تم كتابه فتح البارى سنة ٨٤٢ وكانت وفاة عياض سنة ٥٤٤ ووفاته هو ٨٥٢ رحمهما الله تعالى ورحمنا (٢) هو القاضى أبو بكر المفسر الفقيه المالكى لا ابن عربى الحاتمى الصوفى

مجاهد عن ابن عمر « كنا عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان مرتفعة بعد العصر فقال : ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من هذا النهار مما مضى منه » وهو عند أحمد بسند حسن ثم أورد حديث أنس « خطبنا رسول الله ﷺ يوما وقد كادت الشمس تغيب » فذكر نحو الحديث الأول عن ابن عمر ومن حديث أبي سعيد بمعناه قال عند غروب الشمس « إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها كبقية يومكم هذا فيما مضى منه » وحديث أبي سعيد أخرجه أيضاً وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف وحديث أنس أخرجه أيضاً وفيه موسى بن خلف[(1)] ثم جمع بينهما بما حاصله : أنه حمل قوله « بعد صلاة العصر » على ما إذا صليت في وسط من وقتها.

« قلت : وهو بعيد من لفظ أنس وأبي سعيد . وحديث ابن عمر صحيح متفق عليه ، فالصواب الاعتماد عليه . وله محملان أحدهما أن المراد بالتشبيه التقريب ولا يراد حقيقة المقدار فيه يجتمع مع حديث أنس وأبي سعيد على تقدير ثبوتهما والثاني أن يحمل على ظاهره فيقدم حديث ابن عمر لصحته و يكون فيه دلالة على أن مدة هذه الأمة قدر خمس النهار تقريبا . ثم أيد الطبري كلامه بحديث الباب و بحديث أبي ثعلبة الذي أخرجه أبو داود وصححه الحاكم ولفظه « والله لا تعجز هذه الأمة من نصف يوم » ورواته ثقات ولكن رجح البخاري وقفه ، وعند أبي داود أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ « إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربهم أن يؤخرهم نصف يوم ، قيل لسعد : كم نصف يوم ؟ قال خمسمائة سنة » ورواته موثقون إلا أن فيها انقطاعا ، قال الطبري : ونصف اليوم خمسمائة سنة أخذا من قوله تعالى (وإن يوما عند ربك كألف سنة) فاذا انضم إلى قول ابن عباس إن الدنيا سبعة آلاف سنة توافقت الأخبار فيكون الماضي إلى وقت الحديث المذكور ستة آلاف سنة وخمسمائة سنة تقريبا ، وقد أورد السهيلي كلام الطبري وأيده بما وقع عنده في حديث المستورد وأكد بحديث ابن زمل رفعه « والدنيا سبعة آلاف سنة بعثت في آخرها »

« قلت : وهذا الحديث إنما هو عن ابن زمل وسنده ضعيف جداً أخرجه ابن السكن في الصحابة وقال إسناده مجهول وليس بمعروف في الصحابة وابن قتيبة

---

(١) لم يقل الحافظ فيه شيئا وقد وثقه بعضهم وضعفه ابن معين وقال ابن حبان : أكثر من المناكير

في غريب الحديث وذكره في الصحابة أيضاً ابن منده وغيره وسماه بعضهم عبدالله و بعضهم الضحاك ، وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، وقال ابن الأثير ألفاظه مصنوعة ، ثم بين السهيلي أنه ليس في حديث نصف يوم ماينفي الزيادة على الخمسمائة قال: وقد جاء بيان ذلك فيما رواه جعفر بن عبد الواحد بلفظ «إن أحسنت أمتي فبقاؤها يوم من أيام الآخرة ـ وذلك ألف سنة ـ وإن أساءت فنصف يوم» قال وليس في قوله «بعثت أنا والساعة كهاتين» ما يقطع به على صحة التأويل الماضي بل قد قيل في تأويله إنه ليس بينه وبين الساعة نبي مع التقريب لمجيئها ثم جوز أن يكون في عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر مايوافق حديث ابن زمل وذكر أن عددها تسعمائة وثلاثة .

« قلت : وهو مبني على طريقة المغاربة في عد الحروف وأما المشارقة فينقص العدد عندهم مائتين وعشرة ، فان السين عند المغاربة بثلثمائة والصاد بستين وأما المشارقة فالسين عندهم ستون والصاد تسعون فيكون المقدار عندهم ستمائة وثلاثة وتسعين، وقد مضت وزيادة عليها مائة وخمس وأربعون سنة، فالحمل على ذلك من هذه الحيثية باطل ، وقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عد أبي جاد والاشارة إلى أن ذلك من جملة السحر وليس ذلك ببعيد فانه لا أصل له في الشريعة وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي، وهو من مشايخ السهيلي في فوائد رحلته ما نصه : ومن الباطل الحروف المقطعة في أوائل السور وقد تحصل لي فيها عشرون قولا وأزيد ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم، ولا يصل فيها إلى فهم، إلا أني أقول ـ فذكر ما ملخصه ـ أنه لولا ان العرب كانوا يعرفون ان لها مدلولا متداولا بينهم لكانوا أول من انكر ذلك على النبي ﷺ بل تلا عليهم (ص وحم فصلت) وغيرهما فلم ينكروا ذلك بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوفهم إلى عثرة وحرصهم على زلة ، فدل على أنه كان امراً معروفا بينهم لا انكار فيه [(١)]

(١) نقول: لو كان لها مدلولا متداولا لعرف ونقل ، ويكفي في سبب سكوت العرب عن انكارها عليهم انها ذكرت لفائدة كالتنبيه واستصغاء السمع وتوجيه الذهن لما يذكر بعدها كما شرحناه في أول تفسير هذه السورة . وأما عدد أبي جاد فليس بلغوي ولا شرعي بل هو اصطلاح يهودي

« قال : وأما عدد الحروف بخصوصه فانما جاء عن بعض اليهود كما حكاه ابن إسحق فى السيرة النبوية عن أبى ياسر بن أخطب وغيره أنهم حملوا الحروف التى فى أوائل السور على هذا الحساب واستقصروا المدة أول ما نزل « الم والر » فلما نزل بعد ذلك (المص وطسم) وغير ذلك قالوا ألبست علينا الأمر . وعلى تقدير أن يكون ذلك مراداً فليحمل على جميع الحروف الواردة ولا يحذف المكرر فانه ما من حرف منها إلا وله سر يخصه ، أو يقتصر على حذف المكرر من أسماء السور ولو تكررت الحروف فيها فان السور التى ابتدئت بذلك تسع وعشرون سورة وعدد حروف الجميع ثمانية وسبعون حرفا . وهى الم ستة حم ستة الر خمسة طسم اثنتان المص المر كهيعص طه طس يس ص ق ن فاذا حذف ما كرر من السور وهى خمس من : الم وخمس من حم وأربع من الر وواحدة من طسم بقى أربع عشرة سورة عدد حروفها ثمانية وثلاثون حرفا فاذا حسب عددها بالجمل المغربى بلغت ألفين وستمائة وأربعة وعشرين وأما بالجمل المشرقى فتبلغ ألفاً وسبعمائة وأربعة وخمسين . ولم أذكر ذلك ليعتمد عليه إلا لأبين أن الذى جنح إليه السهيلى لا ينبغى الاعتماد عليه لشدة التخالف فيه .

« وفى الجملة فأقوى ما يعتمد فى ذلك ما دل عليه حديث ابن عمر الذى أشرت إليه قبل ، وقد أخرج معمر فى الجامع عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال معمر وبلغنى عن عكرمة فى قوله تعالى (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قال « الدنيا من أولها إلى آخرها يوم مقداره خمسون ألف سنة لا يدرى كم مضى ولا كم بقى إلا الله تعالى ، وقد حمل بعض شراح المصابيح حديث « لن تعجز هذه الأمة أن يؤخرها نصف يوم » على حال يوم القيامة وزيفه الطيبى فأصاب

وأما زيادة جعفر فهى موضوعة لأنها لا تعرف إلا من جهته وهو مشهور بوضع الحديث وقد كذبه الأئمة مع أنه لم يسبق سنده بذلك فالعجب من السهيلى كيف سكت عنه مع معرفته بحاله . والله المستعان اهـ سياق الحافظ ابن حجر كله

(يقول محمد رشيد) أما زيادة جعفر أى ابن عبد الواحد على حديث ابن زمل فى عمر الدنيا فهو ما ذكره من حديث اليوم ونصف اليوم فى عمر هذه الأمة

فهو موضوع جمع السيوطى بينه وبين حديث ابن زمل المجهول الذى حكم ابن الجوزى بوضعه ومزجها بسائر الروايات فى المسألة ولا يصح منها شيء يؤيد مراده فكأن رسالته كلها مستنبطة من الخبرين الموضوعين أى المكذوبين على رسول الله ﷺ ، فتأمل هداك الله تعالى ما يفعل الغرور بظواهر الروايات حتى فى أنفس المشتغلين بالحديث كالسيوطى الذى عد من الحفاظ وأنكر ذلك زميله السخاوى وكلاهما من تلاميذ الحافظ ابن حجر

وقد علم مما ذكره الحافظ هنا أن بطلى الاسرائيليات وينبوعى الخرافات كعب الاحبار ووهب ابن منبه قد بثا فى هذه الأمة خرافة تحديد عمر الدنيا وليس أصله من مخترعاتهما فهو موجود فى كتب اليهود حتى فيما يسمونه التوراة ولكنه فيها سبعة آلاف فجعلاه ستة آلاف غشا للمسلمين ، وما يدرينا أن كل تلك الروايات أو الموقوفة منها ترجع إليهما . فان الصحابة (رض) لم يكونوا يذكرون ما يسمع بعضهم من بعض ومن التابعين على سبيل الرواية والنقل بل يذكرونه بالمناسبات من غير عزو غالبا ، وكثير من التابعين كذلك بل أكثر ماروى عن أبى هريرة من الأحاديث المرفوعة لم يسمعه منه ﷺ ولذلك روى أكثره عنه بالعنعنة أو بقوله قال رسول الله ﷺ وأقله بلفظ سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا ، وقد روى عن بعض الصحابة وعن بعض التابعين ، وثبت أنه روى عن كعب الأحبار ومن هنا نجزم بأن موقوفات الصحابة التى لامجال فيها للاجتهاد والرأى لا يكون لها قوة المرفوع كما قال المحدثون إلا إذا كانت ليست من قبيل الاسرائيليات

وقد تكلم فى مسألة قرب الساعة بعد السيوطى كثيرون ولبعضهم فيها مصنفات كبهجة الناظرين والاشاعة ومنهم العلامة السفارينى فى كتبه والسيد ابن الأمير اليمنى والسيد أبو الطيب صديق حسن خان فى كتبه ومنها كتاب (الاذاعة لما كان وما يكون بين يدى الساعة) وكان معاصراً للسيد محمود الآلوسى صاحب تفسير (روح المعانى) وقد نقل عن ابن الأمير وعن الحافظ ابن حجر ، وقد لخص ابن الأمير كلام ابن جرير وما أورده عليه ابن حجر ، ثم أورد خلاصة كلام السيوطى ورده وذكر أن الحق الواقع يخالفه وهو ما أشار إليه الآلوسى بعده إشارة — وهاك ما نقله

عند صاحب الاذاعة السيد أبو الطيب صديق حسن خان المعاصر للآلوسي في هذا عقب مانقله من تعقيب الحافظ على ابن جرير قال :

(قلت) لما تقارب انخرام القرن التاسع ذكر الحافظ السيوطي أنه وصل إليه رجل في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة في شهر ربيع الأول ومعه ورقة حاصل مافيها الاعتماد على حديث أنه لايلبث النبي ﷺ في قبره ألف سنة وأنه أفتى بعض العلماء اعتماداً على هذا الحديث بأن في المائة العاشرة خروج المهدي والدجال ونزول عيسى وسائر الآيات من أشراط الساعة ، ثم قال السيوطي : على أن هذا الحديث باطل ، وأطال الكلام في صدر رسالته التي سماها (الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف) ثم ذكر أن الذي دلت عليه الآثار أن هذه الأمة تزيد مدة بقائها في الدنيا على ألف سنة ، وأنها لاتبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، ثم اعتمد ماذكره ابن جرير أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، قال وذلك لانه ورد من طرق أن مدة الدنيا من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة سبعة آلاف سنة ، وأن النبي ﷺ بعث في آخر الألف السادس وساق ماقدمناه من أدلة ابن جرير ، بل قال وصحح ابن جرير هذا الأصل وعقده بابا انتهى .

« قال السيد الأمير (قلت) وماكان للسيوطي أن يعرض عن تعقبات الحافظ ابن حجر ، بل كان يتعين عليه ذكرها وإقرارها أو ردها ، فان تركه لها يوهم الناظر في كلامه وسكوته على تصحيح ابن جرير ليس كذلك كما عرفت [1] .

« ثم استند السيوطي في جزمه ببقاء الأمة بعد الألف أقل من خمسمائة سنة إلى آثار ذكرها ، منها ما أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنه قال « يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة » وإلى أنه يلبث عيسى عليه السلام أربعين سنة بعد قتله الدجال ثم يستخلف رجل من تميم يبقى ثلاث سنين وإلى أنه يبقى الناس بعد ارسال الله ريحاً تقبض روح كل مؤمن مائة سنة لايعرفون

(١) لابد أن يكون قد سقط من هذا النقل شيء والمعنى ان هذا الترك والسكوت يوهم الناظر فيهما أن نقد الحافظ لكلام ابن جرير في غير محله والأمر ليس كذلك .

ديناً من الأديان ، وإلى أن بين النفختين أربعين عاماً ، وإلى أنه ينزل عيسى على رأس مائة سنة فهذه مائة سنة وثلاث وستون سنة ، ونحن الآن في القرن الثاني عشر ويضاف إليه مائتان وثلاث وستون سنة فيكون الجميع ١٤٦٠ وعلى قوله إنه لا يبلغ خمسمائة سنة بعد الألف يكون منتهى بقاء الأمة بعد الألف ٤٦٣ سنة ويتخرج منه أن خروج الدجال أعاذنا الله من فتنته قبل انخرام هذه المائة التي نحن فيها وهي المائة الثانية عشرة من الهجرة النبوية انتهى ، وقد توفي ابن الأمير سنة ١١٨٢ .

قال صاحب الاذاعة : « أقول : وقد مضى إلى الآن على الألف نحو من ثلاثمائة سنة ولم يظهر المهدى ولم ينزل عيسى ولم يخرج الدجال فدل على أن هذا الحساب ليس صحيح .

« ثم قال السيد العلامة (قلت) وقد أخرج مسلم والحاكم عن ابن عمر مرفوعا « يخرج الدجال فيمكث في أمتي أربعين » انتهى ، هكذا لم يتميز العدد بشيء لا بالأيام ، ولا بالشهور ، ولا بالسنين ، فلو كانت سنين لكان ظهوره من رأس ستين من هذا القرن ، إلا أنه قد ثبت عند أحمد وابن خزيمة وأبي يعلى والحاكم تعيين الأربعين بليلة ، فهي أربعون يوماً ، وقال « يوم منها كالسنة ، ويوم كالشهر ، ويوم كالجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » وعلى هذا يكون خروجه في سنة تسع وتسعين من هذا القرن الذي نحن فيه ، وإنما قلنا ذلك ليتم نزول عيسى في رأسها ويبقى عيسى من القرن الثالث عشر أربعين سنة وخليفته ثلاث سنين ، ثم تطلع الشمس من مغربها ويبقى الناس مائة وعشرين بعد طلوعها ، ويحتمل أن المائة التي يبقى الناس فيها لا يعرفون دينا هي من هذه المائة والعشرين . هذا خلاصة كلام السيوطي في رسالة الكشف ، وفيه ما عرفت ، واستدل على ما ذكره بآثار عن السلف كأنه يقول انها لا تقال من قبل الرأى فلها حكم الرفع .

(ثم قال) وإذا أحطت علما بجميع ما سقناه علمت بأن القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بأنه سبعة آلاف سنة لم يثبت فيه نص يعتمد عليه ، وغاية ما فيه آثار عن السلف وإن كانت لا تقال إلا عن توقيف فلعلها مأخوذة عن أهل الكتاب وفي أسانيدها مقال ، وقد علم تغييرهم لما لديهم عن الله تعالى وعن رسوله وأهل

الكتاب هم القائلون (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) ونقل عنهم المفسرون أنهم قالوا ان مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وأنهم يعذبون بكل ألف عام يوما من هذه الأيام؛ فانه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والواحدي عن ابن عباس أن يهودا كانوا يقولون : مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً واحدا من أيام الدنيا في النار، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب فأنزل الله تعالى (وقالوا ان تمسنا النار إلا أياما معدودة — الى قوله تعالى — هم فيها خالدون) انتهى وأكذبهم الله فيما قالوه

«ولعل هذا الذي نقله عن السلف من الآثار التي سقناها وساقها ابن جرير والسيوطي في رسالة الكشف مأخوذة من أهل الكتاب إذ لم يثبت بنص نبوي عنه ﷺ بأن مدة الدنيا كذا على أن تلك الآثار القاضية بأن مدتها سبعة آلاف سنة معارضة لما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة في قوله تعالى (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) قالا هي الدنيا أولها إلى آخرها يوم مقداره خمسين ألف سنة يوم القيامة انتهى. فهذه الآثار متعارضة كما ترى، وإنما ثبت عنه ﷺ أن بعثته من أشراط الساعة انتهى كلام السيد العلامة محمد بن اسماعيل الأمير رحمه الله

(قال صاحب الإذاعة) «وقد قال الشيخ مرعي في بهجة الناظرين بعد ذكر قول السيوطي في رسالة الكشف ما نصه: وهذا مردود لأن كل من يتكلم بشيء من ذلك فهو ظن وحسبان لا يقوم عليه برهان انتهى.

«وقال في الإشاعة [1] بعد ذكر قول السيوطي: الذي فهم من الأحاديث أن المهدي يمكث في الأرض أربعين سنة وأن عيسى يمكث بعد الدجال أربعين سنة كما رواه الحاكم عن ابن مسعود، فانه ظاهر في الأربعين بعد الدجال وأن بعد عيسى يتولى أمراء منهم القحطاني يتولى إحدى وعشرين سنة، وليفرض لبقيتهم الى طلوع الشمس من المغرب عشرين سنة أيضا إن لم يكن أكثر، فهذه مائة وعشرون سنة، ومر أن الدجال يمكث أربعين، فان لم تكن سنين فلا أقل من مقدار سنتين لأن أيامه طوال وأن بعد طلوع الشمس من مغربها يمكث الناس مائة وعشرين سنة وفي رواية أن

(١) صاحب الإشاعة السيد محمد البرزنجي المدني

الشرار بعد الخيار عشرون ومائة سنة، وورد أيضا أن المؤمنين يتمتعون بعد طلوعها أربعين سنة ثم يسرع فيهم الموت، فهذه ثلثمائة وعشرون سنة. وقد مضى بعد الألف قريب من ثمانين ، فهذه أربعة وإلى تمام هذه المائة تبلغ أربعمائة وثلاثين. وقد مر عن السيوطي أنها لا تبلغ خمسمائة بل أخذ بعضهم من قوله تعالى (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة)وقوله(لا تأتيكم إلا بغتة)أن الساعة تقوم سنة ١٤٠٧ فان عدد حروف « بغتة » ١٤٠٧ والعلم عند الله، فيحتمل خروج المهدي على رأس هذه المائة ويحتمل أن يتأخر المائة الثانية ، ولا يفوتها قطعا، وإذا تأخر فلا بد أن يبعث الله على رأس هذه المائة من يجدد للأمة أمر دينها، كما ورد في حديث مشهور . وهذه كلها مظنونات ورد بها آحاد الأخبار بعضها صحاح وبعضها حسان وبعضها ضعاف مع شواهد وبعضها بغير شواهد ، وغاية ما ثبت بالأخبار الصحيحة الكثيرة الشهيرة التي بلغت التواتر المعنوي وجود الآيات العظام التي أولها خروج المهدي وأنه يأتي في آخر الزمان من ولد فاطمة يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراء وأنه يقاتل الروم في الملحمة ويفتح القسطنطينية، ويخرج الدجال في زمنه وينزل عيسى ويصلي خلفه وما سوى ذلك كله أمور مظنونة أو مشكوكة والله أعلم انتهى

(أقول) قد علمت من هذه النقول أنه ليس في عمر الدنيا حديث مرفوع صحيح ولا حسن وأن الروايات فيه إما ضعيفة وإما موضوعة ، وأن الراجح أن كل ما ورد فيها من مرفوع وموقوف ومن الآثار فهو من الإسرائيليات التي بثها في الأمة كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالها ، ولو فطن الحافظ ابن حجر لدسائسهما وخطأ من عدلها من رجال الجرح والتعديل لخفاء تلبيسهما عليهم لكان تحقيقه لهذا البحث أتم وأكمل

وقد أشار الى ذلك حكيم الاسلام الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته عند الكلام في ابتداء الدول والأمم وما بقي من الدنيا قال « فكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصاً مسلمة بني اسرائيل مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما . وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة » ثم ذكر مباحث السهيلي في كلام الطبري وغير ذلك مما يغني عنه ما تقدم وذكر أيضا كلام الصوفية في ذلك وظهور كذب الجميع

وكذلك الامام أبو محمد على بن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦) لم يعبأ بشىء من هذه الروايات فى هـذه المسألة على طول باعـه وسعة حفظه للآثار وقد سبق القاضى عياضا والقاضى أبابكر بن العربى وابن خلدون فى رفضه لما قيل فى عمر الدنيا وعجبت كيف غفل الحافظ عن إيراد ماقاله فى هذه المسألة على سعة اطلاعه . قال بعد ذكر ما كان يقول اليهود والنصارى فى بدء الخليقة مانصه:

« وأما نحن - يعنى المسلمين - فلا نقطع على علم عـدد معروف عندنا ، ومن ادعى فى ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد قال مالم يأت قط عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح ، بل صح عنه ﷺ خلافه ، بل نقطع على أن للدنيا أمداً لايعلمه إلا الله تعالى . قال الله سبحانه (ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وقال رسول الله ﷺ « ماأنتم فى الأمم قبلـكم إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، أو الشعرة السوداء فى الثور الأبيض » وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدار عدد أهل الاسلام ونسبة مابأيديهم من معمور الأرض وأنه الأكثر — علم أن للدنيا أمداً لايعلمه إلا الله . وكذلك قوله عليه السلام « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى ، وقد جاء النص بأن الساعة لايعلم متى تكون إلا الله تعالى لاأحد سواه — فصح أنه ﷺ إنما عنى شدة القرب لافضل الوسطى على السبابة إذلو أراد ذلك لأخذت نسبة مابين الأصبعين ونسب من طول الاصبع — فكان يعـلم بذلك متى تقوم الساعة وهذا باطل ، وأيضا فكان تكون نسبته ﷺ إيانا إلى من قبلنا بأننا كالشعرة فى الثور كذبا ، ومعاذالله من ذلك ، فصح أنه ﷺ إنما أراد شدة القرب . وله ﷺ منذ بعث أربعمائة عام ونيف ، والله تعالى أعلم بما بقى للدنيا . فاذا كان هـذا العدد العظيم لانسبة له عندماسلف لقلته وتفاهته بالإضافة إلى مامضى فهوالذى قاله ﷺ من أننا فيمن مضى كالشعرة فى الثور أو الرقمة فى ذراع الحمار اه كلام ابن حزم

وأقول : هذا كلام الأئمة المحققين فالذين حاولوا تحـديد عمر الدنيا ومعرفة وقت قيام الساعة ارضاء لشهوة الاتيان بمايهم جميع الناس لم يشعروا بأنهم يحاولون تكذيب آيات القرآن الكثيرة الناطقة بأن الساعة من علم الغيب الذى استأثر الله

تعالى به وأنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ـ أي على غير انتظار من أحد منهم ولا أدنى علم وهذا البلاء كله من دسائس رواة الاسرائيليات وتلبيسهم على المسلمين باظهار الإسلام والصلاح والتقوى، ومن وضع بعض الاصطلاحات العلمية في غير موضعها ككون كثرة الروايات الضعيفة يقوى بعضها بعضا فان هـذا انما يصح في المسائل التي لا يحتمل إرجاعها إلى مصدر واحد يعنى بنشرها والدعوة إليها، كمسألة المهدى المنتظر الذى هو أساس مذهب سياسى كسى ثوب الدين ، ألم تر أن رواياته لا تخلو أسانيدها من شيعى، وان الزنادقة كانوا يبثون الدعوة إلى ذلك تمهيداً لسلب سلطان العرب وإعادة ملك الفرس ؟ وككون كلام الصحابى فيما لا مجال للرأى والاجتهاد فيه له حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ ؛ يجب تقييد هـذا فيما لا يحتمل أن يكون من الاسرائيليات وهو ما أشار إليه العلامة المجتهد محمد بن اسماعيل الأمير في موضوعنا هذا كما رأيت آنفا .

هذا وإن لمتقدمى أمم الحضارة الأولين من الهنود والصينيين وغيرهم أقوالا في عمر الدنيا وتاريخ البشر الماضى تذكر فيه الأرقام بألوف السنين وألوف الألوف وقد بنى بعضه على روايات مأثورة عن قدمائهم وبعضه على اصطلاحات فلكية وأوهام تنجيمية لا تفيد علما صحيحاً .

وأما علماء الكون في هـذا العصر فلهم منهج في عمر الأرض الماضى ومنهج آخر في تاريخ البشر وآثارهم في القرون الخالية : منهجان علميان مبنيان على ماعرف بالحفر من طبقات الأرض وما كشف من آثار أعمال البشر ومن عظـام موتاهم ورفاتهم ، وهم يجزمون أن عمر الدنيا الماضى يعد بألوف الألوف من السنين وقد وجدت آثار للبشر فيها منذ مئات الألوف منها ، وذلك ينقض ما في سفر التكوين في المسألتين ، ولكنه لا ينقض من القرآن كلمة ولا حرفا (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وكذلك أحاديث الرسول القطعية أو الصحيحة الصريحة القريبة من القطعية ، التي لا شبهـة فيها لدسائس الاسرائيلية ، ولا للمكايد الفارسية المجوسية. واننا نتم هذا البحث بفصل وجيز في أشراط الساعة وأماراتها لأننا ألممنا في هـذا الفصل بذكر أهمها، وفيها من الشبهات ما في مسألة عمر الدنيا وقيام الساعة التي هي أماراتها فنقول :

أشراط الساعة وأماراتها

إن للساعة أشراطاً ثبتت فى الكتاب والسنة قال تعالى (٤٧: ٢٠ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ؟ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) الأشراط جمع شرط بفتحتين كأسباب جمع سبب وهى العلامات والأمارات الدالة على قربها وأعظمها بعثة خاتم النبيين ، بآخر هداية الوحى الإلهى للناس أجمعين ، لأن بعثته ﷺ قد كمل بها الدين، كما قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وبكماله تكمل الحياة البشرية الروحية ، ويتلوها كمال الحياة البشرية المادية ، وما بعد الكمال إلا الزوال ، لأن البقاء فى هذا العالم محال ، وقد ورد أن نبينا ﷺ نبي الساعة وتقدم حديث الصحيحين « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقد وردت أحاديث أخرى فى أشراط الساعة يدل بعضها على أن الشهوات المادية تتنازع مع الهداية الروحية ، فيكون لها الغلب زمناً ثم تنتصر الهداية الروحية زمناً قصيراً ، ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر ، حتى تقوم الساعة على شرار الخلق ، ولكن فى هذه الأحاديث اختلافا وتعارضاً وما ينافى حكمة الله تعالى فى إخفائها وعدم اطلاع الخلق على وقتها و بعضها ظاهر فى قرب قيام ساعة دولة العرب أو دولة الإسلام

ومن الأحاديث الصحيحة الواردة فى إقبال الدنيا وسعتها من أمارات الساعة حديث جبريل الذى رواه مسلم فى صحيحه عن عمر بن الخطاب (رض) وفيه أن جبريل عليه السلام لما جاء فى صفة رجل غريب وسأل النبى ﷺ عن الاسلام والإيمان والإحسان ليعلم الصحابة (رض) كيف يسألون عن دينهم ـ ثم سأله عن الساعة قال « فأخبرنى عن الساعة ؟ قال ﷺ ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال فأخبرنى عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » وروى هذا السؤال وحده ابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وغيرهم من حديث أبى هريرة قال « كان النبى ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يارسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، و إذا كانت

الحفاة العراة رعاء الشاء رءوس الناس فذاك من أشراطها ، و إذا تطاول رعاء الغنم فى البنيان فذاك من أشراطها » قيل معنى ولادة الأمة ربتها كثرة السرارى وأولاد السبايا — وكان لهذا طور عظيم فى الفتوحات الاسلامية — وقيل معناه أن الملوك والأمراء يكونون من أولاد السرارى لا من أولاد بنات البيوتات العريقة فى حسن التربية وعلو الأخلاق ، والمراد بصيرورة رعاء (بالهمزة) أى رعاة الغنم وأهل البداوة من أصحاب الثروة والبذخ والقصور العالية أن يكون من هذه الطبقة رؤساء للناس كما فى حديث أبى هريرة وهذا قد ظهر أيضاً فى أمتنا وفى غيرها من الأمم ، وصار بعض تسوُّد هذه الطبقة وأمثالهم فى هذا العصر معدوداً فى مناقبه بعد فساد تربية كثير من أسر الأشراف والنبلاء واستعلائهم على الناس بالباطل ، وكان هذا من أمارات زوال الدولة العربية أو الإسلامية فهو يظهر فى علامات الساعة الخاصة لا العامة

وأجمع الأحاديث الصحيحة السند فيما يكون قبل الساعة ما رواه البخارى من حديث أبى هريرة ، وروى هو وغيره ما ذكر فيه فى أحاديث أخرى مفصلة وهذا نصه عن أبى هريرة مرفوعا (*)

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة (١) وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول

(*) فى هذا الحديث أحد عشر شرطا أوردها البيهقى فى البعث فى سبعة أحاديث أدمج فى الثالث منها قبض العلم وكثرة الزلازل وتقارب الزمان وكثر الهرج فأول كل حديث منها « لا تقوم الساعة حتى » يكون كذا — فاذا عددت « حتى » فى هذا الحديث وجدتها سبعا — ولذلك قال : أخرج البخارى هذه الأحاديث السبعة عن أبى اليمان عن شعيب الخ واستشكل الحافظ فى الفتح عدها سبعا ذهولا منه عن إدماج ٤ اشراط فى حديث واحد . ومعنى كلام البيهقى أن ماهنا سبعة أحاديث متفرقة جمعها البخارى فى واحد

(١) المراد بالفئتين فئة على الامام الحق وفئة معاوية الباغية — وهذا أول أشراط قيام ساعة لدولة العربية أو الاسلامية المقيدة بالشورى ونصوص الكتاب والسنة

الله (٢) وحتى يقبض العلم (٣) وتكثر الزلازل (٤) ويتقارب الزمان (٥) وتظهر

(٢) من هؤلاء الدجالين فى المتأخرين الباب والبهاء الايرانيان ـ على أن الثانى ادعى الالوهية ـ ومسيح الهند القادياني الدجال وأتباعه لا يزالون يدعون النبوة. وفى حديث ثوبان الجزم بعدد الثلاثين مع زيادة « وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى » قال الحافظ أخرجه أبو داود والترمذى وصححه ابن حبان وهو طرف من حديث أخرجه مسلم ولم يسق جميعه. وذكر روايات أخرى منها حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد وأبى يعلى وفيه زيادة « قلت ما آياتهم؟ قال: يأتونكم بسنة لم تكونوا عليها يغيرون بها سنتكم فإذا رأيتموهم فاجتنبوهم »

(٣) حديث قبض العلم مفصل فى حديث عبد الله بن عمرو فى الصحيحين مرفوعا « ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم ـ وفى رواية: لم يبق عالما ـ اتخذ الناس رءوساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » والمراد علم الدين والهداية لا علوم الدنيا والغواية.

(٤) فى حديث سلمة بن نفيل عند أحمد « وبين يدى الساعة سنوات الزلازل » فيظهر منه أنها تكثر قبيل الساعة بسنوات قليلة عما يعهد الناس فى كل زمان، والا فهى دائما كثيرة فى مجموع الأرض. وللساعة نفسها زلزلة عظيمة تتقدم الصاخة التى هى الطامة الكبرى. اقرأ (٢٢: ١ إن زلزلة الساعة شىء عظيم) الخ (٩٩: ١ إذا زلزلت الأرض زلزالها) الخ

(٥) ذكر تقارب الزمان واقترابه فى عدة أحاديث فى الصحاح وغيرها مجملا وأخرج الترمذى من حديث أنس وأحمد من حديث أبى هريرة مرفوعاً « لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاحتراق السعفة » وقد اختلفوا فى معنى ذلك هو حسى أو معنوى؟ وهل المراد الزمان نفسه أو أهله؟ فقيل إن المراد به استلذاذ العيش ووفرة النعيم حتى لا يشعر الناس بالزمان كما قال الشاعر * وعمر النسر معكم بعض يوم * وقيل المراد به نزع البركة منه وقيل تقارب أهله فى قلة الدين الخ ما قالوا، ويرى بعض أهل هذا الزمان أن المراد قد يكون ما هو حاصل من تقارب المواصلات وقطع المسافات البعيدة فى الزمن القصير برا وبحرا وجوا ـ وهذا أظهر من كل ما قالوه، وأليق بكونه إخباراً عن غيب لا مجال للرأى فيه ولا يعرف إلا بوحى من الله تعالى وما قالوه يختلف

الفتن (٦) ويكثر الهرج وهو القتل (٧) وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم

باختلاف الناس فى كل زمان ، فترى مثل القاضى عياض والنووى يرجحان ان معنى الحديث نزع البركة من الزمان ويوافقهما على ذلك الحافظ ابن حجر فيقولون ان الانتفاع باليوم قد صار بمقدار الانتفاع بالساعة . وهو وهم ظاهر ، ونحن نقول ان بعض ما يعمل الآن فى ساعة واحدة لم يكن يمكن عمله فى يوم وما يعمل فى يوم واحد كان يحتاج فيه إلى اسبوع الخ ولو كانت البواخر والقطارات الحديدية والطيارات فى عصر الذين كانوا يرحلون من قطر إلى قطر لتلقى الحديث لتيسر لمثل البخارى أن يتلقى فى سنة واحدة ما تلقاه فى سنين أو عمره كله

(٦-٧) ظهور الفتن وكثرة القتل قد وقع فى كل عصر فى البلاد الاسلامية وغيرها ، فلا يمكن عدها من العلامات التى تكون بين يدى الساعة إلا أن أريد بها ساعة ملك الأمة العربية أو الاسلامية فالأمر حينئذ يكون ظاهرا ويكون المراد به ما فصل فى أحاديث أخرى كاعتداء الترك وقتالهم للعرب وسلبهم الملك واخراجهم من عراقهم وفى ذلك عدة أحاديث فى الصحاح والسنن والمسانيد ومن أصرحها حديث معاوية عند أبى يعلى مرفوعا « ان الترك تجلى العرب حتى تلحقها بمنابت الشيح » يعنى بوادى جزيرة العرب — وحديث « ان بنى قنطوراء أول من يسلب امتى ملكهم » رواه الطبرانى عنه أيضا قال الحافظ : وكأنه يريد بقوله «امتى» أمة النسب لا أمة الدعوة — يعنى العرب والله أعلم اه وورد أن من اشراط الساعة فتح القسطنطينية وهو فى الصحاح قال شيخ شيوخنا العلامة الشيخ محمود نشابة: معناه أن العرب يفتحونها من أشقياء الترك ولم يكن الشيخ من أهل السياسة ولا كان فى زمنه شيء من التعادى بينهم وبين العرب ، دع ما فعلته الحكومة التركية فى هذا الزمان ، من ترك شريعة الاسلام ، وكان مسلمو الترك يحملون الأحاديث على فتح السلطان محمد لها ولكنها صريحة فى أن فتحها يتلوه فى عهده ظهور الدجال

وإذا حمل الهرج وكثرة القتل على ما حدث فى هذا الزمان من الفتن ومن كثرة القتل بما استحدث من آلات الحرب النارية بحيث يقتل فى يوم واحد ما لم يكن يمكن حدوثه فى سنة أو سنين قبلها لكان أبلغ فى الإخبار بالغيب فقد هلك فى الحرب الاوربية الأخيرة زهاء عشرة آلاف الف (١٠ ملايين) فى أربع سنين ولم يقع مثل ذلك فى عدة قرون قبل هذه الآلات الحديثة.

ربّ المال من يقبل صدقته[٨] وحتى يتطاول الناس فى البنيان[٩] وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتنى مكانه[١٠] وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً)[١١] ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » وتقدم تفسير هذه الجمل الأخيرة .

وفى الأحاديث اشراط وأمارات أخرى بعضها صار عادياً وبعضها غريب ويقول علماؤنا ان منه ماوقع ، وباقيه يتوقع ، وفيها تعارض وتناقض ومشكلات حار العلماء فى الجمع بينها وانى أتكلم عنه كلاماً إجمالياً عاماً ، وأبسط الكلام فى أهمها بسطا خاصاً ، ولا سيما أحاديث الدجال والمهدى ، فألق له السمع ووجه إليه النظر ، فهو محلى العبرة لمن اعتبر .

---

(٨) كثرة المال فسرت بما حدث للمسلمين من الثروة فى الفتوحات من عهد الصحابة و يصح تخصيص كثرته بهم إذا كان المراد بالساعة ساعتهم فان كثرة المال كانت سبباً للترف الذى كان سبباً لزوال ملكهم كغيرهم . وإذا أريد بالساعة العامة فيمكن أن يكون المراد ماترى مقدماته من كثرة الثروة العامة فى العالم .

(٩) التطاول فى البنيان تقدم ذكره فى حديث جبريل وهو مما حصل منذ قرون كثيرة ويقال فيه ماقلناه فيما قبله ، وقد وصل التطاول فيه الآن إلى أن صارت المبانى تناطح السحاب ، ولا يمكن الصعود إليها إلا بالمعارج والمصاعد الكهربائية فإذا كانت فى مصر لاتزيد على بضع طبقات ففى أميركا قد صار البناء الواحد يؤلف من عشرات من الطبقات فهذا هو التطاول الذى لم يعهد له نظير من قبل .

(١٠) تمنى الموت حصل ويحصل فى أوقات الضيق والبلاء من كل زمان ولا يكون من اشراط الساعة العامة إلا إذا صار عاماً فهو بهذا المعنى من الاشراط المستقبلة

(١١) طلوع الشمس من مغربها هو أعظم الاشراط الكبرى بين يدى الساعة وقد تقدم تفصيل القول فيه فى تفسير الآية ١٥٩ من أواخر سورة الانعام فيراجع

﴿ نظرة فى أشراط الساعة وتقاسيمها ومشكلاتها ﴾

اعلم أيها المسلم الذى يجب أن يكون على بصيرة من دينه أن فى روايات الفتن واشراط الساعة من المشكلات والتعارض ماينبغى لك أن تعرفه ولو إجمالا حتى لاتكون مقلداً لمن يظنون أن كل ما يعتمده أصحاب النقل حق ، ولا لمن يظنون أن كل ما يقوله أصحاب النظريات العقلية حق ، فان الله تعالى يقول (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الآية ، وقال لخاتم رسله ﷺ (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وانى أبين فيه مايطمئن به قلب القانع بالاجمال ، ويفتح باب التحقيق لطالب التفصيل ، فأقول :

ان العلماء جعلوا ماروى من اشراط الساعة وأماراتها ثلاثة أقسام : ماوقع بالفعل منذ قرون خلت إلى زمن كل من تكلم فى ذلك منهم ، وقد عدوه عدا — وما وقع بعضه وهو لايزال فى ازدياد كالفتن والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء وتشبههن بالرجال والكفر والشرك حتى فى بلاد العرب . وما سيقع بين يدى الساعة من العلامات الصغرى والكبرى — ومن الأولى قتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية .

وتنقسم باعتبار آخر إلى ماعهد ويعهد مثله فى كل الأمم من الفتن والقتال وسعة الدنيا وضيقها ، وقيام الدول وسقوطها ، والفسق من زنا ولواط وسكر ، الخ والاوبئة والزلازل ، وهذا لا يشعر جماهير الناس بأن له علاقة ما بقيام الساعة الكبرى ، والى ما هو غريب غير مألوف كظهور يأجوج ومأجوج والدجال والمهدى والمسيح وطلوع الشمس من مغربها ، وأما الزلازل والخسوف وظهور النجوم ذوات الاذناب أو الاذيال ، فقد صارت من الأمور المعتادة المعروفة بين الناس .

وباعتبار ثالث إلى ماهو علامة على قيام ساعة الجيل أو الدولة كذهاب الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله ، وما هو آية على قرب الساعة العامة الكبرى .

ويرد من الاشكال على ماذكر أن ماورد من الاشراط الصغرى المعتاد مثلها التى تقع عادة بالتدريج لا يذكر بقيام الساعة ولا تحصل به الفائدة التى من أجلها

أخبر الشارع بقرب قيام الساعة — وأن ماورد من الاشراط الكبرى الخارقة للعادة يضع العالم به فى مأمن من قيام الساعة قبل وقوعها كلها فهو مانع من حصول تلك الفائدة ، فالمسلمون المنتظرون لها يعلمون أن لها أشراطا تقع بالتدريج فهم آمنون من مجيئها بغتة فى كل زمن ، وانما ينتظرون قبلها ظهور الدجال والمهدى والمسيح عليه السلام ويأجوج ومأجوج ، وهذا الاعتقاد لايفيد الناس موعظة ولا خشية ، ولا استعداداً لذلك اليوم أو لتلك الساعة ، فما فائدة العلم به إذاً ؟ وهل من الحكمة أن تكون فائدتها محصورة فى وقوع الرعب فى قلوب الذين يشاهدون هذه الآيات الكبرى ولا سيما آخر آية منها ؟ وكيف يتفق هذا وماورد من كون كل رسول كان يخوف قومه و ينذرهم الساعة والدجال قبلها ؟ وكيف وقع هذا منهم ولم يصدقه الواقع ومثله لايكون بمحض الرأى ؟ وهل كان نبينا ﷺ يريد بالاخبار بها تأمين الناس من قيام الساعة مدة قرون كثيرة إلى أن تظهر هذه الاشراط ؟ أم كان يتوقع ظهورها بعده فى قرنه أو فيما يقرب منه كغيره من الرسل بدليل ماورد من تجويزه ظهور الدجال فى زمنه ، وتصديقه ماحكاه تميم الدارى من خبر الجساسة وكون الدجال محبوسا فى جزيرة ؟

الاشكال والاشتباه فى روايات الدجال

قد تقدم ماقاله ابن الجوزى من كونه ﷺ كان يقدر فى هذه المسائل تقديراً ، إذلم يوح الله تعالى اليه أخبارها تفصيلا ، وعد من ذلك ماورد فى احتمال ظهور الدجال فى زمنه

وقال النووى فى شرح أحاديث ابن صياد من صحيح مسلم : قال العلماء وقصته مشكلة وأمره مشتبه : . . . وظاهر الأحاديث أن النبى ﷺ لم يوح اليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره ، وانما أوحى إليه بصفات الدجال وكان فى ابن صياد قرائن محتملة ، فلذلك كان النبى ﷺ لايقطع بأنه الدجال ولا غيره ولهذا قال لعمر « إن يكن هو فلن تستطيع قتله » اه ولا بأس ببيان ما أشار اليه النووى من الاشكال والاشتباه بشىء من التفصيل

إن أحاديث الدجال مشكلة من وجوه (أحدها) ماذكرناه آنفاً من منافاتها لحكمة إنذار القرآن الناس بقرب قيام الساعة وإتيانها بغتة

(ثانيها) ماذكر فيها من الخوارق التي تضاهي أكبر الآيات التي أيد الله بها أولي العزم من المرسلين أو تفوقها ، وتعد شبهة عليها كما قال بعض علماء الكلام وعدّ بعض المحدثين ذلك من بدعتهم ، ومن المعلوم أن الله ما آتاهم هذه الآيات إلا لهداية خلقه ، التي هي مقتضى سبق رحمته لغضبه ، فكيف يؤتي الدجال أكبر الخوارق لفتنة السواد الأعظم من عباده ؟ فإن من تلك الروايات أنه يظهر على الأرض كلها في أربعين يوما إلا مكة والمدينة ، وقد روى أبو نعيم في الحلية عن حسان ابن عطية من ثقات التابعين أنه لا ينجو من فتنة الدجال إلا إثنا عشر ألف رجل وسبعة آلاف امرأة . قال الحافظ في الفتح وهذا لا يقال من قبل الرأي فيحتمل أن يكون مرفوعاً أرسله ، ويحتمل أن يكون أخذه عن بعض أهل الكتاب اه وهو الصحيح المختار عندي

(ثالثها) وهو من متعلقات ماقبله أن ماعزى اليه من الخوارق مخالف لسنن الله تعالى في خلقه وقد ثبت بنصوص القرآن القطعية أنه لا تبديل لسنته تعالى ولا تحويل . وهذه الروايات المضطربة المتعارضة لا تصلح لتخصيص هذه النصوص القطعية ولا لمعارضتها

(رابعها) اشتمال بعض هذه الأحاديث على مخالفة بعض القطعيات الأخرى من الدين كتخلف أخبار الرسل أو كونها عبثا وإقرارهم على الباطل وهو محال في حقهم

(خامسها) انها متعارضة تعارضاً كثيراً يوجب تساقطها كما ترى فيما يلي

فمن ذلك التعارض أن بعضها يصرح بأنه ﷺ كان يرى من المحتمل ظهور الدجال في زمنه وأنه يكفي المسلمين حينئذ شره ، وبعضها يصرح بأنه يخرج بعد فتح المسلمين لبلاد الروم والقسطنطينية (ومنه) أنه كان يشك في ابن صياد من يهود المدينة هل هو الدجال أم لا ؟ وأنه وصف ﷺ الدجال بصفات لا تنطبق على ابن صياد كما قال ابن صياد نفسه لأبي سعيد الخدري (رض)

ومن التعارض أيضاً أنه يصرح في بعض الروايات بأنه يكون معه (أي الدجال) جبل أو جبال من خبز ونهر أو أنهار من ماء وعسل، كما رواه أحمد والبيهقي في البعث عن رجل من الأنصار وعن جابر بن عبد الله بسند رجاله ثقات مع

مارواه الشيخان واللفظ للبخارى من حديث المغيرة بن شعبة قال « ماسأل أحد النبى ﷺ عن الدجال ماسألته وإنه قال لى : ما يضرك منه؟ قلت لأنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء . قال« بل هو أهون على الله من ذلك »وفى رواية مسلم « يقولون إن معه جبال خبز ولحم ونهر من ماء» وقد أولوا هذا لتصحيح ذاك ، ويتأمل قول جابر « يقولون إن معه كذا وكذا » ولم يقل : إنك قلت هذا

ومن التعارض أيضا ماورد من اختلاف الروايات فى المكان الذى يخرج منه ، ففى بعض الروايات أنه يخرج من قبل المشرق على الإبهام . وفى حديث النواس بن سمعان عند مسلم أنه يخرج من خلة بين الشام والعراق . وفى رواية أخرى لمسلم انه يخرج من أصبهان ، وفى حديث الجساسة عنده أنه محبوس بدير أو قصر فى جزيرة فى بحر الشام ـ أى البحر المتوسط وهو فى الشمال ـ أو بحر اليمن وهو فى الجنوب وأنه يخرج منها ، وروى أحمد والحاكم أنه يخرج من خراسان . وقد حاول شراح الصحيحين وغيرهم الجمع بين الروايات المتعارضة فى كل مسألة فجاءوا بأجوبة متكلفة ردها المحققون كلها أو أكثرها ، وفيها من المشكلات غير ماأشرنا اليه ، ولاسيما الروايات فى ابن صياد وما كان من حلف عمر بن الخطاب (رض) عند النبى ﷺ إنه هو الدجال وإقراره ﷺ إياه على ذلك ومتابعة جابر ابن عبد الله إياه على هذا الحلف كما فى الصحيحين عنه .

وقد أجاب بعضهم عن الأخير بأن هذا التقرير قد نقضه التصريح منه (ص) لعمر بخلافه حين قال له « دعنى أضرب عنقه فقال إن يكن هو فلن تسلط عليه» الخ الحديث وهو فى الصحيح ، وقد رد الحافظ ابن حجر بعض تأويلات الحافظ البيهقى فى مولد ابن صياد وصفاته وفى إقرار النبى (ص) لعمر على حلفه ، وعده قصة تميم الدارى مرجحة لكونه غير ابن صياد ، وكون عمر كان يحلف حلفه قبل سماعه لهذه القصة — لهذا أخص هذا الحديث بشىء من التفصيل فأقول: إن فيه عدة مباحث

(١) كان تميم الدارى من عرب فلسطين (سورية) وقد وصف بأنه كان راهب زمانه وقد جاء هو وأخوه نعيم المدينة فى آخر عهد النبى (ص) سنة تسع من الهجرة وأسلما وحدث هو النبى ﷺ بحكاية الجساسة الغريبة ، وذكروا انه كان

بعد إسلامه من العباد ومن القصاصين ولم يذكر لأحد شبهة فيه بل عدوا من مناقبه ان النبي ﷺ روى عنه ، وستعلم مافيه ، فهذه مقدمة .

(٢) راوية الحديث عنه فى صحيح مسلم بطوله ومشكلاته هي فاطمة بنت قيس من المهاجرات وقالت «إن النبي ﷺ جمع الناس فى المسجد رجالا ونساء وحدثهم على المنبر بما سمعه من تميم من هذه الحكاية » وقد رواه عنها الشعبي وحده ، وهو على جلالته قد روى عن كثير من الصحابة الذين لم يرهم ولم يسمع منهم ، ولكن المحدثين أثنوا على مراسيله على أنه صرح بالسماع منها ، وسيأتى من رواه غيرها وغيره

(٣) من علل هذا الحديث إذاً أنه من الأحاديث التى تتوفر الدواعى على نقلها بالتواتر لغرابة موضوعه ولاهتمام النبي (ص) به وجمعه الناس له وتحديثه به على المنبر واستشهاده بقول تميم على ما كان حدثهم به قبل إسلامه ، ولسماع جمهور الصحابة له منه (ص) فمن غير المعقول أن لا يروى إلا آحاديا و يؤيده امتناع البخارى عن إخراجه فى صحيحه لشدة تحريه ، وقد أجاب الحافظ فى الفتح عند شرح حديث جابر فى ابن صياد من كتاب الاعتصام عن هذا الاعلال بقوله : ولشدة التباس الأمر فى ذلك - أى الاختلاف بينه و بين حديث ابن صياد - سلك البخارى مسلك الترجيح فاقتصر على حديث جابر عن عمر فى ابن صياد ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس فى قصة تميم ، وقد توهم بعضهم أنه غريب فرد وليس كذلك فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر - أما أبو هريرة فأخرجه أحمد من رواية عامر الشعبي عن المحرز بن أبى هريرة عن أبيه بطوله ، وأخرجه أبو داود مختصراً وابن ماجه عقب رواية الشعبي عن فاطمة قال الشعبي : فلقيت المحرز فذكره ، وأخرجه أبو يعلى من وجه آخر عن أبى هريرة .. وأما حديث عائشة فهو فى الرواية المذكورة عن الشعبي قال : ثم لقيت القاسم بن محمد فقال أشهد على عائشة حدثتنى كما حدثتك فاطمة بنت قيس ، وأما حديث جابر فأخرجه أبو داود بسند حسن من رواية أبى سلمة عن جابر وذكر لفظه .

أقول : ان ماذكره الحافظ لا ينفى كون الحديث من الآحاد والمقام مقام التواتر لما ذكرناه من أسباب توفر الدواعى ، ولا ينفى أيضاً كونه غريباً أيضاً و إن لم يكن فرداً فقد انحصرت الاسانيد لروايته فى الشعبي وفى فاطمة بنت قيس ، وأما مارواه

أبو داود من طريق الوليد بن عبد الله بن جميع عن ابن أبى سلمة عن جابر فهو على كونه ليس من الصحيح مختصر وليس فيه اسناد الحكاية إلى تميم الدارى بل لا يزيد لفظ المرفوع فيه عن هذه الجملة «بينما أناس يسيرون فى البحر فنفد طعامهم فرفعت لهم جزيرة فخرجوا يريدون الخبز فلقيتهم الجساسة» قال أبو الوليد بن عبد الله فقلت لأبى سلمة وما الجساسة؟ قال امرأة تجر شعر جلدها ورأسها قالت فى هذا القصر - فذكر الحديث - وسأل عن نخل بيسان وعن عين زغر، قال هو المسيح. فقال لى ابن أبى سلمه ان فى هذا الحديث شيئاً ما حفظته، قال شهد جابر انه هو ابن صائد وفى نسخة - ابن صياد - فقلت انه قد مات قال وان مات. قلت فانه قد أسلم قال وإن أسلم. قلت فانه قد دخل المدينة قال وان دخل المدينة اهـ سياق أبى داود بحروفه

أقول: وهو لا يقوى تلك الروايات وليس فيه شىء من مشكلاتها المعنوية وغرائبها بل قواه الحافظ بها فجعله حسناً لأجلها وهو يعلم أن الوليد بن عبد الله ابن جميع (بالتصغير) الزهرى راويه عن أبى سلمة ضعيف وان روى عنه مسلم فقد قال هو نفسه (أى الحافظ) فى تهذيب التهذيب فيما زاده على أصله ان ابن حبان ذكره فى الضعفاء وقال انه ينفرد عن الاثبات بما لا يشبه حديث الثقات فلما فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به، وذكر عن الحاكم انه لو لم يخرج له مسلم لكان أولى اهـ وفى رواية أبى داود عن فاطمة مخالفة لرواية مسلم من وجه آخر لا غرض لنا فى ذكره إذ لا نريد استقصاء كل ما فى هذه الأحاديث من التعارض والخلاف.

(٤و٥) من الاشكال المعنوى فى هذه الحكاية أن تميما وأصحابه الثلاثين كانوا من عرب الشام والمتبادر أنهم ركبوا سفينتهم من بعض ثغورهم فى البحر المتوسط وقد ذكرت فاطمة بنت قيس أن النبى ﷺ قال بعد أن سرد للناس الحكاية «فانه أعجبنى حديث تميم أنه وافق الذى كنت أحدثكم به عنه - أى الدجال - وعن المدينة ومكة. ألا إنه فى بحر الشام أو بحر اليمن - لا بل من قبل المشرق. ماهو من قبل المشرق، ماهو من قبل المشرق، ماهو؟ وأومأ بيده إلى المشرق. قالت فحفظت هذا من حديث رسول الله ﷺ اهـ»

فان صح الحديث رواية فهذا التردد من النبي ﷺ فى مكان الجزيرة التى ذكرها تميم الدارى فى أى البحرين هى؟ ثم اضرابه عنهما وجزمه بأنه فى جهة المشرق الخ إشكال آخر فى متنه ينظر إلى اختلاف الروايات الأخرى فى مكان الدجال بعين، وينظر إلى اختلاف الروايات فى ابن صياد بالعين الأخرى، وينظر بالعينين كلتيهما إلى سبب هذا التردد ومنافاته لأن يكون كلامه صلوات الله وسلامه عليه فى أمر الدجال عن وحى من الله تعالى وسأتكلم فى سببه فى هذا البحث على تقدير صحة الرواية

ثم أين هذه الجزيرة التى رفأ إليها تميم وأصحابه فى سفينتهم؟ إنها فى بحر الشام أو بحر اليمن كما فى اللفظ المرفوع — إن صح الحديث — أى الجهة المقابلة لسواحل سورية من البحر المتوسط، أو الجهة المجاورة لشواطىء اليمن من البحر الأحمر، وكل من البحرين قد مسحه البحارة فى هذه الأزمنة مسحاً، وجابوا سطحهما طولا وعرضاً، وقاسوا مياههما عمقاً عمقا، وعرفوا جزائرهما فرداً فرداً، فلو كان فى أحدهما جزيرة فيها دير أو قصر حبس فيه الدجال وله جساسة فيها تقابل الناس وتنقل إليه الأخبار، لعرف ذلك كله كل الناس، وما قاله شارح المشارق من تنقل الدجال فى البحرين أو من الجانب الشامى إلى الجانب اليمنى بناء على زعمه أن البحر واحد — وما قاله الحافظ من انتقاله إلى اصفهان ليخرج منها مع سبعين ألفاً من يهودها — كلاهما من الدعاوى التى لا أصل لها من النقل، ولا من المقبول فى نظر العقل، وإنما يستنبطونها للجمع بين الروايات المتعارضة التى يعز عليهم أن يرجعوها إلى قاعدتهم، تعارضت فتساقطت، حتى إن الحافظ رضى لنفسه فى هذا الجمع أن يقر قول من قال إن ابن صياد شيطان تبدى فى صورة الدجال فى تلك المدة إلى أن ذهب إلى اصفهان الخ وهو يحفظ تلك الروايات الكثيرة فى ولادته بالمدينة ونشوئه فيها، ثم اسلامه وحجه ثم موته فيها، على انه يحفظ بعض الروايات المضعفة لهذا

(٦) فى الألفاظ المرفوعة من حكاية الجساسة أن النبي ﷺ لم يقر تميما على كل ما حكاه، بل على بعضه وهو قوله « فانه أعجبنى من حديث تميم انه وافق الذى كنت أحدثكم به عنه (أى عن الدجال) وعن المدينة ومكة » أى أنه لا يدخلهما. وقوله بعده « ألا انه فى بحر الشام أو اليمن، لا بل من قبل المشرق » الخ ماتقدم

آنفاً وترجيح جميع العلماء روايات جهة المشرق دليل على أنه ليس فى بحر الشام ولا بحر اليمن لأن الشام فى جهة الشمال من المدينة واليمن فى جهة الجنوب منها فلا شيء منهما بمشرق . قال الطيبى : لما تيقن عليه السلام بالوحى أنه من قبل المشرق نفى الأولين ، وظاهر العبارة يدل على أن النبي ﷺ صدق تميما فى أول الأمر ولذلك قال «ألا إنه فى بحر الشام أو بحر اليمن» بالتأكيد بإن والبدء بأداة الاستفتاح « ألا » ثم كوشف فى موقفه بأنه ليس فى هذا ولا ذاك ، بل فى جهة المشرق

(٧) ههنا يجيء اشكال آخر وهو أن نفى النبى ﷺ لبعض قول تميم يبطل الثقة به كله ، ويحصر عجبه ﷺ فى شيء واحد منه لا يعرف بالرأى وهو موافقته لما سبق إخباره به ﷺ من ظهور الدجال وكونه لايدخل مكة ولا المدينة . وإن بقى الإعجاب مما ذكر منه فى محله ، وقد يتفصون من هـذا بأن الدجال كان قبل اسلام تميم وحديثه قد خرج من تلك الجزيرة التى رآه فيها فذهب إلى اصبهان أو غيرها من المشرق ، ويرده ان ما نقله عنه تميم صريح فيما ينافى ذلك وهو أن وثاقه الشديد إنما يحل عند الاذن له فى الخروج وأنه صار قريباً بعد ظهور العلامات التى ذكرها قال : انى أنا المسيح وانى أوشك ان يؤذن لى فى الخروج فأخرج فأسير فى الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان على الخ فعطفه الخروج على الاذن بالفاء والسير على الخروج بالفاء نص فى أنهما على التعقيب لافاصل بين هـذه ولا تلك ، والأقرب إلى الخروج من كل هـذه المشكلات أن تكون الرواية مصنوعة

(٨) ننتقل من هذه المبحث إلى مبحث قوى الصلة به وهو إذا لم نعد مافيه من نفى النبى ﷺ لما أثبته تميم من وجود الدجال فى أحد البحرين وفاقا للعلامة الطيبى الشهير — فهل يجب أن تكون حكايته ﷺ لما حدثه به تميم تصديقاً له ؟ وهل كان ﷺ معصوما من تصـديق كل كاذب فى خبر فيعد تصديقه لحـكاية تميم دليلا على صدقه فيها ؟ ويعد ما يرد عليها من إشـكال وارداً على حديث له حكم المرفوع ؟ وفى معناه إقراره ﷺ لعمر على حلفه بأن ابن صياد هو الدجال كما تقدم إن ما قالوه فى العصمة لايدخل فيه هذا فالمجمع عليه هو العصمة فى التبليغ عن

الله تعالى وعن تعمد عصيانه بعد النبوة . قال السفاريني في شرح عقيدته . قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين : وأنهم معصومون فيما يؤدون عن الله تعالى وليسوا معصومين في غير ذلك . وقال ابن عقيل في الارشاد : إنهم عليهم السلام لم يعصموا في الأفعال ، بل في نفس الاداء . قال ولا يجوز عليهم الكذب في الأقوال فيما يؤدونه عن الله تعالى . وقال الحافظ العراقي : النبي ﷺ معصوم من تعمد الذنب بعد النبوة بالاجماع ، ولا يعتد بخلاف بعض الخوارج والحشوية الذين نقل عنهم تجويز ذلك إلخ اه ملخصاً وتصديق الكاذب لا يعد ذنباً . وقد ثبت أنه ﷺ كان يصدق بعض ما يفتريه المنافقون حتى يخبره الله بما كان من المصلحة اخباره به منه كما وقع في غزوة تبوك وغيرها وصدق بعض أزواجه في القصة المشار إليها في سورة التحريم حتى أخبره تعالى به و بأن من أسر إليها الحديث أفشته وذلك قوله تعالى (قالت من انبأك هذا ؟ قال نبأني العليم الخبير) وتردد في حديث أهل الافك وضاق صدره به زمناً حتى نزلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور . فعلى هذا لا يكون ذكره ﷺ لقصة تميم في حكم المرفوع الذي يقوله هو ﷺ كما أن ما يقوله ﷺ برأيه وظنه لا يدخل في عموم ما هو معصوم منه وهو تعمد الكذب كما قال ﷺ في مسألة تلقيح النخل « إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فاني لن أكذب على الله » وقال فيها أيضاً « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، و إذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » رواهما مسلم في صحيحه

وقال المحقق ابن دقيق العيد في مسألة تقريره ﷺ من أوائل شرح الالمام : إذا أخبر في حضرة النبي ﷺ عن أمر ليس فيه حكم شرعي فهل يكون سكوته ﷺ دليلا على مطابقة ما في الواقع كما وقع لعمر في حلفه على أن ابن صياد هو الدجال فلم ينكر عليه ، فهل يدل عدم انكاره على أن ابن صياد هو الدجال كما فهمه جابر حتى صار يحلف عليه و يستند إلى حلف عمر ، أو لا يدل ؟ فيه نظر ، والاقرب عندي أنه لا يدل لأن مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على

باطل وذلك يتوقف على تحقق البطلان ولا يكفى فيه عدم تحقق الصحة الخ . نقله عنه الحافظ فى الفتح ملخصا

(٩) إن فى روايات هذه الحكاية اختلافات أخرى كقوله فى أطولها عن تميم « انه ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً فى البحر ثم أرفؤا إلى جزيرة فى البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا فى أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة » وقوله فى رواية أخرى « حدثني تميم الدارى أن أناسا من قومه كانوا فى البحر فى سفينة لهم فانكسرت بهم فركب بعضهم على لوح من ألواح السفينة فخرجوا إلى سفينة فى البحر » وفى رواية « إن بنى عم تميم الدارى ركبوا فى البحر » وفى رواية « انه ركب البحر فتاهت به سفينة فسقط إلى جزيرة فخرج اليها يلتمس الماء فلقى انسانا يجر شعره » وهذه الروايات كلها فى صحيح مسلم والاختلافات فيها متعددة كما ترى ، وفى سائر الروايات مايزيد على ذلك

وجملة القول فى حديث الجساسة أن مافيه من العلل والاختلاف والاشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع ، وأنه على تقدير صحته ليس له كله حكم المرفوع ، وكذا يقال فى سائر أحاديث الدجال المشكلة التى انتقدها الحافظ فى الفتح من جهة صناعة علم أصول الحديث وتعارض المتون أو مخالفتها للواقع ، وعد من علل بعضها احتمال كونها من الاسرائيليات . فقد ذكر ما أخرجه نعيم بن حماد شيخ البخارى فى كتاب الفتن من طريق جبير بن نفير وشريح بن عبيد وعمرو بن الاسود وكثير بن مرة قالوا جميعاً « الدجال ليس هو بانسان وانما هو شيطان موثق بسبعين حلقة فى بعض جزائر اليمن لايعلم من أوثقه: سليمان النبى أو غيره؟ فاذا آن ظهوره فك الله عنه كل عام حلقة ، فاذا برز أتته أتان عرض ما بين أذنيها اربعون ذراعا فيضع على ظهرها منبراً من نحاس ويقعد عليه ويتبعه قبائل الجن يخرجون له خزائن الارض »

قال الحافظ بعد ايراد هذا : (قلت) ولا يمكن معه كون ابن صياد هو الدجال ولعل هؤلاء مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض كتب أهل الكتاب . وأخرج نعيم أيضاً من طريق كعب الاحبار أن الدجال تلده أمه بقوص من أرض

مصر (قال) و بين مولده ومخرجه ثلاثون سنة (قال) ولم ينزل خبره فى التوراة والانجيل وانما هو فى بعض كتب الانبياء اه وأخلق بهذا الخبر أن يكون باطلا فان الحديث الصحيح أن كل نبى قبل نبينا أنذر قومه الدجال ، وكونه يراد قبل مخرجه بالمدة المذكورة مخالف لكونه ابن صياد ولكونه موثقا فى جزيرة من جزائر البحر اه المراد من قول الحافظ وهو فى شرح كتاب الاعتصام من الفتح

ومنه يعلم أن الحافظ لم يسلم من ضرب بعض هذه الروايات المضطربة المتعارضة المتنافرة ببعض ، و بأنه يعد احتمال الاخذ عن أهل الكتاب علة صحيحة لرد روايات الثقات ولو فيما لا مجال للعقل ولا للرأى فيه، خلافا لما زعمه الزرقانى وتمسك به بعض أنصار الخرافات فعدوه مما له حكم المرفوع .

ومنه يعلم أيضاً أن يدبطل هذه الاسرائيليات الاكبر كعب الاحبارقد لعبت لعبها فى مسألة الدجال (فى كل واد أثر من ثعلبة) وقول كعب: إن ماذكره من ولادة الدجال بقوص فى كتب بعض الانبياء كذب وافتراء

وهناك روايات أخرى عنه منها مانقله الحافظ فى شرح كتاب الفتن عن نعيم ابن حماد فى كتابه المذكور عنه قال (أى كعب) يتوجه الدجال فينزل عند باب دمشق الشرقى، ثم يلتمس فلا يقدر عليه ، ثم يرى عند المياه التى عند نهر الكسوة ثم يطلب فلا يدرى أين توجه، ثم يظهر بالمشرق فيعطى الخلافة، ثم يظهر السحر، ثم يدعى النبوة فتتفرق الناس عنه فيأتى النهر فيأمره أن يسيل فيسيل ثم يأمره أن يرجع فيرجع، ثم يأمره أن ييبس فييبس، و يامر جبل طور وجبل زيتا أن ينتطحا فينتطحا، و يامر الريح أن تثير سحابا من البحر فتمطر الارض و يخوض البحر فى كل يوم ثلاث خوضات فلا يبلغ حقويه، وإحدى يديه أطول من الاخرى فيمد الطويلة فى البحر فتبلغ قعره فيخرج من الحيتان ما يريد اه

بمثل هذه الخرافات كان كعب الاحبار يغش المسلمين ليفسد عليهم دينهم وسنتهم ، وخدع به الناس لاظهاره التقوى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

وجملة أخبار الدجال قالوا انها متواترة يعنون التواتر المعنوى وهو ان لها اصلا وان لم يتواتر شىء من رواياتها . ويدل القدر المشترك منها على ان النبى ﷺ

كشف له وتمثل له ظهور دجال فى آخر الزمان يظهر للناس خوارق كثيرة وغرائب يفتتن بها خلق كثير ، وأنه من اليهود ، وأن المسلمين يقاتلونه ويقاتلون اليهود فى هذه البلاد المقدسة وينتصرون عليهم ، وقد كشف له ذلك مجملا غير مفصل ولا يوحى به عن الله تعالى — كما كشف له غير ذلك من الفتن — فذكره فتناقله الرواة بالمعنى فأخطأ كثير منهم ، وتعمد الذين كانوا يبثون الاسرائيليات الدس فى رواياته . ولا يبعد أن يقوم طلاب الملك من اليهود الصهيونيين بتدبير فتنة فى هذا المعنى يستعينون عليها بخوارق العلوم والفنون العصرية كالكهرباء والكيمياء وغير ذلك والله أعلم .

﴿ التعارض والإشكالات فى أحاديث المهدى ﴾

وأما التعارض فى أحاديث المهدى فهو أقوى وأظهر ، والجمع بين الروايات فيه أعسر ، والمنكرون لها أكثر ، والشبهة فيها أظهر ، ولذلك لم يعتد الشيخان بشىء من رواياتها فى صحيحيهما . وقد كانت أكبر مثارات الفساد والفتن فى الشعوب الاسلامية إذ تصدى كثير من محبى الملك والسلطان ، ومن أدعياء الولاية وأولياء الشيطان . لدعوى المهدوية فى الشرق والغرب ، وتأييد دعواهم بالقتال والحرب ، وبالبدع والافساد فى الارض ، حتى خرج ألوف الألوف عن هداية السنة النبوية ، ومرق بعضهم من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية

وقد كان من حق تصديق الجماهير من المتأخرين بخروج مهدى يجدد الإسلام وينشر العدل فى جميع الانام ، أن يحملهم على الاستعداد لظهوره بتأليف عصبة قوية تنهض بزعامته ، وتساعده على إقامة أركان إمامته ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل تركوا ما يجب لحماية البيضة ، وحفظ سلطان الملة بجمع كلمة الامة ، وباعداد ما استطاعوا من حول وقوة ، فاتكلوا وتواكلوا ، وتنازعوا وتخاذلوا ، ولم يعظهم مانزع من ملكهم ، وماسلب من مجدهم ، اتكالا على قرب ظهور المهدى ، كأنه هو المعيد المبدى ، فهو الذى سيرد اليهم ملكهم ، ويجدد لهم مجدهم ، ويعيد لهم عدل شرعهم ، وينتقم لهم من اعدائهم ولكنه يفعل ذلك بالكرامات وما يؤيد به من خوارق العادات لا بالبوارد أو البندقيات الصارخات ولا بالمدافع الصاخات . ولا بالدبابات المدمرات ، ولا بأساطيل البحار

السابحات والغواصات ، ولا أساطيل المناطيد والطيارات، ولا بالغازات الخانقات .
وقد كانت الحرب بين خاتم النبيين والمشركين سجالا. وكان المؤمنون ينفرون معه خفافا وثقالا ، فهل يكون المهدى أهدى منه أعمالا، وأحسن حالا ومآ لا ؟ كلا

وقد جاءهم النذير ، ابن خلدون الشهير ، فصاح فيهم إن لله تعالى سنناً فى الأمم والدول والعمران ، مطردة فى كل زمان ومكان ، كما ثبت فى مصحف القرآن. وصحف الأكوان ؛ ومنها أن الدول لاتقوم إلا بعصبية ، وأن الأعاجم قد سلبوا العصبية من من قريش والعترة النبوية ؛ فان صحت أخبار هذا المهدى فلن يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية ، ولو سمعوا وعقلوا ؛ لسعوا وعملوا ، ولكان استعدادهم لظهور المهدى بالاهتداء بسنن الله تعالى رحمة لهم ، تجاه ما كان فى أخباره من الفتن والنقم فيهم، وربما أغناهم عن بعض ما يرجون من زعامته إن لم يغنهم عنه كله

كانت اليهود اغترت مثلنا بظواهر ما فى كتب أنبيائهم من الأنباء بظهور مسيح فيهم يعيد لهم مافقدوا من ملك داود وسليمان ، فاتكلوا على مافهم أخبارهم منها بمحض التقليد الاصم الذى لايسمع ، الأعمى الذى لايبصر ، ومضت القرون فى إثر القرون وهم لايزدادون إلا تفرقا وضعفا ، فلما عرفت أجيالهم الأخيرة سنن الله تعالى فى العمران طفقوا يستعدون لاستعادة ذلك الملك والسلطان ، بالسعى الى إنشاء وطن يهودى خاص بهم يقيمون فيه قواعد العمران، بإرشاد العلوم والفنون العصرية ، التى يتعلمونها بما يحيون من لغتهم العبرانية ،وقد أنشأوا لذلك مصرفا ماليا خاصـا ، وما زالوا يجمعون لأجـله الإعانات بالألوف وألوف الألوف من الدنانير ، حتى انهم استمالوا لمساعدتهم فى هذا العهد ، أقوى دول الأرض

هذا — والمسلمون لايزالون يتكلون على ظهور المهدى ، ويزعم دهماؤهم أنه سينقض لهم سنن الله تعالى أو يبدلها تبديلا ، وهم يتلون قوله تعالى (٣٥ : ٤٣ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) فاذا كان من أشراط الساعة آيات ،وكان زمنها زمن خوارق عادات. فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم، وإقامة لشرعهم، وعزة وسلطان فى أرضهم؟

على انهم أنشؤا فى العصور الأولى عصبيات لأجل المهدى ولكنها جاهلية ، بل أنشؤا المهدى المنتظر (عج) نفسه لأجل تلك العصبيات الفارسية المجوسية ، التى كانت تسعى لإزالة ملك الأمة العربية ، وافساد دينهم الذى أعطاهم الملك والقوة ، ولأجل ذلك كثر الاختلاف فى اسم المهدى ونسبه وصفاته وأعماله ، وكان لكعب الأحبار ، جولة واسعة فى تلفيق تلك الأخبار .

الاختلاف والاضطراب فى أحاديث المهدى :

(منها) أن أشهر الروايات فى اسمه واسم أبيه عند أهل السنة أنه محمد بن عبدالله وفى رواية : أحمد بن عبد الله ، والشيعة الإمامية متفقون على أنه محمد بن الحسن العسكرى وهما الحادى عشر والثانى عشر من أئمتهم المعصومين ، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، ويقولون : انه دخل السرداب فى دار أبيه فى مدينة (سر من رأى) التى تسمى الآن « سامرا » سنة ٢٦٥ وله من العمر تسع سنين ، وانه لايزال فى السرداب حياً ، وقد رفع إليه بعض علمائهم المتأخرون أسئلة شرعية فى رقاع كانوا يلقونها ، وزعموا أنهم كانوا يجدون فتاواه مدونة فيها ! ! ومسائل هذه الرقاع عندهم أصح المسائل والأحكام ! ! وهم كلما ذكروه يقرنون اسمه بحرفى العين والجيم هكذا (عج) وهما مقتطفتان من جملة : عجل الله خلاصه

وزعمت الكيسانية أن المهدى هو محمد بن الحنفية وانه حى مقيم بجبل رضوى بين أسدين يحفظانه وعنده عينان نضاختان يفيضان ماء وعسلا ومعه أربعون من أصحابه . فقولهم فيه كقول الإمامية فى المهدى ابن الحسن العسكرى ، ورضوى بفتح الراء جبل جهينة من أرض الحجاز على مسيرة يوم من ينبع وسبع مراحل من المدينة المنورة . ويقال إن السنوسية يعتقدون أن شيخهم المهدى السنوسى هو الإمام المنتظر . ومنهم من يقول إنه اختفى ، وقد بلغنا أنهم كانوا إذا سئلوا عن موته يقولون : الحى يموت . ولا يقولون انه قد مات .

وروى عن كعب الأحبار أنه قال : إنما سمى بالمهدى لانه يهدى إلى أمر خفى وسيخرج التوراة والانجيل من أرض يقال لها انطاكية ، وفى رواية أخرى عنه إنما سمى بالمهدى لانه يهدى إلى أسفار التوراة فيستخرجها من جبال الشام ويدعو

إليها اليهود فيسلم على تلك الكتب جماعة كثيرة. رواها أبو نعيم فى كتاب الفتن وروى مثل ذلك عن أبى عمرو الدانى ، وإنما هو مأخوذ من تضليلات كعب الأحبار

والمشهور فى نسبه : أنه علوى فاطمى من ولد الحسن ، وفى بعض الروايات من ولد الحسين ، وهو يوافق قول الشيعة الامامية ، وهنالك عدة أحاديث مصرحة بأنه من ولد العباس (منها) مارواه الرافعى عن ابن عباس أنه ﷺ قال للعباس « ألا أبشرك ياعم ؟ إن من ذريتك الأصفياء ، ومن عترتك الخلفاء ، ومنك المهدى فى آخر الزمان ، به ينشر الله الهدى ويطفىء نيران الضلالة ، إن الله فتح بنا هذا الأمر وبذريتك يختم » ومن حديث ابن عساكر عنه مرفوعاً أيضاً « اللهم انصر العباس وولد العباس (ثلاثا) ياعم أما علمت أن المهدى من ولدك موفقاً مرضياً » قال ابن حجر : رجاله ثقات ، وفى معناها أحاديث أخرى لأبى هريرة وأم سلمة وعلى وفى حديثه التصريح بأن المراد بالمهدى ثالث خلفاء بنى العباس .

وفى معناه حديث أبى هريرة المعروف عندهم بحديث الرايات وذكره ابن خلدون من حديث ابن مسعود مرفوعاً « إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتى سيلقون من بعدى بلاء وتشريداً وتطريداً حتى يأتى قوم من قبل المشرق معهم رايات سود » الخ وهو من طريق يزيد بن أبى زياد وهو من شيعة الكوفة ضعفه الأكثرون وروى له مسلم مقروناً بغيره وقال شعبة فيه : كان رفاعاً ، أى يرفع إلى النبى ﷺ الأحاديث التى لاتعرف مرفوعة ، وصرحوا بضعف حديثه هذا . وهنالك أحاديث أخرى فى نسبة المهدى إلى العباس . وعن ابن عباس عند البيهقى وأبى نعيم والخطيب البغدادى روايات فى التصريح بأن المهدى المنتظر هو العباسى ، وذكر قبله السفاح والمنصور . وأهل الرواية يتكلفون الجمع بين هذه الروايات وما يعارضها باحتمال أن يكون لكل من العباس والحسن والحسين فيه ولادة بعضها من جهة الأب وبعضها من جهة الأم ، قاله ابن حجر فى القول المختصر ، وتبعه الشوكانى وغيره ، ولكن ألفاظ الأحاديث لاتتفق مع هذا الجمع ، على أنه لم يرد فى أم المهدى شىء من هذه الروايات على كثرتها .

وسبب هذا الاختلاف أن الشيعة كانوا يسعون لجعل الخلافة فى آل الرسول ﷺ

من ذرية على رضوان الله عليهم ، و يضعون الأحاديث تمهيداً لذلك ، ففطن لهذا الأمر العباسيون فاستمالوا بعضهم ، ورأى أبو مسلم الخراسانى وعصبيته أن آل على يغلب عليهم الزهد ، وأن بني العباس كبنى أمية فى الطمع فى الملك ، فعمل لهم توسلا بهم إلى تحويل عصبية الخلافة إلى الفرس ، تمهيداً لاعادة الملك والمجوسية ، وحينئذ وضعت أحاديث المهدى مشيرة إلى العباسيين مصرحة بشارتهم (السواد) وأشهرها حديث ثوبان المرفوع فى سنن ابن ماجه « يقتتل عند كنزكم هذا ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لاتصير إلى أحدمنهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلالم يقتله قوم — ثم ذكرشيئا لاأحفظه — فاذارأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فانه خليفة الله المهدى » قال السندى فى حاشيته على ابن ماجه : وفى مجمع الزوائد هذا إسناد صحيح رجاله ثقات . رواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين اه فهو مثال لأصح ماروه فى المهدى ولكن فى إسناده عبد الرزاق ابن همام الصنعاني الشهير وهو معروف بالتشيع وعمى فى آخر عمره فخلط وكان من مشايخه عمه وهب بن منبه وناهيك به — وفى سنده إلى ثوبان أبو قلابة وسفيان الثورى وهما مدلسان وقد عنعنا فى هذا الحديث ولم يقولا إنهما سمعاه . فاذا أضفت إلى هذا طعن الطاعنين فى عبد الرزاق ومنهم ابن عدى القائل : إنه حدث بأحاديث فى الفضائل لم يوافقه عليها أحد، وما هو أعظم من ذلك من رمى بعضهم إياه بالكذب على مكانته من هذا الفن ـ و إذا تذكرت مع هذا أن أحاديث الفتن والساعة عامة ، وأحاديث المهدى خاصة ، وأنها كانت مهب رياح الأهواء والبدع ، وميدان فرسان لأحزاب والشيع ، ـ تبين لك أين تضع هذه الرواية منها

ولما انقضى أمر بنى العباس وكانت الأحاديث قد دونت لم يسع القائلين بظهور المهدى إلا أن يقولوا: إن الرايات السود المروية فيها غير رايات بنى العباس على أن خصومهم كانوا قد رووا فى معارضتها روايات ناطقة بأن رايات المهدى تكون صفرا ، وروايات فى أن ظهوره من المغرب لامن المشرق

قال محمد بن الصامت قلت للحسين بن على رضى الله عنهما : أما من علامة بين يدى هذا الأمر ؟ ـ يعنى ظهور المهدى ـ قال : بلى . قلت وما هى ؟ قال هلاك بنى

العباس وخروج السفيانى والخسف بالبيداء . قلت جعلنى الله فداك ، أخاف أن يطول هذا الأمر . فقال : إنما هو كنظام سلك يتبع بعضه بعضاً . ورووا عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه وكرم وجهه قال : تكون فى الشام رجفة يهلك فيها أكثر من مئة ألف يجعلها الله رحمة للمؤمنين ، وعذابا على المنافقين ، فاذا كان كذلك فانظروا إلى أصحاب البراذين الشهب والرايات الصفر تقبل من المغرب حتى تحل بالشام ، وذلك عند الجوع الأكبر ، والموت الأحمر ، فاذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من قرى دمشق يقال لها (حرستا) فاذا كان ذلك خرج ابن آكلة الأكباد من الوادى اليابس حتى يستوى على منبر دمشق ، فاذا كان ذلك كله فانظروا خروج المهدى . انتهى الأثر المروى عن أمير المؤمنين ، ونحن نعلم أن ابن آكلة الأكباد لقب معاوية لأن أمه أخرجت قلب حمزة سيد الشهداء رضوان الله عليه يوم قتل فى أحد فمضغته ، وكانت هذه الرواية قد وضعت فيما يظهر بعد أمير المؤمنين للتبشير بانتقام المهدى من معاوية ثم حملوها على السفيانى الذى كثرت الروايات فى خروجه قبل المهدى وقالوا إنه من ولد خالد بن يزيد بن أبى سفيان ، وأنه أحد الخوارج الذين يتقدمونه بل شرهم ، والآخرون هم الملقبون بالأبقع والأصهب والأعرج والكندى والجرهمى والقحطانى ، ولفارس ميدان الخرافات الاسرائيلية كعب الأحبار تفصيلات لخروج هؤلاء ، هى كالتفسير للأثر العلوى الموضوع تراجع فى فوائد الفكر للشيخ مرعى وعقائد السفارينى وغيرها

فهذا نموذج من تعارض الروايات وتهافتها فى المهدى ولو ذكرنا مافى كتب الشيعة والمتصوفة فى ذلك لجئنا بالعجب العجاب، وتمحيص القول فيها لايتم إلا بسفر مستقل .

خلاصة القول فى أشراط الساعة

وجملة القول فى أحاديث الفتن ، وأشراط الساعة ، وأماراتها وسبب الاختلاف والتعارض فيها يختصر فى المسائل الآتية :

(١) إن النبى ﷺ لم يكن يعلم الغيب كما يأتى فى الآية التالية بل هو معلوم من الدين بالضرورة ، وإنما أعلمه الله تعالى ببعض الغيوب بما أنزله عليه فى كتابه وهو قسمان ، صريح كأخبار الملائكة والساعة والجنة والنار ، ومستنبط من بيان سنن الله تعالى المنصوصة فيه كقوله تعالى (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم

خاصة) وقوله (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) فكان يفهم منها ﷺ مالايفهم غيره من الصحابة فمن دونهم علما وفهما كما روى عن الزبير (رض) من عدة طرق فى آية (واتقوا فتنة) انهم قرءوها على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يعلمون أنها تقع منهم حيث وقعت فى فتنة قتل عثمان وفى يوم الجمل ، والروايات عن الزبير أوردها الحافظ فى أول شرح كتاب الفتن من البخارى

(٢) إن الله تعالى أعلمه ببعض مايقع فى المستقبل بغير القرآن من الوحى كسؤاله لربه أن لايجعل بأس منه بينها فلم يعطه ذلك وأعلمه أن سنته فى خلقه لاتتبدل أى وأن هذا منها. راجع تفسيرنا لقوله تعالى (٦ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) إلخ ولم يكن ﷺ يعلم أن ذلك من سنته تعالى قبل إعلامه له .

(٣) انه كان يتمثل له ﷺ بعض أمور المستقبل كأنه يراه كما تمثلت له الجنة والنار فى عرض الحائط ، وكما تمثل له فى أثناء حفر الخندق مايفتح الله لأصحابه من الممالك ، وكما تمثلت له الفتن وهو مشرف على أطم من آطام المدينة فقال كما فى الصحيحين «هل ترون ماأرى ؟ قالوا : لا ، قال : فانى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر» وظهر هذا فى فتنة قتل عثمان (رض) ومثله حديث الفتن من قبل المشرق وكشفه هذا حق وهو مايسميه أهل الكتاب : نبوءات ، وقد ظهر منه شىء كثير كالشمس

(٤) إنه ﷺ لم يكن يخبر أصحابه بكل مايطلعه الله عليه من ذلك بل بما كان يرى المصلحة فى إخبارهم به موعظة وتحذيراً ، وكان يخص بعض أصحابه ببعضها كما روى فى مناقب حذيفة (رض) وما كان كل من سمع منه شيئاً منها يفهم مراده كله ، وإذا كانوا لم يفهموا تأويل بعض آيات القرآن فى سنن الله العامة حق الفهم التفصيلى كما تقدم آنفا عن الزبير (رض) وإذا كان منهم من لم يفهم بعض آيات الاحكام الظاهرة كقوله تعالى (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) فلأن يخفى عليهم تأويل ماخص به بعض الأفراد وهو مما لم يؤمر بتبليغه للناس كافة - لأنه ليس من أصول الدين ولا من فروعه - أولى . وخفاء ذلك على من

بعدهم أولى إلا من يقع تأويله فى عهدهم كوصفه ﷺ النساء المتهتكات فى هذا العصر بالكاسيات العاريات الخ

(٥) لاشك فى أن أكثر الأحاديث قد روى بالمعنى كما هو معلوم واتفق عليه العلماء، ويدل عليه اختلاف رواة الصحاح فى ألفاظ الحديث الواحد حتى المختصر منها، وما دخل على بعض الأحاديث من المدرجات وهى مايدرج فى اللفظ المرفوع من كلام الرواة. فعلى هذا كان يروى كل أحد مافهمه، وربما وقع فى فهمه الخطأ لأن هذه أمور غيبية، وربما فسر بعض مافهمه بألفاظ يزيدها، وإذا كان النبى ﷺ لم يطلعه الله تعالى على كل ما أطلعه عليه من هذه المغيبات بالتفصيل، وكان يجتهد فى بعضها ويقدر ويأخذ بالقرآن كما قال النووى وابن الجوزى فى تجويزه ﷺ أن يكون ابن صياد اليهودى المعاصر له هو الدجال المنتظر، وكذا تجويزه أن يظهر فى زمنه وهو حى فهل من الغرابة أن يقع الخلط والتعارض فيما روى عنه بالمعنى بقدر فهم الرواة؟

(٦) ان العابثين بالاسلام ومحاولى افساد المسلمين وازالة ملكهم من زنادقة اليهود والفرس وغيرهم من أهل الابتداع وأهل العصبيات العلوية والأموية والعباسية قد وضعوا أحاديث كثيرة افتروها، وزادوا فى بعض الآثار المروية دسائس دسوها، وراج كثير منها باظهار رواتها الصلاح والتقوى، ولم يعرف بعض الاحاديث الموضوعة إلا باعتراف من تاب إلى الله من واضعيها، ولقد كان الاستاذ الامام يقول إن الاسلام الصحيح هو ما كان عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن، ولم يكن يثق إلا بأقل القليل مما روى فى الصحاح من أحاديث الفتن

(٧) إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يروون عن كل مسلم، وما كل مسلم مؤمن صادق، وما كانوا يفرقون فى الاداء بين ماسمعوه من النبي ﷺ أو من غيره وما بلغهم عنه بمثل: سمعت وحدثنى وأخبرنى، ومثل: عن النبي ﷺ أنه قال أو قال رسول الله ﷺ، كما فعل المحدثون من بعد عند وضع مصطلح الحديث، وقد ثبت أن الصحابة (رض) كان يروى بعضهم عن بعض وعن التابعين حتى عن كعب الأحبار وأمثاله، والقاعدة عند أهل السنة أن جميع الصحابة عدول فلا يخل جهل اسم راو منهم بصحة السند، وهى قاعدة أغلبية لا مطردة فقد كان فى عهد النبى

ﷺ منافقون قال تعالى فيهم (٩ : ١٠٢ وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم) مردوا عليه أحكموه وصقلوه أو صقلوا فيه حتى لم يعد يظهر فى سيماهم وفحوى كلامهم كالذين قال الله فيهم منهم (٤٧ : ٣١ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول)

ولكن البلية فى الرواية عن مثل كعب الاحبار . وممن روى عنه أبو هريرة وابن عباس ومعظم التفسير المأثور مأخوذ عنه وعن تلاميذه ؛ ومنهم المدلسون كقتادة ، وكذا غيره من كبار المفسرين كابن جريج

فكل حديث مشكل المتن أو مضطرب الرواية، أو مخالف لسنن الله تعالى فى الخلق ، أو لأصول الدين أو نصوصه القطعية ، او للحسيات وأمثالها من القضايا اليقينية ، فهو مظنة لما ذكرنا فى هذه التنبيهات ، وسبق لنا بيان أكثرها فى الكلام على حديث طلوع الشمس من مغربها فى تفسير (٦ : ١٨٥) من أواخر سورة الانعام (ص ٢٠٩ ج ٨ تفسير) فمن صدق رواية مما ذكر ولم يجد فيها إشكالا فالأصل فيها الصدق، ومن ارتاب فى كل شىء منها أو أورد عليه بعض المرتابين أو المشككين إشكالا فى متونها ، فليحمله على ماذكرنا من عدم الثقة بالرواية لاحتمال كونها من دسائس الاسرائيليات ، أوخطأ الرواية بالمعنى ، أو غير ذلك مما أشرنا اليه ، وإذا لم يكن شىء منها ثابتا بالتواتر القطعى فلا يصح أن يجعل شبهة على صدق الرسول ﷺ المعلوم بالقطع ، ولا على غير ذلك من القطعيات . ولعل الله تعالى يبارك لنا فى العمر ويوفقنا لصرف معظمه فى خدمة الكتاب والسنة ، فنضع لاحاديث الفتن وآيات الساعة مصنفا خاصاً بها ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شىء قدير

---

(١٨٨) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ؛ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ؛ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ببيانها لحقيقة الرسالة

والفصل بينها وبين الربوبية والألوهية ، وهدمها لقواعد الشرك ومباني الوثنية من أساسها . ومناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى أمر خاتم رسله فيما قبلها أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده وأمرها بيده وحده — وأمره في هذه أن يبين للناس أن كل الأمور بيد الله تعالى وحده ، وأن علم الغيب كله عنده ، وأن ينفي كلا منهما عن نفسه ﷺ وذلك أن الذين كانوا يسألونه ﷺ عن الساعة من المسلمين كانوا يظنون أن منصب الرسالة قد يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب ، وربما كان يظن بعض حديثي العهد بالإسلام أن الرسول قد يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضر عن نفسه وعمن يحب أو يشاء ، أو منع النفع وإحداث الضر بمن يكره أو بمن يشاء . فأمره الله تعالى أن يبين للناس أن منصب الرسالة لا يقتضي ذلك ، وإنما وظيفة الرسول التعليم والإرشاد ، لا الخلق والإيجاد ، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك مما علمه الله بوحيه ، وأنه فيما عدا تبليغ الوحي عن الله تعالى بشر كسائر الناس (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد) قال عز وجل :

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ﴾ أي قل أيها الرسول للناس فيما تبلغه من أمر دينهم : إنني لا أملك لنفسي — أي ولا لغيري بالأولى — جلب نفع ما في وقت ما ، ولا دفع ضرر ما في وقت ما ، فوقوع كلمتي النفع والضر نكرتين منفيتين يفيد العموم حسب القاعدة المعروفة ، ونفي عموم الفعل يقتضي نفي عموم الأوقات له . ولكن هذا العموم مشكل بما هو معلوم بالضرورة من تمكن كل إنسان سليم الأعضاء من نفع نفسه وغيره في بعض الأمور الكسبية ودفع بعض الضرر عنها ، ولذلك حرمت الشريعة الضرر والضرار

ويجاب عن هذا الإشكال من وجهين (أحدهما) أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً استقلالاً بقدرته وإنما يملك ما يملكه من ذلك بتمليك الرب الخالق جلت قدرته وهو المراد بالاستثناء أي لا أملك منهما ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ من نفع أقدرني على جلبه ، وضر أقدرني على منعه ، وسخر لي أسبابهما ، أو إلا وقت

مشيئته سبحانه أن يمكننى من ذلك ، فالمعنى المراد على هذا هو بيان عجز المخلوق الذاتى وكون كل شىء أوتيه فهو بمشيئة الله تعالى لا يستقل العبد بشىء منه استقلالا مطلقا ، ولا هو يملكه بذاته لذاته ؛ بل بمشيئة الله تعالى ، فالاستثناء على هذا متصل بما قبله مخصص لعمومه مقيد لاطلاقه

(الثانى) أنه ﷺ لا يملك بمقتضى منصب الرسالة نفعاً و لا ضراً لنفسه بمنطوق الجملة ولا لغيره بمفهومها الأولى، مما يعجز عنه غيره بمقتضى بشريته وما أقدره الله تعالى عليه بمقتضى سنته فى عالم الأسباب والمسببات ، كما أنه لا يملك شيئاً من علم الغيب الذى هو شأن الخالق دون المخلوق كما يأتى بيانه فى تفسير الجملة التالية والاستثناء على هذا منفصل عما قبله مؤكد لعمومه ، أى لكن ما شاء الله تعالى من ذلك كان ، فهو كقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله) وقوله حكاية عن خليله ابراهيم عليه السلام (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً) وقوله فى خطاب كليمه موسى عليه السلام (إنى لا يخاف لدى المرسلون * إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء) الآية .

وهذا الوجه هو المختار عندنا لأن الناس قد فتنوا منذ قوم نوح بمن اصطفاهم الله ووفقهم لطاعته وولايته من الأنبياء ومن دون الأنبياء من الصالحين فجعلوهم شركاء لله تعالى فيما يرجوه عباده من نفع يسوقه إليهم ، وما يخشونه من شر يمسهم فيدعونه ليكشفه عنهم ، وصاروا يدعونهم كما يدعونه لذلك إما استقلالا ، و إما إشراكا ، إذ منهم من يظن أنه تعالى قد أعطاهم القدرة على التصرف فى خلقه بما هو فوق الأسباب التى منحها الله تعالى لسائر الناس فصاروا يستقلون بالنفع والضر منحاً ومنعاً، و إيجاباً وسلباً ، ومنهم من يعتقد أن التصرف الغيبى الأعلى الذى هو فوق الأسباب الكسبية الممنوحة للبشر خاص بربهم لا يقدر عليه غيره، ولكنهم يظنون مع هذا أن هؤلاء الأنبياء والأولياء عند الله تعالى كوزراء الملوك وحجابهم و بطانتهم ، وسطاء بينهم و بين من لم يصل إلى رتبتهم، فالملك المستبد بسلطانه يعطى هذا و يعفو عن ذنب هذا بوساطة هؤلاء الوزراء والحجاب المقربين عنده، وكذلك رب العالمين يعطى و يمنع ، ويغفر و يرحم و ينتقم بوساطة أنبيائه وأوليائه بزعمهم ، فهم شفعاء للناس عنده تعالى

يقربونهم إليه زلفى كما حكاه التنزيل عن المشركين، وبيناه فى مواضع من هذا التفسير [1]

وفى مثل هـذا التشبيه الوثنى وتمثيل تصرف الرب العظيم الغنى عن عباده بتصرف الملوك المستبدين الجاهلين الذين يحتاجون إلى وزرائهم وبطانتهم فى حمله على ماينبغى له فيهم ـ قال الله تعالى (فلا تضربوا لله الأمثال) وبين فى هـذه الآية وأمثالها أن رسل الله تعالى وهم صفوة خلقه لايشاركون الله تعالى فى صفة من صفاته ، ولا تأثير لأحـد منهم فى علمه ولا فى مشيئته ، لأنها كاملة أزلية لا يطرأ عليها تغير ، وأن الرسالة التى اختصهم الله تعالى بها لايدخل فى معناها إقدارهم على النفع والضر بسلطان فوق الأسباب المسخرة لسائر البشر ولا منحهم علم الغيب ، وإنما هى تبليغ وحى الله تعالى وبيانه للناس بالقول والفعل والحكم

ودليلنا على اختيار هذا الوجه : أن مدار العبودية على توجه العباد إلى المعبود فيما يرجون من نفع ويخافون من ضر ، فاستعمل اللفظان فى التنزيل فى بيان أن الرب المستحق للعبادة هو من يملك الضر والنفع غير خاضع ولا مقيد بالأسباب المادية كقوله تعالى (٥ : ٧٩ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً) وقوله فى عجل بنى إسرائيل (٢٠ : ٨٩ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؟) وقوله (٤٨ : ١١ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟) وقوله (١٣ : ١٧ قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، قل أفاتخذتم من دون الله أولياء لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟) وقوله (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً) الآية

فلما كان ملك الضر والنفع بهذا الاطلاق خاصاً برب العباد وخالقهم ، وكان طلب النفع أو كشف الضر عبادة لايجوز أن يوجه إلى غيره من عباده مهما يكن فضله تعالى عظيما عليهم ـ أمر الله رسوله ﷺ أن يصرح بالبلاغ عنه أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولاضراً ، وقد تكرر هذا الأمر له فى القرآن مبالغة فى تقريره وتوكيده فقال تعالى فى سورة يونس (١٠ : ٤٩ قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعاً إلا ماشاء

(١) يراجع لفظ الشفاعة والشفعاء فى فهارس أجزاء التفسير كلها

الله) الآية ، وقال فى سورة الجن (٧٢:٢٠ قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) وهذه الآية أبلغ وأشمل مما فى معناها بما فيها من إيجاز واحتباك بحذف ما يقابل الضر والرشد المذكورين ، وهما ضداهما بدلالتهما عليهما ، والتقدير : لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، ولا رشداً ولا غواية — فهذه الآيات بمعنى ما هنا تؤيد اختيارنا

ثم أمره تعالى أن ينفى عن نفسه علم الغيب مستدلا عليه بانتفاء أظهر منافعه القريبة فقال

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء﴾ الخير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية كالمال والعلم ، والسوء ما يرغبون عنه مما يسوءهم و يضرهم ، ويراد بهما هنا الجنس الذى يصدق ببعض أفراده وهو الخير الذى يمكن تداركه وتحصيله ، والسوء الذى يمكن الاستعداد لدفعه بعلم ما يأتى به الغد . والجملة استدلال على نفى علم النبي ﷺ الغيب ، كأنه يقول: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا أعلم الغيب ، ولو كنت أعلم الغيب ـ وأقر به ما يقع فى مستقبل أيامى فى الدنيا ـ لاستكثرت من الخير كالمال وأعمال البر التى تتوقف على معرفة ما يكون فى المستقبل من عسرة وغلاء مثلا وتغير الأحوال ، ولما مسنى السوء الذى يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب ، كشدة الحاجة مثلا ، ومن أمثلته فى العبادة قوله ﷺ فى حجة الوداع « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معى الهدى لأحللت » رواه الشيخان وغيرهما — يعنى لو أنه علم ﷺ ما يحصل من انفراده دون أصحابه بسوقه الهدى إلى الحرم من مشقة فسخهم الحج إلى عمرة دونه ، إذ لا يباح الفسخ والتحلل بالعمرة لمن معه الهدى لما ساق الهدى ليوافق الجمهور فى تمتعهم بالعمرة إلى الحج. ومن أمثلته فى الادارة وسياسة الحرب ما عاتبه الله تعالى عليه من الاعراض عن الأعمى والتصدى للاغنياء ومن أخذ الفداء من أسرى بدر ، ومن الاذن بتخلف المنافقين فى غزوة تبوك سنة العسرة ، ولم أر أحداً نبه على هذا النوع من المفسرين .

وفيه وجه آخر أنه مستأنف غير معطوف على ما قبله ، ومعناه : وما مسنى الجنون كما زعم الجاهلون ، فيكون حاصل معنى الآية نفى رفعه إلى رتبة الربوبية الذى افتتن بمثله الغلاة ، ونفى وضعه فى أدنى مرتبة البشرية الذى زعمته الغواة العتاة .

و بيان حقيقة أمره ، وما رفع الله تعالى من قدره ، بجعله فوق جميع البشر بوحيه ، ووساطته بينه و بين خلقه ، لـكن فى التبليغ والارشاد ، لا فى الخلق والايجاد ، ولا فى تدبير أمور العباد ، فان هذا شأن الربوبية ، و انما هو صلوات الله عليه وسلامه فى أعلى مقام العبودية .

ومن نكت البلاغة فى القرآن بتقديم اللفظ على ما يقابله فى آية وتأخيره فى أخرى : تقديم النفع على الضر فى هذه الآية وتأخيره وتقديم الضر عليه فى آية سورة يونس المذكورة آنفا . والفرق الحسن لذلك أن آية الاعراف جاءت بعد السؤال عن الساعة أيان مرساها ؟ وأكبر فوائد العلم بالساعة وهو من علم الغيب الاستعداد لها بالعمل الصالح واتقاء أسباب العقاب فيها ، فاقتضى ذلك البدء بنفى ملك النفع لنفسه بمثل هذا الاستعداد وتأخير ملك الضر المراد به ملك دفعه واتقاء وقوعه ، وأن يستدل على ذلك بما ذكر من أنه لو كان يعلم الغيب حتى فيما دون الساعة زمنا وعظم شأن لاستكثر من الخير الذى يتعلق بالاستعداد للمستقبل واتقى أسباب ما يمسه من السوء فيه كالأمثلة التى ذكرناها .

وأما آية سورة يونس فقد وردت فى سياق تمارى الـكفار فيما أوعدهم الله من العقاب على التكذيب بما جاءهم به رسوله من البينات والهدى ، واستعجالهم إياه تهكما ومبالغة فى الجحود ، فناسب أن يذكر فى جوابهم أنه لا يملك لنفسه ولا لهم ضراً كتعجيل العذاب الذى يكذبون به ولا نفعاً ، كالنصر الذى يترتب على تعجيل العذاب لهم فى الدنيا ، فقد أمره الله تعالى أن يبلغهم ان أمر عذابهم تعجيلا أو تأخيرا لله تعالى وحده ، كما أمره أن ينفى عن نفسه القدرة على ما اقترحوه من الآيات ؛ ومن ذلك ماذكره تعالى من مقترحاتهـم فى سورة الاسراء من تفجير ينبوع فى مكة وإيجاد جنة تتفجر الأنهار خلالها تفجيرا — أو إسقاط السماء عليهم كسفا — وهو من العذاب — الخ ومن أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يجيبهم عن ذلك بقوله (قل سبحان ربى! هل كنت إلا بشرا رسولا؟) وقال تعالى فى هذه السورة أيضا (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلا) أى موكلا بأمر ثوابهم وعقابهم منفذا له ، وقال تعالى فى سورة الرعد (وإما نرينك بعض

الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب)

وهاك ما ورد فى التفسير المأثور فى الآية عن تفسير الحافظ بن كثير قال :

« أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لايعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شىء من ذلك إلا ما أطلعه الله عليه كما قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) الآية ، وقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال عبد الرزاق عن الثورى عن منصور عن مجاهد (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملا صالحاً ، وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج ، وفيه نظر لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفى رواية كان إذا عمل عملا أثبته فجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله عز وجل فى جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك والله أعلم

« والأحسن فى هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أى من المال ، وفى رواية لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه فلا أبيع شيئا إلا ربحت فيه ولا يصيبنى الفقر . وقال ابن جرير وقال آخرون : معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص . وقال عبد الله بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون وأتقيه . » اه وما قلناه أعم وأصح

هذا و إننا قد بينا فى تفسير (٦ : ٥ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) أن الغيب قسمان حقيقى لا يعلمه إلا الله و إضافى يعلمه بعض الخلق دون بعض ، وأن هذه الآية تنفى قدرة الرسول على التصرف فى خلق الله تعالى بما هو فوق كسب البشر ، وتنفى عنه علم الغيب بهذا المعنى ، إلا ما أعلمه الله تعالى به بوحيه لتعلقه بوظيفة الرسالة كالملائكة والحساب والثواب والعقاب — وأن مايطلع الله عليه الرسل من ذلك لا يكون من علمهم الكسبى ، بل يدخل فى معنى الاجماع على أن النبوة غير مكتسبة

أوردنا هنالك قوله تعالى فى ذلك من سورة الجن (٧٢ : ٢٧ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول — إلى قوله — ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) الآية ، واستطردنا إلى تفنيد ما يدعيه بعض مشايخ طرق الصوفية أو يدعى لهم من علم الغيب والتصرف فى ملك الله أحياءً أو أمواتاً بما أغنى عن إعادته هنا [1] ثم أطلنا البحث فى علم الغيب فى تفسير (٦:٥٩ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية ، وتكلمنا فيه عن الكشف وغير ذلك من معرفة بعض الامور المستقبلة المتعلقة بمسألة الغيب الاضافى أو التى لا يصح أن تسمى غيباً لأن لها أسباباً فطرية [2] . وفى الكلام على أشراط الساعة الذى مر بك قريبا بحث فيما أطلع الله عليه رسوله بما دون الوحى من بعض الحوادث المستقبلة كتمثل الاشياء له تمثلا متفاوتا فى الوضوح . وهو لا يعارض هذه الآية كما علمت

﴿ إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون ﴾ هذا بيان مستأنف لتعليل ماتقدم من نفى امتيازه ﷺ على البشر بملك النفع والضر من غير طرق الأسباب وسنن الله فى الخلق — ونفى امتيازه عليهم بعلم الغيب ، عللهما ببيان حصر امتيازه عليهم بالتبليغ عن الله عز وجل . والتبليغ قسمان : قسم مقترن بالتخويف من العقاب على الكفر والمعاصى وهو الإنذار ، وقسم مقترن بالترغيب فى الثواب على الايمان والطاعة ، وهو البشارة أو التبشير ، وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة على الاطلاق والآيات فيه كثيرة ، ويوجه أيضاً إلى من يؤمن و إلى من يصر على كفره وإجرامه مطلقاً ، و إذا ذكر الفريقان جميعاً فى سياق واحد يخصُّ الكافرون بالانذار والمؤمنون الصالحون بالتبشير ، وقد ذكر فى أول سورة الكهف الانذار المطلق بالقرآن ثم تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات و إنذار متخذى الولد لله تعالى من الكافرين . ومن المقابلة بين الفريقين قوله تعالى فى آخر سورة مريم (لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدًّا) وفى معناها آيات أخرى فى المقابلة كما ترى فى أوائل سورتى البقرة والاسراء ، ولكن بدون ذكر لفظ الانذار . والتبشير لا يوجه الى الكافرين والمجرمين بلقبهم الا بأسلوب التهكم كقوله تعالى

(١) راجع ص ٤٢١ ج ٧ تفسير (٢) راجع ص ٤٥٦ — ٤٦٩ منه

(فبشرهم بعذاب أليم) على القول المشهور الذى عليه الجمهور ، وأما الانذار فقد يوجه إلى المؤمنين المتقين على معنى أنهم هم الذين ينتفعون به كقوله فى سورة فاطر (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) وقوله فى سورة يس (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم)

بناء على هذا قال بعض المفسرين إن قوله تعالى (لقوم يؤمنون) متعلق بالوصفين على معنى أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بانذاره فيزيدهم خشية الله واتقاء لما يسخطه ، و بتبشيره فيزدادون شكراً له بعبادته و إقامة سننه . وقال بعضهم إنه متعلق بالثانى المتصل به ، و يدل على حذف مقابله فيما قبله . والتقدير : ما أنا إلا نذير للكافرين و بشير للمؤمنين ، ووجهه أن المقام مقام التبليغ ، وهنالك وجه ثالث وهو أن البشارة للمؤمنين خاصة لاتصالها بهم ، والانذار عام لهم ولغيرهم ، وقد عرف وجهه مما فصلناه

وقد ورد فى مثل هذا من حصر وظيفة الرسول بالانذار والتبشير بلفظيهما معاً أو بأحدهما و بلفظ التبليغ الجامع لها آيات كثيرة بعضها بالاثبات بعد النفى كما هنا و بعضها بإنما ، والحصر بكل منهما أقوى النصوص القطعية الدلالة ، ومع هذا التكرار والتوكيد كله يأبى غلاة الإطراء للرسل ولمن دون الرسل من الصالحين حقيقة أو توهما إلا أن يشركوهم مع الله سبحانه وتعالى فى صفات ربوبيته وأفعاله

قال تعالى فى سورة سبأ (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال فى سورتى الاسراء والفرقان (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) وقال فى سورتى الانعام والكهف (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) وقال فى سورة النحل (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) وفى سورة يس حكاية عن الرسل (وما علينا إلا البلاغ المبين) وفى سورتى النور والعنكبوت (وما على الرسول إلا البلاغ المبين)

فان قيل : إن الحصر فى هذه الآيات وأمثالها إضافى فان من وظائف الرسل بيان الوحى والحكم بين الناس كما قال تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) وقال عز وجل (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) والبيان يكون بالأفعال كالأقوال بل الأفعال أقوى دلالة وأعصى على تأويل المحرفين . وكما قد

أمر تعالى بتحكيم رسوله ﷺ والخضوع لحكمه ، أمر بالتأسي به في هديه وسنته (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر)

قلنا : إن هذا لا ينافي الحصر الحقيقي لأن التبليغ لدين الله وشرعه لا يتم إلا بالعمل والحكم به وتنفيذ أحكامه فهو ، داخل في التبليغ و بيان الوحي.

وجملة القول : أن الرسل عليهم الصلاة والسلام عبيد لله تعالى مكرمون ، لا يشاركونه في صفاته ولا في أفعاله ، ولا سلطان لهم على التأثير في علمه ولا في تدبيره ، وهم بشر كسائر الناس لا يمتازون على البشر في خلقهم وصفاتهم وغرائزهم ، و إنما يمتازون باختصاص الله تعالى إياهم بوحيه واصطفائهم لتبليغ رسالاته لعباده ، و بما زكاهم وعصمهم فأهلهم لأن يكونوا أسوة حسنة وقدوة صالحة للناس في العمل بما جاءوا به عن الله تعالى من الصلاح والتقوى ومكارم الأخلاق .

---

(١٨٩) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٩٠) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩١) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩٢) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٣) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ

افتتحت هذه السورة بدعوة القرآن إلى دين التوحيد والأمر باتباع ما أنزل الله . والنهي عن اتباع أولياء من دونه ، وتلاه التذكير بنشأة الانسان الأولى في الخلق والتكوين ، والعداوة بينه و بين الشيطان ، ثم اختتمت بهذه المعاني ، وهو التذكير بالنشأة الأولى والنهي عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان ، والأمر بالتوحيد واتباع القرآن ، قال تعالى

﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ أى خلقكم من جنس واحد أو حقيقة واحدة صورها بشرا سويا ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ سكونا زوجيا، أى جعل لها زوجا من جنسها فكانا زوجين ذكرا وأنثى كما قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) كما أنه خلق من كل جنس وكل نوع من الأحياء زوجين اثنين قال عز وجل (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وإننا نشاهد أن كل خلية من الخلايا التى ينمى بها الجسم الحى تنطوى على نويّتين ذكر وأنثى يقترنان فيولد بينهما خلية أخرى، وهلم جرا، ونعلم أيضا كيف يتكون فى الأرحام كل من الزوجين كما قال تعالى (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى) ولكننا لا ندرى كيف ازدوجت النفس الأولى بعد وحدتها فكانت ذكرا وأنثى، قال تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وفى التوراة التى عند أهل الكتاب أن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم وقد أمرنا نبينا ﷺ أن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم، أى فيما لا نص فيه عندنا لاحتماله، فنحن نعمل بأمره ﷺ فى هذا الخبر، وإن حمل عليه بعض المفسرين وغيرهم حديث « استوصوا بالنساء فان المرأة خلقت من ضلع وإن اعوج شيء فى الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء » رواه الشيخان من حديث أبى هريرة مرفوعا. فان المتبادر منه الذى اعتمده الشراح فى تفسيره ان المراد بخلقها منه أنها ذات اعوجاج وشذوذ تخالف به الرجل كما يشير اليه ما رواه ابن حبان عن أبى هريرة « أن المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو على حد قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) وقال الحافظ فى شرحه من الفتح: قيل فيه إشارة الى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل من ضلعه القصير أخرجه ابن اسحاق وزاد اليسرى من قبل أن يدخل الجنة وجعل مكانه لحم، ومعنى خلقت أى أخرجت كما تخرج النخلة من النواة اه فتأمل جعل الحافظ المسألة من باب الإشارة وحكايته لها بصيغة التضعيف، وماذكره من تفسيرها الغريب بتشبيه خلق الإنسان بخلق النبات، وظاهره أنه لم يطلع على سعة حفظه على قول لمن لم يعتد بأقوالهم من علماء السلف ومحققى الخلف فى المسألة، ونذكر أن الله تعالى خاطب الناس فى عصر

التنزيل بمثل ما حكاه لهم في هذه الآية عن نشأة جنسهم في كونه تعالى خلق لهم أزواجا من أنفسهم فقال في بيان آياته من سورة الروم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهذا المعنى عام لا خاص بالإنسان الأول .

عبر التنزيل عن ميل الزوج الجنسي إلى جنسه هنا وفي سورة الروم بالسكون وذلك أن المرء اذا بلغ سن الحياة الزوجية يجد في نفسه اضطرابا خاصا لا يسكن إلا إذا اقترن بزوج من جنسه واتحدا ذلك الاقتران والاتحاد الذي لا تكمل حياتهما الجنسية المنتجة إلا به ، ولذلك قال بعده ﴿ فلما تغشاها ﴾ الخ الغشاء غطاء الشيء الذي يستره من فوقه ، والغاشية الظلة تظله من سحابة وغيرها (والليل إذا يغشى) أي يحجب الأشياء و يسترها بظلامه ، وتغشاها أتاها كغشيها ويزيد ما تعطيه صيغة التفعل من جهد ، وهو كناية نزيهة عن أداء وظيفة الزوجية تشير الى أن مقتضى الفطرة وأدب الشريعة فيها الستر ولفظ النفس مؤنث فأنث في أول الآية ، ولفظ الزوج يطلق على الذكر والأنثى ولهذا ذكّر هنا فاعل التغشي وأنث مفعوله . أي فلما تغشى الزوج الذي هو الذكر الزوج التي هي الأنثى ﴿ حملت حملا خفيفا ﴾ أي علقت منه وهو الحبل ، والحمل بالفتح يطلق على المصدر وعلى المحمول والمشهور أنه خاص بما كان في بطن أو على شجرة وأن ما حمل على ظهر ونحوه يسمى حملا بكسر الحاء . والحمل هاهنا يحتمل المعنيين ، وهو يكون في أول العهد خفيفا لا تكاد المرأة تشعر به. وقد تستدل عليه بارتفاع حيضتها ﴿ فمرت به ﴾ أي فمضت به الى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق كما قاله الزمخشري أو استمرت في أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استثقال ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي حال وقت ثقل حملها وقرب وضعها ﴿ دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ﴾ أي توجها الى الله تعالى ربهما يدعوانه فيما انحصر همهما فيه بعد تمام الحمل على سلامة بأن يعطيهما ولدا صالحا أي سويا تام الخلق يصلح للقيام بالأعمال البشرية النافعة — ولا ينبغي أن يدعو العبد غير

ربه ، فيما لا يملك هو ولا غيره من العبيد أسبابه ، دعواه مخلصين مقسمين له على ما وطنا عليه أنفسهما من الشكر له على هذه النعمة قائلين لئن أعطيتنا ولداً صالحاً لنكونن من القائمين لك بحق الشكر قولا وعملا واعتقادا واخلاصاً ، كما يدل عليه الوصف المعرف

﴿ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ أى فلما أعطاهما ولدا صالحا لا نقص فى خلقه ، ولا فساد فى تركيبه ،جعلا له شركاء فى إعطائه أو فيما أعطاه بأن كان سبباً لوقوع الشرك منهما أو ظهور ما هو راسخ فى أنفسهما منه ، وستبين معناه وقرأ نافع وأبو بكر (جعلا له شركا) أى شركة أو ذوى شرك ، فالمعنى واحد

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أى تعالى شأنه عن شركهم ، فانه هو معطى النسل بما خلقه لكل من الزوجين من أعضاء ، وقدر لها فى العلوق والوضع من أسباب، لا فعل لغيره فى ذلك ألبتة .وجمع الضمير هنا بعد تثنيته الأفعال قبله لأن المراد فيه بالزوجين الجنس لا فردين معينين . وقال الزمخشرى: ان الضمير فى (آتيتنا) و (لنكونن) لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما .والآية على كل من القولين بيان لحال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفى والجلى فى هذا الشأن وأمثاله، والجنس يصدق ببعض أنواعه و ببعض أفراده

فمثال الشرك الخفى فى انعام الله عليهم بالنسل ما يسندونه إلى الأسباب فى سلامة الحامل من الأمراض فى أثناء الحمل أو فى حالة الوضع ، وفى سلامة الطفل عند الوضع وعقبه، وفيما بعد ذلك من الموت أو التشويه أو الأمراض ، كقولهم : لولا أن فعلنا كذا لكان كذا ، ولولا فلان أو فلانة من طبيب أو مرشد أو قابلة لهلك الولد أو لاجهضت أمه إجهاضا ، أو جاءت بسقط لم يستهل ، أو لمات عقب اسقاطه لعدم استعداده للحياة . و ينسون فى هذه الأحوال فضل الله تعالى عليهم بما من به من العافية والتوفيق وتسخير الأسباب من البشر وغيرهم ، وان كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكروا بها — ذلك شأن كثير من الناس فى كل نعمة تمسهم ، أو نقمة يدفعها الله تعالى عنهم ، وهذا الشرك ليس خروجا من الملة، ولكنه نقص فى شكر المنعم، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب الأولاد على حب الله تعالى وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره ، و إيثارهم لهم على

طاعته والتزام ما شرعه من أحكام الحلال والحرام ، وهو كسابقه نقص فى التوحيد لا نقض له ، وغفلة عنه لا جحد به .

ومثال الشرك الجلى : إسناد هذه النعم إلى غيره تعالى ممن يدعونهم من دونه أو معه من الأولياء والقديسين ، أو الأنبياء والمرسلين ، أو ما يذكر بهم أو يمثلهم من القبور أو الأصنام والتماثيل ، يقولون : لولا سيدى فلان ولولا مولانا علان لما كان كذا مما نحب ، أو لكان كذا وكذا مما نكره ، يعتقدون ان لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيراً غيبياً يستقلون به هو فوق تأثير الأسباب المذكورة عن القسم الأول كما تقدم شرحه مرارا أقربها ما فى تفسير الآية السابقة

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أى وارتفع مجده ، وتعالى جده ، تنزها عن شرك هؤلاء الأغبياء أو عن شركائهم أن يكون لهم تصرف فى خلقه ، أو تأثير فى صفاته وأفعاله

كنت قرأت منذ سنين جل ما قال المفسرون فى تفسير هذه الآيات من كتبهم التى بين أيدينا من مأثور وغيره ، وما أوردوه فيها من الاشكال ، وما لهم فى الجواب عنه والتفصى منه من أقوال ، ولما أردت كتابة تفسيرها الآن لم أجد مما فى ذهنى منه شيئاً مرضياً يطمئن به قلبى ، فتوجهت إلى الله تعالى وفكرت فى معناها الذى يعطيه الأسلوب العربى و ينطبق على سنة الله فى البشر ، وفى بيان كتابه لحقائق أحوالهم ، فكرت فى ذلك قبل النوم وأنا فى فراشى ، ثم كتبت ما تقدم فى آخر النهار ، ثم بحثت فيما عندى من كتب التفسير لأكتب خلاصة ما قيل فيها ، وأنظر فيما عساه يؤيده ، وأجيب عما ربما يفنده ، فاذا أنا بصاحب الانتصاف يقول بعد ذكر ما نقلناه آنفاً من كلة الزمخشرى فى ضميرى الجمع ما نصه : وأسلم من هذين التفسيرين أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين ، وكان المعنى والله أعلم: خلقكم جنساً واحداً وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر الجنس الآخر الذى هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت . وانما نسب هذه المقالة إلى الجنس و إن كان فيهم الموحدون لأن المشركين منهم كقوله تعالى (ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حياً؟)(قتل الإنسان ما أكفره)(إن الانسان لفى خسر) اه

وأما الاشكال الذى أشرنا اليه فهو ماروى عن بعض الصحابة والتابعين وفى حديث مرفوع أيضاً من أن الآية فى آدم وحواء فقد أخرج احمد والترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وغيرهم من حديث سمرة بن جندب مرفوعا قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لايعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحى الشيطان» وهو على كثرة مخرجيه غريب وضعيف كما سيأتى ، وقد جاءت الآثار فى هذا المعنى مفصلة ومطولة وفيها زيادات خرافية ، تشهد عليها بأنها من الدسائس الإسرائيلية ، وهذه الآثار يعدها بعض العلماء من قبيل الأحاديث المرفوعة لأنها لاتقال بالرأى، والذى نعتقده وجرينا عليه فى التفسير أن كل ماهو منها مظنة للاسرائيليات المتلقاة عن مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه فهى لايوثق بها ، فان كانت مع ذلك مشتملة على ماينكره الدين أو العلم الصحيح قطعنا ببطلانها وكونها دسيسة إسرائيلية ، ومنها مانحن فيه لأن فيه طعناً صريحاً فى آدم وحواء عليهما السلام ورمياً لهما بالشرك ، ولذلك رفضها بعض المفسرين وتكلف آخرون فى تأويلها بما تنكره اللغة . وقد اعتمد بعض المتأخرين كصاحب فتح البيان وصاحب روح المعانى الأخذ بحديث سمرة دون آثار الصحابة والتابعين التى فيها ما ليس فيه من رمى آدم بالشرك الصريح ، وظنا أنه حجة ووصفاه تبعاً للترمذى والحاكم بالحسن والصحيح ، وماهو بحسن ولا صحيح ، على أنه لم يرد تفسيراً للآية كتلك الآثار .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب فى الآية لقريش وأن المراد فيها بالنفس الواحدة قصى جدهم ، وأن المراد بجعل زوجها منها أنها قرشية أو عربية لما روى أنها من خزاعة لامن قريش ، وأن المراد بشركهما تسمية أبنائهما الأربعة عبد مناف وعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار — يعنى دار الندوة — وفيه نظر من وجوه ذكرها بعض المفسرين لانضيع الوقت بذكرها . وانما الذى يصح أن يذكر ويبين بطلانه فهو الروايات التى انخدع بها ولايزال ينخدع بها الكثيرون وعمدتنا فى تمحيصها و بيان عللها الحافظ ابن كثير فقد قال فى تفسيره مانصه :

« ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين مافيها ثم نتبع ذلك

ببيان الصحيح فى ذلك إن شاء الله و به الثقة : قال الامام أحمد فى مسنده : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى ﷺ قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ، ورواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن ابراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ورواه الامام أبو محمد بن أبي حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعاً ، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعاً (قلت) وشاذ هو هلال وشاذ لقبه ، والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن عمر بن ابراهيم هذا هو المصرى وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازى لا يحتج به (١) ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا فالله أعلم (الثانى) أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الاعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمى عن عبد الأعلى بن الشخير عن سمرة بن جندب قال : سمى آدم ابنه عبد الحارث (الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه . قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ، وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعد . يعنى جعلا له شركاء فيما آتاهما ، وحدثنا

---

(١) وقال أحمد وابن عدى وابن حبان : إنه يروى عن قتادة أحاديث منكرة لا يوافق عليها ، وقال الدارقطنى : ويترك حديثه وقال البزار ليس بالحافظ

بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا . وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره لاسيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، ألا إننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم .

«فأما الآثار فقال محمد ابن اسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس فقال : إنكما لو سميتماه بغير الذى تسميانه به لعاش ، قال فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث ففيه أنزل الله يقول (هو الذى خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — جعلا له شركاء فيما آتاهما) إلى آخر الآية : وقال العوفى عن ابن عباس قوله فى آدم (هو الذى خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — فمرت به) شكت أحملت أم لا ؟ (فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان مايولد لكما ، أم هل تدريان مايكون أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل إنه غوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سويا ومات كما مات الأول فسميا ولدهما عبدالحارث فذلك قول الله (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما) الآية . وقال عبد الله ابن المبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال : قال الله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها آدم (حملت فأتاها إبليس لعنه الله فقال إنى صاحبكما الذى أخرجكما من الجنة لتطيعانى أو لأجعلن له قرنى أيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن — يخوفهما — فسمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال:

أنا صاحبكما الذى فعلت مافعلت لتفعلن أو لأفعلن ـ يخوفهما ـ فأبيا أن يطيعا فخرج ميتاً ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى (جعلا له شركاء فيما آتاهما) رواه ابن أبى حاتم .

« وقدتلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدى وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة ، وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فان ابن عباس رواه عن أبى بن كعب كما رواه ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد يعنى ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها: أتطيعينى و يسلم لك ولدك سميه عبد الحارث ، فلم تفعل فولدت فمات ، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال : إن تطيعينى يسلم و إلا فانه يكون بهيمة . فهيبهما فأطاعا .

« وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ثم أخبارهم على ثلاثة فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ماعلمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ماهو مسكوت عنه فهو المأذون فى روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج » وهو الذى لا يصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثانى أو الثالث ؟ فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابى أو تابعى فانه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، و إنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله (فتعالى الله عما يشركون) ثم قال : فذكره آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ، ومعلوم أن المصابيح وهى النجوم التى زينت بها السماء

ليست هى التى يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسه ولهذا نظائر فى القرآن والله أعلم . اه سياق ابن كثير . وقد أصاب كنه الحقيقة فى قوله ان هذه الآثار مأخوذة من الاسرائيليات ، ولما كانت طعنا فى عقيدة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام بما تبطله عقائد الإسلام، وجب الجزم ببطلانها وتكذيبهم فيها.

ثم بيّن تعالى سخافة عقولهم وأفن آرائهم بهذا الشرك فقال ﴿ أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾ الاستفهام للانكار والتجهيل ، أى يشركون به سبحانه وتعالى وهو الخالق لهم ولأولادهم، ولكل شىء مالا يخلق شيئا من الأشياء مهما يكن حقيراً ، كقوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) وليس قصارى أمرهم أن الخلق لايقع منهم ، بل هو يقع عليهم ، فهم يُخلقون آنا بعد آن ، ولا يليق بسليم العقل أن يجعل المخلوق العاجز شريكا للخالق القادر ؟ والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الأصنام والتماثيل كافة ، ومنهم مشركو مكة وأمثالهم ممن نزل القرآن فى عهدهم ومن يجىء بعدهم ، فقوله (مالا يخلق شيئاً) يراد به أصنامهم لأن «ما» لما لايعقل ولفظها مفرد وهو من صيغ العموم فأفرد الضمير فى « يخلق » مراعاة للفظ ثم جمع فى «يخلقون» مراعاة المعنى ، وجعله ضمير العقلاء من قبيل الحكاية لاعتقادهم ، والتعبير بفعل المضارع « يخلقون » لتصوير حدوث خلقهم ، وكون مثله مما يتجدد فيهم وفي أمثالهم من المشركين ، وهذا أسوأ فضائحهم فى الشرك

﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أى وهم على كونهم مخلوقين غير خالقين لشىء لايستطيعون لعابديهم نصراً على أعدائهم، ولايستطيعون لأنفسهم نصراً على من يعتدى عليها بإهانة لها ، أوأخذ شىء من طيبها أوحليها، كما قال (وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) أى فهم يحتاجون اليكم فى تكريمهم، وانتم لاتحتاجون إليهم ، بل أنتم الذين تدفعون عنهم وتنصرونهم بالنضال دونهم ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتّبعوكم ﴾ قرأ نافع « لايتْبعوكم » بالتخفيف والباقون بالتشديد أى وإن تدعوهم إلى

ماهو الهدى والرشاد فى نفسه لايتبعوكم ، فلا هم ينفعونكم ولا هم ينتفعون منكم أو المعنى وان تدعوهم إلى إفادتكم لا يستجيبون لكم ﴿ سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ أى مستو عندكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم ، ولعله لم يقل : صمتم ، أو تصمتون ، لأن إشراكهم بهم كان قد وهن بحيث لم يكونوا يدعونهم عند الاضطرار وكوارث الخطوب بل يدعون الله وحده ، وإنما كانوا يتحدثون بتقاليدهم الوثنية فيهم والرجاء بشفاعتهم فى أوقات الرخاء ، التى لايشعر فيها الانسان بالحاجة إلى الدعاء (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ومنه الدعاء بالولد الصالح عند قرب وضع الحامل ، والشرك بعد وجود الولد الصالح ، فالتعبير بالوصف « صامتون » لافادة كون إحداث الدعاء واستصحاب الحال الثابتة قبله واستمرارها سواء ، وهى تصدق بنفى شعورهم بالحاجة إلى دعائهم وعدم خطورهم بالبال عند الشدائد ، والشعور بحاجة المخلوق إلى الرب الخالق ، ولو قال : «أم صمتم» أو «أم أنتم تصمتون» لما كانت المقابلة بين وجود وعدم ، وإيجاب وسلب ، لأنه يصدق بتكلف الصمت وكف النفس عن دعائهم ولو للتجربة مع الشعور بالحاجة إلى الدعاء والأول أبلغ فى المراد من كون وجود هذه الأصنام وعدمها سواء ، ومن كون دعائها مساويا لترك الدعاء ، ولو مع انصراف القلب عنها، ولو كانت وسائل تشفع عند الله وتقرب إليه زلفى كما كان يقول أولو الوثنية الكاسية الحالية ، أو تنفع وتضر بنفسها أو بما أعطاها الله تعالى من التصرف فى الكون باستقلالها كما يعتقد أصحاب الوثنية العارية العاطلة — لكان الاعراض عن دعائها ضارا بهم ، أو مضيعا بعض المنافع عليهم

وقد يظن من أشرك بعض الأولياء مع الله تعالى هذا النوع من الاشراك أن هذا التوبيخ لايوجه إليهم ، وان هذه الحجة لاتقوم عليهم ، لأن أولئك كانوا يدعون جماداً أو شجراً لايعقل ، وهم يدعون أولياء وصلحاء ، لأمواتهم حكم الشهداء فى الحياة ، وهم يقصدون قبورهم ويعظمونها ، لأن لأرواحهم اتصالا بها ، وإنما جاءت هذه التفرقة من جهلهم بأن أكثر هذه الأصنام لم تنصب إلا للتذكير بأناس من الأولياء الصالحين ، كما رواه البخارى عن ابن عباس فى أصنام قوم نوح التى انتقلت

إلى العرب وقد كانت اللات صخرة لرجل يلت عليها السويق ويطعمه الناس . فالأصنام والتماثيل والقبور التي تعظم تعظيما دينياً لم يأذن به الله كلهاسواء في كونها وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصلاح ، وكانوا هم المقصودين بالدعاء لما تخيلوا فيهم من التأثير في إرادة الله ، أو التصرف الغيبي في ملك الله ، وهو أفحش الشرك بالله ، على أنه لافرق في المسألة بين إشراك الصنم والوثن ، و إشراك الولي أو النبي أو الملك فاقرأ الآيات في اتخاذ الولد لله من الملائكة والمسيح في سورة الأنبياء (٢١ :٢٦- ٢٩)

(١٩٤) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٥) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٦) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٧) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٨) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ

هذه الآيات تتمة لما قبلها من آيات التوحيد مقررة ومؤكدة لمضمونها ، لأن توحيد العبادة ونفي الشرك فيها هو أس الاسلام ، ولا يتقرر في الأذهان ، ويثبت في الجنان ، ويكمل بالوجدان ، إلا بتكرار الآيات فيه نفيا و إثباتا لمضمون كلمة (لا إله إلا الله) ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ الدعاء مخ العبادة وركنها الأعظم فلا يصح توحيد أحد لله إلا بدعائه وحده وعدم دعاء أحد معه كما قال (فلا تدعوا مع الله أحداً) والمفسرون يقولون إن الدعاء في مثل هذه الآيات معناه العبادة من باب تسمية الكل باسم الجزء ، فصاروا يفسرون « تدعون » بتعبدون فضلّ بعض العوام من القارئين وغيرهم في هذا التعبير وظنوا أن المرء لا يكون عابداً لغير الله تعالى إلا إذا كان يصلي له الصلاة المعروفة ويصوم لأجله ، وأنه

لا ينافي توحيد الله تعالى أن يدعى غيره معه أو يدعى من دونه بقصد التوسل إليه والاستشفاع لديه ، إذا كان لا يصلى ولا يصوم له ، وقال بعضهم : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، فيكون الإنكار فيه خاصاً بتسميتهم لأصنامهم وغيرهم من معبوداتهم آلهة ، وكل من هذا وذاك ضرب من ضروب الاحتمالات اللفظية التي يتعلق بها من أشرك بالله جاهلا بمعنى الشرك ، ممن يدعون الموتى من الصالحين لدفع الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، من غير طريق الأسباب التي هي من تناول كسبهم وسعيهم ، ولكنهم لا يسمونهم آلهة ، وهذا هو الشرك الأكبر الذي نعى على المشركين من قبلهم لا لمجرد التسمية التي لا تكون بدونه صحيحة .

والحق الذي لا معدل عنه أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع ، الموجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطانا يمكنه به أن يجيبه إلى ما طلبه بذاته أو بحمله للرب الخالق على ذلك بحيث يجيب دعاء الداعي لأجله

يقول تعالى : إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد الله أمثالكم في كونهم مخلوقين لله تعالى خاضعين لسننه في خلقه ، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلا أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لكم فيما يتوقف على التعاون في اتخاذ الأسباب له . وإنما يدعى لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق الربّ الخالق المسخر للأسباب الذي تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها

وهذه المماثلة إنما تظهر فيمن يدعى من دون الله تعالى من الملائكة أو الأنبياء أو الصلحاء ، دون ما اتخذ لهم تذكيراً بهم من التماثيل أو القبور أو الأصنام ، وقد صار بعض هذه المذكرات يقصد لذاته ، جهلا بما كانت اتخذت لأجله ، وفي هذه الحالة تدخل في المماثلة بطريقة تنزيلها منزلة ما وضعت لأجله ، كأنه يقول : إن قصارى أمرها أن تكون من الأحياء العقلاء أمثالكم ، فكيف ترفعونها عن هذه المثلية ، إلى مقام الربوبية ؟

﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ أي إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرون على ما لا تقدرون عليه بقواكم البشرية من نفع أو ضر

بذواتهم فادعوهم فليستجيبوا لكم بأنفسهم ، أو ليحملوا الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ماتطلبون منهم ان كنتم صادقين فى قولكم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقولكم (ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى) ثم بين لهم أنهم أحط رتبة منهم لا أمثالا لهم ، فقال :

﴿ ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها، أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ؟ ﴾ هذا تقريع موجه إلى الوجدان ، فى إثر احتجاج وجه قبله إلى الجنان ، والاستفهام فيه للانكار ، وهو خاص بالاصنام والأوثان ، ومعناه أنهم لفقدهم لجوارح الكسب ، التى يناط بها فى عالم الأسباب النفع والضر ، قد هبطوا عن درجة مماثلتكم من كل وجه ، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضر أو جلب نفع ، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر ، وليس لهم أعين يبصرون بهـا حالكم ، وليس لهم آذان يسمعون بها أقوالكم ، ويعرفون بها مطالبكم ، فأنتم تفضلونهم فى الصفات والقوى التى أودعها الله فى الخلق ، فلماذا ترفعونهم عن مماثلتكم ، وهم بدليل المشاهدة والاختبار دونكم ؟ وها أنتم أولاء تستكبرون عن قبول الهدى والارشاد من الرسول وتعللون ذلك بأنه بشر مثلكم ، فيقول بعضكم لبعض (ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب ممـا تشربون * ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم إذاً لخاسرون) أفتأبون قبول الحق والخير من مثلكم ، وقد فضله الله بالعلم والهدى عليكم ، وهو لا يستذلكم بادعاء أنه ربكم أو إلهكم ، ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الالوهية ، مع انحطاطه وتسفله عن هذه المثلية ؟

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ أى قل أيها الرسول لهؤلاء المرزوئين بعقولهم ، المحتقرين لنعم الله تعالى عليهم ، نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء ، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء ، ثم تعاونوا على كيدى جميعاً ، وأجمعوا مكركم الخفى لايقاع الضرّ بى سريعاً ، فلا تنظرون أى لا تؤخرونى ساعة من نهار ، بعد إحكام المكر الكبّار . وحكمة مطالبتهم بهذا ان العقائد والتقاليد الموروثة تتغلغل فى أعماق الوجدان ، حتى يتضاءل دونها كل برهان ، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على

بطلانها يتوهم أنها تضر وتنفع ، وتقرب من الله وتشفع ، فطالبهم بأمر عملي يستل هـذا الوهم من أعماق قلوبهم ، و يقتلع الشعور به من خبايا صـدورهم ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء نداء استغاثة واستنجاد لإبطال دعوة الداعي إلى الكفر بها ، وإثباته العجز لها ، و بذل الجهد فيما ينسبون إليها من التأثير الباطن ، والتدبير الكامن ، الذي هو عندهم أمر غيبي ، يدخل في معنى الكيد الخفي . فان كان لها شيء ما من السلطان الغيبي في أنفسها أو عند الله تعالى فهذا وقت ظهوره ، فان لم يظهر لإبطال عبادتهـا وتعظيمها ، ونصر عابديها ومعظمي شأنهـا ، فمتى يظهر و ينتفعون به ؟ وهم منكرون للبعث ، وكل مايرجونه أو يخافونه منها فهو خاص بما يكون في هذه الأرض ؟

﴿ ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ هذا تعليل جزمه ﷺ بما ذكر من عجز هذه المعبودات وتحقير أمرها وأمر عابديها على ماكان من ضعفه بمكة عند نزول هذه السورة . يقول ان ناصري ومتولي أمري هو الله الذي نزل عليّ هذا الـكتاب الناطق بوحدانيته في ربوبيته ، و بما يجب من عبادته ودعائه في المهمات والملمات وحده ، وبأن عبادة غيره باطلة ، وان دعاء هـذه الأوثان هزؤ باطل ، وسخف لا يرضاه لنفسه إلا جاهل سافل ، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده ، وهم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة السـالمة من الخرافات والأوهام ، والأعـمال التي تصلح بهـا الأفراد وشؤون الجماعات ، فينصرهم على الخرافيين الفاسـدي العقائد والمفسدين في الأعمال (فأما الزبد فيـذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال)

﴿ والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أي وأما الذين تدعونهم لنصركم ولغـير النصر من منافعكم ودفع الضر عنكم ، فهم عاجزون لا يسـتطيعون أن ينصروكم ، ولا أن ينصروا أنفسهم على من يحقر أمرهم ، أو يسلبهم شيئا مما وضع من الطيب أو الحلي عليهم ، وقد كسر ابراهيم ﷺ الأصـنام فجعلهم جذاذاً فما اسـتطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أن

ينتقموا منه لها . وروى عن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل (رض) وكانا شابين من الانصار قد أسلما لما قدم النبي ﷺ المدينة «انهما كانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطباً للارامل ليعتبر قومهما بذلك ، وكان لعمرو بن الجموح -وكان سيد قومه- صنم يعبده فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة فيجيء فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له : انتصر حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه بحبل فى بئر فلما رآه كذلك علم بطلان عبادته وأسلم وفيه يقول :

تالله لو كنت إلهاً مستدن لم تك والكلب جميعاً فى قرن

وبعد أن نفى قدرتهم على النصر ، قفى عليه بنفى قدرتهم على الارشاد إليه فقال

﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ﴾ أى وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ما تنتصرون به من أسباب خفية أو جلية لا يسمعوا دعاءكم مطلقاً ، فكيف يستجيبون لكم ؟ على انهم لو سمعوا لما استجابوا لعجزهم عن الفعل ، كفقدهم للسمع،

﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ أى وهم فاقدون لحاسة البصر كفقدهم لحاسة السمع ، وتراهم أيها المخاطب ينظرون إليك بما وضعلهم من الأعين الصناعية ، والحدق الزجاجية أو الجوهرية ، وجعلها موجهة إلى الداخل عليها كأنها تنظر إليه ، وهم لا يبصرون بها لأن الابصار لا يحصل بالصناعة ، بل هو من خواص الحياة التى استأثر الله سبحانه بها ، وإذا كانوا لا يسمعون دعاء ولا نداء من عابدهم ولا من غيره ، ولا يبصرون حاله وحال خصمه ، فأنى يرجى منهم نصره وشد أزره ؟ .

وفى الآية وجه آخر ذهب إليه بعضهم وهو أن الخطاب فيها للمؤمنين والرسول فى مقدمتهم بناء على أن الكلام فى الأصنام قد تم فيما قبلها وعاد الكلام فى عابديها ، أى وإن تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الاغبياء من المشركين ، الذين لم يعقلوا هذه الحجج والبراهين ، إلى هدى الله وهو التوحيد والإسلام لا يسمعوا دعوتكم سماع فهم واعتبار ، وتراهم أيها الرسول ينظرون إليك وهم لا يبصرون ما أوتيت من سمت الجلال والوقار ، الذى يميز به صاحب البصيرة بين أولى الجد والعزم ، والصدق فى القول والفعل ، و بين

أهل العبث والهزل . ولقد كان بعض ذوى الفطرة السليمة ينظر إلى النبى ﷺ فيعرف من شمائله وسيماه فى وجهه أنه حر صادق ، غير مخادع ولا مماذق ، فيقول والله ماهذا الوجه وجه كاذب .

ومازال من المعهود بين الناس أن أصحاب البصيرة والفضيلة من الناس يعرف بعضهم بعضاً بذلك من أول العهد بالتلاق بما يتوسمون من ملامح الوجه ومعارفه ثم من موضوع الحديث وتأثيره فى نفس المتكلم والسامع ثم يكمل ذلك بالمعاشرة. كما يعرفون حال الاشرار والمنافقين بذلك (ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) بهذه البصيرة النيرة عرفت السيدة خديجة فضلى عقائل قريش فضائل محمد بن عبد الله قبل بعثته ، فاستمالته وخطبته لنفسها على غناها وفقره ، بعد أن رفضت أناساً من كبراء قريش خطبوها بعد موت زوجها الأول ، ثم كانت أول من جزم برسالته عند ماحدثها بأول مارآه من بدء الوحى وخاف على نفسه منه ، وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول رجل دعاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الإسلام بحسن فراسته فيه فلم يتوقف ولم يتمكث ولم يتريث أن اجاب الدعوة منشرح الصدر قرير العين ، لأنه كان أجدر الناس بمعرفة حقيقتها وحقيقة من دعا إليها . وامثلة هذا كثيرة فى كل زمان . وكان أظهرها فى قرننا هذا تعلق الشيخ محمد عبده بالسيد جمال الدين الأفغانى من أول ليلة رآه فيها ولزامه إلى أن فارق هذه الديار ، فلم يعرفه حق المعرفة غيره على كثرة المكبرين له والمعجبين به ، وقد كان الكثيرون من أهل الأزهر يفرون منه ويصدون عنه ، فأين هم وأين آثارهم فى العلم أو الدين ؟ فبأمثال هذه العبر الواقعة تفهم معنى قوله تعالى (وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون) على الوجه الأخير فى تفسيرها ، لا بمجرد تسمية هذا التعبير استعارة شبه فيها كذا بكذا . ثم اقرأ فى معناه قوله تعالى (١٠ : ٤٢ ومنهم من يستمعون إليك، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر إليك . أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون؟)

---

(١٩٩) خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع ، وهى التى تلى فى

المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد ، الذى تقرر فيما قبلها من الآيات بأبلغ التوكيد ، فقوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ يأمر فيه بثلاثة أشياء هى أصول كلية للقواعد الشرعية والآداب النفسية والأحكام العملية (الأصل الأول) العفو وهو يطلق فى اللغة على خالص الشىء وجيده، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه ، وعلى السهل الذى لا كلفة فيه، وعلى ما يأتى بدون طلب أو بدون احفاء ومبالغة فى الطلب ، وهذه المعانى متقاربة وهى وجودية ، ومن معانيه السلبية إزالة الشىء كعفت الرياح الديار والآثار ، أو إزالة أثره كالعفو عن الذنب وهو منع ما يترتب عليه من العقاب ، فمعانى العفو الوجودية والعدمية أو الموجبة والسالبة كلها إحسان ورفق ، وقد ورد عن مفسرى السلف فى تفسير العفو هنا أقوال كلها ترجع إلى هذه المعانى ، فرواية العوفى عن ابن عباس فى تفسير (خذ العفو) خذ ما عفا لك من أموالهم ـ أى ما فضل وما أتوك به من شىء ـ وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها ، وبذلك قال السدى وزعم أنها نسخت بآية الزكاة ـ وفى رواية الضحاك عنه: أنفق الفضل ، ومثلها عن سعيد بن جبير . وفى عدة روايات عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عمه عبد الله بن الزبير أن معناها خذ العفو من أخلاق الناس ومثله وفى رواية لهشام عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين مثل ذلك، وبه قال مجاهد ، وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن العفو هنا الصفح عن المشركين وكان عشر سنين فنسخ بآية السيف ، وهذا ضعيف لأن العفو بهذا المعنى لا يعبر عنه بالأخذ لأنه أمر عدمى هو بالاعطاء أشبه، ولا بالقبول لأنه لم يطلب . وأحسن الزمخشرى ما شاء فى تصويره معنى العفو بما تعطيه اللغة فقال والعفو ضد الجهد أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، ولا تداقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى ينفروا كقوله ﷺ « يسروا ولا تعسروا » قال :

خذى العفو منى تستديمى مودتى   ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

وقيل خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة . فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعا أو كرها انتهى، وبقيت الآية محكمة فى صدقة التطوع

والمختار عندنا أن العفو يشمل هذا وذاك فالمراد به أن من أصول آداب هذا الدين وقواعد شرعه اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس وقد تقدم تفصيل القول فى ذلك فى تفسير آية الوضوء من سورة المائدة (١) وقد خالف هذه القاعدة الأساسية أهل الفقه المقلوب فجعلوا العسر والحرج من أهم قواعد الدين وأصول الشرع فملا لا تسمية وقد صح فى الأحاديث «أن النبى ﷺ ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما» وترى هؤلاء لا يخير أحدهم بين أمرين إلا اختار أعسرهما ، ولا سيما العسر على الأمة بأسرها ، وأما فتاوى الأفراد فقد قال بعض المصنفين منهم فى المسألة فيها قولان مصححان : نحن مع الدراهم قلة وكثرة !! يعنى فى الفتوى بأحدهما

(الأصل الثانى) الأمر بالعرف وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه بالمعروف وفى اللسان المعروف ضد المنكر والعرف ضد النكر قال: والعرف والعارفة والمعروف واحد ضد النكر، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتبسأ به (٢) وتطمئن اليه (قال) وقد تكرر ذكر المعروف فى الحديث وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان إلى الناس وكل ما ندب اليه ونهى عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات الغالبة أى أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه ، والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم ، والمنكر ضد ذلك جميعه اه

والقول الجامع أن العرب تطلق المعروف على ضد المنكر وعلى ضد المجهول، والمنكر هو المستقبح عند الناس الذى ينفرون منه لقبحه أو ضرره ويذمونه ويذمون أهله . والأمر به فى هذه السورة المكية التى نزلت فى أصول الدين وكليات التشريع يثبت لنا ان العرف أو المعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الاسلامى وهو مبنى على اعتبار عادات الأمة الحسنة وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة فى مصالحها حتى ان كتاب الله عز وجل قد قيد طاعة رسوله ﷺ بالمعروف فى عقد مبايعته ﷺ للنساء قال عز وجل فى سورة الممتحنة (٦٠ : ١٢ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك

---

(١) راجع ص ٢٦٩ ج ٦ تفسير (٢) بسأ به وبسىء : أنس وراتاح

فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) ومن المعلوم أن عقد المبايعة أعظم العقود فى الأمم والدول ، فتقييد طاعة الرسول ﷺ فيه بالمعروف دليل على أن التزام المعروف من أعظم أركان هذا الدين وشرعه ومن المعلوم فى السنة أن مبايعته ﷺ للرجال كانت مبنية على أصل مبايعته للنساء المنصوص فى هذه الآية . وقال ﷺ « إنما الطاعة فى المعروف » وهو فى مواضع من الصحيح

وقد تقدم من هذه السورة (الأعراف) وصف النبى ﷺ فى بشارة التوراة والإنجيل بأنه « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وورد ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما حكاه تعالى من وصية لقمان فى السورة المسماة باسمه وهى مكية كالأعراف ثم تكرر ذكر المعروف فى السور المدنية وأكثرها فى بيان الأحكام الشرعية العملية وذلك فى عشرات من الآيات بعضها فى صفة الأمة الإسلامية وحكومتها وأكثرها فى الأحكام الزوجية والمالية. فمن النوع الأول قوله تعالى فى تعليل الإذن للمسلمين بالقتال من سورة الحج فذكر من صفات المأذون لهم به أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق لأجل توحيد الله تعالى ثم قال (٢٢:٤١ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) ومنه قوله تعالى فى سورة آل عمران (٣ : ١٠٣ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقوله بعدها (١٠٩ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقوله عز وجل فى سورة التوبة (٩:٧١ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية . ثم قوله فى صفاتهم منها (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) فهذه الآيات أصول لا مندوحة للأمة عن التزامها فى آدابها وتشريعها

ومن النوع الثانى وهو ماورد فى الأحكام الفرعية قوله تعالى فى الحقوق الزوجية من سورة البقرة (٢:٢٢٨ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وهذه الآية ركن من أركان الحقوق الزوجية يفضل بها الإسلام جميع الشرائع والقوانين

فى العدل والمصلحة ولم تنل النساء مثله فى أمة من الأمم. ومنها قوله فى أحكام الطلاق (٢٢٩ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقوله بعده (٢٣١ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) — ومثلها فى سورة الطلاق — وقوله بعدها فى المطلقات الرجعيات (٢٣٢ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف) وقوله بعدها فيهن إذا كن مرضعات (٢٣٣ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف — الى قوله فيهن إذا أراد الزوجان الفصال عن تراض منهما وتشاور — وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف) وقوله فى الآية التى بعدها فى معتدات الوفاة (٢٣٤ فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف) وقوله بعد آية أخرى فى المطلقات (٢٣٦ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقوله بعد أربع آيات أخرى (٢٤١ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وكقوله فى معاشرة الأزواج من سورة النساء (٤:١٩ وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) وهنالك آيات أخرى فى العفو عن القصاص وفى الوصية للوالدين والأقربين وفى أكل الوصى من مال اليتيم قيدت بالمعروف

فأنت ترى أن المعروف فى هذه الآيات معتبر فى هذه الأحكام المهمة وأن المعروف فيها هو المعهود بين الناس فى المعاملات والعادات، ومن المعلوم بالضرورة أنه يختلف باختلاف الشعوب والبيوت والبلاد والأوقات، فتحديده وتعيينه باجتهاد بعض الفقهاء بدون مراعاة عرف الناس مخالف لنص كتاب الله تعالى . ولشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من فقهاء الحديث والحنابلة أقوال حكيمة فى المعروف ، منها أنه يجب على كل من الزوجين من أعمال البيت والأسرة ما جرى العرف به ، وأنه إذا كان من المعروف عن بعض البيوت أنهن لا يزوجن بناتهن لمن يتزوج عليهن ويضارهن كان هذا كالشرط فلا يجوز للرجل أن يتزوج على المرأة منهن

فان قلت : إن بعض العلماء قالوا : إن المراد بالعرف والمعروف فى الآيات هو المنصوص فى الشرع ، كقول صاحب لباب التأويل فى قوله (وامر بالعرف): وامر بكل ما أمرك الله به وعرفته بالوحى. فالجواب أن مثل هذا القول مخالف لما

ذكرنا ومالم نذكر من أقوال السلف والخلف ولا يمكن أن يراد من كل آية ولا من مجموع الآيات المتقدمة وما يحتمله منها كآيات الأمر والنهي المدنية لا بدأن يكون اللفظ فيها عاما يشمل المعروف في الشرع وفي العادات والمعاملات ولا يظهر هـذا في آية الاعراف التي هي الأصل الأول لأنها الأولى في الموضوع ، ولم يكن قد نزل قبلها أحكام يفسر بها العرف ويحال عليها فيه — فما قاله صاحب لباب التأويل هو من قشره لا من لبابه،وأول مايرد عليه انه إذا كان المراد من العرف المعروف بالوحي يقال فيه انه لم يكن قبل الأمر به معروفا و بعد الأمر به صار من قبيل تحصيل الحاصل .

نعم إن ما يتقرر بنص الشرع يصير من جملة المعروف الذي هو ضد المجهول كما انه يكون بالضرورة من المعروف الذي هو ضـد المنكر . و يبقى تحكيم العرف والمعروف بالمعنى اللغوي العام معتبراً فيما لا نص فيه بخصوصه والامة فيه عرف غير معارض بنص ، ولا يستقيم نظام الأمة على أساس ثابت إذا كان أمرالعرف والمعروف فيها فوضى وغير مقيدبأصول وأحكام وفضائل ثابتة ،فلابدمن شيء ثابت وهو مالايختلف فيه المصالح والمنافع باختلاف الزمان والمـكان وأحوال المعيشة ، ولا بد من شيء يحكم فيه العرف وهو ما يقابله ، ولذلك جاء الشرع الحـكيم بهما معاً ، ولا يضر مع هذا اختلاف الناس فيما يعرفون و ينكرون فليكن المعروف كما قال الجصاص من أئمة الحنفية :مايستحسن في العقل فعلهولاتنكرهالعقول الصحيحة فيكفي المسلمين المحافظة على النصوص الثابتةإذ لا يمكن أن يستنكر المؤمن ماجاء عن الله ورسوله نصاً حتما لا اجتهـاد فيه ، وليكن للجماعة بعده رأي فيما يعرفون و ينكرون ، و يستحسنون و يستهجنون ، يكون عمدتهم فيه جمهور العقلاء والعلماء وأهل الأدب والفضيلة في كل عصر .

(الأمر الثالث) الاعراض عن الجاهلين وهم السفهاء بترك معاشرتهـم وعدم ممـاراتهم ، ولا علاج أوقى لاذاهم من الاعراض عنهم ، وشرهم في هذا العصر مرتزقة صحف الأخبار المنشرة ، فان سفهاءها هم شر من سفهاء الشعراء في العصور السابقة ، وقد قل سفه الشعراء في عصرنا هذا فلا أعرف لشاعر مشهور

من القذع والبذاء فى الهجو شيئاً مما نعهد فى الصحف التى يعبرون عنهابالساقطة ، وكم من صحيفة قائمة ناهضة بالثروة ،شر من ساقطة بالقلة . وإنما يجب الاعراض عن السفهاء لأنهم لا يطلبون الحق إذا فقدوه ، ولا يأخذون فيما يخالف أهواءهم إذا وجدوه ، ولا يرعون عهداً ، ولا يحفظون وداً ، ولا يشكرون من النعمة إلا ما اتصل مدده ، فاذا انقطع عاد الشكر كفراً ، واستحال المدح ذما

أكثر ما كتب المفسرون فى هذه الآية مادلت عليه من الآداب ، وأقله ما اشتملت عليه من أصول الأحكام ، وروى عن جدنا الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ، ووجهوه بأن الأخلاق ثلاثة بحسب القوى الانسانية ، عقلية وشهوية وغضبية ، فالعقلية الحكمة ومنها الأمر بالمعروف ،والشهوية العفةومنها أخذ العفو، والغضبيه الشجاعة ومنها الإعراض عن الجاهلين . وروى الطبرى مرسلا وابن مردويه موصولا من حديث جابر وغيره لما نزلت (خذ العفو وأمر بالعرف) سأل النبي ﷺ جبريل عنها فقال « لا أعلم حتى أسأل ثم رجع فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » اه من فتح البارى ومراد الامام أعلى وأشمل من ذلك وفهمه أبعدوأوسع من فهم من عللهأوفسره كما علمت من تفسيرها فى الجملة

وذكر ابن كثيرأن بعض الحكماءأخذ هذا المعنى فسبكه فى بيتين فيهماجناس فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين

ولن فى الكلام لكل الأنام فمستحسن من ذوى الجاه لين

وقال القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكام القرآن : قال علماؤنا هذه الآية من ثلاث كلمات ، قد تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات ، حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوعتها ، ولا فضيلة إلا شرحتها ، ولا أكرومة إلا افتتحتها ، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الاسلام الثلاثة : فقوله (خذالعفو) تولى بالبيان جانب اللين ،ونفى الحرج فى الأخذ والاعطاء والتكليف، وقوله (وأمر بالعرف) تناول جميع المأمورات والمنهيات ، وأنهما ماعرف حكمه ، واستقر فى الشريعة موضعه ، واتفقت القلوب على علمه ، وقوله (وأعرض عن الجاهلين) تناول

جانب الصفح بالصبر الذى يتأتى للعبد به كل مراد فى نفسه وغيره . ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان أسفاراً . اهـ ومن مباحث البلاغة فى الآية أن ماجمعته هذه الكلمات الثلاث من المعانى العالية هو من إعجاز إيجاز القرآن ، الذى لا مطمع فى مثله لانس ولا جان . والله أعلم

(٢٠٠) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ مِنَ الشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)

بين الله تعالى فى الآية التى قبل هذه الآيات أفضل مايعامل البشر به بعضهم بعضا من الوصايا الثلاث التى لا يمكن شرح التعامل بها تفصيلا إلا بسفر كبير ، ولو عمل الناس بهذه الوصايا لصلحت أحوالهم ولم يجد الفساد اليهم سبيلا — ثم قفى عليها بهذه الثلاث الآيات فى الوصية باتقاء إفساد الشيطان أى جنسه لجنس البشر ، والمراد هنا شياطين الجن المستترة ، فالتناسب القريب بينهن و بين ماقبلهن المقابلة بين معاملة البشر ومعاملة الجنّ ، ومن فروعه التناسب بين الجاهلين أى السفهاء الذين أمرت الآية السابقة بالاعراض عنهم اتقاء لشرهم ، و بين الشياطين التى أمرت هذه الآيات بالاستعاذة بالله منهم اتقاء لشرهم ، و بعبارة أخرى: اتقاء شر شياطين الانس وشياطين الجن ، فان الشيطان هو الشرير المفسد من الفريقين كما تقدم فى سورة الأنعام ، ومن فسر آيات (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) الخ بما مر من أن شرك الابوين فيما أتاهما الله من الولد الصالح كان باغواء الشيطان يرجعون اليه فى التناسب بين الآيات ، ويقولون إن الآية بينت لنا أن وسوسة الشيطان لأبوينا كانت سبب ماوقع لهما من الشرك فيما آتاهما من الولد — والأولى ارجاع التناسب فى هذه المسألة إلى مابين فى أوائل السورة من خلق آدم وحواء ووسوسة الشيطان لهما — وما بين فى خواتيمها من الارشاد إلى اتقاء نزغ الشيطان ومسه وهو ما أشرنا اليه فى بدء سياق هذه الخاتمة

قوله تعالى ﴿ وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ قال الراغب النزغ دخول في أمر لإفساده : واستشهد له بقول يوسف عليه السلام (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) وفي الأساس : نزغه مثل نسغه إذا طعنه ونخسه . ومن المجاز : نزغه الشيطان ـ كأنه ينخسه ليحثه على المعاصي . ونزغ بين الناس ـ أفسد بينهم بالحث على الشر اه فالنزغ كالنسغ والنخس والنخز والنغز والنكز والوكز والهمز ألفاظ متقاربة المعنى، وأصله إصابة الجسد برأس شيء محدد كالابرة والمهماز والرمح أو مايشبه المحدد كالاصبع، والمراد من نزغ الشيطان إثارته داعية الشر والفساد في النفس بداعية غضب أو شهوة حيوانية أو معنوية بحيث تقحم صاحبها إلى العمل بتأثيرها كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع وغلب استعماله في الشر فقط، وإنما قال (ينزغنك نزغ) والمراد نازغ لأن اسناد الفعل إلى المصدر أبلغ ، والشيطان تقدم الكلام فيه وفي الجن مراراً أوسعها ماورد في تفسير قوله تعالى (٦ : ٦٨ وإما ينسينك الشيطان) الآية [1] وتفسير قوله تعالى (٦ : ٧١ كالذي استهوته الشياطين في الأرض) الآية [2] وكلتاهما من سورة الانعام وتفسير قصة آدم من هذه السورة والذي يناسب منها ماهنا وهو إغواء الناس بالوسوسة قوله تعالى حكاية عن الشيطان (٧ : ١٥ قال فبما أغويتني) الخ [3] وقوله تعالى (٧ : ٢٦ يابني آدم لايفتننكم الشيطان) الخ [4]

وملخص مايجب اعتقاده انه ثبت في وحي الله تعالى إلى رسله أن في عالم الغيب خلقاً خفياً اسمه الشيطان لاتدركه حواسنا له أثر في أنفسنا فهو يتصل بها ويقوي داعية الشر فيها بما سماه الوحي وسواساً ونزغاً ومسا ، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وقد شبهنا تأثير هذه الشياطين الخفية في الأرواح بتأثير النسم الخفية المادية المسماة بالمكتيريا و بالميكروبات في الأجساد، فقد مرت القرون التي لايحصيها إلا رب العالمين والناس يجهلون هذه النسم الخفية ويجهلون فعلها لعجز الأبصار عن ادراكها بنفسها وعن رؤية فعلها لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر الى أن اخترعت في هذا العصر المرايا أو النظارات المكبرة التي ترى الجسم أضعاف

(١) راجع ص ٥٠٧ — ٥١٦ ج ٧ تفسير (٢) ص ٥٢٤ ـ ٥٦٩ منه

(٣) راجع ص ٣٣٧ ـ ٣٤٤ ج ٨ تفسير (٤) ص ٣٦١ ـ ٣٧٢ ـ منه

أضعاف جرمه فيها رؤيت وعلم مايحدث بسببها فى المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة من التحول والتغيير كالاختمار والفساد وغيرها ومن الأمراض المعدية فى الانسان والحيوان كما فصلناه من قبل .

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على ألسنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبى المعادى لنا الضار بأرواحنا كضرر نسم الأمراض بأجسادنا أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نغفل عنها ، كما نراقب ما يحدث فى أجسادنا من تغير فى المزاج ، وخروج الصحة من الاعتدال ، فنبادر إلى علاجه — فمتى فطنا بميل من أنفسنا إلى الشر أو الباطل عالجناه بما وصفه الله تعالى لنا من العلاج فى هذه الآية وهو قوله عز وجل

﴿ فاستعذ بالله انه سميع عليم ﴾ أى فالجأ إلى الله وتوجه إليه ليعيذك من شر هذا النزغ ، فلا يحملنك على مانزعجك إليه من الشر ، الجأ إلى الله بقلبك ، وعبر عن ذلك بلسانك ، فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه تعالى سميع لما تقول عليم بما تتوجه إليه ، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر . ومن المجرب ان الالتجاء إلى الله تعالى وذكره بالقلب واللسان ، يصرف عن القلب وسوسة الشيطان ، (١٦ : ٩٨ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ٩٩ انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) الخ .

والخطاب فى هذه الآية وأمثالها من آيات التشريع والتأديب موجه إلى كل مكلف يبلغه وأولهم الرسول ﷺ ، ومن المفسرين من يقول انه هنا للنبى ﷺ والمراد أمته . وقد تقدم الخلاف فى ذلك فى تفسير (٦ : ٦٨ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان) الآية فقد اختلف مفسروها فى ترجيح توجيه الخطاب فيها . وذكرنا هنالك آية الأعراف هذه وأن ظاهر السياق فيها أن الخطاب للنبى ﷺ وإن كان يأتى فيه الوجوه الأخرى فى مثلها ، ولكن نزغ الشيطان أقوى من انسائه ومن مسه المبين فى الآية التالية فالمختار عندى الآن عصمته ﷺ منه وذكرت فى الكلام هنالك حديث عائشة وابن مسعود فى صحيح مسلم « ما منكم أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن . قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال : وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم » وهو سياق طويل براجع هنالك .

وقد ورد فى سورة حم السجدة (فصلت) مثل هذه الآية بعد آية فى معنى قوله (وأعرض عن الجاهلين) فى آخر الآية التى قبلها ، ولكن بتعريف (السميع العليم) وقال صاحب الدرة فى الفرق بينهما مانصه :

قوله تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم) وقال فى سورة حم السجدة (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) للسائل أن يسأل فيقول : لأى معنى جاء فى الآية من سورة الاعراف سميع عليم على لفظ النكرة وفى سورة حم السجدة معرفتين بالألف واللام مؤكدتين بهو ؟ (والجواب) أن يقال : إن الأول وقع فى فاصلة ما قبلها من الفواصل أفعال جماعة أو أسماء مأخوذة من الأفعال من نحو قوله (فتعالى الله عما يشركون) وبعده يخلقون ، وينصرون ، ويبصرون ، والجاهلين ، فأخرجت هذه الفاصلة بأقرب ألفاظ الأسماء المؤدية معنى الفعل أعنى النكرة ، وكأن المعنى استعذ بالله انه يسمع استعاذتك ويعلم استجارتك ، والتى فى سورة حم السجدة قبلها فواصل يسلك بها طريق الاسماء وهى ما فى قوله تعالى (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) فقوله (ولى حميم) ليس من الأسماء التى يراد بها الأفعال وكذلك قوله (انه لذو حظ عظيم) ليس فى الحظ معنى فعل ، فأخرج (سميع عليم) بعد الفواصل التى هى على سنن الأسماء على لفظ يبعد عن اللفظ الذى يؤدى معنى الفعل ، فكأنه قال انه هو الذى لايخفى عليه مسموع ولا معلوم . فليس القصد الاخبار عن الفعل كما كان فى الأولى أنه يسمع الدعاء ويعلم الاخلاص ، فهذا فرق مابين المكانين اه فتأمله فانه دقيق جداً . ثم بين تعالى وجه سلامة من يستعيذ من وسوسة الشيطان لازالة جهل من لم يعلمه أو من لم يفقهه فقال :

﴿ ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾

الطوف والطواف والطيف بالشىء الاستدارة به أو حوله ، فهو واوى يائى يقال طاف يطوف ويطيف بالشىء (كقال وباع) وطاف الخيال يطيف طيفاً : جاء فى النوم ، وطيف الخيال مايرى فى النوم من مثال الشخص وأصله طيف بالتشديد فهو كميت

وميت ، وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى ويعقوب هنا « إذا مسهم طيف » والباقون « إذا مسهم طائف » والمعنى واحد، ورسمه فى المصحف الامام (طف) كرسم (ملك) فى سورة الفاتحة فتؤدّى قراءة وزن فاعل من الكلمتين بعد الحرف الأول . والمس فى أصل اللغة كاللمس ومما يفترقان فيه أن المس يقال فى كل ماينال الانسان من شر وأذى بخلاف اللمس ، فقد ذكر فى التنزيل مس الضر والضراء والبأساء والسوء والشر والعذاب والكبر والقرح واللغوب والشيطان وطائف الشيطان ، ولم يذكر فيه مس الخير والنفع إلا فى قوله فى سورة المعارج (إن الانسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين) فقد ذكر الخير هنا فى مقابلة الشر ولكن المقام مقام منع الخير لافعله ، واستعمل المس والمسيس بمعنى الوقاع وهو مجاز مشهور كاستعماله فى الجنون مجازا

ومعنى الآية « إن الذين اتقوا » وهم خيار المؤمنين الذين وصفوا فى أول سورة البقرة « إذا مسهم » أى ألمّ أو اتصل بهم طيف أو « طائف من الشيطان » ليحملهم بوسوسته على المعصية ، أو ينزغ بينهم لايقاع البغضاء والتفرقة « تذكروا » أن هذا من عدوهم الشيطان وإغوائه ، وما أمر الله تعالى به فى هذه الحال من الاستعاذة به والالتجاء إليه فى الحفظ منه ، وقال بعضهم: تذكروا ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، وقال آخرون : تذكروا عقاب الله لمن أطاع الشيطان وعصى الرحمن ، وجزيل ثوابه لمن عصى الشيطان وأطاع الرحمن ، وقال بعضهم : تذكروا وعده ووعيده ـ ومآل الأقوال كلها واحد، وهو يعمها ـ كما تفيده قاعدة حذف المفعول ـ « فإذاهم مبصرون » أى فإذاهم أولو بصيرة وعلم ربأ بأنفسهم أن تطيع الشيطان ، فهو إنما تأخذ وسوسته الغافلين عن أنفسهم لايحاسبونها على خواطرها ، الغافلين عن ربهم لايراقبونه فى أهوائها وأعمالها ، ولاشىء أقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى بالقلب ، ومراقبته فى السر والجهر ، فذكر الله تعالى بأى نوع من أنواعه يقوى فى النفس حب الحق ودواعى الخير ، ويضعف فيها الميل إلى الباطل والشر ، حتى لا يكون للشيطان مدخل إليها ، فهو إنما يزين لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأىّ نوع منها . فان وجد بالغفلة مدخلا إلى قلب المؤمن المتقى لا يلبث أن يشعر به لأنه غريب

عن نفسه ، ومتى شعر ذكر فأبصر فخنس الشيطان وابتعد عنه وإن أصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب

فمثل المؤمن المتقى فى عدم تمكن الشيطان من إغوائه وإن تمكن من مسه كمثل المرء الصحيح المزاج القوى الجسم النظيف الثوب والبدن والمكان لا تجد جنة الأمراض المفسدة للصحة استعداداً لإفساد مزاجه و إصابته بالأمراض فهى تظل بعيدة عنه فان مسه شىء منها بدخوله فى معدته أو دمه فتكت بها نسم الصحة والعافية فحالت دون فتكها به ــ وهو مايسمى فى عرف الطب المناعة ــ وكذلك يكون قوى الروح بالإيمان والتقوى غير مستعد لتأثير الشيطان فى نفسه ، فهو يطوف بها يراقب غفلتها وعروض بعض الأهواء النفسية لها من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، فمتى عرضت افترصها ، فلابس النفس وقواها فيها ، كما تلابس الحشرات القذرة أو جنة الأمراض الخفية مايعرض من القذر للنظيف والضعف للقوى ، فاذا أهملها بالغفلة عنها فعلت فعلها ، و إذا تداركها نجا من ضررها ويحسن أن يعبر عن هذا بالحصانة ، فيقال : مناعة جسدية وحصانة نفسية أو روحية .

ذكرنا فى الكلام على الشيطان من أوائل سورة البقرة أن الانسان يشعر بقدر علمه بتنازع دواعى الخير والشر والحق والباطل فى نفسه ، وأن الداعية الحق والخير ملكا يقويها ، ولداعية الباطل والشر شيطانا يقويها ، وأن النبي ﷺ بين هذا بقوله « إن للشيطان لَمَّة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لَمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك . ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) رواه الترمذى والنسائى فى الكبير وابن حبان عن ابن مسعود وعلم عليه السيوطى فى الجامع الصغير بالصحة ، ولكن الترمذى قال حسن غريب لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبى الأحوص .

وذكرنا هنالك بعض كلام الامام الغزالى فى هذا المقام وله فيه تفصيل حسن طويل فى كتاب شرح عجائب القلب وغيره من الأحياء وللمحقق ابن القيم كتاب خاص فى ذلك اسمه (إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان) فمن قرأ أمثال هذه الكتب ، كان من وسوسة الشيطان على حذر

وما زال الصالحون المتقون يراقبون خواطرهم ويجاهدون الوسواس الذى يلم بها ، ولهم حكايات فى ذلك غريبة . حدثنى الشيخ عبد الغني الرافعى الفقيه الصوفى أنه دخل فى أيام سلوكه وهو فى ميعة شبابه بستانا فى طرابلس يعمل فيه نساء من نصارى لبنان فاذا بشابة جميلة منهن فى مكان خلو فنزغ الشيطان بينه و بينها حتى همّ بمباشرتها فتذكر قوله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) فتردد وانكمش ثم ساورته ثورة الغلمة تهون له الأمر ، ولج به الوسواس : هلمّ هلم ، فقوى سلطان الآية فى قلبه حتى صار قلبه يتلو بصوت يسمعه بأذنيه (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) قال فجعلت أقول بيدى فوق صدرى هكذا — يعنى يمسحه كمن ينحى عنه شيئا — أحاول أسكت قلبى فلم أستطع إسكاته ، فتوليت عن المرأة وحفظنى الله بذكر الآية من الفاحشة ولله الحمد

وأقول : تحدثاً بنعمة الله تعالى ان الشيطان لم يبلغ مني غرة يدعونى فيها إلى الفاحشة قط ، فما ذكرته فى مقصورتى فى سياق حادثة امتحان امتحننى الله تعالى بها قد استمر بفضل الله تعالى من سن الشباب إلى سن الشيخوخة وأسأله بفضله حسن الخاتمة . وذلك قولى فى فتاة بارعة الجمال طلبت منى أن أضع يدى على صدرها أرقيه

ورب ملداء خميصة الحشا　　بهنانة ترنو بألحاظ اللأى
رقراقة شف زجاج وجهها　　عن ذوب ياقوت وراءه جرى
خاشعة اللحاظ والطرف أتت　　تلتمس الدعاء منى والرُّقى
أواه يامولاى صدرى ضاق عن　　قلبى ومايفيض عنه من جوى
فضع عليه يدك التى بها　　بارك فيها الله تبرىء الضنى
أنت فتى خاف مقام ربه　　مازال ينهى نفسه عن الهوى
لم يقترف فاحشة قطُّ ولم　　يعزم ولا هم بها ولا نوى
بغرة منها وحسن نية　　فى ممزل تشهيه أقصى مااشتهى
مما عنيه به شيطانه　　من حيث لا يطمع منه فى خنا
لكنه استعصم راويا لها　　ما أمر الله به وما نهى

(وما أبرىء نفسى) مما دون كبائر الاثم والفواحش وهو اللمم (إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم) ولا أعد من اللمم حضور المراقص النسائية وملاهيها ، فأحمد الله تعالى أن نفسى لم تطالبنى بحضورها يوماما، ولم يجد شيطان الجن من نفسى ميلا اليها فيزينها لى بوسوسته، ولكن دعانى اليها بعض شياطين الإنس لأجل اختبارها . والنهى عنها على معرفة فأبيت وقلت للداعى حسبك من شر سماعه ، على أننى رأيت نموذجا من أهونها عرضاً لا قصداً اليها، وذلك فى بعض ملاهى تمثيل القصص التاريخية أو الوصفية فى ليلة خيرية ، ولم أكن أعلم باستحداث ذلك فيها ، وأحمد الله تعالى أننى مقتها على غرابة الصنعة والزينة فيها، وخرجت من المكان وآليت أن لاأعود اليه، فقد صارت هذه الأماكن بؤر فساد ، وكان فيها شيء من الأدب والعبرة وتمرين العوام على اللغة العربية الصحيحة التى تقرب من الفصيحة فى الجملة ، ولم يكن يرى الناس فيها من منكرات الزى أكثر مما يرى فى الأسواق والشوارع ، فأصبحت كالخمر إثمها أكبر من نفعها.

قد يقول من يظنون أن يوسف الصديق عليه السلام هم بالفاحشة : إنك قد فضلت نفسك عليه بزعمك أنك لم تهم وهو قد هم، وأقول : انه اختلفت الحال والداعية فانه عليه السلام لم يهم بالفاحشة ، وإنما همت امرأة العزيز وهم هو بالانتقام ، وهو بطشها به بالقتل أو الضرب ، ودفاعه عن نفسه بالفعل ، وهذا هو المعتاد فى مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشرى وشواهده تقع دائما ، والعبارة تدل عليه دون الأول ، فانه لايقال همّ بالشخص فى مقام الخلاف والمغاضبة إلا إذا أريد الهم بالضرب أو ماهو مثله أو فوقه من الايذاء ، ولا يقال ان المرأة همت بالرجل بالمعنى الآخر لأن الهم يتعلق بالعمل دون الشخص ، وهى فى المباشرة مواتية لاعمل لها وما استبقا الباب إلا وهو فار من ثورة غضبها وهى مواثبة له تريد البطش به لاهانته إياها بمخالفتها وهو غلامها ، بعد أن ابتذلت نفسها ببذلها له . وما معنى قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) إلا عصمته من البطش بها دفاعا عن نفسه وهو السوء ، وعصمته مما دعته اليه وهو الفحشاء ، ولولا الروايات الاسرائيلية فى القصة لما خطر ببال المفسرين الراسخين فى ذوق اللغة العربية غير

هذا المعنى ، وكم لفتتهم تلك الروايات عما هو أوضح منها ، فتأولوا وتكلفوا لتصحيح حمل الكلام عليها ؟ وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه

الشيطان يزين لكل أحد من الناس ما هو مستعد له وقريب من أخلاقه وآرائه التى تربى عليها ، ومناسب لحاله وشعوره الذى يكون غالبا عليه ، فإذا أراد الصلاة فى الليل وهو فى حال نعاس أو فتور زين له النوم وترك الصلاة إلى وقت اليقظة والنشاط لأجل إقامتها كما يرضى الله تعالى ؟؟ فاذا خالفه وشرع فى الصلاة زين له بوسوسته العجلة والاختصار وقراءة السور القصار ، أو قراءة السورة من متوسط المفصل فى ركعتين أو أكثر ، وإذا وجد منه جداً ونشاطا فيها فقد يزين له المبالغة فى التطويل ليسرع إليه الملل ، و «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» كما رواه الشيخان فى صحيحيهما من حديث عائشة . وإذا كانت تربيته الدينية منفرة من الكبائر ، أغراه بمقدماتها ووسائلها من الصغائر ، وربما أفتاه بقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدخلا كريما) وليس المراد بهذا أن يحتقر الانسان الصغائر ويتعمدها ويواظب عليها كالمستحل لها ، فان مثل هذا قلما يسلم من التدرج منها إلى الكبائر . ولكن المراد به اللمم وهو ما يلم به المرء إذا ما عرض له ولا يتعمق فيه ولا يصر عليه ، بل يلوم نفسه عليه ويتوب منه ، (وقد بينت هذا المعنى فى الكلام على التوبة من تفسير سورة النساء ــ ج ٤) فاذا تاب تنتقل نفسه به من دركة (النفس الامارة بالسوء) إلى درجة (النفس اللوامة) ولا يزال يجاهدها فى مثله إلى أن يرتقى الى درجة (النفس المطمئنة) فاذا هو أطاع النفس الأمارة بالسوء فانها تهبط به الى دركة الفحش والفجور ، وربما تهوى به الى استحلال المعاصى وهو من الكفر ، كمن يدمن النظر بشهوة الى بعض الحسان فينتقل من النظر الى المغازلة ، ومن المغازلة الى المهازلة ، ومن المهازلة الى الملاعبة والمباعلة ، ومنها الى المفاعلة . قال الشاعر العربى :

فلما رأتنى رأرأت ثم أقبلت تهازلنى والهزل داعية العهر

وقال شاعر مصر فى التنقل من كل حالة الى ما بعدها :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وقد استفتانى شاب مصرى افتتن بفتاة شغفته حباً فكان يخلو بها ـ لما فى مصر فى هذا العهد من إباحة ذلك عند الكثيرين ـ فيتداعبان حتى يخشى على نفسه الفضيحة الكبرى ، ثم يتفارقان فيندم و يتوب ، و يعزم أن لا يعود ، حتى إذا مازارته نقض العزم، ثم يفارقها فيبرمه و يؤكده باليمين ، ثم تغلبه على أمره فينكث ما أبرم ، و يحنث بما أقسم ، حتى قال أخيراً : لئن عدت لأ كونن بريئاً من دين الاسلام ، ولكنه عاد مغلوبا على أمره ، لا يملك تجاه سحر فاتنته شيئاً من قوة ارادته ، فعظم هذا الحنث العظيم عليه ، وجاءنى مستفتياً فيما وقع فيه وما يجب عليه، فوعظته وأرشدته بما ألهمنى الله تعالى ولم يعد إلى بعد ذلك ، فلا أدرى كيف انتهت فتنته ، وقد حدث هذا منذ بضع عشرة سنة هبطت بها البلاد المصرية إلى الدركات السفلى من الاباحة

الراجح أن هذا الشاب من أحد البيوت التى لا تزال فيها بقية من التربية الدينية ، وأخلاق العفة والحياء الموروثة ، وهذه التربية وهذه الأخلاق التى كان بها الشعب ذا وجود ممتاز مستقل فى نفسه ، فطفق دعاة الالحاد والزندقة و إباحة الشهوات يهدمونها باسم التجديد المدنى ، والتقليد الأوربى ، ومنه وجوب السفور الذى يعنون به إباحة اختلاط النساء بالرجال ، ومعاشرة الفتيان للفتيات بحجة التمهيد للزواج عن تعارف وحب واختبار ... وقد تفاقمت استباحة التهتك والفجور فى هذه السنين إلى حد ينذر بهلاك هذه الأمة ، فالنساء يرقصن مع الرجال كاسيات عاريات ، و يسبحن معهن فى شواطىء البحار، وقلما تعاشر الفتاة العذراء شابا ، ولو بقصد الزواج عن تعارف وحب واختيار ، إلا و ينتهى هذا الاختبار بفضيحة الافتراع ، ثم لا يكون الزواج مضمونا ، و إذا وقع لا يكون الوفاق غالباً ، ولا حب شهوة الصبا دائما ، بل يصير الاختيار لكل منهما عادة من العادات ، والتنقل من حبيب إلى آخر من أفتن اللذات ، وان الله يبغض الذواقين والذواقات

وقد استفتانى رجل فى امرأة مسلمة متزوجة تختلف إلى بيت رجل غير مسلم ولا وطنى تزوره بعد العصر فى شهر رمضان ثلاثة أيام فى الاسبوع ، فتمكث معه الى قرب المغرب : هل يجوز له أو يجب عليه ايذان بعلها بذلك ، وذكر ان سبب افتتان هذه المرأة الخبيثة بهذا الرجل الخبيث أنها عرفته عاملا فى صيدلية

قصدتها مرة لشراء دواء منها فتصباها حتى صارت تختلف الى الصيدليـة لأدنى حاجة ثم لغير حاجة الخ

فسدت العقائد والأخلاق وتركت العبادات ، وأبيحت الأعراض واستبيحت المحرمات ، وعبد الشيطان فى معصية الرحمن ، وتوجد جمعيات من الرجال ومن النساء يزينون للناس كل هذه الفضائح والقبائح باسم التجديد والتمدن ، ولهم جرائد تنشر دعاية الإلحاد والزندقة ، والإباحة المطلقة ، إلا من بعض قيود قانون العقوبات فى الظاهر دون الباطن . وإذا أنذرهم منذر ، وحذرهم من طاعة الشيطان محذر ، قالوا : وما الشيطان ؟ وما الدليل على وجود الشيطان ؟ فان قلت لهم : إن أطباء الأرواح وأساة أمراض الاجتماع ، قد حذرونا بأمر الله خالق ما يرى وما لا يرى من نزغ الشيطان وتزيينه للفسوق والعصيان ، كما يحذرنا أطباء الأجساد من « ميكروبات » الأمراض فهل من مقتضى العقل أن نرد كلام هؤلاء الأطباء بحجة أننا لم نر تلك الميكروبات المرضية ، وأن لا نقبل كلامهم ولا نستعمل أدويتهم إلا بعد رؤية ما رأوا ، واختبار ما اختبروا ؟ ألم يقم الدليل على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام فى التبليغ عن وحى الله عز وجل ؟ بلى وقد ثبت بالتجربة والاختبار أن من اتبعوهم صحت عقائدهم واستقامت أخلاقهم ، وصلحت أعمالهم ، وحفظت صحتهم وأعراضهم وأموالهم ، فتجربة معالجتهم لأمراض الأنفس والأرواح ، أثبت من تجربة معالجة الأطباء لأمراض الأجساد . وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار أيضاً أن هؤلاء الماديين المنكرين لوجود الشياطين هم أشد فساداً وإفساداً ومنهم : سكيرون مقامرون ، زناة لوطيون ، كذابون منافقون ، مرتشون سراقون (وكذلك جعلنا لـكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون * ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون)

وفى مثل هؤلاء يقول الله تعالى فى هذا السياق ﴿ وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ﴾ الغى الفساد . والمد والإمداد الزيادة فى الشىء من جنسه . وقد قرأ نافع يمدونهم بضم الياء وكسر الميم من الإمداد والجمهور بفتح الياء وضم

الميم من المدّ وقرىء فى الشواذ يمادّونهم بصيغة المشاركة ، والمد المستعمل فى القرآن فى الخلق والتكوين كقوله تعالى (وهو الذى مدّ الأرض) (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) (والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) وفى مد الناس فيما ينمو ويضر كقوله (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) (ونمد له من العذاب مدا)(ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) وأما الامداد فيما يحمد وينفع كقوله تعالى (أمدكم بأنعام وبنين) (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) (كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) ومنه إمداد النبي ﷺ والمؤمنين بالملائكة يثبتون قلوبهم فى غزوة بدر ، وحملت قراءة نافع هنا على التهكم . والإقصار التقصير وأقصر عن الامر تركه وكف عنه وهو قادر عليه

والمعنى مع سابقه : أن شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصى والفساد تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا ، وإن زلوا تابوا وأنابوا ، وأن إخوان الشياطين وهم الجاهلون غير المتقين يتمكن الشياطين من أغوائهم فيمدونهم فى غيهم وفسادهم لأنهم لا يذكرون الله تعالى إذا شعروا فى أنفسهم بالنزوع الى الشر والباطل والفساد فى الأرض ولا يستعيذون به سبحانه ، من نزغ الشيطان ومسه فيبصروا ويتقوا — إما لأنهم لا يؤمنون بالله ، وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للانسان شيطانا من الجن يوسوس اليه ويغريه بالشر — ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم ، فلذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسى والواعظ القلبى . وفى هذا التفسير عود الضمير الى الشيطان بالجمع لان المراد به الجنس لا الشخص كما تقدم ، وهو استعمال عربى معروف ، ومنه (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) وقيل ان الضمير يعود على الجاهلين ، أى وإخوان أولئك الجاهلين من الإنس وهم شياطينهم يمدونهم فى غيهم وفسادهم . فيكونون أعوانا لشياطين الجن فى ذلك كما بيناه فى تفسير الآية التى قبل هذه .

---

(٢٠٣) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الاجتباء افتعال واختصاص من الجباية . يقال جبى العامل المال يجبيه وجباه يجبوه : إذا جمعه للسلطان القيم على بيت مال الأمة . و : اجتباه إذا جمعه واصطفاه لنفسه أو احتازه لها ، وفي الكشاف اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه أي جمعه كقولك أجتمعه ـ أو جبي إليه فاجتباه أي أخذه ، كقولك جليت إليه العروس فاجتلاها اه والآية هنا آية القرآن كما روى عن ابن عباس ، أو المعجزة المقترحة من قبل المشركين كما روى عن مجاهد وقتادة

والمعنى و إذا لم تأتهم أيها الرسول بآية قرآنية بأن تراخى نزول الوحي زمنا ماقالوا لولا افتعلت نظمها وتأليفها واخترعتها من تلقاء نفسك ؟ أو إذا لم تأتهم بآية مما اقترحوا عليك قالوا : هلا جباها الله لك بأن مكنك منها فاجتبيتها وأبرزتها لنا ؟ ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى ﴾ فما أنا بمبتدع ولا مجتب لشيء من آيات القرآن بعلمى و بلاغتى ، بل أنا عاجز عن مثله كعجزكم وعجز سائر الانس والجن وفي معناه (١٠ : ١٥ و إذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ـ قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) ـ أوما أنا بقادر على إيجاد الآية الكونية ولا بمفتات على الله فى طلبها وإنما أنا متبع لما يوحى إلىّ فضلا من ربى علىّ أن جعلنى المبلغ عنه ـ وما علىّ إلا البلاغ المبين ، ﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ أى هذا القرآن الذى أوحاه إلىّ بصائر وحجج ناهضة من ربكم يعود من تأملها وعقلها بصير العقل بما تدل عليه من الحق إذ هى أدل عقلية مما تطلبون من الآيات الكونية لانها تدل عليه مباشرة[1] . وقد سبق فى سورة الانعام تفسير قوله تعالى (٦ : ١٠٤ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) فيراجع لزيادة البيان[2] ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أى وهو هدى كامل يهدى إلى الحق و إلى طريق مستقيم ، ورحمة فى الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به : كما قال تعالى فى سورة الانعام أيضاً (٦ : ١٥٤ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (١٥٥) أن تقولوا إنما

(١) ص ٣٨٨ ج ٧ تفسير (٢) ص ٦٥٧ منه

أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين (١٥٦) أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) الآية [1] قيل: ان قوله تعالى «لقوم يؤمنون» متعلق بالثلاثة وقيل بالهدى والرحمة لأن البصيرة قد يتأملها العاقل فيؤمن

(٢٠٤) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٥) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٦) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ

هذه دلالة على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن، والحصانة من نزغ الشيطان، وهى الاستماع له إذا قرىء والانصات مدة القراءة. والاستماع أبلغ من السمع ولانه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة إلى الكلام لادراكه، والسمع مايحصل ولو بغير قصد، والانصات السكوت لأجل الاستماع حتى لايكون شاغلا عن الاحاطة بكل ما يقرأ. فمن استمع وانصت كان جديراً بأن يفهم ويتدبر، وهو الذى يرجى أن يرحم. والآية تدل على وجوب الاستماع والانصات للقرآن إذا قرىء، قيل مطلقاً سواء كانت القراءة فى الصلاة أو خارجها، وهو مروى عن الحسن البصرى، وعليه أهل الظاهر، وخصه الجمهور بقراءة الرسول ﷺ فى عهده وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده، وزعم بعضهم أن الآية نزلت فى خطبة الجمعة وهو غلط فان الآية مكية وصلاة الجمعة شرعت بعد الهجرة، وقال بعضهم ان الأمر للندب لا للوجوب ولكن روى أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة فحرم بنزولها الكلام فيها

وحكى ابن المنذر الإجماع على عدم وجوب الاستماع والانصات فى غير الصلاة والخطبة. وذلك أن ايجابهما على كل من يسمع أحداً يقرأ فيه حرج عظيم لأنه يقتضى أن يترك له المشتغل بالعلم علمه، والمشتغل بالحكم حكمه، والمتبايعان مساومتهما وتعاقدهما

(١) راجع ص ٢٠٤ وكذا ص ٢٧٥ ج ٧ تفسير

وكل ذى شغل شغله . فأما قراءة النبي ﷺ فكان بعضها تبليغاً للتنزيل و بعضها وعظا و إرشادا فلا يسع أحداً من المسلمين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع أو يتكلم بما يشغله أو يشغل غيره عنه ؛ وهذا شأن المصلى مع امامه وخطيبه ، إذ هو موضوع الصلاة والواجب فيها ، ولهذا استدلوا بالآية على امتناع القراءة خلف الإمام فى الصلاة الجهرية ، واستثنى بعضهم الفاتحة لما ورد فى الأحاديث الصحيحة من أن الصلاة لا تجزىء بدونها جمعاً بين النصوص. وورد فى السنة سكوت الامام بقدر ما يقرأ المأموم الفاتحة . على أنه إذا قرأ الفاتحة مع الإمام أو بعده آية آية لا يعد غير مستمع للقرآن ولا غير منصت ، وقد بينا تحقيق الحق فى قراءة الفاتحة للمأموم كغيره فى متممات تفسيرها من الجزء الأول .

ومن فروع طلب الاستماع والانصات أن القارىء لا يطلب منه ترك قراءته للاستماع لقارىء آخر بل يختار لنفسه ما يراه خيراً لها من الأمرين ، فقد يخشع بعض الناس بقراءة نفسه ، ويخشع آخر بالاستماع من غيره ، أو من بعض القراء دون بعض ، و إذا تعدد القراء فى مكان استمع كل حاضر لمن كان أقرب إليه أو لمن يرى قراءته أشد تأثيراً فى نفسه . وما يفعله جماهير الناس فى المحافل التى يقرأ فيها القرآن بمصر كالمآتم وغيرها من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة مكروه كراهة شديدة ، وتكون على أشدها لمن كانوا على مقربة من التالى وأما تعمد الاعراض عن السماع للقرآن فلا يكاد يفعله مؤمن به ، وكذلك رفع الصوت بالكلام على صوت القارىء عمداً ، فاذا كان الله تعالى قد أدب المؤمنين مع رسوله ﷺ بقوله (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) فرفع أصواتهم على صوت التالى لكلامه عز وجل أولى بأن ينهى عنه ، والأدب معه فوق الأدب مع كلام النبي ﷺ بالضرورة . وقد كان الصحابة وغيرهم من فصحاء العرب يعبرون عن سماع القرآن بقولهم : سمعت الله تعالى يقول كذا . ولا يجوز لقارىء أن يقرأ على قوم لا يستمعون له ، فإن كان فى المجلس كثير من الناس يستمعون و ينصتون ، فشذ بعضهم بمناجاة صاحبه بالجنب من غير تهويش

على القارىء ولا على المستمعين كان الخطب في هذا هينا لا يقتضي ترك القراءة ولا ينافي الاستماع

ويجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته ، وأن يتأدب في مجلس التلاوة ، وملاك هذا الأدب للقارىء أن لا يكون منه ولا من غيره ولا من حال المكان ما يعد في اعتقاده أو في عرف الناس منافياً للأدب ، وقد ذكر الفقهاء في المسألة آدابا وأحكاما قد يختلف بعضها باختلاف الاعتقاد والعرف ، وصرحوا بقراءة القرآن في كل حال من قيام وقعود واضطجاع ومشي وركوب ، فلا تكره في الطريق نصاً ولا مع حدث أصغر ونجاسة بدن وثوب ولكن يمسك عن القراءة في حال الحدث ، ويستحب الوضوء لها استحباباً ولا سيما للقارىء في المصحف ، وتكره مع الجنازة جهراً لأنه بدعة ، وفي المواضع القذرة بأن يجلس فيها للقراءة ، وأما من مر بمكان منها وهو يقرأ فلا يطلب منه ترك القراءة وكذلك من عرض له الجلوس في بعض الملاهي غير المباحة لا يكره له التلاوة سراً وصرحوا بأنه لا يكره له أن يتلو في بيته إذا كانت زوجه غير مستورة عورة الصلاة

وتستحب القراءة بالترتيل والتغني بالنغم المفيد للتأثير والخشوع من غير تكلف صناعي . وفي حديث أبي هريرة مرفوعا « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن — زاد غيره في رواية — يجهر به » رواه الشيخان وأذن هنا بمعنى استمع أو سمع . ومصدره بفتحتين وروى أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي عن فضالة بن عبيد مرفوعا « لله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » والقينة الأمة المغنية ، وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعا : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ويستحب البكاء مع القراءة والخشوع وإلا فالتباكي والتخشع ، وأن يستعيذ بالله قبلها ويدعو الله في أثنائها بحسب معاني الآيات كسؤال الرحمة عند ذكرها والاستعاذة من العذاب عند ذكره . وكان أنس (رض) يجمع أهله وولده عند ختم القرآن فاستحبوا الاقتداء به .

واعلم أن قوة الدين وكمال الايمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن

واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه . فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمى وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن ، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره ، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه ، ولا فتحوا الأقطار ، ومصروا الامصار ، واتسع عمرانهم ، وعظم سلطانهم ، إلا بتأثير هدايته ، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس (وقالوا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وماضعف الاسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبر القرآن ، وجعله كالرقى والتماويذ التي تتخذ للتبرك أو لشفاء أمراض الأبدان وجل فائدة الصلاة — وهي عماد الدين — بتلاوة القرآن مع التدبر والتخشع ، فاذا زال منها هذا صارت عادة قليلة الفائدة ، والآيات الدالة على ذلك فيه كثيرة تقدم بعضها مع تفسيرها ، فمن التطويل في غير محله إيراد شيء منها هنا

وإنني أختم هذا البحث بأول حديث عائشة (رض) الطويل في الهجرة من رواية صحيح البخاري للاستشهاد به على ما كان من تأثير سماع القرآن عند مشركي العرب قال : حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة (رض) زوج النبي ﷺ قالت : لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية . فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة [1] وهو سيد القارة . فقال أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ، قال ابن الدغنة فان مثلك يا أبا بكر لايَخرج ولا يُخرج ، انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جارٌ . ارجعْ واعبد ربك ببلدك

---

(١) تعني بابتلاء المسلمين اضطهاد المشركين لهم لإرجاعهم عن الاسلام بالقوة والقهر ، ولفظ «الدغنة» يضبطه المحدثون بفتح الدال وكسر الغين وتخفيف النون وتشديدها واللغويون بضمهما وتشديد النون

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم إن أبابكر لايخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم و يصل الرحم ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره فليصل فيها وليقرأ ماشاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلى فيه و يقرأ القرآن فيتقذف [1] عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لايملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه ، فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد اليك ذمتك ، فانا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر ، فقال قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فاما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلىّ ذمتى فانى لاأحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له ، فقال أبو بكر : فانى أرد اليك جوارك وأرضى بجوار الله عزوجل» اهـ المراد منه

بعد الأمر بالاستماع والاصغاء لتلاوة القرآن ، فى سياق حصانة الأنفس من مس الشيطان ، أمرنا تعالى بالذكر العام الشامل للقرآن تلاوة وتدبراً ولغيره فان كل نوع من أنواع ذكره تعالى حصن للنفس وتزكية لها فقال

---

(١) وفى رواية «يتقصف» والمراد يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض حتى كأن كل أحد يقذف غيره ، وتقاذف الركاب تراميها وقد أخطأ من قال إن هذه الرواية لامعنى لها فالقذف هنا أظهر من القصف وهو الكسر — وكأنما يقصف بعضهم بعضا . وفى الاساس : وتقصف القوم : لجوا فى خصومة أو وعيد

﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ قال ابن جرير : إن الأمر بالذكر هنا موجه إلى مستمع القرآن أمر بأن يتدبر فى نفسه مايسمع. وقال عطية العوفى إن المراد بالذكر هنا الدعاء ـ والجمهور على أنه أمر عام كما تقدم وأن الخطاب فيه للنبى ﷺ ومن اتبعه. والتضرع إظهار الضراعة . وهى الذلة والضعف والخضوع بكثرة وشدة عناية . والخيفة حالة الخوف والخشية ـ أى واذكر ربك الذى خلقك ورباك بنعمه فى نفسك بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآياته وآلائه وفضله عليك وحاجتك اليه متضرعا له خائفا منه ، راجيا نعمه ـ واذكره بلسانك مع ذكره فى نفسك ذكراً دون الجهر برفع الصوت من القول، وفوق التخافت والسر ، بل ذكرا قصداً وسطاً كما قال فى آخر سورة الاسراء (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) ولا تحصل فائدة الذكر باللسان إلا مع ذكر القلب ، وهو ملاحظة معانى القول ، وكأى من ذى ورد يذكر الله ذكراً كثيرا يعد بالسبحة منه المئين أو الألوف ثم لايفيده كل ذلك معرفة بالله ولا مراقبة له ، بل هو عادة تقارنها عادات أخرى منكرة شرعا. وما ذلك إلا أنه ذكر لسانى محض لاحظ فيه للقلب . ذكر النفس وحده ينفع دائما وذكر اللسان وحده قلما ينفع وقد يكون فى بعض الأحوال ذنبا . والأكمل الجمع بين ذكر اللسان والقلب .

وبعد أن بين تعالى صفة الذكر والذاكر بين وقته فقال ﴿ بالغدو والآصال ﴾ الغدو مصدر غدا يغدوا ـ كعلا يعلو علوا ـ أى ذهب غدوة وهو أول النهار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، ثم توسع فيه حتى استعمل بمعنى الذهاب مطلقا ـ ويقابله الرواح وهو الرجوع ـ ومنه (غـدوها شهر ورواحها شهر) والآصال جمع أصيل وهو العشى من وقت العصر إلى غروب الشمس ، فهو كقوله تعالى فى سورة الأحزاب (٣٣ : ٣١ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا) وقوله فى سورة الدهر أو الانسان (٧٦ : ٢٥ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) وقوله فى سورة آل عمران (٣: ٦١ وسبح بالعشى والابكار) وخص هذان الوقتان بالذكر لانهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرا بأن يراقبه تعالى

ولا ينساه فيما بينهما، وأهم الذكر فيهما صلاتا الفجر والعصر اللتين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله تعالى بما وجدا عليه العبد كما ورد في الصحيح

﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ عن ذكره تعالى في سائر الأوقات وإنما يتسامح بقلة الذكر فيما بين البكرة والأصيل لأنه وقت العمل للمعاش فمن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه، وضعف إيمانه، واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسه ، ولله در القائل

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحيانا فننتكس

ثم عزز عز وجل هـذا الأمر وهذا النهي بما يمد خير أسوة للانسان ، وهو التشبه والمشاركة لملائكة الرحمن، فقال ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي ان ملائكة الله المقربين الذين هم عنده كحملة عرشه والحافين به ومن شاء تقدس وتعالى بهذه العندية الشريفة التي لا يعلمها سواه وهم أعلى مقاما من الموكلين بالمخلوقات وتدبير نظامها كالسحاب والمطر والريح والجنة والنار - أن هؤلاء المقربين العالين عنده لا يستكبرون عن عبادته كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون الذين عد بعضهم السجود لله تعـالى حطـة وضعة لا تحتمل ﴿ ويسبحونه ﴾ أي ينزهونه عن كل مالا يليق بعظمته وكبريائه وجلاله وجماله من اتخاذ الند والشريك والظهير والمساعد على الخلق والتدبير كما يفعل الذين اتخذوا من دونه شفعاء انداداً لله يحبونهم كحب الله ويعبدونهم مع الله ﴿ وله يسجدون ﴾ أي وله وحده يصلون ويسجدون فلا يشركون معه أحداً ، فيجب أن يكون لكل مؤمن أسوة حسنة بخواص ملائكته وأقرب المقربين عنده تبارك اسمه وتعالى جده .

وقد شرع الله تعالى لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها إرغاما للمشركين واقتداء بالملائكة العالمين ، ومثلها آيات أخرى بمعناها في الجملة ، وهذه هي الاولى في ترتيب المصحف . ونسأله تعالى أن يجعلنا من خير الذاكرين له، الشاكرين لنعمه المسبحين بحمده ، الساجدين له دون سائر خلقه ، وأن يوفقنا لاتمام تفسير كتابه إنه على كل شيء قدير

خلاصة سورة الاعراف

وهى تدخل فى ستة أبواب

(أولها) توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتشريعاً ، وصفاته وشؤون ربوبيته .

(ثانيها) الوحى والكتب والرسالة والرسل .

(ثالثها) الآخرة والبعث والجزاء .

(رابعها) أصول التشريع وبعض قواعد الشرع العامة .

(خامسها) آيات الله وسننه فى الخلق والتكوين .

(سادسها) سنن الله تعالى فى الاجتماع والعمران البشرى وشؤون الأمم المعبر عنه فى عرف عصرنا بعلم الاجتماع .

الباب الأول

توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتشريعاً وصفاته وشؤونه ربوبيته

﴿ وفيه ١٢ أصلا ﴾

(١) دعاء الله وحده وإخلاص الدين له وتخصيصه بالعبادة وكون الاخلال بذلك شركاً وكفراً بالله تعالى . قال تعالى فى الآية ٢٨ (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أى بأن لا تشوبه أدنى شائبة من التوجه إلى غيره فى الدعاء ولا فى غيره من دينكم ، كالتوجه إلى الأنبياء والصالحين أو ما يذكر بهم كقبورهم ، فذلك شرك ينافى خلوصه له ، قل أو كثر ، سمى شركاً أو سمى توسلا وتبركاً (راجع ص ٣٧٥ ج ٨ تفسير) وقال تعالى فى بيان حال المشركين عند موتهم من الآية ٣٧ (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانو كافرين) راجع ص ٤١٣ منه ، وأمرنا تعالى فى الآية ٥٤ بأن ندعوه تضرعاً وخفية — ونهانا عن الاعتداء

فى الدعاء وفى آية ٥٥ بأن ندعوه خوفا وطمعا ، وفى الأول صفة دعاء الاخلاص اللسانية ، وفى الثانى صفته القلبية (راجع ص ٤٥٦ و ٤٦٢ منه)

ومن الأمر بعبادة الله وحده وترك عبادة غيره ماحكاه عن تبليغ الرسل لأقوامهم ، فدل على أنه أصل دينه على ألسنة جميع رسله . قال تعالى (٤٨ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ومثله عن رسوله هود عليه السلام فى الآية ٦٤ مع حكاية قول قومه له (٦٩ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا ؟) ومثله ماحكاه عن رسوله صالح عليه السلام فى الآية ٧٢ وما حكاه عن رسوله شعيب عليه السلام فى الآية ٨٤ .

ومن بيان بطلان عبادة غير الله تعالى ونزغات الوثنية فى اتخاذ الآلهة اتخاذاً ما ورد فى الآيات ١٣٨ — ١٤٠ من طلب بنى اسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهاً كالقوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم ورد موسى (ع . م) عليهم فيراجع تفسيرها (فى ص ١٠٧ - ١١٥ ج ٩) وفيه بيان خطأ الرازى فى فهم معنى الإله لجريه على اصطلاح المتكلمين .

(٢) إنكار الشرك وإقامة الحجة على أهله وإثبات التوحيد وكونه مقتضى الفطرة فى الآيات ١٧٢ و١٧٣ فى أخذ الرب الميثاق من ذرية بنى آدم واشهادهم على أنفسهم أنه ربهم ، ويراجع تفسيرهما (من ص ٣٨٥ - ٤٠٤ ج ٩)

(٣) بيان أن شارع الدين هو الله رب العالمين فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز اتباع أولياء من دونه فى العقائد ولا العبادات ،ولا التحليل والتحريم الدينى ، وهو نص قوله تعالى فى الآية الثانية (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) لا أولياء يتولون التشريع لكم بما ذكر كالذين (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) يحلون لهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم كما فسره الحديث المرفوع ولا أولياء يتولون أموركم فيما عدا ماسخره الله لكم من الأسباب وهذا عين توحيد الربوبية . واتباع رسوله ﷺ لايدخل فى عموم النهى هنا فانه تعالى أمر باتباعه فى الآية ١٥٨ من هذه السورة وفى غيرها وجعل طاعته فيما أرسله به وحياً وبياناً للوحى عين طاعته كما فى سورة النساء فلا يكون ولياً من دونه بل من عنده كما بيناه

في تفسير الآية (يراجع ص ٣٠٦ - ٣١٠ ج ٨ تفسير)

(٤) حظر القول على الله بغير علم بتشريع أو غيره . وذلك قوله تعالى في الرد على المشركين من الآية ٢٧ (أتقولون على الله مالا تعلمون) وقوله تعالى في آخر أصول المحرمات في الآية ٣٣ (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون؟) وقد بينا في تفسيرها مفاسد هذه الجريمة الشركية (ص ٣٩٨ - ٤٠١ ج ٨ تفسير) ومنه يعلم خطأ الذين أنكروا الحسن والقبح في الأشياء مطلقا والذين حكموا العقل في التشريع الديني

(٥) كون جميع مايشرعه الله تعالى حسناً في نفسه وتنزيهه عن الأمر بالقبيح وهو نص قوله تعالى في الآية ٢٧ (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء) وقوله في الآية ٣٣ (قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن) الخ فان الفواحش ماظهر قبحه وعظم ، والاثم مايضر ، والبغي مجاوز حدود الحق والعدل ، والشرك بالله بغير سلطان أي برهان جهل ، والقول على الله بغير علم جهل وتعد على حقوق الرب تعالى ، وكل ذلك قبيح في نظر العقل ، وبعضه قبيح في الحس أيضا ، فكل ماأمر الله تعالى به فهو حسن في نفسه ، وإن خفي حسن بعضه على بعض ضعفاء الناظرين ، وكل مانهى عنه فهو قبيح في نفسه وإن جهل قبحه بعض الغاوين ، ولكن العقل على إدراكه لذلك لا يستقل بمعرفة كل حسن وكل قبيح بالاحاطة والتحديد ، بل تصده عن كثير من المحاسن والقبائح التقاليد والعادات وضعف النظر والبحث

(٦) استواء الرب على عرشه وعلوه على خلقه ، وهو في الآية ٤٣ وفي تفسيرها تحقيق الحق في مذهب السلف (وهو في ص ٤٥١ ج ٨ تفسير)

(٧و٨) تكليم الرب لموسى عليه السلام ومسألة رؤيته سبحانه وتعالى وبيان ذلك في تفسير قوله تعالى (١٤٣ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال : لن تراني) الخ وتفسيرها (في ص ١٢٢ - ١٩٢ ج ٩ تفسير) وفيه من التحقيق والحكم في مسائل الخلاف مالا تجد له نظيراً في كتاب لا في أصل المسألتين ولا في متعلقاتهما ، كتجلي الرب سبحانه والحجب بينه وبين خلقه وتجليه

فى الصور المختلفة ، ومسائل الأرواح والكشف والرؤيا والعمل النوم والتنويم المغناطيسى وأنواع مدركات النفس ومادة الكون الأولى والنور والكهرباء وما يقال من أنها أصل هذه الكائنات ، والخلاف فى إمكان معرفة كنه الخالق وأول المخلوقات ، ومنها مسائل الكلام ومراتبه ومن ذكر الحرف والصوت فى كلامه تعالى . وتحقيق رجحان مذهب السلف على جميع مذاهب المتكلمين وفلسفتهم فى الكلام والرؤية وسائر صفات الرب سبحانه وتعالى وشؤونه

(٩) هداية الله وإضلاله فى آية (١٧٨ من يهدى الله فهو المهتدى) الخ ، وآية (١٨٦ من يضلل الله فلا هادى له) الخ ، وفى تفسيرها تحقيق أن هذا الاضلال لايقتضى الاجبار ، وإنما هو مقتضى سنة الله تعالى فى خلق الانسان ، وارتباط المسببات من أعماله بالأسباب ، فليس حجة للمعتزلة ومن شايعهم ولا للأشعرية والجبرية (راجع ٤٥٩ ج ٩) ومثله قوله تعالى (١٤٦ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) وكذلك الطبع على القلوب فى آيتى ١٠٠ و ١٠١ كل ذلك بيان لسنن الله تعالى فى طباع البشر وأعمالهم

(١٠) الكلام فى رحمة الله تعالى ومغفرته ، ومنه قرب رحمته من المحسنين فى آية ٥٤ وكونه أرحم الراحمين فى الآية ١٤١ ورحمته ومغفرته للتائبين فى الآية ١٥٣ وكونه خير الغافرين ١٥٥ وسعة رحمته كل شىء ومن يكتبها أى يوجبها لهم ١٥٦

(١١) أسماء الله الحسنى ودعاؤه بها والإلحاد فيها وهو نص الآية ١٨٠ وفى تفسيرها تحقيق ماورد من هذه الأسماء فى القرآن وحديث « إن لله تسعة وتسعين اسما » الخ (ص ٤٣١ ج ٩)

(١٢) الأمر بذكر الله تضرعاً وخيفة سراً وجهراً وكونه غذاء الإيمان و بعبادته وتسبيحه والسجود له وحده وهو فى الآيتين اللتين ختم الله بهما السورة ٢٠٤ و ٢٠٥

الباب الثانى

الوحى والـكتب والرسالة والرسل وفيه ٣ فصول فيها ٢٤ أصلا أو مسألة

﴿ ماجاء فيها بشأن القرآن ﴾

(١) إنزال القرآن على خاتم الرسل محمد ﷺ للانذار به وذكرى للمؤمنين وهو فى الآية الأولى من السورة ، وفيها نهى الرسول أن يكون فى صدره حرج منه

(٢) أمر المؤمنين باتباع المنزل إليهم من ربهم وهو القرآن وأن لا يتبعوا من دونه أولياء وهو الآية الثانية ، و بيان أنهم إذا لم يؤمنوا به فلا يرجى أن يؤمنوا بكتاب غيره ، كما قال فى آخر الآية ١٨٥ (فبأى حديث بعده يؤمنون ؟)

(٣) وصفه تعالى للقرآن بأنه فصله على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، وهو نص الآية ٥١

(٤) بيانه تعالى لما سيكون عند إتيان تأويل القرآن أى ظهور صدقه بوقوع ما أخبر بوقوعه من أمر الغيب ، وهو أن الذين نسوه فلم يؤمنوا به فى الدنيا يؤمنون يومئذ و يشهدون لجميع الرسل بأنهم جاءوا بالحق و يتمنون الشفعاء أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير ما كانوا يعملون ، وهو فى الآية ٥٢

(٥) ولاية الله لرسوله بانزال الـكتاب عليه فى الآية ١٩٦

(٦) الأمر بالاستماع لقراءة القرآن والانصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به

﴿ ماجاء فيها خاصا بنبينا (ص) ﴾

(٧) قوله تعالى فى الآية الأولى (فلا يكن فى صدرك حرج منه) أى الكتاب هو نهى عن ضيق الصدر بعظمة القرآن ، وجلال الأمر الذى أنزل لأجله ، وشدة وقع سلطانه فى القلب ، أو عن ضيقه بمشقة الانذار به والتصدى لهداية جميع البشر ، وقد غلب عليهم الشرك والضلال ، أو عما يتوقع من شدة معارضة الـكفار وعدوانهم - وقيل هو دعاء ، وقيل هو حكم منه تعالى بمضمونه (راجع ص٣٠٣ ج٨)

(٨) أمره تعالى له بأن يعتز بأنه هو وليه وناصره وبأنه تعالى يتولى الصالحين فلا خوف على أتباعه من اضطهاد الـكفار لهم ، وهو فى الآية ١٩٦ وقد ذكرت فى مسألة أخرى .

(٩) قوله تعالى فى الآية ١٨٤ (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) الآية وهى تفنيد لرمى بعض مشركى مكة إياه ﷺ بالجنون، يعنى أن التفكر الصحيح فى حاله ﷺ من أخلاقه وهديه وسيرته وفيما جاء به من العلم والهدى ينفى أن يكون به ﷺ أدنى مس من الجنون كما زعموا ، فما عليهـم إلا أن يتفكروا (راجع تفسيرها فى ص ٤٥٣ ج ٩)

(١٠) بيان أنه ﷺ لم يعط علم الساعة أيان مرساها ومتى تقوم ؟ بل هو من علم الغيب الخاص بالله تعالى وذلك نص الآية ١٨٧

(١١) بيان أنه صلوات الله وسـلامه عليه لا يملك لنفسه ـ أى ولا لغيره بالأولى ـ نفعا ولا ضراً ـ إلا مامكنه الله منه بتسخير الأسباب من الأعـمال الاختيارية ـ وبيان أنه لا يعلم الغيب مؤيداً بالدليل الحسى والعقلى ،وذلك قوله تعالى (١٨٨ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون) راجع تفسيرها فى صفحة ٥٠٧ — ٥١٦ ج ٩

(١٢) بيان عموم بعثته وشمول رسالته لجميع الأمم والشعوب ومنهم أهل الكتاب والشهادة له فى كتبهم يدل عليه فى الآية الأولى حذف مفعول (لتنذر به) فهو يدل عن العموم ، وكذلك الخطاب العام بعده فى الأمر باتباع الناس ما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن المذكور فى الآية الأولى . والنص فى ارساله إلى أهل الكتاب قوله تعالى فيمن يكتب لهم رحمته (١٥٧ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) الخ وقد بينا فى تفسيرها نصوص التوراة والانجيل المشار إليها فيها (ص ٢٣٠ — ٢٩٩ ج ٩ تفسير)

وأما النص الصريح فى عموم الرسالة فهو قوله تعالى (١٥٨ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) الآية ، وكذا كل خطاب خوطب به بنو آدم فى الآيات

٢٥ و ٢٦ و٣١ وما بعدها من آيات التشريع العام ولكن هذا كله مشترك بين أمة خاتم النبيين وأمم الأنبياء قبله ، وأصرح منه فى الاشتراك العام ماترى فى أول الكلام فى الرسالة العامة

ماورد فى الرسالة العامة والرسل

(١٣) بعثة الرسل الى جميع بنى آدم فى قوله تعالى (٣٥ يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى) الخ ويدل على إرسالهم إلى الامم المختلفة قوله تعالى (٣ وكم من قرية أهلكناها) الى آخر الآية الخامسة. فالمراد بالقرى الكثيرة أمم الرسل بدليل ما بعده

(١٤) سؤاله الرسل يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الأمم عن الإجابة وهو نص الآية الخامسة

(١٥) جزاء بنى آدم على اتباع الرسل وطاعتهم وعلى تكذيبهم إياهم واستكبارهم عن اتباعهم وهو فى الآيتين ٣٥ و ٣٦

(١٦) وظيفة الرسل تبليغ رسالات ربهم: بشارة و إنذارا : قولا وعملا ، وهو صريح فى الآيات :١و٦٢و٩٣ و١٨٨

(١٧) أول ما دعا اليه الرسل توحيد الألوهية بالأمر بعبادة الله وحده ونفى عبادة إله غيره ، كما هو صريح فى الآيات ٥٩و٦٥و٧٠و٧٣و ٨٥

(١٨) مجيء الرسل بالبينات من الله تعالى وهى تشمل الآيات الكونية والحجج العقلية كما ترى فى الآيات ١٣و٨٥و١٠٣و١٠٥و١٠٧و١٠٨

(١٩) الآيات الكونية التى أيد الله تعالى بها رسله هى حجة لهم على الأمم ، وهى غير مقتضية للايمان اقتضاء عقليا ولا ملجئة اليه طبعا ،ولو كانت مقتضية له قطعا أو ملجئة اليه طبعاً لما تخلف عنها ، ولكان خلاف مقتضى التكليف المبنى على الاختيار ، والملجأ لايستحق جزاءاً . ونحن نرى فى قصة موسى مع فرعون وقومه من هذه السورة وغيرها أن السحرة قد آمنوا إيمانا يقينيا على علم ، وأن الجماهير من قومه ظلوا على كفرهم ، ولكن الله تعالى أخبرنا فى سورة النمل أنه لما جاءتهم الآية

الكبرى قالوا إنها لسحر مبين (٢٧: ١٤ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) أى عاندوا موسى عليه السلام عنادا بإظهار الكفر بها فى الظاهر مع استيقانها فى الباطل، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء فى الأرض وهذا وصف فرعون وملئه أى كبار رجال دولته ، إذ من المعلوم أن سائر الشعب كان مستذلا . وهو مقلد للرؤساء لجهله ، وقد صدقهم فى قولهم إن موسى ساحر و إن السحرة كانوا متواطئين معه ، ولذلك أظهروا الإيمان به لأجل إخراج فرعون ورجال دولته من مصر والتمتع بكبرياء الملك بدلا منهم . كما تدل عليه آيات أخرى ولو فهم جمهور الشعب من الآيات مافهموا لآمن كما آمنوا، لأنه لم يكن لديه من عتو العلو والكبرياء ما يصرفه عن الإيمان ، ولا شك أن السحرة كانوا أكرم منزلة فى الدولة من سائر الشعب ولكن كرامتهم لم تكن بالغة درجة العظمة والعلو المانعة لصاحبها من تركها لأجل الحق . وقد امتاز خاتم النبيين ﷺ بأن جعل الله آية نبوته الكبرى علمية لاصعوبة فى فهم دلالتها على عامى ولا خاصى على أنه أيده فى زمنه بعدة آيات كونية

(٢٠) نصيحة الرسل للأمم وأمرهم بالحق والفضيلة ونهيهم عن ضدهما كما فى الآيات ٦٢و٦٣و٦٨و٧٤و٧٩و٨٢و٨٥و٨٦و٩٣

(٢١) شبهة الأمم على الرسل التى أثارت تعجبهم واستنكارهم هى كون مدعى الرسالة رجلا مثلهم كما فى الآية ٦٣و٦٩

(٢٢) اتهام الكفار رسل الله بالسحر كما فعل فرعون والملأ من قومه باتهام موسى فى الآية ١٠٩ وما يليها من الآيات فى قصة سحرة المصريين مع موسى. وهى شبهة جميع أقوام الرسل على آياتهم من حيث إن كلا منهما أمر غريب لا يعرفون سببه ،ومن خطأ المتكلمين التفرقة بين المعجزة والسحر باختلاف حال الأشخاص وقد عقدنا فى تفسير الآيات فصلا فى حقيقة السحر وأنواعه لا يجد القارىء مثله فى شىء من تفاسيرنا وكتبنا الكلامية «وهو فى ص ٤٥ — ٦٠ ج ٩ »

(٢٣) عقاب الامم على تكذيب الرسل وهو فى الآيات ٦٤و٧٣و ٧٨ و٨٤ و٩١و٩٢و١٣٣و١٣٦و١٣٧

(٢٤) قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى من آية ٥٩ إلى ٩٣

قصة موسى مع فرعون وقومه وسحرته من آية ١٠٣ إلى ١٣٧ وقصته مع قومه وحدهم من ١٣٨ ـــ ١٧١ وفيها من العبر والفوائد ماذكر بعضه فى أبواب من هذه الخلاصة وبقى ما سبب إنزالها وإنزال غيرها من المقاصد المصرح بها فى غير هذه السورة ككونها من أخبار الغيب الماضية الدالة على كون القرآن وحياً من الله تعالى (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وكونها تسلية للنبى ﷺ عما يلاقى من اعراض المشركين وأذاهم وتثبيتاً لقلبه فى النهوض بأعباء الرسالة ، كما قال تعالى (١١ : ١٢٠ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ماتثبت به فؤادك) ـ وكونها موعظة وذكرى للمؤمنين ، كما قال تعالى فى تتمة هذه الآية (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وكونها عبرة عامة للعقلاء من المؤمنين والكافرين المستعدين للاعتبار كما قال تعالى (١٢ : ١١١ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وغير ذلك مما سنفصله إن شاء الله تعالى فى تفسير سورة هود . فقد طال تفسير هذه السورة جداً .

الباب الثالث

عالم الآخرة والبعث والجزاء

(وفيه ١٢ أصلا)

(الأصل الأول) البعث والاعادة فى الآخرة وهو قوله تعالى فى الآية ٢٥ (منها تخرجون) وفى ٢٩ (كما بدأكم تعودون) وفيه دليل على إمكان البعث لأنه كالبدء أو أهون على المبدىء بداهة، فكيف وهو القادر على كل شىء بدءاً و إعادة على سواء ـ وفى الآية ٥٧ تشبيه اخراج الموتى باخراج النبات من الأرض الميتة بعد انزال المطر عليها. وهذا التشبيه يتضمن البرهان الواضح على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بعد فناء أجسادهم ، وقد أطلنا فى تفسيرها الكلام فى المسألة

من الجهة العلمية المتعلقة بالعلوم العقلية والكونية (فتراجع فى ص ٤٧٠ ـ ٤٨١ ج ٨

(الأصل الثانى) وزن الأعمال يوم القيامة وترتيب الجزاء على ثقل الموازين وخفتها وهو فى الآيتين الثامنة والتاسعة

(الأصل الثالث) سؤال الرسل فى الآخرة عن التبليغ وأثره وسؤال الأمم عن إجابة الرسل وهو فى الآية السادسة

(الأصل الرابع) كون الجزاء بالعمل وجزاء المكذبين المستكبرين والمجرمين والظالمين ودخول الامم من الانس والجن فى النار ولعن بعضهم بعضاً ، وشكوى بعضهم من اضلال بعض والدعاء عليهم بمضاعفة العذاب وتحاورهم فى ذلك ، راجع الآيات ٣٦ ـ ٤١ و١٤٧ و ١٧٩

(الأصل الخامس) جزاء المتقين المصلحين فى الآية ٣٥ وجزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وإيراثهم الجنة وحالهم ومقالهم فيها وذلك فى الآيتين ٤٢ و٤٣ ـ ومن ذلك قوله تعالى فى الزينة والطيبات من الرزق من الآية ٣٢ (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)

(الأصل السادس) إقامة أهل الجنة الحجة على أهل النار فى قوله تعالى (٤٣ ونادى أصحاب الجنــة أصحاب النار أن قد وجدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم) الخ وفى تفسيرها بيان لما فى صناعات هذا العصر من إزالة الاستبعاد والاستغراب من تحاور الناس مع بعد المسافات بينهم (راجع ص ٤٢٤ ج ٨ تفسير)

(الأصل السابع) الحجاب بين أهل الجنة وأهل النار بما يذكرهم بضلالهم) وتسليمهم على أهل الجنة وخطابهم لأناس يعرفونهم بسيماهم فى النار وهو الاعراف وأهله فى الدنيا وغرورهم بأموالهم الخ وهو فى الآيات ٤٦ ـ ٤٩

(الأصل الثامن) نداء أصحاب النار أصحاب الجنة (أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) وجواب أهل الجنة لهم فى الآية ٤٨

(الأصل التاسع) اعتراف أهل النار فى الآخرة بصدق الرسل وتمنيهم الشفعاء ليشفعوا لهم ، أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير الذى كانوا يعملون ، وحكم الله تعالى عليهم بأنهم خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون من القول بأن من كانوا

يدعونهم فى الدنيا سيشفعون ثم عند الله . وهو فى الآية (٥٣)

(الأصل العاشر) الدعاء بخير الآخرة مع الدنيا وهو ماورد فى دعاء موسى عليه السلام من قول الله تعالى حكاية عنه (١٥٦ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) فهو موافق لماورد فى القرآن تشريعا لهذه الأمة ، فغاية دين الله على ألسنة جميع سعادة الدارين كما ترى بيانه فى السنة ٤ من الباب السادس

(الأصل الحادى عشر) صفة أهل جهنم (١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها) الخ ، وفى تفسيرنا لها من العلم والحكمة مالا تجد مثله فى تفسير ولا فى كتاب آخر — فراجعه (ص ٤١٨ ج ٩)

(الأصل الثانى عشر) مسألة قيام الساعة وكونها تأتى بغتة وهى فى الآية ٨٧ وفى تفسيرها مباحث مسائل مبتكرة فى أشراطها (راجع ص٤٦١ — ٥٠٧ ج٩)

الباب الرابع

أصول التشريع وفيه ٩ أصول

(الأصل الأول) بيان ان شارع الدين هو الله تعالى كما فى الآية الثانية من السورة ، وتقدم فى الباب الأول من هذه الخلاصة ، وهناك قد ذكر من حيث إنه حق الرب سبحانه وتعالى ، ويذكر هنا من حيث إنه الأصل الأول من اصول الأحكام التشريعية . والمراد بشرع الدين والتشريع الدينى مايجب اتباعه وجوبا دينيا على أنه قربة يثاب فاعله ويعاقب تاركه فى الآخرة . وأما التشريع الدنيوى الذى يحتاج إليه الناس فى مصالحهم الدنيوية فقد أذن الله تعالى به فى الإسلام للرسل ولأولو الأمر من المسلمين، كما بيناه بالتفصيل لواسع فى تفسير قوله تعالى (٤ : ٥٩ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) واشترط فى هذا الاذن أن يرد ما تنازعوا فيه من شىء إلى الله ورسوله بالرجوع إلى الكتاب وإلى الرسول فى عهده ، وإلى سنته من بعده ، كما هو صريح بقية الآية مع بيان علته (راجع تفسيرها فى ص ١٨٠ — ٢٢٢ ج ٥ تفسير)

(الأصل الثانى) تحريم التقليد فى الدين والأخذ فيه بآراء البشر ، وهو نص النهى فى الآية الثانية معطوفا على الأمر باتباع ما أنزل إلى الناس من ربهم وهو (ولا تتبعوا من دونه أولياء) وقد صرح بذلك المفسرون . ومن النصوص فى بطلانه الانكار على احتجاج المشركين به فى الآية (٢٨ وإذا فعلوا فاحشة قالو وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) الآية (راجع تفسيرها فى ص ٣٧٣ ج ٨) وفى الآية ١٧٣

(الأصل الثالث) تعظيم شأن النظر العقلى والتفكر لتحصيل العلم بما يجب الايمان به ومعرفة آيات الله وسننه فى خلقه وفضله على عباده ، فمن ذلك قوله تعالى فى آية ٣٣ (وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) السلطان البرهان ، فتقييد تحريم الشرك بانتفائه تعظيم لشأنه . ومنه قوله فى آخر الآية ١٦٩ (أفلا تعقلون ؟) وسيذكر فى الأصل الرابع . ومنه قوله تعالى بعد ضرب المثل للمكذبين بآياته من آية ١٧٦ (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) ومنه قوله فى الآية ١٨٤ (أولم يتفكروا ؟ مابصاحبهم من جنة) وفى الآية ١٨٥ (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ؟) الخ — والآية الجامعة فى هذا المعنى قوله تعالى (١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) وهى شاملة للنظر العقلى المحض ولكل ما كان مصدره الرؤية والسماع وهما أعم وأكثر مصادر العلم

(الأصـل الرابع) تعظيم شأن العلم الشامل للعلم النقلى وهو ما أنزل الله من الكتاب والحكمة ، وما بينه به رسول ﷺ من سنة ، والعلم المستفاد من الحس والعقل ، والمراد من العلم هنا متعلق المصدر وهو المعلومات ، ففارق ماقبله . ومن الآيات فى ذلك قوله فى آخر الآية ٢٧ (أتقولون على الله مالا تعلمون) وقوله فى آخر الآية ٣١ (كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون) وهى من النوع الثانى لأن موضوع الآية مسألة الأمر بالأكل من الطيبات وبالزينة والانكار على من حرمهما وهى من مسائل علم الاجتماع والمصالح البشرية كما فصلناه فى تفسيرها (راجع ٣٠٣ ج ٨) وقوله تعالى فى آخر آية ٣٣ التى بين فيها أنواع المحرمات العامة (وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما تعلمون) السلطان البرهان — وقوله تعالى

فى آخر آية ١٣٠ (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وهو فى زعم آل فرعون وخرافاتهم أن ماينالهم من الحسنات والخيرات فهو حق لهم وأن ماينالهم من السيئات فهو بشؤم موسى وقومه وتطيرهم بهم والعلم المنفى عنهم هنا هو العلم بسنن الله فى طباع البشر والأسباب والمسببات فى العالم — وقوله تعالى فى حكاية توبيخ موسى (ع . م) لقومه على مطالبتهم إياه بأن يجعل لهم إلهاً كالآلهة الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم من آخر الآية ١٣٨ (إنكم قوم تجهلون) وما علل به الحكم بجهلهم فى الآيتين بعدها، فهذه جامعة لبيان فضل العلم النقلى والعلم العقلى وذم الجهل بهما معاً ، فان موسى (ع . م) علل تجهيلهم أولا بعلة عقلية وثانيا بعلة دينية عقلية . فراجع تفسيرهن فى (ص ١٠٥ — ١١٥ ج ٩) وقوله تعالى فى الآية ١٦٩ (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه) وهو من العلم النقلى ولكنه أيد بالعقلى فى ختم الآية بقوله (أفلا تعقلون)

فهذه الشواهد على هذا الأصل وما قبله المؤيدة بأضعافها فى السور الأخرى تثبت تعظيم القرآن لشأن التفكر والنظر والاستدلال لتحصيل العلم بالله وشرائعه المنزلة و بسننه وآياته فى خلقه ونعمه على عباده — وتعظيم شأن جميع العلوم النافعة من نقلية وعقلية وهى حجة على نقص أهل الجهل بها .

(الأصلان الخامس والسادس) أمر الناس بأخذ زينتهم عند كل مسجد وبالأكل والشرب من الطيبات المستلذات ، والانكار على من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، و بيان أنها حق للذين آمنوا فى الحياة الدنيا أولا وبالذات بقيد عدم الاعتداء والاسراف فيها ، وإن شاركهم غيرهم فيها بعموم فضل الله لا باستحقاقهم ، وأنها تكون خالصة لهم فى الآخرة ، وذلك نص الآيتين ٣١ و ٣٢ وهذان الأصلان هما الركنان اللذان يقوم عليهما بناء الحضارة بعلومها وفنونها وصناعاتها و إظهارها لما فى هذا الكون من سنن الله تعالى وآياته وأسرار صنعه الدالة على توحيده وقدرته وحكمته و إحسانه على عباده — وهما المبطلان لأساس الديانة البرهمية من جعل مقصد الدين تعذيب النفس وحرمانها من الزينة واللذة ، وقلدهم فى ذلك النصارى وابتدعوا الرهبانية لأجله ولم يقفوا عند حد تقليدهم فى الدنيا حتى

زعموا أن دار النعيم فى الآخرة خالية من اللذات الجسدية وليس فيها إلا النعيم الروحاني ، خلافا لبعض تصريحات الأنجيل من شرب الخمر فى الملكوت وكون الصائمين والجياع والعطاش من أجل البر يشبعون هنالك

ولما كان الغلو فى الدين كغيره من أمور البشر يقوى الاستعداد له فى بعض الناس من كل أمة بدأ بعض الصحابة المبالغين فى العبادة بترك أكل اللحوم وهمّ بعضهم بالاختصاء ، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك وعن المبالغة فى العبادة ونزل فى شأنهم (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) الآيات من سورة المائدة وهى بمعنى ماهنا ، ولم يمنع ذلك كله بعض مسلمى المتصوفة من الغلو فى ترك الزينة والطيبات ، وصار الجاهلون بكنه الاسلام يعدون الغلو فى ذلك هو الكمال الدين ، وأهله من أولياء الله المقربين ، وإن كانوا جاهلين خرافيين . ويراجع مافى تفسيرنا للآيتين من الأحكام والحكم والفوائد، ومنها مالم يكن يخطر فى بال أحد من مفسرينا المتقدمين رحمهم الله تعالى (ص ٣٦٩ - ٣٩٤ ج ٨)

(الأصل السابع) هداية الناس بالحق والعدل به وقد وصف الله تعالى بذلك خيار قوم موسى عليه السلام فى آية ١٥٩ وخيار أمة محمد ﷺ فى الآية ١٨١ فهذا من أصول دين الله العامة فى جميع شرائعه . والحق هو الأمر الثابت المتحقق فى الشرع إن كان شرعيا ، وفى الواقع ونفس الأمر إن كان أمراً وجوديا ، والعدل ماتحرى به الحق من غير ميل إلى طرف من الطرفين أو الأطراف المتنازعة فيه أو المتعلقة به . ويدخل فى هذا الأصل الدعوة إلى الحق والخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتضحية العامة والخاصة والإصلاح بين الناس

ومنه الأمر بالعدل المطلق فى الأحكام والأعمال بقوله (١٨ قل أمر ربى بالقسط) وهذا هو الأصل العام لجميع الأحكام بين الناس كما قال تعالى فى سورة النساء المدنية إذ صار للأمة حكم ودولة (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وفى سورة النساء والمائدة آيات أخرى فى وجوب عموم العدل والمساواة فيه بين المؤمن والكافر والبر والفاجر والغنى والفقير والقريب والبعيد ، وقد تقدمت مع تفسيرها . فمن تحرى العدل بغير محاباة وعرف مكانه فحكم به كان حاكما كما يحكم الله تعالى من غير حاجة إلى

نص خاص فى الشريعة به ، فان وجد النص كانت الثقة بالعدل أتم بل لاحاجة مع النص إلى الاجتهاد كما أن الاجتهاد المخالف للنص الخاص أو للعدل العام باطل .

(الأصل الثامن) حصر أنواع المحرمات الدينية العامة فى قوله تعالى (٣٣ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) يراجع بيان وجه الحصر فى تفسيرها (ص ٣٩٤ — ٤٠١ ج ٨)

(الأصل التاسع) بيان أصول الفضائل الأدبية والتشريعية الجامعة بأوجز عبارة معجزة فى قوله تعالى (١٩٩ خذالعفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين) فيراجع تفسيرها من آخر ص ٥٣٣ — ٥٣٩ ج ٩

الباب الخامس

فى آيات الله وسننه فى الخلق والتكوين

(وفيه ١٤ أصلا)

(١) خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام واستواؤه على عرشه ونظام الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره ، وكون الخلق والأمر له وحده ، وذلك فى الآية ٥٤ وهى تتضمن الترغيب فى علمى الفلك والجغرافية الطبيعية دون علم التنجيم الخرافى ، وقد بلغ أهل الغرب من العلم بذلك مالو ذكر أبسطه وأبعده عن الغرابة فى غير هذا العصر لقال فيه أذكى العقلاء إنه من هذيان المجانين ، أو تخيل الحشاشين ، ولا يوجد علم أدل على عظمة الخالق وقدرته وسعة علمه ودقة حكمته من علم الفلك ، وقد كان قومنا العرب فى عهد حضارتهم الاسلامية أعلم البشر به ، فصاروا أجهلهم به

(٢) خلق الله الرياح والمطر واحياؤه الأرض به واخراجه الثمرات والخصب وضده وذلك فى الآيتين ٥٧ و٥٨ وذلك يتضمن الترغيب فى العلم بسنن الله تعالى فى هذه المخلوقات ، كما قلناه فيما قبله، لأن فى العلم بذلك كله من معرفة آيات الله وكمال صفاته ما يعطى متأمله اليقين فى الايمان إذا قصده و يغدق عليه نعمه التى من

عليه بها ويعده لشكرها فتجتمع له بذلك سعادة الدارين ، وقد اتسعت علوم بعض البشر بذلك فاستحوذوا على أكثر خيرات الأرض فى بلادهم و بلاد الجاهلين بها الذين أضاع الجهل عليهم دنياهم ودينهم بالتبع لها

(٣) خلق الله الناس من نفس واحدة وخلق زوجها منها ليسكن إليها وإعداد الزوجين الذكر والأنثى للتناسل كما فى الآية ١٨٩ وفى قصة جنة آدم ومعصيته وتوبته من الآيات ١٩ـ٢٥ بعض صفات النشأة البشرية واستعدادها وحالها فى سكنى الأرض

(٤) تفضيل الله تعالى للانسان على من فى الأرض جميعاً كما أفاده قوله تعالى (١٠ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا بليس لم يكن من الساجدين) و بيان هذه المسألة بالتفصيل فى تفسير سورة البقرة لأنها أوسع تفصيلا لما تقتضيه قصة آدم المطولة فيها والتصريح فيها بجعل آدم خليفة فى الأرض ، وفى باب التأويل هنالك بحث طويل للاستاذ الامام رحمه الله تعالى لم يسبقه إليه أحد فيما نعلم فيراجع فى الجزء الأول من هذا التفسير

(٥) خلق بنى آدم مستعدين لمعرفة الله تعالى و إشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنه ربهم ، وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهم ، وما منحوه من العقل والفكر ، وحجته تعالى عليهم بذلك كما فى الآيتين ١٧٢ و ١٧٣ فيراجع تفسيرهما (فى ص ٣٨٦ – ٤٠٤ ج ٩) وكذا خلقهم مستعدين للشرك وما يتبعه من الخرافات كما فى الآية الثانية منهما والآية ١٩٠

(٦) ضرب المثل لاختلاف استعداد البشر لكل من الخير والشر والبر والإثم وعلامة كل منهما فيهم و كونهم يعرفون بثمارهم ، وذلك قوله تعالى (٥٧ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا) ، وفيه إرشاد إلى طلب معرفة الشيء بأثره ومعرفة الأثر بمصدره ، وفيه دليل على أن فى الأشياء خبيثاً وطيبا ، وجيداً ورديئا . و يؤيده حديث « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة » الخ وهو فى الصحاح وغيرها

(٧) الكلام فى إبليس وهو الشيطان وعداوته لآدم وامتناعه من السجود له ووسوسته له ولزوجه بالاغراء بالمعصية بالأكل من الشجرة وعاقبة ذلك . وهو فى الآيات ٢٠ ــ ٢٣ وكونه من المنظرين إلى يوم القيامة

(٨) عداوة إبليس والشياطين من نسله لبنى آدم وتزيينهم لهم الشر والباطل

واغرائهم بالفساد والمعاصى وحكمة ذلك ، وهى في الآيات ١٦و١٨و٢٠ - ٢٢و٢٧ وتحذيرهم منه فى الآية ٢٦ مع بيان أنه يراهم هو وقبيله من حيث لايرونهم ،

(٩) نزغ الشيطان للانسان ومقاومته بالاستعاذة بالله تعالى وكون المتقين إذا مسهم طائف منه تذكروا فإذا هم مبصرون لا تطول غفلتهم فيغرهم وسواسه، وذلك فى الآيتين ٢٠٠ — ٢٠٢ .

(١٠) بيان أن الشياطين أولياء للمجرمين الذين لا يؤمنون من بنى آدم وهو فى فاصلة الآية ٢٧ وبيان أن أخوان الشياطين من بنى آدم يمكنون الشياطين من أنفسهم بعدم تقواهم فهم يمدونهم فى الغى ولا يقصرون فيه ، وذلك نص الآية ٢٠٢ .

قد سبق الكلام فى تفسيرنا هذا على مباحث الشياطين والجن فى عدة مواضع قد أحلنا عليها فى تفسير آيات الاعراف وزدنا على ذلك عقد فصل استطرادى فى حكمة خلق الله تعالى الخلق ، واستمداد الشيطان والبشر للشر . فيراجع فى (ص ٣٤٠ — ٣٤٤ ج ٨) .

(١١) منة الله على البشر بتمكينهم فى الأرض وتسهيل أسباب المعايش لهم كما فى الآية ٩ ومن الشكر الواجب له تعالى على ذلك طلب سعة العلم باستعمار الأرض ووسائل المعايش

(١٢) منة الله على البشر بالقياس والزينة كما فى الآية ٢٦ وراجع فى ذلك الأصلين ٥ و٦ من الباب الرابع من هذه الخلاصة .

(١٣) صفات شرار البشر المستحقين لجهنم وهم الذين أهملوا استعمال عقولهم وحواسهم فيما خلقت لأجله من اقتباس من العلم والحكمة ـ وذلك نص الآية ١٧٩ وذكرت فى أصل الجزاء فى الآخرة (وهو ١١ من الباب الثالث) وفى تعظيم شأن النظر والتفكر لتحصيل العلم (وهو الأصل ٣ من الباب ٤) .

(١٤) آياته تعالى ونعمه على بنى إسرائيل ، وتراجع فى قصة موسى معهم .

الباب السادس

فى سنن الله تعالى فى الاجتماع والعمران البشرى

(وفيه ٧ أصول)

(١) إهلاك الله الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها ، كما فى الآيتين ٣و٤ ومصداقه فى خلق آدم الذى هو عنوان البشرية وجعله تعالى المعصية بالأكل من الشجرة ظلماً للنفس فى الآية ١٩ واعتراف آدم وحواء فى دعاء توبتهما بذلك فى قولها (ربنا ظلمنا أنفسنا) وبأن شأن المعصية من الأفراد أن تغفر بالتوبة فيعفى عن عقابها وهو خسران النفس كما فى قولها (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وأما خسارة الأمم فهى إضاعة استقلالها وسلطان أمة أخرى عليها تستذلها . وجملة ذلك أن العقوبة أثر طبيعى لازم للعمل ، وأن ذنوب الأمم لا بد من العقاب عليها فى الدنيا قبل الآخرة ، وأما ظلم الأفراد وعقابهم عليه فى الآخرة فيراجع فى الأصل ٤ من الباب الثالث

(٢) بيان أن للأمم آجالا لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها التى اقتضتها السنن الإلهية العامة ، وهو نص الآية ٣٤ وكونها إذا كانت جاهلة بهذه السنن تؤخذ بغتة وعلى غفلة ليلا أو نهاراً كما يؤخذ من الآيات ٩٤ — ١٠٠ وهذه الآيات وردت فى عقاب الأمم التى عاندت الرسل وكان عقابها وضعياً لا اجتماعياً — وقد سبق لنا فى هذا التفسير أن العقاب الإلهى للأفراد وللأمم نوعان (أحدهما) العقاب بما توعد تعالى به على مخالفة رسله ومعاندتهم ، وهو من قبيل عقاب الحكام لرعاياهم على مخالفة شرائع أمتهم وقوانينها ونظمها (وثانيهما) العقاب الذى هو أثر طبيعى للجرائم ، وهو من قبيل ما يعاقب به المريض على مخالفة أمر طبيبه فى معالجته له من الحمية والاقتصار على كذا من الغذاء . والتزام كذا من الدواء (راجع ص ٣٠٨ ج ٧ تفسير) .

(٣) ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة وبضدها من الرخاء والنعماء تارة أخرى ، فاما أن تعتبر بذلك فيكون تربية لها وإما أن تغبى وتغفل فيكون مهلكة لها كما فى الآيات ٩٤ وما بعدها مما تقدم الكلام عليه فى السنة الثانية من وجه آخر

(٤) بيان أن الايمان بما دعا الله اليه والتقوى فى العمل بشرعه فعلا وتركا سبب اجتماعى طبيعى لسعة بركات السماء والأرض وخيراتهما على الأمة كما فى قوله تعالى (٩٦ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وهو موافق لآيات أخرى فى سور أخرى (منها) الآية ٥٢ من سورة هود (١١) والآيات ١٢٣-١٢٧ من سياق بيان سننه تعالى فى النشأة البشرية من سورة طه ومثله فى الآيات ١٠-١٢ من سورة نوح والآيتين ١٦و١٧ من سورة الجن بعدها وغيرها ، وقد بينا وجه ذلك فى التفسير والمنار ومنه تحقيق معنى التقوى واختلافها باختلاف مواضعها من أمور الدين والدنيا فى مقالة عنوانها (عاقبة الحرب المدنية) نشرت فى (ج٧م٢١ من المنار)

(٥) استدراجه تعالى المكذبين والمجرمين واملاؤه لهم كما فى الآيتين ١٨٢ و١٨٣ وهو فى معنى ما سبقه من سنة أخذ الله للأمم بذنوبها ومن سنة ابتلائها بالحسنات والسيئات ، فان من لا يعتبر بذلك ولا يتربي يصر على ذنبه ولا يرجع عنه وذنوب الأمم لابد من العقاب عليها - راجع تفسير الآيتين فى ص ٤٥١و٤٩٩ ج٩ ففيه بيان هذه السنة موضحاً

(٦) سنة الله فى ارث الأرض واستخلاف الأمم فيها والاستيلاء والسيادة على الأمم والشعوب . فقد بين الله تعالى لنا فى قصة موسى مع قومه أن وطأة فرعون وقومه اشتدت على بني إسرائيل ، وصرح بوجوب الاستمرار على تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم لأجل أن تنقرض الأمة بعد استذلال من يبقى من النساء إلى أن ينقرض الرجال وما ازدادوا إلا ذلا وخنوعا - وهم مئات الألوف - كما هو شأن الشعوب الجاهلة المستضعفة ، ولكن الله تعالى أمر رسوله موسى أن يمتلخ ذلك اليأس من قلوبهم بقوة الايمان بما حكاه عنه بقوله (١١٨ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) أى بين لهم أن الأرض ليست رهن تصرف الملوك والدول بقدرتهم الذاتية فتدوم لهم وإنما هى لله ، وله سبحانه وتعالى سنة فى سلبها من قوم وجعلها إرثاً لقوم آخرين بمحض مشيئته وسلطانه ، ومدار هذه السنة على أن العاقبة فى التنازع بين الأمم على الأرض التى تعيش فيها أو تستعمرها للمتقين ، أى الذين يتقون أسباب

الضعف والخذلان والهلاك كاليأس من روح الله والتخاذل والتنازع والفساد فى الأرض والظلم والفسق ، ويعلمون بضدها وبسائر ماتقوى به الأمم من الاخلاق والأعمال ، وأعلاها الاستعانة بالله الذى بيده ملكوت كل شىء ، والصبر على المكاره مهما عظمت ، وهذان الأمران هما أعظم ماتتفاضل به الأمم من القوى المعنوية باتفاق الملاحدة والمليين من علماء الاجتماع وقواد الحروب

وقد تكررت هذه القاعدة فى القرآن الحكيم وفى معناها قوله تعالى من سورة الأنبياء (٢١ : ١٠٥ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) وإنما الصالحون هم الذين يصلحون لإقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه فى العمران ، وهذا يعنى مايسميه علماء الاجتماع « بقاء الأصلح أو الأمثل فى كل تنازع » ويدل عليه المثل المشهور فى سورة الرعد (١٣ : ١٧ أنزل من السماء ماء — إلى قوله — فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)

ومن العجيب أن ترى بعض الشعوب الاسلامية المستضعفة فى هذا العصر بسيادة الاجانب عليها يائسة من استقلالها وعزتها بل من حياتها الملية والقومية بما ترى من خفة موازينها ورجحان موازين السائدين عليها فى القوى المادية والآلية واستدلال هؤلاء السائدين عليها بها ، جهلا منها بسنة الله تعالى التى بينها فى هذه الآية وغفلتها عن كون رجحان قوى فرعون وقومه على بنى إسرائيل وقهره لهم كانا فوق رجحان قوى سائديها عليها وقهرهم إياها ، وفى هذا العصر من العبر التاريخية بسقوط بعض الدول القوية مالا يقل عن العبرة بأحداث التاريخ القديم

ثم بين لنا تعالى فى الآية التالية لتلك الآية (١٢٩) أن موسى عليه السلام شكا له قومه إيذاء فرعون وقومه لهم قبل مجيئه وبعده على سواء فذكرهم ماعنده من الرجاء بإهلاك ربهم لعدوهم واستخلافهم فى الأرض الموعودين بها ليختبرهم فينظر كيف يعملون ، ويكون ثبات ملكهم وسلطانهم على حسب عملهم الذى تصلح به الأرض وأهلها أو تفسد . وهو مافصله تعالى لنا بعد ذلك فى آيات أخرى منها فى إفسادهم قوله تعالى (١٧ : ٤ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض) إلى تتمة الآية الثامنة

ثم بين لنا تعالى في الآية ١٣٧ من هذا السياق أنه أورثهم الأرض المباركة وتمت كلمته الحسنى عليهم بما صبروا ، أي لا بمجرد آيات الله لموسى ، التي أيده به ، فعلم منه بالفعل أن الأمة المستضعفة مهما يكن عددها ومهما اشتد ظلم الظالمين لها أن تيأس من الحياة . وهو تحقيق لرجاء موسى هنا ولوعد الله إياهم بذلك صريحاً في قوله من سورة القصص (٢٨ : ٥ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض) الآية

ثم إن شعوب المسلمين بجهلها هذه السنن الإلهية ، وبإضاعة ملكهم وعزهم بالجهل بها الذي كان سبباً لعدم الاهتداء بها في العمل ، وما كان سببه إلا الإعراض عن القرآن ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة ، وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات والمعاملات المدنية والعقوبات والحروب وما يتعلق بها ، وهذه السورة المكية الكبيرة القدر والفوائد (الأعراف) خالية من هذه الأحكام كلها ، ومن نظريات المتكلمين في العقائد وقواعدهم لها ، وكذلك غيرها من السور المكية . فهل أنزل الله تعالى هذه السور كلها للتعبد بتجويد ألفاظها بدون فهم ، أو لاتخاذها رقى وتمائم ، وقصصاً لقراء المآتم ؟

وأعجب من هذا كله أن الجهل بلغ بهم بعد أن نشأ فيهم فريق خصم لهذا الفريق الجامد الحافظ على كتب القرون الوسطى دون هدي السلف ، خصم يقول إن دين الإسلام هو السبب في جهل المسلمين وضعفهم ولا حياة لها إلا بأخذ الناس علم الاجتماع وسنن العمران من الأمم غير الإسلامية التي سادتنا بهذه العلوم وما يتبعها من الفنون والصناعات ، وهؤلاء أجهل بالإسلام من أولئك ، فكتاب الإسلام هو المرشد الأول لسنن الاجتماع والعمران ، ولكن المسلمين قصروا في طور حياتهم العلمية عن تفصيل ذلك بالتدوين لعدم شعورهم بالحاجة إليه ، وكان حقهم في هذا العصر أن يكونوا أوسع الناس به علماً لأن كتاب الله مؤيد للحاجة بل الضرورة التي تدعو إليه

(٧) إن سنة الله في الأمم التي ترث الأرض من بعد أهلها الأصلاء هي سنته تعالى في أهلها ، فإذا كان هؤلاء قد غلبوا عليها بسبب ظلمهم وفسادهم وغرورهم وعتو ملوكهم ، فكذلك يكون شأن الوارثين لها من بعدهم إذا ساروا سيرتهم في

ذلك ، وذلك قوله تعالى (١٠٠ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) وكنا نرى الذين ورثوا ممالك المسلمين متعظين بمعنى هذه الآية من بعض الوجوه فهم على كثرة ذنوبهم بالظلم وافساد العقائد والأخلاق وسلب الأموال يتحرون أن يكون ظلمهم دون ظلم حكام أهل البلاد الذين أضاعوها ، وعقولهم تبحث دائما فى الأسباب التى يخشى أن تكون سبباً لسلبها منهم لأجل اتقائها ، وآذانهم مرهفة مصيخة لاستماع كل خبر يتعلق بأمرها وأمر أهلها وشؤون الطامعين فيها حذراً منهم أن يسلبوهم إياها

وقد قلنا فى تفسير هذه الآية : قد كان ينبغى للمسلمين وعندنا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التى هلك بها من كان قبلهم ، وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم – إلخ ما تراه فى ص ٣٠ و ٣١ ج ٩

هذا ما فتح الله به علينا من أصول وأمهات هداية هذه السورة الجليلة بمراجعتها المرة بعد المرة ، مروراً على الآيات بالنظر ، ولو أعدنا قراءتها مع قراءة تفسيرها بالتدبر لظهر لنا أكثر من ذلك ، وإنما أردنا التلخيص ، ونسأله تعالى أن يجعلها هى وسائر كتابه المجيد حجة لنا لا علينا ، ويوفق أمتنا للرجوع إلى الاهتداء به بالتوبة إليه كما تاب أبوهم وأمهم عليهما السلام

﴿ تنبيه ﴾

قد وقع خطأ فى عدد آيات هذه السورة بالنسبة إلى عدد المصحف الجديد الذى طبعته الحكومة المصرية والفرق بينهما آية واحدة من أول السورة إذ عدت فيه (المص) آية ولم نعدها آية ، ثم وافقنا عدده من الآية ١٦٧ إلى آخر السورة . وقد اعتمدنا فى شواهد خلاصة السورة على عدد المصحف لا التفسير لأننا استنبطناها من مراجعة المصحف نفسه غالبا ، فليعلم هذا ويتذكر عند مراجعة شواهد التفسير

سورة الأنفال

- ٨ -

(وهى السورة الثامنة فى العدد ووضعت موضع السابعة من السبع الطُّوَل مع أنها من المثانى وهى دون المئين التى تلى الطول، لما سيأتى . وعدد آياتها ٧٥ آية فى عدد الكوفى و٧٦ فى الحجازى و ٧٧ فى الشامى)

سورة الأنفال مدنية كلها كما روى عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت . وقال ابن عباس :إنها نزلت فى بدر، وفى لفظ تلك سورة بدر، وقيل إنها مدنية إلا آية (٦٤ يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) فقد روى البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب (رض) فعلى هذا وضعت فى سورة الأنفال وقرئت مع آياتها التى نزلت فى التحريض على القتال فى غزوة بدر لمناسبتها للمقام . وروى عن مقاتل استثناء قوله تعالى (٣٠ وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآية لأن موضوعها ائتمار قريش بالنبى ﷺ قبيل الهجرة، بل فى الليلة التى خرج فيها رسول الله ﷺ مع صاحبه أبى بكر رضى الله عنه بقصد الهجرة وباتا فى الغار ؛ وهذا استنباط من المعنى وقد صح عن ابن عباس أن الآية نفسها نزلت فى المدينة . وزاد بعضهم عنه استثناء خمس آيات أخرى بعد هذه الآية أى إلى الآية ٣٥ للمعنى الذى ذكرناه آنفا وهو أن موضوعها حال كفار قريش فى مكة وهذا لا يقتضى نزولها فى مكة ، بل ذكر الله بها رسوله بعد الهجرة .وكل ما نزل بعد خروج النبى ﷺ مهاجراً فهو مدنى

ووجه مناسبتها لسورة الأعراف : أنها فى بيان حال خاتم المرسلين ﷺ مع قومه وسورة الأعراف مبينة لأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم ، هذا هو العمدة وهناك تناسب خاص بين عدة آيات من السورتين يقوى هذا التناسب ، ولكنه لا يصح أن يكون شيء منه سبباً للمقارنة بينهما لأن مثل هذا الاتفاق فى بعض

المعاني مكرر في أكثر السور المكية ، وأنقل هنا من درج المعاني ما نقله عن السيوطي في وضع هذه السورة هنا وما تعقبه به وهو :

« والظاهر أن وضعها هنا توقيفي ، وكذا وضع براءة بعدها وهما من هذه الحيثية كسائر السور ، وإلى ذلك ذهب غير واحد كما مر في المقدمات ، وذكر الجلال السيوطي أن ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول ﷺ للصحابة رضي الله تعالى عنهم كما هو الراجح في سائر السور ، بل باجتهاد من عثمان رضي الله تعالى عنه وقد كان يظهر في بادئ الرأي أن المناسب إيلاء الأعراف بيونس وهود لاشتراك كل منها في اشتمالها على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنها مكية النزول خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع الطول ، وعدوا السابعة يونس وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل ، ففي فصلها من الأعراف بسورتين فصل النظير من سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الأنفال بالنسبة إلى الأعراف وبراءة ، وقد استشكل ذلك قديماً حبر الأمة رضي الله تعالى عنه ، فقال لعثمان رضي الله تعالى عنه : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا البسملة بينهما ووضعتموها في السبع الطول ؟ ثم ذكر جواب عثمان رضي الله تعالى عنه وقد أسلفنا الخبر بطوله سؤالاً وجواباً ثم قال :

وأقول : يتم مقصد عثمان رضي الله تعالى عنه في ذلك بأمور فتح الله تعالى بها .

(الأول) أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها لكونها مشتملة على البسملة فقدمها لتكون كقطعة منها ومفتتحها ، وتكون براءة لخلوها عن البسملة كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف إنهما سورة واحدة .

(الثاني) وضع براءة هنا لمناسبة الطول فإنه ليس بعد السبع السابقة سورة أطول منها ، وذلك كاف في المناسبة .

(الثالث) أنه خلل بالسورتين أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها في العصر الأول للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يبين كونهما فوضعهما هنا كالوضع المستعار بخلاف ما لو وضعا بعد السبع الطوال فإنه كان يوهم أن ذلك محلهما بتوقيف ، ولا يتوهم هنا على هذا الوضع العلم بترتيب

السبع فانظر الى هذه الدقيقه التى فتح الله تعالى بها ولا يغوص عليها إلا غوّاص

(الرابع) أنه لو أخرها وقدم يونس وأتى بعد براءة بهود كما فى مصحف أبىّ لمراعاة مناسبة السبع و إيلاء بعضها بعضا لفات معها أشرنا اليه أمر آخر آكد فى المناسبة ، فان الأولى بسورة يونس أن يؤتى بالسور الخمس التى بعدها لما اشتركت فيه من المناسبات من القصص والافتتاح بآلر وبذكر الكتاب ومن كونها مكيات ومن تناسب ماعدا الحجر فى المقدار ومن التسمية باسم نبى والرعد اسم ملك وهو مناسب لأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهذه عدة مناسبات للاتصال بين يونس وما بعدها وهى آكد من هذا الوجه الواحد فى تقديم يونس بعد الأعراف ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل مع كونها أقصر منها ولو أخرت براءة عن هذه السور الست لبعدت المناسبة جدا لطولها بعد عدة سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر ، فانها ليست كبراءة فى الطول

« ويشهد لمراعاة الفواتح فى مناسبة الوضع ماذكرناه من تقديم الحجر على النحل لمناسبة (الر) قبلها وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء و إن كانت أقصر منها لمناسبتها البقرة فى الافتتاح بالم ، وتوالى الطواسين والحواميم ، وتوالى العنكبوت والروم ولقمان والسجدة لافتتاح كل بالم ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التى هى أطول منها . هذا مافتح الله به على

« ثم ذكر أن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قدم فى مصحفه البقرة والنساء وآل عمران والأعراف والأنعام والمائدة و يونس ، راعى السبع الطوال فقدم الأطول منها فالأطول ، ثم ثنى بالمئين ، فقدم براءة ثم النحل ثم هود ثم يوسف ثم الكهف وهكذا الأطول فالأطول وجعل الأنفال بعد النور ، ووجه المناسبة أن كلا مدنية ومشتملة على أحكام ، وأن فى النور (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) الآية ، وفى الأنفال (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) الخ ولا يخفى مابين الآيتين من المناسبة فالأولى مشتملة على الوعد بما حصل ذكر به فى الثانية فتأمل اه كلام السيوطى

(الآلوسى) «وأقول قد من الله تعالى على هذا العبد الحقير ، بما لم يمن به على هذا المولى الجليل ، والحمد لله تعالى على ذلك حيث أوقفنى سبحانه على وجه مناسبة هذه السورة لما قبلها وهو لم يبين ذلك ، ثم ماذكره من عدم التوقيف فى هذا الوضع فى غاية البعد كما يفهم مما قدمناه فى المقدمات ، وسؤال الحبر وجواب عثمان رضى الله تعالى عنهما ليسا نصا فى ذلك ، وما ذكره عليه الرحمة فى أول الأمور التى فتح الله تعالى بها عليه غير ملائم بظاهره ظاهر سؤال الحبر رضى الله تعالى عنه حيث أفاد أن إسقاط البسملة من براءة اجتهادى أيضا ، ويستفاد مما ذكره خلافه ، وما ادعاه من أن يونس سابعة السبع الطول ليس أمراً مجمعاً عليه ، بل هو قول مجاهد وابن جبير ورواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وفى رواية عند الحاكم أنها الكهف ، وذهب جماعة ـ كما قال فى إتقانه ـ إلى أن السبع الطول أولها البقرة وآخرها براءة ، واقتصر ابن الأثير فى النهاية على هذا

وعن بعضهم أن السابعة الأنفال و براءة بناء على القول بأنهما سورة واحدة وقد ذكر ذلك الفيروز أبادى فى قاموسه ، وما ذكره من الأمر الثانى يغنى عنه ما علل به عثمان رضى الله تعالى عنه ، فقد أخرج النحاس فى ناسخه عنه أنه قال : كانت الأنفال و براءة يدعيان فى زمن رسول الله ﷺ القرينتين فلذلك جعلتهما فى السبع الطول ، وما ذكره من مراعاة الفواتح فى المناسبة غير مطرد فان الجن والكافرون والإخلاص مفتتحات بقل مع الفصل بعدة سور بين الأولى والثانية والفصل بسورتين بين الثانية والثالثة ، و بعد هذا كله لايخلو ماذكره عن نظر كما لايخفى على المتأمل فتأمل . اهـ ماذكره الالوسى رحمه الله تعالى

وأقول : إن جواب عثمان لابن عباس رضى الله عنهما هو كما رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة ، وابن حبان والحاكم « كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا من كان يكتب يقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل مانزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله (ص) ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت

بينهما،ولم أكتب بينهماسطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهمافى السبع الطول»اه

ولأجل هذه الرواية ذهب البيهقى الى أن ترتيب جميع السور توقيفى عن النبي ﷺ إلا الانفال وبراءة، ووافقه السيوطى . ويرد عليه انه لايعقل أن يرتب النبي ﷺ جميع السور إلا الانفال وبراءة ، وقد صح انه ﷺ كان يتلو القرآن كله فى رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة من كل عام، فلما كان العام الذى توفى فيه عارضه بالقرآن مرتين،فأين كان يضع هاتين السورتين فى قراءته ؟ التحقيق ان وضعهما فى موضعهما توقيفى وإن فات عثمان أو نسيه ، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن كما روى عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره فى الاقطار

وهذا الحديث قال الترمذى حسن لانعرفه إلا من حديث عوف (بن أبى جميلة) عن يزيد الفارسى عن ابن عباس، ويزيد الفارسى هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل هو يزيد بن هرمز أوغيره؟ والصحيح انه غيره، روي عن ابن عباس وحكى عن عبد الله بن زياد وكان كاتبه وعن الحجاج بن يوسف فى أمر المصاحف. وسئل عنه يحيى ابن معين فلم يعرفه ، وقال أبو حاتم لا بأس به . اه ملخصا من تهذيب التذيب

فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التى انفرد بها مما يؤخذ به فى ترتيب القرآن المتواتر .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ؟ قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٤) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

روى أبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » فأما المشيخة (أى المشايخ) فثبتوا تحت الرايات . وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : انا كنا لكم ردءاً ولو كان منكم شىء للجأتم الينا ، فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت (يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول) وذلك فى غزوة بدر . وروى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن سعد بن أبى وقاص أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه واستوهبه النبي ﷺ فمنعه اياه ، وأن الآية نزلت فى ذلك فأعطاه اياه ، لأن الامر وكل اليه ﷺ . وعن ابن جرير : أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الاربعة الاخماس فنزلت هذه الآية . وجملة القول : أنها نزلت فى غنائم غزوة بدر تنازع فيها حائزوها من الشبان وسائر المقاتلة ، وقيل المهاجرون والانصار

قال تعالى ﴿ يسألونك عن الانفال ﴾ الانفال جمع نفل بالتحريك وهو فى

أصل اللغة من النفل ـ بفتح وسكون ـ أى الزيادة عن الواجب ومنه صلاة النفل . قال الراغب : النفل هو الغنيمة بعينها لكن اختلفت العبارة عنه لاختلاف الاعتبار فانه إذا اعتبر بكونه مظفوراً به يقال غنيمة ، و إذا اعتبر بكونه منحة من الله ابتداء من غير وجوب يقال له نفل ، ومنهم من فرق بينهما من حيث العموم والخصوص فقال الغنيمة كل ماحصل مستغنما بتعب كان أو بغير تعب ، و باستحقاق أو بغير استحقاق وقبل الظفر كان أو بعده ، والنفل ما يحصل للانسان قبل القسمة من جملة الغنيمة ، وقيل هو ما يحصل للمسلمين بغير قتال وهو الفيء ، وقيل ما يحصل من المتاع قبل أن تقسم الغنائم . وعلى هذا حملوا قوله (يسألونك عن الأنفال) الآية

والمعنى يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هى ؟ ألشبان أم للمشيخة ؟ أم للمهاجرين أم للأنصار ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ أى قل لهم الانفال لله يحكم فيها بحكمه والرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى . وقد قسمها ﷺ بالسواء . وهذا لاينافى التفصيل الذى سيأتى فى قوله تعالى (واعلموا أن ماغنمتم من شيء فأن لله خمسه) الخ فيكون التفصيل ناسخاً للاجمال كما قال مجاهد وعكرمة والسدى ، فالصواب قول ابن زيد : إن الآية محكمة ، وقد بين الله مصارفها فى آية الخمس وللامام أن ينفل من شاء من الجيش ماشاء قبل التخميس ﴿ فاتقوا الله ﴾ فى المشاجرة والخلاف والتنازع ، وسيأتى فى السورة مضار ذلك ولاسيما فى حال الحرب ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أى أصلحوا نفس ما بينكم وهى الحال والصلة التى بينكم تربط بعضكم ببعض وهى رابطة الإسلام و إصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الأثرة والتفرق ، والايثار أيضاً ، والبين فى أصل اللغة يطلق على الاتصال والافتراق وكل مابين طرفين كما قال (لقد تقطع بينكم) و يعبر عن هذه الرابطة بذات البين . وأمرنا فى الكتاب والسنة باصلاح ذات البين فهو واجب شرعا تتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فى الغنائم وفى كل أمر ونهى وقضاء وحكم ، فالله تعالى يطاع لذاته لأنه رب العالمين ومالك أمرهم ، والرسول يطاع فى أمر الدين لأنه مبلغ له عن الله تعالى ومبين لوحيه فيه بالقول والعمل والحكم وهذه الطاعة له تعبدية لارأى لأحد فيها وتتوقف عليها

النجاة فى الآخرة والفوز بثوابها ، و يطاع فى اجتهاده فى أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ولا سيما الحرب من حيث إنه الامام القائد العام، فمخالفته اخلال بالنظام العام وإفضاء إلى الفوضى التى لاتقوم معها للامة قائمة . فهذه الطاعة واجبة شرعا كالأولى إلا أنها معقولة المعنى ، فقد أمره الله تعالى فى تنفيذ أحكامه و إدارته بمشاورة الأمة كما تقدم فى سورة آل عمران ، وأشرك معه فى هذه الطاعة أولى الأمر كما تقدم فى سورة النساء ، وسيأتى كيف راجعه بعضهم فى هذه الغزوة المفصلة أحكامها فى هذه السورة ورجع عن رأيه ﷺ إلى الرأى الذى ظهر صوابه ، ولكن الأمر الأخير لابد أن يكون لهم كما شاورهم فى غزوة أحد فى الخروج من المدينة أو البقاء فيها . فلما انتهت المشاورة وعزم على تنفيذ رأى الجمهور راجعوه فلم يقبل مراجعة ، وقد بينا هذا مع حكمته فى تفسير (وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله) وترى فى تلك السورة كيف كانت مخالفة الرماة له ﷺ سبباً فى ظهور العدو على المسلمين ، فراجع تفسير (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم) فى ص ٢٢٤ الجزء الرابع

ولأئمة المسلمين منهم من حق الطاعة فى تنفيذ الشرع و إدارة الأمور العامة وقيادة الجند ما كان له ﷺ منه مقيداً بعدم معصية الله تعالى ، و بمشاورة أولى الأمر كما تقدم تفصيله فى تفسير (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) الآية

ثم قال تعالى ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى فامتثلوا الأوامر الثلاثة فان الايمان يقتضى ذلك كله ، لأن الله تعالى أوجبه والمؤمن بالله غير المرتاب بوعده ووعيده يكون له سائق من نفسه إلى طاعته إلا أن يعرض له مايغلبه عليها أحياناً من ثورة شهوة أو سورة غضب ، ثم لايلبث أن يفيء إلى أمر الله و يتوب اليه مما عرض له كما تقدم فى تفسير (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) الخ ، ثم وصف الله المؤمنين بما يدل على هذا و يثبته فقال :

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين الذين بين فى شرطية الآية قبلها أنهم من التقوى و إصلاح ذات البين فى الامة وطاعة الله ، ورسوله على قاعدة أن النكرة إذا أعيد ذكرها معرفة تكون عين الاولى

أو بيان حال المؤمنين الكاملي الايمان مطلقا ليعلم منه أن تلك الأمور الثلاثة هي بعض شأنهم ، وقد بين صفاتهم بصيغة الحصر التي يخاطب بها من يعلم ذلك أو ينزل منزلة العالم به الذي لاينكره وهي « إنما » كما حققه إمام الفن الشيخ عبدالقاهر

وصفهم بخمس صفات

(الصفة الأولى) قوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال الراغب : الوجل استشعار الخوف . يعني مايجعل القلب يشعر به بالفعل ، وعبر غيره عنه بالفزع والخوف (وبابه فرح وتعب) وذلك أن الخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور الألم والفزع ، وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاد بعد أجله ، فالوجل والفزع أخص منه . وفي سورة الحجر من حوار ابراهيم ﷺ مع ضيفه المنكرين (١٥ : ٥٢ قال إنا منكم وجلون ٥٣ قالوا لاتوجل) الخ ، وفي سورة المؤمنين في صفة المؤمنين المشفقين من خشية ربهم (٢٣ : ٦١ والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) فالوجل هنا مقترن بالعمل الصالح وهو البذل والعطاء وفي سورة الحج (٢٢ : ٣٤ وبشر المخبتين ٣٥ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وهي بمعنى آية الأنفال ، وليس للوجل ذكر في غير هذه الآيات ، ويتفق معنى الوجل فيها بأنه الفزع وشعور الخوف يلم بالقلب ، وقد يكون هذا الخوف من العاقبة المجهولة ، وقد يكون من الإجلال والمهابة ، وقد روى عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، ياشهر بن حوشب ، أما تجد له قشعريرة ؟ قلت بلى ، قالت فادع الله فان الدعاء يستجاب عند ذلك . وعن ثابت البناني : قال قال فلان إني لأعلم متى يستجاب لي ، قالوا ومن أين لك ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدي ، ووجل قلبي ، وفاضت عيناي ، فذلك حين يستجاب لي . وعن عائشة (رض) قالت « ماالوجل في القلب إلا كضرمة السعفة ، فاذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك » السعفة بالتحريك واحدة السعف وهو جريد النخل إذا احترق يسمع له نشيش ، شبهت به أم المؤمنين وأم الدرداء شعور الوجل يلم بالقلب من ذكر الله فيخفق له

والمراد بذكر الله ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله أو لوعيده ووعده ،

ومحاسبته لخلقه وإدانتهم ، وغير ذلك من صفاته وأفعاله سواء صحبه ذكر اللسان أم لا ، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر ، وقد يقول المؤمن فى صلاة التهجد فى الخلوة « الله أكبر » مستحضرا لمعنى كبريائه عز وجل فينتفض ويقشعر جلده ، فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هذا وظن أن الوجل لا يكون إلا من خوف العذاب ، وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه وغير ذلك من معانى اسمائه وصفاته ، ولم يقرأ قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ولم يعلم أن من عباد الله من يخشع قلبه ويفيض دمعه من ذكر أسماء الله فى آخر سورة الحشر (٥٩ : ٧ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ٢٢ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) الخ ولا يجد مثل هذا الوجل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء. وإنما يأخذ مثل هذا من معانى القرآن من فهمه بظواهر بعض الألفاظ بسوء شعور بما لها من التأثير فى القلوب فيقابل بين هذه الآية وما فى معناها وبين قوله تعالى فى سورة الرعد (١٣ : ٢٩ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فيظن أن بينهما تعارضا فيحاول التفصى منه بحمل هذا على ذكر الوعد والآخر على ذكر الوعيد ، ولا تعارض فى الحقيقة ولا تنافى فى كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال وذكر آيات الله تعالى فى الأنفس والآفاق اطمئنان القلوب بالايمان بالله تعالى والثقة بما عنده من ، وغير ذلك مما يأتى بسطه فى محله إن شاء الله تعالى : ولا ذكر يضرم سعفة الوجل فى القلب كتلاوة كلام الرب عز وجل (٣٩ : ٢٣ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فماله من هاد)

(الصفة الثانية) قوله تعالى ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ أى إذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ زادتهم إيمانا أى يقينا فى الاذعان وقوة فى الاطمئنان ، وسعة فى العرفان ، ونشاطا فى الأعمال ، ويطلق الايمان فى عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه وعلى كل منهما والقرائن

تعين المراد ، وفيما رواه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان من صحيحيهما شواهد صريحة فى ذلك ، ومن أهمها أحاديث أقل الايمان المنجى فى الآخرة وحديث «الايمان بضعة وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» وبهذا حمل بعض الناس زيادة الإيمان على زيادة العمل اللازم له ، وبعضهم على زيادة مايتعلق به الايمان الذى فسروه بالتصديق القطعى ، والحق أن الايمان القلبى نفسه يزيد وينقص أيضا . فان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا باحياء الله للموتى لما دعاه أن يريه كيف يحييها (قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) فمقام الطمأنينة فى الايمان يزيد على مادونه من الايمان المطلق قوة وكمالا ، ويروى عن على المرتضى كرم الله وجهه : لو كشف الحجاب ماازددت يقينا . وهذا أقوى من الايمان بالبرهان وهو أقوى من إيمان التقليد الذى قال به الأكثرون إذا وافق الحق وكان يقينا ، والعلم التفصيلى فى الايمان أقوى وأكمل من العلم الاجمالى ، مثال ذلك أن الايمان بتوحيد الله تعالى لا يكمل إلا بمعرفة أنواع الشرك الظاهر والباطن التى تنافيه أو تنافى كماله ومنها ما هو أخفى من دبيب النمل ، وقد ورد فى الدعاء المأثور «اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئا وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم» رواه ابن حبان والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وأبو يعلى وغيرهم من حديث أبى بكر (ض) وضعفه ابن حبان والبيهقى وحسنه غيرهما ، وكم من مدع لتوحيد الله وناطق بكلمة الاخلاص وهو يعبد غير الله بدعائه مع الله أو من دون الله و «الدعاء هو العبادة» رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من حديث النعمان بن بشير مرفوعا

ومثل آخر : من آمن بأن لله تعالى علما محيطا بالمعلومات ، وحكمة قام بها نظام الأرض والسموات ، ورحمة وسعت جميع المخلوقات ، وكان علمه بهن إجماليا لو سألته أن يبين لك شواهده فى الخلق لعجز عنها — لا يوزن إيمانه بإيمان ذى العلم التفصيلى بسنن الله فى الكائنات وعجائب صنعه فيها على النحو الذى جرى عليه العلامة المحقق ابن القيم فى كتابه تفصيل النشأتين والامام أبو حامد فى كتاب التفكر من الاحياء ، وقد اتسعت معارف البشر بهذه السنن والأسرار فى كل نوع من أنواع المخلوقات فعرفوا منها مالم يكن يخطر عشر معشاره لأحد من علماء

القرون الخالية ، ومن كلام العلماء فى ذلك قول الواحدى عن عامة أهل العلم : إن من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد . وقال الكرخى ان نفس التصديق يقبل القوة ، وهى التى عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات و يقين آحاد الأمة . وضرب الغزالى مثلا لتفاوت قوة الايمان وسائر أنواع العلم بمن يرى شبح إنسان فى السدفة ثم يراه بعد وضوح الاسفار على بعد فلا يميز صفاته ثم يراه فى نور الشمس بجانبه ، فهل يكون علمه به فى كل هذه الأحوال واحدا ؟

وجملة القول : أن زيادة الايمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات أخرى كقوله تعالى فى سورة آل عمران فى وصف الذين استجابوا لله والرسول إذ دعاهم إلى القتال بعد ما أصابهم القرح فى غزوة أحد (٣ : ١٧٣ الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وفى معناه قوله تعالى فى سورة الأحزاب (٣٣ : ٢٢ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله . ومازادهم إلا إيمانا وتسليما) وعطف التسليم على الايمان هنا يؤيد كون المراد به إيمان القلب لا العمل ، وفى معناه قوله تعالى فى أول سورة الفتح (٤٨ : ٤ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) فهو فى إيمان القلب كما هو المتبادر . وأما آيتا أواخر التوبة (٩ : ١٢٥ و ١٢٦) وآية سورة المدثر (٧٤ : ٣١) فما يحتمل أن تكون زيادة الايمان فيها زيادة متعلقة بما نزل من القرآن على أن البخارى استدل بآيتى التوبة وأمثالها على زيادة الايمان فى القلوب ، وعليه جمهور السلف . بل حكى الاجماع عليه الشافعى وأحمد وأبو عبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره . فمن العجب بعد هذا أن تنقل هفوة لبعض العلماء أنكر فيها زيادة الإيمان بالمعنى المصدرى لشبهة نظرية ، و يجعل مذهبا يقلد صاحبه فيه تقليدا ، وتؤول الآيات والاحاديث لأجله تأويلا

(الصفة الثالثة) قوله تعالى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى يتوكلون على ربهم وحده ، لا يتوكلون على غيره ولا يفوضون أمورهم إلى سواه عز وجل كما أفاده تركيب الجملة . وعن ابن عباس قال : لا يرجون غيره . والتوكل أعلى مقامات التوحيد ، فان من كان موقنا بأن ربه هو المدبر لأموره وأمور العالم كلها لا يمكن

أن يكل شيئا منها إلى غيره ، ولما كان من المعلوم من الشرع والطبع والعقل بالضرورة أن للانسان كسبا اختياريا كلفه الله العمل به وأن يؤمن بأنه يجازى على عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر - وجب على الانسان أن يسعى فى تدبير أمور نفسه بحسب ماعلمه من سنن الله تعالى فى نظام الاسباب وارتباطها بالمسببات معتقدا أن الاسباب مايعقل منها كالانسان وما لا يعقل لم تكن أسبابا إلا بتسخير الله تعالى ، وأن ماينا له باستعمالها فهو من فضل ربه الذى سخرها وجعلها أسبابا وعلمه ذلك . وأما ما لا يعرف له سبب يطلب به فالمؤمن يتوكل فيه على الله وحده وإليه يتوجه وإياه يدعو فيما يطلبه منه ، وأما ترك الأسباب وتنكب سنن الله تعالى فى الخلق وتسمية ذلك توكلا فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التى أخبرنا بأنها لاتتبدل ولا تتحول . ومثله فيه كمثل من أمره ملكه أو مالكه بأن يعول فى طعامه وشرابه وسائر حاجه عليه ولا يطلب من غيره شيئا ، وكان ذلك الملك أو المالك قد أعد له ولأمثاله كل يوم مائدة لطعامهم وشرابهم فتنطع هو وامتنع من الاختلاف إلى المائدة مع أمثاله زاعما أن هذا عصيان لأمر الملك فى التعويل عليه وانتظر أن يرسل إليه طعاما خاصا — أى أنه يطلب من ربه أن يبطل سنته فى خلقه لأجله — فما أعظم جهله وغروره به ؟

وقد تقدم تحقيق معنى التوكل مع بسط القول فيه وكونه يستلزم الأخذ بالأسباب فى تفسير (٣ : ١٦٠ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) من سورة آل عمران فيراجع فى ص ٢٠٧ — ٢١٤ وسيأتى التذكير ببعضه فى الكلام على توكل النبى ﷺ من تفسير هذه السورة (الانفال)

(الصفة الرابعة) قوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ تقدم فى تفسير هذه الجملة فى أول سورة البقرة وفى تفسير (واستعينوا بالصبر والصلاة) منها ، وفى تفسير آيات أخرى فى معناها ، وملخصها ان إقامة الصلاة عبارة عن أدائها مقومة كاملة فى صورتها وأركانها الظاهرة ، من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر ، وفى معناها وروحها الباطنة من خشوع وحضور فى مناجاة الرحمن ، وتدبر واتعاظ بتلاوة القرآن ، وتقدم أن

هذه الاقامة هي التي يستفيد صاحبها بها ماجعله الله تعالى ثمرة للصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وغير ذلك مما يراجع في مواضعه .

(الصفة الخامسة) قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي وينفقون بعض مارزقهم الله في وجوه البر من زكاة مفروضة لاقامة دولة الاسلام وغير ذلك من النفقات الواجبة والمندوبة للأقربين والمعوزين ومصالح الأمة . وتقدم تفسيرها في أول سورة البقرة وفي مواضع أخرى مع التنبيه إلى كثرة ماورد في الكتاب العزيز من جعل الزكاة أو النفقة مقارنة للصلاة لأنهما العبادتان اللتان عليهما مدار الاصلاح الروحي والاجتماعي في الملة ، والتعبير بالانفاق أعم من التعبير بالزكاة كما علمت .

﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات كلها هم دون سواهم ممن لم يتصف بها: المؤمنون إيمانا حقا أو حق الإيمان الذي لانقص فيه أو حق ذلك حقا أو حققته حقا ، ذلك بأن الايمان حق الإيمان هو ما أعقب التصديق الاذعاني فيه أثره من أعمال القلوب والجوارح و بذل المال في سبيل الله عز وجل. وقد جمعت الصفات التي وصفوا بها كل ذلك بحيث تتبعها سائر شعب الإيمان ، تقول العرب فلان شاعر حقا أو فارس حقا لمن نبغ في الشعر ولمن كملت فيه صفات الفروسية . روى الطبراني بسند ضعيف يؤثر للعبرة عن الحارث بن مالك الأنصاري (رض) أنه مر برسول الله (ص) فقال له « كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : أنظر ماذا تقول فان لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ؛ وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : يا حارثة عرفت فالزم ـ ثلاثا » وروى عن الحسن أن رجلا سأله « أمؤمن أنت ؟ قال الإيمان إيمانان فان كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا مؤمن وإن كنت تسألني عن قوله تعالى (إنما المؤمنون) . فوالله لاأدري أنا منهم أم لا » .

ثم بين تعالى جزاء هؤلاء المؤمنين الكملة فقال ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ الدرجات منازل الرفعة ومراقي الكرامة وكونها عند الرب تعالى

وذكره مضافا إلى ضميرهم تنبيه إلى عظم قدر هذه الدرجات وتكريم لأهلها ، فان الله تعالى فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات فى الدنيا وفى الآخرة وعند الرب عز وجل وهذا الأخير وإن كان يكون فى الآخرة فان وصفه بكونه عند الرب وبإضافة اسم الرب إلى أصحاب الدرجات يدل على مزيد رفعة واختصاص

وإذا أردت أن تفقه معنى الدرجات فى التفاضل بين الناس فتأمل قوله تعالى بعد بيان تساوى الرجال والنساء فى الحقوق (وللرجال عليهن درجة) وهى درجة الولاية العامة والخاصة . وقوله تعالى فى فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين (٤ : ٩٤ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله بالحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما) وهنا جمع بين الدرجة والدرجات فقيل: الدرجة تفضيلهم فى الدنيا وقيل منزلتهم عند الله تعالى والدرجات منازلهم فى الجنة . وفى معناه قوله تعالى فى تفضيل الإيمان والهجرة والجهاد فى سبيل الله على سقاية الحاج من سورة التوبة (٩ : ٢٠ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) الخ الآيتين بعدها . وقال تعالى فى بيان التفاوت والبعد بين متبعى رضوانه ومتبعى سخطه من سورة آل عمران (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) والظاهر أن العندية هنا عندية الحكم أو الجزاء، لا المكانة لانها محمولة على الفريقين . وقال تعالى فى الرسل(٢:٢٥٣ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) الآية ، قالوا هذه لنبينا ﷺ ، وقال تعالى فى إبراهيم عقب ذكر محاجته لقومه (٦ : ٨٤ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) وقال فى سياق قصة يوسف مع إخوته عقب ذكر أخذه لأخيه الشقيق منهم بوجه شرعى (١٢ : ٧٦ كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم) .

وقال فى درجات الدنيا وحدها وهى آخر آية من سورة الانعام (٦:١٦٧ وهو

الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وقال فى درجات الدار الآخرة بعد بيان التفاضل فى الرزق بين الكفار مريدى الدنيا وحدها والمؤمنين مريدى الآخرة (١٧ : ٢١ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)

وجملة القول : أن الله خلق البشر متفاوتين فى الاستعداد والعقول والأعمال واقتضى ذلك بنظام سننه فى خلقه تفضيل بعضهم على بعض درجات فى الدنيا وفى الآخرة وفى المكانة عند ربهم وهذه الأخيرة عليا الدرجات وأفضلها .

وقوله تعالى ﴿ ومغفرة ورزق كريم ﴾ معناه ولهم مغفرة من الله لذنوبهم الحقيقية التى سبقت وصولهم إلى درجة الكمال إن كانت كبيرة وما كان من قبيل اللمم ، ولذنوبهم الاضافية التى يحاسبون بها أنفسهم بعد بلوغ الكمال كالغفلة عن ذكر الله حيناً ، وترك الأفضل إلى مادونه حيناً آخر ، وفوت بعض أعمال البر الممكنة أحياناً ، وأمثال ذلك مما يعبر عنه : بحسنات الابرار سيئات المقربين ، ورزق كريم فى الجنة ، والكريم يصف به العرب كل شىء حسن فى بابه لاقبح فيه ولا شكوى منه .

---

(٥) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٦) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٧) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٨) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

تقدم فى تفسير قصة البقرة من سورتها أن سنة القرآن فى ذكر القصص والوقائع مخالفة للمعهود فى أساليب الكلام من سردها مرتبة كما وقعت ، وأن

سبب هذه المخالفة أنه لا يقص قصة ولا يسرد أخبار واقعة لأجل أن تكون تاريخا محفوظاً ، وإنما يذكر ما يذكر من ذلك لأجل العبرة والموعظة ، وبيان الآيات والحكم الإلهية والأحكام العملية . بدئت قصة البقرة بأمر موسى لقومه بذبح بقرة وذكر في آخرها سبب ذلك خلافا للترتيب المألوف من تقديم السبب على مسببه كتقديم العلة على معلولها والمقدمات على نتيجتها . ولكن أسلوب القرآن البديع أبلغ في بابه كما بسط هنالك

وهنا بدئت قصة غزوة بدر الكبرى التي كانت أول مظهر لوعد الله تعالى بنصر رسوله والمؤمنين ، والادالة لهم من أكابر مجرمي المشركين ، بذكر حكم الغنائم التي غنمها المسلمون منهم — ويالها من براعة مطلع — مقروناً ببيان صفات المؤمنين الكاملين الذين وعدهم النصر كما وعد النبيين ، وهم الذين يقبلون حكم الله وقسمة رسوله في الغنائم — ويالها من مقدمات للفوز في الحرب وغيرها — ثم ثنى على ذلك بذكر أول القصة وهو خروج النبي ﷺ من بيته في المدينة وكراهة فريق من المؤمنين لخروجه ، خلافا لما يقتضيه الإيمان من الاذعان لطاعته ، والرضاء بما يفعله بأمر ربه ، وما يحكم أو يأمر به ، كما علم من الشرط في الآية الأولى (إن كنتم مؤمنين) ولعل بيان هذا الشرط وما وليه من بيان صفات المؤمنين حق الإيمان هو أهم ما في هذه السورة على كثرة أحكامها وحكمها وفوائدها الروحية والاجتماعية والسياسية والحربية والمالية

قال تعالى ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ﴾ أي إن الانفال لله يحكم فيها بالحق ولرسوله يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية ، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ، والذين كانوا يرون أنهم أحق بها وأهلها ، فهي كاخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين في الظاهر ، وكون تلك الطائفة هي المقاتلة في الواقع ، والحال ان كثيراً من المؤمنين لكارهون لذلك لعدم استعدادهم للقتال ، أوله ولغيره من الأسباب التي تعلم مما يأتي.

هذا ما أراه المتبادر من هذا التشبيه ، وقد راجعت بعض كتب التفسير فرأيت المفسرين فيها بضعة عشر وجهاً أكثرها متكلف وبعضها قريب ولكن هذا أقرب وقد بسطه الامام أبو جعفر بن جرير الطبري باعتبار غايته وما كان من المصلحة فيه وهو حق في نفسه ولكن اللفظ لا يدل عليه ، وذكره الزمخشري مبنياً على قواعد الاعراب

ولا يظهر المعنى تمام الظهور فى الآيات إلا ببيان ماوقع من ذلك وأجمعه رواية محمد بن إسحق قال : حدثنى محمد بن مسلم الزهرى وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر و يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ، وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس ــ كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر « قالوا ــ لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب النــاس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا وكان أبوسفيان قداستنفر حين دنامن الحجاز من يتجسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أموال الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم ابن عمر الغفارى فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران ، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عــيرهم فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله امض لمــا أمرك الله به فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولــكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لوسرت بنا إلى برك الغماد ــ يعنى مدينة الحبشة ــ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله ﷺ : أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد الانصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فاذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لاتكون الانصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن

يسير بهم إلى عدو من غير بلادهم . فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد ابن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أمرك الله به، فو الذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك مايتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُر عند الحرب صُدُق عند اللقاء [1] ولعل الله يريك منا ماتقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم »

﴿ يجادلونك فى الحق بعد ماتبين ﴾ قال بعض العلماء ان هذه الآية نزلت فى مجادلة المشركين للنبى ﷺ فى أمر الدين والتوحيد . وهى بهم أليق ، ولكن ماقبلها وما بعدها فى بيان حال المؤمنين وما كان من هفوات بعضهم التى محصهم الله بعدها يعين كونها فيهم وفاقا لأبى جعفر بن جرير فيه وفى رد ذلك القول ومشايعة ابن كثير له ، وذكر أن مجاهداً فسر الحق هنا بالقتال وكذا ابن اسحق وعلل الجدال فيه بقوله : كراهية للقاء المشركين وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم ، وبيان ذلك أن المسلمين كانوا فى حال ضعف فكان من حكمة الله تعالى أن وعدهم الله أولا إحدى طائفتى قريش تكون على الابهام فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام لأنها كسب عظيم لامشقة فى إحرازه لضعف حاميته، فلما ظهر أنها فاتتهم وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل ما كان عند قريش من قوة وقربت منهم وتعين عليهم قتالها إذ تبين أنها هى الطائفة التى وعدهم الله تعالى إذ لم يبق غيرها ، صعب على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها ، وضعفهم وقوتها ، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرن للنبى ﷺ اعتذارات جدلية بأنهم لم يخرجوا إلا للعير، لأنه لم يذكر لهم قتالا فيستعدوا له ، كأنهم يحاولون إثبات أن مراد الله تعالى باحدى الطائفتين العير ، بدليل عدم أمرهم بالاستعداد للقتال ،

« ١ » صبر وصدق ـ كل منهما بضمتين جمع صبور وصدوق .

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدال فيه وجه ما ـ لا بأن يقال إن طائفة العير مراد الله تعالى فإنها نجت وذهبت من طريق سيف البحر ولو كانت هى المرادة لما نجت ، ولا بأن يقال إننا لم نعدَّ للقتال عدته فلا يمكننا طلب الطائفة الأخرى ـ فإنه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعد الله تعالى فلم يبق لجدالهم وجه إلا الجبن والخوف من القتال ، ولذلك قال ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ أى كأنهم من فرط جزعهم ورعبهم يساقون إلى الموت سوقا لا مهرب منه لظهور أسبابه حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم ، وهى ما ذكرنا من التفاوت بين حالهم وحال المشركين فى العدد والعدد والخيل والزاد ، ولكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين الظفر بهم ، وهذا دليل قطعى لا يتخلف عند المؤمن الموقن ، وما تلك إلا أسباب عادية كثيرة التخلف ، ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) وهكذا أنجز الله وعده وكان الظفر التام للمؤمنين ، وقد بين تعالى ذلك كله بقوله :

﴿و إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ تولى الله تعالى إقامة الحجة عليهم بالحق فيما جادلوا فيه رسوله بالباطل ووجه الخطاب إليهم بعد أن كان الخطاب له ﷺ فقال واذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ـ العير أو النفير ـ أنها لكم ، وهذا التعبير آكد فى الوعد من مثل : و إذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم لأن هذا إثبات بعد إثبات ، اثبات للشيء فى نفسه ، و إثبات له فى بدله ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أى وتحبون وتتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة وهى العير تكون لكم ، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا . والشوكة الحدة والقوة ، وأصلها واحدة الشوك شبهوا بها أسنة الرماح ، ثم أطلقوها تجوزاً على كل حديد من السلاح ، فقالوا شائك السلاح وشاكى السلاح . وإنما عبر عنها بهذا التعبير للتعريض بكراهتهم للقتال ، وطمعهم فى المال ، ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أى ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، يريد أن يحق الحق الذى أراده بكلماته المنزلة على رسوله أى وعده لكم إحدى الطائفتين

مبهمة وبيانها له معينة مع ضمان النصر له ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ المعاندين له من مشركي مكة وأعوانهم باستئصال شأفتهم ومحق قوتهم ، فان دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من ورائهم ، ولن يصل إليه الهلاك إلا بهلاك من قبله من الجيش ، وهكذا كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة ، وما تخلل ذلك من نيلهم من المؤمنين في أحد وحنين فانما كان تربية على ذنوب لهم اقترفوها كما قال تعالى في الأولى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أني هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم - إلى أن قال - وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) وقال في الثانية (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً - إلى قوله - ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ

قال في الكشاف : يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم والله عز وجل يريد لكم معالي الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزكم ، وأذلهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناه العير وما فيها .

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ أي وعد بما وعد وأراد باحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق أي يقره ويثبته لأنه الحق - وهو الإسلام - ويبطل الباطل أي يزيله ويمحقه - وهو الشرك - ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أولو الاعتداء والطغيان من المشركين . وإحقاق الحق وإبطال الباطل لا يكون باستيلائهم على العير بل بقتل أئمة الكفر والطاغوت من صناديد قريش المعاندين الذين خرجوا اليكم من مكة ليستأصلوكم . وقد علم مما فسرنا به الحق في الآيتين أنه لا تكرار فيه ، فالحق الأول هو القتال لطائفة النفير مع ضمان النصر للمؤمنين ، ومحق الكافرين ، والثاني هو الإسلام ، وهو المقصد والأول وسيلة له . وهذا أظهر مما قاله الزمخشري وابن المنير

(٩) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (١٠) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١١) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١٢) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٤) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ

روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وغيرهم عن عبد الله بن عباس (رض) قال حدثنى عمر بن الخطاب (رض) قال « لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلا ، ونظر إلى المشركين فاذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل نبى الله القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ماوعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض . فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر (رض) فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك . فأنزل الله تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون» الخ

وأما البخارى فروى عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر «اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد . فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك، فخرج وهو يقول (سيهزم الجمع و يولون الدبر)وروى سعيد بن منصور من طريق عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة قال« لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم و إلى المسلمين فاستقلهم فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه فقال رسول الله ﷺ وهو فى صلاته : اللهم لا تودّع منى ، اللهم لا تخذلنى ، اللهم لا تترنى (1) اللهم أنشدك ماوعدتنى » وروى ابن إسحاق فى سيرته أنه ﷺ قال « اللهم هذه قريش أتت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى »

وقد استشكل ماظهر من خوف النبى ﷺ مع وعد الله له بالنصر عاما وخاصا ومن طمأنينة أبى بكر (رض) على خلاف ما كان ليلة الغار إذ كان النبي ﷺ آمنا مطمئنا متوكلا على ربه ، وكان أبو بكر خائفا وجلا كما يدل عليه قوله عزوجل (٩ : ٤٠ إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم)

قال الحافظ فى الفتح قال الخطابى :لايجوز أن يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبى ﷺ فى تلك الحال ، بل الحامل للنبى ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه وتقوية قلوبهم لأنه كان أول مشهد شهده فبالغ فى التوجه والدعاء والابتهال لتسكن نفوسهم عند ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة فلما قال له أبو بكر ماقال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر فى نفسه من القوة والطمأنينة فلهذا عقب بقوله (سيهزم الجمع) انتهى ملخصاً

---

(1) هو من وتره يتره (من باب وعد) وله معان متقاربة منها جعله وتراً يقطع أهله أو أنصاره ومنها مسه بالأذى ومنها نقصه حقه وظلمه ومنه (ولن يتركم أعمالكم) أى لن ينقصكم من جزائها شيئا ، وقوله بعده « أنشدك ما وعدتنى » من نشده ينشده من باب قتل ، ومعناه أستنجزك وعدك إياى بالنصر والغلب.

« وقال غيره : وكان النبي ﷺ في تلك الحالة في مقام الخوف وهو أكمل حالات الصلاة ، وجاز عنده أن لايقع النصر يومئذ لأن وعده بالنصر لم يكن معيناً لتلك الواقعة وإنما كان مجملا . هذا الذي يظهر ، وزل من لاعلم عنده ممن ينسب إلى الصوفية في هذا الموضع زللا شديداً فلا يلتفت إليه ولعل الخطابي أشار إليه » اهـ ما أورده الحافظ في الفتح فهو لم يطلع على أحسن منه على سعة اطلاعه

وأقول يصح أن يكون من مقاصده ﷺ من الدعاء يومئذ تقوية قلوب أصحابه وهو مايعبر عنه في عرف هذا العصر بالقوة المعنوية ولا خلاف بين العقلاء حتى اليوم في أنها أحد أسباب النصر والظفر ، ولكن لايصح أن يكون علم باستجابة الله له لما وجد أبو بكر في نفسه القوة والطمأنينة فعلمه ﷺ بربه بوقت استجابته له أقوى وأعلى من أن يستنبطه استنباطا من حال أبي بكر (رض)

وأما قول بعضهم : إن النبي ﷺ كان يومئذ في مقام الخوف فهو ظاهر ولكنه لم يبين معه سببه ولا كونه لاينافي كمال توكله على ربه ، وكونه فيه أعلى وأكمل من صاحبه بدرجات لايعلوها شيء ، وقد بينا ذلك بالتفصيل في تفسير (٣ : ١٦٠ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهي في سياق غزوة أحد[1] ونعيد البحث مع زيادة فائدة فنقول : إنه ﷺ أعطى كل مقام حقه بحسب الحال التي كان فيها ، فلما كان عند الخروج إلى الهجرة قد عمل مع صاحبه كل ما أمكنهما من الأسباب لها وهو إعداد الزاد والراحلتين والدليل والاستخفاء في الغار لم يبق عليهما إلا التوكل على الله تعالى والثقة بمعونته وتخذيل أعدائه ﷺ لكمال توكله آمنا مطمئنا بما أنزل الله عليه من السكينة وأيده به من أرواح الملائكة ، وأبو بكر (رض) لم يرتق إلى هذه الدرجة ، فكان خائفاً حزيناً محتاجاً إلى تسلية الرسول ﷺ له

وأما يوم بدر فكان المقام فيه مقام الخوف لا مقام التوكل المحض ، وذلك أن التوكل الشرعي بالاستسلام لعناية الرب تعالى وحده إنما يصح في كل حال بعد اتخاذ الأسباب المعلومة من شرع الله ومن سننه في خلقه كما بيناه في تفسير قوله

---

(١) راجع ص ٢١٣ ج ٤ تفسير

تعالى (٣: ١٥٩ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) من ذلك السياق ، ومن المعلوم بالقطع أن أسباب النصر والغلب فى الحرب لم تكن تامة عند المسلمين فى ذلك الوقت ، لا من الجهة المادية كالعدد والعدد والغذاء والعتاد والخيل والإبل ، بل لم يكن من هذه الجهة إلا شيئا ضعيفا ، ولا من الجهة المعنوية لما تقدم من كراهة بعضهم للقتال وجدال النبي ﷺ فيه . لهذا خشي ﷺ أن يصيب أصحابه تهلكة على قلتهم ، لتقصيرهم فى بعض الأسباب المعنوية فوق التقصير غير الاختيارى فى الأسباب المادية ، فكان يدعو بأن لا يؤاخذهم الله تعالى بتقصير بعضهم فى إقامة سننه عقاباً لهم كما عاقبهم بعد ذلك فى غزوة أحد ذلك العقاب المشار اليه بقوله تعالى (٣: ١٦٥ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم)

وأما أبو بكر (رض) فلم يكن يعلم من ذلك كل ما يعلمه الرسول ﷺ وقد رآه منزعجاً خائفاً فكان همه تسليته ﷺ وتذكيره بوعد ربه لشدة حبه له ، وفى الغار كان خائفاً عليه ، ولكنه رآه مطمئنا فلم يحتج إلى تسليته بل كان ﷺ هو المسلى له لما رأى من خوفه أن يعرض له ألم أو أذى .

فالرسول ﷺ هو الذى أعطى كل مقام حقه : مقام التوكل المحض بعد استيفاء أسباب اتقاء أذى المشركين عند الهجرة ، ومقام الخوف على جماعة المؤمنين لما ذكرنا آنفاً من كراهة بعضهم للقتال ومجادلتهم له فيه بعد ما تبين لهم أنه الحق الذى يريده الله تعالى بوعده إياهم إحدى الطائفتين . أجل ، كان ﷺ يعلم أن شئون الاجتماع البشرى كسائر أطوار العالم ، لله تعالى فيها سنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل كما تكرر ذلك فى السور المكية بوجه عام ، ثم ذكر بشأن القتال خاصة فى الكلام على غزوة أحد من سورة آل عمران المدنية (٣: ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا) ثم فى سورة الأحزاب المدنية التى نزلت فى غزوتها التى تسمى غزوة الخندق أيضاً . وكان ﷺ يعلم أن سننه تعالى فى القتال كسائر سننه فى أنها لا تبديل لها ولا تحويل من قبل نزول ما أشرنا اليه فى هاتين السورتين المدنيتين اللتين نزلتا بعد غزوة بدر ، فلذلك كان خوفه على المؤمنين عظيما

فإن قيل : كيف يصح هذا وقد وعده الله تعالى إحدى الطائفتين أنها تكون للمؤمنين، وكشف له عن مصارع صناديد المشركين ؟ فإذا كان قد جوز أن يكون وعده العام بالنصر له وللمؤمنين - وهو مكرر في السور المكية والمدنية ،وصرح في بعضها بأنه من سننه في رسله والمؤمنين بهم - غير معين أن يكون في هذه الغزوة كما قال بعض العلماء،فلا يأتي مثل هذا الجواز في وعدهم إحدى الطائفتين فيها ولا سيما بعد أن نجت طائفة العير ، وانحصر الوعد في طائفة النفير ،و بعد أن كشف تعالى له عن مصارع القوم ؟

قلنا: أما كشف مصارع القوم له فالظاهر المتعين أنه كان عقب دعائه واستغاثته ربه ، ولذلك تمثل بعده بقوله تعالى في سورة القمر (سيهزم الجمع و يولون الدبر) وزال خوفه وصار يعين أمكنة تلك المصارع .وأما الوعد فسيأتي فيه أنه كان في زمن الاستغاثة والاستجابة فإن كان قبله فأمثل ما يقال فيه وأقواه ، ما قاله العلماء في كثير من وعود الكتاب والسنة المطلقة بالجزاء على بعض الأعمال بأنه مقيد بما تدل عليه النصوص الأخرى من الإيمان الصحيح واجتناب الكبائر ، ومن ذلك أن الوعد المطلق بالنصر للرسل والمؤمنين في عدة آيات مقيد بما اشترط له في آيات أخرى ،مثال الأول قوله تعالى في سورة المؤمن المكية (٤٠ : ٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد) وقوله في سورة الروم المكية أيضاً(٣٠ : ٤٥ وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ومثال ذلك الثاني قوله تعالى في الآيات التي أذن الله فيها المؤمنين بالقتال دفاعا عن أنفسهم أول مرة،وذلك في سورة الحج المدنية (٢٢ : ٤٠ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وقوله بعد ذلك في سورة القتال أو محمد (٤٦ : ٨ ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم) وقد سبق لنا بيان هذا المعنى في التفسير و إقامة الحجة به على المسلمين الجاهلين المغرورين والخرافيين الذين يتكلون في أمورهم على الصلحاء الميتين في قضاء حوائجهم بخوارق العادات ، وتبديل سنن الله في الاسباب والمسببات،حتى كأن قبورهم معامل للكرامات ، يتهافت عليها الافراد والجماعات ، يدعون أصحابها خاشعين ، مالا يدعو به الموحدون إلا الله رب العالمين ، كما فعل رسول الله ﷺ وجماعة المؤمنين

وجملة القول فى هذا المقام : أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم باعلام القرآن أن للنصر فى القتال أسبابا حسية ومعنوية ، وأن لله تعالى فيها سننا مطردة، وأن وعد الله تعالى وآياته منها المطلق ومنها المقيد ، وأن المقيد يفسر المطلق ولا يعارضه ، ولا اختلاف ولا تعارض فى كلام الله تعالى ، وكان يعلم مع ذلك أن لله تعالى عناية وتوفيقاً يمنحه من شاء من خلقه فينصر به الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه ؛ وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله ، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقلتهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية ، ويحفهم بالعناية الربانية ، التى تكون بها القوة الروحانية ؛ أجدر بالنصر من القوة المادية ، وكان كل من علم بدعائه يؤمن عليه ، وكانوا يتأسون به فى هذا الدعاء ، فيستغيثون ربهم كما استغاثه وقد أسند الله إليهم ذلك وأجابهم إلى ما سألوا بقوله :

﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ الآية ، قيل إن هذا بدل من قوله تعالى (وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم) وظاهر هذا أن زمن الوعد والاستغاثة والاستجابة واحد على اتساع فيه وحينئذ يرتفع الاشكال الذى أجبنا عنه آنفاً من أصله، وظاهر الروايات وكلام المفسرين أن الاستغاثة وقعت بعد الوعد وقد وجهوا ذلك بما ليس من موضوعنا بيانه مع القطع بأنه عربى فصيح، وقيل إنه متعلق بقوله (ليحق الحق ويبطل الباطل) أو بمحذوف علم من السياق، ومن نظائره فى آيات أخرى تقديره « اذكر » أو « اذكروا » إذ تستغيثون ربكم . والاستغاثة طلب الغوث والانقاذ من الهلكة

﴿ فاستجاب لكم أنى ممدكم ﴾ هو فى قراءة الجمهور بفتح الهمزة أى بأنى ممدكم ، وقرأها أبو عمرو بكسرها أى قائلا إنى ممدكم أى ناصركم ومغيثكم ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾ قرأ الجمهور مردفين بكسر الدال من أردفه إذا أركبه وراءه وذلك أن الذى يركب وراء غيره يركب على ردف الدابة غالباً وقرأها نافع ويعقوب بفتحها ، وفى كل منهما احتمالات لا يختلف بها المراد . أى يردفونكم أو يردف بعضهم بعضاً ويتبعه ، أو يردفهم ويتبعهم غيرهم . وتقدم فى تفسير مثل

هذه الآية من سورة آل عمران وتفسير قوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى) من الأعراف معنى المدد والامداد فى اللغة .

ثم بين تعالى أن هذا الامداد أمر روحانى يؤثر فى القلوب فيزيد فى قوتها المعنوية فقال ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ﴾ أى وما جعل عز شأنه هذا الامداد إلا بشرى لكم بأنه ينصركم كما وعدكم ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ أى تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذى عرض لكم فى جملتكم فكان من مجادلتكم للرسول فى أمر القتال ما كان . فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر، وسيأتى فى مقابلة هذا إلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ دون غيره من الملائكة أو غيرهم كالأسباب الحسية، فهو عز وجل الفاعل للنصر كغيره مما تكون أسبابه المادية أو المعنوية إذ هو المسخر لها وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ عزيز غالب على أمره ، حكيم لا يضع شيئاً فى غير موضعه

وفى التفسير المأثور عن ابن عباس رضى الله عنه أنه فسر «مردفين» بالمدد و بقوله « ملك وراء ملك » وعن الشعبي قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف وهم مدد المسلمين فى ثغورهم . وعن قتادة متتابعين، أمدهم الله تعالى بألف ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) قال يعنى نزول الملائكة عليهم السلام (قال) وذكر لنا أن عمر (رض) قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة عليهم السلام كانوا معنا ، وأما بعد ذلك فالله أعلم . وعن ابن زيد : مردفين قال : بعضهم على أثر بعض . وعن مجاهد فى قوله (وما جعله إلا بشرى) قال انما جعلهم الله يستبشر بهم . هذا جملة ما جمعه فى الدر المنثور من المأثور فى الآيتين . وظاهر نص القرآن أن إنزال الملائكة و إمداد المسلمين بهم فائدته معنوية كما تقدم وأنهم لم يكونوا محاربين وهنالك روايات أخرى فى أنهم قاتلوا وسيأتى بحثها . وما قاله الشعبي وقتادة من العدد لا يقبل إلا بنص من الشارع قطعي الرواية والدلالة لأنه خبر عن الغيب

وقد خلطت بعض الروايات بين الملائكة المردفين الذين أيد الله بهم المؤمنين فى غزوة بدر، و بين الملائكة المنزلين والمسومين الذين ذكر خبرهم فى سياق غزوة أحد من سورة آل عمران، وقد حققنا هذا المبحث فى تفسير تلك الآيات فيها واعتمدنا فى جله على تحقيق ابن جرير وذكرنا فيه ماجاء هنا ، وجملته أن الله تعالى أمد المؤمنين يوم بدر بألف من الملائكة كان قوة معنوية لهم ، وأما يوم أحد فقد حدثهم الرسول ﷺ بالامداد ووعدهم به وعدا معلقا على الصبر والتقوى ولكن انتفى الشرط فانتفى المشروط . ويراجع تفصيل ذلك فى (ص ١١٠-١١٦ ج ٤ تفسير) فانه مفيد فى تحقيق ما هنا . ولذلك لم نطل الكلام فيه

﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾ هذه منة أخرى من مننه تعالى على المؤمنين، التى كانت من أسباب ظهورهم على المشركين وهى إلقاؤه تعالى النعاس عليهم حتى غشيهم - أى غلب عليهم فكان كالغاشية تستر الشيء وتغطيه - تأمينا لهم من الخوف الذى كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم و بين عدوهم فى العدد والعدد وغير ذلك . روى أبو يعلى والبيهقى فى الدلائل عن على كرم الله وجهه قال «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة حتى أصبح» وذلك أن من غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف، كما أن الخائف لا ينام ، ولكن قد ينعس ، والنعاس فتور فى الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم فهو يضعف الادراك ولا يزيله كله فمتى زال كان نوماً ولذلك قال بعضهم هو أول النوم. وفى المصباح : وأول النوم النعاس وهو ان يحتاج الانسان الى النوم ، ثم الوسن وهو ثقل النعاس ، ثم الترنيق وهو مخالطة النعاس للعين ، ثم الكرى والتغميض وهو أن يكون الانسان بين النائم واليقظان، ثم العفق وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم، ثم الهجود والهجوع اه . وهو يفيد أن الوسن والترنيق درجتان من درجات النعاس وأن الكرى مرتبة فاصلة بين النعاس والنوم، وفى المصباح أيضا ان النعاس اسم مصدر لنعس من باب قتل ، والجمهور على انه من باب فتح فهو من المباين ، وضعوا اسمه بوزن فعال بالضم، كأنهم عدوه من الأمراض كالسعال والفواق والكباد

وقال على (رض) انهم ناموا يومئذ ، وظاهر عبارته أنهم ناموا فى الليل والمتبادر

ان نعاسهم كان فى أثناء القتال ، وقد ذكرنا الخلاف فى ذلك وتحقيق الحق فيه فى تفسير قوله تعالى (٣ : ١٥٤ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) وهو فى سياق غزوة أحد . وقلت هنالك : قد تقدم فى ملخص القصة ذكر هذا النعاس وأنه كان فى أثناء القتال ، وإنما كان مانعا من الخوف لأنه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر ، ولكن روى أن السيوف كانت تسقط من أيديهم واختار الأستاذ الامام أنه كان بعد القتال الخ فيحسن مراجعته ففيه الكلام على النعاس يوم بدر أيضا وهو فى (ص ١٨٥ ، ١٨٦ ج ٤ تفسير)

قرأ الأكثرون (يغشيكم) بالتشديد من التغشية وهو إما للتدرج و إما للمبالغة فى التغطية ، وقرأه نافع بالتخفيف من الاغشاء ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو (يغشاكم) من الثلاثى ورفع النعاس على أنه فاعله ، وهذا لايخالف القراءتين قبله ، بل هو كالمطاوع لهما ، ومعنى الثلاثة أن الله تعالى جعل النعاس يغشاكم فغشيكم ، وأما صيغ الفعل ودلالة قراءة التشديد على التدرج أو المبالغة دون قراءة التخفيف فيحمل اختلافهما على اختلاف حال من غشيهم النعاس ، فهو لايكون عادة إلا بالتدريج ويكون أشد على بعض الناس من بعض ، وقد ذكرنا بحث صيغة (غ . ش . ى) فى اللغة فى تفسير سورة الأعراف .

﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام﴾ وهذه منة ثالثة منه عز وجل على المؤمنين كان لها شأن عظيم فى انتصارهم على المشركين ، روى ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج عن ابن عباس (رض) أن المشركين غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء فظمىء المسلمون وصلوا مجنبين محدثين ، وكان بينهم رمال فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن ، وقال أتزعمون أن فيكم نبيا وانكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين ؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم (أى على الدهاس أو الرمل اللين لتلبده بالمطر)وذهبت وسوسته . هذا أثبت وأوضح وأبسط ماورد فى المأثور عن هذا المطر فى بدر ، وعن مجاهد أنه كان قبل النعاس خلافا لظاهر الترتيب فى الآية والواو لاتوجبه ..

ولولا هذا المطر لما أمكن المسلمين القتال لأنهم كانوا رجلة ليس فيهم إلا فارس واحد هو المقداد كما تقدم ، وكانت الأرض دهاسا تسيخ فيها الأقدام أو لا تثبت عليها . قال المحقق ابن القيم فى الهدى النبوى : وأنزل الله عز وجل فى تلك الليلة مطرا واحداً فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلا طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض وصلب الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط على قلوبهم . فسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ، ثم غوروا ماعداها من المياه ، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض وبنى لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تل مشرف على المعاركة ، ومشى فى موضع المعاركة ، وجعل يشير بيده « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ان شاء الله تعالى » فما تعدى أحد منهم موضع إشارته اه

وقد ذكر ابن هشام مسألة المطر بنحو مما قال ابن القيم ، ثم قال :

قال ابن اسحاق : فحدثت عن رجال من بنى سلمة أنهم ذكروا ان الحباب بن المنذر ابن الجموح قال « يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الحرب والرأى والمكيدة . » قال يارسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوّر ماوراءه من القلب ـ بضمتين جمع قليب ، وهى البئر غير المطوية أى غير المبنية بالحجارة ـ ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأى وذكر انهم فعلوا ذلك »

ذكر تعالى لذلك المطر أربع منافع (الأولى) تطهيرهم به أى تطهيراً حسيا بالنظافة التى تشرح الصدر وتنشط الأعضاء فى كل عمل ـ وشرعيا بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر (الثانية) اذهاب رجز الشيطان عنهم . والرجز والرجس والركس كلها بمعنى الشىء المستقذر حساً أو معنى والمراد هنا وسوسته كما تقدم فى المأثور (الثالثة) الربط على القلوب ، ويعبر به عن تثبيتها وتوطينها على الصبر ، كما قال تعالى (٢٨ : ٩ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا

على قلبها .وتأثير المطر فى القلوب تفسره المنفعة (الرابعة) وهو تثبيت الأقدام به فان من كان يعلم أنه يقاتل فى أرض تسوخ فيها قدمه كلما تحرك وهو قد يقاتل فارسا لا راجلا لايكون إلا وجلا مضطرب القلب .

﴿ إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ الظرف هنا غير بدل من «إذ» فى الآيات التى قبله ولا متعلق بما تعلقت به بل هو متعلق بيثبت والمعنى أنه يثبت الأقدام بالمطر فى وقت الكفاح الذى يوحى ربك فيه إلى الملائكة آمراً لهم أن يثبتوا به الأنفس بملابستهم لها واتصالهم بها وإلهامها تذكر وعد الله لرسوله وكونه لايخلف الميعاد ، والمعية فى قوله (إنى معكم) معية الاعانة كقوله (إن الله مع الصابرين)

﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ الرعب بوزن قفل اسم مصدر من رعبه (وتضم عينه) و به قرأ ابن عامر والكسائى،ومعناه الخوف الذى يملأ القلب. ولما فيه من معنى الملء يقال رعبت الحوض أو الاناء أى ملأته ، ورعب السيل الوادى . وقيل أصل معناه القطع إذ يقال رعبت السنام ورعبته ترعيبا إذا قطعته طولا ، وفسره الراغب بما يجمع بين المعنيين فقال : الرعب الانقطاع من امتلاء الخوف اه . و يقال : رعبته (من باب فتح) وأرعبته ، وأبلغ منه تعبير التنزيل بالقاء الرعب و بقذف بالرعب فى القلب لما فيه من الإشعار بأنه يصب فى القلوب دفعة واحدة ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ أى فاضربوا الهام وافلقوا الرءوس — أو اضربوا على الأعناق — وقطعوا الأيدى ذات البنان التى هى أداة التصرف فى الضرب وغيره ، وهو متعين فى حال هجوم الفارس من الكفار على الراجل من المسلمين ، فاذا لم يسبق هذا الى قطع يده قطع ذاك رأسه . والبنان جمع بنانة وهو أطراف الأصابع

وفى تفسير ابن كثير عن بعض المغازى أن النبى ﷺ جعل يمر بين القتلى ببدر — أى بعد انتهاء المعركة — و يقول « نفلق هاما» فيتم البيت أبو بكر (رض) وهو

نفلق هاما من رجال أعزة علينا، وهم كانوا أعق وأظلما

وهو يدل على ألمه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من الضرورة التى اضطرتهم الى قتل صناديد قومه. واسم التفضيل فى «أعق وأظلم» هنا على غير بابه مراعاة للظاهر

فان المشركين وحدهم هم الذين عقوه ﷺ وظلموه هو ومن آمن به حتى أخرجوهم من وطنهم بغيا وعدوانا ثم تبعوهم إلى دار هجرتهم يقاتلونهم فيهـا ، وروى أنه أوصى بنفر من بنى هاشم آله خرجوا مع المشركين كرها أن لا يقتـلوا ، كان منهم عمه العباس (رض) ولم يكن أسلم

مقتضى السياق أن وحى الله للملائكة قد تم بأمره إياهم بتثبيت المؤمنين كما يدل عليه الحصر فى قوله عن امداد الملائكة (وما جعله الله إلا بشرى) الخ وقوله تعالى (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) الخ بدء كلام خوطب به النبى ﷺ والمؤمنون تتمة للبشرى، فيكون الأمر بالضرب موجها إلى المؤمنين قطعاً، وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعا لماقبله من الآيات،وقيل ان هـذا مما أوحى إلى الملائكة ، وتأوله هؤلاء بأنه تعالى أمرهم بأن يلقوا هذا المعنى فى قلوب المؤمنين بالالهام كما كان الشيطان يخوفهم ويلقى فى قلوبهم ضده بالوسواس . ولا يرد على الأول ما قيل من أنه لايصح الا إذا كان الخطاب قد وجه إلى المؤمنين قبـل القتال والسورة قد نزلت بعده ـ لأن نزول السـورة بنظمها وترتيبها بعده لا ينـافى حصول معانيها قبـله وفى أثنائه ، فان البشارة بالامداد بالملائكة وما وليه قد حصل قبل القتال، وأخبر به النبى ﷺ أصحابه ، ثم ذكرهم الله تعالى به بانزال السورة برمتها تذكيراً بمنه ، ولولا هذا لم تكن للبشارة تلك الفائدة ، والخطاب فى السياق كله موجه إلى المؤمنين وإنما ذكر فيها وحيه تعالى الملائكة بما ذكر عرضا . وقد غفل عن هذا المعنى الآلوسى تبعـاً لغيره وادعى ان الآية ظاهرة فى قتال الملائكة ، وقد وردت روايات ضعيفة تدل على قتال الملائكة لم يعبأ الإمام ابن جرير بشىء منها ولم يجعلها حقيقة أن تذكر ولو لترجيح غيرها عليها

وما أدرى أين يضع بعض العلماء عقولهم عندما يغترون ببعض الظواهر وبعض الروايات الغريبة التى يردها العقل ، ولا يثبتها ماله قيمة من النقل فاذا كان تأييد الله للمؤمنين بالتأييدات الروحانية التى تضـاعف القوة المعنوية ، وتسهيله لهم الأسباب الحسية كانزال المطر وما كان له من الفوائد لم يكن كافيـا لنصره إياهم على المشركين بقتل سبعين وأسر سبعين حتى كان ألف ــ وقيل آلاف ــ من

الملائكة يقاتلونهم معهم فيفلقون منهم الهام ، ويقطعون من أيديهم كل بنان ، فأى مزية لأهل بدر فضلوا بها على سائر المؤمنين ممن غزوا بعدهم وأذلوا المشركين وقتلوا منهم الألوف ؟ وبماذا استحقوا قول الرسول ﷺ لعمر (رض) «وما يدريك لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ » رواه البخارى ومسلم وغيرهما . وفى كتب السير وصف المعركة عُلم منه القاتلون والآسرون لأشد المشركين بأساً ـ فهل تعارض هـذه البينات النقلية والعقلية بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حرية بأن تنقل . ولم يذكر ابن كثير منها الا قول الربيع بن أنس «كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به » ومن أين جاء الربيع بهذه الدعوى ؟ ومن ذا الذى رؤى من القتلى بهذه الصفة ؟ وكم عدد من قتل الملائكة من السبعين وعدد من قتل أهل بدر غير من سموا وقالوا قتلهم فلان وفلان ؟ كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التى شوهت التفسير وقلبت الحقائق حتى أنها خالفت نص القرآن نفسه ، فالله تعالى يقول فى إمداد الملائكة (وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) وهذه الروايات تقول بل جعلها مقاتلة ، وان هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم الا باجتماع الف أو ألوف من الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصهم الله بما ذكر من أسباب النصر المتعددة !

ألا ان فى هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل الا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ولم يرفع منها الا حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الآلوسى وغيره بغير سند وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيراً ، فرواياته عنها حتى فى الصحيح مرسلة وقد روى عن غير الصحابة حتى عن كعب الاحبار وأمثاله

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أى ذلك الذى ذكره كله من تأييده تعالى للمؤمنين وخذلانه للمشركين بسبب انهم شاقوا الله ورسوله أى عادوهما فكان

كل منهما فى شق غير الذى فيه الآخرة فالله هو الحق والداعى إلى الحق ورسوله هو المبلغ عنه الحق ، والمشركون على الباطل وما يترتب عليه من الشرور والخرافات ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ﴾ أى فان عقاب الله شديد ، وأحق الناس به المشاقون له بإيثار الشرك وعبادة الطاغوت على توحيده وعبادته ، وبالاعتداء على أوليائه أولا بمحاولة ردهم عن دينهم بالقوة والقهر واخراجهم من ديارهم ثم اتباعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه .

﴿ذلكم فذوقوه﴾ الخطاب للمشركين المنكسرين فى غزوة بدر أى لمن بقى منهم من الأسرى والمهزومين على طريق الالتفات عن الغيبة فى قوله تعالى قبله (بأنهم شاقوا الله ورسوله) والمعنى الأمر ذلكم — أى أن الأمر المبين آنفاً وهو أن الله تعالى شديد العقاب لمن يشاقه ورسوله — فذوقوا هذا العقاب الشديد وهو الانكسار والانهزام مع الخزى والذل أمام فئة قليلة العدد والعدد من المسلمين ﴿وان للكافرين عذاب النار﴾ هذا عطف على ماقبله أى والأمر المقرر مع هذا العقاب الدنيوى أن للكافرين عذاب النار فى الآخرة ، فمن أصر منكم على كفره عذب هنالك فيها وهو شر العذابين وأدومهما ، وفى الجمع بين عذاب الدنيا والآخرة للكفار آيات متفرقة فى عدة سور .

---

(١٥) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٦) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٧) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٩) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

نبدأ بتفسير الألفاظ الغريبة فى الآيات فنقول (الزحف) مصدر زحف إذا مشى على بطنه كالحية ، أو دب على مقعده كالصبي ، أو على ركبتيه ، قال امرؤ القيس :

فأقبلت زحفا على الركبتـ ين، فثوب لبست وثوب أجر

والمشى بثقل فى الحركة واتصال وتقارب فى الخطو كزحف الدبا (صغار الجراد قبل طيرانها) قال فى الأساس : وزحف البعير وأزحف : أعيا حتى جر فرسنه وزحّف الشيء جره جرا ضعيفا ، وزحف العسكر إلى العدو : مشوا اليهم فى ثقل لكثرتهم ، ولقوهم زحفا ، وتزاحف القوم وزاحفناهم ، وأزحف لنا بنو فلان صاروا زحفا لقتالنا . اهـ ملخصا والزحف الجيش . ويجمع على زحوف لخروجه عن معنى المصدرية (والأدبار) جمع دبر (بضمتين) وهو الخلف ومقابله القبل بوزنه وهو القدام ، ولذلك يكنى بهما عن السوأتين ، وتولية الدبر والادبار عبارة عن الهزيمة لأن المنهزم يجعل خصمه متوليا ومتوجها إلى دبره ومؤخره ، وذلك أعون له على قتله إذا أدركه (والمتحرف) للقتال أو غيره هو المنحرف عن جانب إلى آخر ، وأصله من الحرف وهو الطرف ، وصيغة التفعيل تعطيه معنى التكلف أو معاناة الفعل المرة بعد المرة أو بالتدريج ، وفى معناه (المتحيز) وهو المنتقل من حيز إلى آخر ، والحيز المكان ، ومادته الواو ، فالحوز المكان يبنى حوله حائط ، قال فى الأساس : انحاز عن القوم : اعتزلهم ، وانحاز اليهم وتحيز انضم . وذكر جملة الآية (والفئة) الطائفة من الناس (والمأوى) الملجأ الذى يأوى اليه الانسان و ينضم و (موهن) الشيء مضعفه ، اسم فاعل من أوهنه أى أضعفه ، ومثله وهنه وهنا ووهنه توهينا . و (الكيد) التدبير الذى يقصد به غير ظاهره فتسوء غايته المكيد به كما تقدم فى تفسير الآية ١٨٣ من سورة الاعراف . و «الاستفتاح» طلب الفتح والفصل فى الأمر ، كالنصر فى الحرب .

والمعنى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتموا الذين كفروا زحفا ﴾ أى إذا لقيتموهم حال كونهم زاحفين زحفا لقتالكم كما كانت الحال فى غزوة بدر فان الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فتلقوهم فى بدر ﴿ فلا تولوهم الادبار ﴾

أى فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم، وإن كانوا أكثر منكم عدداً وعدداً، وإذا كان التزاحف من الفريقين أو كان الزحف من المؤمنين فتحريم الفرار والهزيمة أولى ولفظ «لقيتموهم زحفاً» يصلح للاحوال الثلاثة ورجح الأول هنا بقرينة الحال التى نزلت فيها الآية وكون النهى عن التولى والفرار انما يليق بالمزحوف عليه لأنه مظنته، ويليه ماإذا كان التزاحف من الفريقين، وأما الزاحف المهاجم فليس مظنة للتولى والانهزام فيبدأ بالنهى عنه وهو منه أقبح ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ عبر بلفظ تولية الدبر فى وعيد كل فرد كما عبر به فى نهى الجماعة لتأكيد حرمة جريرة الفرار من الزحف وكون الفرد فيها كالجماعة وآثر هذا اللفظ مفرداً وجمعاً على لفظ الظهور والظهر أو القفا والأقفية زيادة فى تشنيعها لأنه لفظ يكنى به عن السوأة أى وكل من يولهم يوم إذ تلقونهم دبره ﴿ إلا متحرفاً لقتال ﴾ أى إلا متحرفاً لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج إلى القتال فيه - أو متحرفاً لضرب من ضروبه رآه أبلغ فى النكاية بالعدو كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه ليغريه باتباعه فينفرد عن أشياعه فيكرّ عليه فيقتله ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ أى متنقلا إلى فئة من المؤمنين فى حيز غير الذى كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم، فصاروا أحوج اليه ممن كان فى حيزهم ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ أى فقد رجع متلبساً بغضب عظيم من الله عليه ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ ومأواه الذى يلجأ اليه فى الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير جهنم. كأن المنهزم أراد أن يأوى إلى مكان يأمن فيه من الهلاك فعوقب على ذلك بجعل عاقبته التى يصير اليها دار الهلاك والعذاب الدائم، أى جوزى بضد غرضه من معصية الفرار، وقد تكرر فى التنزيل التعبير عن جهنم والنار بالمأوى وهو إما من قبيل ماهنا وإما للتهكم المحض، فانك إذا راجعت استعمال هذا الحرف فى غير هذا المقام من التنزيل تجده لايذكر إلا فى مقام النجاة من خوف أو شدة كقوله تعالى (إذ أوى الفتية إلى الكهف) وقوله (أو آوى إلى ركن شديد) وقوله (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) وقوله (والذين آووا ونصروا) الخ

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصى وقد جاء التصريح

بذلك فى أحاديث أصحها عن أبى هريرة مرفوعا عند الشيخين «اجتنبوا السبع الموبقات – أى المهلكات – قالوا يارسول الله وماهن؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات والمؤمنات» وقد قيد بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين، وعدّ بعضهم الآية منسوخة بقوله تعالى من هذه السورة (٦٦ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) الآية وستأتى. وهذا ظاهر على قول من يسمى التخصيص نسخا كالمتقدمين. قال الشافعى رحمه الله تعالى: إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندى من الله لو ولوا عنهم على غير تحرف للقتال أو التحيز إلى فئة، وروى هو وابن أبى شيبة عن ابن عباس قال: من فر من ثلاثة فلم يفر، ومن فر اثنين فقد فر

وقد روى عن عمر وابنه وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وأبى بصرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبى حبيب والضحاك أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية خاص بيوم بدر — قيل إنه بناء على أن قوله تعالى (يومئذ) يراد به يوم بدر، ولكن هذا خلاف قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و يؤيده نزول الآية بعد انتهاء الغزوة، فانه ليس فيها ذكر «يوم بدر» وإنما المراد بتنوين يومئذ مافهم من أول الآية أى يوم لقائهم زحفا كما تقدم فاليوم فيه بمعنى الوقت. وإنما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال – خلافا للجمهور – مع ما للغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة فى الاسلام لو انهزم فيها المسلمون والنبى ﷺ فيهم لكانت الفتنة كبيرة، وتأييد المسلمين فيها الملائكة يثبتونهم، ووعده تعالى بنصرهم و إلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم – فاذا نظرنا إلى مجموع الخصائص وقرينة الحال فى النهى اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذى فى الآية خاصا بها، أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابة (رض) بالتولى والادبار فى القتال مرتين مع وجوده ﷺ معهم: يوم أحد، وفيه يقول الله تعالى (٣: ١٥٥ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض

بما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) ويوم حنين وفيه يقول الله تعالى (٩ : ٢٥ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ٢٦ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ وهذا لا ينافى كون التولى حراما ومن الكبائر ، ولا يقتضى أن يكون كل تول لغير السببين المستثنيين فى آية الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، بل قد يكون دون ذلك ويتقيد بآية رخصة الضعف الآتية فى هذه السورة وبالنهى عن إلقاء النفس فى التهلكة من حيث عمومها كما تقدم فى سورة البقرة وسيأتى تفصيلة قريبا

وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائى من حديث ابن عمر قال « كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة [1] وكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبتنا ، ثم قلنا لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ فان كان لنا توبة وإلا ذهبنا . فأتيناه قبل صلاة الغداة [2] فخرج فقال : من الفرارون ؟ فقلنا نحن الفرارون . قال : بل أنتم العكارون [3] أنا فئتكم وفئة المسلمين . قال : فأتيناه حتى قبلنا يده «ولفظ أبى داود » فقلنا ندخل المدينة فنبيت فيها لنذهب ولا يرانا أحد ، فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول ﷺ فان كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا ، فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا نحن الفرارون الخ» تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع فى معنى التحيز إلى فئة لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم ، وقد قال الترمذى فيه : حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد أقول : وهو مختلف فيه ، ضعفه الكثيرون وقال ابن حبان كان صدوقا إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير فى حديثه فمن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح ، وجملة القول أن هذا الحديث لا وزن له فى هذه المسألة لا متنا ولا سنداً ، وفى معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع فى ميزان هذه المسألة

« ١ » حاص عن الشيء حاد وهرب « ٢ » أى الصبح « ٣ » العكار كالعطاف والكرار لفظا ومعنى

وأما قوله ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ فهو وصل للنهى عن التولى بما هو حجة على جدارتهم بالانتهاء ، فان كانت الآية التى قبله قد نزلت بعد انتهاء القتال فى غزوة بدر كسائر السورة ، كما عليه الجمهور فوجه الوصل بالفاء ظاهر جلى ، كأنه يقول ياأيها المؤمنون لاتولوا الكفار ظهوركم فى القتال أبدا ، فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى ، فها أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم على قلة عددكم وعددكم وكثرتهم واستعدادهم ، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى لكم ، وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادى ولكن الله قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم ، وبالقائه الرعب فى قلوبهم ، فهو بمعنى قوله عز وجل (٩ : ١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية ، والمؤمن أجدر بالصبر الذى هو الركن الأعظم للنصر من الكافر ، لأنه أقل حرصاً على متاع الدنيا ، وأعظم رجاء بالله والدار الآخرة كما قال تعالى (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالايرجون) وقال حكاية لرد المؤمنين بهذا الرجاء ، على الخائفين من كثرة الأعداء (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) .

ثم التفت عن خطاب المؤمنين المقاتلين بأيديهم ، والمجندلين لصناديد المشركين بسيوفهم إلى خطاب قائدهم وهو الرسول ﷺ المؤيد منه تعالى بالآيات ومنها أنه رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب قائلا « شاهت الوجوه » فأعقبت رميته هزيمتهم ، وروى عن أبى جعفر المدنى عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظى بالمعنى : وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما قال فى استغاثته يوم بدر « يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً . قال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم - ففعل فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين » وروى السدى أنه ﷺ طلب من على أن يعطيه حصبا من الأرض فناوله حصبا عليه تراب فرماهم به الخ . وعن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة أيضا أن الآية فى رميه ﷺ فى بدر . فاذا لم تكن رواية من هذه الروايات وصلت إلى درجة الصحيح فمجموعها

مع القرينة حجة على ذلك . وروى مثل هذه الرمية فى غزوة حنين فحمل الآية بعضهم على ذلك وهو شاذ وحملها بعضهم على رميه ﷺ لأمية بن خلف بالحربة يوم أحد وهو مقنع بالحديد فقتله وهو شاذ أيضا فالآية بل السورة نزلت فى غزوة بدر . والمعنى ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ الخ رميت أيها الرسول أحداً من أولئك المشركين فى الوقت الذى رميت فيه تلك القبضة من التراب بالقائها فى الهواء فأصابت وجوههم فان ماأوتيته كأمثالك من البشر من استطاعة على الرمى لايبلغ هذا التأثير الذى هو فوق الأسباب الممنوحة لهم ﴿ولكن الله رمى﴾ وجوههم كلهم بماأوصل التراب الذى ألقيته فى الهواء اليها مع قلته، أو بعد تكثيره بمحض قدرته، وحذف مفعول الرمى للدلالة على عمومه فى كل من الاثبات والنفى ، كما قدرنا فيهما وفاقا لما تقرر فى علم المعانى ــ وقد علم من هذا التفسير المتبادر من اللفظ بغير تكلف وجه الفرق بين قتل المؤمنين للكفار الذى هو فعل من أفعالهم المقدورة لهم بحسب سنن الله فى الأسباب الدنيوية ، و بين رمى النبى ﷺ إياهم بالتراب الذى ليس بسبب لشكاية أعينهم وشوهة وجوههم لقلته و بعدهم عن راميه وكونهم غير مستقبلين كلهم له ، ولأجل هذا الفرق ذكر مفعول القتل مثبتا ومنفيا ــ وهو ضمير المشركين ــ فنفى القتل المحسوس مطلقا وأثبت المعقول مطلقا لعدم تعارضهما فالمراد من كل منهما ظاهر بغير شبهة ، ولو أثبت لهم القتل مع نفيه عنهم بأن قال : إذ قتلتموهم ــ لكان تناقضا ظاهراً يخفى وجه جعل المثبت منه غير المنفى . وقتلهم لهم مشاهد لا يحتاج إلى إثبات من حيث كان سبباً ناقصا، وإنما الحاجة إلى بيان نقصه وعدم استقلاله بالسببية ، ثم بيان ما لولاه لم يكن وهو إعانة الله ونصره .

وأما رمى النبى ﷺ لوجوه القوم فلم يكن سبباً عاديا لاصابتهم وهزيمتهم لا مشاهداً كضرب أصحابه لأعناق المشركين ، ولا غير مشاهد ، والجمع بين نفيه و إثباته لا يوهم التناقض للعلم بعدم السببية . ولم يذكر مفعول الرمى بأن يقال « وما رميت وجوههم » إذ لا شبهة هنا فى عدم استطاعة النبى ﷺ لهذا استقلالا بكسبه المادى ، وأما هنالك فالظاهر أن القتل من كسبهم الاستقلالى . والحقيقة أنه لولا تأييد الله تعالى ونصره بما تقدم بيانه لما وصل كسبهم المحض إلى

هذا القتل ، وقد علمنا ما كان من خوفهم وكراهتهم للقتال ومجادلة النبى ﷺ فيه (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) فلو ظلوا على هذه الحالة المعنوية مع قلتهم وضعفهم لـكان مقتضى الأسباب أن يمحقهم المشركون محقا .

وأما الفرق بين فعله تعالى فى القتل وفعله فى الرمى . فالأول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل التى تقدم بيانها ؛ كما هو الشأن فى جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل فى حصول غاياتها إلا بفعل الله وتسخيره لهم وللأسباب التى لا يصل إليها كسبهم عادة، كقوله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما) الخ فالانسان يحرث الأرض ويلقى فيها البزر ولكنه لا يملك انزال المطر ولا إنبات الحب وتغذيته بالتراب المختلف العناصر ، ولا دفع الجوائح عنه . ولا يستقل إيجاد الزرع و بلوغ ثمرته صلاحها بكسبه وحده . وأما الثانى فهو من فعله تعالى وحده بدون كسب عادى للنبى ﷺ فى تأثيره فالرمى منه كان صوريا لتظهر الآية على يده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فمثله فى ذلك كمثل أخيه موسى عليه السلام فى إلقائه العصا (فاذا هى حية تسعى) فخاف منها أولا كما ورد فى سورتى طه والنمل

هذا ما يدل عليه نظم الـكلام بلا تـكلف ولا حمل على المذاهب والآراء الحادثة من كلامية وتصوفية وغيرها ، فالجبرى يحتج بها على سلب الاختيار وكون الانسان كالريشة فى الهواء ، والاتحادى يحتج بها على وحدة الوجود ، وكون العبد هو الرب المعبود ، والأشعرى يحتج بها على الجمع بين كسب العبد وخلق الرب باسناد الرمى إلى النبى ﷺ وإلى الخالق عز وجل . وهو يغنى عن إسناد القتل إلى المؤمنين بالأولى ، والقرآن فوق المذاهب وقبلها ، غنى بفصاحته و بلاغته عن هذه التأويلات كلها (كل حزب بما لديهم فرحون) وكلام الله فوق ما يظنون .

وأما موقع الفاء فى أول الآية على القول بأن الآية السابقة عليها نزلت قبل القتال تحريضاً عليه فقد قيل إنها واقعة فى جواب شرط مقدر ، واختلفوا فى تقديره وقال بعضهم بل هى لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض ، وقد يقال : إنه لا مانع من نزولها بعد المعركة ووصلها بما قبلها للدلالة على ما ذكرنا من التعليل والاحتجاج

على مشروعية النهي عن الهزيمة ، وأولى منه أن يستدل بها على نزول ماقبلها في ضمن السورة بعد المعركة .

وأما قوله تعالى ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ فهو معطوف على تعليل مستفاد مما قبله ، أي انه فعل ماذكر لاقامة حجته وتأييد رسوله (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا) بالنصر والغنيمة وحسن السمعة . والبلاء الاختبار بالحسن أو بالسوء ، كما قال تعالى في بني إسرائيل (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) وتقدم بيانه بالتفصيل . وختم الآية بقوله ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ وهو تعليل مستأنف للبلاء الحسن والمراد أنه تعالى سميع لما كان من استغاثة المؤمنين مع الرسول ربهم ودعائهم إياه وحده ، عليم بصدقهم وإخلاصهم ، وبما يترتب على استجابته لهم من تأييد الحق الذي هم عليه وخذلان الشرك ، كما أنه سميع لكل نداء وكلام ، عليم بالنيات الباعثة عليه ، والعواقب التي تنشأ عنه ، وبكل شيء .

ولما كان من سنة القرآن المقابلة بين الإيمان والكفر وبين أهل كل منهما وجزائهما عليهما قال ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ أي الأمر في المؤمنين وفائدتهم مما تقدم هو ذلكم الذي سمعتم ، ويضاف إليه تعليل آخر وهو أن الله تعالى موهن كيد الكافرين ، أي مضعف كيدهم ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والاصلاح قبل أن تقوى وتشتد ، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر (موهن) بتشديد الهاء والتنوين ونصب (كيد) والتشديد للمبالغة في الوهن . وقرأ حفص عن عاصم بالتخفيف والاضافة والباقون بالتخفيف والنصب .

وقد صرح التنزيل بجزاء الفريقين في تعليل آخر في عاقبة الحرب ، قال في سياق غزوة أحد من سورة آل عمران (٣ : ١٤٠ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين ١٤١ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)

﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ قيل ان الخطاب للكفار ذكر خذلانهم واضعاف كيدهم ثم التفتت عنه إلى تذكيرهم وتوبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله ﷺ ذكر محمد بن اسحق وعروة عن الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير « أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة . فكان ذلك استفتاحا منه » رواه عنه أحمد ورواه النسائى فى التفسير والحاكم فى المستدرك عن الزهرى . وروى مثله عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال السدى كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين، فقال الله (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) يقول قد نصرت ماقلتم وهو محمد ﷺ » وفى رواية « أن أبا جهل قال حين التقى الجمعان : اللهم رب ديننا القديم ودين محمد الحديث فأى الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم . فالفتح هو نصر النبى ودينه وأتباعه . وهذا يدل على أن أبا جهل كان مغروراً بشركه واثقاً بدينه ولم يكن أكثر أكابر مجرمى مكة كذلك بل كان كفرهم عن كبر وعلو وحسد للنبى ﷺ .

﴿ وان تنتهوا فهو خير لكم ﴾ أى وان تنتهوا عن عداوة النبى ﷺ وقتاله فالانتهاء خير لكم، لانكم لاتكونون إلا مغلوبين مخذولين كقوله (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) والخيرية فى هذه الحالة بالإضافة إلى الاستمرار على العدوان والقتال ، ويحتمل أن يراد به الانتهاء عن الشرك فتكون الخيرية على حقيقتها وكمالها ﴿ وان تعودوا نعد ﴾ أى و إن تعودوا إلى مقاتلته نعد لما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجىء الفتح الأعظم الذى يذل فيه شرككم ، وتدول الدولة للمؤمنين عليكم ﴿ ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أى ولن تدفع عنكم جماعتكم من المشركين شيئاً من بأس الله وبطشه ولو كثرت عدداً فالكثرة لا تكون سبباً للنصر ، إلا إذا تساوت مع القلة فى الثبات والصبر ، والثقة بالله عز وجل

﴿ وان الله مع المؤمنين ﴾ بالمعونة والولاية والتوفيق فلا تضرهم قلتهم . قرأ نافع وابن عامر (وأن) وحفص بفتح الهمزة بتقدير اللام أى ولأن الله مع المؤمنين

كان الأمر ماذكره ، وقرأها الباقون بالكسر على الاستئناف

وقيل ان الخطاب فى الآية للمؤمنين كسابقه ولاحقه والمعنى : ان تستنصروا ربكم وتستغيثوه عند شعوركم بالضعف والقلة فقد جاءكم النصر و إن تنتهوا عن التكاسل فى القتال والرغبة عما يأمر به الرسول ومجادلته فى الحق بعدماتبين فهو خير لكم . و إن تعودوا إليه نعد عليكم بالانكار أو تهييج العدو ، ولن تغنى عنكم كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر ، فها نحن أولاء قد نصرناكم على قلتكم وضعفكم . هذا أقوى من كل مارأيناه فى تصوير المعنى فأكثر ماقالوه ظاهر التكلف ، ولولا السياق لكان المعنى الأول أرجح لأنه أظهر .

---

(٣٠) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٣١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٣٢) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٣٣) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ

كانت السورة من أولها إلى هنا فى قصة غزوة بدر الكبرى إلا أنها افتتحت بعد براعة المطلع — وهو السؤال عن الغنائم — بالمقصد من الدين وهو الايمان وطاعة الله ورسوله ووصف الايمان الكامل ، وانتقل منها إلى مقدمات الغزوة وما كان من عناية الله فيها بالمؤمنين ، ثم انتقل هنا أوفيما قبله إلى نداء المؤمنين المرة بعد المرة وتوجيه الأوامر والنواهى إليهم فى مقاصد الاسلام والايمان والاحسان — و ينتهى هذا بالآية ٢٩ ثم ينتقل من ذلك إلى شؤون الكفار مع المؤمنين وعداوتهم لهم وللرسول ﷺ وكيدهم له وعدوانهم عليه ، وفتنة المؤمنين به — ومنه إلى الأمر بقتالهم وحكمته ثم يعود الكلام إلى غزوة بدر وما كان فيها من حكم وسنن وأحكام وتشريع ، وهذا يدخل فى أول الجزء العاشر وهو آية (٤١ واعلموا انما غنمتم من شىء) الخ

قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ﴾ ذكرت هذه الطاعة فى

الآية الأولى من هذه السورة وأعيدت هنا ليعطف عليهـا قوله ﴿ ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ أى ولا تتولوا وتعرضوا عن الرسول ﷺ والحال أنكم تسمعون منه كلام الله المصرح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره ، والمراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق والاذعان الذى هو شأن المؤمنين الذين دأبهم أن يقولوا (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير) والموصوفين بقوله عز وجل (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)

ثم قرر هذا المعنى و بين مقابله بقوله ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ وهم فريقان (الأول) الكفار المعاندون (٤ : ٤٥ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا — ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين — ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) وأمثالهم من الكفار المعاندين والمقلدين ، وورد فيهم آيات سيذكر بعضها هنا (الثانى) المنافقون الذين قال تعالى فى بعضهم (٤٧ : ١٧ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟) وتقدم فى سورة الأعراف من صفات أهل النار فى الدنيا (ولهم آذان لا يسمعون بها) مع آيات أخرى والمراد فى هذا كله أنهم لا يسمعون سماع تفقه واعتبار يتبعه الانتفاع والعمل

ثم علل الأمر والنهى بقوله ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ الدواب جمع دابة وهى كل مايدب على الأرض قال فى سورة النور (٢٤ : ٤٣ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) الآية وقلما يستعمل هذا اللفظ فى الانسان وحده وانما يغلب فى الحشرات ودواب الركوب ، فان كان قديماً فهو هنا يشعر بالاحتقار

والمعنى ان شر مايدب على الأرض فى حكم الله الحق هم الأشرار من البشر « الصم » الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة فكانوا بفقد

منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته « البكم » الذين لا يقولون الحق، كأنهم فقدوا قوة النطق « الذين لا يعقلون » أى فقدوا فضيلة العقل الذى يميز بين الحق والباطل. و يفرق بين الخير والشر ، إذ لو عقلوا لطلبوا ، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا ، ولو سمعوا لنطقوا و بينوا ، وتذكروا وذكروا ، كما قال تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له أو ألقى السمع وهو شهيد) فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى ، بأن خلقوا خداجا أو طرأت عليهم آفات ذهبت بمشاعرهم الظاهرة والباطنة ، بل هم شر من هؤلاء . لأن هذه المشاعر والقوى خلقت لهم فأفسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله تعالى لأجله فى سن التمييز ثم التكليف. فهم كما قال الشاعر :

خلقوا، وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا ، وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

و إذا أردت فهم الآية فهما تفصيليا فارجع الى تفسيرنا لقوله تعالى (١٧٩:٧ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ولم يصفهم هنا بالعمى كما وصفهم فى آية الأعراف وآيتى البقرة لأن المقام هنا مقام التعريض بالذين ردوا دعوة الاسلام ، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن .

﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ أى ولو علم الله فيهم استعدادا للإيمان والهدى ببقية من نور الفطرة ، لم تطفئها مفاسد التربية وسوء القدوة ، لأسمعهم بتوفيقه وعنايته الكتاب والحكمة سماع تفقه وتدبر ، ولكنه علم أنه لا خير فيهم لأنهم ممن أحاطت بهم خطاياهم وختم على قلوبهم ﴿ ولو أسمعهم ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم ﴿ لتولوا ﴾ عن القبول والإذعان لما فهموا ﴿ وهم معرضون ﴾ والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به ـ كما هو مدلول الجملة الحالية ـ كراهة وعنادا للداعى اليه ولأهله ، لا توليا عارضا مؤقتاً ، وفرق عظيم بين التولى العارض لصارف موقت وتولى الاعراض والكراهة الذى فقد صاحبه الاستعداد للحق وقبول الخير فقداً تاما . ومن اضطرب فى فهم الجمع بين التولى والإعراض

فقد جهل معنى الجملة الحالية الفارق بينها وبين الحال المفردة كما بينه الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، والآية نص في أنه تعالى لم يسمعهم أى لم يوفقهم للسماع النافع لأن الباعث عليه هو ما في الفطرة من نور الحق المحبب للنفس في الخير ، وقد فقدوا ذلك بإفسادهم لفطرتهم ، و إطفائهم لنور الاستعداد للحق والخير الذى يذكيه سماع الحكمة والموعظة الحسنة ، فصاروا ممن وصفهم في سورة المطففين المكية بقوله (٨٣: ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وقوله في سورة البقرة (٢ : ٨١ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ووصفهم فيها بقوله (١٨ صم بكم عمى فهم لايرجعون) وضرب المثل لسماعهم بقوله في الآية الأخرى منها (٢: ١٧١ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون) يعنى أنهم كسارحة النعم تسمع الصراخ الناعق فترفع رءوسها ، ولكنها لا تفهم له معنى فاذا سكت عادت الى رعيها كما قال ابن دريد في مقصورته :

نحن ولا كفران لله كما ... قد قيل في السارب أخلى فارتعى
إذا أحس نبأة ريع وإن ... تطامنت عنه تمادى ولها

وفي الآيتين ٤٢و٤٣ من سورة يونس(١٠) إيئاس النبي ﷺ من إسماع هؤلاء الصم وهداية هؤلاء العمى وقفى على ذلك بقوله تعالى(٤٤ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) فأمثال هذه الآيات تحثو التراب في فم من يزعم أن الاية تدل على الجبر وعدم اختيار العبد في كفره و إيمانه ، كما أنها تسجل الجهل باللغة على من يزعم أن فيها إشكالا في النظم بجواز تقدير : ولو أسمعهم لعلمه بأن فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون عن الإيمان والهدى، ونقول إن تقديره هذا هو الباطل لأنه نقيض ما أفادته «لو» من أنه علم أنه لا خير فيهم فهو لا ينتج إلا باطلا ، وعفا الله عمن صوروا هذا الإشكال الوهمى بالاصطلاح المنطقى الفلسفى وأطالوا في الرد عليه من تلك الطرق اصطلاحية الشاغلة عن كتاب الله تعالى

ألم يك خيرا لهم من هذه الحذلقة اللفظية الصارفة عن القرآن توجيه قلب سامعه لمحاسبة نفسه على هذا السماع ودرجة حظه منه ؟ فان للسماع درجات باعتبار ما يطالبه الله تعالى به من الاهتداء بكتابه : أسفلها أن يتعمد من يتلى عليه القرآن أن لا يسمعه

مبارزة له بالعداوة من أول وهلة خوفا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم عليها كالذين قال الله فيهم (٤١ : ٢٦ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ويليها من يستمع وهو لاينوى أن يفهم ويعلم كالمنافقين المشار اليهم فى آية سورة القتال (٤٧ :١٧) وذكرت فى هذا السياق – ويليها من يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض ، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب ، وكما يفعل فى كل وقت مرتزقة دعاة النصرانية وغيرهم إذا استمعوا للقرآن أو نظروا فيه ــ ويليها أن يسمع ليفهم ويعلم ثم يحكم للكلام أو عليه .

وهذه الدرجات كلها لغير المؤمنين به ، والمنصف منهم الفريق الأخير وكم آمن منهم من تأمل وفهم . نظر طبيب إفرنسى معاصر فى ترجمة القرآن فرأى أن كل مايتعلق بالطب والمحافظة على الصحة منه ــ كالطهارة والاعتدال وعدم الاسراف ــ موافق لأحدث المسائل التى استقر عليها رأى الأطباء فى هذا العصر ، فرغبه ذلك فى تأمله كله فأسلم ونظر (مستر براون) وهو ربّان بارج من الانكليز فى ترجمة مستر سايل الانكليزية له فاستقصى فيه الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبى ﷺ كان من أكبر ربانى الملاحين فسأل عنه فقيل له إنه لم ير البحر قط وكان مع ذلك أمياً لم يقرأ كتابا ، ولا تلقى عن أحد درساً ، (قال) فعلمت أن هذا كان بوحى من الله لأنه حقائق لم يعلمها من اختباره بنفسه ، ولا بتلقيه عن غيره من المختبرين ، وقد أسلم وتعلم العربية رحمه الله تعالى

وأما المسلمون فى هذه البلاد فأكثرهم اليوم يسمعون القارىء يتلو القرآن فلا يستمعون له ولا يشعرون بأنهم فى حاجة إلى سماعه ، وأكثر الذين يستمعون له وينصتون يقصدون بذلك التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغمات ومنهم من يقصد بسماعه التبرك فقط ، ومنهم من يحضر الحفاظ لتلاوته عنده فى ليالى رمضان لأن ذلك من شعائر أكابر الوجهاء ، وإنما تكون التلاوة فى حجرة البواب أو غيره من الخدم وإذا سمعت بعض السامعين للتلاوة يقول : الله الله ، أو غير ذلك من كلمة مفردة أو مركبة أو صوت لامعنى له فانما ينطق به إعجابا بنغمة التالى ، حتى انهم لينطقون عند سماعه ببعض الأصوات التى تخرج من أفواههم عند سماع الغناء

دعيت مرة إلى حفلة عرس فاذا أنا بقارىء يتلو بالنغم والتطريب وبعض

الحاضرين يهتز وينطق بتلك الحروف الممتادة فى مجالس الغناء ويستعيدون بعض الجمل أو الآيات كما يستعيدون المغنى على سواء ، وكان القارىء يتلو تلك الوصايا الصادعة من سورة الاسراء وما يتلوها من وصف القرآن وهدايته ومواعظه وتوبيخ المعرضين عنه كقوله تعالى (١٧ : ٤١ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا - إلى قوله - ٤٥ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ٤٦ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ٤٧ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون اليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)

فلما سمعت مكاء أولئك السفهاء وأصواتهم المنكرة عند سماع هذه الحكم الروائع والمواعظ الصوادع لم أملك نفسى أن صحت فيهم صيحة مزعجة ووقفت على الكرسى الذى كنت جالسا عليه ووبختهم توبيخا شديداً مبيناً لهم مايجب من الأدب والخشوع والخشية عند سماع القرآن ، ولا سيما أمثال هذه الآيات ، وتلوت عليهم قوله تعالى (٥٩ : ٢١ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) فسكتوا وسكنوا إلا واحداً منهم أخذته العزة بالإثم ، ولكنه صار يتظاهر بأنه يهتز متخشعاً ، ويهمهم معتبرا متدبرا .

وليعلم القارىء أن لفهم الكلام نفسه درجات فمن الناس من لا يفهم من الكلام إلا مدلولات الألفاظ على مافيها من إجمال وإبهام بحسب ماتفسر به المفردات فى معاجم اللغة ، أو مع المركبات بحسب قواعد النحو والبيان ، ككون لفظى الصم والبكم هنا من مجاز الاستعارة مثلا ، وهذا الفهم قاصر لا يتسع عقل صاحبه للتدبر والتذكر المطلوب ، ومنهم من يكون فهمه تفصيليا ينتقل من الكليات إلى الجزئيات ، ويعدو المفهومات الذهنية إلى الماصدقات ، ولكنه يجعلها بمعزل عن نفسه ويتصور أن الكلام كله لغيره وفى غيره ، بأن يقول هذه الآية نزلت فى الكافرين أو المنافقين ، لا فى أمثالى من المؤمنين ، وإن كان متصفاً بما تنهى عنه وتتوعد عليه من صفاتهم وأعمالهم ، فصاحبها يصدق عليه بوجه ما أنه من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون

و إنما الدرجة العليا للسماع أن تسمع فتفقه وتعقل وتتدبر فتعتبر وتعمل حتى لا تقول يوم القيامة (٦٧ : ١٠ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير)

---

(٢٤) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٥) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٦) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

يقال دعاه فأجابه واستجابه واستجاب له، وكثر المتعدى فى التنزيل ويقول الراغب : إن أصل الاستجابة التهيؤ والاستعداد للاجابة فحل محلها، أقول: والاقرب الى الفهم قلب هذا وعكسه وهو ان الاستجابة هى الاجابة بعناية واستعداد فتكون زيادة السين والتاء للمبالغة ، وهو يقرب مما قالوه فى معانيها من التكلف والتحرى أو هو بعينه إلا أنه لايعبر به فيما يسند إلى الله تعالى كقوله (فاستجاب لهم ربهم) فقوله ﴿ ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ معناه إذا علمتم مافرضنا عليكم من الطاعة ، وشأن سماع التفقه من الهداية ، وقد دعاكم الرسول بالتبليغ عن الله تعالى لما يحييكم ، فاجيبوا الدعوة بعناية وهمة ، وعزيمة وقوة ، فهو كقوله تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة) والمراد بالحياة هنا حياة العلم بالله تعالى وسننه فى خلقه ، وأحكام شرعه والحكمة والفضيلة والأعمال الصالحة التى تكمل بها الفطرة الإنسانية فى الدنيا وتستعد للحياة الأبدية فى الآخرة ، وقيل المراد بالحياة هنا الجهاد فى سبيل الله لأنه سبب القوة والعزة والسلطان والصواب أن الجهاد يدخل فيما ذكرنا وليس هو الحياة المطلوبة بل هو وسيلة لتحققها وسياج

لها بعد حصولها ، وقيل هى الايمان والاسلام ، وانما يصح باعتبار ما كان يتجدد من الاحكام ، وثمرته فى القلوب والاعمال ، و بما فى الاستجابة من معنى المبالغة فى الاجابة، و إلا فالخطاب للمؤمنين. وقيل هى القرآن ولاشك انه ينبوعها الاعظم، الهادى الى سبيلها الاقوم، مع بيانه من سنة الرسول وهديه الذى أمرنا بان يكون لنا فيه أسوة حسنة، ويدل عليه اقتران طاعته بطاعة الله تعالى، بل قال بعض العلماء أنه كان اذا دعا شخصاً وهو يصلي يجب عليه أن يترك الصلاة استجابة له وان الصلاة لا تبطل باجابته، بل له أن يبنى على ما كان صلى و يتم، واستدلوا على ذلك بحديث رواه البخارى عن سعيد بن المعلى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه - أو قال فلم آته حتى صليت ثم أتيته- فقلت يارسول الله إنى كنت أصلى ، فقال « ألم يقل الله (استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم) ؟ الحديث . وروى الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة «أنه ﷺ دعا أبى بن كعب وهو فى الصلاة» وذكر نحواً مما رواه البخارى عن أبي سعيد وصححه. وقال الحافظ فى باب فضائل الفاتحة من الفتح عند ذكر فقه الحديث: وفيه ان الامر يقتضى الفور لانه ﷺ عاتب الصحابى على تأخير اجابته، وفيه استعمال صيغة العموم فى الاحوال كلها. قال الخطابى : فيه ان حكم لفظ العموم أن يجرى على جميع مقتضاه وان الخاص والعام اذا تقابلا كان العام منزلا على الخاص ، لان الشارع حرم الكلام فى الصلاة على العموم ثم استثنى منها اجابة دعاء النبي ﷺ فى الصلاة (وفيه) ان اجابة دعاء النبى ﷺ لا تفسد الصلاة- هكذا صرح به جماعة من الشافعية وغيرهم وفيه بحث لاحتمال أن تكون اجابته واجبة مطلقاً سواء كان المخاطب مصلياً أو غير مصل ، اما كونه يخرج لاجابته من الصلاة أو لا يخرج فليس فى الحديث ما يستلزمه ، فيحتمل أن تجب الاجابة ولو خرج المجيب من الصلاة ، وإلى ذلك جنح بعض الشافعية الخ ما أورده ولا تعرض فيه لما يدعو المرء إليه وهل يشترط لما ذكر أن يكون من أمر الدين أم لا ؟ وقد كان ﷺ دعا سعيداً هذا ليعلمه فضل سورة الفاتحة وانها السبع المثاني، وفى متن الحديث شيء من الاضطراب على أنه لا يتعلق به بعده ﷺ عمل .

وأحق من هذا بالبيان ان طاعته ﷺ واجبة فى حياته وبعد مماته فيما علم

انه دعا إليه دعوة عامة من أمر الدين الذى بعثه الله تعالى به كبيانه لصفة الصلوات وعددها والمناسك ولو بالفعل مع قوله « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وقوله « خذوا عني مناسككم » ومقادير الزكاة وغير ذلك من السنن العملية الدينية المتواترة وكذا أقواله المتواترة التى أمر بتبليغها فيما تدل عليه دلالة قطعية – وأما غير القطعى رواية ودلالة من سنته فهو محل الاجتهاد ، فكل من ثبت عنده شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم على أنه من أمر الدين فينبغى له الاهتداء به فيما دل عليه من الأحكام الخمسة بحسبها – الوجوب والندب والحرمة والكراهة والاباحة – لأن الأمور العملية الاجتهادية يكتفى فيها بالظن الراجح فى الدليل وفى دلالته ، ولكن لا يملك أحد من المسلمين أن يجعل اجتهاده تشريعاً عاماً يلزمه غيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفة من قلده هو فيه ، إلا الأئمة أولى الأمر فتجب طاعتهم فى اجتهادهم فى أحكام المعاملات القضائية والسياسية إذا حكموا بها لاقامة الشرع وصيانة النظام العام – وعلى هذا كله جرى السلف الصالح وجميع أئمة الامصار ، ومن كلامهم : ان المجتهد لا يقلد مجتهداً ، وأنه لا يجب على أحد أن يقلد أحداً معيناً دينه ، ولكن من عرض له أمر يستفتى فيه من يطمئن قلبه لعلمه بالكتاب والسنة و يأخذ بفتواه إذا اطمأن لها .وقد امتنع الإمام مالك من إجابة المنصور ثم الرشيد إلى ما عرضاه عليه من الزام الناس العمل بكتبه حتى الموطأ الذى هو سنن واطأه جل علماء المدينة عليها

أما من يقولون إن النبى ﷺ إنما كانت تجب طاعته فى عهده ولا يجب العمل بعده إلا بالقرآن وحده فهم زنادقة ضالون مضلون يريدون هدم الإسلام بدعوى الإسلام ، بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى و يجب التأسى به فى كل زمان إلى يوم القيامة ، بل نقول : اننا نهتدى بخلفائه الراشدين ، وأئمة أهل بيته الطاهرين وعلماء أصحابه العاملين ، وعلماء السلف من التابعين وأئمة الامصار من أهل البيت والفقهاء والمحدثين ، نهتدى بهم فى آدابهم واجتهاداتهم القضائية والسياسية مع مراعاة القواعد الشرعية والمصالح العامة ، ولا نسمى شيئاً منها ديناً ندين الله به الا

ما ثبت فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على الوجه المتقدم ، وأما السنن والارشادات النبوية فى أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم فلم يعدها أحد من السلف ولا علماء الخلف من أمور الدين فتسمية شيء منها ديناً بدعة منكرة لانه تشريع لم يأذن به تعالى ، وقد فصلنا هذه المسألة من قبل فى هذا التفسير وفى غيره من مقالات المنار

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ هذا تنبيه لأمرين عظيمين أمرنا الله أن نعلمهما علماً يقيناً إذعانياً لما لها من الشأن فى مقام الوصية بالاستجابة لدعوة الحياة الانسانية العليا التى فيها سعادة الدنيا والآخرة (الأول) ان من سنة الله فى البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبه ، الذى هو مركز الوجدان والادراك، ذى السلطان على ارادته وعمله ، وهذا أخوف ما يخافه المتقى على نفسه ، إذا غفل عنها وفرط فى جنب ربه ، كما انه أرجى ما يرجوه المسرف عليها إذا لم ييأس من روح الله فيها ، فهذه الجملة أعجب جمل القرآن ولعلها أبلغها فى التعبير ، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية ، وعلم الصفات الربانية ، وعلم التربية الدينية ، التى تعرف دقائها بما تثمره من الخوف والرجاء ، فبينا زيد يسير على سبيل الهدى ، ويتقى بنيات طرق الضلالة الموصلة إلى مهاوى الردى ، إذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد ، يميل به عن الصراط المستقيم، من شبهة تزعزع الاعتقاد ، أو شهوة يغلب بها الغى على الرشاد . فيطيع هواه ، ويتخذه إلهه من دون الله ، (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) على أنه فيه مختار ، فلا جبر ولا اضطرار .

ويقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه ، انه كان منهمكا فى شهواته ولهوه ، تاركا لهداه وطاعة ربه ، فنزل يوماً فى زورق مع خلان له فى نهر دجلة للتنزه ومعهم النبيذ والمعازف ، فبينما هم يعزفون ويشربون ، إذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة (إذا الشمس كورت) فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة ، فاستمع له وأنصت ، حتى إذا بلغ قوله تعالى (وإذا الصحف نشرت) امتلأ قلبه خشية من الله ، وتدبراً لاطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه ، فأخذ العود من العازف

فكسره وألقاه فى دجلة ، وثنى بنبذ قنانى النبيذ وكؤوسه فيها ، وصار يردّد الآية ، وعاد إلى منزله تائبا من كل معصية ، مجتهداً فى كل مايستطيع من طاعة

فقد كبر الله تعالى إيانا بهذا الشأن من شؤون الانسان ، وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى فى الارادات والأعمال ، وأمره إيانا بأن نعلمها علم إيقان و إذعان ، يفيدنا فائدتين لا يكمل بدونهما الإيمان ؛ وهما أن لا يأمن الطائع المشمر من مكر الله فيغتر بطاعته و يعجب بنفسه ، وأن لا ييأس العاصى والمقصر فى الطاعة من روح الله ، فيسترسل فى اتباع هواه ، حتى تحيط به خطاياه . ومن لم يأمن عقاب الله ، ولم ييأس من رحمة الله ، يكون جديراً بأن يراقب قلبه ، و يحاسب نفسه على خواطره ، و يعاقب نفسه على هفواته ، لتظل على صراط العدل المستقيم ، متجنبة الافراط والتفريط ، و يتحرى أن يكون دائما بين خوف يحجزه عن المعاصى ورجاء يحمله على الطاعات ، و يساعدنا على ذلك (الأمر الثاني) وهو أن نذكر حشرنا إليه عزوجل ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية، ومجازاته إيانا عليها إما بالعذاب الأليم ، و إما بالنعيم المقيم ، وهذا منه مقتضى الفضل ، وذلك أثر العدل ،

ومما يؤيد مافهمناه فى هذا المقام مقام حرمان الراسخين فى الكفر من سماع الفقه والهدى ، والحيلولة بين المرء وقلبه أن يعصى الهوى (٤٥:٢٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون) فهى صريحة فى أن من هذا حاله ليس مجبوراً عليه ، وأن الله لم يحرمه الهدى بإعجازه عنه وهو يؤثره و يفضله ، أو بإكراهه على اتباع الهوى وهو كاره له ، فانه أسند إليه اتخاذ هواه إلهه ، وقد قال تعالى لنبيه داود عليه السلام (٣٨: ٢٦ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية

فهذا نص فى أن اتباع الهوى سبب للضلال عن سبيل الله ، فقوله فى آية الجاثية (وأضله الله على علم) ليس معناه أنه تعالى خلق فيه الضلال استقلالا كما يدعى بعض المتكلمين بل هو داخل فى سنته تعالى فى الأسباب والمسببات و يؤيده

إثبات كون ضلاله على علم وهو أنه متعمد لاتباع الهوى ، مؤثراً له على الهدى ، والله تعالى يسند الأمور إلى أسبابها تارة وإليه تعالى تارة من حيث إنه خالق كل شيء وواضع سنن الأسباب والمسببات . ومن الأسباب ماجعله من أفعال المخلوقات الاختيارية على علم ، وما جعله بأسباب لايعلم للخلق اختيار فيها ولا علم ، وكل من القسمين يسند إلى سببه تارة وإلى رب الأسباب تارة والجهة مختلفة معروفة ، ويختار هذا أو ذاك فى البيان بحسب سياق الكلام ، كقوله تعالى فى الحرث (أفرأيتم ماتحرثون * أأنتم تزرعونه ، أم نحن الزارعون؟) فهل يقول عاقل إن الفلاح لافعل له ولااختيار فى زرعه ، وأن الله يخلقه له بدون إرادته ولا فعله ، أو أن فعله وتركه فى أرضه سواء ، وتلقيحه لنخله وعدمه سيان ؟

وجملة القول : أن من سننه تعالى فى البشر أن من يتبع هواه فى أعماله ويستمر على ذلك ويمده الزمن الطويل تضعف إرادته فى هواه حتى تذوب وتفنى فيه ، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية ، ولا العبر المبصرة ولاالمعقولة ، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلب ، والصمم والعمى والبكم كما تقدم آنفا وسبق مثله فى تفسير سورة البقرة وغيرها ،

وأمثال هذه الأمثال المضروبة لهذه الحالة قد ضل بها الجبرية غافلين عن كونها عاقبة طبيعية لادمان تلك الأعمال الاختيارية ، كالخمار الذى يعترى مدمن الخمر ، فيشعر بفتور وألم عصبي لايسكن إلا بالعودة إلى الشرب ، على أن هذه الآية علمتنا عدم اليأس

ومن تفسير القرآن بالقرآن فى تقليب القلوب والحيلولة بينها وبين إرادة الانسان المتصرفة فى قدرته ومشاعره قوله تعالى من سورة الأنعام (٦:١٠٩ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) فيراجع معناها فى آخر تفسير الجزء السابع ، وقال الراغب : تقليب الله القلوب صرفها من رأى إلى رأى . وذكر آية الأنعام هذه

ومن تفسير الآية المأثور فى السنة مارواه ابن مردويه فى تفسيرها عن ابن عباس مرفوعاً « يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الهدى » وسنده ضعيف

كما قال الحافظ فى الفتح وله ولغيره آثار فى هـذا المعنى . وروى البخارى وأصحاب السنن إلا أبا داود من حديث عبد الله بن عمر قال « كانت يمين النبى ﷺ لا ومقلب القلوب » وفى رواية له عنـه « أكثرُ ما كان النبي ﷺ يحلف : لا ومقلب القلوب » وفى معناه أحاديث أخرى عند ابن ماجه وغيره وللمفسرين وشراح الأحاديث أغلاط لفظية ومعنوية فى تفسير لفظ القلب وفى تقليب الله تعالى له .

وقد تقدم تفسيره اللفظى من قبل ، ومعنى تقليبه آنفاً ، وقولهم ان الله خالق القلوب ومقلبها حق ، وكذا أفعال العباد كلها ، وليس بحق ماعبر به بعضهم عن ذلك بأن الله تعالى يمنع الكافر بمحض قدرته عن الإيمان وغيره من أعمال الخير مباشرة ، ويخلق فى قلبه ولسانه الكفر اعتقاداً ونطقاً خلقاً أُنُفاً لا فعل له فيه ، فالجمع بين الآيات التى أوردناها وما فى معناها يبطله ويثبت الاسباب الاختيارية ، والقائلون بماذكر يثبتون قول القدرية ويحتجون به على قول الجبرية ، فهم يؤيدون الفاسد بالفاسد ولا يشعرون ، ويمدهم إخوانهم الصوفية فى الغىّ ثم لا يقصرون .

بعد هذه الأوامر والنواهى الخاصة بأعمال الناس الاختيارية الشخصية، وما يخشى أن تؤدى إليه مما يحرمهم من الهداية الخصوصية ، بانتهاء الاختيارى منها إلى ما يكاد يخرج عن الاختيار ، باضعاف الإرادة واستعبادها للاهواء ، -- أمرهم باتقاء نوع من أنواع الفتن الاجتماعية التى تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين المصطلى بنـاره فعلا ، وبين المؤاخذ به لتقصيره فى درئه ، وإقراره على فعله ، فقـال

﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ أى واتقوا وقوع الفتن القومية والملية العامة التى من شأنها أن تقع بين الأمم فى التنازع على مصالحها العـامة من الملك والسيادة أو التفرق فى الدين والشريعة ، والانقسام إلى الأحزاب الدينيـة كالمذاهب ، والسياسية كالحكم ؛ فان العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها فى الدنيا قبل الآخرة كما تقدم مراراً ، ولهذا عبر هنا بالفتنة ، دون الذنب والمعصية ، والفتنة البلاء والاختبار كما تقدم بيانه مراراً .

روى أحمـد والبزار وابن المنذر وابن مردويه عن مطرف قال : قلنا للزبير «ياأبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقـال إنا قرأنا

على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت . وروى عنه جمهور مخرجي التفسير المأثور : لقد قرأناها زمانا وماترى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن عنه قال: لقد خوفنا بهذه الآية ونحن مع رسول الله ﷺ وماظننا اننا خصصنا بها . قال الحافظ في الفتح وأخرجه النسائي من هذا الوجه نحوه ، وله طرق أخرى عن الزبير عند الطبري وغيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر في الآية قال : نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير — وعبد بن حميد عنه قال : أما والله لقد علم أقوام حين نزلت أن يستخص بها قوم . وهو وأبو الشيخ عن قتادة قال : علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد ﷺ حين نزلت هذه الآية أن سيكون فتن . وابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر . وآخرون عنه قال : اخبرت انهم أهل الجمل . وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : تصيب الظالم والصالح عامة . وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هي (يحول بين المرء وقلبه) حتى يتركه لايعقل . وروى جمهورهم عن ابن عباس قال : أمر الله المؤمنين أن لايقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب .

قال الحافظ ولهذا الأثر شاهد من حديث عدي بن عميرة سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » أخرجه أحمد بسند حسن وهو عند أبي داود من حديث العرس بن عميرة وهو أخو عدي وله شواهد من حديث حذيفة وجرير وغيرهما عند أحمد وغيره .

وهذه الروايات متفقة صحيحة المعاني إلا قول من قال بالتخصيص فهي عامة إلى يوم القيامة لانها بيان لسنة من سنن الله تعالى في الأمم والملل كما بينا . وأما فتنة عثمان فكانت أول هذه الفتن التي اختلفت فيها الآراء فاختلفت الأعمال من أهل الحل والعقد فخلا الجو للمفسدين من السبئين واعوانهم من زنادقة اليهود

والمجوس وغيرهم ، وأعقبت فتنة الجمل وصفين ، ثم فتنة ابن الزبير مع بنى أمية ثم قتلهم الحسين عليه السلام الخ. ولو تداركوها كما تدارك أبو بكر (رض) فتنة الردة لما كانت فتنة تبعتها فتن كثيرة لايزال المسلمون مصابين بها ومعذبين بعذابها وأكبرها فتن الخلافة والملك وفتن افتراق المذاهب

﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن خالف سننه فى الأمم والأفراد التى لاتبديل لهـا ولا تحويل ، ولمن خالف هداية دينه المزكية للأنفس وقطعيات شرعه المبنية على درء المفاسد والمضار وحفظ المصالح والمنافع . وهـذا العقاب منه مايقع فى الدنيا والآخرة ، ومنه مايقع فى إحداهما فقط ، سواء كان للأفراد أو للأمم ، وعقاب الأمم المذكور فى هذه الآية مطرد فى الدنيا ، وأول من أصابه من أمتنا الاسلامية أهل القرن الأول الذى كانوا خيرها بل خير الأمم كلهـا ولكنهم لما قصروا فى درء الفتنة الأولى عاقبهم الله عليها عقابا شديداً كما تقدم آنفا ، وهكذا تسلسل العقاب فى كل جيل وقع فيه ذلك ، ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية الخاصة بالخلافة والسلطان، ولهذا كانت فتنة الخلاف بين أهل السنة والشيعة أشد مصائب هذه الأمة وأدومها ، فزالت الخلافة التى تنازعوا عليها ، وتنافسوا فيها ، وتقاتلوا لأجلها ، ولم تزل هى، بل تزداد قوة وشبابا ، وقد شرحنا هذا الموضوع فى مواضع من مجلة المنار

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ﴾ قيل إن الخطاب للمهاجرين يذكرهم بما كان من ضعفهم وقلتهم بمكة — وقيل إنه للمؤمنين كافة فى عهد نزول السورة يذكرهم بما كان من ضعف أمتهم العربية فى جزيرتهم بين الدول القوية من الروم والفرس ، ولا مانع فيه من إرادة هذا وذاك معاً . فقوله تعالى ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ أى تخافون من أول الاسلام إلى وقت الهجرة أن يتخطفكم مشركو قومكم من قريش وغيرها من العرب ، أى أن ينتزعوكم بسرعة فيفتكوا بكم — كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم وتتخطفهم الأمم من أطراف جزيرتهم . قال تعالى فى أهل الحرم (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا و يتخطف الناس

من حولهم ؟) ﴿فآواكم﴾ يامعشر المهاجرين إلى الانصار ﴿وأيدكم﴾ وإياهم ﴿بنصره﴾ فى هذه الغزوة ، وسيؤيدكم على الروم وفارس وغيرهم كما وعدكم فى كتابه بالاجمال وبينه لكم الرسول ﷺ بالتصريح ﴿ ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ هذه الثلاث وغيرها من نعمه ، فيزيدكم من فضله كما وعدكم بقوله (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد)

وقد جاء فى الدر المنثور من تفسير هذه الآية بالمأثور باختصار قليل مانصه:

أخرج ابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضى الله عنه فى قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) الآية ، قال «كان هذا الحى أذل الناس ذلا وأشقاه عيشاً وأجوعه بطونا ، وأعراه جلوداً وأبينه ضلالة ، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم لا والله مافى بلادهم مايحسدون عليه ، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، لا والله مانعلم قبيلا من حاضر الأرض يومئذ كان أشر منزلا منهم ، حتى جاء الله بالاسلام فمكن به فى البلاد ووسع به فى الرزق ، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس ، وبالاسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا لله نعمه فان ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر فى مزيد من الله عز وجل»

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (يتخطفكم الناس) : فى الجاهلية بمكة (فآواكم) إلى الاسلام، وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فى قوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس) قيل يارسول الله: ومن الناس ؟ قال «أهل فارس» وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (فآواكم) قال إلى الانصار بالمدينة (وأيدكم بنصره) قال يوم بدر اهـ

ومن العبرة فى الآيات أنها حجج تاريخية اجتماعية على كون الاسلام إصلاحا أورث ويورث من اهتدى به سعادة الدنيا والسيادة والسلطان فيها قبل الآخرة ، ولكن أعداءه الجاحدين لهذا على علم قد شوهوا تاريخه ، وصدوا الناس عنه بالباطل - وأن أهله قد هجروا كتابه وتركوا هدايته وجهلوا تاريخه ، ثم صاروا

يقلدون أولئك الاعداء فى الحكم عليه حتى زعموا أنه هو سبب جهلهم وضعفهم وزوال ملكهم الذى كان عقوبة من الله تعالى لخلفهم الطالح على تركه ، بعد تلك العقوبة لسلفهم الصالح على الفتنة بالتنازع على ملكه . فالى متى إلى متى أيها المسلمون ؟ إنا لله و إنا اليه راجعون

(٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

قد بينا وجه التناسب بين هذه النداءات الالهية للمؤمنين وما قبلها وما بعدها إلى آخر هذا الجزء . وورد فى سبب نزول هذا النداء بالنهى عن الخيانتين هنا من حديث جابر « أن أبا سفيان خرج من مكة — وكان لايخرج إلا فى عداوة الرسول (ص) والمؤمنين — فأعلم الله رسوله بمكانه ، فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان: إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم . فأنزل الله (لاتخونوا الله والرسول) الآية » والمراد أن فيها تعريضاً بفعلة المنافق الذى يدعى الإيمان بأن عمله خيانة تنافيه . والخيانة للناس وحدهم من أركان النفاق كما ثبت فى الحديث الصحيح — وسيأتى — فكيف بمثل هذه الخيانة لله والرسول والمؤمنين ؟

وفى عدة روايات عن عبد الله بن قتادة والزهرى والكلبى والسدى وعكرمة أنها نزلت فى أبى لبابة (رض) فإنه كان حليفاً لبنى قريظة من اليهود، فلما خرج اليهم النبى (ص) بعد إجلاء إخوانهم من بنى النضير أرادوا بعد طول الحصار أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ — وكان من حلفائهم من قبل غدرهم ونقضهم لعهد النبى (ص) فأشار اليهم أبو لبابة بأن لايفعلوا وأشار إلى حلقه يعنى أن سعداً يحكم بذبحهم ، فنزلت الآية . قال أبو لبابة « مازالت قدماى حتى علمت انى خنت الله ورسوله » وفى رواية عبد بن حميد عن الكلبى أن

رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة الى بنى قريظة وكان حليفا لهم ، بل روى أنه كان وضع ماله وولده عندهم ، فأومأ بيده الى الذبح ، فأنزل الله الآية ـ وذكرها ثم قال ـ فقال رسول الله ﷺ لامرأة أبى لبابة « أيصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ؟ فقالت: إنه ليصوم و يصلى و يغتسل من الجنابة و يحب الله ورسوله » والمراد أن النبى ﷺ شك فى إيمانه حتى إنه سأل امرأته: هل يقوم فى بيته بواجبات الإسلام ؟ فأجابته بصيغة التأكيد التى يجاب بها من أظهر شكه ، وفيه عبرة لمنافقى هذا الزمان الذين يخلصون الخدمة و يسدون النصيحة الى أعداء ملتهم وأوطانهم فيما يمكن لهم السلطان فى بلادهم والسيادة على أمتهم

ولينظر المعتبر كيف عاقب أبو لبابة نفسه توبة الى الله تعالى «شد نفسه على سارية من المسجد وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علىَّ ـ فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خرَّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له: قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى ، فجاءه فحله بيده» وغزوة بنى قريظة كانت بعد غزوة بدر التى نزلت فيها سورة الأنفال بسنين فيحتمل أن يكون المراد بنزول الآية فى أبى لبابة أنها تتناول فعلته — وهذا التعبير يكثر مثله عنهم فيما يسمونه أسباب النزول ، كما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره . ومن ذلك قول المغيرة بن شعبة : نزلت هذه الآية فى قتل عثمان (رض) ويحتمل أن تكون الآية نزلت بعد نزول السورة فألحقت بها بأمر الله لرسوله ﷺ

ومهما يكن سبب النزول فالآية عامة تشتمل كل خيانة ولذلك فسر ابن عباس خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته ، والأمانة بكل ما ائتمن الله عليه العباد بأن لا ينقضها . رواه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

والخيانة فى أصل اللغة تدل على معنى الاخلاف والخيبة بنقض ما كان يرجى ويؤمل من الخائن أو نقص شىء منه ينافى حصوله وتحققه . ومنه: خانه سيفه ، إذا نبا عن الضريبة . وخانته رجلاه إذا لم يقدر على المشى ، وخان الرشاء الدلو إذا انقطع . ومن معنى النقص أو الانتقاص فى المادة قوله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون

أنفسكم) أى تنقصونها بعض ما أحل لها من اللذات، ومثله التخون، ويفترقان فى معنى الصفة، قال الزمخشرى فى الأساس : وتخون فلان حقى إذا تنقصه كأنه خانه شيئا فشيئا، وكل ما غيرك عن حالك فقد تخونك، قال لبيد *تخونها نزولى وارتحالى* اه وقال فى تفسير الآية من الكشاف وتبعه غيره : معنى الخون النقص كما أن معنى الوفاء التمام، ومنه تخونه إذا تنقصه، ثم استعمل فى ضد الامانة والوفاء لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان فيه اه وما قلناه أولا أعم من هذا وأشمل لما ورد من الاستعمال فى كلام الله وكلام العرب. وقال الراغب : الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارا بالدين، ثم يتداخلان الخ ما قاله وهو يدخل فى عموم ما قلناه، ولا يصح كونه حداً تاما

والمعنى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله﴾ تعالى بتعطيل فرائضه أو تعدى حدوده وانتهاك محارمه التى بينها لكم فى كتابه ﴿ والرسول﴾ بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى إلى أهوائكم، أو آراء مشايخكم أو آبائكم، أو المخالفة عن أمره إلى أوامر أمرائكم وترك سنته إلى سنة أوليائكم، بناء على زعمكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم ﴿ وتخونوا أماناتكم﴾ أى ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشئون السياسية ولا سيما الحربية، وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والأدبية، فقد ورد فى الحديث « المجالس بالأمانة » رواه الخطيب من حديث على وحسنوه وأبو داود عن جابر بزيادة « إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق » وهو حسن أيضا، وروى أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه والضياء من حديث جابر أيضا « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » ورواه أبو يعلى عن أنس، وأشار فى الجامع الصغير إلى صحته . فافشاء السر خيانة محرمة ويكفى فى العلم بكونه سراً القرينة القولية كقول محدثك: هل يسمعنا أحد؟ أو الفعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجىء. وآكد أمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين

الخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين، وقال أنس بن مالك « قلما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال : لا إيمان لمن لا عهد له، ولا دين

لمن لا عهد له » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه . وروى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة ان النبي ﷺ قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » زاد مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وقد ورد فى الأحاديث إطلاق الأمانة على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان، وليس المراد بهذا الحصر ، بل كل ما يجب حفظه فهو أمانة ، وكل حق مادى أو معنوى يجب عليك أداؤه إلى أهله فهو أمانة . قال الله تعالى فى سورة البقرة (٢ : ٢٨٣ فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه) وقال فى سورة النساء (٤ : ٧٥ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها)

وقد أوردنا فى تفسير آية النساء هذه مباحث نفيسة فى الأمانات والعدل منها (المسألة لثالثة) فى أنواع الأمانة (والمسألة السادسة) فى حكمة تأكيد الأمر بالأمانة . وأوردنا فى هذه ماقاله حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغانى فى بيان كون الأمانة من الصفات الدينية التى قام عليها بناء المدنية وبها حفظ العمران ولا صلاح لحال أمة ولا بقاء لدولة بدونها لأن عليها مدار الثقة فى جميع المعاملات (1) وناهيكم بما عظم الله من أمر الأمانة فى قوله (٣٣ : ٧١ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا)

وأما قوله ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ فمعناه والحال أنكم تعلمون مفاسد الخيانة وتحريم الله تعالى إياها وسوء عاقبة تلك المفاسد فى الدنيا والآخرة ، أو تعلمون أن ماقلتموه خيانة لظهوره ، وأما ماخفى عنكم حكمه فالجهل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين بالضرورة أو مما يعلم ببداهة العقل أو استفتاء القلب ، كفعلة أبى لبابة التى كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد ، ولذلك فطن لها قبل أن يبرح موقفه (رض). ولما كان حب الأموال والأولاد مزاولة فى الخيانة أعلمنا به عقب النهى عنها فقال

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ الفتنة هى الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره ، فتكون فى الاعتقاد والأقوال والافعال والاشياء يمتحن الله المؤمنين والكافرين ، والصادقين والمنافقين ، ويحاسبهم

(١) فيراجع ذلك كله فى ص ١٧٣ — ١٧٩ من ج ٥ تفسير

ويجزيهم بما يترتب على فتنتهم من اتباع الحق أو الباطل ، وعمل الخير أو الشر ؛ وقد تقدم الكلام في الفتنة مراراً من وجوه . وفتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تخفى على ذي فهم إلا أن الافهام تتفاوت في وجوهها وطرقها ، فأموال الانسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهواته ودفع كثير من المكاره عنه ، فهو يتكلف في كسبها المشاق ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه في القصد والاعتدال ، ثم انه يتكلف العناء في حفظها ، وتتنازعه الأهواء المتناوحة في انفاقها ، فالشرع يفرض عليه فيهما حقوقا مقدرة وغير مقدرة ، ومعينة وغير معينة ، ومحصورة وغير محصورة ، كالزكاة ونفقات الأزواج والأولاد وغيرهم ، وكفارات بعض الذنوب المعينة ، من عتق وصدقة ونسك وغير ذلك . ويندب له نفقات أخرى للمصالح العامة والخاصة تكفر الذنوب غير المعينة ، ويترتب عليه شيء عظيم من الأجر والثواب . والضابط لجميع أنواع البذل من صفات النفس السماحة والسخاء من أركان الفضائل ، ولجميع أنواع الامساك البخل وهو من أمهات الرذائل ، ولكل منهما درجات ودركات .

وأما الأولاد فهم كما يقول الادباء : ثمرة الفؤاد وأفلاذ الاكباد ، وحبهم كما قال الأستاذ الإمام : ضرب من الجنون يلقيه الفاطر الحكيم في قلوب الأمهات والآباء ، يحملهما على بذل كل ما يستطاع بذله في سبيلهم من مال وصحة وراحة وغير ذلك ، بل روى أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا إلى سيد الحكماء وخاتم الأنبياء ﷺ « الولد ثمرة القلب وإنه مجبنة مبخلة محزنة » فان كان سنده ضعيفاً كما قالوا فمتنه صحيح ، فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام في سبيل تربيتهم والانفاق عليهم وتأثيل الثروة لهم : يحملهما ذلك على الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق أو الحقيقة ، أو الملة والأمة ، وعلى البخل بالزكاة والنفقات المفروضة ، والحقوق الثابتة ، دع صدقات التطوع والضيافة ، كما يحملهما الحزن على من يموت منهم على السخط على الرب تعالى والاعتراض عليه وغير ذلك من المعاصي كنوح الامهات وتمزيق ثيابهن ولطم وجوههن ، ففتنة الاولاد لها جهات كثيرة فهي أكبر من فتنة الأموال وأكثر تكاليف مالية ونفسية وبدنية : فالرجل يكسب الحرام

ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل أولاده كما يفعل ذلك لكبائر شهواته ، فاذا قلت شهواته فى الكبر فصار يكفيه القليل من المال يقوى فى نفسه الحرص على شهوات أولاده ، وما يكفى الواحد لا يكفى الآحاد ، وفتنة الأموال قد تكون جزءاً من فتنة الأولاد ، فتقديمها وتأخير فتنة الأولاد من باب الانتقال من الأدنى إلى الأعلى

فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى بكسب المال من الحلال ، وانفاقه فى سبيل الله من البر والاحسان واتقاء الحرام من الكسب والانفاق ، واتقاء خطر الفتنة الثانية من جهة ما يتعلق منها بالمال وغيره مما يشير إليه الحديث ، وبما أوجب الله على الوالدين من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل ، وتجنيبهم أسباب المعاصى والرذائل ، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)

وقد عطف على هذا التحذير قوله ﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ لتذكير المؤمنين بما يعينهم على ما يجب عليهم من اتقاء الفتنتين وهو إيثار ما عند الله عز وجل من الأجر العظيم لمن راعى أحكام دينه وشرعه فى الأموال والأولاد ووقف عند حدوده وتفضيله على كل ما عساه يفوته فى الدنيا من التمتع بهما ، لعلهم يتقون مثل هفوة أبى لبابة حين حذر أعداء الله ورسوله من فتح حصنهم والنزول على حكم سعد بن معاذ ، لما كان له من الاعتماد عليهم فى حفظ ماله وولده ، على أن للمؤمن الصادق حسن قدوة بأبى لبابة فى توبته النصوح ، إذا ألم به ضعف فوقع فى مثل هفوته أو ما دونها من خيانة ، وأين مثل أبى لبابة رضى الله عنه فى ذلك ؟ ونحن نرى كثيراً ممن يدعون الايمان يخونون الله ورسوله فى انتهاك حرمات دينهم ويخونون أمتهم ودولتهم بثمن قليل أو كثير من المال يرجونه أو ينالونه من عدوهم ـ وقد يكون من مال أمتهم وغنائم وطنهم — أو خوفاً على مالهم وولدهم من سلطانه قبل أن يستقر له السلطان ، وقد أسقطت الخيانة دولة كانت أعظم دول الأرض قوة وبأساً بارتكاب رجالها الرشوة من أهلها ومن الأجانب حتى مسخت فصارت دويلة صغيرة فقيرة ، ولكن الخلف المغرور لذلك السلف المخرب يدعون أنها انما أسقطها تعاليم الإسلام القويمة ، لأنها صارت قديمة ، ولو أنهم أقاموا واجباً واحداً أو أدباً واحداً من آداب القرآن ، لكان كافياً لوقايتها من الزوال .

(٢٩) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين فى هذا السياق وهى أعمها ، والأصل الجامع لها ولغيرها ، وكلمة «الفرقان» فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى فى مجيئها هنا مطلقة ، فالتقوى هي الشجرة ، والفرقان هو الثمرة ، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناها فى أصل اللغة : الفصل بين الشيئين أو الأشياء والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والحكم الحق فيها، ولذلك فسروه بالنور، وذلك أن الفصل والتفريق بين الأشياء والأمور فى العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الاجمال إلى حيز التفصيل ، وانما العلم الصحيح هو العلم التفصيلى الذى يميز بين الاجناس والانواع والاصناف والاشخاص، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات، والبسائط والمركبات ، والنسب بين أجزاء المركبات، من الحسيات والمعنويات، ويبين كل شىء من ذلك ويعطيه حقه الذى يكون به ممتازاً من غيره . و إيراد الأمثلة على ذلك يطول فيشغل عن القدر المحتاج اليه فى تفسير لفظ «الفرقان» إلا أن نترك عوالم المادة وقواها ونأتى بمثال من اللغة لأن لفظ الفرقان من مفرداتها ، فنقول إن العامى يعلم من اللغة أمراً إجمالياً وهو أنها ألفاظ يعبر بها الانسان عما يحتاج إلى بيانه من علمه ، ومن العلم التفصيلى فيها ما هو مبين فى علم النحو والصرف وفى علوم المعانى والبيان والبديع والوضع والاشتقاق وأصول الفقه ـ كالعام والخاص والمطلق والمقيد من الأخير مثلا — وأنت ترى أنك بهذا البيان الوجيز لمعنى الفرقان قد اتضح لك من دلالته على العلم الصحيح والحكم الرجيح ما كان خفيا، وفصل منها ما كان مجملا ، ولذلك نعده من تفسير اللفظ لا استطراداً أجنبيا ، ولا سيلا أتيا ، كأكثر الذى يأتيه أكثر المفسرين من مباحث النحو وفنون البلاغة وغيرها .

وكما يكون الفرقان فى مسائل العلوم وموادها من طبيعية وعقلية ولغوية، وفى الموجودات التى استنبطت العلوم منها يكون فى الاحكام والشرائع والاديان ، وفى الحكم بين الناس فى المظالم والحقوق وفى الحروب ، وقد اطلق الفرقان على

أشهر الكتب الالهية وهى التوراة والانجيل والقرآن وغلب على القرآن (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) لأن كلام الله تعالى يفرق فى العلم والاعتقاد بين الايمان والكفر والحق والباطل ، وفى الاحكام بين العدل والجور ، وفى الاعمال بين الصحيح والفاسد والخير والشر . وأطلق هذا اللفظ على يوم بدر كما سيأتى فى هذه السورة مع بيان وجهه ومتعلق فصله وتفرقته

فقوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ معناه إن تتقوا الله فى كل مايجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه ، و بمقتضى سننه فى نظام خلقه ، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل ، وتفصلون بين الضار والنافع ، وتميزون بين النور والظلمة ، وتزيلون بين الحجة والشبهة . وقد روى عن بعض مفسرى السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذى يفرق بين الحق والباطل وهو عين ما فصلناه من الفرقان العلمى الحكمى ، وعن بعضهم بالنصر يفرق بين المحق والمبطل ، بما يعز المؤمن و يذل الكافر و بالنجاة من الشدائد فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة . وهذا من الفرقان العملى الذى هو ثمرة العلمى ذكر كل مارآه مناسباً لحال وقته أو حال من لقنه ذلك ، ولم يقصد تحديد المدلول اللغوى ، ولا المعنى الكلى الذى هو ثمرة التقوى بأنواعها ، وهذا النور فى العلم الذى لا يصل اليه طالبه الا بالتقوى هو الحكمة التى قال الله فيها (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الالباب) فهو كعهد الله فى إمامة الناس بالحق لاينال الظالمين لأنفسهم بالتقليد لغيرهم لاحتقارها فى جنب إطرائهم لمقلديهم ، بل هم لايطلبونه ولا يقصدون الوصول اليه لأنهم صدقوا بعض الجاهلين فى ادعائهم اقفال بابه ، وكثافة حجابه بل أصحابه هم الأئمة المجتهدون فى الشرع والدين والواضعون للعلوم التى تنفع الناس ، وكان لشيخنا الاستاذ الامام حظ عظيم منه

أمر الله تعالى فى مواضع كثيرة من كتابه باتقائه و باتقاء النار وباتقاء الشرك والمعاصى و باتقاء الفتن العامة فى الدول والأمم وتقدم فى وصايا هذا السياق نحو باتقاء الفشل والخذلان فى الحرب ، وباتقاء ظلم النساء ، وبين ان العاقبة فى إرث الأرض

للمتقين، كما أن الجنة في الآخرة للمتقين، وقال (٦٥: ٢-٤ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب * ومن يتوكل على الله فهو حسبه - ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) وأمثال ذلك في التقوى العامة والخاصة وأجرها وعاقبتها كثير، فمعنى التقوى العامة اتقاء كل ما يضر الإنسان في نفسه وفي جنسه الإنساني القريب والبعيد ومايحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة والكمال الممكن ولذلك قال العلماء: إنها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي وفعل مايستطاع من الطاعات وزدنا على ذلك اتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى في الكون كالنصر على الأعداء وجعل كلمة الله هي العليا في الأرض كما هي في الواقع ونفس الأمر، وكلمة الذين كفروا هي السفلى كذلك. وكمال ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة - وكمال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى في الإنسان مجتمعاً ومنفرداً كما أرشد اليه في آيات من كتابه، ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الأشياء التي تعرض له من علم وحكم وعمل، فيفصل فيها بين مايجب قبوله ومايجب رفضه، وبين ما ينبغي فعله وما يجب تركه، وتنكير الفرقان للتنويع التابع لأنواع التقوى كالفتن في السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم، فكل متق لله في شيء يؤته فرقانا فيه وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من خلفاء العرب أعدل حكام الأمم في الارض حتى في عهد الفتح. قال بعض حكماء الإفرنج: ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب، ولكنهم لم يتقوا فتن السياسة والرياسة لقلة اختبارهم فعوقبوا عليها بتفرقهم فضعفهم فزوال ملكهم، وكان من بعدهم من أعاجم المسلمين دونهم لجهلهم بكل نوع من أنواع التقوى الواجبة، وحرمانهم من فرقانها فهم يزعمون أنهم يجددون مجدهم مع جهل هذا الفرقان المبين، وعدم الاعتصام بالتقوى المزكية للنفس، المؤهلة لها للاصلاح في الأرض، بل مع انغماسهم في السكر والفواحش، لظنهم أن الإفرنج قد ترقوا في دنياهم بفساقهم وفجارهم، وإنما ترقوا بحكمائهم وأبرارهم، الذين وقفوا حياتهم على

العلم والعمل النافع ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم﴾ هذا عطف على (يجعل

لكم فرقانا) أى و يمحو بسبب هذا الفرقان وتأثيره ما كان من تدنيس سيئاتكم لأنفسكم فتزول منها داعية العود اليها المؤدى الى الاصرار المهلك ، ويغفرها لكم بسترها وترك العقاب عليها ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ ومن أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظيم بقسميه السلبى والايجابى جزاء للتقوى وأثرا لها

(٣٠) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

هاتان الآيتان وما بعدهما تذكير للنبى صلى الله عليه وسلم بما كان من حاله وحال قومه معه فى مكة كما سبقت الاشارة الى ذلك وقد حسن هذا التذكير بذلك فى أول العهد بنصره تعالى له على أولئك الجاحدين المعاندين ، الفاتنين المفتونين ، الصادين عن سبيل الله تعالى وعن اتباع رسوله بالقوة القاهرة

قال عز وجل ﴿ و إذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ أى واذكر أيها الرسول فى نفسك ، ماتقصه فى الكتاب على المؤمنين والكافرين فى عهدك ومن بعدك ، لانه حجة لك على صدق دعوتك ، ووعد ربك بنصرك – اذكر ذلك الزمن القريب الذى يمكر بك فيه الذين كفروا من قومك فى وطنك . بما يدبرون فيما بينهم بالسر من وسائل الايقاع بك ﴿ ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ فأما الإثبات فالمراد به الشد بالوثاق والارهاق بالقيد والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم الى الاسلام وأما القتل فالمكر فيه طريقته وصفته الممكنة التى لايكون ضررها فيهم عظيما وهو مابينته الرواية الآتية عنهم ، وأما الاخراج فهو النفى من الوطن ، وقد روى كبار مصنفى التفسير المأثور أن أبا طالب قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما يأتمر به قومك ؟ قال :

يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني . قال من حدثك بهذا ؟ قال ربي . قال نعم الرب ربك ، فاستوص به خيراً . قال : أنا أستوصي به ؟ بل هو يستوصي بي » فنزلت (وإذ يمكر بك الذين كفروا) ولهذا قال ابن جريج : إن الآية مكية ، وهو قول ضعيف كما تقدم في الكلام على نزول السورة في أول تفسيرها والصحيح أن التشاور في الأمور الثلاثة بدار الندوة كان عقب موت أبي طالب وخديجة رضي الله عنها ، وكان الخروج للهجرة في الليلة التي أجمعوا فيها أمرهم على قتله ﷺ كما يأتي بيانه ، ويجوز أن يكونوا قد تحدثوا به قبل إجماعه وإرادة الشروع فيه الذي وقع بعد موت أبي طالب فبلغه فسأل النبي ﷺ عنه .

وأما قوله تعالى ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ فهو بيان لحالتهم العامة الدائمة في معاملته ﷺ هو ومن اتبعه من المؤمنين بعد التذكير بشر ما كان منها في مكة ، ولذلك لم يقل « ويمكرون بك » أي وهكذا دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين يمكرون بكم ويمكر الله لكم بهم كما فعل من قبل إذ أحبط مكرهم، وأخرج رسوله من بينهم ، إلى حيث مهد له في دار الهجرة ، ووطن السلطان والقوة، والله خير الماكرين ، لأن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله ، وخذل للباطل وإذلال لأهله، وإقامة للسنن ، وإتمام للحكم، وقد بينا حقيقة المكر في اللغة في تفسير قوله تعالى (٣: ٥٤ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وفي تفسير (٧: ٩٨ أفأمنوا مكر الله) الآية وخلاصته أن المكر هو التدبير الخفي لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب ووقاية الممكور له من المكروه كذلك . والغالب في عادات البشر أن يكون المكر فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل ، ولذلك تأول المفسرون ما أسند إلى الله تعالى منه ، فقالوا في مثل هاتين الآيتين — آية الأنفال وآية آل عمران — إنه أسند إلى الله تعالى من باب المشاكلة بتسمية تخييب سعيهم في مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه ، والحق أن المكر منه الخير والشر والحسن والسيء — كما قال تعالى (٣٥: ٤٣ استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ومن الدعاء المرفوع « وامكر لي ولا تمكر علي » رواه أبو داود ويراجع تفسير آية آل عمران من الجزء الثالث وتفسير آية الأعراف من الجزء التاسع .

وأما قصة مكرهم الذى ترتب عليه هجرة المصطفى ﷺ وظهور الاسلام وخذلان الشرك ففيها روايات أوفاها رواية ابن اسحاق فى سيرته وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم وأبو نعيم والبيهقى فى دلائل النبوة عن ابن عباس (رض) بألفاظ متقاربة ، ننقل ماأورد السيوطى فى الدر المنثور منها عنه قال :

« إن نفرا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة واعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم منى رأى ونصح ، قالوا أجل فادخل ، فدخل معهم فقال : انظروا فى شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤاتيكم فى أمركم بأمره ، فقال قائل : احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ، زهير ونابغة ، فانما هو كأحدهم فقال عدو الله الشيخ النجدى لا والله ماهذا لكم برأى ، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم فانظروا فى غير هذا الرأى ، فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه فانه إذا خرج لم يضركم ماصنع وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه فانه إذا خرج لم يضركم ماصنع وكان أمره فى غيركم ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ماهذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن اليه ثم ليسيرن اليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم ، قالوا صدق والله فانظروا رأيا غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأى لا رأى غيره ، قالوا : وما هذا ؟ قال : نأخذ من كل قبيلة غلاما وسطا شابا نهداً ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلتموه تفرق دمه فى القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم ، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى القول ما قال الفتى لا أرى غيره وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام النبى ﷺ فأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم

فلم يبت رسول الله ﷺ فى بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك فى الخروج وأمرهم بالهجرة وافترض عليهم القتال فأنزل الله (أذن للذين يقاتلون ـ الآية) فكانت هاتان الآيتان أول ما أنزل فى الحرب وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه (وإذ يمكر بك الذين كفروا) الآية» اه وسائر خبر الهجرة معروف

ثم ذكر تعالى مكابرة من مكابرات هؤلاء المشركين المعاندين الماكرين قالها بعضهم فأعجبت أمثاله منهم فرددوها فعزيت إليهم على الإطلاق وهى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ المنزلة فى القرآن ، الذى يعجز عن مثله الثقلان ، فيما أودع من علم وحكمة وتشريع وقصص وبيان ، وماله من التأثير فى نفس كل إنسان ، بقدر ما أوتى من بلاغة وعقل وقلب ووجدان ﴿ قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ نقل هذا القول جمهور رواة التفسير المأثور عن النضر بن الحارث من بنى عبد الدار وعلل هذه الدعوى الكاذبة بما هو أكذب منها وقوله ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى قصصهم وأحاديثهم التى سطرت فى الكتب على علاتها، وما هو بوحى من عند الله تعالى . قال المبرد فى أساطير : هى جمع أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأثفية وأثافى وأحدوثة وأحاديث وفى القاموس: الأساطير الأحاديث لا نظام لها جمع أسطار وأسطير وأسطور وبالهاء فى الكل . وأصل السطر الصف من الشىء كالكتاب والشجر اهـ . قال المفسرون وكان النضر هذا يختلف إلى أرض فارس فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وكبار العجم ويمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والانجيل، كأنهم يعنون أن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم اشتبهت عليه بقصص أولئك الأمم فقال انه يستطيع أن يأتى بمثلها فما هى من خبر الغيب الدال على أنه وحى من الله : ولعله أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ، ولم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلقة ، وان محمداً ﷺ هو الذى افتراها ، فانهم لم يكونوا يتهمونه بالكذب كما نقل عن كبار طواغيتهم، ومنهم النضر بن الحارث ، وقد قال تعالى فى ذلك (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) بل كانوا يوهمون عامة العرب أنه اكتتبها وجمعها كما فى آية الفرقان (٢٥ : ٥ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) أى ليحفظها ولم يكن كبراء مجرمى قريش ولا أهل مكة يعتقدون هذا أيضاً

فانهم كانوا يعلمون أنه أمي لم يتعلم شيئاً ، بل تشاوروا في شيء يقولونه ليصدوا به العرب عن القرآن فكان هذا القول منه ، وقد كذبهم الله تعالى فيه فما استطاعوا له اثباتاً وكان النضر بن الحارث من أشدهم كفراً وعناداً ، وحرصاً على صد الناس عن القرآن ، وقد روى عنه أنه هو الذى نزل فيه قوله تعالى (٣١ : ٦ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً) إذ اشترى قينة جميلة كانت تغنى الناس بأخبار الأمم وغير ذلك لصرفهم عن سماع القرآن إليها وهو الذى نزلت فيه الآية التى بعد هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها وهى الدالة على منتهى الجحود والعناد على قول بعض الرواة

وهذا القول الذى قاله النضر لا يدل على أنه كان يرى من نفسه القدرة على معارضة القرآن فى أسلوبه أو بلاغته وتأثيره ، وهو من بلغاء قريش إذ لو قدر لفعل لانه كان من أحرصهم على تكذيبه ، بل هو طعن فى أخبار القرآن عن الرسل لتشكيك العرب فيه وصرفها عنه ، وقد حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا « افتراه » وقد يكون بعضهم اعتقد ذلك إذا كان نفى الله لتكذيبهم إياه خاصاً ببعضهم كالوليد بن المغيرة الذى قال لأبى جهل والاخنس وغيرهما حين دعوه لتكذيبه : إن محمداً لم يكن يكذب على أحد من الناس ، أفيكذب على الله ؟ وقد شمل التحدى بالقرآن هؤلاء المفترين عن اعتقاد أو غير اعتقاد إذ قال فى سورة يونس (١٠ : ٣٨ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أى بسورة مثله مفتراة كما صرح بالوصف فى سورة هود فقال (١١ : ١٣ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) الخ و بينا الفرق بين هاتين الآيتين وآية سورة البقرة فى التحدى عند تفسير هذه الأخيرة (راجع ص ١٩٢ و ١٩٣ من الجزء الأول تفسير)

ولقد كان زعماء طواغيت قريش كالنضر بن الحارث هذا وأبى جهل والوليد بن المغيرة يتواصون بالاعراض عن سماع القرآن ، كما يمنعون الناس منه ثم يختلفون أفرادا إلى بيت النبي ﷺ ليلا يستمعون إليه و يعجبون منه ومن تأثيره وسلطانه على العقول والقلوب ، وكان يلتقى بعضهم ببعض أحيانا فيتلاومون و يؤكد بعضهم لبعض القول بعدم العود إلى ذلك ، ومما كان من تأثير استماعهم أن قال الوليد بن المغيرة

فيه كلمته المشهورة فى وصفه ومنها « أنه يعلو ولا يعلى ، وأنه يحطم ماتحته » فخافوا أن تسمعها العرب فما زالوا يلحون عليه فى قول كلمة منفرة تؤثر عنه حتى إذا ما أقنعوه بوجوب ذلك أطال التفكير والتقدير والنظر والتأمل والعبوس والتقطيب حتى اهتدى إلى الكلمة المأثورة عن جميع مكذبى الأنبياء فى تسمية آياتهم سحراً فقال : سحر يؤثر ـ وقد تقدم بيان هذا فى بحث الاعجاز من تفسير آية البقرة فى التحدى .

---

(٣٢) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٣) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٤) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٥) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

بعد أن بين تعالى مكر قريش بالنبى ﷺ بين ما يدل على أن سببه الجحود والعناد فقال

﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ فى صحيح البخارى أن قائل هذا أبو جهل. قال الحافظ فى

شرحه من الفتح: الظاهر أنه أبو جهل وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به ورضى الباقون فنسب إليهم ، وقد روى الطبرانى من طريق ابن عباس أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث، قال فأنزل الله (سأل سائل بعذاب واقع) وكذا قال مجاهد وعطاء والسدى، ولا ينافى ذلك مافى الصحيح لاحتمال أن يكونا قالاه ولكن نسبته إلى أبى جهل أولى ، وعن قتادة قال : قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها .اهـ وقال القسطلانى فى شرحه له : وروى أن النضر بن الحارث لعنه الله لما قال (إن هذا إلا أساطير الأولين) قال النبى ﷺ « ويلك، إنه كلام الله » فقال هو وأبو جهل

(اللهم إن كان هذا) الخ وإسناده إلى الجمع إسناد مافعله رئيس القوم إليهم اهـ

والمعنى : اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو إليه هو الحق منزلا من عندك ليدين به عبادك كما يدعى محمد ﷺ فافعل بنا كذا وكذا - أى أنهم لايتبعونه وإن كان هو الحق المنزل من عند الله ، لأنه نزل على محمد بن عبدالله الذى يلقبونه بابن أبى كبشة ، بل يفضلون الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء أو بعذاب أليم آخر يأخذهم على اتباعه ، ومن هذا الدعاء علم أن كفرهم عناد وكبرياء وعتوّ وعلو فى الأرض ، لا لأن مايدعوهم إليه باطل أو قبيح أو ضار ، وروى أن معاوية قال لرجل من سبأ : ماأجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ؟ فقال : أجهل من قومى قومك حين قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) ولم يقولوا فاهدنا له » اهـ وما يحكيه القرآن من أقوال المشركين وغيرهم قد يكون بالمعنى دون نص اللفظ ، كما هو المعتاد بين الناس ، وقد يكون نظمه مع أدائه للمعنى بدون إخلال مما يعجز المحكى عنهم عن مثله ، وقد يتعين هذا فى الكلام الطويل الذى يتحقق بمثله الاعجاز

قال تعالى رداعليهم ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ أى وما كان من شأن الله تعالى وسننه ، ولا من مقتضى رحمته ولا حكمته ، أن يعذبهم وأنت أيها الرسول فيهم ، وهو إنما أرسلك رحمة للعالمين ونعمة لاعذابا ونقمة ، بل لم يكن من سنته أيضا أن يعذب أمثالهم من مكذبى الرسل وهم فيهم بل كان يخرجهم منهم أولا كما قال ابن عباس ﴿ وما كان الله معذبهم ﴾ هذا النوع من العذاب السماوى الذى عذب بمثله الأمم فاستأصلهم أو مطلقاً ﴿ وهم يستغفرون ﴾ أى فى حال هم يتلبسون فيها باستغفاره تعالى بالاستمرار روى الشيخان من حديث أنس قال أبوجهل (اللهم إن كان هذا هو الحق) ـ الآية ـ فنزلت (وما كان الله معذبهم) إلى قوله (ومالهم أن لا يعذبهم الله) الآية قال الحافظ فى شرح الحديث من الفتح روى ابن جرير من طريق يزيد بن رومان أنهم قالوا ذلك ثم لما أمسوا ندموا فقالوا غفرانك اللهم فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وروى ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن معنى قوله (وهم يستغفرون) أى من سبق له من الله أنه يؤمن . وقيل المراد من كان بين أظهرهم حينئذ

من المؤمنين ، قاله الضحاك وأبو مالك ويؤيده ما أخرجه الطبرى من طريق ابن أبزى قال « كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وكان من بقى من المسلمين بمكة يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله (وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) الآية . فأذن الله فى فتح مكة ، فهو العذاب الذى توعدهم الله تعالى » وروى الترمذى من حديث أبى موسى رفعه قال « أنزل الله على أمتى أمانين » فذكر هذه الآية قال « فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار » وهو يقوى القول الأول والحمل عليه أولى وان العذاب حل بهم لما تركوا الندم على ماوقع منهم و بالغوا فى معاندة المسلمين ومحاربتهم وصدهم عن المسجد الحرام والله أعلم اه ما أورده الحافظ ، ويرد عليه ان الله عذبهم بالقحط لما دعا به عليهم النبى ﷺ كما ثبت فى الصحاح حتى أكلوا الميتة والعظام ولم يرتفع إلا بدعائه ﷺ ولا يندفع إلا بتفسير العذاب الممتنع مع وجود الرسول والاستغفار بعذاب الاستئصال . ويؤيده أن ماعذب الله به قوم فرعون كان مع وجود موسى عليه السلام فيهم كما تقدم فى سورة الأعراف والآيات نزلت مع السورة بالمدينة

وأما قوله تعالى ﴿ وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ أى وماذا ثبت لهم مما يمنع تعذيبهم عادون عذاب الاستئصال عند زوال المانعين منه بعد والحال انهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو للنسك ، قيل المراد به صدهم النبى ﷺ وأصحابه عام الحديبية سنة ست والآية نزلت عقب غزوة بدر سنة اثنتين ، والمنع كان واقعاً منذ الهجرة ، ماكان يقدر مسلم أن يدخل المسجد الحرام فان دخل مكة عذبوه إذا لم يكن فيها من يجيره . والمراد بالعذاب هنا عذاب بدر إذ قتل صناديدهم ورءوس الكفر فيهم ، ومنهم أبو جهل ، وأسر سراتهم لا فتح مكة كما قال الحافظ — بل لم تكن الهجرة نفسها إلا بصد المؤمنين عنه فقد كانوا يؤذون من طاف أو صلى فيه منهم إذا لم يكن له منهم أو من غيرهم من الأقوياء من يمنعه ويحميه ، وقد وضعوا على ظهر الرسول ﷺ فرث الجزور وهو ساجد فلم يتجرأ أحد على رميه عنه إلا بنته فاطمة عليها السلام — ومنعوا أبا بكر من

الصلاة وقراءة القرآن فيه فبنى لنفسه مسجداً كان يصلي فيه ويجهر بالقرآن فصدوه عن الصلاة فيه أيضاً لأن النساء والأولاد كانوا يجتمعون لسماع قراءته المؤثرة فخافوا عليهم أن يهتدوا إلى الاسلام . وقد تقدم خبره في ذلك وإجارة ابن الدغنة له ثم اضطراره إلى رد جواره وهو من حديث الهجرة في البخاري (راجع ص ٥٥٥)

﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ أي مستحقين الولاية عليه لشركهم ومفاسدهم فيه كطوافهم فيه عراة الأجسام رجالا ونساء، ولما أجاب الله دعاء أبيهم ابراهيم بأن يجعل للناس أئمة من ذريته كما جعله إماماً لهم، أجابه الله تعالى بأن عهده بالإمامة لا ينال الظالمين، وأى ظلم أعظم شناعة وفساداً من الشرك؟ (إن الشرك لظلم عظيم) وكانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء[1] فقال تعالى ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ للشرك وسائر الفساد والظلم وهم المسلمون الصادقون وقد وجدوا . وهذا غاية التأكيد فانه بعد أن نفى ولاية المشركين عن بيت الله تعالى نفى كل ولاية على الاطلاق واستثنى منها ولاية المتقين من المسلمين وهم عدولهم وخيارهم لا من لا فضل لهم في أنفسهم ، وانما يدعون حق الولاية بأنسابهم . وقيل ان الضمير في الموضعين لله تعالى أي ولم لا يعذب الله هؤلاء المشركين بعد انتفاء سببي منع العذاب والحال انهم ليسوا أولياءه وأنصار دينه الذين لا يعذبهم ؟ وكأن سائلا يسأل : من أولياؤه تعالى إذاً ؟ فأجيب بصيغة الحصر بالاثبات بعد النفي : ما أولياؤه إلا المتقون أي الذين صارت التقوى العامة صفة راسخة فيهم، وتقدم ما يدل عليه هذا الاطلاق فيها من التفصيل في تفسير آية (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وما هي ببعيد . والقول الأول أقرب في هذا

(١) من العبر أن بعض شرفاء مكة الذين كانوا يتولون الحكم فيها إلى عهد قريب قال هذا القول الشركي الجاهلي بعينه في الأسكندرية معبراً عن عقيدة أهل بيته بمناسبة ذكر ما كان من منعهم لأهل نجد من أداء فريضة الحج، ونقل قوله مراسل بعض جرائد القاهرة من الاسكندرية في حديث له معه ، فكان انتزاع الله منهم الولاية على البيت بأيدي من كانوا يصدونهم عنه وهم أهل نجد كما سبق للنبي ﷺ والمؤمنين مع طغاة قريش الأولين . وقد آن للمتعالين بالإنساب أن يفقهوا أن غرورهم بها مخالف للقرآن والوجدان والجنان وطبع هذا الزمان .

السياق والثاني أخص و يؤيده فى حد ذاته قوله تعالى (١٠: ٦٢ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ٦٣ الذين آمنوا وكانوا يتقون) و يجوز الجمع بينهما

﴿ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ أنه لاحق لهم فى الولاية على هذا البيت ولا سيما بعد ظهور الاسلام ووجود أولياء الله الموحدين الصالحين ، وكانوا يدعون هذا الحق بنسبهم الابراهيمى وقد أبطله الظلم ، و بقوتهم فى قومهم و إن كانت إلى ضعف ، أو لايعلمون أنهم ليسوا أولياء الله عز وجل ، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين فهم الآمنون من عذابه ، بمقتضى عدله فى خلقه ، والحقيقون بالولاية على بيته ، على ماأعد لهم من الثواب والنعيم بفضله ، كما صرحت به آياته فى كتابه ، وقد أسند هذا الجهل إلى أكثرهم إذ كان فيهم من لايجهل سوء حالهم فى جاهليتهم وضلالهم فى شركهم ، وكونه لايرضى الله تعالى ، فان امتنع رؤساؤهم من الاسلام كبرا وعنادا ، فقد كان فيهم من يكتم إيمانه خوفا من الفتنة ، و يتربص الفرصة لاظهاره بالاستعداد للهجرة ، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة ، وللتفاوت فى الاستعداد كان يظهر المرة بعد المرة والناس يطلقون الحكم فى مثل الحال التى كانوا عليها على الجميع و يقولون إن القليل لاحكم له إن وجد فكيف ونحن لا نعلم بوجوده؟ ولكن الله تعالى لايخفى عليه شىء ولا يقول إلا الحق ، ومثل هذا الحكم على أكثر الأمم والشعوب أو استثناء القليل منهم بعد إطلاق الحكم عليهم ، هو من دقائق القرآن فى تحرير الحق ، وهو مكرر فى مواضع من عدة سور ، وسبق تنبيهنا لهذا فى تفسير ماتقدم منها .

هذا و إن جماهير المسلمين فى أكثر بلادهم صاروا فى هذا العصر أجهل من مشركى قريش فى ذلك العصر بمعنى ولاية الله وأوليائه ـ سواء فى ذلك ولاية الحكم والسلطان وهى الامامة العامة ، وولاية التقوى والصلاح ، وهى الامامة الشخصية الخاصة ، وجهلهم بهذه أعم وأعمق ، فالولاية عندهم تشمل المجانين والمجاذيب الذين ترتع الحشرات فى أجسادهم النجسة ، وثيابهم القذرة ، و يسيل اللعاب من أشداقهم الشرهة ، وتشمل أصحاب الدجل والخرافات ، والدعاوى الباطلة للكرامات ، والشرك بالله بدعاء الأموات ، ومن أدلتهم عليها مايتخيلون من رؤى الأنبياء والاقطاب فى المنام وما يزعمون من تلقيهم عنهم ماتنبذه شريعة المصطفى عليه السلام ، حتى صار ماهم

عليه دين شرك منافيا لدين الاسلام، فعليك بمطالعة كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لشيخ الاسلام ابن تيمية ومن أولى منه بمثل هذا الفرقان ؟

ثم عطف على الحكم عليهم ما هو حجة على صحته وهو بيان حالهم في أفضل ما بنى البيت لأجله وهو الصلاة ، إذ كان سوء حالهم في الطواف عراة معروفا لا يجهله أحد ، أو في العبادة الجامعة للطواف والصلاة فقال ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ من المعلوم أن البيت إذا أطلق معرفا انصرف عندهم إلى بيت الله المعروف بالكعبة والبيت الحرام على القاعدة اللغوية في انصراف مثله إلى الأكمل في جنسه كالنجم للثريا وهي أعظم النجوم هداية . روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق . وقال المكاء : الصفير والتصدية التصفيق، وقال : كان أحدهم يضع يده على الأخرى و يصفر . وروى عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها و يصفقون ، وروى الطستي فيما روى من أسئلة نافع بن الأزرق له أنه قال له أخبرني عن قوله عز وجل (إلا مكاء وتصدية) قال المكاء صوت القنبرة والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي بين الحجر (الأسود) والركن اليماني – يعني أنه يتوجه إلى الشمال ليجمع بين الكعبة و بيت المقدس في الاستقبال – فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله و يصيح أحدهما كما يصيح المكاء والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسدا عليه صلاته . قال (نافع) وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت حسان بن ثابت يقول :

تقوم إلى الصلاة إذا دعينا وهمتك التصدي والمكاء

وفي بعض كتب اللغة أن المكاء طائر أبيض، وعن سعيد بن جبير : كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف يستهزئون و يصفرون فنزلت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) وقال الراغب: مكا الطير يمكو مكاء : صفر . وذكر أن المكاء في الآية جار مجرى مكاء الطير في قلة الغناء . قال والمكاء (بالضم والتشديد) طائر ، ومكت استه صوتت اه . ويحتمل أن هذه الفعلة القبيحة كانت تقع منهم

عمداً أيضا فذكر اللفظ المشترك ليدل عليها ولم يذكر اللفظ الذى وضعها وحدها نزاهة ، وقال فى التصدية : كل صوت يجرى مجرى الصدى فى أن لاغناء فيه اه

وجملة القول أن صلاتهم وطوافهم كان من قبيل اللهو واللعب سواء عارضوا بذلك الرسول ﷺ فى طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته أم لا

قال تعالى ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فسر الضحاك العذاب هنا بما كان من قتل المؤمنين لبعض كبرائهم وأسرهم لآخرين منهم يوم بدر أى وانهزام الباقين مكسورين مدحورين . وفيه إشارة إلى قولهم (أو ائتنا بعذاب أليم) كأنه يقول : فذوقوا العذاب الذى طلبتموه ، وما كان لكم أن تستعجلوه .

---

(٣٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٧) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

نزل هذا فى استعداد قريش لغزوة بدر وما سيكون من استعدادهم لغيرها بعدها . ويشمل اللفظ بعمومه ماسيكون مثل ذلك من الكافرين فى كل زمن . ذكر رواة التفسير عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم أن هذه الآية الأولى نزلت فى أبي سفيان وما كان من انفاقه على المشركين فى بدر ومن اعانته على ذلك فى غزوة أحد وغيرها ، ففي بعض الروايات أنه لما نجا بالعير بطريق البحر إلى مكة مشى ومعه نفر من المشركين يستنفرون الناس للقتال ، فجاءوا كل من كان لهم تجارة فقالوا يامعشر قريش ان محمداً قد وتركم وقتل رجالكم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثاراً — ففعلوا . وقال سعيد بن جبير : إنه استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بنى كنانة يقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من

وجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن عصابة ... ثلاث مئين ان كثرنا فأربع

وقال الحكم بن عتيبة فى الآية : نزلت فى أبى سفيان أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الأوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالا ، هذا على ما كان معروفا من بخل أبى سفيان كما قالت زوجته يوم المبايعة لرسول الله ﷺ

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ أى عن الاسلام واتباع خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ﴿فسينفقونها﴾ فى سبيل الشيطان صداً وفتنة وقتالا ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ وندما وأسفا لذهابها سدى ، وخسرانها عبثا ، إذ لا يطيعهم ممن أراد الله هدايتهم أحد ﴿ثم يغلبون﴾ المرة بعد المرة ، و ينكسرون الكرة بعد الكرة ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ أى يساقون يوم القيامة إليها دون غيرها كما أفاده تقديم الظرف على متعلقه . هذا إذا أصروا على كفرهم حتى ماتوا عليه ، فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما . ومن العبرة فى هذا للمؤمنين أنهم أولى من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لأن لهم بها من حيث جملتهم سعادة الدارين ، ومن حيث أفرادهم الفوز باحدى الحسنيين [1] هكذا كان فى كل زمان قام المسلمون فيه بحقوق الاسلام والايمان ، وهكذا سيكون ، إذا عادوا إلى ما كان عليه سلفهم الصالحون . والكفار فى هذا الزمان ينفقون القناطير المقنطرة من الأموال للصد عن الاسلام ، وفتنة الضعفاء من العوام ، بجهاد سلمى ، أعم من الجهاد الحربى ، وهو الدعوة إلى أديانهم ، والتوسل إلى نشرها بتعليم أولاد المسلمين فى مدارسهم ، ومعالجة رجالهم ونسائهم فى مستشفياتهم . والمسلمون مواتون ، يرسلون أولادهم إليهم ولا يبالون ما يعملون (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ يعنى أن الله تعالى كتب النصر والغلب والفوز لعباده المؤمنين المتقين ، والخذلان والحسرة لمن يعاديهم و يقاتلهم من الكافرين للصدّ عن سبيل الله الذى استقاموا عليه ، وجعل هذا جزاء كل من الفريقين

ماداما على حالهما ، فاذا غيراما بأنفسهما غير الله مابهما . جعل هذا جزاءهما فى الدنيا وجعل جهنم مأوى للكفار وحدهم فى الآخرة ، لأجل أن يميز الكفر من الايمان ، والحق والعـدل من الجور والطغيان ، فلن يجتمع فى حكمته سبحانه الضدان ، ولا يستوى فى جزائه النقيضان (٥: ١٠٣ قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولى الألباب) الخبيث والطيب المعنويان فى حكم العقلاء والفضلاء ، كالخبيث والطيب الحسيين فى حكم سليمى الحواس ولا سيما الشم . وقد سبق لنا تحقيق هذا المعنى فى تفسير هـذه الآية من سورة المائدة [١] وفى تفسير (٣: ١٦٩ ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب [٢]) قرأ حمزة والكسائى (يميز) بالتشديد من التمييز وقرأها الجمهور بالتخفيف . والمراد بالميز والتمييز ما كان بالفعل والجزاء كما قلنا لابالعلم فهو بكل شىء عليم ، وهـذا التمييز الألهى بين الأمرين فى الاجتماع البشرى يوافق مايسمى فى عرف هـذا العصر بسنة الانتخـاب الطبيعى وبقـاء أمثل الأمرين المتقابلين وأصلحهما . وسنن الله فى الدنيا والآخره واحدة كماقال أبو حامد الغزالى (رح) وإن جهل ذلك الخبيثون المتكلون على الشفاعات والمغترون بالالقاب الدينية من كل ملة وأمة . فالخبيث فى الدنيـا خبيث فى الآخرة لاينفعه شىء ، ولذلك قال ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا ﴾ أى ويجعل سبحانه الخبيث بعضه منضما متراكبا على بعض بحسب سنته تعالى فى اجتماع المتشاكلات ، وانضمام المتناسبات ، وائتلاف المتعارفات ، واختلاف المتناكرات ، يقال ركمه : إذا جمع بعضه إلى بعض ومنه (سحاب مركوم) ﴿ فيجعله فى جهنم ﴾ يجعل أصحابه فيها يوم القيامة ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ التامو الخسران وحدهم ، لأنهم خسروا أموالهم وأنفسهم

جاء مصر القاهرة من عهد قريب صاحب صحيفة سورية دورية من دعاة الالحاد المتفرنجين ، فأقام فيها أياما قلائل استحكمت فيها له مودة أشهر ملاحـدة مصر ودعاة الزندقة والاباحة فيها ، فعاد ينوه بهم ، وينشر دعايتهم ، و يزعم أنهم

دعامة الترقى والعمران ، بالدعاية إلى تجديد ثقافة لمصر تلف ما كان لها من ثقافة العرب والاسلام ، والحق أن هؤلاء كلهم هدامون للعقائد والفضائل وجميع مقومات الأمة ومشخصاتهم ، وليسوا بأهل لبناء شيء لها ، إلا إذا سميت الزندقة وإباحة الأعراض وتمهيد السبيل لاستعباد الأجانب لأمتهم بناء مجد لهـا . وقد ذكرنى ذلك رجلا من قرية صالحة مر به رجل من معارفه كان فى إحدى المدن فطفق يسأله عن المساجد ومدارس العلم فيها وعن الصالحين من أهلها . فأجابه الرجل : أعن هذا تسأل مثلى ؟ سلنى عن أهل الحانات والمواخير ، فانى بها وبهم عليم خبير (وكذلك نولى بعض الظالمين بما كانوا يكسبون)

---

(٣٨) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ

لما بين الله تعالى حال الكفار الذين يصرون على كفرهم وصدهم عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين وما لهم فى الدنيا والآخرة قفى عليه ببيان حكم الذين يرجعون عنه ويدخلون فى الاسلام ، لأن الأنفس صارت تتشوف إلى هذا البيان وتتساءل عنه بلسان الحال أو المقال ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار أى لأجلهم وفى شأنهم ، فاللام للتبليغ . إن ينتهوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالصد عن سبيل الله والقتال لأوليائه المؤمنين بالدخول فى الإسلام ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ منهم من ذلك ومن غيره من الذنوب ، يغفر الله لهم ذلك فى الآخرة فلا يعاقبهم على شيء منه ، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون ما يخصهم من إجرامهم فلا يطالبون قاتلا منهم بدم ، ولا سالبا أو غانما بسلب أو غنم ،

«قال فلما جعل الله الاسلام فى قلبى أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يدك أبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدى قال: مالك ؟ قلت أردت أن أشترط قال : تشترط بماذا ؟ قلت :أن يغفرلى ، قال:أ ماعلمت ياعمرو أن الإسلام يهدم ماكان قبله وان الهجرة تهدم ماكان قبلها وأن الحج يهدم ماكان قبله ؟ » ﴿ و إن يعودوا ﴾ إلى العداء والصد والقتال ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ أى تجرى عليهم سنته المطردة فى أمثالهم من الأولين الذين عادوا الرسل وقاتلوهم ، وقال مجاهد : فى قريش وغيرها يوم بدر والأمم قبل ذلك، أقول وهى السنة التى عبر عنها بمثل قوله (٥٨ : ٢٠ أن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ٢١ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقوله (٤٠ : ٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) فاضافة السنة إلى الأولين لملابستها لهم وجريانها عليهم

﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ أى وقاتلهم حينئذ أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة فى الدين بالتعذيب وضروب الايذاء لأجل تركه ، كما فعلوا فيكم عند ماكانت لهم القوة والسلطان فى مكة حتى أخرجوكم منها لاجل دينكم ثم صاروا يأتون لقتالكم فى دار الهجرة ، وحتى يكون الدين كله لله لا يستطيع أحد أن يفتن أحداً عن دينه ليكرهه على تركه إلى دين المكره له فيتقلده تقية ونفاقا ـ ونقول ان المعنى بتعبير هذا العصر : و يكون الدين حراً ، أى يكون الناس أحراراً فى الدين لايكره أحد على تركه اكراها ، ولايؤذى و يعذب لاجله تعذيبا ، و يدل على العموم قوله تعالى (٢ : ٢٥٦ لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) وسبب نزول هذه الآية أن بعض الانصار كان لهم أولاد تهودوا وتنصروا منذ الصغر فأرادوا إكراههم على الاسلام فنزلت فأمرهم النبى (ص) بتخييرهم، ولكن المسلمين انما يقاتلون لحرية دينهم ، إن لم يكرهوا عليه أحداً من دونهم، وما رضى الله ورسوله فى معاهدة الحديبية بتلك الشروط الثقيلة التى اشترطها المشركون إلا لما فيها من الصلح المانع من الفتنة فى الدين المبيح لاختلاط المؤمنين بالمشركين وأسماعهم القرآن إذ كان هذا إباحة للدعوة إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ولرؤية المشركين حال المؤمنين ومشاهدتهم أنها خير من حالهم ، ولذلك كثر دخولهم فى

الاسلام بعدها . وسمى الله هذا الصلح فتحاً مبينا. وأما ورود الحديث بقتل المرتد فله وجه آخر من منع العبث بالاسلام كان له سبب سياسى اجتماعى بيناه فى موضعه

هذا هو التفسير المتبادر من اللفظ بحسب اللغة العربية وتاريخ ظهور الاسلام، وروى عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك قال ابن كثير وكذا قال أبو العالية ومجاهد والسدى ومقاتل وزيد بن أسلم . أقول: عليه جمهور مؤلفى التفاسير المشهورة من الخلف قالوا وقاتلوهم حتى لا يبقى شرك وتزول الاديان الباطلة فلا يبقى إلا الاسلام ولذلك قال بعضهم: لم يجىء تأويل هذه الآية بعد وسيتحقق مضمونها إذا ظهر المهدى ، فانه لا يبقى على ظهر الأرض مشرك أصلا على ماروى عن أبى عبد الله (رض) كتب هذا الآلوسى وهو لا يصح أصلا ولا فرعا ، ويؤيد الأول ماروى البخارى عن عبد الله بن عمر «أن رجلا جاءه فقال ياأبا عبد الرحمن ألا تسمع ماذكر الله فى كتابه (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) إلى آخر الآية ، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال ياابن أخى أعيَّر بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلىّ من أن أعير بهذه الآية التى يقول الله تعالى فيها (ومن يقتل مؤمنا متعمداً) الى آخرها . قال فان الله يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الاسلام قليلا فكان الرجل يفتن فى دينه ، اما يقتلوه وإما يوثقوه حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة» الخ فابن عمر رضى الله عنهما يفسر الفتنة فى آية الانفال هذه بما قلنا إنه المتبادر منهما ويقول: إنها قد زالت بكثرة المسلمين وقوتهم فلا يقدر المشركون على اضطهادهم وتعذيبهم ولو كانت بمعنى الشرك لما قال هذا فان الشرك لم يكن قد زال من الأرض ولن يزول (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الآية

وقد ذكر هذه الرواية ابن كثير فى تفسير الآية وزاد عليها روايات عنه أخرى بمعناها منها أنه جاءه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا إن الناس قد صنعوا ماترى وانت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله (ص) فما يمنعك أن تخرج ؟ قال يمنعنى أن الله حرم علىّ دم أخى المسلم . قالا أولم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكونوا فتنة ويكون الدين كله لله؟) قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون ان تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله » وفى رواية زيادة «وذهب الشرك» وذكر

أيضاً أن رجلا أورد الآية على أسامة بن زيد وسعد بن مالك (رض) فقالا قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . وهذا وماقبله من رواية ابن مردويه فى تفسيره وقال محمد بن اسحق: بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لاتكون فتنة) حتى لايفتن مسلم عن دينه .

﴿فان انتهوا﴾ أى فان انتهوا عن الكفر وعن قتالكم ﴿فان الله بما يعملون بصير﴾ فيجازيهم عليه بحسب علمه . وقرأ يعقوب (تعملون) بالتاء الفوقيـة بالخطاب . وفى سورة البقرة (٢ : ١٩٣ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) ﴿ وان تولوا ﴾ وأعرضوا عن سماع تبليغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ أى فأيقنوا أن الله تعالى هو ناصركم ومتولى أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخافوا فهو ﴿ نعم المولى، ونعم النصير ﴾ هو، فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره .

فان قيل : إن انتصار المسلمين فى القرون الأولى كان لأسباب اجتماعية فلما تغيرت هذه الأسباب خانهم النصر حتى فقدوا أكثر ممالكهم ، وإننا لنرى الأمم ينتصر بعضها على بعض بالاستمداد المادى من سلاح وعتاد بالنظام الحربى الذى جهله المسلمون بغرورهم بدينهم واتكالهم على خوارق العادات ، وقراءة الأحاديث والدعوات ، ولذلك تركه ساسة الترك وأسسوا لأنفسهم حكومة مدنية إلحادية تناهض الإسلام ، ويوشك أن يتبعهم ساسة المصريين والافغان .

قلنا : إن ماذكره المعترض- وهو واقع لامفروض- حجة على المسلمين المتأخرين لاعلى الإسلام ، فالإسلام يأمر باعداد القوى المادية ويضيف إليها القوى المعنوية، ومنها بل أعظمها الإيمان بالله ودعاؤه والاتكال عليه باتفاق العقلاء حتى الماديين منهم، ولم يشرع للناس الاتكال على خوارق العادات ، حتى فى أيام الرسول المؤيد بالآيات البينات ، ولما غُلب المسلمون فى وقعة أحد لتقصيرهم فى الأسباب وتعجبوا من ذلك أنزل الله تعالى (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) وقد وفينا هذا البحث حقه فى تفسير هذه الآية وأمثالها من الآيات التى نزلت فى تلك الغزوة من سورة آل عمران وسنعود إليه فى تفسير آية (وأعدوا لهم ما استطعتم

من قوة) وغيرها من هذه السورة قريباً إن شاء الله تعالى .

وما أضعف الترك والمصريين وغيرهم من شعوب المسلمين إلا تركهم لهداية القرآن في مثل هذا وغيره من اقامة العدل والفضائل وسنن الله في الاجتماع التي انتصر بها السلف الصالح ، واستبداد حكامهم فيهم ، وانفاق أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الاسراف في شهواتهم ، وقد اتبع الأفرنج تعاليم الإسلام في الاستعداد للحرب وفي غير ذلك من سنن الله في العمران ، فرجحت بهم كفة الميزان ، وسيتبعونها في الأمور الروحية ، بعد أن تبرح بهم التعاليم المادية والبلشفية ، ويتفاقم فسادها في أممهم ، حتى تخرب بيوتهم بأيديهم ، من حيث فقد المسلمون الجغرافيون النوعين كليهما من تعاليمه ، وقام الجاهلون منهم يحتجون عليه ، بما أفسدوا وابتدعوا فيه ونسبوه إليه ، وهو حجة عليهم وعلى جميع الخلق .

وأما الأمور الاجتماعيــة التي مكنت سلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرها من الشعوب فهي أكبر حجة للاسلام أيضاً ، إذ ليست تلك الأمور إلا ما كان أصاب تلك الشعوب من الشرك وفساد العقائد والآداب ، ومساوىء الاخلاق والعادات ، من فشو الفواحش والمنكرات ، وسلطان البدع والخرافات ، التي جاء الإسلام لازالتها ، واستبدال التوحيد والفضائل بها ، وبهذا وحده نصرهم الله على الأمم كلها ، إذ لا خلاف بين أهل العلم والتاريخ في أن العرب كانوا دون تلك الشعوب كلها في الاستعداد الحربي المادي ، فلم يبق لهم ما يمتازون به إلا اصلاح الإسلام المعنوي . ولما أضاع جماهير المسلمين هذه العقائد والفضائل ، واتبعوا سنن تلك الأمم من البدع والرذائل — وهو ما حذرهم الإسلام منه — ثم قصروا في الاستعداد المادي للنصر في الحرب ففقدوا النوعين منه ، عاد الغلب لغيرهم عليهم .

فنسأله تعالى هداية هذه الأمة ، وكشف ما هي فيه من غمة ، لتستحق نصره باتباع شرعه ، ومراعاة سننه في خلقه ، وبتقواه المثمرة للفرقان في العلوم والأحكام والأعمال ، فيعود لها ما فقدت من الملك والسلطان اللهم آمين .

﴿ تم تفسير الجزء التاسع كتابة وتحريراً بفضل الله وحوله وقوته ﴾

(في أواخر شهر شعبان سنة ١٣٤٦ ونسأله الاعانة والتوفيق لاتمام ما بعده)

ولله الحمد والشكر أولا وآخراً

فهرس

الجزء التاسع

من

تفسير القرآن الحكيم

الشهير بتفسير المنار

يراعى فى هذا الفهرس : —

١ — أنه قد روعى الترتيب الهجائى فى الكلمة الثانية والثالثة وقدم المعرف وأهمل اعتبار واو العطف وحرف الجر

٢ — أن الأصفار التى عن يسار الأرقام تشير إلى إتمام أو إعادة المعنى فى الصفحة التالية أو ما بعدها

٣ — أن الترتيب على حسب النطق لا المادة

(تنبيه) أرقام عدد الآيات فى الشواهد تختلف باختلاف عد المصاحف فمن لم يجد الآية موافقة لمصحفه وجدها بالقرب من عدده

﴿ الطبعة الثانية : أصدرتها دار المنار ١٣٦٧ هـ ﴾

فهرس عام للجزء التاسع من تفسير المنار

(تم الفهرس)